

الدكتور إبراهيم بيضون



الحجاز والدولة الإسلامية

دراسة
في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية
في القرن الأول الهجري



الحجَّاز والدولة الإسلامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء - شارع اميل اده - نهاية سلام

هاتف: ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣ / ٦٢١١ بيروت - لبنان

الحجاز والدولة الإسلامية

دراسة
في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية
في القرن الأول الهجري

الأهداء

الى هيام

مقدمة

« لقد حاولت جاهداً إقامة حوارية بين أطراف المسائل كلها ، بحيث يبدو الحجاز مع سياق العملية التاريخية خلال القرن الأول ، في الضوء المناسب والمقارب لما كان يجري في تلك الحقبة الزمنية المهمة »

يكتسب الحجاز أهمية خاصة في التاريخ الاسلامي ، ليس من موقعه كمنطلق للدعوة فحسب ، ولكن أيضاً كمقر للدولة العربية الاسلامية في عقودها الاولى ، حيث سيكون لهاتين الخاصيتين أثر كبير في مجرى التطورات السياسية الهامة ، سواء في الحجاز أم في الامصار ، خلال القرن الهجري الاول .

وإذا أضفنا الى ذلك الخلفية التاريخية ، المتصلة جذورها بعصر التجارة الملكية خلال القرن السادس الميلادي ، مع استئثار عاصمة الحجاز الأولى بآئين من أبرز عناصر الاستقطاب : المنصر الديني (الكعبة) والمنصر الاقتصادي (الايلاف) ، لأدركنا أهمية الدور الذي شغله هذا الاقليم ، عبر لحظة ارتجاج هزت المنطقة الواسعة ، وأفضت بها الى منعطف تاريخي حاسم ، سقطت معه المفاهيم القديمة وموازين الصراع التقليدي في ذلك الوقت .

ولعل الظروف المبكرة ، المرافقة لانطلاقة الدعوة في الحجاز ، بدءاً من « الهجرة » وما اقتضته من تحالف وتعايش بين « المهاجرين » و « الانصار » ، شكّلت الارضية الاجتماعية التي قامت عليها دولة الاسلام الاولى ، متضمنة ملامحها المستقرة التي عكست تركيب الدولة نفسها ، حتى بعد انتقالها الى المحاور الوسطية المستجدة في العراق والشام . على أن هذه الحقبة التي شهدت تألق الحجاز وازدهاره ، كان لها وجه آخر غير ايجابي على المدى البعيد ، حيث قادت حروب الفتوح ، الآلاف من سكان هذا الاقليم وغيره في شبه الجزيرة الى ساحات المعارك ، وإلى الاستقرار في الامصار ، بحيث أسفر ذلك ، وعبر مرحلة زمنية سريعة ، عن ولادة صيغ جديدة في التعامل ، سواء بين السلطة والمجتمع أو بين الدولة والقبيلة ، كانت في الحقيقة نتاج جهود مؤوية ، تجسدت صورتها المثالية في قيام

دولة كدولة الراشدين ومجتمع كمثل المجتمع الراشدي ، وزعامة كذلك التي تجلّت في الخلفاء الرّوّاد من المسلمين .

وكان هذا التفرّغ البشري الذي تعرض له الحجاز ، مقدمة لتفريغ عسكري وآخر مياسي ، بحيث فضاءت أهميته وتقلّص دوره منذ منتصف العقد الهجري الثالث . . حتى إذا اقتربت نهاية القرن الاول أو كانت ، تلاشت هذه الاهمية وازداد ضمور هذا الدور ، ليبقى الحجاز في المضمون ، مجرد بداية وغودج ، ظلّت السلطة تتمسك بها كنظرية ، ولكن من دون العودة الفعلية اليها . أي أن كلا الحاكمين والمحكومين ، ارتبط بهما لأغراض وأهداف مختلفة ، أحدهما عن الآخر .

ولا بد من الاعتراف أن دراسات كثيرة جرت حول حجاز العصر المكيّ (الجاهلية) ، وحجاز النبوة والدعوة ، فضلاً عن حجاز الراشدين ، ولكن الابحاث المتعلقة بـ « حجاز التحول » و « حجاز انتقال السلطة » ، ظلت منقوصة وغير ملحوظة الاهتمام ، ولم تأخذ الطابع التخصصي الشمولي للأوضاع السياسية والاجتماعية لهذا الاقليم ، على نحو متكافئ مع تلك المرحلة الدقيقة والفاصلة في تاريخه الاسلامي .

وإذا كنّا قد تعرضت بإسهاب لدراسة التكوينات الاولى للحجاز ، التي لا يمكن فصلها عن التطور التاريخي المتّوجّ بظهور الدعوة في هذا الاقليم ، فأنني سأتوقف عند بعض القضايا ذات المضمون السياسي حيناً أو الاقتصادي - الاجتماعي حيناً آخر وذلك كمدخل نقاشي لهذه الدراسة .

ان توجه الدعوة الاسلامية نحو قريش خلال فترة طويلة من النضال والمعاناة ، حيث وجد النبي في مكة مفتاح السيطرة على شبه الجزيرة ، اكسب دعوته ملامحها المبكّرة كحركة أكثر التصاقاً بمراكز الاستقرار ، وذلك على حساب علاقتها بالبدواة التي ظلت حذرة وغير مستقرة . أي أن النبي لجأ الى محاولة احتواء العصبية القبلية دون الغائها ، الذي كان على جانب من الصعوبة ، بحيث جاءت الاشارة الى « طوائف » في الصحيفة دون « البطون » . ومن هنا كان تطوّر النبي الى الطائف ومن ثم الى يثرب ، بدلاً أكثر ملائمة وصلاحيّة من مكة ، كنواة لدولة جعل منها التكوين السكاني وطبيعة الانتاج المتنوع أكثر عرضة للمؤثرات الدينية والاجتماعية .

ومن هذا المنظور ، فقد تناول الصراع بعد هجرة النبي البدواة الحجازية عامة ، حيث نافست المدينة مكة في الاستقطاب الحضري ، منافسة الدولة لـ « الملأ » ، بقدر ما تميّزت به الاولى عن الثاني في المضمون السياسي والاجتماعي . فبينما تحولّت الدولة الى

دعوة للاستقرار المرتبط بالعقيدة ، ظل « الملأ » متسماً بالطابع البدوي ، سواء على مستوى الأقلية الحاكمة التي مثلها « شيوخ » قريش ، أو في العلاقة الاقتصادية والدينية مع البدو الذين شكّلوا أهم عناصر الاستقطاب في مكة وتجارها الداخلية ، بينما تصبح تدريجياً المهجرة إلى المدينة « هجرة » إلى التحضر المقرون بالجماعة (١) .

ولقد بدا واضحاً منذ قيام دولة النبي ، أن أكثر ما استهدفت هذه الأخيرة « نظام الإيلاف » ، الذي لم يستطع الصمود أمام « الصحيفة » . . وبالتالي فإن الصراع يتمركز مع بداياته على خط القوافل المكيّة ، بحيث جاء انتصار « بدر » توجيهاً لحرب سرايا ، وحلقة أولى في الحصار الاقتصادي الذي هدّد « الإيلاف » . . من هنا نقرر استمرار أبي جهل التاجر المخزومي الكبير على الخروج برجاله من مكة ، ليس لانفاذ قافلة أبي سفيان فقط ، ولكن لاستعادة هيبة قريش وأمن التجارة المكيّة على طريق الشام . ومن الحصار الاقتصادي إلى الحرب السجالية ، إلى الحديدية التي نقلت الصراع لأول مرة إلى داخل مكة ، كان النبي يقترب من النصر الذي تكرّس بسقوط مكة و « إيلافها » ، ولكن من دون قريش التي لم تخرج سالمة فقط من ذلك الصراع ، بل متعايشة مع النظام الجديد وقريبة من مصدر القوار فيه .

وهكذا جاء انفراد مكة بـ « الفتح » ، دون العمليات العسكرية السابقة أو اللاحقة في الحجاز ، مدخلاً إلى معادلة جديدة وفريدة في هذا الأقليم ، وهي سقوط مكة من دون قريش التي استمرت حاکمة للدولة الجديدة، سواء مع الفريق المهاجر في العهد الراشدي أم غير المهاجر في العهد الأموي ، حيث جاء العفو عن أبي سفيان رغم تحجيمه ، ليعطي « الشرعية القرشية » في الزعامة ، امتداداً في البيت الأموي منذ ذلك الوقت . كما تكرر في ظل هذه المعادلة سقوط (الانصار) من دون (المدينة) التي ظلت عاصمة الدولة الإسلامية ، بينما تقلص نفوذهم وتضاءلت قوتهم المادية والمعنوية بعد وفاة النبي ، دون أن يفارقهم الشعور بالنقص وتحولهم إلى أقلية أمام المهاجرين الذين دخلوا (المدينة) ومعهم الزعامة والثراء والخبرة التجارية .

وكانت ذروة الفشل في « الصراع الجديد » بين الانصار والمهاجرين في السقيفة ، التي جاء اختيارها كمكان لطرح مشكلة الخلافة ، معبراً عن العصبية الانصارية الجديدة (الاقليمية) بعد أن أصبح المسجد المكان الطبيعي لمثل هذه الاسور. على أن هذه المبادرة جاءت لمصلحة المهاجرين الذين وجدوا فيها الفرصة والمسوّغ معاً للبحث في هذه المسألة ،

(١) راجع في هذا السبيل قولاً منسوباً لعمر غطاطيا البدوة الحجازية : « لا أرزقكم حتى أرزق أهل الحاضرة فلان يد الله مع الجماعة » .

متكثلين بتياراتهم المختلفة حول نقطة مبدئية - رغم التفاوت في الدوافع - وهي قرشية الخلافة ، التي تكرست بغير صعوبة منذ ذلك الحين .

على أن الخلافة - كمؤسسة ونظام - وقعت في المأزق التشريعي الذي لم يفارقها بعد ذلك ، بحيث كان على القيمين عليها أن يجهدوا لها التنظير الاسلامي المتطابق ، في ظل ما سُمي بالشورى . وكانت تلك أزمة السلطة الحقيقية في الاسلام ، ان النظرية جاءت بفعل الامر الواقع ودون انسجام فعلي بين الشكل والمضمون .

ولم يكن من السهولة تجاوز هذه الازمة التي أدت الى ظهور أول جبهة سياسية في دولة الاسلام (الانصار) ، لولا قيام حركة (الردة) التي كانت لها رغم خطورتها ايجابيتان : الأولى : تضيق دائرة الصراع السياسي مع تراجع التحرك المفترض للمعارضة .

الثانية : ولادة قوة عسكرية تابعة للخلافة ، خاضت تجربة رائدة وحرباً واسعة النطاق ومتجددة الاساليب ، مما أهلها للقيام بدورها التاريخي في حركة الفتوح .

وهكذا تجاوزت الخلافة مشكلة الانصار في داخل المدينة ومشكلة البداوة في خارجها ، حيث تم التعامل مع الأولى بموقف قرشي موحد ، ادّى الى تحجيم هؤلاء وإبتعادهم عن مراكز النفوذ ، وبالتصدي لـ « قيم » الثانية (السيادة ، الاستقلالية ، الحرية الشخصية ، وغيرها من الرموز البدوية) ، التي أصبحت نوعاً من الخروج على النظام والجماعة المتمثلين بالدولة .

وكان استقرار السلطة في (المدينة) خلال العقود الثلاثة الأولى ، محصلاً في الحقيقة لنوعين من التوازن ، سواء على صعيد البطون القرشية مع بعضها من جهة ، أو بينها وبين (الانصار) من جهة أخرى . وإذا كان التوازن القرشي - الانصاري على مستوى المدينة ، قد اثبت تماسكه لحين ما ، فان التوازن القرشي - القرشي على المستوى الحجازي ، قد سقط في حلبة الصراع مع السلطة الذي انفتح على مصراعيه مع مقتل الخليفة عثمان . على أن (الانصار) جسدوا في تلك المرحلة ، الصورة الأكثر واقعية للحجاز ، بكل ما تحمله من تطورات كانت أشد انعكاساً على أوضاعهم السياسية والاقتصادية . وإذا كان العصر الذهبي هؤلاء مترامناً مع عهد النبي وتحديدأ بين الهجرة والفتح (مكة) ، فان الشعور بالغربة في مدينتهم أخذ يتجلى منذ الفشل الذي لحق بهم في السقيفة ، رغم اللفة التي شدتهم نسبياً الى خلافة عمر ، بعد أن قُرب اليه جماعة منهم على حساب قريش . وازداد هذا الشعور في ظل خلافة عثمان ، الذي أتى حضوره غير القوي في السلطة الى ظهور مراكز نفوذ جديدة ، استمدت قوتها من ضعف مركزية الخلافة . فكان ذلك وراء موقف الحيد ، ان لم نقل اللابالاة ، الذي اتخذاه أهل (المدينة) عامة و (الانصار)

خاصة من مقتل عثمان ، ذلك الموقف الذي كان بداية النفور السافر بين الامويين وأهل الحجاز ، لا سيما الانصار .

وعلى الرغم من القاسم المشترك الذي شد الأنصار الى جهة علي والتحالف المصلحي بين الطرفين ، فان خروج هذا الاخير من (المدينة) تحت تأثير متغيرات خطيرة وتضادياً لانقسام الدولة في ذلك الوقت ، قلل من حماسهم له ، مما فسر بقاء الاكثرية من الانصار في (المدينة) ، مؤثرين عدم الاسهام في اسقاط الحجاز الذي بدأ فعلياً منذ نهايات عهد عثمان وانتقال السلطة الفعلية الى مراكز النفوذ المستجدة في الأمصار . وكان هذا القرار الذي اتخذه علي ، يمثل اعترافاً ضمناً منه أن الحجاز يتقله السياسي والعسكري لم يكن معه ، وإدراكاً عميقاً بالتحولات الاجتماعية خلال العقدين الأولين من دولة الراشدين ، وبالتالي فإنه لم يعد ذلك الحزبان الذي امدّ جهات القتال بالجنود ، بعد أن أفرغته الفتوح من طاقاته البشرية الشابة ، وبعد أن فقد أهميته الاقتصادية إثر إنتقال التجارة ومعها أصحاب الثراء والطموح والخبرة الى الامصار ، مما جعله تابعاً ، بل مرتعاً لهذه المراكز الجديدة . ولقد عبر هذا التغيير عن ذاته بعد سيطرة ثوار البصرة والكوفة والفسطاط على الوضع السياسي لبضعة أيام في (المدينة) ، كانوا خلالها الطرف الرئيسي في « انتخاب » علي الذي أصبح محكوماً بالاعتماد على هذه القوة المستجدة « التي أوصلته الى الخلافة » ، بعد اخفاقه في استقطاب « القوى القديسة » التي ناصبته العداء في الحجاز والامصار .

وهكذا فان مسألة الخروج من (المدينة) لم تنحصر أهميتها في الجانب التغييري الاداري أو السياسي فقط ، ولكن في دلالتها الرمزية الأكثر أهمية . ولعل اتخاذ علي بالذات هذه المبادرة قد أكسبها اطاراً خاصاً ، كونه وريث النبي بمعنى ما ، ووريث « الراشدين » الثلاثة ، بحيث جاء تخليه عن (المدينة) التي شهدت بروز الدعوة وقيام دولتها ، مؤشراً الى تغيير بنيوي ، مسّ عمق الجوانب الايديولوجية والسياسية للأئتين معاً .

ولعل علياً كان يرمي ليس الى استعادة الأهمية المفقودة للمدينة ، بقدر ما تطّلع الى استمرارية « الحالة الحجازية » بكل تفصيلاتها التوازنية الذي اختلت في عهد عثمان . ولكن الظروف لم تمكّن علياً من استرجاعها ، في الوقت الذي أتاحته فيه لمعاوية بحدود ما تحقيق ذلك ، ولكن عبر « توازنية شامية » مستجدة ، انتهت بضرب الحجاز مياسياً واقتصادياً واخراجه عملياً من ساحة التوازنات ، وبوضعه قسراً على هامش لسلطة الجديدة . على أن خروج علي من (المدينة) ، لم يؤد الى « خروجه الحجازي » بصورة

نهاية ، حيث تحولت المجابهة السياسية الى مجابهة عسكرية بين أطراف قريش المتصارعة ، سواء في البصرة أم في الشام .

وكان قيام دولة الأمويين التي جاءت شبه استمرار لخلافة عثمان ، صدمة للحجاز الذي سقط عملياً من معادلة النظام الجديد ، بعد أن حلّ توازن العصبية مكان توازن التيارات في القاعدة الإسلامية المتداولة حتى عهد عمر . ذلك أن معاوية عبر الطرح المبكر لمسألة الخلافة ، وانطلاقاً من منظوره الأموي العصبي عن « احاطة » الله لقريش ، كونها جامعة النبوة والخلافة ، الى جانب تراث ما قبل الاسلام ، سعى الى وراثة سلفه الأموي في السلطة (قرابة الدم بالنسبة لعثمان (الخلافة) و وفاة يزيد أخيه (الولاية) قبل ذلك) . ومن البديهي القول أن قريشاً بزعامه معاوية لو شاءت انفاذ عثمان لأمكنها ذلك بغير صعوبة ، ولكنها تخلفت عنه بعد استنفاد دوره ، وبعد أن أصبح عاجزاً عن حماية « الشرعية » المهددة من (الانصار) والقبائل . ولم يكن من السهل أيضاً تمرد الثلاثي القرشي (عائشة ، طلحة ، الزبير) ، لو كان لعلّ مثل تلك الحصانة القرشية التي تمتع بها أسلافه الخلفاء . فقد تكتلت قريش بوجوهها البارزة (تيم ، أسد ، أمية . . .) ضد عليّ ، لتشارك بثقلها رجماً بصورة غير مباشرة في « التآمر » على الحجاز وهجرة السلطة منه الى الامصار ، بعد أن سبقتها هجرات القوة العسكرية « ذوي البلاء » والصحابه « ذوي السابقة » وغيرهم من ذوي النفوذ السياسي والاقتصادي .

ومن هذا المنظور خاضت الشام من موقع المعارضة معركة « الشرعية الاموية » ضد « شرعية الشورى » ومعها الرأي العام القرشي ، دون أن تتمكن الكوفة من مجاراتها رغم قرشية الخليفة . فكان لا بد أن ينتهي بالحسم هنا انتصار فريق علي آخر ، بعد انتهاء مفعول تلك المعادلة الفريدة التي كانت تؤدي الى انتصار أحدهما دون هزيمة الثاني (سقوط مكة . . . بيعة السقيفة . . .) ، بحيث كانت آخر ملاجئها في حركة البصرة التي حاولت طرح نفسها كبديل وسط بين المدينة (علي) والشام (معاوية) .

ومن هنا بدا الحوار عقياً وغير قابل للحسم في صفين ، وذلك بانقسام قريش الى حجازية لها حقّ الشورى ولكنها معتزلة ، وقرشية شامية مؤيدة لمعاوية ، دون أن تتمتع بهذا الحق السياسي « . . . ولعل احدى ظواهر انعدام الحسم في صفين ، ذلك التوزيع القبلي المتداخل على الجبهتين ، تحت تأثير المصالح المتباينة والمتغيرات الجغرافية في القبيلة الواحدة (همدان ، الازد ، مذحج . . .) التي قاتلت ضد بعضها في هذا الجانب أو

(1) راجع القول المنسوب لعلّ : « فهاث رجلين من قريش يقرآن الشورى أو تحمل لها خلافة . . والا فان أتيت بها من قريش الحجاز » .

ذاك . كما كان هذا التدخل القبلي ، أحد عوامل النمط السجالي الذي سيطر على حرب صفين ، بحث وضعها منذ البدء في اطار المساومة الدائمة التي بلغت ذروتها في « التحكيم » .

وهكذا جاء الانتصار السياسي - القبلي الذي حققه معاوية وتَوَجَّح باغتيال علي وتنازل الحسن ، مقدمة تغييرات شبيه جذرية انعكست على دولة الاسلام ، سواء على المستوى الجغرافي (انتقال مركز الخلافة) أو القبلي (نشوء مراكز قوى جديدة : كلب وفهر في الشام وثقيف في العراق) أو السياسي الاصلاحى ، بغياب آخر رموز الدعوة وصحابة النبي الكبار . على أن أبرز ما في هذا التحوّل الذي رافق قيام الدولة الجديدة ، هو ربط السلطة بمنطق القوة بعد أن أصبحت الأخيرة مصدر القرار السياسي في الدولة ، الامر الذي جعل من الجيش أداة أمنية أكثر منها جهادية طوال العهد الأموي بصورة عامة .

وكانت ملامح هذه السياسة أشدّ انعكاساً على الحجاز ، الذي افتقد السلطة ومعها الامتيازات ، لينتهي الى المجابهة المسلحة مع هذه الاداة القمعية التي استهدفته ، ولجأت الى افراغه من رموزه الاسلامية بعد أن فرغ من طاقاته الفعلية في العهد الراشدي . وكان (الانتصار) وسط هذه التغيرات يمثلون دائماً الفريق غير المساوم (ابتعادهم عن التحكيم مثلاً) ، بحيث كان موقفهم من دولة الامويين أمراً لا يحتاج الى نقاش ، وبالتالي كان عليهم أن يدافعوا الثمن باهظاً في علاقاتهم بهذه الأخيرة ، منذ حملة بسر بن أبي ارقطة ، وانتهاءً بموقعة الحرّة التي كانت ذروة العداء بين الطرفين .

وفي معرض الدراسة لهذا التحوّل وانعكاساته على الحجاز ، كان علينا الأخذ بواحد من المنهجين التاليين : المدرسة أو المدارس التاريخية التي تخضع بصورة ما لميول الاوائل من الرواة وكتاب التاريخ الحزبية والقبلية ، أو المنهج الاستقصائي للظواهر التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي كان لها تأثيرها الخفي أو المباشر في الاحداث المتزامنة وهذا التحول الحجازي .

ولقد أثّرنا في الحقيقة المنهج الثاني ، انطلاقاً من ايهام الاول وعدم وضوح معالمه من ناحية ، وصعوبة الاعتماد على مؤرخ ما من خلال ميوله الخاصة ، الشامية أو العراقية أو الحجازية من ناحية أخرى . ذلك أن أكثر هؤلاء الرواة ظهر في العراق وتأثر بالجو السياسي غير الودي من الدولة الاموية ، حيث يدور الجانب الاوفر من هذه الدراسة .

ولا شك أن المحاولات المتطورة التي قام بها المستشرق الألماني (فلهاوزن) جديدة بالاهتمام في هذا المجال ، رغم أنها لقيت من التأييد بقدر ما لقيت من الاعتراض أو انشجب ، وذلك في دراسته التفصيلية والمتشعبة التي تناولت بصورة خاصة المدرسة

العراقية ، في الوقت الذي بقيت فيه معالم المدارس الاخرى - ان صحَّ وجودها - غائمة ، والاحاديث عنها مبهمة ومتناقضة . على أن ذلك لا يعني اهمالنا لهذا الامر تماماً ، حيث لجأنا بالإضافة الى المنهج الثاني (الاستقصائي) ، إلى تتبع الانشاء الحزبي والقبلي للرواة ، وانعكاس ذلك على واقع مروياتهم ودقتها .

ولعل هذا النهج السياسي - الاجتماعي ، كان في رأينا ، الاداة الافضل لمراقبة مظاهر الاختلال في التوازن داخل قريش في ثلاثينات وأربعينات القرن الهجري الاول ، سواء في داخل الحجاز أو في خارجه . واذا كان معاوية قد أوجد نوعاً من التوازن القسري في هذا الاقليم ، اعقبته محاولات أقل قسرية للاحتفاظ به على يد خلفائه المروانيين ، في اطار سياسة احتوائية تبلورت في اواخر هذا القرن بصورة خاصة ، فانه لا بد من الالتفات الى عاملين اثنين ، ازداد تأثيرها عن ذي قبل ، سواء في الاوضاع الحجازية أو الشامية أو غيرها من أجزاء الدولة ، وهما : بروز العصبية القبلية الى الواجهة من ناحية ، وتطور الحياة المدنية في الحواضر (الحجاز) والامصار من ناحية اخرى . فعل المستوى الحجازي (خاصة المدينة) ، كان ثمة اتجاه متغلب تحوّل معه العهد الراشدي الى مثال أعلى للمجتمع العادل ، حيث كان بؤرة الدولة والسلطة ومصب الدعوة وانطلاقتها البعيدة .

ومن خلال هذا التوجّه ، فان السياسة الاموية (السفىانية خاصة) وما رافقها من ضغوط على (المدينة) بقرشيتها وأنصارها ، جوبهت باستنكار اسلامي عام ، وتركت وراءها ردّات فعل تتجهر بالعودة الى الحكم الراشدي ، حيث مثّل بالنسبة للحجاز وللمدينة بالذات ، الحقبة الذهبية التي ظلت تنوق الى تكرارها ، على النحو المتجسّد في انتفاضة هذه الاخيرة وحركة ابن الزبير في مكة ، والمطبوعة كلتاها بالسمة الحجازية والمثال الاعلى الراشدي .

على أن الحياة المدنية في الامصار ، كانت تسير في المجاهات اخرى ، متصارعة ومتقاطعة مع القبلية التي تحولت الى أحد العوامل السياسية الاكثر استغلالاً لمصلحة الاسرة الاموية الحاكمة : وقد أتى قيام خلفائها ، كمنظّمين لهذه العملية القبلية في الامصار وفي الحاميات والثغور ، الى احكام قبضتهم على منافذ المجتمع من ناحية ، وتشديد العزلة على الحجاز من ناحية اخرى . وليست مصادفة أن يكون الولاة الحجازيون غالباً في العهد المرواني ، من الطوائف (ثقيف) أو من قيس وبطونها الاخرى .

ان الاشكاليات السياسية والاجتماعية ، التي أحاطت في الواقع بانتقال السلطة الاسلامية من الحجاز وامقاطه في عزلة قسرية ، هي الموضوع المحوري لهذه الدراسة . ولقد حاولت جاهداً اقامة حوارية بين اطراف المسائل كلها ، بحيث يبلو الحجاز مع سياق

العملية التاريخية خلال القرن الاول ، في الضوء المناسب والمقارب لما كان يجري في تلك الحقبة الزمنية الهامة .

أما خطة الدراسة فقد تضمنت اربعة أبواب رئيسية ، تنفرع كل منها الى عدة فصول صغيرة . ففي الباب الأول ، أوليت اهتماماً خاصاً لبحث خلفيات المجتمع الحجازي القديم ، من خلال ما اسميته (الوضع الجغرافي - السكاني والتطور الاقتصادي) . وتضمن الباب الثاني (الحجاز الراشدي) ، تكوين الدولة الاسلامية واستمرار سيادة قريش بعد سقوط مكة ، والمهاجرون والانصار في حركة الفتوح ، ثم الحجاز بعد عمر ، وما رافق ذلك من هجرة السياسيين وأصحاب الطموح الى الامصار ، مما أدى الى ا فراغ هذا الاقليم من طاقاته البشرية والاقتصادية ، انتهاءً بخروج الخلافة الى العراق مع علي في أعقاب تحولات سياسية واجتماعية خطيرة ، اسفرت عنها الثورة على عثمان .

أما الباب الثالث (الحجاز السفيني) ، فقد بحث في الصراع على السلطة بين الشام والحجاز ، والسياسة الاموية في الاقليم الاخير ، والعلاقة مع ابناء الصحابة والتحدّي الحجازي لولاية العهد ، ومن ثم محاولة (المدينة) استعادة الاعتبار السياسي للحجاز ، فضلاً عن حركة ابن الزبير ، آخر المحاولات الجدّية في هذا الاطار . وأخيراً الباب الرابع (الحجاز المرواني) ، الذي بحث في التحوّل التدريجي في السياسة الاموية نحو المهادنة فالاحتواء ، حيث تجنّب خلفاء العهد المرواني المواجهة السياسية بعد القضاء على ابن الزبير وطموحه في استعادة خلافة « المهاجرين » ، ليخلد الحجاز منذ نهايات القرن الأول الى ظروف اجتماعية جديدة ، بعد إغراقه بالاعطيات التي صرفته عن السياسة ومقارعة السلطة ، في الوقت الذي انتقلت فيه محاور المعارضة الى العراق والمشرق ، بدءاً بثورة ابن الاشعث ، وانتهاء بالثورة العباسية ، التي كان الحجاز الغائب الأكبر عنها .

أما حدود هذه الدراسة ، فهي تمتد ما بين المصادر - (التي استخدمت بعض مخطوطها ، كالاعلام للبياسي والانساب للبلاذري وتاريخ دمشق الكبير لابن عساكر - ترجمة معاوية - وغيرها فضلاً عن المنشور التقليدي منها ، خاصة تاريخ الرسل والملوك للطبري والاختبار الموقفيات للزبير بن بكار ، دون أن أنسى الفتوح لابن الاعثم ، رغم غلبة الطابع القصصي الردي عليه في بعض الأحيان - وما بين المنشورات والمرويات الاخرى التي لم تخل من فائدة ما في تشكيل أجزاء التحليل الشامل لهذه الدراسة .

واذا كان لا يعني سوى الاعتراف ، بأن هذه المصادر كانت المنطلق والمرجع ، فإن بعض الدراسات الحديثة - على قلة الاعتماد عليها - لم تعدم فائدة ما ، تتعلق خاصة بالتكوينات التمهيدية لهذا البحث . على أنني اخصّ بالذكر موسوعة الدكتور جواد علي

النادرة (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) ، ومقالة الصديق الدكتور رضوان السيد المطولة (من الشعوب والقبائل الى الأمة) التي أضاءت أمامي كثيراً من الجوانب في مسألة التكوين العنصري للحجاز .

كما أخص أيضاً البحوث القيمة التالية :

« التكوين الغذائي في مكة ومقاطعة محمد » للمستشرق الأمريكي (دونر) DONNER ، و « الانصار في القرن الاول الهجري » للمستشرق الألماني فازيلي VESELY ، وفتنة عبد الله بن الزبير للمستشرق الألماني أيضاً زهايم SELLHEIM ، و « معركة الحرّة - النواحي الاقتصادية والاجتماعية » للمستشرق الانكليزي كيستر KISTER ، وأخيراً « ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الاول الهجري » للمؤرخ الدكتور صالح أحمد العلي .

وفيما عدا ذلك ، فقد بدا معظمها متوكئاً على فلهاوزن WELLHAUSEN (تاريخ الدولة العربية) ولانسن LAMMENS (بحوثه العديدة عن الحجاز) ، لا سيما الاول الذي كان له فضل الريادة في هذا المجال ، على الرغم من أن بعضاً من استنتاجاته ، لم يعد قابلاً للاستعمال كما سيبدو لنا من خلال فصول هذه الدراسة .

ويبقى في النهاية أن أشير الى الاهتمام الذي لقيته محاولتي هذه من عدد من الاساتذة والاصدقاء والزلاء ، حيث كان لهم دور كبير في استخراجها على النحو الذي صارت اليه . وأخص في الطليعة الاصدقاء الدكتور نقولا زيادة والأب الدكتور لويس بوزيه والأب الدكتور ج. م. فيه والدكتور أسامة عانوتي ، فضلاً عن الصديق الدكتور رضوان السيد الذي شرع أمام هذا البحث أبواب مكتبته النادرة والحافلة بصنوف المصادر والمراجع القيمة ، دون أن أنسى مساعدة الآخرين من الاصدقاء ، خاصة الصديق العميد الدكتور راجي أبو شقرا ، والاستاذ عبد القادر شعبان . ولن أغفل في هذا المقام الصديق الكبير الاستاذ حسن الأمين والتشجيع الذي غمرني به ، شأنه في كل أعمالي الكتابية ، مما كان له تأثيره ليس في انجاز هذا العمل فقط ولكن أيضاً في تسريعه .

وكذلك ، اصدقائي في المؤسسة الجامعية ، للروح الايجابية والتعاون المخلص اللذين رافقا ظهور هذا الكتاب بحلته الأنيقة .

وأخيراً ، فانا مدين لزوجتي ، التي منحتني قوة الصبر ووفرت لي الظروف الطيبة ، وكذلك اولادي الذين تحملوا انصرافي الطويل وانقطاعي الكلي خلال هذه الدراسة .

.. الى هؤلاء جميعاً .. كل الشكر والتقدير .

كلمة في المصادر

« ان الملك المنسوب هو داثا جيان وغائن ، عندما
يكتب الغالب التاريخ »

(أراغون)

يكاد القرن الهجري الأول ينجح الى القلق في تاريخه أكثر من الاستقرار ، حيث شهد مع بداياته نماذج مختلفة من التيارات والعصبيات التي أفرزها الصراع المبكر على السلطة . وكان من البديهي أن يستقطب كل طرف مناصريه المتحمسين ، أو يحاط بالخصوم الالقاء ، فينعكس ذلك مباشرة على النتاج الفكري العام للعصر .

واذا كانت مطالع هذا القرن قد شهدت تجاذب القوى بصورة أقل حدة ، وذلك في نطاق جبهة (المهاجرين) التي توحدت أمام المنافسة (الانصارية) ، فإن الثلاثينات منه كانت مقدمة « حرب قرشية » ضارية ، بين تيارين متناقضين في عمق الطرح والفهم ، سواء على الصعيد السياسي أم الاجتماعي . وجاء سقوط الخلافة الراشدية الا من « النموذج » ، الذي أصبح مجرد أطروحة نظرية لحركات المعارضة ، بينما الدولة في المقابل تزداد رسوخاً في نظامها المتجه نحو الملك .

وهكذا نشأت خلافة الامويين عبر هذا المنعطف ، منتزعة من المسلمين ذلك « النموذج » ، وحاملة الى حد ما مسؤولية انهياره . وفي ضوء هذه الحقيقة ، وقعت هذه الدولة في المازق التاريخي الصعب ، بحيث ظلت أنجبارها غير مستقرة وخاضعة للنقاش والاجتهاد ، دون أن تقلل من ذلك وفرة المرويات والمصادر ، فضلاً عن الدراسات العديدة الاخرى .

ويمكننا ردّ هذه الظاهرة الى معطيات ثلاثة أساسية :

أولاً - ان منطق القوة الذي رافق ظهور الخلافة الاموية - رغم الذرائع التي حاولت أن تستمد منها الغطاء الشرعي للحكم - كان سبباً في ظهور معارضة قوية وطروحات على تبين شديد معها .

ثانياً - التمسك « الجهازمي » بالشوروية الراشدية ، التي كانت على ضعفها البديل الدائم للفتات المعارضة ، باستثناء حركة الخوارج التي كان لها اجتهادها الخاص المعروف في هذه المسألة .

ثالثاً - التيار الشيعي القوي في العراق ، الذي تبلور بصور مذهلة كحركة سياسية معارضة ، في أعقاب تنازل الحسن وتكريس شرعية الخلافة الاموية في دمشق . ولم يعدم هذا التيار تأثيراً يَبْئاً على بعض الاخباريين في القرن الثاني ، لا سيما المنتمين الى « المدرسة العراقية » ، التي نحت في مسلكها النقدي والتطوري ، مستوى لم تبلغه « المدرسة الحجازية » .

ولعل هذه المقدمة ليست سوى محاولة لابرار العنصر السياسي المتداخل مع الحدث التاريخي ، وتحديداً مع هوية الاخباري أو المؤرخ ، الذي لم يكن معزولاً عن مجتمعه ، وإنما كان صاحب دور نظري وتوجيهي ، بالمقدار الذي يتيح له المناخ السياسي في ذلك الوقت . ومن هنا فإن التعاطي مع الحدث من خلال « النص المقدس » ، فقد أهميته مع تطور المنهج النقدي العلمي ، وتراجع المنهج السردى التقليدي .

وفي هذه الدراسة ، اعتمدت بصورة أساسية على مجموعة من مؤرخي القرنين الثالث والرابع بصورة خاصة . وقد يكون من المفيد عبر هذه الرؤية النقدية ، الإشارة الى موقع هؤلاء من الحدث التاريخي ومدى انعكاس الانتهاء السياسي للمؤرخ - اذا كان ثمة انتهاء - على سياق التفاصيل (اجتزاء الاخبار غير المتوافقة معه على سبيل المثال) ، أو على الحدث عامة (الاسقاط أو التجاهل) . . . هذا فضلاً عن التعديل وربما التحويل في مساره والنتائج المترتبة عليه ، الى آخر هذه الأبواب التي قد يتسرب منها الموقف السياسي أو العقائدي للمؤرخ في تتبع أخباره والتأسيها ، وهي ليست بالضرورة متشابهة لدى كافة المؤرخين .

وسأورد هنا أبرز مصادر هذه الدراسة وفق التسلسل الزمني لاصحابها :

1 - الاخبار الموقفيات للزبير بن بكار (ت 256 / 869)

هذا المؤرخ حجازي الأصل من الاسرة الزبيرية الشهيرة ، وكان من كبار علماء (المدينة) قبل أن يصبح قاضياً على مكة في عهد الخليفة المتوكل ، ومن ثم مقرباً الى السلطة في البلاط العباسي بعد استدعائه الى بغداد .

وكانت هذه العلامة الوقية بين الزبير والخليفة وراء ظهور كتابه الشهير (الموقفيات) ، تيمناً بالامير الموفق ابن الخليفة . ولا نجد أية صعوبة في اكتشاف

« عباسية » هذا المؤرخ وتعاطفه الواضح مع السلطة التي عاش في ظلها مكرماً موفور الاعطيات والمباني . على أن الكتاب في جانبه الحجازي ، لا سيما المحيط بالفترة المعنية في هذه الدراسة ، يبدو قليل الأهمية إلا من نثرات قليلة متباعدة لا تعدم تأثيراً وفائدة . ذلك « أن الموقفيات » بمجملها تنطوي على حوادث غير متسلسلة ، وهي عبارة عن موضوعات متعددة ومختلفة الاهتمامات من أدب ومياسة وإدارة وحرب واجتماعيات إلى آخر ذلك .

2 - الامامة والسياسة (منسوب إلى ابن قتيبة ت 276 / 889)

إن قيمة هذا الكتاب في الاشارات ذات المحتوى الخاص - الذي يفرد به عن الآخرين - تتجاوز أهميته من الناحية المنهجية ، وذلك لحلوّه من الامناد ، حيث تتردد عبارة « وذكروا » في مطلع رواياته ، دون تحديد مصدرها الاساسي . ولعل عدم الاتفاق على اسم مؤلفه ، خاصة بعد استبعاد أنسابه مؤخراً لابن قتيبة ، أبعدّه عن لائحة المصادر الرصينة .

وعلى الرغم من ابرازه ثورة (المدينة) ومعركة الحرة ، فإنه لا يبدو متطرفاً في موقفه من الامويين ، وفي المقابل غير متحمس لخصومهم الشيعة . على أن رواياته الحجازية على جانب من الأهمية خاصة في عرضه للدوافع التي كانت وراء تعاظم النعمة على البيت الاموي ، في أعقاب الأزمة الاقتصادية التي يبدو أنها استفحلت حينذاك في الحجاز (و المدينة) بوجه خاص .

3 - انساب الاشراف للبلاذري (ت 279 / 892)

هو من المصادر الاساسية عن الحجاز ، لا سيما خلال الفترة الاموية . وقد استقى معظم رواياته من الاخباريين الكبار الذين أخذ عنهم الطبري ، وفي طليعتهم الواقدي (حركة ابن الزبير) . وعلى الرغم من أن البلاذري ، شأن صاحب « الموقفيات » ، كان مقرباً من البلاط العباسي ، فإن مروياته اتسمت بالاعتدال ، حتى ليعتقد البعض بأن له ميولاً شيعية ، بحيث تقتزن هذه الصفة عادة مع شهادة للشريف الموقضى ، الذي أظهر ثقة بروايات صاحب « الانساب » . فهو مثلاً قليل الاعتماد على (عوانة بن الحكم) ، حيث يحدّ لديه انحيازاً ما نحو الامويين وعبد الملك بصورة خاصة . ولكن هذا الكتاب القيم رغم علاقة صاحبه الرثيقة بالسلطة لا تبدو فيه نزعات مياسية خاصة ، بل جاءت اختياره تحمل من الموضوعية ومن ثقة الاطراف المختلفة به ، ما جعله في طليعة المصادر - إلى جانب تاريخ الطبري - التي اعتمدنا عليها في دراسة التاريخ الحجازي .

4 - تاريخ اليعقوبي (ت 284 / 897)

يعتبر اليعقوبي أحد أكثر المؤرخين الأوائل تعاطفاً مع العلويين ، انطلاقاً من شيعية الانتهاء لديه . ولكن كتابه رغم ذلك يبقى مصدراً موثقاً لتاريخ تلك الفترة ، التي جاءت اخبارها مكثفة بالقياس مع الفترات اللاحقة . فهو ييلو شديد التحامل على الامويين أحياناً ، خاصة في مادة الحجاز من « تاريخه » ، حيث كان شديد النقد لحملة الحجاج ضد ابن الزبير ، لا سيما في معرض التحدث عن علاقته مع الزعماء العلويين ، التي كان غالباً ما يسودها الجفاء . وهو يبرز خاصة مشكلة « الصوافي » في (المدينة) ، كسبب موضوعي في الثورة على يزيد ، ولكنه قد يبالغ في وصف « استباحة » الجيش الاموي لمدينة الرسول ، وهو موقف لا ينطلق بالضرورة من خلفية شيعية ، بقدر ما هو متأثر بردة الفعل الاسلامية العامة ازاء هذه الحادثة .

5 - تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت 310 / 923)

وهو من نتاج القرن الثالث الهجري ، أي أنه كتب في ظل ما يسمى بفترة « التكوين » ، حيث مثل آنذاك « قمة ما وصلت اليه كتابة التاريخ » حسب تعبير الدكتور الدوري (علم التاريخ عند العرب ص 55) . وتأتي أهميته في دقة الاسناد التي ظهرت مع كتابه الفقهي « جامع البيان في تفسير القرآن » قبل أن تتجل في كتابه التاريخي الشهير ، حيث نحا المنهج ذاته ، الامر الذي أعطى لرواياته موقعاً من الثقة ، لم تحتنه بالقدر نفسه مرويات الآخرين .

لقد عاش الطبري في بغداد ، عاصمة الخلافة ، ولذلك نشأ على مذهب السلطة ، حيث لم يكن هذا الانتهاء أكثر من تعبير عن موقف سياسي ايديولوجي في ذلك الوقت . ولا شك أن اتصاله بالمراكز العلمية الاخرى (الشام ومصر) ، قد أكسبه اطلاعاً وانفتاحاً ، تركا أثراً واضحاً على منهجه ومسار تفكيره ، ومن ثم على خطه المذهبي المستقل ، الذي قلل الى حد ما ، التبعية غير المشروطة لموقف الدولة .

وبالنسبة لمصادر الطبري ، فإن معظمها من العراق حيث عاش هذا المؤرخ ، اذ طغى هذا الاقليم باخباره على ما عداه ، كونه بؤرة المعارضة في العصر الاموي . وكان في طليعة الاخباريين الذين أخذ عنهم الطبري أبو مخنف (ت 157 / 774) ، وهو كوفي متأثر بالتيار الشيعي . غير أن اخباره الحجازية محدودة لدى الطبري وتقتصر على الاحداث البارزة (قضية الشورى ، ثورة المدينة على سبيل المثال) . وقد جاءت رواياته ، لا سيما المتعلقة بأحداث هذه الاخيرى ، مسهبة بأخبار الانتهاك والاستباحة ، بينا تغافلت عن ذلك رواية الاخباري الثاني الذي اقتبس عنه الطبري ، وهو عوانة بن الحكم (ت 147 /

764) ، الذي يبدو أقلّ تحملاً على يزيد ، حليف الكلبيين الذين ينتمي إليهم ابن الحكم .

والاخباري العراقي (الكوفي) الثالث الذي أخذ عنه الطبري ، هوسيف بن عمر (ت 180 / 200) / 796) ، لا سيما الاخبار المتعلقة بالثورة على عثمان (الفتنة) . وهو من موقع انتمائه الى تميم ، التي ظهرت منها غالبية القيادات الاولى للخوارج ، غير متحمس للتيار الشعبي مثل أبي مخنف ، ولكن دون دليل على تعاطفه مع الخوارج ، وهو ما يتضح في روايته حول « قرشية » الخلافة (موقف معاوية من وفد الكوفيين في الشام 33 هـ) . ولذلك كان موقفه من الامويين يحمل في المضمون ، الموقف من السلطة ، حيث كان هذا الاخباري موالياً لها كما يبدو في رواياته .

أما الاخبار الحجازية عامة فقد استبقاها الطبري من مدرسة (المدينة) ، وهي بطبيعتها تنزع الى المحافظة التي اكتسبت ملامحها في أواخر الخلافة الاموية ، واستقرت في تلك الفترة حيث عاش اخباريو (المدينة) الازائل . ومن ناحية ثانية ، فقد طغى اهتمام هذه المدرسة بأخبار الخلافة الراشدية (النموذج الحجازي) ، على الاخبار الاموية ، فجاءت هذه الاخيرة قليلة متناثرة . وفي طليعة أصحابها ، الواقدي (ت 821 / 206) ، الذي كان أقرب الى المؤرخ منه الى الاخباري . وقد أخذ عنه الطبري الاقتباسات الحجازية البارزة ، مثل مقتل عثمان وثورة (المدينة) ، فضلاً عن حركة ابن الزبير التي أولاهم اهتماماً خاصاً ، ينطوي على شيء من التعاطف مع هذه الحركة . ولكن (الواقدي) أولى عناية في الوقت نفسه ، اخبار الادارة الاموية في الحجاز (اسماء الولاة وأمراء الحج ...) ، بحيث يكشف ذلك عن موضوعية ما في رواياته ، رغم انتسابه الى بيئة لم تكن سوى العداء للامويين .

كان هؤلاء أبرز الاخباريين الذين اقتبس عنهم الطبري مادته الحجازية ، وهم متوزعون الى الهوى السياسي بين شيعي مناويء لبني أمية (أبو مخنف) ، وكلبي متعاطف على نحو ما (عوانة) ، وغميمي عاش في بغداد أبان اشتداد الملاحقة ضد العلويين والتضييق على قياداتهم (سيف) ، وحجازي معتدل حتى في مشاعره الزبيرية (الواقدي) . والطبري رغم دقته المعروفة ، يبدو على شيء من التأثر أحياناً - ربما عن غير قصد - بالجو المنشع نحو بني أمية ، حيث علق وكتب تاريخه في النصف الثاني من القرن الثالث . فقد كان في تكوينه الثقافي ، ومن خلال توجهه السياسي الفقهي أقرب الى السلطة ، سواء كانت راشدية أم أموية أم عباسية ، ولكنه ، كفقهاء وصاحب مذهب مستقل ، استطاع أن يكون متوازناً في اقتباساته المروية وبعيداً عن التطرف الى حد كبير .

6 - الفتوح لابن الاثم الكوفي (ت 314 / 926)

لقد اعتمدتُ هذا الكتاب مخطوطاً في جزء منه (نسخة استنبول) ومطبوعاً في سبعة أجزاء (حيدر آباد 1969) . وهو يتضمن مادة غزيرة عن الحجاز ، لا سيما التي تتناول الصراع بين علي ومعاوية ، حيث بلغ آخر مراحلها في حملة بسر بن أبي أرطاة الى مكة و (المدينة) . ومن الناحية التاريخية « المنهجية » ، يبدو لنا كتاب الفتوح أقل قيمة من المصادر التي اسلفت التعرض لها ، حيث غلب عليه الطابع الروائي السردى بصورة عامة . وموقف ابن الاثم من الامويين يتجاوز كثيراً موقف اليعقوبي والمسعودي ، فيبدو لنا متطرفاً في شيعيته عندما يتعرض لزعماء العلويين أو أنصارهم ، كالمختار الثقفي الذي يستقي اخباره عن أبي مخنف .

7 - مرجع الذهب للمسعودي (ت 345 / 956)

تميزت أخبار المسعودي بالوضوح والاختصار ، وتتبع علاقة ابن الزبير مع زعماء العلويين الكبار (محمد بن الحنفية ، عبد الله بن عباس ، علي بن الحسين) ، حيث تتجلى ميوله الشيعية المتعاطفة مع هؤلاء ، ولكن دون أن ينزع الى التطرف في التحامل على الامويين . وهو متأثر الى حد ما بسلفه اليعقوبي في أخباره عن الخلفاء ، ولكنه يشيد بخصومهم حتى التحدرين من الاسرة الحاكمة (روايته عن مقتل عمرو بن سعيد الاشدي) . كذلك فهو متأثر بسلفه وبآخرين ذوي ميول شيعية ، في اخبار الحرة وتقويم شخصية ابن الزبير ، وفي المقابل يورد اخباراً متعاطفة مع الزبيريين ، ويبيدي اعجاباً واضحاً بمصعب على وجه الخصوص .

8 - الكامل في التاريخ لابن الاثير (ت 630 / 1233)

وهو متأخر كثيراً بالقياس للمصادر التي اسلفت عرضها ، ولكن أهميته متلازمة مع التطوير الذي طرأ على الكتابة التاريخية ، بحيث بلغت شأواً بعيداً مع هذا الكتاب . فقد اعتمد ابن الاثير في المرويات الحجازية على سلفه الطبري ، ولكنها جاءت بفضل ملكة النقد والاحساس التاريخي لديه ، مهذبة وملخصة ، مما جعل كتابه في مقدمة المصادر عن تاريخ المشرق الاسلامي ، بما فيه الحجاز .

لقد عاش ابن الاثير في وقت شهد نهوضاً اسلامياً مع الزنكيين والأيوبيين ، وتنقل في عدد من المدن (الموصل ، بغداد ، دمشق ، حلب) ، التي مثلت أهم مراكز هذا النهوض ، فترك ذلك تأثيره على ابن الاثير المؤرخ والفقيه ، ليصبح عبر هذا الموقع مشدوداً نحو السلطة ، قليل التعاطف مع خصوم الامويين ان لم يكن معنومه .

وتبقى كلمة أخيرة ، انني أوردت ما سلف من المصادر الاساسية ، وذلك في محاولة تتبع النزعة الانتمائية لدى أصحابها ، حيث عاش معظمهم ، مؤرخين أم اخباريين ، خلال فترات زمنية متقاربة أو متعاصرة ، وفي ظل مجتمع أبعد ما يكون عن الاستقرار السياسي وحرية التعبير الكاملة ، فضلاً عن قوة التأثير الديني لديهم ، وهم في غالبيتهم تعاطوا الفقه وعلموا الحديث الى جانب التاريخ .

ولعلمني معنى هنا بتوضيح أمر آخر بشأن المصادر ، وهي أن بعض المتأخر منها قد تكون له قيمة تاريخية تضارع القديمة أو تتفوق عليها في مجالات ثانية ، لا سيما المرويات ذات الخلفية الاجتماعية والاقتصادية . فيبدوننا مثلاً مؤرخ من القرن السابع الهجري كابن الاثير في كتابه القيم « الكامل » ، منفرداً بإشارات لم ترد عند الاسبقين ، دون أن يقلل من قيمتها أنها غير مسندة ، حيث يُعتقد أنها مروية عن أصول ربما فقدت بعد ذلك . وقد يعزّز هذه الأهمية أنها مسبوقة بفترة زمنية غير قصيرة ، تفصلها عن المصادر الأولى ، فجاءت مشبعة بآراء وأفكار متطورة ، نتيجة الاختيار العلمي في تلك الفترة الطويلة . ومن هذا المنظور ، يصبح ابن الاثير مصدراً في غاية الأهمية ، وتبدو رواياته ، المعتمدة أساساً على الطبري ، خاضعة للنقد والتدقيق ومكتسبة الثقة نفسها التي اكتسبتها روايات سلفه .

وما يقال عن ابن الاثير ينطبق على مؤرخ متأخر أيضاً ، كالسهمودي المتوفى في أوائل القرن العاشر الهجري (911 هـ) ، الذي يقدم في كتابه المعروف (وفاء الوفا) ، اخبار مسندة في الغالب ، لم يأت على ذكر بعضها الطبري ، لا سيما الاشارات التي أوردها حول الملكيات الزراعية في (المدينة) ، التي هاجر اليها وقضى فيها بقية حياته ، مما أكسبه أهمية خاصة ، ليس كثقة فقط ، ولكن كمختص في تاريخ العاصمة الاولى ، التي كانت في قلب الاحداث خلال العقود الثلاثة الاولى من الهجرة ، بحيث أحاطها بشمولية غزيرة ، تعدّت الجوانب السياسية أو العسكرية ، التي كانت غالباً محور اهتمام الاسبقين من كتاب التاريخ . وهذا يعود الى طبيعة العصر الذي عاش فيه السهمودي ، وإلى التطور الذي أصاب الفهم التاريخي والتهذيب الذي طرأ على أسلوبه ، بعد نحو قرن أو أكثر من طروحات ابن خلدون في « مقدمته » الشهيرة .

البَابُ الأوَّل

الحِجَازُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

الوضع الجغرافي - السكاني والتطور الاقتصادي

التكوين الجغرافي

« ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز الى ناحية فيد والجبلين الى المدينة ، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها الى ناحية فيد ، فذلك كله الحجاز » (البكري ، معجم ما استعجم)

ظَلَّ الحجاز كمصطلح جغرافي ، منظوياً على شيء من التماوج . . . متشراً حيناً ، منحسراً أحياناً ، وربما متداخلاً مع اقليم أو أكثر في شبه الجزيرة ، مما حال دون استقرار حدوده لدى الجغرافيين العرب واختلاف معاملها بين حين وآخر . فالدور المتميز الذي شغله هذا الاقليم ، كأحد المحاور المهمة في حركة التجارة العالمية قبل الاسلام ، كان انعكاساً لهذا التذبذب الذي فرضته البيئة بشتى مظاهرها المنسجمة والمتناقضة في الوقت نفسه ، حيث كان تدخلها واضحاً في النمط الحياتي للمنطقة بكاملها ، سواء من الناحية الاقتصادية أو السكانية .

وكان اكتشاف هذا الدور متزامناً مع بذابات انهيار اليمن ، « منطقة نشوء الحضارات »⁽¹⁾ في العالم القديم ، حيث تصدّرت من خلال معطياتها المتعددة ، بقية أقاليم شبه الجزيرة العربية منذ حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد⁽²⁾ ، أي منذ الوقت الذي ظهرت فيه دولة معين (1300 - 630 ق . م)⁽³⁾ استناداً الى ما يسمى بالكتابات الكلاسيكية (اليونانية) التي تركت لنا أخباراً مفصلة لا تخلو من الأهمية عن مجتمع شبه الجزيرة ، يعود أقدمها الى أواسط القرن الخامس ق . م⁽⁴⁾ .

ولعل أقدم أولئك الذين ألحوا بصورة ما الى هذه المنطقة : اسخيلوس⁽⁵⁾ AESCHYLUS وهوميروس HOMEROS في بعض أشعار الأوديسية⁽⁶⁾ . ومن أكثر

(1) لطفي عبد الوهاب عجمي ، العرب في العصور القديمة ، مدخل حضاري الى تاريخ العرب قبل الاسلام ص 17

(2) جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 2 ص 73

(3) المكان نفسه .

(4) لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ص 196 .

(5) جواد علي ، الفصل 1 ص 21 .

(6) لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ص 196

معلومات هذه المرحلة المبكرة تفصيلاً ، تلك التي حوَّنها المؤرخ الشهير هيرودوتوس HERODOTUS ، الذي ينسب اليه أنه أول من أطلق اسم ARABIA على شبه الجزيرة ، كما يرى المختصون في التاريخ القديم (١) . بيد أن هذه التسمية افتضلت الى المضمون الجغرافي المحدد من ناحية ، كما افتقدت اخباره الى الدقة التاريخية من ناحية اخرى ، حيث اعتمد على الروايات المنقولة اليه ، وهي لم تحل من مبالغات في بعض الأحيان (٢) .

ولكن هيرودوتوس تمكن من تقديم صورة رائدة عن أوضاع هذه المنطقة ، لا سيما الجانب الاقتصادي منها ، وذلك في اشارته الى علاقات تجارية بين بلاده (اليونان) وبين هذه المنطقة ، التي كانت تفوح برائحة البخور و «أريج الطيوب» حسب تعبيره (٣) .

ولذلك ستكون كتابات المرحلة التالية (القرن الرابع ق . م) ، أكثر نضجاً وموضوعية ، وهي التي واكبت حملة الاسكندر ، حيث أسهم فيها على وجه الخصوص اثنان من قادته :

بطليموس PTOLEMAIOS و أريستوبولوس ARISTOBOULOS ، اللذين أضافا تفصيلات مفيدة ومهمة الى اخبار سلفهما «أبي التاريخ» ، تتعلق بالتكوين الجغرافي والطبيعي لشبه الجزيرة العربية (٤) ، على نحو جعلها أساساً جيداً لكتابات المراحل التالية ، من المصور المتأخرقة والرومانية والبيزنطية فضلاً عن كتابات العصر الإسلامي المبكرة .

ولقد كان ثمة قاسم مشترك بين اليمن والحجاز ، ان كلاهما خضع بصورة مباشرة لتأثير البيئة الجغرافية المتباينة ، التي يمكن اعتبارها مفتاح التحول الجفري في التكوين التاريخي للأقليمين الشهييين . فالأول ، عُرف كمجتمع زراعي ، حيث ظهرت أقدم مراكز الاستقرار في الجوف (معين) ، التي وُصفت بأنها منطقة سهلة واسعة بين حضرموت ونجران (٥) . ثم تصبغ الزراعة أكثر انتشاراً وكشافة مع تدرجها نحو الجنوب ، مستفيدة من الامطار الصيفية التي يمكن أن تؤدي الى

(1) جراد علي ، الفصل ج ا ص 21 . لطفي عبد الوهاب ، العرب ص 198

(2) لطفي عبد الوهاب ، العرب ص 199

(3) المرجع نفسه ص 198

(4) المرجع نفسه ص 200 - 202

(5) الحمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب ص 67 ، تحقيق محمد عبد الله النجدي . جواد علي ، الفصل ج 2 ص 74 . ثريا

منقرش ، الترجيد في تطوره التاريخي ص 100 - 101

استغلال موسمين في نفس العام ، خاصة في الجهات المقابلة للساحل الحبشي (١) . فقد هيات خصوبة الارض ووفرة المياه لهذه المنطقة ، وما رافقتها من تطوير وسائل الري ، تحقيق الاكتفاء الذاتي وتصدير الفائض من الانتاج ، يساعدها على ذلك ، وقوعها على مفترق شبكة من المواصلات الحيوية في العالم القديم ، متخذة لها عدة اتجاهات ، منها الطريق البري الطويل الذي امتد من حضرموت وقتبان في الجنوب ، الى أيلة في الشمال عبر مكة والبتراء ، حيث توجد مؤشرات الى استخدامه ، تعود الى القرن الثاني الميلادي (٢) ، والطريق البري الآخر (الشمال الشرقي) ، الذي وصل هذه المنطقة بالخليج الفارسي ، لا سيما جرهما GERRHA (٣) ، الميناء الشهير على ساحل الاخميناء ، الذي كانت تصب فيه منتجات الهند والمناطق المجاورة ، الواقعة تحت النفوذ الفارسي (٤) .

أما الثاني (الحجاز) فقد حرمته الطبيعة ما وهبت اليمن ، حيث البيئة صحراوية في الغالب والانتاج متأثر بهذه الدائرة من الجفاف . فكان ذلك من حوافز البحث عن مصادر اخرى لا تنبها الارض الجرداء ، ولكن تسهم فيها مجموعة من العوامل ، تبدأ بالموقع الجغرافي ولا تنتهي مع الارادة عند حد معين . ذلك أن محاولة التغلب على البيئة أو تطويرها ، كانت من أبرز ملامح هذه الشخصية الحجازية التي تبلورت منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، في وقت نشط فيه الامبراطور جستنيان JUSTINIEN ، لتوسيع دائرة النفوذ البيزنطي وراء السواحل الشرقية للبحر الاحمر والسيطرة على معابر تجارة الشرق ، وذلك بالتنسيق مع حلفائه الاحباش ، الذين كانت لهم أيضاً مصالحهم المباشرة في هذه المنطقة (٥) .

وإذا كان انفتاح اليمن ، يشكل إحدى النتائج الحتمية للموقع الحيوي في شبكة التجارة العالمية ، حيث كانت هدفاً لاطماع الفرس والرومان فضلاً عن البيزنطيين والاحباش (٦) ، فإن الحجاز استطاع بعزلته الجغرافية تجنب الاخطار التي

(١) عن سترابون STRABO . لظفي عبد الوهاب ، العرب ص 297 .

(٢) عن المصدر نفسه . لظفي عبد الوهاب ، العرب ص 314 - 315 .

(٣) لظفي عبد الوهاب ، العرب ص 317 .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص 89 ، جواد علي ، الفصل ج 7 ص 275 .

(٥) أبو جعفر بن حبيب ، كتاب المعصر ص 367-368 تصحيح إيلزة لينخن ستنر . H. LAMMENS , La Mécque à la veille de l'Hégire , P 106 . I imp. catholique Bey. 1924 .

(٦) يلدوان الحشة كتكت على جانب من القوة البحرية في القرن الرابع مما جعلها تشكل تهديداً مباشراً لليمن ، حيث تنافس الطرفان على السواحل الشرقية والغربية للبحر الاحمر . جواد علي ، الفصل ج 2 ص 143 . ج 3 ص 453 ، 455 .

I GUIDI , L'Arabie méislamique P 72 Paris , 1921 .

عصفت باليمن وقضت عليها بعد ذلك . فقد عاش طويلاً في ظل هذه الحصانة الطبيعية ، مستمراً ما يمكن من شروطها ، لملء الفراغ في شبه الجزيرة والنهوض على أنقاض دولة الحميريين ، آخر النماذج الاستقلالية في الجنوب ، التي خضعت آنذاك لمحاولة تنصير من التحالف البيزنطي - الحبشي (١) ، جاءت في مضمونها سياسية أكثر منها دينية . كما طغت المصالح المشتركة على حساسيات الطرفين المتحالفين من ناحية ، وطالت حملة الاضطهاد التي رافقتها آنذاك ، المسيحيين النمسطرة ، بمثل ما طالت اليهود وبقية النواشين للاحتلال الحبشي من ناحية أخرى (٢) .

والحجاز في تكوينه التاريخي أقل وضوحاً من اليمن ، رغم تأخره زمنياً كمركز حضاري عن هذه الأخيرة ، وذلك انطلاقاً من التفاوت الذي أشرنا إليه في الظروف البيئية والجغرافية لكل من الاقليمين . فبينما تتوفر المعلومات عن اليمن ، مدعمة بنتائج الحفريات (٣) ، وبعض المصادر « الكلاسيكية القديمة » (٤) ، لا نجد في الحجاز الا القليل المؤثق منها ، لا سيما العائدة الى ما قبل القرن السادس الميلادي . أما كثيرها فلا زالت مادته الرئيسية مقتصرة على ما تركه الاخباريون ، الذين سيطرت عليهم النزعة الروائية الجانحة الى الاسطورة أحياناً ، ولم تحظ الا نادراً بتطورات تلك الحقبة التي كانت أخبارها تزداد اضطراباً ، كلما ابتعد العهد بالمؤرخ عنها ، خلافاً لما يسمى بـ « كتاب المرحلة الكلاسيكية » الذين عاصروا أحداثها عن كتب واتيحت لبعضهم المشاركة فيها (٥) .

ولذلك فإن الكتابة عن الحجاز قبل القرن السادس ، محاولة على جانب كبير من الصعوبة ، حيث لا يتوفر من التفاصيل الا ما يمكن استخلاصه من اخبار اليمن ، مركز الاستقطاب في شبه الجزيرة منذ ألف ونيف قبل الميلاد . وهي معلومات عن ضآلتها ذات محتوى جغرافي لا يخلو من الاهمية ، كانت وراءها في الغالب اهداف عسكرية واقتصادية . اما بقية التفاصيل التي قد تسهم في كشف بعض الجوانب في التاريخ السياسي أو الاجتماعي ، فلا زال المؤرخ يتوسل ما ألح اليه القرآن حيناً وما تناقلته روايات الاخباريين شفاهة حيناً آخر .

(١) اليقوي، تاريخ اليمن، ج ١ ص ١٩٩

(٢) مونتغمري ولوت ، محمد في مكة ص ٣٥ . ترجمة شعبان بركات .

(٣) لطفي عبد الوهاب ، العرب ص ١٢١ وما بعدها

(٤) المرجع نفسه ص ٣٤٣

(٥) هيرودوتوس الذي قام برحلة الى الشرق الادنى . والمؤرخ العسكري بلينيوس أحد ترو الاسكندر والجغرافي ارستوبولوس أحد المقرئين من هذا الأخير . وكذلك اجاثارخيدس . AGATHARCHIDES من العصر البطلمي . لطفي عبد الوهاب ، العرب ص ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ .

وإذا كان التكوين التاريخي للحجاز، غير واضح المعالم تماماً في العصور القديمة، فإن التكوين الجغرافي لم يكن خالياً من التعقيد، لا سيما في مجال تحديد الأطار العام للأقاليم الذي بقي مضطرباً ومتداخلاً مع غيره، وذلك حتى في العصور الإسلامية الأولى. فهو برأي الجغرافيين العرب يمثل أحد ثلاثة أقاليم متميزة في شبه الجزيرة: الأول، ساحلي منخفض (تهامة) والثاني جبلي متفاوت الارتفاع (الحجاز أو السراة) والثالث هضبي داخلي (نجد). وقد يضاف إليها لدى بعضهم (اليمن) في الجنوب (والعروض) في الشرق⁽¹⁾. وهي أسماء لها دلالات لغوية على عادة العرب، الذين كان لهم شغف بهذا النوع من التسميات⁽²⁾. بيد أن هذا التوزيع التضاريسي لشبه الجزيرة عامة وللحجاز خاصة، لا ينسجم مع خلفيته اللغوية بصورة دقيقة. فغالباً ما تذبذبت الحدود وتارجحت معها المدن من أقاليم إلى أخرى، كان يمتد الحجاز مثلاً إلى تبوك في الشمال أو يترجع جنوباً وراء يثرب⁽³⁾. . . وقد تدخل هذه الأخيرة في نجد القريبة منها⁽⁴⁾، وتصبح اليمامة جزءاً يضاف إليها في الحجاز مع مكة والطائف، إلى آخر هذه الحلقة المتأوجة التي لا نجد لها تحديداً مستقراً في كتابات الجغرافيين والرحالة⁽⁵⁾.

ولكن الحجاز يأخذ الكثير من ملامحه المستقلة، كأقاليم جغرافي متميز، رغم تداخله بصورة متفاوتة مع تهامة واليمن ونجد، فضلاً عن اليمامة⁽⁶⁾. ويفضل موقعه المتوسط والمتداخل هذا، أطلق الحجاز بعد عزلة طويلة على سواحل الخليج الفارسي والمحيط الهندي والبحر الأحمر، ليصبح منذ القرن السادس مركز الاستقطاب الأول ومحور الحركة

(1) هناك من قسّم شبه الجزيرة إلى أربعة أجزاء أو (كور) وهي: الحجاز، اليمن، عُمان، هجر. انقاسي، الحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 68. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج 2 ص 219.

(2) اشتقت (تهامة) من «التهيم» وهي شدة الحر. وإنجد تعني الهضبة المرتفعة. و (العروض) لاعتراض ما بين نجد واليمن والعراق. و (اليمن) من اليمن أو اليمن. أما الحجاز، فتمة مدفولات عدة تحقق في الاشتقاق اللغوي لمثل الكلمة، اقرا د بها والحاجزة أو «الفاسلة»، ولكنها تختلف في تحديد المناطق التي يفصل بينها هذا الأقليم. فيقال، لأنه يحجز ما بين نجد وتهامة أو الفور كما يطلق على هذه الأخيرة، أو لأنه يحجز ما بين تهامة والشام من جهة وبين الصحراء من جهة ثانية، فضلاً عن اشتقاقات أخرى ليست لها علاقة بالتحديد الجغرافي. راجع:

الحمداني، صفة جزيرة العرب ص 47 49 البكري، معجم ما استمعهم ص 8. الأسطخري، المسالك والممالك ص 21. ابن الجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز للسادة تاريخ المسبج ص 1 ص 39. تصحيح أوسكر لوفقرين.

سعد زغول، عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام ص 73.

(3) الأسطخري، المسالك والممالك ص 25.

(4) ابن خردادبة، المسالك والممالك ص 128.

(5) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض ص 38. ابن الجاور، تاريخ المسبج ص 1 ص 39-40.

(6) ابن حوقل، صورة الأرض ص 38. ابن الجاور، تاريخ المسبج ص 1 ص 39-40.

التجارية في شبه الجزيرة العربية. ومن هنا كان التعريف المبني للحجاز، الذي يكاد يتفق عليه معظم المؤرخين والجغرافيين، بأنه الشريط المرتفع، المعروف بجبال «المرأة»، الممتدة على محاذة البحر، من العقبة (أيله) في الشمال حتى عسير في الجنوب⁽¹⁾. ولعل أقدم الخرائط عن شبه الجزيرة، تتفق وهذا الامتداد الجغرافي للحجاز⁽²⁾، كما يتفق معه تحديد (القرظوني) بأنه «حاجز بين الشام واليمن وهو مسيرة شهر»⁽³⁾، و (المسعودي) بقوله «انه حاجز بين الشام واليمن والتهائم»⁽⁴⁾ أو «ما حجز بين الشام واليمن» حسب تعبير (الهمداني)⁽⁵⁾.

أما البكري فقد وصفه بأنه «ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز الى ناحية فيد والجبلين الى المدينة، ومن بلاد مذحج تثلث وما دونها الى ناحية فيد فذلك كله الحجاز»⁽⁶⁾. وقد نستنتج من ذلك ليس فقط تحديد الشكل الجغرافي للحجاز، ولكن أيضاً الأهمية المحورية التي تحول معها من أقليم «حاجز» منكفئ على عزلته أو يدور في فلك الدول المحيطة به (معين وسبأ وحبر) في الجنوب أو (الانباط) في الشمال⁽⁷⁾، الى نقطة متوسطة في شبكة المواصلات التجارية، أصابت من النجاح والتطور، ما لم تصبه هذه الدول في هذا المجال.

وليست السلسلة الحجازية أو المرأة (المرات)⁽⁸⁾ على ارتفاع متناسب، فهي تختلف من مكان لآخر. ولكنها بصفة عامة مرتفعة في الشمال، منخفضة في الوسط، ثم مرتفعة مرة أخرى عند اقترابها من اليمن⁽⁹⁾. وقد عرف قسمها الأول المرتفع بجبال (مدین)، حيث تصل قممتها الى نحو ثلاثة آلاف متر، ولا تلبث ان تنخفض تدريجياً بعدها حتى تصل الى نحو ألف متر بالقرب من يثرب، وإلى نحو مائتي متر فقط عند جبل (رضوى)، الى الشمال الغربي منها⁽¹⁰⁾.

(1) أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجبلية وعصر الرسول ص 13
(2) أحمد سوسة، العراق في الخواطر القديمة رقم (30). عبد الله ماجد - علي البنا، الأطلس التاريخي العام للعالم الاسلامي،

رقم (1)

(3) القرظوني، آثار البلاد وأخبار العباد ص 84.

(4) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 35

(5) الهمداني، الصفة ص 50.

(6) البكري، معجم ما استمع من ص 8

(7) حورو علي، لمصلح ج 3 ص 10، حافظ هبة، جزيرة العرب في القرن العشرين ص 14. جورج فضل الحوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي من العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ص 86

(8) جواد حي، الفصل ج 1 ص 56

(9) صلاح الدين الشامي، الوطن العربي، دراسة جغرافية ص 80

(10) القرظوني، آثار البلاد ص 88.

وفي المنطقة الوسطى، حيث تقع مكة، تعرف باسم جبال (الطائف) التي يتراوح ارتفاعها ما بين ستمائة متر ومائتي متر (جبل كرا) (1). أما في الجنوب فتعود الى الارتفاع، حاملة الاسم نفسه (السراة)، لتبلغ نحو ثلاثة آلاف متر تقريباً عند عسير (2).

وتخترق هذه السلسلة مجموعة من الوديان، كان لها تأثيرها في توجيه هذا الاقليم نحو السهول الساحلية أكثر من الداخل، حيث أسهمت في تقطيع أوصال السفوح الغربية، بشكل جعل عبورها أمراً ميسوراً، خاصة وإن الماء قلماً يجري في هذه الاودية. ولذلك اختفت منها الانهار الكبيرة وحل مكانها ما يعرف بـ (الجعافر)، وهي عبارة عن نهيرات تتلقى مياه السيول الطارئة أو تتزود من الامطار القليلة، التي سرعان ما تنضب تحت تأثير المناخ الصحراوي السائد في الاقليم (3).

ولعل هذه الاودية كان بعضها أنهاراً جارية أبان ما يعرف «جيولوجياً» بالعصر المطير، وذلك لكثرة ترسباتها التي تحملها عادة مياه الانهار. وهو ما تؤكده مؤشرات الكتاب الاغريق عن وجود نهار معروفة، تركوا لنا اسماها ومواقع جريانها ومصباتها، في البحر الاحمر أو الخليج الفارسي (4). على أن ذلك لا يجزم بوجود انهار كبيرة دائمة الجريان، حيث يحتمل أن يكون ما أشار اليه بعضهم نوعاً من مجاري الوديان المعروفة، التي تنضب عادة مع بدايات فصل الجفاف. ولعل النهر الكبير الذي زعم (بطليموس) أنه ينبع من السفوح الشرقية لجبال الحجاز، ليس إلا وادي الدواسر على الأرجح، الذي يتغذى من مياه الامطار المتساقطة على جبال اليمن. ذلك أن أحداً من علماء التاريخ أو الآثار لم يستطع حتى الآن تأكيد ما يتعدى هذا الافتراض (5).

وهكذا فقد كان هنالك اتجاهان لأودية الحجاز، أحدهما الى البحر الاحمر، كوادي أضيم (الحمض) (6)، الذي يمتد من (خيبر) الى جنوب (الوجه)، متصلاً بوادي القرى والعقيق التي تعتبر من أعظم أودية الحجاز (7). والاتجاه الثاني الى نجد، حيث السفوح الشرقية أقل انحداراً من الغربية، ومن ثم الوديان أكثر طولاً وأقل عمقاً واحتفاظاً بالماء.

ومن أهم الوديان هنا، (وادي الرمة)، الذي يمتد من (فدك) الى (القصيم) في

(1) يقع بين مكة والطائف. الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني الهجري ص 13

(2) عبد الفتاح وهيتة عماد سموي، معالم الوطن العربي ص 14، لطفي عبد الوهاب، العرب ص 92

(3) جواد علي، الفصل ج 1 ص 157-158

(4) جواد علي، الفصل ج 1 ص 159

(5) المكان نفسه، لطفي عبد الوهاب، العرب ص 201

(6) المرجع نفسه ج 1 ص 161

(7) أحد الجاسر، في شمال غربي شبه الجزيرة ص 521، الشريف، مكة والمدينة ص 14-15

الشرق . وكذلك (وادي القرى) الشهير الذي يقع الى الشمال من يثرب (بين تبءاء وخيبر)، وهو عبارة عن مجموعة من الاودية التي تتصل مياهها بوادي الحمض السابق ذكره⁽¹⁾، وقد كانت إحدى المحطات التجارية المهمة على طريق الشام قبل الاسلام⁽²⁾.

بيد أن هذا «الحاجزه الجبلي رغم ارتفاعه في بعض المواقع، لم يحدث تغييراً مهماً في مناخ الاقليم، الذي كان أكثر تأثراً بالحرارة والرطوبة المرتفعتين في (تهامة) فضلاً عن ضغط الصحراء وجفافها في الشرق، مما انعكس على طبيعته الانتساجية، حيث انحسرت الاقليل الاراضي الصالحة للزراعة في بعض الاماكن، بينما انعدمت تماماً في أماكن أخرى.

وكانت مراكز الاستقرار الحجازية تمثل بوضوح هذا التباين الذي فرضته الطبيعة، حيث سمحت بقيام مجتمع زراعي في الطائف، معوضة الحرمان الذي عانته مكة وحولها الى مدينة تجارية، بينما اعتمدت يثرب على عدة مصادر، في طبيعتها الزراعة وبعض الحرف الصناعية المحدودة⁽³⁾.

(1) حمد الجاسر، في شمال غربها شبه الجزيرة ص 227

(2) المقدسي، احسن التقاسيم ص 97. جواد علي، المفصل ج 1 ص 168

(3) معجم البلدان ج 4 ص 9. ج 83.

الكثالي، الترتيب الادارية ج 2 ص 44، 50

التكوين السكاني

هكذا تبدو اللوحة القبلية في الحجاز ، متناسقة الخطوط متمازجة الألوان ، ان لم يكن في منحدرات اصولها ذات التشعب « الفطري » الواسع ، ولكن في ظروفها الجغرافية والاقتصادية المتشابهة ، بحيث لا نجد كبير تباين بين مامو شائع عن وجود لمطين مختلفين تماماً في المجتمع الحجازي ، أحدهما حضري والأخر بدوي .

ان البحث في التكوين السكاني لمكة قبل الاسلام ، أو بالتحديد قبل قريش ، على شيء من الصعوبة ، حيث اقترنت شهرة المدينة بهذه القبيلة ، التي زامت نهضتها التجارية وانعظفت بها الى الاسلام . . التحدي الكبير الذي قضى على نظامها من الداخل . فالى قريش يعود الفضل في تأسيس التجارة المكية وتوجيه خطتها العام ، الذي انتهى بها الى احتكار حركة النقل والسيطرة على الطرق الرئيسية بين اليمن والعراق والشام .

ولقد تركت لنا مصادر التاريخ أخباراً لا تخلو من الاضطراب عن قبائل متفاوتة الاهمية والنفوذ ، سبقت قريش الى هذه المنطقة ، سواء في مكة أو في غيرها من المراكز الحجازية . ولعل أقدم هذه المجموعات القبلية ، تلك المعروفة بالعماليق (العمالقة) ، الا أن اصولها ما تزال غامضة لا تتعدى الاعتقاد السائد بأنها من بقايا الحميريين في اليمن» ، حيث أخذت هذه الاخيرة تدفع بموجات من القبائل اثر اختلال أوضاعها السياسية والاقتصادية . ويبدو أن العماليق كانوا إحدى هذه الهجرات الكبيرة ، التي امتدت الى الاقليم الحجازي ، دون أن تقتصر على مكة فقط .»

والاخبار نفسها تتحدث عن قبيلة اخرى خلفت العمالقة الذين هاجروا الى تهامة ،

(1) الناسي ، المعقد الثمين ج 1 ص 130

(2) ابن رسته ، الاعلاق النخبة ص 60

حيث الماء أكثر وفرة والارض أشد خصوبة (1) ، وهي قبيلة جرهم ، المعاصرة على ما يبدو لظهور الكعبة (2) ، التي بنيت فوق ربوة مرتفعة تجنباً لخطر السيول المفاجئة التي تعرضت لها مكة بين حين وآخر (3) . وما لبثت هذه القبيلة أن تخلّت عن السيادة في مكة لبني حارثة الخزاعيين ، وذلك بزعماء عمرو بن لحي ، أول منظم لعبادة الاصنام في الكعبة ، التي حلّت مكان الحنيفية ، عقيدة العرب في أيام ابراهيم ، حسب ما تناقله الاخباريون في هذا السبيل (4) .

ويبدو أن هذا الزعيم الخزاعي ، قد احتلّ دوراً بارزاً في مكة ، تعلّى التأثير الديني وتنظيم العبادات فيها ، حيث اقترن اسمه مع بدايات الانفتاح الحجازي وتلقي المؤثرات الخارجية ، التي كان لها انعكاس ايجابي على المجتمع المكي بصورة خاصة . فقد كان لهذا التنظيم الديني ابعاده السياسية والاقتصادية ، بحيث اتخذت مكة في ظله ، المركز الاستقطابي لعبادات البدو ومصالحهم وعلاقاتهم المتبادلة ، وغير ذلك من شؤونهم الحياتية . ومن هذا المنظور ، فإن عمرو بن لحي ، قد وضع نواة النظام المكي ، الذي تكرّس بشيء من التفصيل مع زعيم قريش قصي بن كلاب .

وفي غمرة البحث عن مناطق استقرار القبائل المهاجرة والصراع على النفوذ في الحجاز ، سنجد مكة هدفاً رئيسياً لهذا التحرك ، وذلك لموقعها الجغرافي المتداخل مع خطوط المواصلات التجارية الأكثر أهمية في بدايات القرن السادس الميلادي ، أي في زمن اشتداد الهجرة القبلية نحو الشمال . وهذا ما يفسر التنافس حينذاك على سيادة المدينة التي اتخذت ، بفعل ذلك ، في التحوّل الى سوق الحجاز المركزي (5) ، المتفوق على بقية الاسواق الداخلية الأخرى .

ويفسر أيضاً هجرة العمالقة الى تهامة ، حيث عمر القوافل القديم قبل أن تصبح مكة مقصدها وعطنتها الكبرى في شبه الجزيرة . أما خلفية هذا الصراع في رأي الاخباريين ، فلا يتعدى الاطار الديني الاخلاقي ، حيث أشارت رواياتهم الى طغيان العمالقة

(1) المسعودي ، مروج ج 2 ص 19

(2) يرتبط ظهورها بابراهيم وابنه اسماعيل ، وحسب رواية الاخباريين تزوج هذا الأخير من امرأة جرهمية وأنجب منها ما يعرف بمجداد عرب الشمال أو العدنانيين . اليعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 222

(3) الأزرق ، أخبار مكة ج 1 ص 53

(4) ابن الكلبي ، الاصل ص 8 . المسعودي ، مروج ج 2 ص 30

(5) للمسعودي ، مروج ج 2 ص 22

والجرهميين وه فسادهم في الأرض» (١)، دون الاحاطة بتفاصيل هذا السلوك وخلفياته غير الدينية، المحركة لذلك الصراع على النفوذ، في منطقة استقطاب، كانت تتعاطم أهميتها مع المتغيرات السياسية والاقتصادية في ذلك الحين.

ولقد نظر المؤرخون الى فترة ما قبل السيادة القرشية في مكة، حيث يتصل بها النبي والمسلمون الاوائل، على أنها صورة ثانوية من التاريخ العربي. لذلك لم تنل حقها من الاهتمام، شأن الفترة اللاحقة. فانخفضت الأقبالي، التفاصيل التي يمكن أن تضعنا على معرفة شاملة للموضع السكاني في هذه المنطقة ونواحي التحرك القبلي وحدوده الزمنية فيها. وتكاد تقتصر معرفتنا بأحوال مكة السكانية في تلك الفترة، على أنها خضعت بضعة قرون لنفوذ القبائل اليمنية المهاجرة، قبل أن تستأثر قريش بالسيادة عليها، في اعقاب القضاء على (خزاعة)، آخر هذه القبائل (٢). ويبدو أن القرشيين حملوا شيئاً من الخبرة في التجارة، اكتسبوها من قبل، لتأخذ مكة على يدهم دورها المميز كمحطة حيوية في تجارة الشرق. وقد ساعد على ذلك أن الحجاز كان خارج دائرة التنافس السياسي للمستشري حينذاك في المنطقة، وعلى هامش القضايا الكبرى المحركة للاحداث، حيث كانت معاورها لا تزال على الاطراف من شبه الجزيرة. فإذا ما أشرف القرن الخامس على نهايته أو كاد، بات واضحاً تعديل مواقع الاستقطاب باتجاه الداخل، لا سيما المتوسطة، التي اتخذت طابعاً أكثر مركزية من المواقع السابقة، مما سيكون له تأثير كبير على التطور المستقبلي للأقليم الحجازي، قلب الدولة الموحدة ونواتها الأولى في ظل الاسلام.

ان «دولة قريش» في مكة التي أسسها قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، لم تكن سوى مرحلة أكثر نضجاً في هذه المدينة، التي كان للقبائل اليمنية السالفة دور كبير في تحضيرها وتطوير أنظمتها السياسية والاقتصادية.

وكانت (خزاعة) من أبرز هذه القبائل التي ارتبط اسمها بالؤسسة الوثنية، محور ذلك التطور والمنعطف الحقيقي في الزعامة المكية للحجاز. فقد مثلت الحقبة الخزاعية، التي كانت من أطول عهود مكة قبل الاسلام (٣)، الدور التأسيسي الاول في شخصية هذه الاخيرة، تلك التي تبلورت آبان الحقبة القرشية. وعلى الرغم من اشتداد المنافسة على النفوذ في المدينة، فقد صمدت خزاعة طويلاً واحتفظت بالزعامة المطلقة، حتى انتقلها الى

(1) البطريق، تاريخ ج ١ ص 322. السعدي، مروج ج 2 ص 23.

(2) البلاذري، الساب ج ١ ص 49. تحقيق حميد الله.

(3) يقدر المؤرخون الحقبة الخزاعية بثلاثة قرون. للسعدي، مروج ج 2 ص 32.

قريش ، بعد أن قادها قصي إلى السلطة بصعوبة ، مهدداً لذلك بالزواج من ابنة آخر الملوك (1) الخزاعيين ، بحيث انتقلت إليه الزعامة بصورة شبه وراثية .

والتكوين السكاني في الحجاز ، ينضج بصورة عامة لتأثير الطبيعة الصحراوية التي أوجدت غططين مختلفين ربما في طريقة الحياة ، ولكنها متكاملان في جزء كبير من الظروف الاقتصادية والمفاهيم الدينية والاجتماعية .

وكانت مراكز الاستقرار الكبيرة ، لا تتعدى الثلاثة ، تضاف إليها مراكز ثانوية أخرى ، منتشرة بأكثريتها حول يثرب ، حيث مناطق التجمع اليهودي في الغالب .

وإذا كانت بعض الاخبار قد حفظت لنا القليل من تاريخ مكة القديم ، لا سيما المراحل التي سبقت السيطرة القرشية عليها ، حيث الفاصل بين حقبة مضطربة اعتمدت على روايات ، لم يكن الغرض منها عملاً تاريخياً يتوخى الحقيقة ، بقدر ما توخى المتعة أو العبرة ، وبين أخرى تقترب بحدود متفاوتة من التدوين وبدايات الوعي التاريخي عند العرب ، الذي كانت بواكيره في الحجاز منذ القرن الاول الهجري ، فإن هذا القليل قد لا يزال شبه مجهول في الخواضر الأخرى ، كالطائف ويثرب وبعض المزارع والمحطات التجارية المتعددة ، كذلك التي أشرف عليها اليهود ، مثل وادي القرى وخيبر وفدك وتباه وغيرها (2) .

أما الطائف ، فكانت مجهولة التاريخ أو تكاد قبل ارتباطها بثقيف المعاصرة لقريش في مكة . ولكن أخباراً قد لا يرقى كثيرها إلى الموضوعية ، تشير إلى ظهورها في زمن العمالقة ، سكان مكة الأوائل (3) . على أن هذه المدينة التي استمدت قوتها المعنوية من توحيد الثقفين لها ، بعد جهود مستميتة ، قدّر لها أن تشغل دوراً غير ثانوي في تاريخ الحجاز ، حيث كانت منذ البدء حليفة لقريش ، على الرغم من طموحها إلى انتزاع الدور المركزي منها . ويبدو أنها حققت بعض النجاح في هذا السبيل ، مع تحوّل طريق العراق إليها من مكة ، الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب الفجار ، التي كانت في مضمونها تهديداً للتجار الذين سلكوا هذا الطريق (4) . ولكن ثقيف لا تلبث أن تعود إلى الاعتراف بصدارة منافستها قريش ، كحليفة عضوية لها (5) . حيث شكّلت القبيلتان جبهة متماسكة

(1) للمعدي ج 2 ص 37 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج 2 ص 20

(2) أحسن التقاسيم ص 107

(3) يشير الأخباريون إلى أن أول مكانها بعد العمالقة ، هم بنو عدوان بن عمرو بن نيس بن عيدان بن مضر ، ثم بنو عامر ابن صعصعة بن ملحون بن بكر بن هوازن ... وأخيراً بنو ثعلبة . ابن الأثير ، الكامل ج 1 ص 684

(4) جواد علي ، المفصل ج 4 ص 115

(5) H. LAMMENS, La cité du taif, P119

حتى نهاية العصر الأموي .

ولعله من الصعب جداً تحديد الوقت الذي حلّ به الثقفيون في الطائف ، وإن كان من المرجح أنه متأخر على نزول قريش في مكة والسيطرة عليها . ويعتقد (لامنس) أن هذه المدينة ، كانت منذ بداية القرن السابع ، المركز الرئيسي لقبيلة ثقيف (١) . على أن ذلك قد يحتاج إلى تحديد أكثر دقة ، في ضوء ما كانت عليه العلاقة بين القبيلتين في مكة والطائف ، والتي يفترض أن جداولها امتدت إلى أبعد من هذا الوقت . وثمة دلالات تشير إلى قدم التحالف بين الطرفين ، خاصة بعد نجاح القرشيين في السيطرة على التجارة الداخلية وتحول مدينتهم إلى سوق الحجاز المركزي ، ومن ثم حاجة الثقفيين في المقابل إلى تصريف إنتاجهم الزراعي وتسويقه في مكة .

ويبدو أن وحدة المصالح بين القبيلتين المتحالفتين ، قد انتهت بهما إلى اقتسام النفوذ عشية الدعوة إلى الإسلام . فكانت لقريش السيطرة المطلقة على تجارة الشام ، بينما تركت للطائف تجارة اليمن ، تتولى مراقبتها والإشراف عليها ، وذلك في ظل هيمنة عامة للأولى ، لم تقتصر على الطائف فقط ، ولكنها امتدت حينذاك إلى مختلف مواصلات شبه الجزيرة **وصحافتها** (٢) . وكانت هذه المدينة تنوق إلى الحد من هذه التبعية والارتباط المباشر بالاقتصاد المكّي ، حيث الطبيعة هيأت لها أسباب المزاومة مع اندادها القرشيين ، ولكن الدماء الذي تفوقت به الشخصية الثقفية ، سقط أمام خبرة هؤلاء وتراثهم القديم في التجارة (٣) .

ولعل التطوّف الثقفي إزاء الدعوة الإسلامية ، كان يلتقي وهذا الطموح الذي أحبط في زمن السيادة القرشية . فكان ذلك الموقف المتصلب ومعه تلك المحاولة المستميتة ، حتى بعد سقوط مكة واستسلام الخلفاء الكبار ، حيث اعتقدت الطائف عن خطأ في التقدير ، أنها قادرة ربما على تزعم التيار المناهض لدولة (المدينة) ، كبديل لمكة ، وورثة زعامتها المنهارة . ولقد كانت نواة هذه الجبهة في التحالف الثقفي - الهوازني ، الذي شعر بفداحة الخطر على مصالحه المهدّدة ، فخاض حرباً يائسة ضد النظام الجديد (٤) .

أما يثرب التي وُصفت بأنها « أقل من نصف مكة » (٥) ، فكانت على مسافة بعيدة من

(1) Lamments, la cité de taif P 59

Op, cit, P 118

Ibid (3)

(4) البعقري ، تاريخ ج 2 ص 62-64

(5) ابن حوقل ، صورة الأرض ص 37

هذه الأخيرة (١) ، مما حدا ببعض الجغرافيين العرب ، الى اعتبارها « نجدية » أكثر منها « حجازية » (٢) . وعلى الرغم من وقوعها في دائرة المواصلات الرئيسية لتجارة الشام ، فإن حظها من التجارة الخارجية كان محدوداً اذا ما قورنت بمكة ، حيث كان يجلبها علم الرضا ازاء احتكار الأخيرة لها ، ذلك الشعور التنافسي الذي سيطع العلاقات المستقبلية بين المدينتين الاعظم في الحجاز . ويدون سكانها اليهود تحولوا من محترفين للزراعة الى مستثمرين لها ، أو عمولين لبعض حاصلاتها عبر المزارعين العرب ، الذين نزلوا في ضواحي يثرب ، وذلك قبل أن يستقر بهم الاحتراف للتجارة ولرؤسائها وبعض الصناعات الحديدية (الأسلحة) والذهبية (الصياغة) وغيرها (٣) .

وقد يحملنا ذلك على الاستنتاج ، بأن العرب في أول عهدهم بهذه المدينة نزلوا في الجوار منها واعتاشوا من الزراعة ، بعد أن « تفرقوا في عالياتها وسافلتها ، ومنهم من نزل مع قوم من بني اسرائيل في قراهم » حسب قول السهوني (٤) . ولعل هذا الوضع استمر طويلاً قبل أن يصل العرب (الاوس والخزرج) الى تحقيق معاهدة جوار مع اليهود ومن ثم التعايش معهم في يثرب ، حيث يضيف المؤرخ نفسه « فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا ، فلم يزلوا على ذلك زماناً طويلاً وأمرت (كثرت) الاوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأوا قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتمنوا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم » (٥) .

وكان هذا التركيب السكاني غير المتجانس في يثرب ، قد أفقدها المبادرة وأعاق تبوأها دوراً أكثر أهمية في الحجاز . فانطوت بصورة شبه دائمة على صراعات داخلية ضارية ، قضت على جزء كبير من طاقاتها ، وجعلت منها بالتالي مجتمعاً يكاد يكون مغلقاً ، وذلك خلافاً لما حققه الانسجام في هذا المجال ، فرصاً جيدة للخروج من العزلة والانفتاح وراء حدود الحجاز ، عبر شكل من « المؤسسة الجماعية » ، الممثلة لاصحاب النفوذ وكبار التجار فيها .

لقد كانت يثرب تؤلف عدة كتل قبلية ، تفتقد الى التماسك وتتفرد عن بعضها في أحياء مستقلة ، كنتيجة لذلك التناثر الدائم والصراع المستمر على النفوذ في المدينة .

(١) تقع يثرب على مسافة نحو ثلاثماية ميل الى الشمال من مكة

(٢) القلقشندي ، جاية الأرب في معرفة انساب العرب . ص ١٧ .

(٣) والفنسون ، تاريخ اليهود ص ١٩

(٤) السهوني ، وفاء الوفا ج ١ ص ١٧٧ .

(٥) المصدر نفسه ، وفاء الوفا ج ١ ص ١٧٨ .

وهي ، شأن حواضر الحجاز الأخرى ، كانت أحد مراكز استقرار (العمالة) ، حسب رواية الأخباريين التقليدية (١) . فتمة حلقة غير واضحة تماماً ، ترافق التكوين السكاني لهذه المدن ، بين سكانها الذي عاصروا ظهور الإسلام ، وبين امتدادهم القديم عبر القرون الحالية . وهي بدون ريب من محصلات التحرك القبلي المتماوج وغير المستقر ، وما رافقه من تقاتل على السيادة والنفوذ ، أحد الملامح الرئيسية لتلك الحقبة . ولذلك فإن العهود المبكرة من تاريخ يثرب ، يستأثر بها الغموض شأن مكة والطائف وربما كانت أكثر تعقيداً منها ، حيث انعكست عليها تناقضات المجتمع بقبائله اليهودية والعربية ، المتنافسة والمتباغضة .

وتتضارب الأخبار حول اليهود في يثرب ومنايع هجرتهم الأولى . هل هم وافدون إلى المنطقة مع عقيدتهم ، أم من سكانها المتهودين بفعل مؤثرات دينية تسربت إليهم من اليمن أو من الشام ؟ على أن اليعقوبي في « تاريخه » ، يجيب على جزء من السؤال ، فيرى أن اثنين من قبائلهم (النضير وفريضة) تنتميان إلى جدام ، إحدى القبائل اليمنية المهاجرة إلى الحجاز ، ثم استقرتا بعد تهودهما في يثرب عند جيلين يحمل كل منهما الاسم نفسه الذي عُرفت به القبيلتان المذكورتان (٢) ، وذلك دون أن يتعرض (اليعقوبي) للقبيلة الثالثة (القينقاع) ، التي افتتح الرسول معها صراع الإسلام مع اليهودية في شبه الجزيرة ، في أعقاب معركة بدر (٣) . وثمة من يرى القبيلة الأخيرة ، نواة اليهود في يثرب ، عن رافقوا موسى للحج في بلد « خاتم النبيين » (٤) ، فتخلقت طائفة منهم ونزلت في « موضع سوق بني القينقاع ، فكانوا أول من سكن موضع المدينة » (٥) . وآخر يرى بأن يهود يثرب يمثلون هجرة لها خلفية ميسية وليست دينية ، عندما هربوا من الاضطهاد في فلسطين ، الذي بلغ ذروته في العصر الروماني (٦) .

وليس من السهولة تحديد هوية اليهود الحجازيين ومدى جدية الانتماء العربي لدى بعضهم ، أو العلاقة مع الهجرة اليمنية إلى الشمال ، خاصة بعد اشتداد صراع العقائد في الدولة الحميرية والاضطهاد المتبادل بين أصحابها . فبينما يستثنى (أوليري) ، بني القينقاع ، بارجاعهم إلى أصل عربي (٧) ، يعتقد (لامنس) ، أن بعض يهود الحجاز ، لا

(1) السهمودي ج 1 ص 157 العباسي ، عملة الأخبار في مدينة المخار ص 34

(2) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 49 ، 52

(3) ابن الأثير ، الكامل ج 2 ص 138

(4) السهمودي ، وفاء الوفا ج 1 ص 162

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 157

(6) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج 1 ص 289 . العباسي ، عملة الأخبار ص 34 . السهمودي ، وفاء الوفا ج 1 ص 160

(7) O'LEARY, Arabia Before Muhammad P 173

سيا « جالية الطائف » ، كان نتيجة تلك الحروب الدينية ، التي انغلخت مسرحها آنذاك في اليمن (١) . ذلك أن فشل الملك الحميري (ذي نواس) في تهويد هذه الأخيرة ، الذي كان من نتائجه المثيرة « مذبحه نجران » ، وما جرّت اليه من احتلال حشبي ، لم يكن انتقاماً لضحاياها النساطرة (٢) المتعاطفين مع الفرس ، ولكن احتواء لليمن قبل سقوطها في قبضة هؤلاء ، حيث مهدت لذلك ، ربما بصورة غير مباشرة ، موجات التبشير اليهودي والنسطوري على نطاق واسع في ذلك الحين . وهذه الحادثة التي ترد وكأنها من نتائج ذلك التنافس التبشيري ، كانت في جوهرها صراعاً على النفوذ الاقتصادي ، ومحاولة للهيمنة على طرق التجارة ، حيث تعتبر نجران أحد فروعها المهمة التي تتوزع منها المواصلات الى الخليج والعراق ، عبر وادي الدواسر واليامة ، أو الى الشام عبر الخط البري التقليدي وغوره المركزي في مكة (٣) .

وهكذا جاء استثمار الاحباش والبيزنطيين لمجزرة « الاخذود » (٤) ، على رغم الاختلاف العقائدي مع ضحاياها (٥) ، كتسويق لتلك الحملة العسكرية التي أدّت ربما الى افرار اليمن من اليهود - وربما كان الاتجاه نحو الشمال هو الخيار المفضل والطريق الآمن لهؤلاء الهاربين من الاضطهاد المعاكس . فلم يكن مصادفة انفراد هذا الجزء من شبه الجزيرة بمراكز الاستقرار اليهودي ، في وقت كانت تؤهلها الظروف الجغرافية والتاريخية لدور غير عادي . ولعل التطورات التي رافقت حملة الحبشة ، قد أسهمت ربما بصورة غير مباشرة في عملية اقتسام النفوذ الديني ، بمثل ما أسهمت من توزيع للنفوذ السياسي ، حيث سادت المسيحية في اليمن وانتشرت اليهودية في الحجاز .

بيد أن وضوح المصدر الذي يرجّح أن قبائل اليهود قد وفدت منه الى يثرب والمراكز المجاورة لها ، لا يؤدي حكماً الى وضوح انتمائهم الاساسي الذي يبقى مجرد فرضية ، بأنهم يتحدّرون من خارج المنطقة ، حيث ظلوا خلافاً للمسيحيين جسماً غريباً عنها ، غير متطبّعين بحياتها الا بمقدار ما تفرضه المصلحة الخاصة ، محور العلاقة مع القبائل العربية التي لم تخل من الاحتقار المتبادل (٦) . ولعل تجربة اليهود في يثرب تعزّز هذا الاتجاه ، حول انعدام التأثير أو التأثير مع الآخرين ، بحيث أدى ذلك الى افتقاد احتمالات التعايش في

LAMMENS, L'Arabie occidentale avant l'Hégire P 541. La cité de taif p 85 (1)

(2) كانت الدولة البيزنطية المشجعة للغزو الحبشي ، لمحت أصحاب العقيدة النسطورية المشقين في جميع انفسوس (431 م)

وتلكن مؤسستها نسطوريوس . بيتر ، الامبراطورية البيزنطية ص 101

(3) جواد علي ، المقتل ج ٢ ص 22

(4) ابن الاثير ، الكامل ج ١ ص 428- 429

(5) وات ، محمد في مكة ص 35

LAMMENS, L'Arabie occidentale, p 54 (6)

المجتمع الواحد . فقد ظل عرب المدينة من الأوس والخزرج وثني العقيدة شأن القبائل العربية في الحجاز ، على الرغم من التفوق السكاني الذي كان لوقت غير قصير معقوداً لهؤلاء اليهود (١) .

وتبقى مسألة يهود الحجاز محاطة بالكثير من الغموض ، دون ثمة ما يشير بجلاء الى كيفية وصولهم الى هذه المنطقة أو المصدر الذي قدموا منه . وإذا ما سلمنا بأنهم وفدوا عليها من فلسطين ، حسب الاعتقاد المطروح ، فقد يكون تواجدهم في شمالي الحجاز - أي على تخوم الشام - نتيجة عمليات الاضطهاد الروماني (٢) ، كما أن الوسائل الدفاعية التي اعتمدها لحماية أنفسهم ، عبر اقامة حصون أو ما يسمى بـ « الأطم » (٣) فوق التلال المرتفعة ، تعزّز الاعتقاد لدى المؤرخين بأنهم اقتبسوا ذلك من مناطق استقرارهم الاولى ، ذات الطبيعة الجبلية التي عرفت بهذا النوع من التحصينات المنيع . وثمة دلالة أخرى لهذه « الأطم » العسكرية ، أن اليهود الحجازيين ، تفردوا بهذا التقليد الدفاعي ، ربما تحت تأثير الشعور بالخوف الذي دفعهم الى التكتل والعزلة ، في منطقة كانوا طارئين عليها ولم يطعموا كثيراً الى قبائلها المجاورة لهم (٤) .

أما عن العلاقة بين يهود الحجاز واليمن ، فإن التساؤل هنا يبدو شائكاً الى حد ما ، حيث المعطيات التاريخية لا تتوفر بصورة كافية . ولكن الفصل بين الاقليمين في تلك المرحلة من التجاذب السياسي والبشري والعقائدي ، قد لا يتفق وطبيعة تلك التطورات التي شهدتها المنطقة الجنوبية منذ بدايات القرن السادس الميلادي . ولعل أبرز مؤشرات هذه العلاقة ، ما ورد في (المحبر) عن هجرة يهودية من « أرض الحجاز الى اليمن » (٥) ، في فترة مابقة على حملة الحبشة التي يفترض أنها اضطهدت اليهود والمتهودين ، ودفعت بقسم منهم على الأرجح نحو الحجاز ، حيث نزل في أحياء خاصة (في يثرب) (٦) وبعض المراكز الأخرى ، أو في نطاق « جاليات » تجارية في المدن المزدهرة (الطائف) وتجمعات زراعية في الواحات الخصبة من هذا الاقليم (٧) . كما نلاحظ أحد وجوه هذه العلاقة في

(١) السهموي ، وفاء الوفاج ١ ص 166

(٢) المكان نفسه ج ١ ص 160 .

(٣) قيل في الأطم بأنها « عزّ أهل المدينة ومنعهم التي كانوا يتحصنون فيها من عدوهم » . البياضي عمدة الاخبار ص 35 السهموي ، وفاء الوفاج ١ ص 162

(٤) السهموي ، وفاء الوفاج ١ ص 161 ، LAMMENS, L'Arabie, P 68-69 ، ولفسون ، تاريخ اليهود ص 16 ، 73

(٥) ابن حبيب ، المحبر ص 367

(٦) السهموي ، وفاء الوفاج ١ ص 162 .

(٧) LAMMENS, L'Arabie, P 67, 69

فقدان الموقف اليهودي بعض تماسكه في يثرب بعيد الضربة التي نزلت بيهود اليمن ، بحيث أدى ذلك الى اختلال الوضع الداخلي لمصلحة العرب ، وافساح المجال امامهم لتدعيم نفوذهم كقوة سياسية منافسة لهم في المدينة (١) . وكان من البديهي أن تنعكس سلبات الهجرة العربية بدورها على موقع اليهود في الحجاز ، حيث كان لهذا الانقسام نصيب غير قليل منها . فأسهم ذلك في ازدياد الشعور بالعزلة لدى هؤلاء والخوف على مصيرهم القاتل ، ودفعهم بالتالي الى الشقاق والافتتال (٢) ، نتيجة لهذا الواقع ، الذي تجلّى خاصة في السنوات الاولى من الهجرة الاسلامية .

وهكذا عاش اليهود في يثرب عبر مجموعات ثلاث (٣) ، عرفت في التاريخ بالقبائل ، حيث كان بينها من التنافر ما شابه الصراعات القبلية لدى العرب . ولا شك أن اختلال نفوذهم في المدينة ، كان نتيجة حتمية لحدثهم المضطربة (٤) واخفاقهم في تكوين جبهة سياسية متماسكة . ولم تحمل دون هذا التفكك ، محاولة التأقلم السطحي في الحياة العربية ، كاستخدام الاسماء واللغة والشعر ، وحتى التطبّع بالسلوك القبلي فيها (٥) . فقد جاءت هذه المحاولة على هامش قضيتين أساسيتين في حياة اليهودي الحجازي : الاولى ، مرتبطة بالولاء المصلحي المطلق ، الذي ألغى دور القبيلة كنظام يتعارض والنزعة الفردية ، المتحكممة في سلوكه الاجتماعي والاقتصادي . والثانية ، يحرّكها الشعور الدائم بالخطر ، حيث يعيش في محيط عربي ، للقبيلة فيه نظامها الجماعي وقرارها الالزامي من حيث المبدأ . ولعل ذلك كان وراء الخط الحياتي الخاص ، الذي فرضه اليهود على انفسهم في يثرب ، وانعكس على مظاهر التحصين في احيائهم المغلقة (الاطم) ، وهي تكاد تشبه الى حد ما احياء (الغيتو) GETTO ، التي عاش فيها يهود أوروبا في القرن التاسع عشر ، معزولين عن المجتمعات الأخرى . ولكن الفارق بين «الاطم» و«الغيتو» ، أن الاول كان طوعياً ، يهدف الى اقامة نوع من الدفاع الذاتي ضد القبائل العربية (٦) ، بينما الثاني فرضته الانظمة القائمة والعلاقات الاجتماعية غير المتوازنة ، التي دفع اليهود ثمنها الكثير من الاضطهاد .

وكان يحدث أن يتورط اليهود في الصراعات المحلية في يثرب ، بين العرب من

(1) السهمودي ، وفاء الوفاج ص 166 . ولنسون ، تاريخ اليهود ص 61

(2) ولنسون ، تاريخ اليهود ص 107

(3) قريظة ، القصير ، الفتياع . ولكن (وات) يضيف اليهم قبيلة رابعة هي ثعلبة التي لا نعدون أن تكون فرعاً من المجموعة الاولى (قريظة) ، محمد في المدينة ص 296

(4) المرجع نفسه ص 297

(5) جواد علي ، الفصل ج ص 532 ، 568 ، 581

(6) LAMMENS, L'Arabie, p 82- 88

الأوس والخزرج^(١)، عبر تفجير الخلافات بين القبيلتين وجرحهما الى حالة دائمة من الحرب، وذلك بمؤازرة قبيلة ضد الاخرى. وقد تجسّد هذا التوتر الدائم، بما عرف به «الأيام»^(٢) ومعاركها الغديلة التي استنزفت كلا من القبيلتين، في وقت كانت يثرب تشهد صعود النفوذ العربي على حساب القبائل اليهودية المسكدة بزمان السلطة الفعلية.

وقد يفسر ذلك افتقاد يثرب الى زعامة بارزة على المستوى التنافسي مع مكة، التي وظفت دورها الديني في خدمة مصالحها الاقتصادية داخل الحجاز وخارجه، بحيث كان كل من الدورين متلازمًا مع الآخر ومكملاً له. ولعل يثرب، ربما تحت تأثير أهميتها الجغرافية كمحطة على طريق الشام بعيدة عن مكة، كانت مؤهلة لاحتلال دور الشريك لهذه الاخيرة ان لم يكن المنافس لها. ولكن انطواء هذه المدينة على تناقضاتها الداخلية واستمرار اليهود قوة فاعلة لوقت غير قصير، ربما أعاقا تحاذاها أي دور ديني رائد في الحجاز، وحالا بالتالي دون قيام مركز يهودي أو وثني فيها، وذلك نتيجة لانعدام التجانس، سواء في العقيدة أو في المصلحة بين قبائل المدينة.

وصورة الوضع السكاني خارج المدن أقل وضوحاً، حيث خضعت للتحرك القبلي، المتذبذب حيناً والمتدافع حيناً آخر، فضلاً عن اخباره المضطربة في كتب الانساب، التي تجعل من التسع لمراكز هذه القبائل ودوائر نفوذها، أمراً في غاية الصعوبة. ولا بد أن يعيدنا ذلك الى المنظومة التقليدية، التي تصنّف قبائل شبه الجزيرة بين مجموعتين رئيسيتين: القحطانية في الجنوب والعدنانية في الشمال^(٣). ومن الواضح أن هذه الاخيرة تدخل في نطاق دراستنا، وتمثّل ما يسميه علماء الانساب بالشجرة العدنانية، الممثلة لقبائل الحجاز البدوية والمتحضرة على السواء.

ولعل هذا الفرز القبلي وما يتضمنه من تحديد عرقي، لا يتوافق والنظريات السكانية الحديثة^(٤) التي ترفض هذا الانتهاء التسلسلي، في وقت لم تتوقف فيه هجرة القبائل عند حدّ في التحرك أو التمازج مع بعضها أو مع الآخرين. ولعل الخلفية السياسية تتخذ دوراً أكثر أهمية في الانتهاء القبلي، ذلك الذي تبلور بشكل خاص في العصر الأموي، حيث تكرّس الانقسام الى حزبين كبيرين، مما شجّع النسابيين على تجذير كلّ منهما وتبع فروعه قبل الاسلام^(٥)، على بعد المسافة الزمنية التي تجعل من هذه

(١) من القبائل اليمنية التي هاجرت الى الحجاز ونزلت في يثرب، الغلفشتني، نهاية الارب ص 33، 90.

(٢) ابن الاثير، الكامل ج 1 ص 679 ج 2 ص 99.

(٣) المصدر نفسه ج 3 ص 656-684.

(٤) جواد علي، الفصل ج 49 ص 416-540.

(٥) محمد محمود، الجغرافية والشبكات الدولية ص 50-51.

(٦) جواد علي، الفصل ج 4 ص 419-420.

المسألة أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد .

وتبدو مكة استناداً الى ذلك منطلق الحزب المتحدّر من عدنان^(١) - أحد أحفاد اسماعيل - ومن ثم يتصل بحفيد آخر (نزار) ، حيث تفرّعت مجموعتان كبيرتان (مضر وريبعة) ، فضلاً عن اثنتين أقل شأنًا (أياد وأثامر)^(٢) . وكانت مضر محور القبائل العدنانية في الحجاز ، ووطى اسمها على بقية الفروع حتى اندماجها في فرع قيس بن عيلان^(٣) ، فحملت اسمه الذي أصبح مرادفاً لهذه القبائل وممثلاً لها^(٤) .

وليس هدفنا بالطبع تتبع انساب القبائل وتصنيفها شمالية أو جنوبية ، فذلك خارج عن اطار اهتمامنا في هذه الدراسة ، المعنية بالتكوين السكاني في الحجاز . ولكننا ستعرض فقط للتشكيلات القبلية ومراكز استقرارها الثابتة والمتحركة في هذا الاقليم ، ومن ثمّ البحث في علاقاتها مع المدن الحجازية والمصالح المشتركة بينها . فالشجرة العدنانية التي يزعم النسّابون أنها ملثفتى العرب الحجازيين وفروعهم ، يكاد امتدادها التسلسلي يقتصر على مكة ، ربما نتيجة للدور الجذري الذي تبوأت به كمطلق للإسلام . وقد جعلها ذلك محور اهتمام الاخباريين والنسّابين منذ وقت مبكر ، متعقّين تاريخها القديم بكل تفاصيله ، ومتوخّين البحث عن حلقات أخرى قديمة ، موصولة بالحلقة الاساسية التي ارتبطت بها شخصية النبي ، دون أن يكون خافياً ، في ظلّ مناخ فكري اسلامي ، ما كان لتلك الشخصية من تأثير مباشر على كتاب القرون الاولى الهجرية .

وإذا صبح ذلك التشكيل القبلي بتفاصيله المضطربة في مكة ، فتمّة تشكيلات^(٥) خارج هذه المدينة لا، نخفض لقانون ثابت ، ولا تزال موضع اختلاف لدى المؤرخين . ولعلّ (قضاعة) ، وهي من القبائل الكبيرة في الحجاز ، تجسّد عملية التمازج القبلي في هذه المنطقة ، تحت ضغط المتغيّرات السياسية والاقتصادية التي تعرضت لها في ذلك الوقت . فمن النسّابين من يدرجها في مجموعة القبائل القحطانية^(٦) ، ومنهم من يعتقد أنها

(١) يقول بعض النسّابين أن عشرين أباً يبر اسماعيل وحفيدة عدنان . وآخر يجمعهم لربعين . اليقوي . تاريخ ج اص 222- 223 ، ابن خلدون ، كتاب العبر ج 2 ص 298

(٢) اليقوي ، تاريخ ج 1 ص 223

(٣) يتحدّر من مضر حسب رواية السّابن : الياس المعروف بعيلان (يرى اليقوي ان عيلان هو ابن آخر لمضر) تاريخ ج 1 ص 227 .

(٤) يشتمل الياس بقصي زعيم قريش عبر مدركة ونزعة وكتانة والنضر ومالك وغالب ولؤى وكعب ومرة وكلاب . اليقوي ، تاريخ ج 1 ص 227- 238 . الطبري ج 2 ص 185- 189 . جواد علي ، المصطلح ج 4 ص 476- 481 .

(٥) ذكر البكري في (معجمه) : ونزل الحجاز من العرب أسد وعيس وغطفان وفزارة ومزينة وفهم وعدوان وهذيل ونخشم وسلول وكناب ومن ربيعة وطي وأسد من 12

(٦) يرى بعض المؤرخين أنها تنسب الى حمير بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد . اليقوي ، تاريخ ج 2 ص 201 . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص 411 تحقيق عبد السلام هارون .

شمالية تنسب الى معد بن عدنان^(١) . ومن الواضح أن خلفية هذا التباين انما تتصل بالصراع على السلطة وتعدد المحاور ، التي أخذت تتبلور مع نهايات الخلافة الراشدية . فقد انعكس ذلك على وحدة القبيلة ، بحيث أصبح مألوفاً الى حد كبير ، اشراك القبيلة نفسها في محورين متصارعين^(٢) . ويبدو أن (قضاة) كانت إحدى الهجرات اليمنية المرتقة من التجارة والدائرة في فلكتها ، حيث انتشرت على طريق القوافل واتخذت أول مراكز نفوذها في جلة - ميناء مكة الرئيسي في صدر الاسلام^(٣) - قبل أن تمتد شرقاً الى الحجاز ونجد وشمالاً نحو الشام^(٤) . ذلك أن بضع قبائل قضاة الاصل ، أوردها النسابون بين القبائل الحجازية ، وفي طليعتها (بلى)^(٥) ، التي أقامت بجوار تيماء (جهينة)^(٦) ، الى الشرق منها في نجد ، قبل انتقالها الى الحجاز ، ما بين وادي القرى وشراب^(٧) . أما الثالثة فهي (عذرة)^(٨) ، التي نزل قسم منها في وادي القرى وآخر في تبوك ، أي أنها أقامت على طريق تجارة الشام ، حيث ارتبطت نتيجة لذلك بعلاقات ودّية مع قريش^(٩) ، على غرار القبائل المقيمة على امتداد هذا الطريق أو بجواره بعد أن أصبح مصطلر ارتزاقهم الرئيسي .

وثمة قبيلة رابعة تنسب أيضاً الى قضاة وهي (كلب)^(١٠) ، التي انتشرت في جنوب الشام حتى أعالي الحجاز ، وذلك تحت تأثير الدوافع نفسها للتحركات القبلية في المنطقة ، مع الطموح الى القيام بدور أشد خطورة ، وهو التحكم في نهاية الطريق التجاري وسوقه الكبرى (بصرى) ، التي يلتقي عندها خطا الحجاز والخليج^(١١) . وكانت (دومة الجندل) ، حيث مركز هذه القبيلة من أهم الاسواق الشامية بعد (بصرى) ، وتميزت بأنها سوق موسمي ، كان يؤمها التجار للتبادل في وقت محدد من كل عام ، الذي توافق عادة مع رحلة الصيف المكية^(١٢) .

(١) البلاذري ، انساب ج ١ ص ١٥ (تحقيق حميد الله) . الفلستني ، صبح الاعشي في صناعة الانشاج ص ٣١٥-٣١٦ . نهاية الارب ص ٣٦٥

(٢) صبح الاعشي ج ١ ص ٣١٥-٣١٨

(٣) الحمداني ، الصفحة ص ٤٧ . ابن حوقل ، الارض ص ٣٩

(٤) جواد علي ، المفصل ج ١ ص ٤٢٢ . سلم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٥٠٢

(٥) بلى بن عمرو بن الحافى بن قضاة . صبح الاعشي ج ١ ص ٣١٦

(٦) جهينة بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاة . المكنان نفسه .

(٧) الحمداني ، الصفحة ص ١٣٠ . جواد علي ، المفصل ج ٤ ص ٤٣٠

(٨) عذرة بن هذيل بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاة . صبح الاعشي ج ١ ص ٣١٦-٣١٧

(٩) جواد علي ، المفصل ج ٤ ص ٤٣١-٤٣٢

(١٠) كتاب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوآن بن عمران بن الحافى بن قضاة . صبح الاعشي ج ١ ص ٣١٦ . نهاية الارب ص ٣٧٣ .

(١١) لويس ، القوى البحرية ص ١٦

(١٢) جواد علي ، الفصل ج ٧ ص ٣٧١

لقد بلغت المجموعة القضائية سبع قبائل⁽¹⁾ ، حسب تصنيف النسابين ، ولكن أكثرها شهرة تلك التي مر ذكرها ، حيث تعايش بعضها مع اليهود في وادي القرى كبنى جهينة ، وآخر امتد على طريق الشام ، فضلاً عن مجاورته للاثنتين معاً ، كبنى عذرة ، وثالث توغل في أعالي الحجاز حتى جنوبي الشام ، كبنى كلب . وهذه التشكيلة القبلية ، سواء كانت هجرة مبنية غير بعيدة العهد ، أو أنها انتسبت إلى الشجرة العدنانية ، حيث تفاوتت الآراء على نحو ما سلف ، فتمت ملاحظة لا نستطيع لمهازلها وهي أن مواقع نزولها ربما أدت إلى كشف مخططها الحياتي ، الذي كان أقرب إلى الاستقرار منه إلى التنقل من مكان لآخر ، وهو مخطط القبائل البدوية . وهذا يعني أن مصادر عيشها ، ارتبطت عضويًا بأنظمة مستقرة من الناحية الاقتصادية ، سواء في محطات ثابتة على الطريق التجاري التقليدي ، أو في المراكز الزراعية التي أقامها اليهود في يثرب وجوارها .

ومن القبائل اليمنية التي كان لها تأثير في الحياة السياسية والاقتصادية للحجاز ، قبيلة جذام (أحد فروع كهلان) من الشجرة القحطانية . وكانت موزعة الاستقرار بين أيلة وتبوك وينع وروادي القرى ، فضلاً عن ضواحي يثرب ، وهي جميعها نقاط تجارية حساسة بين الحجاز والشام⁽²⁾ .

أما القبائل العدنانية ، فهي متوزعة بين مضر (أحد أبناء نزار) ، وقيس بن عيلان (يرى بعض النسابين أنه ابن آخر لمضر وآخر يجعله حفيداً له)⁽³⁾ . والمجموعة الأولى معروفة بأنها من أكبر التشكيلات العدنانية في الحجاز ، حيث تنصبرها (كنانة)⁽⁴⁾ التي نزلت في أطراف مكة وانتسبت إليها قريش القبيلة الشهيرة⁽⁵⁾ ، فضلاً عن قبائل أخرى لا نعرف أماكن استقرارها بالتحديد⁽⁶⁾ . وتليها (هذيل)⁽⁷⁾ ، التي اتخذت من المنطقة الجبلية المتصلة بغزوان مقراً لها ، أو ما عرف بـ « سراة هذيل » . وقد عاشت هذه القبيلة نمطاً حياتياً أقرب إلى البداوة ، وذلك على امتداد الأرض الواقعة ما بين مكة وتهامة ونجد

(1) عبد ، جهينة ، عذرة ، سليح ، كلب ، القين ، تنوخ . الميعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 202-203 . وردت عند الفلستيني مع شيء من الاختلاف : بل ، جهينة ، كلب ، عذرة ، يبراء ، نهد ، جرم . نهاية الأرب ص 170 ، 171 ، 197 ، 206 ، 332 ، 373 ، 394 .

(2) الميعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 202 . الفلستيني ، نهاية الأرب ص 192 جواد عل ، الفصل ج 4 ص 462 .

(3) الميعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 226-227 البلاذري ، انساب ج 23 (ت حميد الله) . الفلستيني ، نهاية الأرب ص 369 .

(4) كنانة بن مدركة بن الياس بن مضر . الطبري ج 2 ص 188-189 . نهاية الأرب ص 374 .

(5) الطبري ج 2 ص 189 .

(6) نهاية الأرب ص 169 ، 380 . الشريف ، دور الحجاز ص 12 .

(7) هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر . نهاية الأرب ص 395 .

ويثرب^(١). هذا ويلاحظ أن معظم هذه القبائل التي تجاوز تحركها حدود الحجاز ، احتفظت حيث حلت بأصلها المضري ، لا سيما النازلة في الجزيرة الفراتية ، التي اشتهرت باسمها وعرفت بـ « ديار مضر » . أما في الحجاز فقد انصهرت على الأرجح مع المجموعة الثانية التي تمثلها (قيس) ، حين يكون الانتساب عادة أوثق صلة بالمتأخرين من القبيلة ، التي تنفرع بصورة متفاوتة مع ازدياد كثافتها وانتشارها^(٢) .

ومن أشهر فروع المجموعة الثانية (القيسية) ، قبيلة غطفان^(٣) ، التي تفرعت بدورها إلى قبائل ثلاث : أشجع وعبس وذبيان . وكانت مواقعها في الأصل إلى الشرق من خيبر^(٤) ، ثم انتشرت بعد تفرعها ما بين ضواحي يثرب (أشجع) والشمال الغربي منها (عبس) ووادي القرى وتجد (ذبيان)^(٥) . ومن هذه الأخيرة تفرعت (فزارة) ، التي كانت على عداوة تقليدية مع (عبس)^(٦) ، حيث عاش فرعها الحجازي في وادي القرى والعقيق^(٧) .

ومن القبائل القيسية الكبرى في الحجاز ، (سليم) ، و (هوازن)^(٨) . الأولى ، امتدت إلى الشمال من يثرب ، في وادي القرى وتساء وجوار خيبر ، وهي أرض شديدة الخصوبة ومليئة بالمعادن . لذلك ارتبطت مصالحها مع القبائل اليهودية المجاورة لها ، ومع تجارة الشام ، حيث سقوا متجاتهم الزراعية والمعدنية ، فضلا عن امداد صناعة الاسلحة في يثرب بالمواد الأولية ، لا سيما الحديد^(٩) . وينسب إلى هذه القبيلة بنو زغبة (زغب) ، الذي أقاموا ما بين مكة ويثرب قبل هجرتهم إلى أفريقية^(١٠) . أما الثانية (هوازن) ، فقد

(1) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ العرب من 268 . الشريف دور الحجاز من 12

(2) جواد علي ، الفصل ج 4 من 476

(3) غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان . البلاذري ، انساب ج 1 ص 42 (ت حيد الله) . الفلستني ، نهاية الأرب من 356-355

(4) جواد علي ، الفصل ج 1 ص 508

(5) السبيعي ، الروض الأنف ج 1 ص 123 . نهاية الأرب من 239 . الشريف دور الحجاز من 11

(6) قامت بينها الحرب الشهيرة المعروفة بدساس والغبراء . نهاية الأرب من 319 . جواد علي ، الفصل ج 4 ص 511 . سعد زغلول ، تاريخ العرب من 248 .

(7) نشأت فزارة إلى خمسة فروع وهي : ظالم ، شمع ، مأون ، سعد . وهذه الأخيرة يستلها جواد علي بمزة التي ينسبها الفلستني إلى هذه القبيلة . نهاية الأرب من 269 ، 284 ، 302 ، 330 ، 359 ، 376 ، 382 . الفصل ج 1 ص 512-513 .

(8) أبا منصور بن عكرمة بن خصفة (خصافة) بن قيس بن عيلان . نهاية الأرب من 382

(9) الفلستني ، أسنن الغلب من 108 . نهاية الأرب من 274 . وفاء الوفا ج 1 ص 198 . جواد علي ، الفصل ج 1 ص 518

(10) نهاية الأرب من 253 . سعد زغلول ، تاريخ العرب من 266

تفوقت عليها شهرة وكثافة وانتشاراً ، حيث أقامت في عدة نقاط متفاوتة الأهمية على تخوم نجد واليمن ، فضلاً عن مركزها الرئيسي في نواحي الطائف . ولقد أعطاهما هذا الموقع الوسطي على مقربة من قبائل ذات نفوذ واستقطاب كبير مثل قريش وثقيف وكنانة ، دوراً غير هامشي في الأحداث الحجازية ، سواء التي سبقت الإسلام أو التي عاصرت بداياته الأولى . فتمتد أخبار عن « أيام » (١) عظيمة ، قامت بين هوازن وبين هذه القبائل ، كان محورها الصراع على النفوذ في هذه المنطقة الحساسة التي وُصفت بأنها قلب شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت . ولكن محاولات (هوازن) آلت إلى فشل وهزيمة وإلى اعتراف بسيادة قريش وتحالف مع ثقيف ، ومن ثم إلى ارتباط بشبكة المصالح القرشية - الثقبية المشتركة (٢) . وقد ظلت هذه الصيغة متماسكة وتعبّر عن جبهة موحدة لهذا « المثلث القبلي » حتى ظهور الإسلام ، متعارضة بصورة جذرية مع أفكار الدين الجديد ، ومتمكنة بكل طاقاتها المادية والبشرية لاحتباطه والقضاء عليه . وكانت هوازن خاصة تمثل ، مع الجناح المتطرف الثاني (ثقب) (٣) ، آخر القلاع الوثنية المترمة في الحجاز بعد سقوط مكة وانهيار النظام القديم ، ومع « الامبراطورية التجارية » التي غابت شمسها عن المدينة الشهيرة إلى الأبد ، في أعقاب تلك المتغيرات الدينية والسياسية والجغرافية التي أفقدت مكة امتيازاتها ومركزها الاستقطابي .

ومن القبائل القيسية المعروفة في الحجاز ، (بنو عامر) المتحدرون من هوازن (٤) ، حيث أقاموا بين هؤلاء وبين ثقيف ، ومنهم ففرّعت عدة كتل قبلية انتشرت في الحجاز ونجد والبحرين ومناطق أخرى في شبه الجزيرة وعلى أطرافها (٥) . وثمة قبائل أخرى عدنانية ، قد لا يكون تتبعها في مراكزها المتحركة على جانب من السهولة ، خاصة وأن فروعها الرئيسية الثلاثة (مضر وقيس وربيعة) - المتشعبة بدورها إلى مجموعات متداخلة حيناً ، متباعدة حيناً آخر - ربما أفقدت القبيلة وحدتها بعد أن نأى العهد بين الاصل والفروع منها .

ولعل هذه المحاولة الدراسية ، لا يعيننا منها التعرّض لانساب القبائل في الحجاز ، بقدر ما يعيننا الاهتمام بكشف مراكز التحرك القبلي خارج نطاق الحواضر ، حيث يتمثل النمط البدوي ، الذي يختلف نسبياً عن النمط السائد في هذه الأخيرة . كما يهتما من

(1) ابن الأثير ، الكامل ج ١ ص 588 . السهيلي ، الروض الأنف ج 1 210 صبح الاصل ج ١ ص 346 . جرد علي ، الفصل ج 4 ص 517 .

(2) LAMMENS, La méeque, P177

(3) الطبري ج 2 ص 125-129

(4) عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . نهاية الأرب ص 305 . جرد علي ، الفصل ج ١ ص 519 ، 520

(5) نهاية الأرب ص 305

ناحية أخرى الوقوف على العلاقة بين هذين النمطين ، أو بين البداوة والمدينة ومدى التأثير الذي مارسه كل منهما في الحياة السياسية والاقتصادية العامة للحجاز ، التي كانت مكة توجهها في ذلك الحين .

وإذا كنت قد أثرت الى أبرز محاور التجمعات القبلية في الحجاز ، دون عاورها الاخرى خارج هذا الاقليم ، لا سيما المتتمية الى الشجرة العدنانية ، حيث كانت لها مراكز شهيرة بين العراق والجزيرة الفراتية (١) ، فثمة تجمعات أخرى أقل أهمية ، كانت تقيم كاملة أو متفرعة على امتداد الاقليم الحجازي وعلى منحومه . فمن تشعبات ربيعة بن نزار ، امتدت (عزة) (٢) على عدة مواقع ، قبل أن يستقر نفوذها بالقرب من خير (٣) . وكذلك انتشرت (عبد القيس) (٤) ما بين تهامة والبحرين عبر اليمامة ، حيث اتصلت على الأرجح بتجارة الخليج التي كانت تنتقل عند هذا الطريق الى مكة . ومن القبائل الشهيرة (بكر بن وائل) التي انتقلت من تهامة الى شرقي شبه الجزيرة وغربي الفرات في العراق (٥) . وكانت قبيل الاسلام تتحكم بطريق اليمامة - البحرين ، مما أدى الى اتخاذها مركزاً متفوقاً بين القبائل العدنانية المهاجرة ، وإلى اسهامها بدور كبير في التطورات السياسية والعسكرية التي انتهت الى تأسيس العراق في شخصيته العربية الاسلامية المبكرة .

وكان (بنو حنيفة) ، وهم فرع من القبيلة السابقة قد اتخذوا مراكز نفوذهم على تحوم الحجاز في اليمامة ، التي كان من الصعب فصلها جغرافياً أو قبلياً عن هذا الاقليم (٦) ، لا سيما في تلك المرحلة التي يمكن تسميتها بالعصر الذهبي الاول للحجاز . فقد توفقت عرى الاتصال وتداخلت المصالح بين مكة ، النقطة المركزية في شبه الجزيرة ، وبين هذه الاطراف المتشابكة معها ، سواء تهامة في الغرب أو اليمامة في الشرق . ولعل ذلك ينسجم مع هذه العبارة لابن المجاور : « وديار العرب هي الحجاز التي تشمل على مكة والمدينة واليمامة وغاليتها ونجد والحجاز المتصل بالبحرين » (٧) . وبالنسبة لحنيفة التي أقامت في اليمامة كامتداد فرعي للقبيلة الام (بكر بن وائل) ، فقد سيطرت على مرافق هذا الاقليم الحضري والبلدية (٨) ، بحيث وجد فيها مؤرخ معاصر ، دولة عربية أو

(١) الطبري ، تاريخ ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٧

(٢) عزة بن أسد بن ربيعة . البلاغري ، انساب ج ١ ص ٣٠٢ (ت حيد الله) . جواد علي ، المفصل ج ١ ص ٤٨٢

(٣) نهاية الارب ص ٣٤٨

(٤) عبد القيس بن أقيص بن دععي بن جديلة بن أسد . ابن حزم ، جبهة انساب العرب ص ٢٧٨ . نهاية الارب ص ٣١١

(٥) DONNER, The Bahr b. W'a'h, p 22

(٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٣٨٠

(٧) ابن المجاور ، تلخيص المستصر ج ٣٩

(٨) رضوان السيد ، من الشعوب والقبائل الى الامة . مجلة الوحدة ص ٢٥ ، عدد ٤ (١٩٨٠)

« مملكة » حسب تعبيره^(١) ، على غرار دول الاطراف ، مرتبطة بعلاقات ومصالح مع الفرس وحلفائهم اللخمين في الحيرة . وإذا كان المؤرخ السالف الذكر ، لا يجد مصدراً لهذا الاعتقاد ، سوى بقايا الآثار المكتشفة في اليمامة ، كشاهد على عظمة هذه القبيلة ، فإن الموقع الذي نزلت فيه كان على جانب من الخطورة ، يؤهلها لدور تجاري قد لا يختلف كثيراً عن الدور الذي شغلته تدمر في بادية الشام قبل بضعة قرون . فهي من جهة تطل على تجارة الخليج التابعة للفرس ، لا سيما الطريق الذي يربط (الحجر) بالبصرة أو الكوفة ، وتقع على طريق نجران - البصرة من جهة ثانية^(٢) ، فضلاً عن اتصالها بخط شبه مستقيم بمكة ، قاعدة التجارة الكبرى في شبه الجزيرة ، وذلك عبر وادي الباطن الذي كان يجري فيه الماء وتعمر حوله القرى^(٣) .

ولقد تطورت (الحجر) - عاصمة اليمامة - الى محطة مرور مهمة في المنطقة الشرقية^(٤) ، بالإضافة الى تزويدها القوافل بمادتي الحنطة والتمر ، حيث شكلت واحدة من مناطق الخصوبة في شبه الجزيرة ووصفت بأنها بلاد النخل وتخزن الغلال^(٥) ، مما أعطاهم ذلك الطابع المتجاذب بين البداوة والاستقرار . ويبدو أن (حنيفة) التي أشار (الطبري)^(٦) الى ما عتقله من كثافة ونفوذ ، قامت تحت تأثير هذه الظروف ، بحركتها الخطيرة في مطلع خلافة أبي بكر . فقد أحدثت المتغيرات الجذرية الجديدة وما رافقها من هجرة كبار التجار المكين الى العاصمة (المدينة) ، تحولاً في المواصلات التجارية أصاب مصالح هذه القبيلة في الصميم ، وذلك بعد جمود حركة القوافل على هذا الطريق ، الذي أقامت عليه ، والمربط مباشرة بالتجارة القرشية في مكة^(٧) .

وهكذا تلبو اللوحة القبلية في الحجاز ، متناسقة الخطوط متمازجة الالوان ، ان لم يكن في منحدرات اصولها ذات التشعب « الفطري » الواسع ، ولكن في ظروفها الجغرافية والاقتصادية المتشابهة ، بحيث لا نجد كبير تباين بين ما هو شائع عن وجود ثمطين مختلفين تماماً في المجتمع الحجازي ، أحدهما حضري والآخر بدوي . وإذا كان لا بد من الاعتراف بوجود نماذج أكثر تطوراً في المدن المعروفة ، فإن ذلك لا ينفي وجود نماذج أخرى تقترب

(1) محمد زغلول ، تاريخ العرب ص 264

(2) الحميداني ، الصفة ص 159 . جواد علي ، المقمل ج 7 ص 334 .

(3) جواد علي ، المقمل ج 7 ص 344

(4) محمد زغلول ، تاريخ العرب ص 364 . خليل اسماعيل محمد ، تطور الفكر الجغرافي عند المسلمين . مجلة البلاغ عدد 4 (1966)

(5) الغزواني ، آثار البلاد ص 131

E. CHOUFANI, AL- RIDDAAH AND THE MUSLIM CONQUEST OF ARABIA, p 83- 84

(6) الطبري ج 3 ص 244

(7) البلاذري ، انساب ج 3 ص 333 (لحقاق احسان عباس)

منها أو تلقي معها عند حدّ معين من ذهنية عامة مشتركة ونظام اجتماعي متقارب .

ولم تكن البداوة الحجازية في مطلق الأحوال الا مظهرأ لنظام حياتي فرضته البيئة بشئى ظروفها . أما أن تكون مرادفة للتخلف ، مناقضة للتحضر الذي يتلازم والاستقرار في المدن ، حسب المفهوم السائد لهذه الكلمة ، فلا بدّ أن يصطدم ذلك مع تغلب البداوة في شبه الجزيرة وتطور انظمتها التي أخذت تتبلور في هذا الاتجاه منذ القرن السادس الميلادي ، حيث شهد القسم الجنوبي صعوداً للبداوة تزامن مع صعودها الشمالي (١) ، في الوقت الذي يفترض أن هذه المرحلة من « التخلف » قد تجاوزت نفسها ، استناداً الى المفهوم نفسه .

ومن الواضح أن مكة التي كانت تجارها تشهد نمواً متزايداً في ذلك الحين ، استطاعت أن تمسك بزمام الامور في المنطقة المحيطة بها ، سواء في تهامة أو نجد ، فضلاً عن الحجاز واليمامة ، وأن تهيم الأرض الخصبة لتجذير علاقاتها مع تلك القبائل - خاصة الدائرة في فلك نفوذها المباشر ، وذلك على امتداد خطوط رئيسية أو فرعية ، تمحورت حولها مصالح دول كبرى - لم تكف بالضرورة عند حدود التجارة بالسلع ، ولكنها صدّرت معها الافكار والعقائد والنظم ما استطاعت سبيلاً الى ذلك .

وهكذا تصبح هذه القبائل ، وكأنها « ولايات » ترتبط بشيء من المركزية مع مكة ، عاصمة تلك « الامبراطورية » (٢) المزدهرة ، دون أن تكون معزولة في ضياعها البائسة أو على أرحال دائم وراء القطعان الى عيون الماء في الصحراء المجدية . لقد كانت خلافاً لذلك تعيش على أبواب حضارات قديمة ، تطلّ عليها من نقاط وجودها شبه الدائمة والمستقرة . أما علاقاتها بمكة ، فلم تكن ذات مضمون احتقاري حسب اعتقاد (لامنس) (٣) ، ولكنها ارتبطت معها بمواثيق ومعاهدات تجارية وأمنية ، كانت تعبيراً ملحقاً عن الحاجة المتبادلة بين الطرفين . فجميع هذه المؤشرات صيّت دون ريب في أهمية الدور الذي أمثلته القبائل « البدوية » في الحجاز وتوابعه ، ذلك الدور الذي تبلور مع حركة الفتوح العربية الاسلامية ، حيث كان هؤلاء « البدو » ، مادة الاكثرية من الجند (٤) ، التي ردت الطلائع المبكرة لهذه الحركة من مسلمي المدن الحجازية .

(١) رضوان السيد : من الشعوب والقبائل الى الامة ص 25

(٢) LAMMENS, La République Marchande de la Mecque, P. 52

(٣) LAMMENS, op. cit. p 54

(٤) خالد طه الهاشمي ، خالد بن الوليد ، مجلة الرسالة عند 66 ، ص 165 (1934) . صالح العلي ، محاضرات ص 123

التكوين الاقتصادي

« إذا اشترى أحدكم جملًا فليشتره عظيمًا سميًا ، فإن أخطاه
غيره لم يخطئه سوقه »

عمر بن الخطاب

كان الانتاج الاقتصادي رهين البيئة الحجازية بكل تفاصيلها ، حيث عاش السكان الاوائل ، مفروضاً عليهم تكيف غير محدود مع الجفاف ومخط خاص من الحياة الاجتماعية . فهنا يتداخل التحضر مع البداوة وتتشابك المصالح عند نهاية خطّ موحد ، ليولفاً معاً ظاهرة حضارية متميزة . ولذلك فانه من العسير جدا تتبع هذه الحقبة المتقدمة من تاريخ الحجاز غير الاسلامي ، بمعزل عن حركة التجارة العالمية ، المتزامنة مع نهوضه ، تلك التي عرفت بتجارة الشرق ومواصلاتها بطريق الهند « ، الذي طالما توجهت اليه أنظار الدول الكبرى المتعاقبة في التاريخ ، وطمحت الى ادخاله في دائرة نفوذها السياسي والاقتصادي .

واذا أردنا ملاحقة منابع السلع الرائجة التي تحكمت بالسياسة الاقتصادية العالمية آنذاك - تحكم سلع أخرى في عصور أخرى ، تغطي بالاهمية « الاستراتيجية » نفسها - سنجد عدة مصادر ذات طابع شبه تخصصي ، كالحرير في الصين والتوابل في الهند ، حيث كان التجار الشرقيون يستوردون هاتين السلعتين ، فضلاً عن خشب الصندل (الصين أيضاً) من سوقها الرئيسي في ميلان (سرنديب) « . أما المادة الاخرى المهمة ، فهي البخور التي كان مصدرها حضرموت في جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ، عبر « ساحل البخور » المحاذي لها . ولقد حملت هذه البضائع منذ العصر الروماني ، ثلاثة معابر متقاربة الاهمية : الاول ، كان يمثل الطريق الاحتياطي للرومان ثم البيزنطيين ، في الوقت الذي تضطرب فيه العلاقة مع العدو التقليدي (الفرس) ، الذي يسيطر عل معظم امتداده

(1) LAMMENS, La méeque à la veille de l'Inégle, P. 103

(2) نورمان بيتز ، الامبراطورية البيزنطية ص 275-276

ويتحكم بمساره ، حيث ينتشر في الشمال عبر آسيا الوسطى الى بحر الخزر فالبحر الاسود على تخوم امبراطورية الرومان . ولكن هذا الطريق كان على جانب كبير من التعقيد والخطورة ، ومن ثم كان غير اقتصادي بالنسبة للتجار الذين لجأوا عند استخدامه الى رفع الاسعار ، تغطية للتكاليف المرتفعة ، على نحو ما يحدث عادة ابان فترات الاضطراب السياسي والعسكري التي تهدد الطريق التقليدي للتجارة (١) .

والطريق الثاني امتد الى الجنوب منه ، عبر بلاد الصفد حتى آسيا الصغرى أو الخليج الفارسي ، حيث كان أقدم الطرق وأكثرها سهولة واجتذاباً للتجار . ولكنه غالباً ما تأثر بظروف الصراع التقليدي بين الدولتين الفارسية والرومانية ثم البيزنطية ، خاصة وأن الجزء الرئيسي منه يمر في الاراضي الخاضعة للدولة الاولى (٢) .

أما الثالث ، فكان بحرياً يعود الى أيام البطلمة ، الذين اهتموا بالتجارة الشرقية وعملوا على استغلال الموقع الجغرافي لدولتهم بين البحرين الابيض والاحمر (٣) ، لتكون مصر المركز الرئيسي للتبادل التجاري في المنطقة ، وهو يمتد من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر . ولقد ظل هذا الطريق ابان العصور المتوالية متصلاً بالتجارة المصرية ، خاصة في عصر النفوذ الروماني ، حيث كان وسيلة الاتصال الأكثر أهمية بين الشرق والغرب ، وذلك حتى بدايات القرن السادس الميلادي (٤) .

على أنه تجدر الاشارة الى أن المواصلات البحرية ، لم تكن الوسيلة المفضلة لدى التجار في ذلك الوقت (٥) ، اذ اعاقها من عوامل الطبيعة السلبية والتطور التقني المحدود ، ما جعل المواصلات البرية تمتلك زمام التفوق ، لسهولة اجتيازها وسلامة محطاتها خلافاً للاولى . ويمكن القول ان الطابع العام للتجارة كان برياً في الغالب ، حيث التاجر يجلبه الريح الوفير ، أي كان مصدره ويتوصل الامان لامواله ، كقاعدة تاريخية لا تخضع للتغيير .

وكانت أهمية البحر الاحمر في الحقيقة ، مرتبطة بالقوى المسيطرة على مصر ، بدءاً بالبطلمة الذين طمحوا الى اتحاده منطقة نفوذ خاصة بهم . ولقد أسهم هؤلاء في تنشيط حركة الملاحة فيه ، بواسطة ملاحين وتجار من اليونان ، كان لهم قصب السبق في هذا

(١) نورمان بيتز، ص 275-276.

(٢) نورمان بيتز ص 276 . أوشيلد لوس ، القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط ص 18

(٣) أ . لوس ص 16

(٤) لوتولت ولسون ، الخليج العربي ص 84 .

(٥) LAMMENS, La méeque, p. 109 (5)

المضمار . وثمة نصّ قديم (١) يعود إلى النصف الأول من القرن الثالث ق . م ، وذلك في معرض الإشارة إلى دور العرب الجنوبيين في تجارة البحر الأحمر ، التي كانت على ما يبدو مزدهرة حينذاك وفي منجى من غزوات القراصنة المنتشرين على سواحلها الشرقية بصورة خاصة ، وهي خالية في الغالب من المراقب الآمن . على أن الدور البارز الذي شغله هذا البحر في التجارة العالمية ، إنما يعود إلى أيام الرومان ، حيث مثل حلقة أساسية في المواصلات بين الشرق والغرب (٢) . ويبدو أن هؤلاء الذين شكلوا القوة الامبراطورية الأعظم في ذلك الحين ، تطلّعون بدورهم إلى السيطرة على المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة والوصول منها إلى سواحل الخليج والمحيط الهندي ، بحيث تصبح شرايين التجارة الشرقية في قبضتهم ، بما يرافق ذلك من تهديد واضح للنموذج التقليدي الذي كان يمارسه الفرس في هذه المنطقة . ولقد تبلور هذا الاتجاه خاصة ، بعد سيطرة الرومان على دولة الأنباط ، وإنشاء الطريق الذي يصل ميناء أيلة بدمشق عبر البتراء وبصرى في الشام (٣) .

ولكن مياه البحر الأحمر ، لم تكن بكاملها صالحة للملاحة ، أو على الأقل مشجعة للتجارة على ارتيادها بصورة دائمة حتى في زمن التفوق الروماني ، وذلك بسبب مجموعة من المعوقات ، لم يكن من السهولة تذليلها أو الحدّ من أخطارها الكبيرة . ويبدو أن ثمة منطقتين في هذا البحر ، كانتا على تفاوت واضح من حيث الأهمية للملاحة . فالشمالية منها ، كانت خالية أو تكاد من السفن ، لا سيما الكبيرة الحجم ، التي تتعرض لتهديد المناخ الصحراوي الجاف وراء الساحل ، الأمر الذي حال دون قيام مراكز استقرا على امتداده في الجانب الشرقي ، فضلاً عن تهديد الشعاب المرجانية المتكاثرة فيها ، على نحو كان يفرض مهارة ملاحة فائقة ، لم تتوفر في ذلك الحين . وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الظروف إلى عرقلة التجارة وتعرّض مسار السفن في هذا الجزء من البحر الأحمر ، بحيث وضعها ذلك أمام خطر ثالث هو القرصنة ، كمورد رئيسي لقبايل البدو التي كانت تعتبرها « امتداداً لغاراتها في الصحراء » كما يقول مؤرخ معاصر (٤) . أما الجنوبية منها ، فكانت أكثر ملاءمة للملاحة ، انطلاقاً من الشروط المناخية والجغرافية المختلفة عنها في الشمال ، مما أتاح للسفن موانئ ترفأ إليها وتتزود منها ما تحتاج إليه أو تتبادل فيها السلع ، خاصة

(١) ثمة حادثة عن تاجر يمني (زيد أبو بن زيد) كان قد التحق بخدمة للمعابد المصرية . . فيستورد المر والقلية هذه المعابد لغناء ملج من الأكمة المصرية الفاترة المصنوعة من الكتان ، ويقوم بهذا النشاط في سفينة الخاصة . راجع هذا النص في المفصل للدكتور جواد علي ج ٢ ص ٣٥-٣٧ والعرب في العصور القديمة للدكتور لطفي عبد الوهاب ص ٢٩٩ .

(٢) أ . ويلسون ، الخليج العربي ص ٨٤

(٣) جوردج ليفسور الجوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٨٦ ويته ديور ، العرب في سربها قبل الإسلام ، ص ٩٠٦

(٤) العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٥

عدن التي وصفها (اليقوي) بأنها « ساحل صنعاء وبها مرفأ مراكب الصين »⁽¹⁾ . ولعل ذلك كان وراء تفوق العرب الجنوبيين في التجارة البحرية ، بالمقارنة مع الشماليين ، الأكثر توجهاً نحو الشام التي أصبحت من أهم الأسواق في شرقي البحر المتوسط التابعة للنفوذ البيزنطي . ولقد جاء ذلك على حساب مصر وتجارة البحر الاحمر المرتبطة بها ، حيث بلغت ذروة رواجها في العصر الروماني⁽²⁾ . وكان لسقوط روما واضمحلال الامبراطورية في الغرب ، في الوقت الذي احتفظ فيه البيزنطيون بالسيادة على الساحل الافريقي بما فيه مصر ، تأثير كبير على تطور حركة التجارة في ذلك الحين ، دون أن ننسى دور الاحباش في هذه التغيرات ، والصراع على النفوذ الذي أخذ يميل نحو مصلحتهم في المنطقة الجنوبية .

ولعل ركود التجارة في البحر الاحمر تأثر بهذه المعطيات وتزامن خاصة مع قيام دولة البيزنطيين على تحوم الشام ، فضلاً عن اضطراب الاوضاع السياسية في القسم الغربي من البحر المتوسط . ولأن الملاحة كانت غير آمنة ، لا سيما في منطقة لم يعد من الممكن تجنبها كما في الماضي ، فقد أصبحت التجارة منذ القرن الخامس الميلادي مرتبطة بالمنطقة الشامية ، حيث تسير قوافلها بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الاحمر . على أن القسم الجنوبي منه قد استثنى من الركود التام وبقي للملاحة فيه بعض نشاطها الاعتيادي ، سواء من جانب الاحباش أم اليمنيين ، إلا أن ذلك الدور كان مجرد رادف للتجارة الشرقية التي أصبحت بركة الملاحة منذ ذلك الحين .

وما لبثت حركة التجارة أن شهدت تحولاً في مواصلها ، يتلاءم مع تطور خارطة العالم السياسية ، خاصة بعد انتقال امبراطورية الرومان الى المشرق ، تحت اسم الدولة البيزنطية⁽³⁾ ، وذلك في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي . وكان من نتائج هذا التحول ، تركيز محاور المواصلات التجارية آنذاك حول خطين رئيسيين : الاول ، طريق الفرات ، حيث كانت السفن تفرغ احمالها عند رأس الخليج قبل أن تنقل براً الى العراق والشام فضلاً عن مصر ، أو تتوغل في النهر نحو الغرب ، مسهمة في انتعاش الجزر القريبة من الساحل الشامي⁽⁴⁾ ، وفي قيام دولة الحيرة (حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي) عند نقطة انعطاف واضحة لدجلة والفرات ، حيث انتقل الثقل السياسي والاقتصادي

(1) كتاب البلدان ص 309 .

(2) أدرك الامبراطور اغسطس بعد امتهانه على مصر أهمية البحر الاحمر في تجارة الرومان الشرقية . فعمد الى تنشيط حركة الملاحة فيه ومن ثم تطوع الى السيطرة على اليمن ، للوصول الى « منابع » البخور في حضرموت . نقولا زيانة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ص 201-203 .

(3) LAMMENS, La Mécque, P. 144 - جواد علي ، المصطلح ج 1 ص / 15

لامبراطورية الفرس . وكانت ثمة علاقة بين ازدهار هذا الطريق وبعض المدن الشهيرة ، التي نشأت في بدايات عهدها كمحطات تزود القوافل بالماء والمؤن ، كالحيرة (العراق) والبصرة وتدمر (الشام)^(١) . ولقد ظل هذا الطريق يمثل أبرز معاير التجارة الشرقية حتى القرن السادس الميلادي ، عندما تحول الى منطقة عسكرية قلقة ، في أعقاب انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والبيزنطية ، بحيث كانت الاخيرة من أشد المتضررين من ركود الحركة التجارية عبر هذا الطريق ، مما يعني افتقاد الحرير من القسطنطينية ، وهي السلعة الأكثر رواجاً في أسواقها . ولذلك كان البحث عن طريق آخر ، يعوض التجارة البيزنطية خسارتها ، من أهم شواغل الامبراطور البيزنطي (جستنيان) ، الذي كان في الوقت نفسه شديد الحاجة الى عائلاتها ، الموظفة حينذاك في تدعيم سياسته الأوروبية التوسعية . ولقد دفعه ذلك الى التوجه نحو الحبشة ، لاقامة نفوذ مشترك تحت رعايته في « مسقة البحار العربية »^(٢) ، التي لفتت الانظار مرة أخرى ، كونها البديل المناسب والوحيد لمروء التجارة البيزنطية ، بعيداً عن الهيمنة المباشرة للفرس .

أما الحطّ الثاني ، فهو الطريق الجنوبي الذي أخذ في التآكل على حساب تراجع الاول ، وأصبح الشريان الحيوي للتجارة الشرقية في ذلك الوقت ، ولكن دون أن يقضي تماماً على أهمية المعبر الآخر ، الذي كان يستعيد دوره بصورة متذبذبة تبعاً للوضع السياسي العام ، الذي كان يميل غالباً الى الاضطراب . ولقد رضى الفرس الساسانيون لهذا التحول ، خاصة وأن التحليج الذي كان تحت نفوذهم ، لم يفقد محوريته التجارية ، وظلّ متصلاً بأسواق الشام ، ولكن عبر منافذ لا تخضع مباشرة لهم ، بينما ظلت مصر مرتبطة بتجارة البحر الاحمر^(٣) .

وكان هذا الطريق يشهد نمواً مضطرباً ، تحت تأثير المعطيات السياسية والجغرافية المستتجدة ، وذلك مع ازدياد أهمية التجارة وارتباطها عضوياً بالمصالح الحيوية حينذاك لكل من الفرس والبيزنطيين ، فضلاً عن الاحباش . وإذا كانت امبراطورية الرومان في زمن وثنيتهما ، قد شعرت بالحاجة لوضع قبضتها على أحد المفاصل الاساسية لهذا الطريق ، وذلك عبر المحاولة الفاشلة التي نفذها حاكم مصر الروماني (اليوس غايوس ABLIUS GALLUS) ، معتمداً على حلفاء أو أدلاء من المنطقة ، فإن وريثها الدولة البيزنطية لم تتردد في القيام بمحاولة أكثر ذكاء وأطول نفساً ، وذلك تحت ستار التبشير ومحاولات الاحتواء ، تلك السياسية التي تبلورت فيما بعد ، في علاقات هذه الدولة مع القبائل

(١) صالح الملي ، محاضرات في تاريخ العرب ص 38 .

(٢) LAMMENS, La rodecque, P. 110 (2)

(٣) ا . لوس ، القوى البحرية والتجارة ص 17

بيد أن فكرة التغلغل عبر التبشير الديني ، رغم أهميتها كطريقة فذة من طرق توظيف العقائد في خدمة الاهداف السياسية ، فإن مسألة التنصير في اليمن ، ينبغي التعاطي معها بشيء من الحذر ، حيث أن مراكز النصرية في جنوبي شبه الجزيرة ليست بالضرورية من نتائج التدخل الخارجي⁽¹⁾ . ولا يستبعد في هذا السبيل ، أن يكون لتجار الحيرة النساطرة ، تأثيرهم المتفوق على المبشرين الاحباش (البعاقية) ، خاصة وأن نجران ، مركز النصرنة في اليمن ، كانت تمثل آنذاك حلقة بالغة الاهمية⁽²⁾ في شبكة المواصلات البرية ، لا سيما الخط المفضي الى العراق⁽³⁾ .

ولقد بلغ هذا التدخل ذروته في حملة الحبشة ، التي انتهت الى السيطرة على اليمن (525 م) . ولكن هذه المحاولة رغم النجاح العسكري الذي حققته ، في القضاء على حكم الملك اليميني المتهود (ذي نواس)⁽⁴⁾ ، فقد اخفقت في ترسيخ اقدام التحالف البيزنطي - الحبشي في جنوبي شبه الجزيرة ووجدت صعوبة في منافسة النفوذ الفارسي القوي ، الامر الذي قد يفسر استئناف عمليات الاحباش العسكرية نحو الشمال (الحجاز) ، بغية الاتصال بحلفائهم البيزنطيين في الشام⁽⁵⁾ ، وذلك بعد تعثر مهمتهم في الجنوب .

وكان الفرس من جانبهم ، يتوخون الوصول الى هذه المنطقة ، لتعويض خسائر المرور المرتفعة⁽⁶⁾ ، التي افتقدوها مع تحول طريق التجارة . ولأن امبراطوريتهم كانت مطلة على شبه الجزيرة ، وتقع على تخومها الشرقية ، فقد تجاوزت محاولتي الرومان والبيزنطيين الى عملية أكثر احتواء ، أدت الى السيطرة المباشرة على اليمن بعد اسهام كبير في اخراج الاحباش منها .

كان هدف الفرس من هذا المرفف ، استعادة المبادرة في تجارة الشرق ، عبر التحكم مرة أخرى في زمام مواصلاتها والسيطرة على محطاتها الحيوية ، حيث الخليج - وهو مصب السلع الشرقية الأكثر أهمية - كان لا يزال يقع في دائرة النفوذ الساساني . ولكن هذه الخطوة

(1) اليعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 199 . أ . لويس ، القوى البحرية ص 19

(2) المغربي ، كتاب الجغرافيا ص 117

(3) كان هذا الخط يمتد عبر الدواوير والبيامة الى سبيل الخليج ومنه الى العراق . جواد علي ، الفصل ج 1 ص 220

(4) اليعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 199

(5) جواد علي ، الفصل ج 7 ص 282

(6) ch, DIEHL, Byzance, grandeur et décadence, p 95. Paris 1914

وات ، محمد في مكة ص 34

لم تحقق سوى اليسير من النجاح ، حيث أخفق هؤلاء فيما ذهبوا اليه ، واقتصر الامر على اقامة نفوذ مباشر على طرق شبه الجزيرة الجنوبية الشرقية ، دون تغيير جذري في موازين حركة التجارة ، بينما ظلت السيطرة للبيزنطيين على طرق الشمال (١) بما فيها أسواق الشام ومصر .

ومن المثير في تحول شبكة المواصلات التجارية من العراق الى شبه الجزيرة ، أن البحر الاحمر كممر مائي ، لم يعوّض فراغ القرات الذي افتقد أهميته منذ القرن السادس . فقد حالت القرصنة والعراقط الطبيعية المختلفة ، دون القيام بدوره ، كشريان حيوي في التجارة العالمية . على أن دور البحر الاحمر لم يكن هامشياً أو معزولاً ، بقدر ما كان مكتملاً للطريق البري الذي يسير بمحاذاته . ومن ناحية أخرى كان السبيل الوحيد للاتصال بالدول الواقعة على الساحل الغربي منه ومطعمها بالمنتجات الشرقية منذ ايام البطلمة . ولهذا كانت التجارة فيه حشية أو مصرية في الغالب ، وكذلك السفن التي حملت في معظمها التبعة للاولى (٢) ، خلافاً لتجارة السلح الشري للاملاح ، دون ورود ما يشير الى سفن لها تحول في هذا البحر ، حيث كانت تستخدم على الأرجح السفن التي مرّ ذكرها ، والتي كانت تتردد على موانئ هذا الساحل ، كالجار والشعبية (٣) ، فضلاً عن الموانئ العديدة التي اعتادت التردد عليها في الجنوب .

وهكذا جاء غمر الطريق البري في شبه الجزيرة على حساب البحر الاحمر الذي اقتصر على تجارتي الحبشة ومصر ، ولكن دون أن يكون احدهما بديلاً للآخر ، وإن كان الاول يستفيد حكماً من جهود الثاني ويعوّض توقفه عند الضرورة . وكان من البديهي أن يرافق انتعاش هذا الطريق ، ظهور محطات متفاوتة الاهمية ، تبعاً لما تؤمنه من خدمات للقوافل ، في منطقة يغلب عليها الطابع الصحراوي الجاف ، حيث كان الماء في هذه الحال يحدّد مسار الطريق بين محطة وأخرى .

وكان لاحدى هذه المحطات قصب السبق في تبوؤ الدور التجاري الاول ، مستفيدة من التغيرات المهمة ، التي وضعنها في وسط حركة التجارة العالمية . واذا ما أضفنا اليها المعطيات الذاتية التي اسهمت في تطور هذه المحطة الجبلية (مكة) ، كحلقة كبرى في المواصلات بين الهند وأفريقيا والبحر المتوسط (٤) وأخرى أقل أهمية في التجارة الداخلية ،

(١) الطل ، محاضرات في تاريخ العرب من ٩٥- ٩٦
المكان نفسه

(٢) لربيع نفسه ص ٩٨

(٣) الجعفر ، تاريخ ج ٢ ص ١٥٤ . الحدادي ، الصفح ص ١٤٧ . الاسفهان ، بلاد العرب ص ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٩

(٤) F. M. DONNER, Mecca's Food supplies and Muhammed's Boycott, in Journal of the Economic and social History of the orient, vol XX, Part III, P 251

لأدركنا هذا الدور البارز الذي كان مقدراً لها أن تشغله في ذلك الوقت .

وقد نتساءل عن الاسباب التي كانت وراء بروز مدينة وضعتها الطبيعة في أرض جرداء خالية من الزرع والاهوار^(١) أو خالية « من الماء والانيس » كما قال الأزرقي^(٢) ؟ كيف تتحول بقعة كهذه في ظل بيئتها الصحراوية^(٣) إلى محطة تجارية كبرى ، وتكون دون غيرها في الحجاز أو شبه الجزيرة ، الأكثر افادة من التحول الذي طرأ على اتجاه المواصلات البعيدة المدى كما سبقت الإشارة ؟ لماذا لم تكن يثرب مثلاً ، وهي أرض يتوفر فيها الماء والنبات^(٤) ؟ أو الطائف التي تقع على مسيرة يوم من مكة وتنفرد بمناخها وارتفاعها ، اللذين جعلها منها واحدة هذا الاقليم الحصبة^(٥) ؟ .

والجواب على هذه الاسئلة له علاقة بعدة اعتبارات ، كانت قد أسهمت معاً في سطوع مكة وتفوقها الحجازي . فالتجارة البرية المرتبطة عضواً بشبكة من الطرق وفي مقدمتها طريق اليمن - الشام ، هيأت لها بدون شك الظروف الموضوعية في هذا السبيل . وكان لقرنها من اليمن ، محور التجارة القديم ، تأثير كبير في اكتساب ذلك الدور الوسطي ، المؤهلة له جغرافياً دون يثرب التي نأت إلى الشمال الشرقي باتجاه نجد^(٦) ، ودون الطائف التي حالت طبيعتها الجبلية دون احتلال الموقع المتوسط المثالي الذي تمتعت به مكة . وهوما وصفه (لامنس) ، بأنه على « مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة وبابل واليمن وسورية »^(٧) . ولقد أسهم هذا الموقع بدون شك في التكوين الاقتصادي لهذه المدينة ، على نحو جعل التجارة خيارها الوحيد في المجابهة مع الطبيعة القاسية .

ومن الواضح أن مكة لم تأخذ دورها فجأة في حركة التجارة العالمية الذي اشتهرت به في أواخر القرن السادس ، وإنما كان ذلك موصولاً بجهود حثيثة على مدى أكثر من قرنين من الزمن . وهي فترة تكاد تكون شبه مجهولة لدى المؤرخين ، الذين اقتصرت معلوماتهم على الروايات الاخبارية ، المهتمة بتكوينها التاريخي المتزامن مع قدوم ابراهيم وبنائه الكعبة ، الاثر الديني الذي استمدت منه المدينة قدامتها وموقعها المعزّز بين قبائل وحواضر

(1) الأزرقي ، انخير مكة ج ١ ص 54 . معجم البلدان ج 5 ص 188 . الكتاني ، التراتيب الادارية ج 2 ص 44 .

(2) الأزرقي ، اخبار مكة ج ١ ص 57

(3) وات محمد في مكة ص 18

(4) معجم البلدان ج ٢ ص 83

(5) المصدر نفسه ج ١ ص 98

(6) ابن خردادبة ، المسالك والممالك ص 128

(7) LAMMENS, La république Marchande de la mécque P. 51 (7)

الحجاز ، فضلاً عن تكوينها السكاني والصراع على النفوذ فيها ، بدءاً بالعمالة الى جرحهم حتى خزاعة وقريش^(١) . ولا ريب أن تاريخ هذه الحقبة المكيّة يكتنفه الغموض وتغلب عليه الاساطير^(٢) ، مما يجعل أية محاولة موضوعية لدراستها ، أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد . وإذا كان تسويغ هذا الغموض ، بأن الجزء الشمالي من شبه الجزيرة لم يأخذ نصيبه من الاهتمام ، في الوقت الذي تمّ فيه اكتشاف جانب غير يسير من تاريخ الجزء الجنوبي ، رغم التفاوت الزمني بين الاثنين ، الذي يفترض أن يكون لمصلحة الاول ، فمن الجائز أن مكة لم تصل الى مرحلة من النضج في تكوينها السكاني والاقتصادي ، الا منذ القرن الخامس الميلادي ، أي في أعقاب تدهور النفوذ الحميري في الجنوب . وهذا ما يشترّ لتكفاء الاخبار المكيّة على الهامش من تاريخ اليمن ، المركز الحضاري الاول في شبه الجزيرة بما فيها الحجاز . ولعل أقدم ما يرد في هذا السبيل ، ما روي عن زيارة « تبع الحميري » ، أحد ملوك اليمن الى مكة ، الذي حجّ الى « البيت » وطاف حول الكعبة ، وكان أول من حل اليها الكسوة « استناداً الى الرواية الاخبارية^(٣) .

وإذا كانت الشخصية التاريخية لمكة ملتصقة بالكعبة ، التي تطورت الى حلقة مركزية لعبادات العرب قبل الاسلام ، فتمت صورة أخرى لا تنفصل عن هذه المدينة ، وهي صورة التاجر المتفوق الذي سخر كافة الامكانيات والمرافق ، بما فيها الكعبة ، في سبيل مصالحه الاقتصادية . فقد اندرجت هذه المدينة من تجمع صغير في بقعة مجدبة ، الى أشهر مراكز الاستقطاب لقبائل البدو ، قبل أن تطلّ على تجارة الشرق وتصبح الوسيط المحوري فيها . ولا مندوحة من الاعتراف بأن وجود الماء في مكة على ضحالتها في ذلك الوقت ، كان جزءاً هاماً من عملية التطور تلك ، التي انتهت معها الى محطة كبرى ، لتبدو وكأنها « الواحة » الجديدة التي تدخل الانسان في صنعها الى جانب الطبيعة . ولم يكن « زمزم » ، أول آبار مكة^(٤) ومصدر الماء الوحيد فيها ، ولكنه انفرد بشهرته الخاصة ، كونه بئر بني هاشم ، اسرة النبي وزعماء مكة في العصر التجاري الاول ، ومن ثم انعكاس ذلك على اهميته التاريخية قبل الاسلام وبعده . وقد يبدو هذا البئر في المصادر التقليدية وكأنه عصب الحياة في المدينة ، رغم المبالغة الواضحة في هذا التصوّر ، المتناقض مع حجمها السكاني ، سواء كان على صعيد المقيمين من قریش و « الجاليات » التجارية أم الوافدين اليها في

(١) الأزرقی ، أخبار مكة ج ١ ص 58-60 ، 80 ، الفلبي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ١ ص 47

(٢) الأزرقی ، أخبار مكة ، ج ١ ص 32 وما بعدها . جواد علي ، الفصل ج 4 ص 16 ، 18

(٣) رواية يونس بن بكير عن ابن اسحاق ، كتاب السير والمغازي ص 52-53 . الأزرقی ، أخبار مكة ج ١ ص 132-133 السهلي ، الروض الاتف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص 40 .

(٤) السهلي ، الروض الاتف ج ١ ص 172

المواسم ومع القوافل . ومن هنا كان توفير الماء مرتبطاً بنمو المدينة واشتداد الضغط البشري عليها . ولم يكن ما يحول دون انخراط البطون القرشية على اختلافها ، أباراً خاصة بها (١) ، كضرورة تحتملها الحاجة الملحة ، كما التزعة الاستقلالية ، في مجتمع يغلب عليه النظام القبلي . وما يقال عن حاجة في مياه هذه الأبار ، لا سيما « زمزم » ومدى صلاحيتها للشرب ، فلا يحتاج ذلك الى نقاش في « بلد قحط » على حدّ تعبير (المقدسي) (٢) . فالسألة كانت كمية أكثر منها نوعية ، تفرضها قبل كل شيء الحاجة الماسة الى الماء في بيئة صحراوية الملامح . وهذا ما جعل « السقاية » في مكة ، تأخذ دورها البارز في الصراع على النفوذ السياسي ، قبل نحو قرن من ظهور الاسلام (٣) .

ولقد شهدت التجارة للكية تطوراً غير عادي ، وذلك عبر انطلاقتها الكبرى ، من النطاق المحلي ، الى ما وراء حدود شبه الجزيرة العربية . ولعل بواكير هذه الصلة مع الخارج ، تعود الى أيام الانباط الذين سيرث عنهم المكيون ، الكثير من الملامح المشتركة بين الطرفين ، وفي طليعتها الطريقة التي مارس بها كلاهما التجارة . وقد وصل الدكتور جواد علي في اعتقاده الى أن « الانباط هم أقرب الى قريش وإلى القبائل الحجازية (٤) » من القبائل العربية الأخرى في الجنوب . ولا يستبعد في هذه الحالة أن يكون نفوذ هؤلاء ، الذين اعتمدوا أساساً على ضرائب المرور (٥) ، قد امتد جنوباً الى الحجاز ، حيث تحكموا لفترة ما بهذا الجزء الحيوي من طريق القوافل .

وقد يعزّز هذا الاتجاه ، احتكار البطالة لتجارة البحر الأحمر في ذلك الوقت وتصدي الانباط بشنّ الوسائل له ، بما في ذلك التحالف ضدهم مع السلوقيين ، فضلاً عن تسهيل مهمة الرومان فيما بعد ، في حملتهم على شبه الجزيرة التي نزلت في الميناء النبطي الشهير (لوكي كومي LEUCE KOMB) (٦) ، قبل متابعة سيرها نحو مأرب ، مدعّمة بألف من جنودهم (٧) . كما يعزّز ذلك تشييط الطريق البري وتزويده بمحطات كبيرة ، ظلت لحين عصب التجارة البرية في المنطقة ، خاصة بعد التوسع شمالاً على حساب السلوقيين .

(1) السهول ، الروض ج ١ ص 172 - 174

(2) احسن التقاسيم ص 103

(3) ابن عبد رب ، العقد الفردي ج ٢ ص 235 . ابن ظهيرة الغريزي المخزومي ، الجامع اللطيف في نفس مكة وأهلها وبناتها

البيت اشرف ص 116

(4) جواد علي ، الفضل ج ١ ص 14

(5) المرجع نفسه ج ٢ ص 20

(6) حل مقربة من ينبع . نقولا زيلعة ، الجغرافية والرحلات ص 203 - 204

(7) جواد علي ، المفصل ج ٢ ص 27 ، 34 ، 43 ، 49 . سعد زغلول ، تاريخ العرب ص 143 - 145 . نقلا عن سترابون

الذي قيل انه شارك في هذه الحملة .

وكان دور الانباط يزداد أهمية مع اشتداد القرصنة في البحر وتوقف التجارة المصرية ، التي تلجأ حينذاك الى اعتماد الطريق الخاضع لنفوذهم عبر غزة .

ويبدو أن الانباط كانوا يمدّون السوق المكيّة بالمواد الغذائية من الشام ، لا سيما القمح ، الذي كان من منتجات هذا الاقليم البارزة (١) . ولكن تاريخ العلاقات التجارية بين الطرفين غير واضح تماماً ، حيث يعتقد أن التجار الانباط مارسوا نشاطهم حتى بعد سقوط دولتهم على يد الرومان (106 م) وانتقال مركزهم من (البتراء) الى (بصرى) (٢) ، التي أصبحت فيما بعد نهاية خط القوافل المكيّة في الشام . وثمة ما يشير الى قدم هذه العلاقة ، لا سيما في الجانب المتعلق بالعقيدة الدينية المشتركة والمتشابهة في بعض رموزها وحتى أصنامها (٣) . وقيل ان عمرو بن لحيّ الخزاعي (مؤسس الوثنية في مكة) ، قد تأثر بعبادة الانباط ، عندما قصد البلقاء بسبب مرض ألم به ، « فوجد أهلها يعبدون الاصنام » ، بها يستسقون المطر ويستنصرون على العدو . فحمل عند عودته أصناماً الى مكة ، التي درجت على العبادة الوثنية منذ ذلك الوقت حسب رواية أبي المنذر الكليبي (٤) .

وكان انشغال الانباط بالصراع على الشام الى جانب الاطراف الاخرى ، من السلوقين والبطلة الى الرومان ، قد أتاح لمكة ظروفًا مؤاتية لتحرك شيء من الحرية ، واخراج من دائرة النفوذ التجاري النبطي ، المنتشر حتى تقوم الحجاز .

بيد أن سقوط البتراء ، المحطة الرئيسية بين اليمن والشام ، رافقه ظهور محطة كبرى جديدة (تدمر) على تقوم العراق ، مرتبطة بخط المواصلات الفراتية ، الذي كان لفترة ما عصب التجارة الشرقية وحلقة الاتصال بين الخليج والبحر المتوسط . ولكن هذا الطريق كان خاضعاً لتقلبات الوضع السياسي المضطرب ، الذي غالباً ما أدّى الى جهود الحركة فيه وهجرة القوافل نحو طريق آخر آمن كما سبقت الاشارة .

ولقد رافق انهيار المحاولة الاستقلالية في تدمر وتقلص دورها التجاري ، تعديل بارز في السياسة الاقتصادية لكل من الدولتين البيزنطية والساسانية ، حيث ورثت الاولى النفوذ الروماني في الشرق . فظهر آنذاك ما عرف بالدول «الحاجزة» ، كنتيجة للموجة القبلية المهاجرة من الجنوب الى الشمال ، استقر على أثرها الفساسة الاردليون على تقوم الدولة البيزنطية والمناصرة للخميين على تقوم الدولة الساسانية . ولا يخفى ما كان

(1) لامنس ، الصاري في مكة قبيل الهجرة . مجلة المشرق . المجلد 35 ص 92 (1937) .

(2) جواد علي ، المفصل ج 49

(3) البيعوني ، تاريخ ج 1 ص 254 ، 255

(4) الكليبي ، كتاب الاصنام ص 8

لوجودهما ، الذي شجعت الدولتان الكبيرتان ، من تأثير على اقتسام مناطق النفوذ بين كل منها ، وما ترتب على ذلك من حماية المصالح التجارية التشابكة بعضها مع الآخر . وعلى الرغم من اختلال هذه المعادلة أحياناً تحت ضغط المتغيرات الاقتصادية في الغالب ، فإن الاطار العام لهذه السياسة ظل قائماً نحو قرنين من الزمن ، الى أن طرأ تعديل آخر ، أدى الى انتقال محور التجاذب والصراع من العراق والشام الى شبه الجزيرة العربية نفسها .

وفي تلك الاثناء كان « الحجاز » ، الذي أقامه الساسانيون والبيزنطيون في وجه « الزحف » القبلي ، قد زال أو كاد ، ولم يعد هنالك ما يحول دون الاتصال مباشرة ، عبر قبيلة أو أكثر ، بمراكز التجارة ومحطاتها الجديدة . ولم يكن مصادفة تمجيم دولتي الغساسنة والمناذرة ، في الوقت نفسه الذي سطعت فيه مكة وتطورت الى محطة كبيرة . فقد كان لموقعها الجغرافي في قلب الحجاز (١) ، تأثيره على انتزاع دور الوسيط المثالي ، وذلك عبر دوائر متفاوتة الاتساع والاهمية ، سواء بين قبائل نجد وتهامة أو بين الشام واليمن والعراق .

وعلى الرغم من صعوبة تتبع شبكة المواصلات التي ربطت مكة بالمحطات والأسواق في المراكز التي مرّ ذكرها ، حيث زال بعضها واندثرت معالمه (٢) ، فإن مصادر التاريخ حفظت لنا القليل من التفاصيل المتعلقة بخطوط القوافل ومحطاتها المختلفة . وقد يحدث أن تتجاذب الطريق بضع محطات ، فيمرّ في احداها دون الاخرى ، في ضوء ما تقدّمه من خدمات أكثر أهمية للمقابلة ، لا سيما الماء الذي يأتي في طبيعة امتيازات المحطة التجارية .

واذا أردنا تحديد الاتجاه العام للمخطوط التجارية المتشعبة من مكة ، سنجد أن طريق اليمن - الشام ، هو الشريان الرئيسي فيها ، كونه يصل بين السوقين الأكثر استهلاكاً في المنطقة . وبفضل هذا الطريق اكتسبت مكة شهرتها التاريخية ، حيث وقعت في نقطة متوسطة منه وأمكنها بالتالي استثماره على نطاق واسع والقبض من خلاله على زمام المواصلات التي تمرّ فيه . فالجزء الجنوبي منه المفضي الى اليمن ، يكاد يغلّ امتداداً شبه طبيعي للمدينة على نحو يجعله شديد التداخل مع ما يسميه الجغرافيون العرب ، حيناً « تهامة الحجاز » (٣) وحيناً آخر « تهامة اليمن » (٤) . وكانت الآبار وعيون الماء تفرض اتجاه

(١) جبرائيل جبور ، مواسم الحجاز ، مجلة المشرق ، المجلد ٣٣ ص ٥٦ (١٩٣٥)

(٢) جواد علي ، الفصل ٧ ص ٣٣١

(٣) ابن حوقل ، كتب صورة الارض ص ٤٣

(٤) ابن الجاور ، تاريخ المستعبر ص ٤٠

هذا الطريق ، فتجعله مستقيماً أو ملتوياً بين المحطة والثانية . وقد أورد الجغرافيون تفصيلاً بأساء هذه المحطات وكمية الماء ونوعيتها المتوفرة فيها ، فضلاً عن أشجار النخيل والكروم وبعض النباتات الأخرى (١) . وفي (صورة الأرض) لابن حوقل يرد فرعان لهذا الطريق ، أحدهما يمر عبر تهامة والثاني عبر البوادي ، قبل أن يلتقي في مكة (٢) . ولكن الطريق الأول كان الممر التقليدي للقوافل ، إلا في حالات الاضطراب السياسي التي كانت تتعرض لها المنطقة المحاذية للبحر الأحمر . وكان هذا الطريق مزوداً بكل ما يؤمن حماية القوافل وخدماتها ، عبر أكثر من عشرين محطة ، من أبرزها : تبالة ويشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) وأخيراً صنعاء (٣) .

أما الجزء الشمالي الذي يمتد من مكة إلى الشام ، فيجتاز مرحلتين أساسيتين : الأولى ، حجازية (٤) تنتهي عند يثرب ، وهي تأتي بعد مكة من حيث الأهمية الاقتصادية . وكان موقعها على تخوم نجد من جهة وعلى خط الشام الرئيسي من جهة ثانية ، قد وضعها في مركز المنافسة التقليدية لمكة . ولكنها افتقدت مركزية هذه الأخيرة وتوسطها ، فضلاً عن العوامل الذاتية الأخرى التي أسهمت في تراجعها إلى الوراء ، منطوية على مشكلاتها الخاصة ، طوال ما يستحق أن نسميه عن جدارة بـ « العصر المكي » . أما المحطات البارزة للقوافل بين المدينتين (مكة والمدينة) ، فهي استناداً إلى لوائح الجغرافيين (اليعقوبي ، ابن رسته ابن حوقل ، المقدسي ، ابن خرداذبة) : ذو الحليفة (على أربعة أميال من يثرب) (٥) ، الشجرة (6 أميال عن سابقتها) (٦) ، السبالة (31 ميلاً) (٧) ، الروثة (34 ميلاً) (٨) ، السقياء (36 ميلاً) (٩) ، الأبواء (19 ميلاً) (١٠) ، الجحفة (27 ميلاً) (١١) ، قلديد (29 ميلاً) (١٢) ، عسفان (24 ميلاً) (١٣) ، وأخيراً بطن مر

(1) ابن خرداذبة ، المسالك ص 134-136

(2) ابن حوقل ، صورة الأرض 46-47

(3) اليعقوبي ، بلدان ص 317 . ابن خرداذبة ، المسالك 134-136

(4) تمتد على عشر مراحل وكلها حاضرة أهله . اليعقوبي ، بلدان ص 313

(5) المكان نفسه

(6) وردت قبله لحفيرة ، مركز بني فهر من فريش الظوهر . المكان نفسه

(7) المكان نفسه . ابن رسته ، الأعلام النفسية ص 178-189

(8) وردت قبلها (الروحاء) في البلدان التي وصفت بأنها من أملاك مزينة (ص 314) . الأعلام النفسية ص 178 . الحسن الطاسيم ص 106 . جواد علي ، الفصل ج 7 ص 350-351

(9) وصفت بأنها قرية عظيمة قريبة من البحر وكانت مركز أسلم . البلدان ص 314 ، الأعلام ص 178 .

(10) كانت مركز سبعم ، وكان جنا سوق ومقوما من الأبلر . البلدان ص 314 . الأعلام ص 178

(11) مركز خزاعة ، وقد وصفت بأنها كثيرة الأهل خصبة . الأعلام ص 178

(12) مركز خزاعة ، وقد وصفت بأنها كثيرة الأهل خصبة . الأعلام ص 178

(13) البلدان ص 314 . الأعلام ص 178

(16 ميلاً عن مكة⁽¹⁾) . وكما يلاحظ فإن المسافة بين هذه المحطات غير متوازنة ، حيث تحكم بها العوامل الجغرافية وكميات الماء المتوفرة فيها . ويسمى الجغرافيون العرب بـ « المرحلة » التي تزيد أحداها أو تنقص بضعة أميال عن الأخرى .

أما المرحلة التالية من الطريق (يثرب - بصرى) ، فثمة اختلاف في تحديد المحطات الرئيسية التي عبرتها القوافل في ذلك الوقت ، حيث تفاوتت بين وقت وآخر . فبينما ذكر (المقدسي) انطلاق هذه الطريق من السقيا⁽²⁾ - بما لذلك من دلالة على ابتعاد يثرب عن خط القوافل المتصل بالشام - يغفل (ابن رسته) من لائحته هذه المحطة ، بحيث يبدأ عنده ، من ذي خشب ثم السويداء⁽³⁾ - المرّ - ذي المروة - الرجة - وادي القرى - الحجر الجنية - الأقرع - المحدثة - نبوك - سرغ⁽⁴⁾ . ثم تنعطف الطريق لدى المقدسي بعد السقيا نحو الساحل إلى العيص والسويدية وبطن نخل ، ومنها إلى ذي المروة ثم الرحية وادي القرى والحجر وتباء ونبرك ، وصولاً إلى دومة الجندل وبصرى⁽⁵⁾ .

وإذا كان خط التجارة الرئيسي الذي توسطته مكة بين اليمن والشام ، حيث أقدم عاوري التجارة وأكثرها شهرة في العالم القديم ، ثمة محور ثالث لا يقل أهمية إلى الشرق ، كانت هذه المدينة على اتصال مباشر به ، وهو خليج فارس الذي لم يعد حركة نشطة في بعض الأحيان حيث كان لا يزال جزء من تجارة الحرير يسلك طريقه التقليدية القديمة ، دون تأثير كبير بالتعديل الذي طرأ على خطوط المواصلات التجارية ، أو بارتفاع تكاليف هذه السلعة نتيجة ازدياد ضرائب المرور ، خاصة وأن المتعاملين بها كانوا من الفئات العليا في المجتمع البيزنطي⁽⁶⁾ . ولقد أدى أفضال طريق الفرات نتيجة هذه الظروف ، إلى ازدهار مكة ، التي أضافت إلى دورها المركزي في حركة التجارة ، نقطة إيجابية أخرى ، وذلك عبر توسطها المحاور الثلاثة الكبرى ، ما بين موانئ الخليج والبحر المتوسط والمحيط

(1) وروث في البلدان « مر الظهران » ص 314 . وهي محطة كثيرة النخل وفيها بركة تتحدّر إليها الماء من جبل مجاور .

الاعلاق ص 178 . ابن خردادبة ، السالك ص 138

(2) كانت مركز غفار وهي تقع بين يثرب وادي الصفراء ، وقيل أن غراً جلياً كان يمر بها . أحسن التقاسيم ص 107 جواد علي ، القمص ج 7 ص 350

(3) السويدية في أحسن التقاسيم ص 107

(4) الاعلاق ص 183

(5) أحسن التقاسيم ص 107 . ابن خردادبة ، السالك ص 138

V. VAGLIERI, Demat AL-Djandal, Encyclopédie de l'Islam, tome II, P640

(6) نورمان ينز ، الامبراطورية البيزنطية ص 277

أما الطريق الشرقي بين مكة والخليج ، فكانت حجر (الهامة) تمثل حلقة المهمة التي تفرعت منها شبكات أخرى ثانوية . وقد وصفها (ابن حوقل) بأنها « أكثر نخيلاً وثمرأ من سائر الحجاز والثالثة بعد مكة ويثرب »^(١) . وهو كما نرى ، يعتبر الهامة جزءاً من الحجاز ، خلافاً لمعظم الجغرافيين العرب ، الذين تمثل عندهم اقليماً له ملامحه الخاصة بين أقاليم شبه الجزيرة^(٢) . وكانت (القريتين) أول محطة بعد مكة ، حيث تقع الى الشمال الشرقي ، وتتفرع منها طريق الى البصرة أو الكوفة في العراق . ثم تنحرف شرقاً الى (شريفة) و (صداء) و (السد) و (سقراء) و (الثنية) و (السيج) و (الحديفة) وأخيراً (العرض)^(٣) . وتأتي أهمية الهامة في اتصالها بموانئ البحرين وتجارة الهند ، لا سيما (جرهما) ، التي كان يعاد تصدير البضائع منها عبر الحجاز أو العراق الى البحر المتوسط^(٤) . ومنذ القرن السادس الميلادي ، كانت مكة همزة الوصل بين (جرهما) وبين (دومة الجندل) ، إحدى أهم الاسواق الشامية في ذلك الوقت . على أن هذا الميناء الذي كان من أنشط مراكز التجارة البرية والبحرية في منطقة الخليج ، لم يبق من آثاره شيء الى اليوم ، ولم يبق الباحثون وعلماء الآثار على تحديد ثابت لموقعه الجغرافي ، سوى ما ذكره الكتاب الأغريق ، بأنه يقع على الساحل الغربي من الخليج مقابل جزيرة (تيلوس) TYLOS التي اشتهرت باللؤلؤ .

ثمة خطوط رئيسية ثلاثة اذن ، تشعبت من مكة نحو مصادر التجارة وأسواقها في الخليج واليمن والشام . هذا بالإضافة الى تشعبات أخرى أقل أهمية تفرعت منها الى نجران في الجنوب الشرقي ، التي وصفت بأنها « من المواقع الحساسة في شبكة المواصلات قبل الاسلام »^(٥) ، أو الى العراق في الشمال الشرقي ، حيث كانت للتجار المكين علاقات وثيقة مع الحيرة عاصمة المناذرة^(٦) . ولقد ظل الخليج المحور الدائم في حركة التجارة

(١) LAMMENS, L'Arabic occidentale P. 112

(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ص 38

(٣) المقداني ، صفوة جزيرة العرب ص 153

(٤) ابن خردادبة ، المسالك ص 147 ، جواد علي ، الفصل ج 7 ص 344 . راجع غلطة « الجزيرة العربية » للامريسي .

سعد زغول تاريخ العرب قبل الاسلام ص 67

(٥) العملي ، محاضرات ص 36 .

(٦) جواد علي ، الفصل ج 2 ص 17-18

(٧) المرجع نفسه ج 1 ص 220 .

(٨) العملي ، محاضرات ص 96-97

العالمية في ذلك الوقت ، وكانت الففن ترفأ الى سواحله الغربيه ببضائعها الرائجة من أقصى الشرق ، لتصبّ في « قنوات » داخلية تجمّعها الى مكة ، أو الى الحيرة اذا كانت طريق الفرات سالكة ، أو يتابع بعضها طريقه البحري الى عدن عبر ساحل البخور ، مضافة الى أحماها منتجت هذه المنطقة لاسميا حضرموت^(١) . وكان الوصل بين هذين المحورين عبر هذه الفرعات البرية ، قد شكّل مفتاح السيطرة على تجارة الشرق ، وهو الدور الذي تنبّه له المكيون وأحسنوا استثماره ، بعد أن وجدوا لديهم الكفاءة لانتقائه ، انطلاقاً من المعطيات الجغرافية والسياسية والاقتصادية . ففي الجنوب ، انهارت الدولة الحميرية وتحول اليمن الى منطقة ساخنة يتجاذبها الفرس والبيزنطيون والأحباش . كذلك شهدت مواصلات الفرات في وقت سابق ظروفاً غير مشجعة لاستمرار حركة التجارة بصورة طبيعية ، بدءاً بالحرب الساسانية البيزنطية وانتهاء بسقوط الأسرة اللخمية في الحيرة ، بعد سلسلة من الازمات التي أدت الى انهيار التحالف التقليدي مع الفرس . وهكذا ينتقل محور التجارة الى الحجاز بعد تدهور المحاور الكبرى في اليمن والعراق ، وبعد احباط المحاولات الاقليمية المتصديّة لمكة ، التي حسمت زعامتها الحجازية دون منافسة جدية تذكر .

وبقي أن نتعرف على أنواع السلع التي تاجر بها المكثرون وأهميتها الاقتصادية في ذلك العصر . وإذا كان من غير اليسير القيام بعمل احصائي دقيق في هذا المجال ، فإن الاخبار تركت لنا الكثير من أسماء هذه المواد الرائجة ومصادر انتاجها . ويبدو أن الجربير كان أقل السلع شأنًا في تجارة مكة ، حيث اقتصر سوقه على القسطنطينية ، التي استوردته لصلحة « الارستقراطية » البيزنطية .

عل أن بضائع الصين الأخرى التي صُربت بتجارها الأمثال ، كما وصفها (المقدسي)⁽²⁾ ، كان لها شأن غير قليل في التجارة المكية ، لا سيما خشب الصندل ، بينما كانت التوابل أهم السلع المستوردة من الهند والمتصدرة لتجارة البحر المتوسط ، حيث كانت تكاليفها الباهظة ، من نقل ومرور ، تؤدي إلى ارتفاع أسعارها بصورة دائمة ، ولكن دون أن يفقد ذلك أهمية هذه السلعة الاستهلاكية ، الأكثر رواجاً حتى أوائل القرن السابع الميلادي . وكانت إلى جانب الأفاوية على اختلافها⁽³⁾ والذهب والأحجار الكريمة والعاج وغيرها ، من السلع الرئيسية التي تغد على موانئ اليمن ، قبل أن تحملها

(1) وصفت (ظفار) بأنها المكان الذي كانت تتجمع فيه محاصيل البخور وتقتل عبر وادي حضرموت الى اليمن قبل تصويقه .

زيادة ، الحفراية والرحلات ص 201

(2) أحمد بن القاسم ص 97

(3) المكان نفسه

القوافل الى مكة حيث يستوعب سوقها القليل منها ، بينما الغالبية تأخذ طريقها الى الشام⁽¹⁾ . أما السلع المحلية ، المنتجة في شبه الجزيرة ، فتأتي في طليعتها الجلود المذهبة (الأدم) ، التي كانت تصنع في الطائف واليمن⁽²⁾ ، وبعدها العطور التي اشتهرت بها الاخيرة ، وكانت تباع لكبار الاغنياء في مكة ، ومن ثم تحملها القوافل الى الشام مع السلع المحلية الاخرى كالزبيب (الطائف) والمعادن (الحجاز) واللبن والمر واللدن والعقيق (اليمن)⁽³⁾ . ولا ننسى البضائع المستوردة من أفريقيا الشرقية ، عبر موانئ الحجاز ، كالعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق ، فضلاً عن القمح (مصر) في بعض الاحيان⁽⁴⁾ .

وكانت هذه السلع تفر على مكة ، سواء من مصادرها المباشرة أو عبر موانئ الخليج واليمن والحجاز . أما الطريقة المستخدمة في النقل ، فلا ندري اذا كانت قد اقتصر على التجار المكين وحدهم ، وإذا ما كان هؤلاء يملكون جهازاً كافياً لتأمين هذه الكميات الضخمة وتخزينها ، قبل اعادة تصديرها ، أو أن قوافل أخرى كانت تسهم في عملية النقل الى جانب القوافل المكية . ومن المرجح أن مكة التي بدأت محطة للمرور على تقاطع طرق رئيسية ، قد تنبعت الى أهمية امتلاك « اسطول بري » يؤمن هذه الخدمات التجارية الكبيرة ، بحيث لم يكد ينتهي القرن السادس ، الا وهي تمسك بزمام حركة التجارة ، نقلاً وتسويقاً ، الى حد جعلها تأخذ طابع « المؤسسة » الاقتصادية على نحو لم تعرفه المجتمعات الشرقية من قبل .

أما السلع التي كانت تعود بها القوافل المكية من الشام ، فكان أبرزها زيت الزيتون (ساحل فلسطين)⁽⁵⁾ والقمح (حوران والبلقاء) ، فضلاً عن الخمر والجواري والمواد المصنعة في هذه المنطقة كالاسلحة والمنسوجات⁽⁶⁾ . وكانت في الشام عدة أسواق أو مراكز تبادلية تستقطب تجارة مكة ومصر والحيرة . على أن الاول كانت القاسم المشترك لهذه الاسواق وصلة الوصل بينها . فكانت (بصرى) مركز التبادل مع الحيرة و (غزة) مع مصر ، فضلاً عن دومة الجندل « سوق القبائل الكبير »⁽⁷⁾ . وهناك من ينسب الى الحيرة

(1) أحسن التقاسيم . ص 97 جواد علي ، الفصل ج 7 ص 290 . DIEHL, Byzance, P. 89 .

(2) المكان نفسه

(3) المكان نفسه . جواد علي ، الفصل ج 7 ص 292 . الشريف ، مكة والمدنية ص 206

(4) الشريف ، مكة والمدنية ص 206

(5) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص 181 . جواد علي ، الفصل ج 7 ص 294

(6) اليعقوبي ، تاريخ ج 1 ص 270 ، 271 . LAMMENS, La république marchande P. 47.

(7) جواد علي ، الفصل ج 7 ص 293 ، 308

علاقات تجارية تتعنى اسواق الشام الى مكة نفسها ، التي تزداد عليها الحيريون أو أسهموا بدور الشريك في « المؤسسة » الملكية ، التي ربما كان لها فروع خارج الحجاز في ذلك الحين» .

والآن ماذا عن دور التجارة البحرية في الاقتصاد المكي ؟ وهو سؤال قد لا ينطوي على كثير من الغموض ، ولكنه ليس خالياً منه . فالمعروف أن تجارة مكة والحجاز بصورة عامة ، انما هي في جوهرها تجارة برية اعتمدت على الجبال كوسيلة أساسية للنقل ، عبر الخطوط المختلفة التي ربطت بين هذه المدينة وبين مصادر السلع وأسواقها . ومن ناحية أخرى لم تكن مكة أو غيرها من المدن الحجازية على معرفة بالملاحة أو المام فطري بها . فقد حالت دون ذلك الطبيعة الجغرافية للحجاز ، فضلاً عن خطورة الملاحة في البحر الاحمر ، التي احتاجت الى مهارة تصعب حتى على المحترفين ، المقيمين على سواحلها . بالإضافة الى ذلك فان اعتبارات أخرى سياسية ، اسهمت في ابتعاد المكين عن هذا البحر ، الذي كان منطقة نفوذ للقوى المهيمنة على سواحله الغربية ، والاستعاضة عنه بالتوجه نحو الشام والارتباط بها عبر مسائط النقل التقليدية في البيئة الحجازية .

ويبدو أن تجارة البحر الاحمر التي ارتبط انتعاشها عادة بقيام حكم مباشر في مصر (البطلمة) ، أو في ظل تبعية لنظام امبراطوري مركزي (الرومان) ، قد أخذت في التدهور منذ أواخر القرن الثالث الميلادي ، مع التمزق السياسي للامبراطورية وتركيز البيزنطيين اهتمامهم على السواحل الشرقية القريبة منهم⁽¹⁾ . ولعل ذلك يؤكد الاتجاه الذي ذهبنا اليه ، بأن تجارة البحر الاحمر ، انما هي في واقعها مصرية ومتصلة الى حد وثيق بقدرة القوى المتغلبة في هذا الاقليم ، على تحقيق التفوق الملاحي في هذا البحر والسيطرة من خلاله على منافذ البحر العربي⁽²⁾ . ولذلك فقد كان له النصيب الاوفر من الازدهار في العصر الروماني ، بينما تراجعت أهميته الاقتصادية مع سقوطه⁽³⁾ ، حيث تحول من حلقة حيوية للاتصال بين المحيط الهندي والبحر المتوسط ، الى ما يشبه « البحيرة المغلقة » ، التي اقتضت الحركة فيها أو كادت على التجار الاحباش ، الذين لم يستطيعوا ، من خلال قوتهم البحرية الثانوية ، القيام بدور ملاحي يرقى الى ما حققه البطلمة أو الرومان . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان الاحباش في « العصر المكي » ، يشكلون القوة البارزة في تجارة

(1) جواو علي ، الفصل ج 7 ص 297

(2) DIEHL, Byzance, P. 89

(3) جواو علي ، الفصل ج 7 ص 277

(4) لطفي عبد الوهاب ، العرب ص 332

البحر الاحمر ، حيث آمنوا سبل الاتصال بين سواحله الشرقية والغربية . وقد شهدت تلك الحقة ، ظهور بعض الموانئ في شالي شبه الجزيرة ، كالشعبية وجدة (مكة) فضلاً عن الجار (يثرب) الاكثر شهرة في الحجاز القديم (1) .

على ان الغموض يحيط بدور المرفأ الاول (الشعبية) وأهميته في التجارة المكية . ولعل أول إشارة في هذا السبيل ، قد وردت في حادثة السفينة ، المروية عن (ابن منبه) ، وقد جاء فيها : « ان سفينة للروم جنحت عند الشعبية ، وهو مرفأ على ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة »(2) . ثم تختلف رواية ابن اسحاق ، فتصبح جدة هي المكان الذي تحطمت فيه السفينة ، حيث استخدم خشبها في تسقيف الكعبة (3) . ولكن الازرقني يكرر الرواية الاولى بشيء من التعديل ، بأن « سفينة للروم اقبلت ، حتى اذا كانت الشعبية ، وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، فانكسرت ، فسمعت بها قريش ، فركبوا خشبها ورومياً كان فيها يقال له يا قوم »(4) . ويكاد يختلط الامر ، اذا كان ثمة ميناء محدد لمكة قد تخصص في نقل تجارتها البحرية ، واذا ما كانت قادرة في ذلك الوقت على استيعاب المنتجات الافريقية ، التي يفترض أن تنفذ عليها عبر أحد هذه المرافئ ، لا سيما (الشعبية) القريب منها ، أم أنها كانت لا تزال تعتمد على موانئ الجنوب ، حيث تقوم بنقل البضائع المفرغة فيها ، برّاً الى مكة أو مباشرة الى الاسواق الشامية (5) . وقد يكون هذا المرفأ ، ان صَحَّ استخدامه كمينفذ بحري للمدينة التجارية الكبرى ، مجرد مرسى صغير ، حالت موانع دون استخدامه للسفن الكبيرة ، وفي طليعتها ضحالة الماء والشعاب المرجانية التي تزداد في هذه المنطقة . ولعل ذلك كان وراء جنوح « السفينة الرومية » المذكورة ، التي يرجح بأنها كبيرة الحجم ، نتيجة استخدام بقاياها في تهديد الكعبة وتسقيفها على نحو ما سبق .

وعدا ذلك فلم يتردد اسم (الشعبية) ، كميناء لمكة ، باستثناء ما دُوي عن ركوب المهاجرين المسلمين الأوائل منه الى الحبشة (6) . على أن هذه الرواية ، ان صحت ، وبأن هؤلاء قد هاجروا من هذا المكان ، فان ذلك لا يقتضي بالضرورة وجود مرفأ تتوافد اليه السفن بالنظام . ومن المرجح في مثل هذه الحال أن يهاجر هؤلاء من موقع آخر على الساحل

(1) البقوي ، تاريخ ج 2 ص 154 . البلاذري ، انساب ج 1 ص 160 . السهيلي ، الروض ج 1 ص 255 . جواد علي ، الفصل ج 7 ص 281

(2) السهيلي ، الروض ج 1 ص 225

(3) ابن اسحاق ، السير والمغازي ص 104

(4) الازرقني ، اخبار مكة ج 1 ص 157

(5) جواد علي ، الفصل ج 7 ص 290

(6) المرجع نفسه ج 7 ص 239 ، 272

الحجازي ، خاصة وأن ميناء يرتبط بالمصالح المكية كالشعبية ، لا بد أن ينضج في حينه لنفوذ القرشي ، ويجول بالتالي دون تهليل هجرة المسلمين المضطهدين في مكة .

وتقع (الشعبية) على مسافة نحو أربعين ميلاً إلى الجنوب من جدة⁽¹⁾ . وقد وصفت بأنها كانت لا تزال عامرة حتى القرن السادس الهجري ، حيث اختفى اسمها من خارطة الساحل الحجازي ، شأن (الجار) - ميناء يثرب الواقعة على ثلاث مراحل منها⁽²⁾ - الذي سبق الشعبية إلى الخراب⁽³⁾ .

ونخلص الى القول ، بأن مكة لم تكن ذات تجارة بحرية على قدر من الاهمية ، بل كانت تعتمد على سفن حبشية أو مصرية ، يبدو أنها احتكرت الملاحة والنقل في البحر الاحمر ، بما يتلاءم والحركة التجارية المحدودة فيه ، بالمقارنة مع المواصلات البرية المزدهرة في ذلك الوقت . وقد تكون (الشعبية) أحد المرافئ التي رفدت مكة بالسلع الافريقية ، ولكن في نطاق محدود ، حيث يفترض أنها اعتمدت بضعة مصادر على ساحل الحجاز ، لا سيما (الجار) الذي يبدو أنه مثل دوراً أكثر أهمية بالنسبة لها ، خاصة وأن جزيرة صغيرة⁽⁴⁾ تقع على مقربة منه ، كانت ملتقى التجار القادمين من سواحل أفريقية والمحيط الهندي . ولا يستبعد قيام السفن بافراغ أحمالها في هذا المرفأ لحساب التجار المكيين ، قبل نقلها الى أسواق الشام . ولذلك يصفه (المقدمي) بأنه «خزانة مصر»⁽⁵⁾ الى جانب (جدة) ، التي تطورت في العهد الراشدي لتصبح الميناء الرئيسي في الحجاز⁽⁶⁾ .

وهكذا أتبع لمكة بفضل هذه المعطيات ، تجاوز دائرة التأثير الاقليمي ، الى ممارسة الدور المركزي بين المحاور التجارية الكبرى في العالم القديم . ولعل أحد العوامل الايجابية في تكوينها التاريخي السابق على الاسلام ، أنها لم تشهد أزمات داخلية خطيرة ، كصراع قبلي أو تناقض جذري في المصالح الفردية ، باستثناء تكتلاتها المعروفة بـ «الأحلاف» . وقد كانت هذه أحد مظاهر الصراع السياسي في المدينة ، ولكن دون أن يؤدي بها ذلك الى للجبهة العسكرية ، حتى في فترات اشتداد الانقسام و بروز الصراعات

(1) الاوزبي ، اخبار مكة ج 1 ص 161 . حد الجاسر ، في شبالي غرب شبه الجزيرة ص 174

(2) ابن حوقل ، صورة الارض ص 39

(3) ظل (الجار) ميناء يثرب (المدينة) حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، عندما قامت على انقاضه قرية تعرف اليوم باسم (البريكة) ، وهي تبعد عن (بدر) نحو ثلاثين كيلومتراً . الجاسر ، في شبالي غرب شبه الجزيرة ص 178 .

(4) عرفت باسم (قراف) ، وكانت محطة للتجار الاجانب . معجم البلدان ج 2 ص 93

جواد علي ، المفصل ج 7 ص 272

(5) احسن التقاسيم ص 97 DONNER, Mecca's food supplies, p. 255

(6) ابن حوقل ، صورة الارض ص 39

الاجتماعي فيها. وخلافاً لذلك ، فقد ظلت وحدة القبيلة هي السائدة ، دون ثمة مشاركة ، كاملة أو جزئية ، مع فئات قبلية أخرى ، خارج هذا الطاق ، حيث قامت المجموعات السكانية فيها ، الواحدة على حساب وجود الاخرى ، بدءاً بالعائلة وانتهاء بقرىش .

ولقرن سابق على انطلاقة الاسلام ، بقيادة شخصية مكيّة ، كانت هذه المدينة تأخذ موقعها البارز في المنطقة حيث المستقبل بدا واضحاً أنه يتمحور في الحجاز⁽¹⁾ . ولم يعد ثمة مجال للتنافس حول زعامة شبه الجزيرة ، التي انعقدت لقرىش منذ القرن السادس الميلادي . ففي خلال هذه الفترة ، وهي احد الانتصارات الحضارية الكبيرة في التاريخ المكي ، تبلورت كثيراً الملامح الاجتماعية والاقتصادية لهذه المدينة ، على نحو لم تشهد مثيلاً له مدن الحجاز ومحطاته الاخرى ، التي عاشت في الظل والتبعية لها . فانكسفت يثرب منطوية على الانقسام وعلى نزعة ذاتية ، بأن تكون في موقع منافستها المحظية . أما الطائفت فقد اقتنعت بدور الحليف العضوي لمكة ، بعد قيام نوع من التكامل الاقتصادي بين المدينتين المختلفتين ، في الظروف الطبيعية والانتاجية . وكان هذا التحالف التقليدي بين القرشيين وزعماء مكة وبين الثقفين وزعماء الطائفت ، مما سكا إلى الحد الذي جعله يشكل ظاهرة نادرة⁽²⁾ . في تاريخ العلاقات القبلية ، التي تميزت عادة بالتطاحن والصراع على النفوذ .

وهكذا فإن نمو الطائفت كان خاضعاً للنمط الانتاجي فيها وهو الزراعة ، مع قليل من الأعمال الحرفية لا سيما صناعة الجلود⁽³⁾ ، الأمر الذي جعلها لا تتجاوز نطاق « المدينة الصغيرة » ، كما وصفها ابن حوقل⁽⁴⁾ . بالإضافة إلى ذلك كان لبعض كبار الأغنياء من قرىش ، دور الشريك في الحياة الاقتصادية للطائفت ، سواء في الاستثمار الزراعي أو التسوق من منتجاتها المحلية . وكان فصل الصيف يمثل التوقيت الملائم لنشاط الفئات المكيّة المسورة ، التي اتخذت من المدينة « الجبلية » القرية⁽⁵⁾ ، منتجعاً تهرب إليه من وطأة الحر الشديد في مكة⁽⁶⁾ .

أما يثرب ، فلم تتميز بنمط انتاجي معين ، ولكن اقتصادها تراوح بين الزراعة ،

(1) F. GABRIELI, Les Arabes, P. 33

(2) LAMMENS, La cité Arabe de tarf, P. 119

(3) الحمداني ، الصفح ص 120

(4) صورة الأرض ص 39

(5) وصفها البغوي ، بأنها « من أعمال مكة » . البلدان ص 313

(6) تشر بمكة نعمة ومصيفها بالطائف . من وصف محمد بن عبد الله النميري لزبيب بنت الحجاج بن يربف الثقفي .

ياقوت ، معجم البلدان ج 4 ص 12

(الحبوب والنخيل)^{١١} وبين التجارة في المقام الثاني ، فضلاً عن بعض الصناعات اليدوية ، كالأسلحة التي تخصص بها اليهود ، والدباغة وآلات الزراعة وادوات الصيد^{١٢} . فقد هيأت عوامل الطبيعة لثرب مصادر متنوعة لتأمين نوع من الاكتفاء الذاتي ، الذي اعتمد عملياً على الزراعة ، حيث ساعدت على نموها ، الثربة البركانية الخصبة ، والمروية من مياه الآبار والسيول المتجمعة في الوديان المحيطة بها ، مثل (وادي اضم)^{١٣} . ويرى (ولفنسون) أن اليهود أسهموا في تطوير الزراعة وتنويعها ، بإدخالهم أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات^{١٤} . بيد أن ذلك لا يمحى عن التأكيـد بأن هؤلاء كانوا « أساتذة »^{١٥} عرب الحجاز في هذا المجال على حد تعبيره ، وبأن خبرتهم مستوردة من الخارج ، حيث البيئة في المقام الأول فرضت هذا النمط الانتاجي الزراعي في يثرب ، كما فرضت النمط التجاري في مكة ، دون أن ننسى الخلفية الزراعية التي صاحبت عرب يثرب في هجرتهم من اليمن ، ومن ثم اشتغالهم بهذه الحرفة ، في الوقت الذي دأب فيه اليهود على تعاطي الحرف المالية والصناعية . ومن ناحية أخرى ، كان موقع يثرب على طريق القوافل ، قد وضعها بالضرورة في نطاق تلك الدائرة الحيوية من تجارة الشام المهمة . وفي ضوء ذلك يفترض أنها كانت تسهم بنصيب فيها ، سواء في المواد المنتجة عملياً ، أم المستوردة عبر ميناء (الجار) . وفي الوقت الذي احترف فيه العرب الزراعة^{١٦} ، كانت التجارة في الغالب مهنة اليهود في يثرب ، بحيث كانوا المنافسين الأكثر خطورة لتجار قريش^{١٧} . ولعل ذلك يتضح في غو المراكز اليهودية ، المنتشرة حول هذه المدينة ، خاصة (وادي القرى) ، الواقعة على تخومها الشمالية الغربية ، والمحطة الكبيرة في المواصلات التي تربط شمالي الحجاز بكل من الشام والعراق^{١٨} .

لقد اعتمدت يثرب في حياتها الاقتصادية على مصادر متنوعة من الانتاج ، أي انها لم ترتبط عضوياً بمصدر واحد ، على نحو يهدد الاكتفاء الذاتي فيها . وهذا ما وجدنا خلافاً في

-
- (1) ابن حوقل ، صورة الأرض ص 39 . الكنان ، التراتيب ج 2 ص 50 ، 53 .
(2) ابن الأثير ، اسد الغابة ج 1 ص 42 المغربي - كتاب الجغرافيا ص 117 الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية ص 59-63 .
(3) البغدادي ، بلدان ص 313 . ابن حوقل ، الأرض ص 37 .
(4) إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص 17 .
(5) الكنان نفسه .
(6) المرجع نفسه ص 19 .
(7) البلاذري ، انساب الاشراف ج 1 ص 73 . (تحقيق محمد حيد الله) .
(8) المقدسي ، احسن التقاسيم ص 97 .

مكة ، التي لجأت تحت ضغط ظروفها الجغرافية القاسية ، الى ربط مصيرها بالاقتصاد التجاري ، كنمط انتاجي تخصصي . وقد يفسر ذلك ، التطور السريع الذي رافق هذه الأخيرة أبان القرن السادس ، من سوق محلي يعتمد على القبائل المجاورة ، الى سوق مركزي تتمحور فيه تجارة الشرق ويعكس تأثيره على الحياة الاقتصادية للمنطقة بصورة عامة . ولكي تنجح مكة في حفظ التوازن الذي اختل في اليمن ، بعد أن تورطت ملوكها في صراعات الدول الكبرى ، فقد تغادى القائمون على شؤونها سياسة المحاور بكثير من الذكاء والمرونة ، بحيث تكامل ذلك مع الشروط الموضوعية الأخرى ، التي جعلت مكة تحتل موقعها الوسطي ، على المستويات المختلفة بما فيها المستوى السياسي .

ولعل إحدى الظاهرات المبتكرة لهذا التوازن ، كانت في نظام « الإيلاف » الشهير ، الذي مثل انجاساً نقابياً في العلاقات السياسية والاقتصادية بين عرب الشمال ، قبل أن يتطور بصورة أكثر شمولية ليضم عرب الجنوب أو بعضهم ، بالإضافة الى عدد من القبائل النازلة على طرق التجارة المكية داخل شبه الجزيرة وخارجها . وكان هذا النظام الذي ينسب انجازه لحفيد قصي (هاشم بن عبد مناف) ، مفتاح ذلك التحول الكبير الذي حققت معه تجارة مكة انطلاقتها « العالمية » ، وما رافقها من ظهور رحلي الشتاء والصيف الشهيرتين . ويبدو ان ذلك قد حدث في مطلع القرن السادس الميلادي ، عندما كانت « تجارة قريش لا تعدو مكة » حسب قول (البعقوبي)⁽¹⁾ . فكان هاشم في رحلته الى الشام « كلنا مرّ يحيى للعرب أخذ من اشرفهم الإيلاف ان يأسوا عنده وفي أرضهم »⁽²⁾ .

وهكذا وُجد « الإيلاف » لحماية التجارة المكية وتأمين مواصلاتها ، عبر تحالف أو « تألف » مع القبائل ، ليصبح الاداة المنظمة والراعية لمجهودها والتزاماتها مع مكة . وكرن هذه الأخيرة قد احتلت الى جانب موقعها الاقتصادي ، موقعاً دينياً متميزاً كمركز لعبادات القبائل واصنامها ، وذلك قبل قرن أو أكثر من « الإيلاف » ، فقد اكتسب هذا النظام ما كان لمكة من سلطة معنوية . ومن خلال هذا المفهوم ، كان يمثل الصورة اللامركزية في مكة ، التي تطلعت الى احتواء هذه القبائل ، في ظلّ حد أدن من « الوحدة السياسية » . وقد بلغ من أهميته بالنسبة لمكة ، أن أي مساس فيه أو خروج على موثيقه ، كانت ترى فيه ضربة لنفوذها وتجروا على قدسية « الإيلاف » الذي تنزع منه . ولعل الحروب الشهيرة المعروفة باسم « الفجار »⁽³⁾ ، تلك التي شنها بعض الفروع القيسية في الحجاز ضد مكة ، كانت من مظاهر هذا التمرد المقترب بـ « الكفر »⁽⁴⁾ ، على « شرعية » السيادة القرشية التي

(1) البعقوبي ، تاريخ ج اص 242

(2) المصدر نفسه ج اص 243 . جواد علي . الفصل ج 7 ص 302

(3) (4) السهلي ، الروض الانف ، ج اص 209 .

يقلها « الإيلاف » ، ليس من منظورها فحسب ، ولكن من منظور قبلي عام ، لما شكّته هذه الحرب من تهديد للمعادلة التقليدية . فقد أصبحت هذه القبائل ، التي « يؤلف » بينها نظام مشترك ، جزءاً فاعلاً في شبكة التجارة المكيّة ، تستفيد من مرورها وتؤمن الحماية لها في المقابل . وكان الارتباط بها عضواً ، الى درجة يستحيل معها الفصل بين قریش ، بشخصيتها « المقدسة » وبين « حياتها الاقتصادية الجديدة »⁽¹⁾ ، التي اكتسبتها في ظل هذا النظام . ذلك ان تأمين الطريق التجاري واحتواء القبائل النازلة بجواره أو على تخومه ، كانا من أبرز حوافز تلك المبادرة المعروفة بـ « الإيلاف » ، كنموذج مبتكر للممارسة القرشية المفطورة على التجارة .

وكانت ثمة معطيات شهدتها النصف الثاني من القرن السادس ، قد أعادت النظر في موازين القوى السياسية ، وما رافق ذلك من رجحان الموقف الفارسي ومنحه ظروفًا أفضل للتحرك في شبه الجزيرة . وكان أخطر ما حققه النفوذ الساساني في هذا المجال ، السيطرة على طريق نجران - الخليج وفروعه الداخلية المتفضية الى العراق ، تلك التي ستؤدي في وقت لاحق الى مجابهة عسكرية مع القبائل العربية النافذة في هذه المنطقة خاصة (بكر بن وائل) ، وذلك في أعقاب التنافس على شطأ القوافل ، الذي يرمّ في دائرة نفوذ هذه الأخيرة⁽²⁾ .

وهذه الحادثة ، التي تزامنت مع حادثة أخرى مماثلة في الحجاز (حرب الفجار) ، كانت تحققي وراءها الرغبة الاقتصادية نفسها ، ومدى ارتباط النفوذ السياسي بطرق التجارة ، سواء طريق اليمن - العراق بالنسبة للاولى ، أو اليمن - الشام بالنسبة للثانية . وإذا كانت التجارة القرشية قد خرجت سالمة في صراعها التنافسي ضد القبائل القيسية ، مع ادانة جماعية لهذه الأخيرة من عرب الحجاز ، الذين وجدوا في ذلك خرقاً غير مسوّغ للاعراف المتبعة ، فإن تجارة الحيرة ، وهي مركز التبادل الرئيسي في المنطقة ، قد عادت عليها هذه التطورات بالضرر الكبير وفقدت على اثرها الاهمية المحورية في تجارة العراق . ويبدو ان الدولة الساسانية قد حرصت منذ التدخل الحبشي في اليمن ، على اعادة النظر مرة أخرى في سياستها الاقتصادية ، فلجأت الى ادارة مصالحها الخاصة بنفسها واقامة شريط من النفوذ المباشر بين اليمن والعراق . ولم يكن ذلك سوى تمهيد لخطوة أكثر شمولاً ، تهدف الى الاتصال بأسواق الشام ومصر ، بما فيها أسواق الحجاز . ومن هنا كان الارتباك الذي وقعت فيه مكة والتعثر في لعبة التوازن ، التي مارسها باتقان حتى في ذلك الحين .

(1) رضوان السيد ، من الشعوب والقبائل الى الامة . مجلة الوحدة . عدد ابريل 20

F. M. DONNER, the Bakr b. wa'il Tribes and polities in Northeastern Arabia on the Eve of Islam, in (2) studia Islamica in Occ. Paris, P. 33

ويمكن ذلك ، المؤشر لبدايات الانحطاط المكي والتورط القسري في الصراع الدائر بين الدولتين الساسانية والبيزنطية في مطلع القرن السابع الميلادي .

ولقد نجحت مكة حيناً في استثمار تناقضات العلاقة العدائية بين محوري هذا الصراع ، حيث عزز ذلك دورها الوسيط بين مصالح الطرفين ، ومن ثم المشاركة في السيطرة على معابر التجارة العالمية ، التي بدت آنذاك وكأنها توزعت الى مناطق نفوذ ثلاث : الاولى ، فارسية تمتد من الخليج الى اليمن ^(١) ، والثانية مكية بين هذه الاخيرة وتحوم الشام ، والثالثة بيزنطية تسيطر على القسم الشمالي منها ^(٢) . ولا ريب أن خروج الاحباش من اليمن ، قد سجل تقدماً للسياسة الفارسية في المنطقة على حساب البيزنطية ، حيث أدى ذلك الى سقوط نظرية التحالفات المحلية ، المتكرسة مع فشل المحاولة التي نفذتها الحشة ، بإعزاز من الامبراطور (جستنيان) . وكان هذا الاخير قد ضاق بحركتي التهديد والنصرة النسطورية ، اللتين غذتها الدولة الساسانية ، اضغافاً للموقف البيزنطي في المنطقة ^(٣) .

وما لبثت سياسة الفرس أن حققت تقدماً حاسماً ، في الاستيلاء على الشام ، السوق الأكثر أهمية في تجارة مكة ، مما فرض تقويماً جديداً لعلاقاتها الخارجية ، خاصة مع الدولة المنتصرة التي باتت تمسك بطرفي الشريان الرئيسي للتجارة المكية : اليمن والشام . ومن البديهي أن أمن هذا الطريق لم يرتبط بقوة مكة العسكرية ، بقدر ما ارتبط بنظام « الإيلاف » ، الاداة المعنوية لسياسة التوازن بين الدولتين المتصارعتين ، وهي على خطورتها كانت احدى الركائز الاساسية لتجارة مكة الخارجية حتى ذلك الحين .

على أن هذه الحياد المكي ، رغم خلفيته الاقتصادية، كانت لديه المرونة والقدرة على التحرك في الوقت نفسه . وبذلك يسقط الحياد كموقف سياسي وينتهي - خلافاً لما هو سائد ^(٤) - من علاقات مكة الخارجية ، ليتحول الى موقف وسيطي غير تناقضي « بين مصالح الطرفين . ومن هذا المنظور ، كانت المدينة أكثر ارتباطاً بالسياسة البيزنطية ، حيث تدور في فلكها تجارة الشام ، التي شكّلت عصب الاقتصاد المكي . ومن المنظور نفسه ، لم تجد حرجاً في التودد للفرس وتعزيز العلاقة معهم ، بعد انتقال السيادة اليهم في المنطقة ، دون التورط مباشرة بسياسات هذا الصراع أو خلفياته .

(١) وات ، محمد في مكة ص 35

(٢) راجع سادقة عثمان بن الحريرث الاسدي مع الامبراطور البيزنطي . الفليسي المكي ، شفاء الغرام بأخبار البلد المحرم ص

109- 108

(٣) وات ، محمد في مكة ص 35

(٤) الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية ص 36

لقد كانت تجارة الشام محور القرار في سياسة مكة الخارجية ، الذي لم يكن الا انعكاساً لطبيعة نظامها شبه الجماعي ونتيجة حتمية له ، بحيث أن ما يصيب هذه السياسة من تعديل ، يؤدي بالضرورة الى خلل المعادلة بكاملها . ولذلك فإن أية محاولة احتوائية لمكة ، مباشرة كانت أم غير مباشرة ، كان لا بد أن تؤول الى الفشل ، بما فيها آخر المحاولات البيزنطية ، التي رمت الى إلغاء نظامها « التعاوني » واستبداله بأخر فردي مرتبط بها ، عن غرار دولة الغساسنة في الشام . وقيل إن البيزنطيين اختاروا لتنفيذ هذه المهمة ، تاجراً قرشياً من بني أسد بن عبد العزى (١) ، الفرع المتأثر على ما يبدو بالعقيدة المسيحية وهو عثمان بن الحويرث الذي أعد هذا الدور في الشام وعاد الى مكة « متصراً » (٢) وحاملاً تعليمات الامبراطور البيزنطي (٣)

وإذا صحت هذه الحادثة كما جاءت في الكتاب « المختوم في اسفله بالذهب » (٤) ، فإن أبرز مؤشرات كوثيقة تاريخية ، تلك التي تصب في اطار الصراع الدولي واقتسام النفوذ في المنطقة . كما كانت بدون ريب محاولة ذكية من البيزنطيين ، الذين عرّف عنهم عدم التورط المباشر في شبه الجزيرة ، عندما لجأوا الى اصطناع شخصية مكية من أسرة متعاطفة معهم ، لتنفيذ انقلاب داخلي لمصلحتهم في المدينة ، ومن ثم القضاء على نظام « الإيلاف » ، الذي اثبت قدرته على الاستمرار ، بعد موت مؤسسه (هاشم) ، وقيام ابنائه بتجديد المعاهدات الخارجية ، التي أصبحت من تقاليد الحكم في المجتمع المكي (٥) . وهي من ناحية أخرى ، تلقي الضوء على الامة الاقتصادية التي وصلت اليها هذه المدينة في حركة التجارة العالمية ، وحاجة الدولة البيزنطية خاصة الى ربطها المباشر بذات النفوذ التابعة لها ، في وقت شهد تحديداً لاستقلالية حلفائها الغساسنة في الشام ، وكانت اهمية هذه الاخيرة في التجارة المكية ، الورقة التي راهن عليها البيزنطيون ، بحيث

(١) البغوي ، تاريخ ح ٢٥٧

(٢) ابن اسحاق ص ١١٦-١١٧ ، للحبر ص ١٧١ . البغوي ، تاريخ ج ٢٥٧

(٣) جاء في الرواية المنسوبة للزبير بن بكار : « خرج عثمان بن الحويرث ، وكان يطعم أن يملك قرشاً وكان من أطرف قرش وأفضلها ، حتى قدم على قيس وقد رأى مرضع حاجتهم اليه ومنجزهم من بلاده ، فذكر له مكة ورعيه فيها ، وقال : تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاً . فملكه عليهم وكتب له اليهم ، فلما قدم عليهم قال : يا قوم ن قيس من قد علمتم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كفه . وقد ملكني عليكم وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما أخذ منكم الجراب من الفرط ولعمرك من السمن والادباب ، فأجمع ذلك ثم ابست به اليه ، وأنا أخاف أن ابستم ذلك أن يبع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم . أبو الطيب القاسمي ، شفاء الغرام بأخبار البلاد الحرام ص ١٠٨-١٠٩

LAMMENS, L'Arabie occidentale, p. 38- 39

(٤) القاسمي ، شفاء الغرام ص ١٠٨- ١٠٩ .

(٥) البغوي ، تاريخ ج ٢٥٤ . وات ، محمد في مكة ص ٣٧

يفسر ذلك التلويح بتهديد رحلتها الشامية (١). وهي أخيراً ، ليست الا محاولة للتعويض عن الخسارة التي لحقت بالمصالح البيزنطية في اليمن ، بعد اخراج الاحباش منها وسيادة النفوذ الفارسي .

وهكذا جاء اخفاق المحاولة المنسوبة لبني أسد للسيطرة على مكة باسم البيزنطيين ، مؤشراً الى أن « نظرية » الدولة « الحجازية » ، التي حققت حيناً أهداف هؤلاء في الشام - كما الفرس بالنسبة للمناذرة في العراق - ربما استنفذت نفسها تحت تأثير تباين الظروف التي رافقت قيامها وما آلت اليه بعد ذلك . وقد نجد تفسيراً له في القضاء على الاسرة اللخمية وتقليص نفوذ الغساسنة في مطلع القرن السابع الميلادي ، كنتيجة لتلك العلاقة المضطربة وغير المتكافئة بين « الدولة الحجازية » وبين الدولة الكبرى ، التي حذت لها مساحة الدور المنوط بها وحالت دون الخروج منه أو احداث تعديل ما عليه . كما يفسر ، تشجيع البيزنطيين والفرس معاً في تلك الفترة للهجرات القبلية (طي في العراق و كلب في الشام) ، التي تمت على حساب النفوذ المحلي للدولتين « الحجازيتين » . فقد كان ظهور الغساسنة في الاصل لتطويع القبائل العربية والتحد من انتشارها على أطراف دولة البيزنطيين ، ومن ثم تراجعت أهميتهم بعد انهيار ذلك « الحجاز » والاتصال مباشرة بالزعماء القبليين ، شأن المحاولة التي جرت مع الزعيم الأسدي (عثمان بن الحويرث) ، لاحتواء التجارة المكية المزدهرة في الشام . ولكن الطموح الرامي الى تحقيق امتداد جنوبي للنفوذ البيزنطي حتى مكة ، اعاق احتمالات نجاحه النظام نفسه ، بعد رفض الأخيرة « النموذج الغساني » الفردي ، مؤثرة عليه نظامها التقليدي ، حيث السلطة شبه جماعية يتقاسمها كبار ذوي الشأن في المدينة .

ان التقويم العام للتكوين الاقتصادي في الحجاز ، ينتهي بنا الى ابراز مجموعة من الحقائق ، وفي طبيعتها الحقيقة الجغرافية ، التي جعلت هذا الاقليم في وسط مصادر التجارة وأسواقها ، ثم اختياره كمنطقة آمنة ، بديلة لخط الفرات المضطرب ، فضلاً عن ركود الملاحة في البحر الاحمر ، وما قابل ذلك من انتعاش للطريق البري المتاخم له . وكان اختلاف النمط الانتاجي في مراكز الاستقرار الحجازية ، وراء التفوق الذي وصلت اليه مكة وتبوأ الصدارة ، دون منافسة جدية ، سواء من الطائف ، ذات الطابع الزراعي ، أو يثرب بطابعها الانتاجي التعددي (٢) . ولقد أوجد هذا التنوع شيئاً من التكامل الاقتصادي في الحجاز ،

(١) الفاسي ، شفاء الغرام ص ١٠٩

(٢) التراث الادبي ج ٢ ص ٤٤ .

حقق لمكة بعض التوازن قبل أن تؤول إليها الزعامة فيه ، وبالتالي قيادة حركة التجارة في المنطقة ، وذلك انطلاقاً من الشروط الموضوعية التالية :

أ- وقرعها - أي مكة - على مفترق طرق القوافل البرية بين الخليج والعراق والحيشة واليمن وبلاد الشام .

ب- نشأتها كمسوق داخلي للبدو ومركز ديني لعبادات القبائل المحيطة بها .

ج- تطورها إلى محطة مرور ، على غرار المحطات التي يتوفر فيها الماء ، حيث الطرق تتعرج عادة باتجاه العيون والآبار .

د- التركيب السكاني المتجانس والتضامن المصلحي بين الاطراف القرشية ، بحيث كانت المدينة الوحيدة في الحجاز التي تمتعت بهذا الحدّ النسبي من الانسجام ، والذي انعكس بصورة ايجابية على مصاحفها التجارية المزدهرة ومركزها القوى بين القبائل .

هـ- العقل القرشي المتدرّب على التجارة ، إلى درجة باتت مهنة الجميع ، من تمارس غيرها يفقد كثيراً من مكانته الاجتماعية (1)

و- تحوّل مكة إلى ما يسمى حديثاً بـ « مركز خدمات » ، حيث تتفوق به دولة دون أخرى ، بقدر ما تؤمنه من تسهيلات وأجواء متميزة ، تجتذب إليها التجار وتشجعهم على ارتيادها . فهناك مؤسسات تنظّم المعاملات المالية ، كضرائب المرور وشؤون الربا والصيرفة والعمولة والمضاربة والتأمين على السلع ، فضلاً عن الخدمات الاجتماعية ، بحيث أصبحت مكة تزدهم بصنوف الناس من تجار وشعراء وصعاليك وغيرهم من طالبي المال والشهرة والمتعة إلى آخر ذلك (2) .

ز- وأخيراً كان نظام « الايلاف » ، القوة المحركة التي دفعت في نهوض مكة ، كنقطة « متوسطة » ، متنوعة البداوة إلى جانب التحضر ، والتي طورت تجارتها من سوق محلي صغير إلى حلقة مركزية واسعة تلقي عندها مصالح الدول الكبرى وحليفاتها .

(1) ظلت التجارة مهنة القرشين المفضلة حتى بعد الإسلام . وقد قيل أن أبا بكر قد خرج تاجراً إلى (بصرى) في الشام . كما نقل عن عمر قوله « إذا اشتري أحدكم جلاً فليشره عظمياً سميناً ، فإن إعطاه غيره لم يخطئ سوفه » . المزيّني

Lamens, la république Marchande de la Mecque, p. 41-42

24 ، 23 ص

Lamens, La République, p. 212-214, 223, O' Leary, Arabia Before Muhammad, p. 182 (2)

وهكذا قفزت مكة الى الصدارة في شبه الجزيرة العربية ، التي لفتت أهميتها الجغرافية والاقتصادية الانظار منذ حملة الاسكندر ، حيث كانت في حساباته التوسعية في الشرق (١) . ولم تستطع بعد ذلك الدول التي قامت على أنقاض الامبراطورية المقدونية ، تجاهل هذه المنطقة ودورها الحيوي ، فكانت أحد أهدافها الدائمة . وكان انهيار اليمن ، الواقعة على مشارف ساحل البخور وبلاد التوابل ، في أعقاب التجاذب السياسي الذي اشتد في النصف الاول من القرن السادس ، قد أخرج هذا الاقليم من دوره التاريخي وافقده القدرة على الموازنة بين مصالح الدولتين الساسانية والبيزنطية . فكانت مكة ، حاضرة الحجاز آنذاك ، البديل المناسب لليمن والمحور المركزي الجديد لتجارة الشرق ، حيث انتعشت مباشرة بعد سقوط الحكم الحميري ، مستبدلة نقاط ضعفها بكبقة جرداء ، بأخرى ايجابية ، استمكنت منها التحدي وإرادة العيش والدفاع عن النفس . وإذا بالتجارة ، وهي حرفة المجتمع المكّي ومادة الارتزاق الوحيدة فيه ، تصبح وكأنها « الثروة » الهائلة التي فجّرتها الصحراء ، تنتقل بالمدينة من حدود البداوة الى حدود التحضر ، ومفضية بها الى منعطف تاريخي في الحضارة الانسانية . فتكون مكة دون غيرها ، المكان الذي انطلقت منه رياح التغيير الى المنطقة والعالم ، والارض التي شهدت الصراع الحاسم بين التيارات المختلفة ، وليدة ذلك النهوض المكّي غير العادي ومعه التمازج الفكري والعقائدي والاجتماعي ، على مدى نحو قرن من الزمن قبل ولادة الاسلام في هذه المدينة .

(١) جواد علي ، المقتصد ج ٤ ص ٦ .

DONNER, MECA'S, P. 252 R. COHEN, La grèce et l'hellénisation du monde antique, P 412

الصراع السياسي وتطور السلطة

في مكة قبل الاسلام

إن أهمية حلف الفضول ، ما جسدته من مرحلة انتقال بين عشرين ، أو المسافة بين « الملأ » وبين « الدولة » .

كانت ثمة منعطفات ثلاثة ، أسهمت على فروقاتها في التكوين الحضاري للحجاز القديم ، حيث كان لمكة دور الريادة فيه ووضعه على مفترق عشرين مختلفين : المنعطف الاول ، تمثله مكة الحنفيّة المتصلة بمعهد ابراهيم وابنه ، « والبيت » الذي أقامه على « ربوة حراء » فيها ، حسب رواية الاخباريين القديمة (1) . بيد أن هذه الحقبة على أهميتها ، عاطة بالكثير من الغموض (2) ، لا سيما التحديد الزمني لذلك الحدث ، الذي اتخذت مكة من خلاله موقعها القدسي المميز في شمالي شبه الجزيرة العربية . فهناك حلقة أو أكثر على امتداد بضعة قرون ، تفتقد المادة التاريخية المفصلة ، مما يعمق أية محاولة جدية لدراسة هذه الفترة المبكرة على نحو متكامل . ولكنها رغم ذلك ، مثلت الامتداد الحضاري لمكة القديمة والركن الاساسي في زعامتها الحجازية ، سواء على المستوى الديني أو الاقتصاد أو السياسي .

والمنعطف الثاني تمثله مكة الخزاعية ، التي اكتسبت ملامحها الوثنية على يد عمرو بن لحي الخزاعي (3) ، حسب زعم الاخباريين . وتبدو هذه الحقبة أكثر وضوحاً وتفصيلاً ، لا سيما الظروف التي تم فيها « الانقلاب الديني » المنسوب الى هذا الاخير ، والذي يرجّح بأنه كان استجابة لضغط القبائل المحيطة بمكة أو المتعاملة معها خارج الحجاز ، التي تدّين بالعقيدة الوثنية . وبذلك يكون (الخزاعي) ، الذي تُسبب اليه القيام باتصالات مبكرة

(1) العمودي ، مروج الذهب ج 2 ص 18 ، 19

(2) الاندلسي ، اخبار مكة ج 1 ص 36 ، 37

(3) الكلبي ، كتاب الاسماء ص 19 ، السهيلي ، الروض الانف ج 1 ص 102 ، 137

مع القبائل المقيمة على تخوم الحجاز ، المؤسس الاول للمجتمع المكي وواضع بواكيره التنظيمية ، حيث تبلورت بعد ذلك خلال قرون ثلاثة⁽¹⁾ من السيادة الخزاعية ، كانت كافية لتكوين شخصيته الوثنية المعروفة التي استقرت في أواخر القرن الرابع الميلادي .

أما المنعطف الثالث والآخر ، فهو الذي يقترن بالمرحلة الحاسمة من تاريخ مكة القديمة ، والانتقال من نطاق التجارة المحلية والاعتماد على حركة القبائل المجاورة ، الى نطاق التجارة العالمية والقبض على زمامها في المنطقة ، عبر شبكة من التحالفات الداخلية والخارجية (الإيلاف) ، وهو ما تمثله مكة القرشية ، التي تدين في تكوينها لقصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي⁽²⁾ . وقد تصادف ذلك مع بدايات تراجع أو انهيار المراكز الحضارية والتجارية ، التي قامت على أطراف شبه الجزيرة . ففي الجنوب ، كانت اليمن تعيش حالة من التمزق السياسي تحت تأثير موجات التبشير ، المقنعة بالاطماع الفارسية والبيزنطية فضلاً عن الحبشية⁽³⁾ . وفي الشمال ، شهدت كل من الشام والعراق انكفاءً لنفوذ الساسنة في الاولى وللمناذرة في الثانية ، بعد تغير الاسباب التي كانت وراء ظهورهما ، كوسطاء بين الفرس والبيزنطيين من جهة ، وبين القبائل العربية الواقعة على تخومهما من جهة ثانية . ذلك أن استمرار التحرك القبلي في هذا الاتجاه ، قد أحدث خلال في المعادلة القديمة ، وهي الاعتماد على حليف عربي « مانع » ، خاصة بعد اشتداد تنافس القبائل ، الذي جاء على حساب دويلات الاطراف ، مما أدى الى اضعافها من ناحية ، والاتصال المباشر مع هذه القبائل التي تقلص خطرهما من ناحية أخرى⁽⁴⁾ .

وفي ظل هذا التطاحن القبلي الدائر على أطراف شبه الجزيرة ، كان ثمة دور متميز تشغله مكة وسط هذه الاخيرة ، فتنبض فيها كالقلب وتعكس تأثيرها وراء الحدود حتى الاطراف . ومن المؤكد أن تطور النظام السياسي في هذه المدينة ، ارتبط بنموها التجاري الى حد كبير ، حيث أصبحت منذ القرن السادس « السوق الحرة » المركزية التي تتوفر فيها السلع على اختلافها ، وتتأسس كافة الخدمات والمعاملات التجارية ، بما فيها تنظيم الديون والفوائد والودائع⁽⁵⁾ ، الى آخر ما تفرّد به السوق المكي في هذا المجال ، بحيث أصبح

(1) الأزرقي ، أخبار مكة ج 1 ص 103 ، المسعودي ، مروج ج 2 ص 29-32 .

(2) المسعودي ، مروج ج 2 ص 32 ، إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص 103 .

(3) السهي ، الروض ج 1 ص 41 ، 51 .

(4) من أشهر هذه القبائل : بنو كلب في الشام وبنو تغلب في الجزيرة وبنو بكر بن وائل في العراق .

طه الهاشمي ، خالد بن الوليد مجلة الرسالة ص 165 ، عند 66 القاهرة 1934 .

صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص 95-96 .

LAMMENS, La mécque à la veille de l'hégire, P. 231- 236 (5)

مقصد المحترفين من التجار أو المبادلين سلعهم بأخرى من البدو ، دون ثمة ما يحّد المبادرة أو يعيق الحرية الشخصية . ولم يكن تحقيق هذا الموقع الذي بلغته مكة ، أمراً ميسوراً حينذاك ، لولم تنجح قريش - حسب تعبير مؤرخ معاصر - في « اقناع قبائل الحجاز وحدود الشام والعراق بفائدة ترك الطريق التجاري مفتوحاً »^(١) ، أي بتحييده عن صراعات المنطقة الشمالية ، المهددة له بين الحين والآخر . وكان ذلك بالفعل أحد أهم إنجازات القرشيين الذين أظهروا براعة فائقة في الفصل بين التجارة والسياسة ، بحيث جاء التزامهم بشؤون الأولى ، بقدر ابتعادهم عن شجون الثانية .

وقد نتساءل عن القوة المحركة لهذا الدور المحوري في مكة ، والمنظمة لكافة شؤونها الحياتية في ذلك الوقت ؟ . فالمؤسسة التي يشير إليها المؤرخون ، مترادفة مع قصي زعيم قريش ، وهي (دار الندوة) ، تمثل النواة الأولى لذلك النظام شبه « التعاوني » بين الفعاليات الأكثر نفوذاً في المدينة . فمن هذه « الدار » التي يفترض أنها ذات طابع جماعي ، كانت تُتخذ القرارات وتُحدّد المواقف ، بما يعبر عن المصلحة المشتركة . وهي لا تكاد تختلف كثيراً عبر هذا الإطار عن المسجد في مطالع عهود الاسلام ، حيث كان له دور بارز في الحياة السياسية العامة للدولة ، مع الفارق النوعي في الاستقطاب الذي كان محصوراً بكيار التجار والمتمولين في (دار الندوة) ، ومفتوحاً لكافة الفئات المتساوية في العقيدة ، كشرط مبدئي ، في المسجد .

ولعله من المفيد تحديد الاطار السياسي لدار الندوة ، استناداً الى روايات المؤرخين الاوائل . فثمة اتفاق في المضمون على دورها الاساسي ، كمجلس للتشاور وأداة منظمة لمختلف الشؤون الحياتية في مكة . وقد اقتصر (الطبري) القول « وفيها كانت قريش تقضي أمورها »^(٢) ، بينما (الازرق) ، وهو متقدم عليه قليلاً ، كان أكثر وضوحاً وشمولية بقوله « فحاز قصي شرف مكة وأنشأ دار الندوة ، وفيها كانت قريش تقضي أمورها ، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي الا ابن اربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون »^(٣) . ومن الواضح عبر هذا التصور أن (دار الندوة) ، كانت تعتبر نواة السلطة السياسية في مكة ، على نحو أعطى لمؤسستها حق التنفيذ وامتياز الوراثة . ومن الناحية التنظيمية ، اشترط لعضويتها الذين تجاوزوا الاربعين ، دون أن يجري ذلك على أبنائه الذين أعفوا من هذا الشرط . . أي أن حق

(١) رضوان السيد ، من الشعوب والقبائل الى الأمة ، مجلة الوحدة ص 24 ، عدد ١٤ بيروت 1980

(٢) تاريخ الطبري ج 2 ص 164

(٣) أخبار مكة ج ١ ص 19

العضوية اقتصر على ذوي النفوذ أو « الندى »⁽¹⁾ ، الذين بلغوا في موقعهم الاجتماعي والاقتصادي ، حدّاً يكتفيهم من « الانتداء » الى المجلس « فيتحدثون ويتشاورون »⁽²⁾ دون أن يكون لذلك صفة تقريرية أو الزامية .

ولكن ما هي الشروط الضمنية لعضوية (دار الندوة) ، التي يفترض أن يتسع التمثيل فيها ليضم كافة الفئات الاجتماعية في مكة ، وذلك على غرار ما عرفته بعض المجتمعات القديمة ، لا سيما الاغريقية⁽³⁾ ؟ هل تتوقف العضوية عند شرط السن الذي ينبغي أن لا يقلّ عن الاربعين كما أشار (الازرقسي)⁽⁴⁾ ، أم تتجاوزه الى الاوضاع الاقتصادية للعضو؟ لقد انطوى هذا المجلس على هيتين من حيث المبدأ: احدها استشارية (عامة) ، والثانية تنفيذية (الملأ) اذا ما توفر الاجماع للقرارات الصادرة عنها . وكانت كلتاهما تمكس طبيعة المجتمع التجارية وتعبر عن نمط الانتاج المحوري فيه ، بحيث سيكون للعامل الاقتصادي ، الدور التقويي الاول في تحديد مكانة الفرد الاجتماعية في مكة . فالثروة أدت الى تمزيق وحدة القبيلة والى نوع من التفاوت الاجتماعي بين البطون القرشية ، أصبحت معه العلاقة عضوية بين دخل الفرد والحقوق التي يتمتع بها . ولذلك فان مواقع النفوذ والزعامة كانت غير مستقرة ، ومتجاذبة تبعاً للنفوذ الاقتصادي للفرد . أما احتفاظ بني هاشم بالزعامة رغم تدهور أوضاعهم المالية ، فان ذلك لم يكن أكثر من تقليد متوارث ، بحيث أصبحت زعامة أبي طالب مثلاً ، أدبية أكثر منها فعلية . وربما فاقه نفوذاً في هذا المجال كل من أخويه العباس وأبي لب ، فضلاً عن زعامات مستجدة فرضت نفسها نتيجة لأوضاعها الاقتصادية المتقدمة ، كبنى أمية وبني نوفل وبني أسد ، الذي شكّلوا ما عرف بحلف « المطيين » ، أحد أهم مراكز النفوذ في مكة عشية الاسلام⁽⁵⁾ . ولم يحل ذلك أيضاً دون بروز شخصيات تجاوزت حدود الاسرة في التأثير السياسي والمعنوي ، كعبد الله بن جدعان الذي ينتمي الى (تيم) ، محققاً لنفسه بفضل ثرائه الواسع ، مكانة خاصة في (ملأ) وفي المجتمع المكّي لم تصل اليها هذه الاخيرة⁽⁶⁾ .

يبد أن التفاوت في النفوذ لم يؤد الى زعزعة النظام ، الذي احتفظ بحدّ معين من

(1) ابن ظهيرة القرشي ، الجامع اللطيف ص 117

(2) البلاذري ، انساب الاشراف ج 1 ص 52 طبعة القاهرة .

(3) لطفي عبد الرحيم عي ، اليونان ، مقدمة في التاريخ الحضاري ص 126 وما بعدها .

(4) أخبار مكة ج 1 ص 109

(5) المسعودي ، مروج ج 2 ص 33 . السهيلي ، الروض ج 1 ص 153

وابن ، محمد في مكة ص 29

(6) القنسي ، العقد الثمين ج 1 ص 152 177 168- LAMMENS, La mœque, P.

التماسك وتجنب الصراعات المحلية ، حيث تغلبت عليها المصلحة المشتركة للفروع القرشية المسهمة فيه . وهنا تكمن أهمية الدور المتوازن الذي شغله مجلس (الملأ) في تسيير شؤون المدينة وتوفير حدّ نسبي من المسؤولية الجماعية . وتحدد بعض مصادر المؤرخين الوظائف المنفردة عن هذا المجلس ، حيث كان نوابها ستاً (١) في عهد قصي ، ثم تجاوزت العشر قبيل الاسلام (٢) ، استجابة لتطور أوضاع المدينة ، وظهور فروع جديدة في قريش وهي المتتمة من حيث المبدأ الى « البطاح » ، دون « الظواهر » الذين كانوا خارج (الملأ) ، واقتصر دورهم كما يرجّح على الشؤون الدفاعية (٣) . ولكن هذه المصادر خلت من الإشارة الى رئاسة (الملأ) ، خلافاً للنسوة التي خضعت لنفوذ بني عبد الدار ، زعماء حلف « الاحلاف » ، وهو يأتي بعد حلف « المطيين » من حيث الاهمية في النظام المكّي . ففي عهد قصي الذي جمع بيده السلطة الكاملة ، كانت هذه الوظائف تعود اليه بما فيها (الملأ) ، الذي تحول بعده الى سلطة جماعية ، توحد مصالح القرشيين وتجمع بين أحلافهم ، أو بعبارة أخرى كان القاسم المشترك بين فروعهم المختلفة . ولعل الحضور المعنوي للسلطة ، وهو ما وصفه (لامنس) بـ « الظل » (٤) ، كان أقوى من السلطة كمضمون فعلي ، وذلك لصعوبة تحديدها في المجتمع المكّي ، حيث جاءت انعكاساً واضحاً للنظم الاقتصادي السائد فيه ، بما انطوى عليه من مصالح وعلاقات متشابكة ومعقدة .. وهذا سيؤدّي حكماً الى بروز كبار التجار ، الذين كانوا أكثر مقدرة على استيعاب مشاكله والتعاطي بصورة أكثر واقعية مع اهتماماته الحياتية العامة .

وهكذا فإن السلطة في مكّة ، كانت عبارة عن مراكز نفوذ تقرّها الاهمية الاقتصادية ، دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما ، السيادة الكاملة ، على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الاول . ولعل هذا الاخير شاء استمرار هذه الصيغة وراثية مع ابنائه ، مهيتاً ابنه البكر (عبد الدار) زعيماً لمكّة من بعده ، على رغم ما يشار الى ضعف شخصيته (٥) وتفوق أخوته عليه ، لا سيما (عبد مناف) الذي اشتهر في حياة أبيه ويد أكثر جدارة بالزعامة من بعده (٦) . على أن (الأزرق) نحا اتجاهاً آخر في رواية انتقال

(1) السقاية ، الرفادة ، القيادة ، التنمية ، السدانة ، اللولاء . وكانت الوظائف الثلاث الاخيرة موحدة يتولاها بنو عبد الدار بصورة عامة. الأزرق ، اخبار مكّة ج 2 ص 109- 112 ابن ظهيرة القرشي ، الجامع اللطيف ص 114- 118

(2) استجدت الوظائف التالية : المشورة ، السفارة ، الاشفاق ، الاپار ، القبة والاعنة . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج 3 ص 325- 326

(3) المسعودي ، مروج ج 2 ص 32 . وات ، عميد في مكّة ص 22

(4) LAMMENS. La mécque, P. 161

(5) الطبري ج 2 ص 184 . البلاخري ، أنساب الاشراف ج 1 ص 53 .

(6) يشير الطبري الى ذلك قول منسوب لقصي غاطياً ابنه عبد الدار : « لاخفك بالقوم (عبد مناف ، عبد

السلطة ، فتبدو وكأنها تمت وفق تدبير مسبق ، شارك فيه قصي ، حيث وزّعها مناصفة بين (عبد الدار) و (عبد مناف) ، رغم أنه أثر الاول على الثاني حسب قوله (١١) . ولكن كفاءة الاخير تدخلت لمصلحته ، ليصبح في وقت لاحق رأس التيار القوي الذي ستؤول اليه الزعامة الفعلية في مكة إبان العهد الوثني .

وسيوذي غياب قصي كشخصية مؤسسة الى تفجير أزمة الحكم في مكة ، خاصة وأن خليفته (عبد الدار) لم ينجح في ملء فراغه ومواجهة تنافس الاخوة الاقوياء . ولم يطل الوقت حتى قام أبناء (عبد مناف) ، الذين ورثوا نفوذ الاخير وطموحه ، بانقلابهم ضد بني عبد الدار وانتزعوا منهم السلطة الفعلية ، وذلك بزعامة كبيرهم عبد شمس (١٢) . ولعل هذه المرحلة كانت المنعطف الأكثر أهمية في تكوين الشخصية السياسية والاقتصادية للاقليم الحجازي بزعامة مكة ، حيث اختصرت ملامحها آنذاك ، في وقت اضطربت فيه العلاقات السامانية - البيزنطية ، وما رافقها من اغلاق طريق العراق أو ركوده ، ومن ثم ازدهار الطريق البري بين اليمن والشام ، عبر الحجاز وتهامة .

بيد أن هذا « الانقلاب » لم يحقق عودة الحكم الفردي الى مكة ، لأن أحداً من الاخوة الاربعة (١٣) المشاركين فيه ، لم ينجح له الامتثار بالسلطة أو الانفراد بها ، ولكنه أسهم في تكريس صيغة خاصة في النظام المكي ، وهي حكم الأقلية (الاوليجاركية) ، التي ظلت متداولة حتى الفتح الاسلامي للمدينة . أما الجانب الآخر في هذه الحركة ، فهو ارتباطها بتطورات التجارة العالمية ، التي كان لها انعكاس واضح عليها ، سواء في التوقيت المناسب ، أم في التنسيق المشترك ، أم في توزيع الادوار ، الى آخر هذه المعطيات التي هيأت ظهور نظام « الإيلاف » ، محور الحياة السياسية والاقتصادية في مكة ، وأحد أبرز مسوغات الانقلاب الذي تزعمه بنو عبد مناف . وقد أشار (الطبري) الى المعاهدات التي قام بانجازها أركان النظام الجديد مع القوى السياسية خارج الحجاز بقوله : « فكانوا أول من أخذ لقريش العصم ، فانتشروا من الحرم . . أخذ لهم هاشم جبلاً من ملوك الشام

(١١) العزى ، عبد قصي (وان كانوا قد شرفوا عليك . لا يدخل رجل منهم الكلمة حتى تكون أنت تفصحها ولا يعقد لقريش لواء الحربهم الا يبيدك ولا يشرب بمكة ماء الا من سفائك ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً الا من طعامك ولا تفضح قريش أمورها الا في حراك . فاعطاء داره ودار الندوة التي لا تقضي قريش أمراً الا فيها وأعطاه الحجابة واللواء والندوة والسفاية والرفادة . تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ١٨٤ . راجع أيضاً أنساب الاشراف ج ١ ص ٥٣ ، الروض الانف ج ١ ص ١٥٢ .

(١٢) اعطى عبد القار ، الحجابة ودار الندوة واللواء ، وعبد مناف السفاية والرفادة والعهد . الأزرقى ، اخبار مكة ج ١ ص ١١٠

(١٣) قيل أنه توأم هاشم . الطبري ج ٢ ص ١٨٠ . السهيلي ، الروض الانف ج ١ ص ١٥٣

(١٤) هاشم ، عبد شمس ، نوفل ، المطلب . الطبري ج ٢ ص ١٨٠

الروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس جبلاً من النجاشي الأكبر فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل جبلاً من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب جبلاً من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن (1) .

لقد كانت هذه الحركة ، استجابة لتغيرات جذرية في حركة التجارة وخطوط القوافل ، بحيث وجد أصحاب « الإيلاف » آنذاك ، فرصتهم الكبرى في إعلان تلك المبادرة، التي أخذت طريقها إلى التنفيذ، مع قيام هاشم، أبرز الأخوة المتحالفين ، بتسيير الرحلتين الشهيرتين (إلى الشام واليمن) . ويبدو أن الظروف كانت مواتية لمثل هذه الخطوة ، التي حظيت بتأييد عريض في بطون قريش ، نتيجة اتخاذه ذلك الخط « التعاوني » الهادف إلى تحقيق حد أدنى من التكافل الاجتماعي والاقتصادي في مكة (2) .

وكان نظام « الإيلاف » يمثل في جانبه الاقتصادي أو الاجتماعي ، أحد أشكال التطور في السلطة من « الفردية » في عهد قصي إلى « الأقلية » في عهد هاشم وحلفائه ، الذين كانت حركتهم في الجانب الاصلاحى منها ، ترمي إلى إيجاد تكافؤ نسبي بين الفئات القرشية ، المتعاشية في ظل مجتمع تجاري ، مهدد بطغيان الفئة المتمولة واستئثارها . ولكن هذا النظام الذي فرضته طبيعة المجتمع الاقتصادية ، والحاجة المشتركة إلى سلطة ما لم تكن موجودة في المضمون ، كانت الثغرة الأساسية فيه ، افتقاده الاطار السياسي العام ، الذي افترض أن يكتسب طابعاً عملياً من التمثيل . أو بعبارة أخرى لم ينجح « الإيلافون » في تشكيل مؤسسة تعاونية تامة ، وغير متنافضة الاهداف والمصالح ، عل نحو يتطابق مع مضمون « الإيلاف » الرامي إلى توفير الرزق والاستقرار للمكيين ، حيث يعيشون في بيئة قاسية جرداء (3) . ولأن العلاقة كانت واضحة بين الثراء والنفوذ السياسي

(1) الطبري ج 2 ص 180 . راجع أيضاً . المسعودي ، مروج ج 2 ص 33 . وكذلك البلاذري ، انساب ج 1 ص 39 .

(2) راجع الابيات المنسوبة لمطروذ بن كعب الخزاعي :

يا أبا الرجل المحوّل رحله	هلاً نزلت بأل عبد مناف
هياتك أمك لو نزلت بهم	فممنوك من جوع ومن أقراف
الأخرون اسعد من أقالها	والراجلون لرحلة الأيلاف
وللطعمون إذا الرياح تنأوجت	حق تغيب الشمس في الرّجاف
والحالطون غنيهم بفقيرهم	حق يكون فقيرهم كالكاف

المسعودي ، مروج ج 2 ص 33 . البلاذري ، انساب ج 1 ص 60

(3) [لأيلاف قريش ايزنهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف] سورة قريش . راجع شرح السورة ، السيد قطب ، في ظلال القرآن ج 8 ص 676 - 677 .

للفرد ، فقد نتج عن التطور المذهل للتجارة المكيّة ، بمصادرها المتنوعة وحرية التكتّيب منها ، ولادة زعامات جديدة ، كان لها دورها في تمزيق الوحدة القبلية وبعثرة مصالحها واضطراب انتماءاتها ، ومن ثم أدت الى ظهور « جيوب » مستقلة أو متعارضة مع مركز النفوذ القديمة ، وذلك في فرع أو أكثر من « العائلة القرشية » الكبيرة .

ومن خلال هذا الواقع للعلاقة بين السلطة والتمط الاقتصادي في مكّة ، فقد تأثر تكوينها السياسي بهذه المتغيرات الى حدّ كبير . ولعل أحد مؤشرات هذه العلاقة البارزة ، ظهور التكتلات (الاحلاف) بخلفيتها التجارية الواضحة ، حيث عبّرت بصورة ما عن طبيعة هذه المرحلة ، سواء في الصراع بين مراكز النفوذ القديمة والجديدة ، أو في التفاوت الاجتماعي الذي اسفر عنه . وقد يفسر ذلك ظهورها - أي الاحلاف - في وقت متأخر من القرن السادس على الأرجح ، حيث افتقد النظام تماسكه بعد غيب (عبد المطلب) ، الذي كان آخر من جمع في يده السلطين المعنوية والمادية في العهد الوثني .

وكان قيام حلف « المطيبين » ، باكورة التكتلات السياسية في مكّة ، تغطية للصراعات الداخلية في أحد أهم مراكز النفوذ من جهة ، ومحاولة لتطويق طموح المراكز الأخرى والحد من أخطارها من جهة ثانية . أما القوة المحركة لهذا التحالف ، فكان يمثّلها بنو أمية (عبد شمس) ، الجناح المنافس لبني هاشم في فرع عبد مناف ، متكتّلين مع كل من بني أسد وزهرة وتيم والحارث (١) . فقد شعر هؤلاء بقوةهم التجارية الصاعدة وما رافقها من توسيع الدائرة الاستقطابية للمجتمع المكيّ ، علي نحو تطلّب ضرورة التدخل المباشر لحماية مصالحهم من المنافسة الجديّة . ولم يكن هذا الحلف موجّهاً ضد بني هاشم ، حيث تم احتوائهم اقتصادياً بعد تقلّص دورهم التجاري ، ولكن ضد الخصم التقليدي من بني عبد الدار ، وحلفائهم ، الذين كان لبعضهم شأن غير قليل في التجارة المكيّة ، خاصة بني مخزوم . ومن هنا كان الحضور الحقيقي في حلف المطيبين لبني عبد شمس ، خلافاً لحضور بني هاشم المعنوي ، حيث مهّد ذلك لآخراجهم منه إثر الانشقاق الذي تعرّض له فيما بعد .

وكان لا بدّ لهذا التحالف ، بدوافعه المصلحية البحتة أن تؤدي سياسته الاحتكارية الى المجابهة مع مصالح الفئات غير المنضوية تحت لوائه ، لا سيما الأقلّ

(١) ابقرها ، تاريخ ج ٢ ص ١٧ . السمودي ، مروج ج ٢ ص ٣٣

نراه ، حيث عادت عليها هذه السياسة بالضرر الكبير . فقام تكتل منافس (الاحلاف) ، كانت الزعامة الادبية فيه لبني عبد الدار ، ولكن قوته المادية تمثلت ببني غزوم ، فضلاً عن مشاركة بني سهم ومُج وعدي^١ ، الذين كانوا من متوسطي الثروة بالمقارنة مع أعضاء التكتل السابق .

ولقد كانت المنافسة شديدة بين «المطييين» و«الاحلاف» . فالحلف الاول تطلع الى دعم مواقعه السياسية والاقتصادية ، بالخؤول دون قيام مراكز مستجدة على حساب نفوذه ، والآخر حرص على حماية مصالحه المهددة واثبات وجوده في مرحلة من الفرز الحاسم للمفئات المتصارعة ، توسلت القوة سبيلاً الى تحقيق اهدافها الحيوية . ولم يكن غريباً أن يتنادى «المطييون» من هذا المنطلق الى «إفناء» خصومهم (الاحلاف) و لتفن كل قبيلة من أسند اليها^٢ ، ذلك شعار الذي عبّر عن حدة الصراع وضراوة التنافس بين الحلفين .

ولكن الحرب التي أشار المؤرخون^٣ الى وشوك اندلاعها بين تكتلي قريش ، لم تتجاوز حدود التعبئة النفسية ، حيث تحولت المجابهة الى مهادنة واستبدال قرار «التصفية» بميثاق لتعايش . ذلك أن كلا الطرفين نجب على الارجح حلاً خارج مألوف التقاليد القرشية ، فلجأ الى تسوية خلافاته مع الآخر عبر طريق لا يقضي بها في النهاية الى الحرب ، خاصة وأن مكة كموقع اقتصادي متميز في شبه الجزيرة ، ستكون المتضررة الاولى من هذا الصراع الذي ستصيب سلبياته «الاحلاف» و«المطييين» على السواء . ولعل هذا الاخير حقق في السلم الذي فرضته الارادة القرشية ، الجزء الكبير مما طمح الى تحقيقه في الحرب . فقد خرج معزز الموقع ، عافظاً على السلطة الفعلية المتوارثة ، بينما اقتصرت مكاسب «الاحلاف» على وظائف الشوف (الحجابه ، اللواء ، الندوة)^٤ ، التي جاءت بمثابة ترضية معنوية لبني عبد الدار . على أن الانجاز الاكثر أهمية الذي حققه هذا التكتل ، هو الاعتراف بشرائه للمطييين في زعامة المدينة ، رغم التنازلات في النفوذ بين كلا التحالفين .

-
- (1) البكري ، تاريخ ج 2 ص 17 ، السمرقني ، مروج ج 2 ص 32 ، السهلي ، الروض ج 1 ص 153 .
(2) «ثم سوند بين القبائل ، واز بعضها ببعض ، فعيت بنو عبد مناف لبني سهم ، وعيت بنو أسد لبني عبد الدار وعيت بنو زهرة لبني جمع وعيت بنو نهم لبني غزوم ، وعيت بنو الحارث بن فهر لبني عدي بن كعب ثم قالو لئن كل قبيلة من أسند اليها» . السهلي ، الروض ج 1 ص 154
(3) ابن مسحق ، السير والمغازي ص 107 .
(4) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج 5 ص 187 . السهلي ، الروض ج 1 ص 154 .

ان خلفية هذا التمرد للجهة القرشية ، متصلة بنمو التجارة في مكة وظهور نسبة غير محدودة من كبار الاغنياء ، تجارا وصيارفة ومرايين وسامسة» ، الذين سيطروا بفضل ثرواتهم الطائلة على سياسة ومقدرات المدينة . وكان اسهام هؤلاء واضحا في تمزيق وحدة العائلة (البطن) ، الذي أدى بدوره الى اختلال الشخصية المركزية المتوازنة التي اشتهرت بها قريش . ذلك أن حلف « المطيين » الذي آلت اليه السلطة الفعلية ، لم يكل فقط اتحاد الفروع (البطون) النافذة والقوية ، ولكنه عبر في الوقت نفسه عن أهداف خاصة ومصالح فردية لبعض كبار التجار ، ربما تعارضت مع الاتجاه السياسي للفة التي ينتمي هؤلاء اليها . ولم يكن غريباً من جهة ثانية ، استقطاب هذا التكتل لأؤلئك الذين أسكوا بزمام الثروة في مكة ، سواء من موقع التحالف العضوي المتغلب على شتى الالتزامات ، كأبي جهل « المخزومي » وأبي لب « الهاشمي » ، أو التعاطف المصلحي مع الرضوخ للقرار « العائلي » عند الضرورة ، كالعباس بن عبد المطلب (هاشم) وعبد الرحمن بن عوف (زهرة) ، في وقت كانت كلتا المجموعتان على خلاف « جهوي » ، اذا جاز التعبير - مع الحلف المذكور .

وهكذا فان الاتفاق الذي أوقف المجابهة المحتملة بين تكتلي « المطيين » و« الاحلاف » ، لم يحقق ما يتجاوز هذه المهادنة التي اسفرت عن تجميد مؤقت للموقف السياسي في مكة ، دون ثمة انعكاس ايجابي على جوهر المشكلة التي بلغت حداً من التعقيد ، مع ازدياد ثراء « الاقلية » المسيطرة وتعاظم نفوذها . وكان فشل « الاحلاف » في التعبير عن مصالح الاكثرية في قريش وتحقيق توازن نسبي في المدينة ، وراء ظهور تكتل ثالث (حلف الفضول) ، أفرزه صراع التكتلين المتنافسين ، للقيام بهذا الدور « التوازي » ، حيث استطاع من خلال تشكيله الاجتماعي والقبلي ، ومن ثم التوفيق المناسب الذي اختاره ، تجاوز طموح « الاحلاف » المتواضع ، وطرح نفسه سلطة جماعية بديلة ، تتوسط كافة الاطراف القرشية في مكة .

ان ثمة خلفيات ثلاثاً ربما حركت هذا التكتل في مرحلة تاريخية دقيقة من تاريخ الحجاز ، أي نحو عشرين عاماً قبل الاسلام (1) : الخلفية الاولى ، اقتصادية وهي تكاد تجمع عليها مصادر المؤرخين التي أشارت الى مضايقة قريش - المقصود

(1) LAMMENS, La Mecque, P 221- 223

(2) الحقوقي ، تاريخ ج 2 ص 17 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج 2 ص 291

هنا تكتل المطيبين - للغرباء واضطهادها لهم (٣). فأنار ذلك المتضررين في التكتل نفسه (هاشم ، المطلب ، أسد ، الحارث) ، وهم من أعضائه المؤسسين ، وتمردوا على استئثار بني عبد شمس ، الذين احتفظوا ، من حلفائهم في التكتل ، ببني نوفل ، حيث كانوا بدورهم من كبار الاغنياء وأصحاب « الرفادة » عشية الاسلام (٤).

وقد يبدو حلف « الفضول » امتداداً لسلفه « المطيبين » (٥) ، حيث اكثرية الاعضاء في هذا الاخير اسهمت في تشكيله . . وقد يبدو أيضاً أنه مجرد تعديل له في الشكل والاسم ، بينما المضمون التجاري لم يمس أو يتغير ، خاصة وأنه انطلق من بيت ثري كبير من (تيم) هو عبد الله بن جعدان (٦) وشارك فيه آخرون لا يقلون عنه ثراء من بني هاشم أو بني زهرة . ولكن تكتل « الفضول » رغم أهمية الدور الذي قام به في مواجهة « طغيان » المطيبين فإنه لم يكن ثورة عليه ، بقدر ما كان حركة داخلية استهدفت من خلال طابعها الاحتوائي مصالح التجار الكبار دون أن تتجاهل الصغار منهم . . ولقد توافقت هذا الاتجاه في التكتل الجديد ، مع إحياء « دار الندوة » التي انعقدت فيها أولى اجتماعاته ، وذلك بمبادرة من الزبير بن عبد المطلب (هاشم) (٧) . وفي ضوء هذا الموقف ، ظهر أصحاب « الفضول » أبعد نظراً في استيعاب المتغيرات المختلفة التي وصلت مؤثراتها الى مكة في ذلك الحين ، تلك التي تجاهلها « المطيبون » ، فضلاً عن « الاحلاف » الذين وقفوا على الحياد من هذه « الحركة » ، ربما لتورطهم في أسبابها المباشرة حيث كان وراءها أحد رجال بني سهم (٨) ، من أركان التكتل الاخير .

أما الخلفية الاجتماعية ، فهي واضحة في انتصار المنشقين لرجل قدم الى مكة معتمراً وتاجراً ، فلم يجد من يدفع عنه الظلم الذي لحق به . وقد يكون من السذاجة ، الاخذ بحادثة عادية كهذه ربما تكرر الكثير قبلها في مجتمع استقطابي مثل مكة ، سبباً موضوعياً لانقلاب جماعة « الفضول » . ولكن ذلك لا يحول دون اتخاذها ، كنموذج ليس أكثر ، مؤشراً لانخفاق « المطيبين » في تحقيق علاقة متوازنة بين

(1) البقعي ، تاريخ ج 2 ص 17 .

(2) المقذ التريد ج 3 ص 326

(3) وات ، محمد ، مكة ص 23

(4) الحلي ، انعقد الثمين ج 1 ص 151

(5) المحمدي ، مروج ج 2 ص 270 .

(6) قيل أن رجلاً من زبيد من اليمن قد باع سلعة من الناص بن وائل السهمي ، فساطلة في ثمنها دون أن يتصر له أحد من قريش ، وبخاصة من تكتل « الاحلاف » الذي ينتمي اليه السهمي . راجع : مروج الذهب ج

٢ ص 270 . . العقد الثمين ج 151 البدايات النهاية ج 2 ص 291 .

القبائل ، سواء في مكة أو خارجها . ولعل الديابجة - التي صاغت بيان المجتمعين في بيت عبد الله بن جدعان كما تناقلها المؤرخون « لا يُظلم أحد في مكة الا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم » ، حتى تأخذ له مظلمته من ظلمه شريفاً ووضيعاً ، منا أو من غيرنا « ١ » - تكاد تحمل بعض الملامح الجديدة لمجتمع آخر في مكة . ولكن علينا ألا نبالغ كثيراً في تصوير المدى الذي بلغته هذه « الحركة » على الصعيد الاصلاحى ، لان أصحاب « الفضول » وهم من أركان النظام الروثنى في مكة ، لم يرفضوا الوضع القائم أو يثوروا عليه ، حيث ارتبطت مصالحهم بوجوده ، بل خلافاً لذلك تمسكوا به ، ولكن مع شيء من التطور يتلاءم والمستجد من المعطيات . ولم يكن موقفهم من المطيعين موجهاً ضد النظام ، بقدر ما كان انقاداً له من هيئة الاقلية واستثمارها بالثروة والسلطة ، وكل ما يؤدي الى اختلال المقومات الامامية للمجتمع « التكافلى » في مكة .

وتبقى أخيراً الخلفية السياسية لتحالف « الفضول » ، الذي كشف ظهوره أزمة النظام واضطراب مركزية السلطة . ولكن زعماء « المطيعين » رغم براعتهم التنظيمية في التجارة ، لا سيما الخارجية ، فان القليل من جهودهم اتجه الى شؤون الادارة والحكم ، بحيث ظلت السلطة السياسية في مكة مبهمه حتى في الوقت الذي أصبح فيه أبر سفیان ، الرجل القوي أو شيخ قريش « ، كما كان يُطلق عليه . فالنفوذ الاقتصادي لم يمثله نفوذ سياسي معنوي لبني عبد شمس ، الذين لجأوا غالباً الى اشراك بعض رجالات غزوم « (من الاحلاف) في السيطرة على المدينة ، وذلك من موقع تأثيرهم التجاري قبل أي اعتبار آخر .

وهكذا جاء خروج خمسة فروع قرشية من حلف « المطيعين » ، أي ما يعادل نصف المجتمع المكي وتشكيلها تكتلاً جديداً ، ربما لم يكن له من النفوذ الاقتصادي ما ينافس به الحلف السابق ، ولكنه كان يمتلك القوة المعنوية التي تؤهله لأن يكون مقدمة تغييرات غير عادية في هذه المدينة والاقليم الحجازي عامة . فكما تحولت مكة الى مركز عالمي للتجارة في القرن السادس « ، ستظل في القرن الذي يليه بما هو أكثر خطورة وجذرية على الصعيد الحضاري ، ليس في شبه الجزيرة فقط ولكن في المنطقة بأسرها . ذلك أن أهمية حلف « الفضول » من هذه الرؤية ، ما جسده من

(1) العقد الثمين ج ١ ص 151 . راجع أيضاً تاريخ العصر ج 2 ص 18

ومروج الذهب ج 2 ص 271 والكامل في التاريخ ج 2 ص 41

(2) LAMMENS, La Mécque, P. 166

(3) وات : محمد في مكة ص 29-30

(4) O'LEARY, Arabia Before Muhamade, P. 182

مرحلة انتقال بين عصرين أو المماقة بين « الملأ » وبين « الدولة » . وليست مصادفة أن يشهد هذا التكتل عودة بني هاشم الى الصدارة ، بعد أن أفل نجمهم أو كاد مع غياب عبد المطلب . فإذا بأحد أبنائه (الزبير)⁽¹⁾ يأخذ المبادرة في دعوة أركان « الفضول » الى الاجتماع في (دار الندوة) ، رمز السلطة « المقرعة » في ذلك الحين .

(1) الجلافي ، السلب . ج 1 ص 57 . السعوي ، مروج ج 2 ص 27 .

البَابُ الثَّانِي

الحجاز الراشدي

دولة المدينة الى دولة عمر

البداية والنموذج

تكوين الدولة الاسلامية في الحجاز

.. وتصبح « الهجرة » الى « المدينة » تدريجياً ،
هجرة الى التحضر القرون بالجماعة .

كان التكوين التاريخي للحجاز ، خاضعاً - كما رأينا - لمجموعة من المعطيات الجغرافية والاقتصادية ، التي تدخلت بصورة متفاوتة في ابراز شخصيته الحضارية الخاصة . فقد غلب عليه الطابع الصحراوي ومعه نمط الحياة البدوية ، باستثله بعض المدن والقرى ، كمكة ويثرب والطائف ، مراكز الاستقرار الرئيسية في هذا الاقليم . ولأن التكوين الاقتصادي تمايز أوكاد بين هذه المدن ، فقد كان من الطبيعي أن تكتسب كل منها اسلوبها الخاص وملاعها المستقلة . ففي الاولى ساد النمط التجاري وفي الثانية والثالثة ، غلبت الزراعة (نخيل ، كروم ، حبوب) وبعض الحرف الصناعية الاخرى (الدباغة في الطائف والاسلحة في يثرب) .

واذا كان النمط الانتاجي يعكس النظم السياسية والاجتماعية - حسب مقولة ابن خلدون : « ان اختلاف الاجيال في أحوالهم ، إنما هو باختلاف نحلته من المعاش » (1) - فان كلاً من هذه المدن الثلاث رغم المعطيات الجزئية للتكامل الاقتصادي بينها ، قد نحا انجماً خاصاً وانطوى على علاقة تنافسية مع الآخر . فهناك ثباتات ثلاثة متفاوتة الاهمية ، تجاذبت السيطرة على الحجاز عشية ظهور الاسلام : الاول قرشي أكثر استقطاباً ، له امتداده في شبكة العلاقات التجارية الواسعة ، التي أقامتها مكة في شبه الجزيرة وخارجها . والثاني ثقيفي ، ربما وجد في الطائف منافساً للاحيرة ، متربصاً بالفرصة السانحة لذلك ، عبر اقامة تحالفات خارجية ، على النحو الذي جرى في الموقف المتعاطف من الحملة الحبشية ، التي استهدفت الحجاز ، والمحرّض على مكة وزعامه قريش ، استناداً الى رواية ابن اسحاق (2) .

(1) ابن خلدون ، المقدمة ص 210 .

(2) أورد ابن اسحاق في حديث الفيل عن ابرهة : « حتى اذا أشرف على وادي وج في الطائف ، خرجت اليه ثقيف ، فقالوا : أياها الملك ، أما نحن عبيدك وليست ريتا هذه بالتي نريد . يفصلون اللات منهم - وليست بالتي نحب اليها العرب ، وإنما ذلك بيت قريش الذي نحب » اليه العرب « كتاب السير والمغازي ص 62 . راجع أيضاً : السهلي : « أياها »

أما التيار الثالث ، فهو يمثل تحالف الامر الواقع بين القبائل العربية واليهودية في يثرب . وهو تحالف مضطرب افتقد منذ البدء تماسكه ، سواء على جبهة العرب أم اليهود . ولا شك أن وجود هؤلاء في يثرب ، خلافاً لمكة أو الطائف - حيث القوة الأساسية من العرب - كان أحد عناصر الضعف البارزة فيها ، وحال بالتالي دون اتخاذها دوراً سياسياً أو دينياً أكثر أهمية في تاريخ الحجاز القديم . ولكنها رغم التمزق الداخلي ، لم تكن تخفي طموحها السلطوي التنافسي ، ذلك الطموح الذي تبلور مع بدايات تفكك الجبهة القرشية ، بعد انطلاق دعوة النبي في مكة . ومع الوقت استمر هذا الشعور في يثرب ، بينما تلاشى في الطائف ، حيث تحالف التياران الثقفي والقرشي وشكلاً جبهة موحدة ، جسدت مصالح « الاستقرائية » الحجازية ، المعارضة للتيار الاسلامي الجديد الذي أخذ يتمحور في يثرب . ولقد جدد قيام دولة الاميرين فيها بعد هذا التحالف ، الذي أصبح من أبرز مرتكزات السياسة الداخلية فيها ، حيث شكّل الثقيفون دائماً ، القبضة القوية والمطوعة معاً في أيدي الخلفاء على مرّ العهود في هذه الدولة .

لقد ظلّ التيار المكيّ أقوى هذه التيارات حتى أواخر القرن السادس الميلادي ، لا يقتصر تأثيره على الحجاز فقط ، بل يمتد الى كافة شبه الجزيرة ، حيث اكتسبت مكة اثنين من أهم عناصر الاستقطاب فيها : العنصر الديني ، باعتبارها مقراً للكعبة وعبادات العرب وما يمثل ذلك من علاقة مقدسة تعيش في وجدان القبائل ، الدائرة في هذا الفلك الواسع من النفوذ المكيّ . والعنصر الاقتصادي كسوق مركزي تتبادل فيه السلع وتتوفر الخدمات وتتبارى المواهب الادبية . فقد جسدت مكة عبر هذا الموقع المزدوج ، أول ظاهرة « تألفية » بين القبائل المتنافرة ، مؤنّنة لها الحد الأدنى من المصلحة الجماعية المشتركة . ومن هذه البيئة الحجازية الموحدة ربما في الشكل ، تحت زعامتها ، سينطلق تيار جديد لم ينفصل رغم جنوبيته عن معطيات هذه الظاهرة الموضوعية أو عن امتدادها التاريخي البعيد .

وفي الربع الاخير من القرن ذاته ، كانت مكة قد أمضت شوطاً لعله الأكثر نضجاً في تكوينها السياسي ، وذلك بزعامة عبد المطلب ، أحد أقوى رجالات عبد مناف بعد أبيه هاشم . فقد تكرّس حينذاك سقوط اليمن على يد الاحباش ، كمحصّل لقرنين أو أكثر من الحملات المقلّعة والسافرة ، المستهدفة نشر المسيحية في شبه الجزيرة ، تلك الارض البكر التي لم تتسرّب اليها رياح العقائد السماوية الا قليلاً . وكان من نتائج هذا الضغط

« الملك لما نحن بعيدك ملعون مطعون لك ، ليس عندنا لك أي خلاف ، انما نريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه » الروض الانفج ٦٧

العقائدي المبطن بالاطماع السياسية ، انجبار الحكم العربي في اليمن ومعه الدور الاقتصادي المتميز ، الذي أخذ في التحول نحو الشمال ، حيث الموقع الجغرافي أكثر متوسطاً ومنفعة من الجنوب .

على أن الاحباش بعد نجاح حملتهم ، لم يجهلوا ما حققه الحجاز من تقدم على حساب تراجع الدور اليمني⁽¹⁾ ، مما شجعهم على استكمال مهمتهم بالسيطرة على مكة . وإذا كان تقويم التغيرات التي قد تسفر عنها الحملة الحبشية ، يبقى في حدود الافتراض لو أتيح لها من النجاح ما حققته في اليمن ، فانها رغم ذلك تعتبر أحد أبرز المؤشرات لما انطوت عليه المدينة الحجازية الاولى ، من تأثير في مجرى التطورات الحاسمة في تلك المرحلة . فقد كانت المجابية البيزنطية - الساسانية على أشدها حينذاك ، والصراع التبشيري المتزامن معها على شيء من الضراوة ، والتجارة المكية في المقابل تكتسب طابع السلطة السياسية في الحجاز ، فيمتد نفوذها حيث تتحرك القوافل وتقام الاسواق .

وفي ذلك الوقت تتراجع الحملة فاشلة ، ولكن دون انقاز النظام الوثني في مكة ، الذي آلت السيطرة عليه آنذاك الى الجناح المتطرف في بني عبد مناف ، متمثلاً بحوب بن أمية (ابن عبد شمس)⁽²⁾ ، ومتزاسماً مع سيطرة « الاقلية » التي ضمت كبار التجار في مكة . فتنة قوة من الداخل متفضي عليه ، اقترنت بولادة محمد (حفيد عبد المطلب) ، في الوقت ذاته الذي يسميه الاخباريون « عام الفيل »⁽³⁾ ، واضعة مكة والحجاز ، ومن ثم المنطقة بكاملها أمام انعطاف جذري في التاريخ .

ان حدثاً ما كانت مكة تنتظر التمهض عنه في السنوات الاولى من القرن السابع الميلادي . فقد رافق ذلك الصراع السياسي ، صراع من نوع آخر ، لم يتوقف عند حدود التجارة والاحلاف ، بل تجاوزها الى بحث المسألة الدينية في هذه المدينة ، التي لم تكن معزولة عن المؤثرات الخارجية ، المتسربة اليها بشكل أو بآخر . لقد وجدت نفسها آنذاك ، شأن بقية القسم الشمالي من شبه الجزيرة ، وكأنها تعيش « حصاراً عقائدياً » بين تيار المسيحية في اليمن وتيار اليهودية في منطقة يثرب ، فضلاً عن الاحتكاك الحضاري بالدولتين الساسانية والبيزنطية ، لا سيما هذه الاخيرة التي كان الحجاز أكثر اتصالاً بتقافتها الاغريقية ، حيث الشام أحد مراكزها المهمة .

ولم تعد مكة أمام هذه المؤثرات ، فكراً مثقفاً - اذا جاز التعبير - تجاوزت مشاغله

O'LEARY, Arabia, P. 181 (1)

(2) ابن اسحاق ص 69

(3) المصدر نفسه ص 48

أفاق التجارة والكسب ، الى النظر في الشؤون الحياتية الاخرى ، سواء الجانب الاجتماعي منها أم الديني ، حيث كان واضحاً طغيان الشأن الاقتصادي على ما سواه في المدينة الحجازية الكبرى . وكان من الظواهر البارزة لهذا الاختلال ، ذلك التطور نحو الملكية الفردية لرأس المال ، الذي أصاب عصبية القبيلة ونزعها « التكافلية » ، وكلاهما كان من شروط النفوذ السياسي للمجتمع المكي في عصر ازدهاره ، قبل أن يفقد تماسكه القوي مع تنافر وحداته وانقسامها .

ويبدو أن مكة لم تكن وحدها في مهب هذه « الازمة الفكرية » ، التي أفرزت فريقاً من المتنورين ، حيث أورد ابن اسحاق بعضهم في سيرته (١) . فمن الجائر أن حالات مماثلة قد تعرضت لها المراكز المتحضرة في الحجاز ، لا سيما الواقعة على خطوط التجارة ، كيثرب التي كانت من خلال تكوينها السكاني أكثر عرضة للمؤثرات المباشرة ، واستجابة للتيار التوحيدي الذي أخذ يستولي على اهتمام نخبتها « المثقفة » . ولكن ذلك لم يستطع تبديد الفلق الفكري المتعاضم فيها ، حيث شهدت مكة خاصة ضروباً من الجدل والنقاش ، فضلاً عن خلوات التأمل والبحث في أسرار الكون على يد تلك الفئة المتنورة . فوجد بعضها ذاته في المسيحية (٢) وعاش البعض بانتظار « خلاص » آخر ، ولكن دون العودة الى الوثنية المتخلفة (٣) .

على أن مكة شهدت أيضاً من كان أكثر اختلاء بنفسه واسترسالاً في البحث عن جذور التوحيد العميقة فيها ، أو « متحنثاً » حسب التقاليد القرشية (٤) . وكان « التحنث » على اختلاف الاشتقاق في اللفظ أو المعنى الذي رمت اليه هذه الكلمة ، أحد الرموز المعبرة عن تلك المرحلة ، في دعوتها الى التوحيد والخروج من الوثنية (٥) . وكان ظهور الاسلام في وقت آلت السلطة الفعلية الى جناح (عبد شمس) في مكة ، وراء حالة الجزع التي أصابت تحالف « الاقلية » الحاكمة (أمية ونوفل) ، التي وجدت في ذلك مدخلاً لعودة بني هاشم (مع حفيد عبد المطلب) الى الصدارة في قريش ، وما يصاحب ذلك من تهديد لنفوذهم

(1) زيد بن عمرو بن نفيل ، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، عثمان بن الخطاب (الجوهري) ، أسد بن عبد العزى ، عبد الله بن جهم بن رباب ، (رواية يونس بن بكير) . ابن اسحاق ص 115

(2) ورقة بن نوفل . ابن اسحاق ص 116

(3) للمكان نفسه .

(4) الروض الانف ، ج 1 ص 267 . وات ، محمد في مكة ص 82 .

(5) يعتقد (وات) أن أفضل لفظة ربما عن « التحنث » هي فرضية (هيرشفلد) ، للمتحفة على اللفظ العبري Tchinath الذي يعني « الصلاة له » ، كما يمكن لهذا المعنى أن يكون حسب اعتقاده ، متأثراً بالبحر العربي « حنت » أي نفث القسم والمعهد . محمد في مكة ص 82 . أما في المصادر العربية فهناك من رد اشتقاقها الى « التحصن » ، التي تعني العودة الى حنيفة ابراهيم ، ابن اسحاق ص 118 .

السياسي والتجاري . وكانت الخلفية القبلية أقل تأثيراً لدى هذا الفريق ، الذي هبّ للدفاع عن مصالحه المرتبطة بالنظام الوثني . وحين اتجه الى محاولة اثارة العصبية القرشية ضد دعوة النبي ، لم يحقق النجاح الذي كان يصبو اليه ، حيث سبق لحلف « الفضول » أن استأثر دونه بهذا الدور التمثيلي للمصالح القرشية ، وذلك في إطار (دار الندوة) كما سبق أن أشرنا⁽¹⁾ .

على أن حلف « المطيين » الذي تزعمته « الأقلية » النافذة في مكة ، كان لا يزال قادراً من خلال قوته التجارية على تصليب جبهة المعارضة في قريش وتعزيز تحالفاتها ، من منطلق التصدي للخطر المشترك . ولا ريب أن هذا الموقف المناهض لدعوة النبي ، كان نابعاً من هذا الاعتبار قبل غيره ، بحيث لم يدر في خلده - أي النبي - أن تكون مهمته على شيء من السهولة في العاصمة الحجازية ، التي شكلت معارضتها الطويلة ، العقبة الكدواء في طريق دعوته وأدت الى ذلك النطاق من العزلة حولها . ولعل أخطر ما في هذه المجابهة بين النبي وأصحاب النفوذ من قريش ، أن القليل من مقومات الصمود الداخلي لم يتوفر لها ، في وقت أمسك هؤلاء بمقدرات المدينة وسيطروا على زمام الامر فيها ، مما جعل فرص النجاح تتضاءل حتى اليأس أمام الدعوة . فكان لا بد أن تتحول المراهنة على مكان آخر ، ولكن خارج دائرة النفوذ المكي الذي تزعمه « المطيون » . ولذلك كانت خاسرة مرة أخرى في الطائف ، حيث عرى التحالف وثيقة بين الثقفين والقرشيين ، كما اسلفنا القول⁽²⁾ .

وكان واضحاً منذ البدء ، أن النبي عزف عن القبائل البدوية وتوجه نحو مراكز الاستقرار ، التي كانت أكثر قدرة على استيعاب دعوته ، لما تملكه من قوة مادية وتأثير معنوي ، كانت بأمر الحاجة اليها من أجل ترسيخ اقدامها . بالإضافة الى ذلك ، فإن تجربته مع هذه القبائل التي كان يلجأ اليها في أوقات محنته المكية لم تكن مشجعة ، لا سيما المحاولة مع بني حنيفة ، حيث نافس موقفهم العدائي ، الموقف التقفي في التطرف⁽³⁾ . ولعل البحث عن مقر كثرش ، لم يفرضه الصدفة بلقاء « العقبة » ، ولكنه اتصل بفترة طويلة من التأمل والتمهيد الى تلك النقطة التاريخية التي تمت في أعقابها .

لقد استأثرت هذه المدينة باهتمام النبي ، انطلاقاً من عدة معطيات ، يفترض أن

(1) للمسعودي ، مروج ج 2 ص 270 - 271

(2) DONNER, Mecca's, p. 249

(3) LAMMENS, La cité arabe de taïf, p. 118

(4) الطبري ج 2 ص 232

تضعها على مستوى من التكافؤ مع مكة . فإذا كانت أهمية الأخيرة مستمدة من طابعها المركزي ، حيث تشكل بالنسبة للدعوة مفتاح السيطرة على شبه الجزيرة ، فإن يثرب كانت أكثر ملاءمة في مجالات أخرى ، كنواة لدولة ، لها من خصوبة الأرض ووفرة الماء ما يؤمن لها حداً من الصمود والاكتفاء الذاتي ، قد لا تتمتع بها مكة . . . ولها أيضاً من موقعها الجغرافي على طريق تجارة الشام - عصب الاقتصاد القرشي - ما يؤهلها للدور السياسي خطير ولزعامة حجازية بارزة . . . ولها كذلك من المتاخمة لمنطقة حضارية عريقة في الشمال ، حيث التيارات المسيحية والثقافات الإغريقية تتجاذب هذه المنطقة وتدفع بتأثيراتها إلى الحجاز ، عبر وسائل عدة من الاتصال والاحتكاك بها⁽¹⁾ . وأخيراً فإن التكوين السكاني في يثرب ، كأن أحد بواعت الاختيار لدى النبي ، حيث الصراع الداخلي يمزق وحدة المدينة والقبائل معاً ، وتمحوره عدة قضايا مهمة ، سواء كانت سياسية تتمثل بفراغ السلطة ، كنتيجة لغياب الجبهة الواحدة ، أو اقتصادية ، رافقها اختلال موازين الثروة لمصلحة فريق (اليهود) دون آخر (العرب) ، أو اجتماعية نشأت مع شعور الأوس والخزرج بالاستغلال اليهودي المتجسد في موقف المزارع نحو المراهي الذي يستأثر بأرباحه . أما القضية الدينية ، فلم تكن مطروحة لدى الطرفين بصورة جذية ، ولكنها قد تضاف إلى التناقضات السابقة وتمثل نتيجة حتمية لها ، دون أن تعلم تأثيراً ما على الفكر العربي في يثرب ، الذي استطاع رغم وثنيته التأقلم مع العقيدة اليهودية واستيعاب بعض تعاليمها ، مما جعله متقدماً على الفكر القرشي في هذا المجال .

وإذا أضفنا إلى مجموعة هذه العوامل ، تلك العلاقة الحذرة مع مكة ، التي نشأت في ظل غياب للمصلحة المشتركة ، بالمقارنة مع عضوية العلاقة مع الطوائف ، فإن ذلك يعني إسقاطها من المعادلة القرشية كقوة منافسة حتى في مجال التجارة الداخلية ، ربما تحت تأثير العامل الجغرافي الذي عكس على يثرب شيئاً من العزلة في الحجاز . وفي الوقت الذي عصفت المحنة بهذه الأخيرة ، أبان تطاحن الأوس والخزرج (يوم بعث)⁽²⁾ ، تجاهلت قريش هذا الصراع الذي استنزف قوة العرب في يثرب ، كما تجاهلت مناشداتهم في الوقوف إلى جانبهم ضد تحالف بني النضير وقريظة من اليهود⁽³⁾ .

(1) E. RABBATH, Mahomet, Prophète arabe et fondateur d'Islam, p. 165

(2) الطبري ج 2 ص 233

(3) 'أورد البخاري أن العرب بعد أن وأجرات عليهم بنو النضير وقريظة وغيرهم من اليهود ، خرج قوم منهم يطلبون قريشاً لنقودهم ، وعزوا فاشترطوا عليهم شروطاً لم يكن لهم فيها منقح وقد قيل أن قريشاً قد كانت اجابتهم حتى قدم أبو جهل بن هشام المخزومي من سفر له وكان غالباً ، فنقض الحلف واشترط عليهم شروطاً لم يقنعوا بها . ثم صاروا إلى الطوائف فسالوا تنقيها فأبطلوا عنهم فانصرفوا . تاريخ ج 2 ص 37

كانت هذه أهم بواعث الاختيار لدى النبي ، بأن تكون يشرب المحطة المناسبة لانطلاقة الاسلام . وما لبث أن غادر مكة (622 م) ، مهجداً لذلك بمعاهدتي « العقبة » التاريخيتين ، وتاركاً وراءه مؤامرة تحاك في (دار الندوة) مستهدفة حياته (١) . وكان اللجوء الى هذه الاخيرة ، لإضفاء الشرعية على القرار ، مؤشراً الى خطورة المهمة التي كان على زعماء قريش القيام بتنفيذها . عل أن هؤلاء رغم الحرص على أن يكونوا ممثلين للمجموعة المكّية ، فإن الذين شاركوا في اجتماع (دار الندوة) ، مثلوا في المقام الاول رأس المال ، دون « الجماعة » في قريش ، حيث نجح النبي في اختراقها بفضل المسلمين الاوائل الذين انضموا الى معظم البطون في مكة (٢) . ولعل صعوبة اتخاذ الموقف الجماعي المطلوب ، رغم الاضطهاد الذي تعرض له النبي ، كانت وراء تأخير هذه المحاولة الى ذلك الوقت . فقد اقتضت مقاومة السلطة القرشية على الخصاص الاقتصادي والنفسي ، خلال الثلاثة عشر عاماً (٣) (فترة النضال المكّي) ، دون اللجوء الى اسلوب آخر ، ربما لان حداً أدنى من الحماية توفر للنبي ، ممن كانوا يمتّون له بصلة ما في مراكز النفوذ ، كعمه العباس الذي حفظ له مودة لم تنقطع حتى في أحلك الظروف (٤) ، فكان الحليف القوي من داخل النظام ، حيث نجح هذا الدور الايجابي واضحاً أبان الفتح الاسلامي لمكة .

وكانت يثرب في الحقيقة تعيش في وهج مكة الساطع وتدور في فلك تجارها العظيمة . لذلك لم يدر في خلد هذه الاخيرة أن « الهجرة » قد يكون لها ذلك الصدى التغييري السريع . الا أن النبي سرعان ما تجاوز في يثرب أو (المدينة) - اسمها الاسلامي - الدور المكّي التبشيري ، الى دور تنظيم الدولة ، حيث كانت « الصحيفة » نواتها التشريعية الاولى ، ومنطلق تجربتها المبكرة في الفكر السياسي ، لا سيما المزاوجة العضوية في السلطة ، وفي استيعاب العصبية القبلية والقومية ، وذلك في اطار ما سمي بالجماعة الاسلامية (٥) . فقد كانت الدعوة الى التحرر من رواسب الماضي وفي طبيعتها النزعة العصبية ، أول بنود « الصحيفة » التي وجدت في المسلمين « أمة واحدة من دون الناس » (٦) .

وعلى الرغم من وضوح هذه الدعوة الى تجذير العلاقات الاجتماعية في نطاق العقيدة

(1) الطبري ج 2 ص 242-243

(2) المصدر نفسه ج 2 ص 243

(3) المصدر نفسه ج 2 ص 250

(4) راجع موقف العباس عشية الهجرة . الفيض ، تاريخ ج 2 ص 41-42

(5) وجيه كوثري ، مدخل اسلامي لدراسة السلطة العشائرية . مجلة الوحدة عدد 2 ص 33 (1980 م)

(6) ابن هشام ، السيرة النبوية ج 2 ص 501 . تحقيق : مصطفى السقا ، ابراهيم الايباري . انشرف ، الدولة الاسلامية

الاول ص 78 .

فقط ، فانها طُبعت بشيء من الخصوصية الحجازية ، وذلك في مجتمع كان الانتباه للقبيلة يُمثل ، ربما من حيث الشكل ، دعامته الاساسية والعامل المحوري فيه . فالسياسة القبلية احتلت جانباً من تشريعات دولة (المدينة) ، لان كثيراً من المعاملات والاجراءات كالتفدية وتبادل الاسرى ، وحتى الدخول في الاسلام ، كان يتم أحياناً على أساس قبلي . فقد تكررت الاشارة مثلاً الى « طوائف » - والمقصود هنا فروع (بطون) القبائل - دون الافراد ، كالقول « وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين »⁽¹⁾ . ولا شك أن هذا الموقف كان مجرد تدبير ظرفي ، في وقت كانت الحاجة ماسة الى الحلفاء والانصار ، وفي وقت تجنّب النبي جسم المسألة العصبية ، مكتفياً باحترائها وتمذيبها الى حد كبير⁽²⁾ .

لقد استطاعت « الصحيفة » جسم المشكلة العربية في (المدينة) وامتصاص الصراع التقليدي بين الاوس والخزرج ، حيث انتقلا من التنافر والتفكك الى اطار جبهوي (الانصار) ، بما لذلك من تأثير ايجابي على أوضاعهم الحياتية الجديدة . ولكن الجانب الاكثر تعقيداً في (المدينة) ، مثله الموقف اليهودي الذي بقي غامضاً من دولة النبي ، رغم الاعتراف العلني بها ودعوتها لهم الى الاسلام⁽³⁾ . ولعل « الصحيفة » التي أوردها مفصلة ، ابن اسحاق ، تعتبر أهم حدث تخضعت عنه « الهجرة » الى يثرب ، حيث يصحّ اتخافها كوثيقة تاريخية⁽⁴⁾ ، المدخل التشريعي الى دولة الاسلام ، التي لم تتغير ملامحها باختلاف المكان أو الزمان . ولذلك فان ما جاء فيها عن اليهود ، يُمثل الاتجاه العالمي في الدعوة ، على نحو تجاوز القرشيين وعرب يثرب ، لتكون الخطوة الاولى - على تعثرها - في هذه المدينة .

ولكن الى أي حد بلغت الاستجابة اليهودية لهذه الدعوة ؟ .. والجواب على هذا التساؤل لا بدّ أن يعيدنا الى ما قبل « الهجرة » وموقف اليهود منها . فالكتابات التاريخية تبحث عامة هذا الموضوع من زاوية ردّة الفعل ، دون الاشارة الى دور هؤلاء في الفعل نفسه ، الامر الذي يفرض علينا عودة الى التساؤل ، اذا ما

(1) ابن هشام ج 2 ص 502

(2) ثمة رأي يشير الى أن التكتل العشائري غلب التكتل القبلي ، حيث اعتبر النبي المهاجرين من قريش عشيرة خاصة والانصار عدة عشائر وليس قبيلتين مستقلتين . صالح المثل ، تنظيقات الرسول الادارية في المدينة . مجلة المجمع العلمي العراقي عند 71 ، ص 57 (1969) . راجع في هذه المسألة : رضوان السيد ، من الشعوب والقبائل الى الامة ص 47 .

(3) « وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » . ابن هشام ج 2 ص 503 .

وات ، محمد في المدينة ص 306

(4) وات ، محمد في المدينة ص 342 .

كانت للخزرج وبعض الاوس قدرة على الانفراد بقرار دعوة النبي من دون ضمان موقف اليهود ، الاكثر عدداً وقوة اقتصادية في ذلك الحين ؟ فمن البديهي ، حسب هذه الفرضية ، ان يكون هؤلاء دور ما في مقدمات الهجرة الى (المدينة) ، حيث لم تصطدم باعتراضات مبدئية ، ربما انطلاقاً من رؤية خاصة وحسابات مختلفة . ويبدو ان ثمة قاسماً مشتركاً ، وتحد موقف (المدينة) من النبي - بما في ذلك اليهود - بعد ان وجدت في « هجرته » نوعاً من الاستقطاب لم يتيسر لها من قبل . ولذلك لم يعارض اليهود دخول النبي الى أكبر معانقهم في الحجاز ، ولم يتصدوا في البدء لمشروع الدولة الاسلامية ، ربما انطلاقاً من القدرة على احتوائها ، بالسهولة نفسها التي رافقت « هجرة » الاوس والخزرج القديمة الى يثرب .

وهكذا لم ينجح اليهود في تحقيق الهدف الاقتصادي « التوسعي » الذي ربما ابتغوه من « الهجرة » . وسرعان ما اكتشفوا عبر هذا المنظور خطأ حسابهم الذي عاد عليهم بالضرر ، ودفعهم مختارين ، قبل الاكراه ، الى عزلة اجتماعية ، كانت مقدمة ما حل بهم من اجلاء وقتل ، وغير ذلك مما أصاب نفوذهم الحجازي بصورة عامة (١) . ومن ناحية أخرى ، اصطدم اليهود بمنافسة (المهاجرين) الذين انتقلت معهم لحيمة القرشية في التجارة ، التي شكلت نوعاً من « الغزو » لمواقعهم الاقتصادية في (المدينة) ، حيث كان النفوذ في هذا القطاع معقوداً لهم بلون منازع . ومن مرحلة (مصعب بن عمير) (٢) - أول دعاة المهاجرين التي لم يعترضها اليهود - الى مرحلة الدولة ، كان هؤلاء على مشارف نقلة مصيرية وأمام اختيار لا مفر منه في مواجهة الاسلام ودولته الصاعدة .

وكانت بعض العثرات قد واجهت تهمرية الدولة في (المدينة) ، وفي طليعتها تضارب « المؤاخاة » - بين المهاجرين والانصار (٣) - مع واقع التقسيم « العشائري » الذي ورد في « الصحيفة » ، ومع المصالح المتنافسة بين الطرفين ، حيث تصرف الاوائل تحت تأثير التفوق القرشي في الحجاز . ولقد أخذ ينمو هذا الشعور الاقليمي لدى أهل (المدينة) ، ولكن بصورة خفية ، في ذلك الوقت المبكر ، حيث شخصية النبي جسدت الاطار المركزي ، الذي استوعب تناقضات الجناحين الاساسيين في الدولة . غير أن تجميد مشكلة المسلمين الذين التأموا أو « تأخوا »

(1) راجع قول بني القيثاق للنبي ، « لن حاربت لعلن اننا نحن الناس » . الطبري ج 2 ص 297

(2) حماد الدين خليل ، العلاقات اليهودية - الاسلامية في عهد الرسول . . . مجلة المورد جلد 3 - عدد 2 ص 54 .

(3) الطبري ج 2 ص 233 .

(4) ابن حزم ، جوامع السيرة ص 96

حول قضية مشتركة ، لم يؤد الى تجميد مشكلة اليهود الذين كانت « موادعتهم »⁽¹⁾ نوعاً من الهدنة أكثر منها تحالفاً مستقبلياً ، ينطوي على الاستمرارية والحدود الدنيا من المصلحة المشتركة . وهكذا فان دولة (المدينة) ، استطاعت تحقيق الانجاز الاهم ، اعني به قيام الجبهة الاسلامية التي شكّلت رغم الحساسيات المبطنّة ، الضمانة القوية لنجاحها ، والسبيل الى احتواء عصبية المجتمع الجديد بصورة متوازنة الى حد كبير

وما لبثت دولة (المدينة) بعد اكتساب اطارها الشرعي الداخلي ، ان توجّهت من الموقع نفسه الى القبائل العربية في الخارج . وكان ذلك معناه فتح الصراع السياسي مع مكة ، الذي تبلور منذ العام الثاني للهجرة . ولعل المسألة أخذت بُعداً آخر في صراع أكثر شمولاً ، تناول البداوة الحجازية عامة ، حيث نافست (المدينة) مكة في الاستقطاب الحضري ، منافسة « الدولة » لـ « الملاء » ، بقدر ما تتميز به الاولى عن الثانية في المضمون السياسي والاجتماعي . فبينما تحوّلت الدولة الى دعوة للاستقرار المرتبط بالعقيدة ، ظلّ « الملاء » متّسباً بالطابع البدوي ، سواء كان على مستوى الاقلية الحاكمة التي مثلها شيوخ قريش ، كعتبة بن ربيعة وأبي سفيان وأبي جهل وغيرهم ، أو في العلاقة الاقتصادية والدينية مع البدو ، حيث شكّل هؤلاء أحد أهم عناصر الاستقطاب في مكة وتجارتها الداخلية . وتصبح « الهجرة » الى (المدينة) تدريجياً ، « هجرة » الى التضرع المقرون بالجماعة ، حيث جسّد هذا الواقع لاحقاً ، القول المنسوب للخليفة عمر ، في معرض الردّ على قوم من البدو جلاؤهم للعطاء « لا ارزقكم حتى ارزق أهل الحاضرة ... » فان يد الله مع الجماعة⁽²⁾ . وتظلّ مكة في المقابل مرتبنة لمصالحها البدوية في الحجاز ، حيث بدت وكأنها تعاكس حركة التطور التاريخي التي تمحورت في (المدينة) .

ولعل هذا يقودنا الى المشكلة الثالثة التي واجهت دولة النبي ، وهي علاقتها بالقبائل البدوية المقيمة بجوارها أو على بعد منها . فقد انصفت هذه العلاقة بالفئور وانعدام الثقة من جانب النبي ، الذي وجد في مواقف البدو تقلباً وفي نفوسهم ضعفاً أمام الارتباطات المصلحية ، التي غالباً ما كانت تصب في اطار التحالف « الإيلافي » مع مكة⁽³⁾ . ولم يكن من السهولة فصل هذه المشكلة عن الصراع

(1) ابن حزم ، جوامع السيرة ص 95

(2) وات ، محمد في المدينة ص 349 وضوان السيّد ، من الشعوب والقبائل ص 49 .

(3) صالح النعل ، العطاء في الاسلام . مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد 25 ص 41 (1970) .

(4) وات ، محمد في المدينة ص 116 - 263 .

المركزي في الحجاز ، حيث لجأ النبي الى تطويع القبائل بالقوة وتهديدها في مصادر ارتزاقها الاساسية ، وذلك في نطاق مراقبة مباشرة لتحركاتها واتصالاتها المختلفة (١) . وعلى الرغم من الخزم الذي واجه به مشكلة اليدو ، الا أنه لم يصل الى تحقيق معالجة جذرية لها ، حيث ظلت بعد غيابه أحد عوامل الانفجار الأكثر خطورة في الدولة العربية الاسلامية . على أن ذلك لم يحل بعض الاحيان دون استخدام سياسة ودية من جانب النبي ، ازاء هذه القبائل والتحالف مع عدد منها ضد مكة . فلم يكن ثمة سبيل آنذاك الى تجاهلها كمادة بشرية ، تستطيع الاسهام بدور كبير في تعديل الموازين السياسية والعسكرية . ولذلك لم يكد النبي بحسم المشاكل الداخلية في (المدينة) ، حتى كان قد توصل الى حسم سياسي ، أكثر منه ديني ، للموقف القبلي في الحجاز الذي أخذ يميل بصورة عامة نحو مصلحته .

على أن الجبهة الاسلامية لم تحل من المتاعب الداخلية الاخرى ، التي كانت تهدد تماسكها وتحول دون تكتلها في وجه الخطر الخارجي ، لا سيما في السنوات القليلة الاولى من قيامها . فصرف النبي جانباً غير قليل من اهتمامه نحو هذه المشكلة ، محاولاً ليس فقط توحيد (الانصار) وبل « مواخاتهم » مع (المهاجرين) وذلك بغية تطوير الاحساس بالتفوق لدى أهل مكة أو بالاضطهاد عند أهل (المدينة) ، فضلاً عن محاولة امتصاص الاحقاد القديمة المتبادلة ، نتيجة بعثرة الوحدات العشائرية في غير المواقع التي ألفتها من قبل . ولكن هذه التسوية التي فرضتها الظروف الصعبة المحيطة بدولة النبي ، لم تكن سوى اجراء مرحلي استطاع في حينه تأمين حد معين من الانسجام في الداخل (اليهود والمنافقون) وفي الخارج (قريش) . ولذلك فإن أية معالجة جذرية في هذا المجال ، لم تأخذ قسطها الكافي من الوقت ، الامر الذي انعكس على وضع (الانصار) في (المدينة) وشعورهم المبكر بالدور المهم للمهاجرين ، والمتأثر بالاعتبارات التي منحت هؤلاء شيئاً من الاستياز ، الناتج عن مواكبة طليعية لدعوة الاسلام وما رافقها من تضيق واضطهاد و « هجرة » (٢) .

وكانت محنة هذه الجبهة الأكثر سوءاً بظهور ما يمكن تسميته بـ « القرية الثالثة » - المنافقون - التي تزعمها عبد الله بن أبي بن سلول ، إحدى شخصيات الخرج البارزة . فقد مثل هذا الرجل الاتجاه القديم في (المدينة) ، المتعارض من حيث المبدأ مع قيام دولة تسودها « الهيمنة » القرشية ، كما كان ينظر اليها . ولعل

(١) DONNER, Mecca's, P. 266

(٢) ابن هشام ج ٢ ص 591-603 . ابن خزم ، جوامع السيرة ص 100-106

مروته التي انفطر عليها ، قد جئته التورط مباشرة في صراع القبيلتين (الأوس والخزرج) ، الذي استفد الزعامات الأخرى . وهذا الموقف جعل منه الشخصية الوسطية المعتدلة ، التي تلتقي عندها تناقضات الطرفين ، حيث قيل أن كلاهما اتفق على زعامته⁽¹⁾ بعيد (يوم بعث) ، آخر الحروب المحلية في (المدينة)⁽²⁾ .

لقد شكّل هذا الاتجاه الاقليمي الذي قاده الزعيم الخزرجي ، نواة المعارضة السياسية في الدولة الجديدة . فهو يتسبب الى قبيلة قوية وغير مرفوض لدى الثانية⁽³⁾ ، بالإضافة الى حتمية التحالف مع اليهود ، الاكثر تضرراً من متغيرات (المدينة) ، بحيث سعى الى تحقيق موقع آخر متوازن في ظلّ الاسلام بين الدولة والمعارضة ، محاولاً استعادة الدور الذي شغله في حرب « بعث » . فعبد الله بن أمي لم يتردد حينذاك في ركوب « الموجة » الاسلامية ، في وقت استبطن حقداً كبيراً على (المهاجرين) ، الذين رأى في « هجرتهم » احتلالاً مقنعاً للمدينة ، اقترن عنده بالمدلّة ، ومن ثمّ التحريض على إخراجهم منها « ليخرجن الأعزّ منها الاذل »⁽⁴⁾ ، كما نسب اليه اثناء غزوة بني المصطلق⁽⁵⁾ . ولكن سياسته اصطدمت بأول فشل لها ، مع بروز منافس قوي في القبيلة نفسها ، وهو سعد بن عباد ، الذي كان من رواد (الانصار) المناضلين في الدعوة⁽⁶⁾ . ولم يلبث أن قصّدر الخزرج حتى قبيل انكشاف « نفاق » ابن أبي ، وذلك عندما استتابه النبي للقيام بأمر (المدينة) ، بعد خروجه في غزوة الأبواء⁽⁷⁾ ، مكرماً زعامة سعد الخزرجية التي فرضها موقعه الاسلامي قبل أي اعتبار آخر .

وهكذا فإن أول معارضة داخلية كانت على خطورتها ، غير متكافئة في مواجهة التيار الاسلامي ، الذي استمد قوّته من شخصية النبي والمبادرة السريعة في التصدّي للمواقف الصعبة ، ومنها الموقف من هذه الحركة التي انتهت الى الفصل⁽⁸⁾ . ولذلك فإن المعارضة الجديّة لدولة (المدينة) ، كانت في الواقع يهودية ، بحيث تدخل في نطاق الصراع على النفوذ في الحجاز ، انطلاقاً من حتمية التحالف

(1) ابن هشام ج 2 ص 584-585

(2) وقعت هذه الحرب نحو سنة 617 . أي خمس سنوات قبل الهجرة . اليهودي ، وفاء الوفا ج 1 ص 218 .

(3) ابن هشام ج 2 ص 584

(4) المصدر نفسه ج 2 ص 526 اليهودي ، وفاء الوفا ج 1 ص 219

(5) يستبين الى غزاة . وقد حدثت الغزوة في العام السادس الهجري . اليعقوبي ، تاريخ ج ، ص 53 .

(6) ابن هشام ج 2 ص 449

(7) ابن حزم ، جوامع السيرة ص 100

(8) الطبري ج 3 ص 65

بين الاطراف المتضررة من قيام هذه الدولة . ومن هنا تبلورت المعركة ضد القوى المناهضة للاخيرة ، فكان الدور اليهودي واضحاً خلال السنوات الخمس الاولى من «الهجرة» ، في الصراع بين محوريّ الوثنية والاسلام ، ومتصلاً بالنتائج المترتبة عليه ، وذلك عبر حلقاته المتتابعة التي انعكست سلباتها المباشرة على اليهود وانتهت بلخارجهم من (المدينة) .

ولعل اليهود سقطوا في مأزق الاختيار الخاطئ الذي راهنوا عليه ، وهو استيعاب « هجرة » المسلمين من قریش ، التي ضمت أعضاء سابقين في « الملأ » بما يعنيه ذلك من تنشيط حركة التجارة في (المدينة) وتدعيم لمصالحهم الاقتصادية . كما سقطوا بعد ذلك في مأزق التحالف مع مكة لانقاذ نفوذهم المتراجع ، بعد افتقار المبادرة أمام المزاحمة الشديدة التي ارجمها توظيف خبرة تجارية عالية للمهاجرين ، واسلوب متفوق في التعامل ، طرأ عليه كثير من التهذيب ، بحيث تعارض مع طرائق الاحتكار ومصادر الكسب اليهودية ، التي أصبح بعضها غير مشروع في ظل الدولة الجديدة⁽¹⁾ . وكانت السياسة الاقتصادية تشكل أحد أركان التصدي للتحديات ، التي رافقت قيام هذه الاخيرة ، وتلازمت مع المواجهة العسكرية ضد التحالف المكي - اليهودي . ولم يكن خافياً ما قام به النبي من جهود تنطوي على براعة مميزة ، وذلك في محاولته المداغة الى ضرب التجارة القرشية تمهيداً لاسقاط مكة . فيكون انتصار المسلمين في (بدر) ، الذي توج بمجموعة السرايا على خط القوافل المكية⁽²⁾ ، الحلقة الاولى في الحصار الاقتصادي الذي هدد « ايلاف » القرشين ، الاطار الوحيد شبه المركزي في الحجاز الذي أخذ ينهار أمام غو « الصحيفة » المتصاعد .

على أن « القوة الثالثة » التي سعت الى ضرب « الصحيفة » ، لم تحقق شيئاً من النجاح ، خاصة في اعتمادها الاساسي على الموقف اليهودي ، متمثلاً بقبيلة القينقاع القوية ، التي احتكرت الصناعات الذهبية واتخذت سوقاً خاصة حل اسمها في (المدينة)⁽³⁾ ، متفوقة في ذلك على قبيلتي النضير وقرظة ، حيث غالباً ما تكتلت كلتاهما جبهة واحدة ضدها . وكان ابن أبي حليفاً لبني القينقاع ، الذين طردوا من الحجاز⁽⁴⁾ في العام الثالث الهجري ، مفقداً فيهم القوة الرئيسية التي راهن عليها ،

(1) الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ص 96 .

(2) المحرر ص 110 DONNER, *Moslems*, p. 238 .

(3) السهمودي ، ولاء الوفاج ص 278 .

(4) المحرر ص 112 ، ابن حزم ، جوامع السيرة ص 154 .

والتي مهّدت أيضاً إلى افتقاد زعامته القبلية ، وذلك مع بروز سعد بن عباد ، رجل الحزج القوي الذي وثق به النبي . ولعل ما يثير الانتباه أن هذه الحركة التي ظلت على هامش الاخطار الحقيقية المهلّدة للدولة (المدينة) ، لم تجاهر في معارضة « الصحيفة » أو انتقادها ، مما يرجّح طغيان الباعث الاقليمي على أية خلفية دينية ، بحيث يجد ذلك الشعور تسويغه في التصدي لتعاضد النفوذ القرشي في العاصمة الاسلامية ، وهو ما عبّر عنه زعيم الحركة في القول السالف المنسوب اليه (1) .

وليس ثمة شك أن حصار الاسلام لقلعة الوثنية الكبرى ، بدأ مع « هجرته » إلى (المدينة) ، الواقعة على طريق الشام ، بما يعنيه ذلك من تهديد للمصالح المكية الحيوية . ولم يكن الأمر مجرد حصار تجاري ضد الفئات القرشية الميسورة ، ولكنه انعكس على مختلف فئاتها الاجتماعية ، سواء في ارتزاقها اليومي أو في تموينها بالمواد الغذائية الاساسية . فقد كان هذا الطريق مصدر الجزء الاهم منها ، لا سيما الحبوب ، التي كانت الشام أحد مراكزها الانتاجية الاولى ، حيث اعتاد التجار القرشيون تسويقها ، فضلاً عن كميات اضافية من (المدينة) التي غلب هذا المحصول على منتجاتها الزراعية ، خلافاً للطائفت التي لم يُعرف عنها سوى انتاج المحاصيل المناسبة مع طبيعتها الجبلية (2) . ومن ناحية أخرى ، فإن اليمن الذي قد يشكّل بديلاً في تعويض الازمة الغذائية في مكة ، كان قد فقد دوره الزراعي المتميز ، تحت تأثير الاضطرابات التي أدت إلى انهيار أوضاعه الاقتصادية ، وما أسفر عنها من الهجرة السكانية المرتفعة ، حيث أسهمت في افراغه من جانب غير قليل من طاقته العاملة . أما الحبوب المستوردة من مصر عبر البحر الاحمر ، فلم تشكّل - إن صحّ وصولها عن هذا الطريق - سوى نسبة ضئيلة من التموين في مكة ، حيث استوردتها عن طريق (الجار) ، ميناء (المدينة) الذي أصبح خاضعاً للسيطرة الاسلامية في ذلك الحين (3) .

ومن المثير أن يكشف الحصار الاقتصادي لمكة ، مدى الضعف الذي كان

(1) ابن هشام ج 2 ص 526 . نسب إليه الرازي أيضاً قوله : « ما رأيت كالربيع مقلد والله اني كنت كادها لوجهي هذا ، ولكن قومي غلبوني قد قتلوا » . قد نأقرونا وكأقرونا في بلدنا وأنكر وأمتنا والله ما صرنا وجلايب قريش هذه الا كما قال الفائل : سمن كليلك بأكلك الواقلي ؛ ، كتاب الغزوى ، ج 2 ص 416

(2) معجم البلدان ج 1 ص 9 . الحسري ، الروض المعطار في خبر الاقطار . ص 379 . تحقيق احسان عباس .

(3) يلتبس الأمر على دونر DONNER ، بوصفه (الجار) مرفأ مكة ، بينما هو مرفأ (المدينة) الذي استخدمه القرشيون غالباً لنقل البضائع المصرية بصورة خاصة ، كما يلتبس عليه الأمر نفسه بقوله أن الشعبية (ميناء مكة) قرب (المدينة) Mecca's , P. 254 وراجع : حمد الجاسر ، في شمالي غرب الجزيرة ص 167 - 175 .

ينطوي عليه نظامها بصورة عامة . فقد انهارت سريعاً تلك الحالة التي أحيطت به نحو قرن من الزمن ، وتلاشى معها التأثير على القبائل الحجازية . ذلك أن النفوذ الذي اكتسبه هذا النظام ، لم يكن في قوته أو تماسكه ، ولكن في انعدام البدائل المنافسة له في ذلك الوقت ، حيث كانت أبرز ثغراته ، كونه نموذجاً للمجتمعات الاستهلاكية «الخدمانية» ، لا سيما الفاقدة أدنى حدود الاكتفاء الذاتي ، مما يجعلها تتهرب أمام أول محنة تعطل بها . فالاهمية الاقتصادية المستمدة من سيطرة التجار القرشيين على أسواق البدو والأقاليم المجاورة ، أخذت في التراجع وتجلت بعد حين هشاشة الازدهار الذي نعمت به مكة طوال القرن السادس⁽¹⁾ . وكان النبي ومعه (المهاجرون) على ادراك تام بنقطة الضعف هذه ، عندما بدأت «حرب سرايا» في مطالع «الهجرة» ، متمحورة حول طريق التجارة المكية الى الشام ، وذلك بتحويلها الى منطقة قلقة ومعادية ، لا تشجع ارتياد القوافل لها .

وهكذا يأخذ الصراع بين مكة و (المدينة) ابعاداً مختلفة الملامح ، وفي طليعتها مرحلة الحصار الاقتصادي ، بانعكاساته السلبية على تجارة قريش وما جرت اليه من أزمة غذائية ، فضلاً عن تهديد القبائل «الايلافية» ، المتعددة معها على الطريق التجاري . والمرحلة الثانية تكتسب طابع المواجهة العسكرية التي دامت نحو سنوات ثلاث ، ما بين معركة بدر - التي كانت أول ردة فعل في هذا السيل من جانب مكة ازاء الحصار الاقتصادي ، وذلك بخروج التاجر المخزومي الكبير أبي جهل ، ليس انقاذاً لقافلة أبي سفيان المهذبة فقط ، ولكن لاستعادة هيبة قريش وأمن التجارة المكية على طريق الشام - وبين معركة الخندق (غزوة الاحزاب) التي كانت آخر المحاولات الجدية في التصدي المسلح لدولة (المدينة) . وكان فشل هذه المحاولة ، بما رافقها من استقطاب مكثف للبقية من تحالفاتها القبلية المنهارة ، مؤشر النهاية لنظام «الايلاف» ومعه الزعامة الوثنية لمكة .

أما الثالثة ، فهي مرحلة «الحديبية» التي توجت الانتصارات السياسية والعسكرية لدولة (المدينة) ، حيث انتقلت اليها المبادرة بانتقال ساحة الصراع لأول مرة الى مكة . فقد كان قرار النبي في غاية الخطورة ومنتهى البراعة في آن ، عندما توجه الى الاخيرة قاصداً الاعتراف فيها مع عدد غير قليل من اصحابه⁽²⁾ . ولا شك أن هذا القرار ينطوي على ملامح العلاقة المستقبلية مع مكة ، حيث حلّ الحوار مكان الحرب ، أو بعبارة ثانية ، فإن

(1) DONNER, Mecca's p. 253

(2) الطبري ج 3 ص 71

النبى لم يشأ اسقاطا عسكريا لها ، قد يطول وتنعكس آثاره السلبية على الطرفين ، فضلا عن ذلك ، أن هذه المبادرة من شأنها أن تعزز موقعه السياسي في الحجاز بينا تزيد في اضعاف مكة وعزلتها في المقابل. ومن هنا قد يجوز القول أن اسقاط النظام الوثنى من دون قريش ، ربما كان الباعث على هذا الموقف الاحتوائى الهادف الى العودة بالاسلام للمدينة التي اضطهدته ، وما قد يسفر عن ذلك من تعديل جذري في موازين القوتين المتصارعتين في الحجاز .

ان معاهدة « الحديبية » (١) ، لم تكن الا رصوخاً للامر الواقع من جانب النظام القرشي . فعل الرغم من نجاح هذا الاخير في الحؤول دون اعتمار المسلمين في الوقت الذي أرادته النبى ، ومناقشته أمن التجارة والحصار الاقتصادى وتسليم الثمردين من قريش (٢) ، فانه كان مكرباً في الوقت نفسه على الاعتراف بدولة (المدينة) واقتسام مناطق النفوذ الحجازي ، فضلاً عن حرية المعتقد والدعوة بين القبائل العربية ، وهو الاعتراف الاهم الذي تضمنته وثيقة الصلح .

لقد اثبتت نتائج « الحديبية » السريعة ، أن « دخول » العمرة لم يكن الا مقدمة لـ « دخول سياسي » ، فرضته المنجزات المتلاحقة التي جاءت بعد ذلك في نطاق برنامج زمنى متماسك ومثير للدهشة في دقته وبراعته . فمن تصفية المواقع اليهودية في الحجاز (خيبر ، فلك ، وادي القرى) (٣) في العام السابع الهجري ، الى تنفيذ « العمرة » والتوجه الى الملوك والامراء بالدعوة الى الاسلام (٤) ، الى غزوة مؤتة في العام الثامن ، كان الحجاز الاسلامي يستكمل ملامحه الاخيرة ، التي تبلورت بسقوط مكة في العام نفسه .

وقد يفاجمنا ذلك الانهيار السريع في الموقف المكي ، منذ غزوة الاحزاب ، حيث كان أحد العوامل المشجعة لقرار « العمرة » (٥) . فهذه الغزوة التي وضع المكيون فيها كل

(1) اسم بئر قريبة من مكة (على طريق جدة) . الروض المطار ص 190 .

(2) ابن هشام ج 2 ص 502

(3) ثمة رأي يشير الى أن التكتل العشائري غلب التكتل القبلي ، حيث اعتبر النبي المهاجرين من قريش عشيرة خاصة والانتصار عدة عشائر وليس قبيلتين مستقلتين . مصالح المل ، تنظيمات الرسول الادارية في المدينة . مجلة المجمع العلمي العراقي عدد 17 ص 57 (1696) راجع في هذه المسألة : رضوان السيد ، من الشعوب والقبائل الى الامة ص 47

(4) « وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والاموية غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » . ابن هشام ج 2 ص 503 .

(5) وات ، محمد في المدينة ص 306

وات ، محمد في المدينة ص 342 .

ثقلهم العسكري والسياسي ، كانت نهاية المحاولات الجدية لانقاذ هبة فريش ومصالحها التجارية المهددة ، كما كانت آخر سهم في جعبة المتطرفين ضد الإسلام ، بعد أن سقط بعضهم في ساحات الحرب وانزوى الآخر فاقداً دوره المعنوي مع تقلص حركة التجارة المرتبط بها . وكان على السياسة المكية أمام انتصارات (المدينة) الباهرة ، أن تنحو إلى الاعتدال ، وأن يركب هذه الموجة الجديدة من هم أشد حماسة للنظام القديم . وكان في مقدمة هؤلاء أبو سفيان ، زعيم بني أمية ورجل فريش القوي ، الذي أثبت مرونة حاذقة وقدرة على الانسحاب من موقع إلى آخر في الوقت المناسب .

ولا ريب أن مكة عاشت اجواء المهادنة مع أبي سفيان ، حيث لم يرد في روايات المؤرخين ما يشير إلى اجراءات عسكرية ضد حملة النبي ، التي كانت في حجبها أشبه بتظاهرة اسلامية تحتفل بدخولها الظافر إلى معقل الوثنية في الحجاز . ولم يكن العباس - ربما آخر المهاجرين إلى (المدينة) - خارج هذه الأحداث ، بعد الدور التوفيقى الذي التصق به⁽¹⁾ . ذلك أن شخصيته المحاطة بالغموض ، خاصة الجانب الاسلامي منها ، كانت تمثل الشعرة التي لم تنقطع بين القرشيين المسلمين ومدينتهم مكة ، كما كانت لدى القرشيين الوثنيين ، واسطة الاتصال الوحيدة ربما مع دولة (المدينة)⁽²⁾ . ومن هذا الموقع كان العباس شاهد « الصلح » التاريخي الذي تم بين الطرفين ، وذلك في إطار اشعار القائل : « اذهبوا فانتم الطلقاء »⁽³⁾ ، الذي كرس إعادة الاعتبار لفريش وانهاء الصراع مع الاسلام⁽⁴⁾ .

ومن الواضح أن خطة النبي ، كانت ترمي إلى استقطاب المعارضة القرشية عبر أبي سفيان⁽⁵⁾ ، الذي ظل رغم هزيمته يمثل تياراً على جانب من الاهمية . ومن ناحية ثانية ، فقد تفادى النبي الحل العسكري في مدينته الاولى ، كما تفاداه مع قبائل الحجاز الاخرى ، محاولاً التوفيق في حدود الممكن بين الاسلام والشخصية الناريحية لهذا الإقليم ، منطلق الدعوة وموطن الدولة . فكان الدخول إلى مكة « صلحاً »⁽⁶⁾ دون

(1) اسد الغابة ج 3 ص 109-110 . للطبري (ع ب الدين) ، ذخائر العقبين في مناقب ذوي القربى ص 188، 189، 191 .

(2) قيل أن العباس كتب كتاباً وبلغه إلى رجل من بني غفار وأمره أن يسرع إلى المدينة فيسلم الرسالة إلى الرسول (ص) مشعراً إليه بتشرك فريش عشية غزاة أحد . الواقدي ، المغازي ج 1 ص 203-204 .

(3) ابن حزم ، جوامع السيرة ص 230 .

(4) العقد الثمين ج 1 ص 33 .

(5) ابن شهاب الزهري ، المغازي ص 89 .

(6) عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ص 245 .

(7) العقد الثمين ج 1 ص 33 .

استخدام القوة التي في متناوله ، ودون الوصول بالحصار الإقتصادي حتى حدود التجويع أو الانتقام⁽¹⁾ ، أو حتى القضاء تماماً على أمن التجارة في الحجاز⁽²⁾ . ولم يكن ما يشير الدهشة حينذاك ، تعيين أول حاكم إسلامي على مكة ، من البيت الأموي⁽³⁾ المهزوم ، كدلالة على استمرار قریش في النظام الجديد ، الذي سيكون على حساب مكة ونظامها القديم .

(1) DONNER, Mecca's, p265 .

(2) راجع موقف النبي من إسلام الغيرة بن شعبة ، الطبري ج 3 ص 75 .

(3) عتب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس . العقد الثمين ج 1 ص 161 .

سقطت مكة وسادت قريش

« ان قريشاً لو لم تكن عدتكم اذلة كما كنتم ،
ان المتكلم لكم اليوم جنة »

معاوية بن أبي سفيان

لم يكن سقوط مكة حدثاً عادياً في تاريخ الحجاز الاسلامي ، حيث كانت العقبة الكأداء في سبيل توحيدِه وتكليه مع دولة (المدينة) . فثمة قبائل عديدة كانت علاقاتها وثيقة بنظام « الايلاف » الذي تزعمته مكة ، ولم يكن من السهولة تحديد موقفها بمعزل عن هذه الاخيرة . وجاء اطلاق « الفتح » ، دون العمليات العسكرية الاخرى التي تمت في شبه الجزيرة ، دلالة على أهمية الحدث الذي عدل مجرى التاريخ وفتح الابواب أمام عقيدة الاسلام ودولته الى ما وراء الحدود . ولعل هذا الحدث من منظوره التغييري ، يُمثل « هجرة » ثانية في الاسلام ربما لا ترقى الى أهمية الاولى ، ولكنها استكمال ضروري لها بكل ما تعنيه هذه الكلمة . فالدولة حققت وحدتها السياسية في الحجاز ، و « المهاجرون » استعادوا جزءهم الآخر الذي سيتعززون به على طريق الموالاة فالسلطة ، بينما المنافسة أحييت في « الانتصار » شعور العضوية الاقليمية ، التي تبلورت بعيد ذلك في أول جبهة للمعارضة ، عندما ظلوا مجرد « مناصرين » وفاتهم حتى دور الشريك في الحكم .

ولقد كان واضحاً أن العلاقة بين الجناحين المؤسسين في دولة (المدينة) ، هي الازمة الموقوتة التي ستار مع طرح مشكلة السلطة بعد النبي . وكانت أولى مؤشرات هذا التنافس قد ظهرت مقنعة في موقف عبد الله بن أبي وجماعته من الخزرج ، الذين ضاقوا بالنفوذ القرشي المتعاظم في (المدينة) . ولكن هذا الشعور الذي سبق أوامره وطغت عليه خطورة المرحلة ، اصطدم بأول خيبة أمل تعرض لها الانتصار مع « هجرة » العودة الى

(1) الطبري ج 3 ص 118 . ورد في اسان العيون للحلي إضافة لقول سعد : « اليوم اذل الله قريشاً » و « النبي عل أبي سفيان : « كذب سعد اليوم يوم المرحمة ، اليوم أمر الله فيه قريشاً ، وهذا المؤرخ ينجح الى عدم الدقة في رواياته غير الممتدة . اسان العيون في سيرة الامين والمؤمن ، الشهيرة بالسيرة الحبية ج 3 ص 22 .

مكة . ولم يكن زعيم الخزرج وحامل راية الانصار سعد بن عباد ، متسرعاً آنذاك في طرح هذه المسألة ، حيث عاشها عن كثب وأدرك مصدر الخطر الحقيقي الذي يهدد طموح جماعته . ومن هنا كان لفتح مكة شأن آخر عنده ، اختلف شأنه لدى النبي والمهاجرين . فهو لا يتردد بالمجاهرة فيما نسب اليه وهو على أبواب المدينة القرشية « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه » لقطع الطريق على وحدة المهاجرين ، التي لم يعترض عليها النبي ، متجنباً لإحداث ردة فعل مماثلة ، باعطاء الرؤية لقرشي (١) ، ومطوقاً ما استطاع هذه النزعة التنافسية لدى الطرفين ، حيث تنبه لها منذ الهجرة ، وذلك باشتراع «المؤاخاة» كتدبير مؤقت يستهدف العصية الاقليمية في المقام الاول .

كان انتقال الرؤية من سعد الى علي المؤثر الاول في أزمة (الانصار) مع النظام الجديد ، تلك التي ستصبح أزمة (المدينة) نفسها بعد خروج عاصمة الخلافة من الحجاز . ولعل هذا الحدث لا يخلو من مفارقة كان انعكاسها واضحاً على مواقع المدينتين المتنافستين ، بعيد « الهجرة الثانية » - اذا جاز التعبير - بسقوط مكة من دون قريش (المهاجرون) ، وسقوط (الانصار) من دون المدينة . فهذه الاخيرة التي دأبت على ابراز حضورها الحجازي في مواجهة مكة ، حيث عاشت في ظلها قبل الاسلام ، وجدت شخصيتها في هجرة النبي واتخاذها مركز أول دولة في هذا الاقليم ، كان من نتائجها المباشرة ، وضع حد للمشاكل الداخلية المستعصية . ذلك أن الدولة أوجدت حلاً للصراع القبلي بين الاوس والخزرج ، فضلاً عن الوجود اليهودي الذي تم حسمه ، بما يعنيه ذلك من انتفاء عامل تخريضي على استمرار الحرب الاهلية .

ولكن (المدينة) بعد حل مشكلة اليهود استجدت عندها مشكلة المهاجرين في الاسلام ، وكان عليها انتظار فرصة أخرى قد تحقق لها الحل المنشود . ولعل (الانصار) لا يتحملون وحدهم عبء العلاقة المتشججة بين المدينتين ، حيث كان للمهاجرين دورهم الواضح في اذكاء عصبية ، ليست في الحقيقة إلا نتاج الشعور بالنقص أمام التفوق القرشي . فقد حمل هؤلاء في « هجرتهم » وجه مكة « الارستقراطي » ، ربما بشيء من المبالغة ، وصنعوا لانفسهم ذلك الدور المهيمن ، الذي يستكرس معه « الشرعية القرشية » في الزعامة (٢) . فاستثار مكة بـ « الفتح » ، دون المراكز الوثنية المعارضة في

(1) علي بن أبي طالب . الطبري ج ١٨٨ أو الزبير بن العوام . جوامع السيرة ص 23١
(2) وُجد من كتاب التاريخ حتى للتأخرين من تحمس لهذه الشرعية كبدية لا تقبل النقاش أو كمن شبه المهدي . فطمة مؤرخ معاصر يشير الى ضرورة استمرار الخلافة في قريش إذ « ليس من المصلحة العامة أن يتولاهما من سبق له أن دخل في إطار الفتنة أو التبعية أو ارتبط مع الإعداء ... وبما لا ريب فيه أن ماضي الانصار يفيض بهذه المسائل وعشرت فيها . أما قريش فليست لها في عموم العرب هذه الوضعية أو ذلك الماضي المشوب بشبهات الخضر والتبعية » عبد الحميد بخيت : عصر الراشدين ص 19- 20

الحجاز التي تم إخضاعها بـ « الغزو » (حنين ، هوازن ، ثقيف) ، أدى بالضرورة الى امتياز قريش على هذه القبائل . وجاء العفو عن أبي سفيان - رغم تحجيمه - يعطي لهذه الشرعية امتداداً خاصاً في البيت الاموي ، من منطلق تمثيله لتيار لا زال يجد بين المهاجرين من تمسك له ، ربما أكثر من « اخوانهم » الانصار ، من الذين لم تكن قد خمدت في نفوسهم تلك النزعة القويّة ، لا سيما الذين أدركوا الاسلام وهم على عتبة الشوط الاخير من العمر . فالدولة الجديدة كانت لا تزال تتوخى المرونة في سياستها المكيّة ، بتفادي استخدام القوة غالباً واستبدالها بطرائق مختلفة من الضغط السياسي والاقتصادي . ولقد تجلّى ذلك في محاولة النبي دخول مكة معتمراً وليس محارباً ، وفي المفاوضات التي مهدت لاتفاق الحديبية . من هنا كان الاختيار واضعاً ، في تجاوز الاتجاه الانتقامي بعد سقوط مكة ، ما عدا بضعة أفراد (١) ، كانت ملاحقتهم « قضائية » أكثر منها سياسية ، دون أن يغفروا عن الفتح طابعه « الصلحي » .

أما (الانصار) فقد تخرج موقفهم بعد سقوط مكة وأدركوا منذ انتزاع الرية من سعد ابن عبادة وهو على أبوابها ، أن ثمة معادلة لن تكون لمصلحتهم بعد الثنّام جبهة (المهاجرين) (٢) . وعلى الرغم من استمرار (المدينة) عاصمة للدولة الجديدة ، إلا أنهم تحولوا فيها الى أقلية أو كادوا ، مع توافد « المهاجرين الجدد » . على أن عهد النبي الذي لم يدم بعد ذلك أكثر من ثلاث سنوات ، امتدت معها السيادة على شبه الجزيرة الموحدة لأول مرة في التاريخ ، كان عهدها الذهبي الذي افتقدت بافتقار النبي . فسياسة التوازنات النابعة من تقديره لعظمة الدور الذي قامت به وإيثاره لها مركزاً لدولته الاسلامية على مكة ، اخفت مؤقتاً لدى (الانصار) حقيقة موقفهم من « الهجرة المستمرة » التي تعدّت قريشاً الى غيرها من القبائل (٣) .

وفي الوقت الذي كان فيه النبي على فراش مرضه الاخير ، كان (الانصار) يتأهبون لاتخاذ دورهم ، كفريق أساسي في (المدينة) ، دون أن يكون لديهم من مقومات التخطيط للمجابهة الصعبة ، الاسرعة المبادرة التي فاجأت (المهاجرين) بكتلهم السياسية المختلفة . ولا شك أن هذا التحرك ، كان محضّل مجموعة من المواقف ، المتمحورة خاصة

(1) البقرى ، تاريخ ج 2 ص 39-60

(2) راجع قول الانصار بعد فتح مكة : « أنزل رسول الله (ص) لدا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم فيها ٢٢ » ابن هشام ج 2 ص 416

فلهورن ، تلويح الدولة العربية ص 36 ، ترجمة أبو ريدة ، مراجعة مؤنس .

(3) يورد الشيخ محمد مهدي شمس الدين رأياً في هذا الشأن ، بلا السبب الاول في وجود هذا الحزب - أي الانصار - هو عامل الخوف وليس الطمع . نظام الحكم والادارة في الاسلام . ص 37

حول شعور (الانصار) بسقوط دورهم الوشيك في الدولة مع غياب النبي . وكان اختيار « السقيفة » لمناقشة موضوع الخلافة ، له دلالة القبلية والاقليمية في وقت واحد . ذلك أن التقليد الاسلامي درج على اتخاذ المسجد ، محور هذه الاجتماعات التي تبحث في الشؤون السياسية والعسكرية . فهذا المكان حيث عُقد مؤتمر الانصار ، تعود ملكيته لبني ساعدة أحد فروع قبيلة الخزرج (1) ، التي خرجت أكثر قوة في « أيامها » ضد الاوس ، وأسهمت بالدور الاول في التمهيد للهجرة ، كما اتخذت الصدارة في الاسلام مع شخصية سعد بن عباد ، أقوى شخصيات الانصار في ذلك الحين .

ولكن طرح (الانصار) لفضية الخلافة في هذا الوقت المبكر ، لم يحدث على مفاجأة صدمة كبيرة في (المدينة) ، حيث وُجد من كانت له حساباته في هذا السبيل وهي أكثر دقة من حسابات (الانصار) . فاذا كان هؤلاء قد سَوَّغوا تحركهم بالموقف التاريخي الذي يدين له الاسلام ، في انتقاله من « دار الاضطهاد » الى « دار الهجرة » ، ومن طور الدعوة الى طور الدولة ، فان (المهاجرين) قد تجملت براعتهم أيضاً ، في مداومة هذا الموقف ودفعه وراء المسوغات التي طرحوها بدورهم . لقد كان ثمة موقف موحد هؤلاء على اختلاف تياراتهم ، وهو حصر الخلافة في فريش دون غيرها . فعلي طالب بابعاد غير « المهاجرين » (2) في اختيار الخليفة ، ولكنه يبقى لديه قرشياً ، ربما بالواقع وليس بالنظرية ، فلا يتعارض مع الشورى كما حق القرابة الاذن من المنظور نفسه « من يطلب هذا الامر غيبرنا ؟ » (3) . وابوبكر رأى في فريش « أوسط العرب داراً ونسباً » (4) أو « أوسط العرب أنساباً » (5) أو « أمة وسطاً » (6) و « عشيرة الرسول » (7) . وعمر رفض « مداورة » (8) الخلافة بين الانصار والمهاجرين : « لا يجتمع اثنان في قرن الله ولا ترى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم » (9) ، رغم صيغة الشورى المفتعلة التي رافقت بيعه (السقيفة) . وهنا نرى الثلاثة الذين مثلوا آنذاك أقوى الاتجاهات السياسية في

(1) السهمودي ، وفاة الروافح ج 1 ص 208 .

(2) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ج 2 ص 146 - 147 . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(3) ما نسب الى علي في رثه على العباس . الامامة والسياسة ج 1 ص 4 - 5 .

(4) الزهري ، المغازي النبوية ص 143 .

(5) الامامة والسياسة ج 1 ص 143 . ومع أيضاً القول المنسوب لابي بكر : « اما علمتم انا معاشر فريش اكرم العرب انساً ونبهاً حساباً ، وانا نزلنا من احيائها وموتناها منزلة الواسطة من الغلظة ، وان العرب جيت عنا كما جيت الرواحن عن القطب » . أبو القاسم الرحيمي السمناني ، روضة القضاة وطريق النجاة ج 3 ص 1473 .

(6) الطبري ج 2 ص 203 .

(7) المكان نفسه .

(8) « لا يصلح سيفان في غمد واحد » الزهري ، المغازي النبوية ص 143 .

(9) الطبري ج 3 ص 209 .

(المدينة) ، وتولوا جميعاً الخلافة في وقت لاحق ، ينطلقون من علاقة وثيقة بين قريش والسلطة في الاسلام . ولكن دائرتها عند الاتجاه الاول تضيق حتى حدود الاسرة التي ينتمي اليها النبي ، بينما تنعدها الى اطار « العشيرة » التي تأخذ مفهوم القبيلة كما « الامة » لدى الاتجاه الآخر (أبو بكر وعمر) .

ولعل هذا الموقف « الموحد » ، جاء استجابة لخطورة المرحلة التي افترضت حسب هذا المنظور قيادة قرشية . فالدولة بعد النبي افتقدت شخصية المؤسس ، حيث يؤدي غيابها عادة الى فراغ قد يتحول الى أزمة ، ان لم تقتزن المبادرة بالسرعة ، ويأخذ القرار طابعه التمثيلي المطلوب . وهذا ذلك فان أي تحرك سياسي ستكون له محاذيره المستقبلية ، رغم أنه قد يشكل حلاً ربما كان أفضل الحلول في حينه ، ولكنه يبقى مؤقتاً ينذر بالانفجار . ولم يكن موقف علي (١) - بصيغته التسليوية من بيعة السقيفة ، المتناقضة مع مقولات أصحاب الاتجاه الذي جاء منه الخليفة الاول ، سوى أولى مؤشرات تلك الازمة الموقوتة في جبهة « المهاجرين » القرشية . . « احتج عليكم بثل ما احتجتم على الانصار » (٢) . فعلي لا يطعن بشخصية الخليفة ، حيث برهن ذلك تعاطفه مع أسلافه أو على الأقل اعترافه بهم ، ولكنه طعن بالخروج على مبدئية الدعوة الى قرشية السلطة التي تصدّت للانصار . فاذا كان أصحاب الشأن قد سوغوا لانفسهم حق الخلافة عبر هذا الطرح الذي انتهى اليه ، فالاولى أن يستمع به - من المنطلق نفسه - الاكثر قرباً من النبي (٣) . وهذا لم يغيب عن أبي سفيان الذي تساءل بطريقته الخاصة ، محتجاً على انتقال « هذا الامر في أقل حي من قريش » (٤) ، حيث وجد في ذلك انقلاباً ينقصه التسوية ويتناقض مع حساباته ، التي أسرها الى العباس « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً » (٥) ، وهو يقرب تقدم النبي الظاهر الى مكة . لقد جرى تفسير المبدأ في (السقيفة) بشيء من التعميم ، أدى الى سقوط استيلاء القرابة الدنيا ، لتصبح قريش بشقي فروعها ، أسرة النبي و« عشيرته » الاولى .

وهكذا فان مؤتمر السقيفة ، شكّل انطلاقة للخلافة في غير الاتجاه الذي ارتضاه الانصار وأسرة النبي ، حيث سيؤدي ذلك الى تقارب الطرفين نحو جبهة واحدة . لقد شعر

(1) راجع موقف بني هاشم من السقيفة ، حسن الامين ، اعيان الشيعة ج ٣ ص 312

(2) الامامة والسياسة ج ١ ص 11

(3) رضوان السيد ، جدليات العلاقة بين « الجماعة » و« الوحدة » و« الشرعية » في الفكر السياسي العربي الاسلامي .

مجلة الوحدة ص 21 . عدد 2 (1980) ، محمد عسارة ، الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ص 82

(4) الطبري ج ٣ ص 202

(5) المصدر نفسه ج ٣ ص 117

« الانصار » بغربة في مكة بعد فتحها لم يشعر بها « المهاجرون » في (المدينة) ، ذلك الشعور الذي حملهم الى (السقيفة) وكانوا يحاولون علنية في الصراع المفتوح حتى ذلك الحين . وكان الاخفاق الدريع الذين منوا به ، ضربة جديدة حاسمة في تحجيم « دورهم الاسلامي » الذي خف بريقه مع وفاة النبي . ولذلك جمعهم مع علي الهزيمة المشتركة ، حيث كان إبعاده عن الخلافة ، باعثاً على التحالف معه وتشكيل جبهة منوثة ضد السلطة القرشية . وقد لا نستطيع مناقشة أكثر بعداً لدوافع (الانصار) في تأييدهم لعلي ، ما يتعدى الحرمان المشترك ، الى المراهنة عليه لتعويض ما افتقدوه في السقيفة ١١١ .

على أن هذه التجربة الاخيرة كانت درساً كافياً للانصار ، بعدم جدوى التنافس مع القرشيين حول المنصب الاول ، والافتناع بالدور الاستشاري أو « الوزاري » ، تلك الترضية المهمة التي خرجوا بها من السقيفة . ولعلمهم وجدوا في علي ، من موقع العلاقة مع النبي والارتباط الاقل بالسيادة القرشية ، السبيل الى استعادة دورهم في (المدينة) ، فتعاطفوا معه ١١٢ في الوقت نفسه الذي انحسر عنه التأييد القرشي أو كاد ١١٣ .

ولن نتعرض الا اختصاراً لامتداد مشكلة الخلافة في حياة النبي وموقفه منها . فاذا كان غير مقبول في بعض الآراء أن لا يجد لها حلاً قبل غيابه ، انطلاقاً من تأثير ذلك السلبي على الدولة الجديدة ، فان ذلك مسوّغ لدى الآخرين ، بأن النبي قد أوجد القاعدة الثابتة التي يكمن فيها الحل . ولذلك تضاربت الروايات التي يبدو أن جزئاً منها أو أكثر قد وضع في وقت متأخر ، حاملاً هذه الخلفية أو تلك ١١٤ ، مما يجعل البحث فيها انزلاقاً في دائرة عقيمة من الجدل . فتمعة من يخرج من تصارع الروايات الى دلالات ١١٥ قد يكون لها نصيبها من الموضوعية ، في معرض التماس موقف النبي ممارسة ان لم يكن بالنص الخاضع للاجتهاد ١١٦ .

واذا كان كل من الموقفين يجد تسويغه المختلف عن الآخر ، فان ما حدث في (السقيفة) ، كمبادرة أو قرار ، يتناقض معها في المبدأ ويتعارض مع أصحاب نظرية

(1) J. Vesely, Al-Ansar in Ersten Jahrhundert des Islam, Archiv orientální, 1973P 43-51 .

(2) ابن شهاب الزهري ، المغازي النبوية ص 142

(3) دقات الانصار اوبعض الانصار لا تابع الا علياً . الطبري ج 3 ص 198 . ولو كان هذا الكلام سمعته الانصار منك

ما عر ، قبل بيعتها لابي بكر ما اعتلت عليك ، الامامة والسبلة ج 1 ص 12

(4) الامامة واسبلة ج 1 ص 15 .

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 4 .

(6) ابراهيم بيضون : الثوابون ص 14-16 .

(7) ابن شهاب الزهري ، المغازي النبوية ص 111 ، البدائي ، الفرق بين الفرق ص 22 . محمد جواد مغنبة ، الشيعة والحاكمون ص 13

النص المباشر أو « الوصفي »^(١) ، ودون أن يطابق نظرية الشورى التي أخذت تنتشر منذ ارفضاض المؤتمر، محاولة « تشريع » البيعة أو « قرأنتها » ، ربما في غير ما يقصد اليه كمفهوم سياسي^(٢) . ولقد طرحت هذه النظرية ، بعد تحول الخلافة الى أمر واقع ، دون أن تعبر فكراً أو عارسة عن أي مضمون تمثيلي ، حيث وضعها ذلك في اطار انقلابي ، مع قيام ثلاثة من زعماء (المهاجرين) لم يتمتعوا آنذاك بالاجماع القرشي ، بالتصدي لطموح (الانصار) ووضع قانون عام تكرست معه قرشية الخلافة على مر ادوارها التاريخية .

ان عصبية قریش التي حالت دون خروج السلطة من (المهاجرين) أصبحت نظرية في ذاتها ، قادرة على استيعاب مجموعة الاطر المتمايزة في ذلك الوقت . ومن هذا المنظور فان التباين لم يعد مطروحاً بين « خلافة السقيفة » المدعومة بالشورى وبين « خلافة دمشق » التي قامت بالقوة . . فكلهما أصبح أمراً واقعاً قبل أن يتحصن عملياً كنظام بهذا الحق القرشي . وإذا كان هذا الاخير قد طغى عليه الطابع الاقليمي في (السقيفة) ، فانه اتخذ منذ عهد عثمان صفة « الهية »^(٣) ، استمدتها من الاسلام والنبي القرشي ، بحيث أصبح واضحاً تطويع الخلافة بالنمحاء الملكية ، وذلك تحت تأثير هذا الامتياز الالهي الذي اختصت به قریش^(٤) .

ولقد تبلور هذا الاتجاه مع شخصية معاوية بن أبي سفيان ، التي كرست نهاية الشكل القائم للشورى ، حيث اقترنت بسقوط عثمان^(٥) ، الذي سوّغ مقتله للامويين مطالبتهم بالحكم . وكان معاوية قد مهد لهذا السقوط منذ ولايته على الشام ، التي اتخذت اطاراً يتعدى الحدود السياسية للولاية في خلافة عثمان ، أحد اسبق الامويين في

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ص 22 .

(٢) « وامرهم شورى بينهم » سورة الشورى (نص مكّي قبل قيام الدولة الاسلامية) . سيد قطب ، في ظلال القرآن ج 7 ص 299 . يفسرها (الطبري) بقوله : « صلوا هذا الشيء ، شورى بين انقوم اذا تشاوروا فيه وهو فعل من المشاورة وهي المفاوضة في الكلام لظهور الحق ، أي لا يتفردون بأمر حتى يشاوروا غيرهم فيه . وتدل أن المعنى بالآية (لانصار) . كانوا اذا اذنوا أمراً قبل الاسلام وقبل تدوم النبي اجتمعوا وتشاوروا ثم عملوا عليه فجمع البيان في تفسير القرآن ج 25 ص 58-59 .

(٣) « لست خالفاً قميصاً كسأنيه الله » . سيف بن عمر الغبيّ الاسدي ، الفتنة ووقعة الجمل ص 71 . جمع وتصنيف احمد واثب حرموش .

(٤) الطبري ج 5 ص 86 . ابن الجوزي ، للتبصيح المضيء ص 94-96 . راجع ايضا الحديث المروي عن معاوية (البخاري) سمعت رسول الله يقول : « ان هذا الامر في قریش لا يعطيه أحد الا اذ الله تعالى حل وجهه ما أقفروا الفرس » ذخائر العقبين ص 12 .

(٥) أنى تكون لهم شورى وقد قتلوا عثمان ضحكوا به في الأشهر الحرم

ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ج 2 ص 631

الاسلام (١) . فكانت « اسلامية » هذا الاخير سلاحاً استخدمه معاوية في حرب صفين ، التي خاضها بصورة غير متكافئة في المواقع ضد علي ، الشخصية الاكثر التصاقاً بالعقيدة . لذلك فان « الحق الاموي » المطروح آنذاك ، كان وراثياً في الدعوة الى انتقال السلطة في البيت نفسه ، بعد أن أبطل مقتل الخليفة مفعول الشورى ، واسلامياً بتحريض الرأي العام على الثأر لاحد الرّواد المسلمين .

وكان بروز معاوية متوافقاً مع انكفاء عثمان وانحسار حلقة الخلافة المركزية ، مؤدياً ذلك الى ظهور مراكز قوى أو مناطق نفوذ ، سواء داخل العاصمة (مروان بن الحكم) أو خارجها (معاوية بن أبي سفيان) . على أن سلطة الاخير كانت أكثر تماسكاً وابتعاداً عن موجة الغضب والاستياء ، التي اجتاحت عاصمة وأقاليم الخلافة . فاصبحت الشام معقل الانتماء الذي ترنحت فواعده في الحجاز ، وتحولت الى منفى المعارضة السياسية ، التي كان من أوائل رموزها ابوذر الغفاري . وباستثناء هذا الاخير الذي ترك معاوية امره للخليفة ، بعد فشل وسائله الذكية في تطويعه (٢) ، فان هذه الولاية خطفت بريق الحجاز منذ العام الثلاثين للهجرة ، وتمحورت فيها الاحداث الرئيسية ، منلرة بشيء غير عادي .

لقد حمت خلافة عثمان في الحقيقة ، الجدل حول قرشية السلطة يعد أن أصبحت في أحد البيوتات البارزة في قريش ، بالمقارنة مع سلفيه أبي بكر وعمر . ثم جاء مقتله الثبري بعد هذا « الحق الالهي » بالدم ، عندما رفض « خلعه » الا بالموت . ولم يكن ذلك الاصرار الذي حرّضت عليه الجبهة الاموية وحلفاؤها ، الا دفاعاً عن هذه « الشرعية القرشية » التي استهدفتها حركة الامصار . فقد حملت هذه الاخيرة الى جانب دوافعها المسوغة الاخرى ، شعوراً بالحقد ضد استئثار قريش ، بل أحد فروعها المتأخرة في الاسلام . وكانت لها من المعطيات ما يفوق حركة (الانصار) في السقيفة ، التي سقطت أمام وحدة الموقف لدى (المهاجرين) في مسألة الخلافة . فهي أكثر شمولية في تعبيرها الاسلامي ، حيث عكست موقف الاقاليم - باستثناء الشام - لا سيما الانتماء العسكري بوسائله الفاعلة ، من الجبهة القرشية الحاكمة التي فقدت تماسكها القديم .

(١) كان عثمان من أوائل ما يسمى بالندعة الثانية من المسلمين ، وقد انضم معه من الامويين كل من أبي حنيفة بن عتبة بن ربيعة وعمالد بن سعيد بن العاص . ابن اسحاق ، السير والمغازي ص 140 ، 144 . صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص 335 .
(٢) الطبري ج 66 .

وكانت الكوفة سبّاقة في إثارة هذه المسألة ، حتى قبل ارتباطها بالاتحاد الذي يمثله علي ، عندما طالبت بوال غير قرشي ، فإرضاء على الخليفة استبدال سعيد بن العاص بأبي موسى الاشعري (١) . ولكن الموقف الكوفي هذا يجد فيه معاوية - وافي الشام آنذاك - سبّاقة خطيرة قد لا يقتصر بعدها على تغيير أحد الولاء للمتطرفين (٢) ، وإنما يطل «الشرعية» القرشية التي ينبغي أن تكون حسب رأيه ، خارج دائرة النقد أو المناقشة . وكانت الشام في أواخر عهد عثمان ، قد أصبحت القبضة الوحيدة المدافعة عن هذه الشرعية والمتصدية لحمولات خصومها ، إلى درجة باتت واليها الاموي مسؤولاً عن اسكات المعارضة ، ليس في الشام المعروفة بولائها المبكر ، ولكن في الولايات الاخرى . فكان يحدث أن تقوم الخلافة بإبعاد بعض الزعماء المناوئين اليها ، خاصة من العراق (٣) ، فإرضاء عليهم نوعاً من الاعتقال أو الإقامة الجبرية .

وثمة حوار جرى بين مفيين من الكوفة وبين معاوية ، كان قد أنزلهم في إحدى الكنائس (٤) ، يعكس ما ذهب اليه الولي الاموي في الدفاع عن الحق القرشي «المقدس» ، حيث كان الكوفيون أول المنتهكين له في حركة الاشترا المسلحة . فقد نُسب اليه أي معاوية قوله : « ان قريشاً لو لم تكن عدتم اذلة كما كنتم ، ان ائتمتكم لكم اليوم جنة » (٥) . فهي حسب ما روى اليه درع العرب وعزتهم ، كونها حصّتهم بالاسلام وشرفتهم به ، مستعملة من ذلك صدارتها ومن ثم شرعيتها السلطوية بين العرب والمسلمين ، وهي «آتية من الله الذي هيأها لذلك منذ الجاهلية والاسلام » (٦) . على أن معاوية تخونه موضوعية الطرح الذي بدأ متمحوراً حول الامتياز الاسلامي لعشيرته ، متفوقة فيه قرشيته على اسلاميته ، عنصراً يرفض أحد الكوفيين مقولة التفوق القرشي «والمنعة» العربية في الجاهلية ، كما يرفض «جنتها» التي انتشرت في عهد عثمان : ان «الجنة اذا اخترقت خلص الينا » . فلا يتردد معاوية انذاك في الافصاح أكثر مباشرة عن موقفه حسب الرواية نفسها ، بأنها ارادة الله في اختيار قريش لخبر خلقه وأصحابه حيث «بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم » (٧) ، ولا يصلح ذلك الا عليهم ، فكان

(1) السموي : مروج ج 2 ص 337

(2) المصدر نفسه ج 2 ص 338

(3) الطبري ج 3 ص 86-92

(4) كنية مريم . سيف بن عمر ، الفتنة ووقعة الجمل ص 37 . الصيري ج 3 ص 86

(5) سيف بن عمر ، الفتنة ووقعة الجمل ص 37 .

(6) رضوان السيد ، جدليات العلاقة بين الجماعة والوحدة والشرعية . مجلة الوحدة ص 18 عدد 2 (1980)

(7) ولجج في هذا المعنى بيت الشاعر الأعطل :

ولقد جعل الله الحلاله منهم لا يبيض لا عاري الخوان ولا جندب

أبو تمام ، عتاق جرير والأعطل ص 106

الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله ، افتراه لا يحوطهم وهم على دينه » (1) .

لقد طرح معاوية أمام المعارضة الكوفية الخلافة في اطار تنظير خاص من موقعه الاموي ، الذي ضاقت به آنذاك حدود الولاية الشامية (33 هـ) . فكان أول القائلين بالحق الاولي لقريش ، أو ما عبر عنه بالإرادة الالهية (2) ، ومتقدماً على عثمان في مقولته المعروفة عشية اغتياله . ولعل معاوية يجد في قرشيته ما قد ينافس هذا الاخير ، باعتباره وريث الزعامة في البيت الاموي ، التي كانت لأبي سفيان (شيخ قريش) في مكة حتى سقوطها وفي الشام حتى وفاة أخيه يزيد . ولم يكن « قميص » الخليفة المقتول اللبي ارتفع في دمشق ، الا تمسكاً بهذا « الحق » ودفاعاً عنه . . ذلك الحق الذي سيؤول من المنظور نفسه الى يزيد ، استجابة للإرادة الالهية التي اختارت « أصلح » الناس في العرب لهذا الامر .

ولم يعد معاوية وسيلة دون تسخيرها ، في التأكيد على نظريته في السيادة القرشية التي استمد منها شرعيته السلطوية . فما تضمنه الشعر السياسي آنذاك لم يكن من بنات أفكار الشعراء المادحين ، بقدر ما كان انعكاساً للنظرية الاموية في السلطة ، وتسويغها في الاسلام كما في « الجاهلية » . وكما كانت لمعاوية اداته الاعلامية في الشاعر عبد الله بن همام السلولي في الدفاع عن الحق الاموي « المقدس » (3) ، كانت لعبد الملك كذلك اداته الاكثر انتشاراً في الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات ، الذي تقلّب في ولائه بين الشام والحجاز ، قبل أن يصبح شاعر البلاط المرواني في عهد هذا الخليفة . ومن البديهي أن الشعر كوسيلة اعلامية فاعلة في ذلك الوقت ، يأخذ نصيبه من الالتزام والتوجيه ، لا سيما في الظروف غير العادية ، مع الفارق في المعطيات بين عصر وآخر . فنجد شاعر معاوية ويزيد (السلولي) ، متحاملاً على الشورى التي سقطت مع عثمان على حد قوله ، حيث تناقض في المبدأ مع الحق الاولي التوارث . ولعلها مغارقة أن تتحول الشورى منذ ذلك الحين الى قضية محورية لدى المعارضة على اختلاف مفاهيمها ، بعد أن كانت سلاح السلطة حتى خلافة عثمان . فكانت نقطة الضعف التي استغلها خصوم النظام الاموي ، وكادت تكون

(1) سيف بن عمر : الفتنة ووقعة الجمل ص 38

(2) المكان نفسه

(3) عيشوا واتمم من الدنيا على حذر واستصلحوا جند أصل الشام للهم

ولا كن سالك الشورى مثورة الا بطعن . وغرب صاحب عدم

ملفات شعراء لابن سلام ج 2 ص 117-118

وفي مباحة يزيد يقول السلولي :

أصبحت راضي أصل الأرض كلهم فأتت نزعهم والله برعا

العقد الفريد لابن عبد ربه ج 3 ص 231

برنامجاً مشتركاً للحركات الثورية التي استهدفت الاطاحة به .

أما شاعر عبد الملك (الرقيات) ، فقد عاد الى مقولة معاوية السالفة « لا يصلح ذلك الا عليهم »⁽¹⁾ ، ليصيفها بأسلوب تقريرى ، باعطاء الامويين حق الزعامة بخلفتها الجاهلية⁽²⁾ ، و « تاج » الملك في الاسلام⁽³⁾ . ومن الواضح أن ما عبر عنه هذا الشاعر ، لا يختلف عن سلفه في رفض الشورى المتناقضة مع « الملكية » الاموية التي روج لها في مداحه . وهكذا فان شرعية الخلافة لا تلبث أن تصبح بدورها أمر واقعاً ، لا يقتصر تنظيرها على الامويين كحق الهى ، حيث وجدت منظرين أشد تأثيراً في أوساط الفقهاء ، الذين اعتبروها مرادفة للجماعة ، التي استعادت « وحدتها » بعد تنازل الحسن . فاصبحت الثورة من هذا المنظور مرادفة للفتنة كما أصبح التمرد خروجاً على هذه الجماعة⁽⁴⁾ .

وهكذا فان سيادة قريش التي صنعتها « المدرسة المكية »⁽⁵⁾ ، كأحد المحاور المركزية في الحجاز ، لم يطرأ عليها تغيير ما في (المدينة) رغم سقوط رموزها القديمة وضغط (الانصار) في الاتجاه المعاكس أول الامر . فقد اصبحت هذه السيادة اسلامية بعد أن كانت « إيلافية » من قبل ، دون ثمة تعديل في الموازين القائمة ، كما انتقل هذا الشعور مع قريش وراء حدود الحجاز ، فكانت لها صدارة الفتوح والولايات المستجدة . ولكن هذا الانتشار الذي بلغ مداه في عهد الخليفة الراشدي الثالث ، سيعقبه إنكفاء ومعه اختلال هذه المعادلة تحت ضغط معادلات جديدة وبروز تيار قبلي غير حجازي على حساب قريش .

وكانت خلافة علي التي اعتمدت بشكل مبدئي على أقلية من (الانصار) وأكثرية من قبائل العراق ، ضربة قاصمة للنفوذ القرشي ، الذي فقد محوريته الاسلامية منذ ذلك الحين . كما أسهمت الخلافة الاموية ، رغم الآمال المعقودة عليها من جانب السواد

(1) سيف بن عمر : الفتنة ووقعة الجمل ص 38 . الطبري ج 5 ص 86

(2) وما تقوموا من بني أمية الا (م) انهم يطمعون ان عضوا

وانهم ممدن للملك فلا تصلح الا عليهم العرب

فيوان عبد الله بن قيس الرقيات ص 64

راجع أيضاً شوقي ضيف الشعر والنثر في المدينة ومكة ص 387

(3) خليفة الله فيوق منبره جنت بذلك الانلام والكتب

يحتل التاج فوق مفرقه على جبين كانه الذهب

ديوان الرقيات ص 64 ، غيبة النعمان الرئيس ، عبد الملك بن مروان ص 314

(4) الماوردي ، الاحكام والسلطانية ص 10 ، 64 ، 144 . للطبعة المحمدية القاهرة . رضوان السيد ، جدليات ص 22-

20

LAMMENS, La méeque p. 177 (5)

الاعظم من قريش ، في تقليص دور هذه الاخيرة بارجاعه الى النطاق الحجازي ، حيث لم يعد هذا الاقليم قلب الدولة بقدر ما أصبح طرفها الهامشي في الحياة السياسية .

واذا كانت زعامة قريش الحجازية ، قد خرجت سائلة من (السقيفة) بعد اخفاق (الانصار) في مواجهة غير متكافئة مع (المهاجرين) ، فان بضعة عوامل كانت وراء نجاح هؤلاء ، مندرجة من الخبرة الادارية والسياسية ، فضلاً عن التجارية ، في وقت كان المركز المالي لمكة يضفي عليها أهمية خاصة بالنسبة للدولة (المدينة) ، كون التجارة عصب الحياة الاقتصادية في الحجاز حتى ذلك الحين . كذلك فان أحد أبرز عوامل هذا التفوق ، ارتبط بكفاءة (المهاجرين) في القيام بدور الحكم أو الوسيط ، شأنهم في التجارة ، بين القبائل العربية دون خشية أي طرف منها في السيادة عليه ، انطلاقاً من عصبية قريش الإضعف ، بالمقارنة مع غيرها ، خاصة (الانصار) . ومن البديهي أن انفتاح مكة السابق على المراكز الحضارية ، التي أقامت معها علاقات مباشرة ، قد أسهم في ترويض هذه العصبية وتآقلمها مع المناخ الاجتماعي العام في المدينة ، بما في ذلك الصراعات الداخلية ، التي غلبت عليها « الاحلاف » دون « الايام » القبلية ، مع الفارق في الخلفية بين هذه وتلك .

الدولة والبادية الحجازية

« لعل فرضية الدافع الاقتصادي ، بتأثيره الجزئي أو العام على حركة القبائل ، متداخلة مع فرضية أشد وضوحاً ، تمثل مباشرة الحلقة السياسية لثورة القبائل ، التي طغت فيها البداوة المتجذرة على سطحية التجربة في الاسلام »

ثمة حدث بارز في مستهل خلافة أبي بكر ، من الصعوبة فصله عن حركة الفتح ، وهو حرب القبائل في الداخل أو ما سمي بالردة ، التي كانت بدون شك مقدمة الانتشار العربي الاسلامي الواسع . وإذا كان مصطلحاً عدم استخدام تعبير « الفتح » في اطار العمليات العسكرية التي جرت في شبه الجزيرة ، باستثناء مكة التي كان لسقوطها أهمية تاريخية ، فإن الانتصار على القبائل المرتدة ، ومنها من كانت لديه قوة المنافسة الجدية مع دولة (المدينة) ، يمثل بداية طليعية لحركة الفتح التي بدأت من الداخل قبل انطلاقها الخارجية وراء الحدود

وكانت الردة في بعض فصولها قد ظهرت في أواخر أيام النبي « ، مسهمة بشكل مباشر في حل أزمة الحكم التي كانت تنسج خيوطها آنذاك في (المدينة) ، وذلك بدفعها الاتهامات السياسية الى تجميد تناقضاتها والتكتل حول الخليفة في وجه الخطر المشترك . فهناك إيجابيتان من هذا المنظور ، تنعكسان مع هذه الحركة على عاصمة الخلافة : الأولى سياسية ، أدت الى تسهيل أزمة الحكم في هذه الاخيرة ، وتراجع التحرك المفترض للمعارضة . والثانية عسكرية كتجربة رائدة في حرب واسعة النطاق ومتجددة الاساليب ، على نحو غير مألوف في الحروب الاقليمية ، المحدودة الامكانيات والنتائج .

وليس من السهولة الاحاطة بحجم القوة المقاتلة التي كانت في متناول الخلافة ، وإذا كانت متكافئة مع خطورة المهمة وتوزع جبهات القتال . ولكن من المرجح أن (المدينة) لم تدفع بالجزء الاكبر من المسلمين الاوائل (الانصار والمهاجرون) ، حيث اقتضت حسب

(1) الطبري ج 3 ص 213- 220

رواية الزهري على أقل من ثلاثة آلاف مقاتل^(١) ، وذلك تحسباً لانفجار داخلي في ظل أوضاع لا تزال غير مستقرة^(٢) . وكانت هذه القوة نواة الجيش الذي شاركت فيه القبائل الحجازية بنسب متفاوتة وفي طلبتها قريش غير المهاجرة وثقيف (ربما في حدود ألفين لكل منها) ، وثلاثة آلاف لمجموع القبائل المقيمة بين مكة والمدينة^(٣) . وهذا الرقم تقريبي وغير مستقر على الأرجح ، حيث طرأ عليه ارتفاع بعد اندلاع الحرب وتعدد الجبهات . وكان الأسلوب القتالي الذي استخدم في ملاحقة القبائل المرتدة ، هو نفسه المتبع في معارك الفتوح في وقت لاحق ، بعد أن أصبح تقليداً عسكرياً خاصاً لدى العرب المسلمين .

وكانت «ذي القصة» وهي هضبة بالقرب من (المدينة)^(٤) ، مركز العمليات الحربية ، بعد إخضاع وُصف بأنه « أول الفتح »^(٥) . ويبدو أن للتعبير دلالة النصر ، الذي جاءت بواكيره الأولى ضد القبائل المتاخمة لعاصمة الخلافة (عيس ، ذبيان وسليم ...)^(٦) ، التي كان محور تمردها هذه المنطقة ، حيث اتخذ الفتح ، كمفهوم عسكري بعداً آخر ، يتعدى خضوع هذا الموقع غير المحصن . ومن « ذي القصة » خرج خالد بن الوليد القائد العام لجيش الخلافة ، بألويته الأحدي عشر^(٧)، مستهدفاً مراكز التمرد الأكثر خطورة ، قبل توزيع قواته في معارك جانبية على أطراف شبه الجزيرة (اليمن ، حضرموت ، البحرين) . وفي أقل من عام ، كانت لديه القدرة ، من خلال قيادة موحدة وجبهة متجانسة ، على تحقيق مهمته الصعبة ، بالقضاء على هذه الحركة الخطيرة وتصفية جيوب المتمردين .

ولقد اختلف المؤرخون في تقويم هذه الحركة وتفسير دوافعها الرئيسية . . فثمة من رأى فيها ابعداً داخلية تتمحور حول علاقة القبائل بالمدينة ، كأن تكون ثورة على الزكاة أو على « ملكية » قريش ، حيث لم تألف هذا النمط من الالتزام المركزي بالسلطة ، أو تكون احتجاجاً على قرار (السقيفة) الذي لم تشارك فيه ، ولكن فرض عليها ، كما قرضت العقيدة قبل أن يحنثر لديها الايمان والافتناع ، فظلت هامشية التأثير في مواقفها وحياتها الاجتماعية . وثمة من جعل لهذه الحركة ، امتداداً خارجياً ، حيث القوى السياسية

(1) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 81

(2) المكان نفسه . CHOUFANI, AL- RIDDAT, P. 48- 70

(3) الطبري ج ٣ ص 225 ، راجع بحث ، خالد بن الوليد لطف الهاشمي . مجلة الرسالة ، عدد ، 66 ، ص 1654 - (1934)

(4) خليفة بن خياط ج ١ ص 80

(5) الطبري ج 3 ص 224

(6) خليفة بن خياط ج ١ ص 82

(7) الطبري ج 3 ص 225

المتضررة من قيام دولة جديدة في المنطقة ، اسهمت في تحريض هذه القبائل بشكل أو بآخر⁽¹⁾ .

على أن تواتر الدوافع المحركة لثورة القبائل ، لا يتجاوز تسؤلات أخرى قد يكون لها من الموضوعية نصيب . ولعل التوقيت الذي بدا وكأنه غير عفوي في مرحلة انتقال ليست عادية ، لم يفرض حتمية جبهوية أو قضية مشتركة للقبائل المتمردة . فهل تأثرت هذه الحركة بخطوط القوافل ، التي يفترض أنها خضعت للتعديل مع انتقال النشاط التجاري ومركزية المواصلات الى العاصمة ؟ . وقد لا يتنافى البعد الجغرافي للحركة مع هذا الاتجاه ، حيث انفجرت في مراكز تجارية حاسمة ، كاليمامة (حنيفة) والبحرين (بكر) ، بما لها من أهمية في تجارة الخليج الفارسي . وربما كانت الأولى التي وصفت بأنها أكثر الوديان « نخيلاً وثمراً من سائر الحجاز »⁽²⁾ ، معنية بالمتغيرات التي استهدفت « أيلافها » مع قريش ، حيث كانت أحد المصادر لتموين هذه الأخيرة بالحبوب⁽³⁾ . ويبدو أن تحكم (المدينة) بأسعار هذه السلعة ، بعد تحول المركز التجاري إليها ، وما رافقه من تكاليف اضافية نتيجة لتعديل خط القوافل من مكة الى العاصمة ، قد أوجد تحفظاً نحو ادارة هذه الأخيرة التي قيدت ارباح التجار وهذبت كثيراً من وسائلهم القرشية القديمة⁽⁴⁾ . . .

ولعل فرضية الدافع الاقتصادي بتأثيره الجزئي أو العام ، على حركة القبائل ، متداخلة مع فرضية أشد وضوحاً ، تمس مباشرة الخلفية السياسية لثورة القبائل ، التي طغت فيها البداوة المتجذرة على سطحية التجربة في الاسلام . ولذلك بدت خارج معركة (السقيفة) وصراع التكتلات في (المدينة) ، الا ما يصيب مصالحها التقليدية ويلحق بها الضرر . وإذا كان لها من موقف في هذا السبيل ، فهو ضد الاسلام كمضمون جماعي وحضري ، متناقض في المبدأ مع فردية القبائل وبدواتها المتغلبة . وكان هذا التصادم قد ظهر بشكل محدود في أعقاب الهجرة⁽⁵⁾ ، التي كانت في ذاتها نمطاً متطوراً من الاستقرار ، غير مألوف لدى المنظومة البدوية السائدة في شبه الجزيرة . فالردة من هذا المنظور ، تعني الثورة على (المدينة) كنظام غير متعايش مع نمط الارتمال والغزو وشئ « القيم البدوية » ،

(1) عبد الحميد بنخيت : عصر الراشدين ص 70 وما بعدها .

(2) ابن جوقل : صورة الارض ص 38 .

(3) جواد علي : المفصل ج 7 ص 38 .

(4) LAMMENS, La Mécanique P 245

(5) روم لانتو : الاسلام والعرب ص 34

التي أصبحت تمرداً على النظام وخروجاً على مبدأ الجماعة، وهما من دعائم الدولة الاساسية .

ومن ناحية أخرى ، فإن الانتقال السريع في ولاء الجزء الأكبر من القبائل بعيد سقوط مكة ، أحدث لديها شيئاً من ازدواجية الانتماء . فقد شعر رؤساؤها باضطراب سيادتهم على جماعاتهم ، عندما تحولوا الى جبهة للصدقات منها ، كوسطاء مع الدولة أو موظفين لديها تستدعيهم عند الحاجة ، بعد أن أصبحت محور هذه السيادة . وهذا ما أصاب الزعامة القبلية بضرية شديدة ، نتيجة الافراغ من رموزها الأكثر أهمية ، وذلك بتدجين رؤساء القبائل وقطع مورد العيش التقليدي ، سواء الغزو بالنسبة للفتات الطاعنة ، أو ضرائب المرور بالنسبة للفتات النازلة على طرق القوافل ، حيث ألغيت بدورها مع إلغاء « الأيلاف » وانتقال هذا الحق الى (المدينة) .

وإذا كانت هذه الحركة في جانب سياسي منها ، مدفوعة بهذا الاعتبار كردة فعل على تعجيم البداوة في شبه الجزيرة ، فإنها في جانب سياسي آخر ، لم تكن بعيدة عن تطورات (المدينة) بعد غياب النبي ، التي جاءت بأبي بكر الى الخلافة . فتمت من استئثنت هذه الأخيرة من موجة الردة ومنحته البراءة بعد مقتله ، وهو زعيم بني حنظلة التميمي مالك بن نويرة . فقد لا يكون تحركه الغامض ، منفصلاً عن موقف خاص من هذه التطورات (3) ، عوقب عليه بالقتل ، ربما وجدنا تفسيراً له في القرار السريع الذي انتهى الى هذه النتيجة ، كسابقة متميزة في حرب الردة ، حيث سقط خارج نطاق المجابهة المسلحة التي أودت بالآخرين (4) .

وهكذا فإن البداوة كنظام اجتماعي واقتصادي ، لم تعاطف في العمق مع الاسلام الذي توجه منذ بداياته الى المجتمعات الحضرية في الحجاز ، متفادياً الاتصال الجدي بالقبائل البدوية ، المرتبطة لمواردها المعيشية غير المستقرة . فقد كانت الكلمة الفاعلة آنذاك للمدن (الجماعة) التي مثلت التيار المتصاعد في شبه الجزيرة ، المتصادم حكماً مع تيار البداوة (الفردية) بقبائلها المتبعثرة . ولم يكن يجمع بينها أكثر من تعايش مرحلي ، فرضته المصالح المشتركة للاتجاهين حيث تضارب كلاهما في الواقع مع الآخر ، تحت تأثير تطور الحركة التاريخية ، التي جعلت من الاتجاه الحضري ، على قلته العددية في مركز التفوق على الاتجاه الآخر ، بحيث أصبح ذلك أكثر بلورة إبان السيادة القرشية في مكة والموقف غير الوثي الذي تحكّم في علاقاتها الضمنية مع البدو (5) .

(1) الطبري ج 3 ص 243 .

(2) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 149 .

(3) خليفة بن خياط ج 1 ص 84 . الطبري ج 1 ص 243 .

(4) Lammens, la République Marchande de la Mecque: p. 53 (4)

ولقد برز التناقض واضحاً بين دولة (المدينة) والقبائل المتاخمة لها ، بعد تذبذب الموقف البدوي من الاسلام . وكان الاختيار محسوماً لدى النبي ، الذي رفض مهادة هذه القبائل المتقلبة حيناً والمتأمرة حيناً آخر ، الا في نطاق الدولة . على أن المجابهة مع البداوة كانت في الوقت نفسه جزءاً من الصراع المحوري ضد القوى الوثنية واليهودية المناهضة للدولة . فقد أدت هزيمة هذه القوى الى تقلص النظام القبلي وانحسار دائرة الاختيارات المستقبلية أمامه ، بما في ذلك الحياذ ، بعد انتصار تيار على آخر . ولكن العلاقة مع النظام الجديد لم تتعد الولاء لشخصية النبي ، انطلاقاً من مفهوم الارتباط المعنوي بشيخ القبيلة أو سيدها المطاع ، في ظل اطار أكثر مركزية .

وبسقوط مكة ، آخر خط دفاعي للنظام القبلي ، بلغت المجابهة مع الاسلام ذروتها في (حنين) ، كنتيجة مباشرة لفتح هذه الاخيرة (١) . ولم تكن هذه موقعة عادية على هامش الفتح ، ولكنها كانت معركة البداوة بأقوى قبائلها (هوازن ، ثقيف) : [لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذا اعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله مكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين] (٢) . ومن هنا كانت مؤشراً الى ركود المعارضة البدوية ضد النبي واعترافها الشكلي بدولته ، مقتصرة في تعاملها مع هذه الاخيرة على الجانب السياسي من الاسلام ، بينما المحتوي الديني ظل مجهولاً أو كاد ومرعناً لعلاقة ظرفية مع النبي مؤسس الدولة ومحوها ، انطلاقاً من هذه الذهنية القبلية .

وكانت وفاة النبي قبل تطور هذه العلاقة من المهادنة الى الاحتواء ، تخفي وراءها أزمة أخرى موقونة غير السقيفة ، انفجرت فيها عرف بحركة الردة بعد شهور قليلة من هذه الاخيرة . واذا كانت أزمة (الانصار) في ذلك الوقت محصورة في تحقيق مشاركة متكافئة أو نسبية مع (المهاجرين) في السلطة ، فإن أزمة القبائل كانت أوسع دائرة في ثورتها على مركزية (المدينة) ، المرتبطة معها بحلف مؤقت عبر شخصية النبي . فقد كشفت هذه الحركة سطحية الولاء القبلي للدولة واضطراب وحدتها السياسية ، التي كان على الخليفة الاول أن يستعيد لها قوة صلبة . وبالفعل فإن المجابهة الحقيقية مع البداوة انتقلت الى أبي بكر ، فكانت أولى مهامه الخطيرة ، حيث لم يكن أعترضها عليه الا رفضاً للاستمرارية في النظام الجديد ، المتعارضة مع التارجح القبلي والنزعة الاستقلالية وما يصب في البعد السيامي الرئيسي لحركة الردة . فكان ما قاله (الخطيئة) في خلافة أبي

(1) بدأت هذه المعركة بعد نصف شهر من فتح مكة . تاريخ الطبري ج 3 ص 125 .

(2) المكان نفسه ج 3 ص 125 .

(3) سورة التوبة الآية رقم 24 ، 25 .

بكر ، يعبر عن مضمون العلاقة بين البداوة المتزعزعة والدولة الصاعدة المستمرة :
أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيسورها بكرة إذا مات بعده فتلك لعمرو الله قاصمة الظهر
أبوا غير ضرب يجمهم الهام وسطه وطعن كأفواه المزقة الحمر
فقسوموا ولا تعطوا اللثام مقاده وقوموا وإن كان القيام على الجمر⁽¹⁾

وقد يحمل قول الحطيفة ، على عفوية أو قصد ، صوت البداوة المتحركة بأقوى قبائلها في شبه الجزيرة العربية . فكان وضوح السيادة القرشية الجديدة عشية وفاة النبي وانتقال الارث العظيم الى خليفته أبي بكر ، أحد حوافز هذا التمرد الذي استهدف الانتفاء القرشي في الخليفة ، قبل انتمائه الاسلامي . ذلك أن هذه القبائل التي « تألفت » من قبل مع مكة في نطاق مصالح متبادلة ، دون ثمة هيمنة سياسية مباشرة ، رفضت تحول هذه العلاقة الى تبعية الزامية مصحوبة بالزكاة ، واجدة فيها اتاوة قرشية أكثر منها ضريبة يقررها الولاء للدولة (2) .

ومن هنا فإن خطورة هذه الحركة ، كونها تمثل في المحتوى السياسي الغالب ، أحد أهم فصول السقيفة التي انعطفت بالخلافة نحو تحديات مصرية ، كانت في طبيعتها حركة الردة . عل أن كفاءة الخليفة القوي وتفوق الاداة العسكرية ، الخارجة من تجربة فذة مع النبي ، فضلاً عن صلابه الجبهة السياسية في (المدينة) . كل ذلك تضافراً معاً في التصدي لهذه المحنة وتذليل أول محاولة تستهدف وحدة الدولة في نطاق حرب مسلحة . كما تراجمت البداوة كتيار « متغلب » في شبه الجزيرة ، لتصبح أكثر التزاماً بالواقع الذي تمردت عليه ، عندما أخذ بريق المدن المزدهرة يجتذب تلك القبائل وتشتأثر بحماستها الفتوح ، حتى غدت مادتها الفاعلة منذ بدايات العقد الثاني للهجرة .

(1) ديوان الحطيفة ، ص 71-72 .

(2) ظهرت بوادر التسلل من الزكاة في أواخر أيام النبي . وقد ورد في تاريخ الطبري أن وفوداً من العرب « يقرون بالصلاة ويؤمنون الزكاة » جاءت اليه « فلم يقبل ذلك منهم » ج 3 ص 221 .

الحجاز والفتوح

«وأخاف أن قسمته - السواد -

أن تفاسدوا بينكم في المياه»

عمر بن الخطاب

(أبو عبيد ، الأموال)

كانت الدولة بعيد وفاة النبي في مطلع العام الحادي عشر للهجرة ، قد حققت فيها سمي بوحدة الجماعة⁽¹⁾ في شبه الجزيرة العربية ، التي تَكَرَّست عملياً بفتح مكة وموقعة حنين . فقد سقطت مع الأولى ، رموز الوثنية ومنظومة «الأيلاف» ، وانكفأ مع الثانية تيار البداوة ، محدثة فيه هزة عميقة . ولكن وحدة الدولة ، لم تتحقق إلا في عهد أبي بكر ، بعد القضاء على حركة الردة وربط القبائل بالدولة في إطار متماسك من المركزية السياسية . ولا ريب أن وجود شخصية كهذه على رأس السلطة بعد النبي ، شديدة التأثير به والالتزام بالاسلام ، كان وراء انطباع هذا العهد بسمه خاصة ، كاستمرار لسلفه ومتصل به . فما لم يقم النبي المؤسس باستكمالها ، عمد أبو بكر الى تنفيذه ، كئاثب له (خليفة رسول الله) ، بدون اعطاء نفسه حق التشريع أو المبادرة ، بما يتجاوز معالم السياسة التي اختطها النبي⁽²⁾ : «وانما أنا متبع ولست مبتدع»⁽³⁾ . ومن البديهي أن مهمة كذلك التي قام بها أبو بكر ، في مرحلة عبور خطيرة من عصر الى آخر أو من النبوة الى الخلافة ، لم تكن مهمة متواضعة ، وانما كانت الخطوة الأولى الانتقالية في طريق الدولة الموحدة كما توسم النبي ملامحها المستقبلية .

وكانت حملة تبوك ، مقدمة جذرية لحركة الفتوح التي وضعت الدولة الصاعدة على مفترق جديد . فقد جاء توقيتها بعد عام من سقوط مكة (9هـ) ، ومسبوقة برسائل النبي الى الملوك والأمراء بمن فيهم رؤساء القبائل على أطراف شبه

(1) رضوان السيد ، من الشعوب والقبائل الى الأمة . مجلة الوحدة ص 58 .

(2) ابراهيم بيضون ، الثغابون ص 27 .

(3) الطبري ج 3 ص 211 .

الجزيرة (١) . وإذا تجاوزنا المواقف المتفاوتة ازاء هذه الدعوة ، فإن اقتراحها بعمل عسكري وبقيادة النبي نفسه ، يضع مشروع الدولة غير الحجازية في اطاره التنفيذي ، متكاملة فيه الدعوة مع الحرب ، دون أن يكون ثمة تلازم بالضرورة بين الوسيلة والهدف . وجاءت محصلة هذه الحملة التي غلب عليها الطابع التفاوضي مع عرب الشام (عاملة ، لحم ، جذام) (٢) ، مجموعة من معاهدات الجوار (٣) . ولعل أهمية المنطقة الاقتصادية ، حيث مراكز هذه القبائل ، التي تصل الحجاز بأسواق الشام ، كانت من دوافع حملة النبي الملحة التي كانت آخر غزواته (٤) ، محققاً خلالها أول حضور معنوي للإسلام ، وراء حدود شبه الجزيرة ، وفي منطقة حيوية بالنسبة لولته الناشئة . ولقد عبرت هذه المحاولة بما حققت من نتائج ، عن مضمون السياسة الخارجية للنبي ، حيث كانت هذه المنطقة في اولويات اهتمامه ، مؤكداً ذلك في حملة اسامة بن زيد ، التي نفذها بشيء من الاصرار في اخريات أيامه ، وكانت لا تزال على أميال قليلة من المدينة (الجرف) (٥) في طريقها الى الشام عندما توفي النبي .

وكان أبو بكر ملتزماً بكل ما خطط له النبي بما في ذلك حملة اسامة ، التي تابع تنفيذها رغم الاحداث العاصفة آنذاك في (المدينة) وخارجها ، وتردد قائدها في استكمال المهمة (٦) ، ربما تفادياً للابتعاد عن عاصمة الخلافة دون أن يكون له دور في مثل تلك الظروف . ولكن حملة اسامة يكتنفها الغموض بعد ذلك ، حيث طغت عليها حروب الردة التي استأثرت بكل اهتمام الدولة . ويبدو أنها لم تحقق ما يذكر من النتائج العسكرية ، واقتصرت اخبارها في روايات المؤرخين على المسافة الزمنية التي امتدت بين الخروج من (المدينة) والعودة اليها ، والتي تراوحت بين الأربعين والسبعين يوماً (٧) . على أن هذه الحملة من منظور آخر ، تؤكد حتمية الارتباط بالشام ، كأحد الخيارات الضرورية لخروج الدولة من العزلة . وقد جاء تنفيذها ما يتعدى الالتزام الادبي بقرار سابق ، الى تبني خطة توسعية في الاتجاه المرسوم ، تفرضها تلك المرحلة بشيء من الالحاح .

(1) البعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 77-78 .

(2) البلاذري ، فتوح ص 71 .

(3) ثيوك ، ايلة ، افروج ، مفتا ، جرباء ، دومة . المكان نفسه . تاريخ الطبري ج 3 ص 146 .

(4) ابن حزم : جوامع السيرة ص 249 .

(5) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 78 .

(6) المصدر نفسه ج 1 ص 78-79 .

(7) المصدر نفسه ج 1 ص 79 . الطبري ج 3 ص 221 .

وهكذا جاءت دعوة أبي بكر بعيد اخاد تمرّد القبائل « أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز » حسب قول البلاذري للتوجه الى الشام ،^(١) ، و « يستفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم »^(٢) ، كما يضيف المؤرخ نفسه . ويتوجه بيان الخليفة كما يتضح لنا الى المسلمين الجند ، (لا سيما قریش غير المهاجرة وحلفائهما من ثقيف فضلاً عن اليمن) ، مستحثاً إياهم على الجهاد ، الذي لم يعرفوا من مضمونه الاسلامي الا القليل في ذلك الوقت . ولذلك جاء الترغيب « في غنائم الروم » ، ملاصقاً غرائز البدو خاصة ، الذين اعتادوا هذا النمط الحياتي والفقه .

ولكن دعوة الخليفة تحملنا على التساؤل ، عن حجم القوة المسلحة التي شكلها هؤلاء في الفتح الاول ومدى تأثيرهم في توجيه مسارها العسكري خاصة في معارك الشام؟ ولعلنا نجد صعوبة في تحديد الاجابة على هذا السؤال ، لخلو الروايات التاريخية من أرقام دقيقة أو نسبية ، حول الاطراف القبلية المشاركة فيها ، وذلك لان جيش الخلافة الذي تم تشكيل نواته منذ هجرة النبي ، لم يكن متصلاً عن تطور الاحداث في شبه الجزيرة ، سواء تمثّلت بالسقيفة أو الردّة . فهذا الجيش ، هو في صميم دائرة الصراع بين التيارات السياسية آنذاك ، ومرتبطة عضوياً ، بقيادته ان لم يكن بأكثرته بالفريق الذي آلت اليه السلطة في (المدينة) .

لقد كانت الاداة العسكرية الفاعلة في الدولة ، هي قوة (المدينة) من قدامى المسلمين ، بتجربتها القتالية الفذة التي صهرتها حروب سرايا والغزوات فضلاً عن الردّة ، حيث تألفت مجموعة من القيادات البارزة ، خاصة من المهاجرين^(٣) . فهذه القوة كانت عصب الجيش الذي أعاد تشكيله الخليفة الاول ، مدعماً بعناصر أخرى رديقة من قبائل الحجاز ونجد فضلاً عن الطائف واليمن . وكانت نواته المتحركة الى جهة الشام « ثلاثة الوية » عقدت لثلاثة من القادة القرشيين^(٤) . وربما تذبذبت أرقام الجند في « اللواء » بين ظروف وأخرى ، حيث لم يكن لها مدلول عسكري دقيق في روايات المؤرخين الذي استخدموا هذه الكلمة . فقد تراوح عدد الجند فيه بين ارتقاع

(١) البلاذري : فتوح ص ١١٥ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، عكرمة بن أبي جهل ، شرحبيل بن حسنة (حليف بني جهم) . البلاذري ، فتوح ص ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٤) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية . شرحبيل بن حسنة ، عمرو بن العاص السهمي ، فتوح البلدان ص ١١٥ .

وانخفاض ، تبعاً لطبيعة المعركة وحجمها ، أو استجابة المتطوعين في « الدواء » الى آخر ذلك .

وهكذا فان التشكيلة العسكرية الاولى لجيش الخلافة ، غلبت عليها عناصر « مدنية » من قدامى المسلمين ، مع غلبة المهاجرين القيادية بصورة خاصة . فدعوة الخليفة التميمية الأنفة ، لم تكن موجهة الى هؤلاء ، وانما للمسلمين الجدد الذين التحقوا بالجيش المركزي كقوة مساندة . ذلك أن حادثة ارتباطهم بالدولة ومواقفهم منها بعيد وفاة النبي ، تحول دون اتخاذ دور أكثر تقدماً وتأثيراً في الفتوح الاولى . ولأن الخلافة لم تكن قد وثقت بعد بهم ، حيث لا زال ولاؤهم سطحيًا ، فقد لجأت الى ابعادهم عن شبه الجزيرة ، بدون أن تكون مرغمة في الوقت نفسه على افراغ (المدينة) من جميع قواتها ، التي كان لها دور أمني في الداخل بالإضافة الى دورها العسكري على جبهات القتال الشامية والعراقية .

لقد كانت الصدارة اذن للمهاجرين في حركة الفتوح ، ليس فقط في القيادات القرشية البارزة - خالد بن الوليد المخزومي (الشام والعراق) ، يزيد بن أبي سفيان الاموي (الشام) ، عمرو بن العاص السهمي (الشام ومصر) ، سعد بن أبي وقاص الزهري (العراق) - ولكن في « المجلس العسكري » الذي كان يستشير الخليفة آنذاك وهو يمثل وجوه قريش بغالبية فروعها للمهاجرة (عمر بن الخطاب (عدى) علي بن أبي طالب (هاشم) ، عثمان بن عفان (أمية) ، طلحة بن عبيد الله (تيم) الزبير بن العوام (أسد) ، عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص (زهرة) ، أبو عبيدة بن الجراح (الحارث بن فهر)¹⁰⁹ . ولكن الانصار رغم ابعادهم المقصود عن القيادات العسكرية ، كما سبق الابعاد عن مراكز النفوذ في السلطة السياسية ، فان ذلك لم يقلل من أهمية دورهم في حركة الفتوح ، حيث شكلوا مع (المهاجرين) القوة الطليعية¹¹⁰ على جبهات الشام والعراق . فهم يثبتون مرة أخرى عمق التصاقهم بالعقيدة والتزامهم بـ « وحدة الجماعة » ، التي انطلقت من (المدينة) ومن ثم بـ « وحدة الدولة » التي جسدها الخلافة ، وذلك على حساب طموحهم السياسي الذي تصدى له المهاجرون بعنف .

لقد تمت حركة الفتوح الاولى في لحظة تاريخية خاصة ، الى درجة

(1) من قريش الطوامر . محمد فرج ، الفتح العربي للعراق وفارس ص 109

صالح العمل ، محاضرات في تاريخ العرب ص 335 .

(2) لاهورن ، تاريخ الدولة العربية ص 37 .

يصعب معها تحديد عوامل النجاح التي أدت الى هزيمة الدولتين الاعظم في ذلك الحين ، يانهيار الاولى وتحجيم الثانية . واذا كان اهتمامنا بهذه الحركة ، يصب في اطار ما عكسته على الوضع الحجازي من جوانبه السياسية والاجتماعية ، فان السرعة الخاطفة التي تحققت فيها تلك الانتصارات ، تضع الباحث أمام قضية شائكة وتستوجب وقفة عاجلى منها ، حيث كانت محور المتغيرات الجذرية ، سواء التي مرت بها الدولة الصاعدة أو التي أدت الى قلب موازين القوى الكبرى لمصلحة الاخيرة . فقد كانت السياسة التوسعية كما أسلفنا ، امتداداً لسياسة النبي ، التي كانت واضحة التركيز على الشام ⁽¹⁾ ، الاكثر اتصالاً في جغرافيتها واقتصادها بالحجاز ، مركز الدولة الجديدة . وفي ضوء هذا الواقع ، كان التصدي هذه المسألة ينطوي على شأن حياتي كما هو أممي بالنسبة لها . وفي هذه الحالة لم تكن العقيدة ، كباعث ديني يرمي الى نشر الاسلام فقط من منطلق دعوته العالمية ، بل فعلاً سياسياً يتمتع بالطابع الاحتوائي لكافة ممارسات الخلافة بما فيها الشؤون الدينية ⁽²⁾ .

وعلى الرغم من ظهور بوكرى العمليات العسكرية في العراق ، على يد احدى القبائل الكبرى (بكر بن وائل) التي كانت تعيش على تخومه ⁽³⁾ ، فان المعركة الحقيقية التي شغلت الخلافة تمحورت على جبهة الشام . حيث طغى الاهتمام على كافة الجبهات بما فيها العراق . وكان وراء الانتصارات الساطعة انذاك بطابعها « المدني » كما أشرنا ، نخبة المهاجرين والانصار ، الذين حققوا انتصار الاسلام من قبل في شبه الجزيرة . فقد اندرج هؤلاء طوعية في موجة الفتوح واندمجوا حتى الانصهار في الجماعة ، فجاء التزامهم بها تعبيراً عن حاجة موضوعية ملحة . وكان لا بد أن يدفع ذلك بالقتال الى درجة من « التسييس » ، ليدرك جيداً ابعاد المشاركة في معركة ليست مجهولة لديه ⁽⁴⁾ .

ان هذه الفتوحات التي بدت غير عادية في رأي المؤرخين ، سواء التقليديين منهم ، الذين أحاطوها بشيء من الصوفية الخاصة ، أو المتجددين الذين رأوا فيها استجابة لضغوط الواقع الاقتصادي على شبه الجزيرة ، أو ربما استمراراً لحركة الهجرة السامية الى الشمال ⁽⁵⁾ ، فلانها تمت في ظروف غير عادية وتزامنت مع دعوة فريدة ،

(1) ينسب ال أبي بكر قوله : « لفتح قرية في الشام أفضل عندي من فتح بلد في المغرب » . ياسين سويد ، معارك خالد بن الوليد ص 213

(2) المازري ، الاحكام السلطانية ص 3 . 61-53 P. 4. 1926. Le califat. Paris. A. Sanhoury .

(3) DONNER, the Bakr b. wà il. P. 17, 30.

(4) ابراهيم يرضون ، ملامح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري ص 39 .

(5) GOLDZIER, le Dogme et la loi de l'Islam p. 123

في اتخاذها لأول مرة في التاريخ ذلك البعد الجماهيري المتميز ، الذي كان أحد أهم إنجازاتها في تلك الحقبة من العصور الوسطى . ومن ناحية أخرى ، فإنها اللحظة التاريخية ، التي استوعبت التوقيت كما التحرك ، وكذلك الأوضاع السياسية للدولتين تميشان على حدود الماضي ، تفككهما العزلة والصراعات على الحكم ، فضلاً عن الحروب الخارجية الطاحنة» .

كانت جبهة الشام ، المحطة الخطيرة في حركة الفتوح ، التي كان انتشارها وثيق الصلة بالانتصارات الأولى في عهد أبي بكر . ومع انتقال السلطة إلى عمر بن الخطاب ، تابعت الجيوش العربية الإسلامية انتصاراتها الباهرة ، وهي ذروة ما وصلت إليه في النصف الأول من هذا القرن . ولعل ميزة هذا العهد ، أنه مثل بكثير من الوضوح ، ما سمي بالخلافة الراشدية بمضمونها الإسلامي الالتزامي كنظام حياتي متكامل . ففي العهد السابق كان للحكم ، على أهميته في ترسيخ وحدة الدولة ، سماته الانتقالية بين عصري النبوة والخلافة ، بما رافق ذلك من ممارسة أكثر «شورية» مع كبار الصحابة من (المهاجرين) ، الذين شاركوه هذا القرار السياسي والعسكري» .

ولكن عهد عمر تجاوز حدود سلفه ، باتخاذ بدايات الشكل « المؤسسي » للدولة ، متجاوزاً مع تحديثات المرحلة وظروفها الجديدة . فقد أصبحت (المدينة) عاصمة دولة واسعة الأطراف ، تدار منها آلة الحكم بصورة مركزية . ولكي تستطيع الخلافة استيعاب مواردها ومراقبة عمالها وتحركات جنودها ، كان ظهور (الديوان) ، تحت تأثير عائدات الفتوح من أموال الغنائم والخراج « القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج ، وإحصاء العسكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف إعطياتهم » . فجاء ذلك مؤشراً للانتقال من القاعدة البسيطة في المعاملات ، القائمة على التوزيع المباشر للأموال ، إلى قاعدة منظورة في تنظيم عائدات الخلافة وتوزيعها حسب جداول وإحصاءات دقيقة ، بإشراف (صاحب بيت المال) ، الذي كانت له سلطة واسعة ، ربما تضاربت مع

(1) كلود كامين ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص 43 ترجمة بلال الدين القاسم

(2) مشاركة عمر التي وصلت أحياناً إلى حد التدخل مباشرة في القرار ، بصرف النظر عن قبول الخليفة أو رفضه .
راجع حديثي خالد بن سعيد بن العاص وخالد بن الوليد في الطبري ج 4 ص 28 ، 38 .

(3) المعقود ، تاريخ ج 2 ص 133 .

(4) ابن خلدون ، المقدمة ص 430 . أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ج 1 ص 6

الخليفة نفسه ، اذا تجاوز الاخير أو أحد من مساعديه حدود ما تقرره السجلات في الديوان المذكور^(١) .

وكان تهافت المال على (المدينة)^(٢) واضحاً في « عطاء » عمر ، الذي اتبع فيه قاعدة الاسبقية في الاسلام ، دون أن تكون مجردة من الخلفية السياسية ، وذلك بتقديم بني هاشم على غيرهم من المسلمين^(٣) . فكان العباس الاقر نصيباً ، كونه آخر اعمام النبي الاحياء ، وما يمثله من موقع بارز في أسرته ، فضلاً عن علاقته القرشية الجيدة في مكة . وربما تساوى بنو أمية مع الهاشميين ، على نحو ما انفرد به (اليعقوبي) . ولكن المرجح أن المساواة أن صحت ، قد تكون مع (المهاجرين) منهم ، خاصة قبل (بدر) ، دون الفئة المكية بزعماء أبي سفيان وأسرته^(٤) . على أن هذه الموجة المفاجئة من الثراء في عاصمة الخلافة أو : الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة المتتابعة عليها^(٥) خلقت حالة من انعدام التوازن ، بحيث لم يعد ممكناً تفادي الانفجار بعد غياب الخليفة القوي .

إن ثمة مؤشرات ليس من السهولة تجاؤها ، عكست تأثير حركة الفتح على الحجاز الراشدي ، فكان لا بد أن تتضارب نتائجها مع شخصية الاقليم المحورية التي استمرت بصورة أكثر تألقاً منذ القرن السادس الميلادي . ولعل شخصية عمر ، بما تمثله من ارتباط وثيق بروحية العصر ، شكلت مفترقاً هاماً بين خطين تاريخيين : الاول ، مركزي تجسده محورية الحجاز ونقطة الثقل في الدولة الواسعة بكل متغيراتها الجدرية . والثاني اقليمي ، يمثل الانتقال القسري الى الطرف منها ، بعد أن كان في صميم الحدث اليومي . ومن هذا المنظور ، فإن شأناً سيكون للحجاز قبل اغتيال عمر وشأناً آخر بعده ، حيث انحصر دوره السياسي في رد الاعتبار لشخصيته المركزية المفقودة . ومن هنا اقترن سقوط الحجاز بسقوط الخليفة ، لأن هذا الاخير كان قادراً ربما بشيء من الصعوبة على تحقيق التوازن المطلوب ، بين الاتجاهات السياسية المتجاذبة حول السلطة ، التي أخذت في « الزحف » آنذاك الى خارج الاقليم الحجازي .

(١) اسبوطي ، تاريخ الخلفاء ص 37 . أحمد فريد الرقاعي ، عصر المأمون ج ١ ص 6
(٢) « فإن شتم نكيل لكم كيلاً وإن شتم تعد لكم عدداً » من قول منسوب للخليفة عمر . أبو يوسف ، كتاب

المراج ص 49

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 153 .

(٤) المكان نفسه . راجع أيضاً أبو يوسف ، المراج ص 47 .

(٥) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ص 83 .

ومن الواضح أن ضغوطاً كانت تدفع في هذا الاتجاه ، على حساب المركزية الحجازية ، المستهدفة منذ بدايات الانتشار العربي الاسلامي على جبهات الفتوح المختلفة . فكان حتمياً أن يؤدي ذلك الى مجموعة من المحصلات التي كان لها تأثيرها في هذا السبيل :

1 - التفرغ البشري ، الذي أحدثه تجميد الطاقات الشابة في الحجاز ، بعد خروجها للقتال والاستقرار في المراكز الجديدة (الامصار) . ولقد كان جلها من المدن التي أصابها الكثير من التخلخل السكاني ، في الوقت الذي تراجع فيه القبائل البدوية حيناً الى صحرائها قبل أن تأخذ دورها السياسي اللاحق .

2 - الثراء الذي انصب على عاصمة الخلافة « أرى مالا كثيراً يسع الناس » (1) ، وأشاع فيها مناخاً من الترف الاجتماعي المفاجي ، شجع الكثيرين على تعزيز ثرواتهم والهجرة الى مصادرها في البلدان المفتوحة . وسيكون ذلك من أسباب الازمة السيامية التي أطلق عليها المؤرخون الاوائل اسم « الفتنة » - كتعبير متلازم مع الثورة على السلطة ، دون التمييز في الدوافع أو الظروف - حيث جرت وراءها سلسلة من الاغتيالات ، بدأت بعمر وانتهت بعلي .

3 - انعدام التلاؤم الجغرافي نتيجة الانتشار التوسعي ، بحيث بات من الصعوبة ، ان لم يكن من المستحيل ، حكم الدولة الترابية من (المدينة) . وكان انتقال علي الى العراق بعيد توليه الخلافة ، تنويعاً لهذا الشعور بفقدان الدور المركزي للعاصمة الاولى .

4 - امتداد الهيمنة القرشية وراء الحجاز ، اسهم في تفجير حساميات عرب الامصار ، في وقت ركبت فيه موجة الفتح بعد اغتيال عمر . ومعنى ذلك أن القاسم المشترك ، الذي جمع القبائل العربية بما فيها (الانصار) ، حول (المهاجرين) ، أخذ في التقصص بعد أن بلغ ذروته من التلاحم في القضيتين المصيريتين الأهم : الردة والفتوح .

وهكذا جاء اغتيال عمر ، ليضع الخلافة الراشدة ، تلك الصيغة النموذجية المتوازنة ، على مفترق لعله الأكثر خطورة ، حيث لم يكن من السهولة الخروج منه دون انعكاس سلبيات النتائج المستجدة على الدولة في الشكل والمضمون . فالاملاص من منظور ما حققته تجربة النبي في (المدينة) ، من صيغة متكاملة في الشروط

(1) من قول منسوب لعشاق الى عمر . الطبري ج 4 ص 23 .

والاسس كدعوة ودولة ، لا بد أن يتأثر اختلال احدهما بالآخر ، لا سيما الاولى التي تفتقد فيها الثانية السوق المبدئي . فلم يكن غريباً أن يؤدي ذلك الى فرز سياسي أشد وضوحاً ، تمخض عن انتصار ثيار وهزيمة آخر . ولم يكن مجرد تدبير عفوي انتقال السلطة أو تقريرها ، بثلك الطريقة الغامضة الى الاتجاه غير المقرب من الخليفة وبتمهيد مسبق منه . بالاضافة الى ما يحدثه تفريغ الخلافة نتيجة لذلك ، من دورها الاساسي كحلقة مركزية تجتمع فيها الدعوة والدولة . وهذا ما تصدى له عمر بكل ما أوتي من قوة ، رغم العداءات السياسية التي احاطت به ، نتيجة موقفه المتصلب ، الذي ربما أسهم في اغتياله .

ان اغتيال الخليفة الذي اتخذ مثلاً في عدالة شخصيته واستقرار عهده ، على نحو تلك الصورة المضطربة التي وردت في الروايات التاريخية ، تدفع الباحث الى التوقف عند هذه الحادثة ، خاصة وانها تجاوزت الاطار الفردي أو الشخصي ، الى المؤسسة نفسها التي أخذت تنهار بعد ذلك وتفتقد ملامحها الحجازية بسرعة غير عادية . ولعل بضعة احتمالات ، قد لا يمكن فصلها عن حادثة كهذه ، ليست سابقة في الاسلوب فقط وانما في الدوافع غير الموعودة لارتكاب جريمة سياسية على هذا المستوى ، بالمقارنة مع اغتيال الخليفين اللاحقين . ولعل ما ورد في « خراج » أبي يوسف لا يتعد عن هذا الاتجاه ، الذي أدى الى ظهور فئة معارضة لسياسة الخليفة ، بما فيها « العطاء » المتفاوت . وقد كانت بوادر هذه العلاقة المتشنجة في القول المنسوب لعمر « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » (١) . فكان هذا الموقف صريحاً ضد « التألف » القرشي في الاسلام ، حيث رفضته « المؤلف » قلوبهم (٢) ، بعد مشاركتها المتكافئة في حركة الفتوح .

وهكذا فان الاغتيال الذي استهدف الخليفة القوي ، يأخذ ملامحه غير العفوية ، عبر تفجير أزمة كان الاخير قادراً على احداها أو تجميدها بشخصيته القوية وسياسته التوازنية البارة بين عصبية الدولة الجديدة . واذا كان ثمة ما يجعل لهذه الحادثة بعداً سياسياً يتعدى الظن الى الاتهام ، فان ذلك مؤشر للبحث عن الفئة المتضررة من هذا العهد وبالتالي المستفيدة من غياب الخليفة .

وفي مقدمة ما يطرح في نطاق هذا التساؤل ، يتناول أولاً دور الفتوح التي تمت في هذا العهد ، في التحريض على اغتيال الخليفة ، خاصة وان العلاقة مع

(1) كلب الحراج ص 46 .

(2) خليفة بن خياط ج 1 ص 60 - 61 .

قاداتها الكبار ، لم تكن ودية ، وقد وُصفت في أحد جوانبها بأنها تعكس التصادم بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وكذلك الموقف الذي اتخذته الخليفة من بروز هؤلاء القادة ، بمنع استيثار انتصاراتهم أو تكرارها (عزل خالد بن الوليد بعد « اجنادين » وسعد بن أبي وقاص بعد « القادسية ») . وكان اتخاذ هذا القرار ازاء عدة قواد وفي ظل ظروف متشابهة ، يؤكد تغليب خلفيته السياسية على أية اعتبارات أخرى . ومهما قيل في حيثيات القرار ، الذي عبّر عن نظرية بعيدة للخليفة ، فإن موقفه المتصلب من « مراكز النفوذ » سواء كانت مدنية أم عسكرية ، قد أثار حفيظة قادة الفتوح وترك بصماته على العلاقة مع (الأمصار) ، التي انفجرت في ثورة هذه الأخيرة على عثمان ، عندما احتلّ التوازن بين (المدينة) وبين (أمصارها) العسكرية .

ولعل هذه المشكلة وريقة الصلة بأحدى أخطر المشاكل التي واجهت الخلافة الراشدية في البلدان المفتوحة ، وهي استغلال الأرض التي كان عمر متصلباً فيها الى حد كبير . فقد حرص على عدم إقطاع الأراضي الزراعية وإبقائها بين أيدي أصحابها الأصليين⁽¹⁾ ، خاصة وإن قلة من العرب المسلمين كانت لها معرفة بشؤون الزراعة . ولهذا المشكلة وجهان : الأول ، حجازي ، عندما تصدى الخليفة لطموح زعماء (المدينة) في استغلال الأراضي الزراعية ، بما يعكس ذلك من هجرة حجازية أخرى تسهم في عزلة الاقليم وتفرغه . والثاني اقليمي في البلدان المفتوحة حيث يؤدي اتجاه العرب نحو الزراعة الى ركود دورهم العسكري⁽²⁾ من ناحية ، وإلى أحداث أزمة اجتماعية لدى اصحاب الأرض ، وهم الاكثرية الغالبة من ناحية أخرى ، متعارضة في المبدأ مع صورة « المنفذ » التي حملتها الفتوح الى هؤلاء المضطهدين⁽³⁾ . بالإضافة الى الأزمة المالية التي يمكن أن تنشأ بسبب تقسيم الأرض ، في وقت اعتمدت الدولة بصورة أساسية على مصادر البلدان المفتوحة . وكان ذلك ما تخشيه عمر الذي انتبه الى هذه المسألة ، وقيل أنه أوصى قبيل موته الاهتمام بأهل الأمصار « فانهم جباة المال وغيظ العدو وردة المسلمين »⁽⁴⁾ .

وثمة عائق آخر كان يحول دون توزيع الأرض ، التي ألحّ عليها قادة الفتوح خاصة

(1) ضياء الدين الرئيس : الخراج في الدولة الإسلامية ص 140 .

(2) أبو يوسف ، الخراج ص 29 .

(3) ذكر أن رؤساء أسود أتوا عمر فقالوا : « انا قوم من أهل السواد وكان أهل فلوس قد ظهروا علينا واضربوا بنا ، فلما سمعنا بكم فرحنا بكم وأعجبنا ذلك » . يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ص 50 . ابن رجب ، الاستخراج لاحكام الخراج ص 10 .

(4) يحيى بن آدم ص 71 .

في العراق (السواد) ، ان زراعتها المروية اعتمدت على نظام تقليدي لا يخلو من التعقيد ، وهو يفترض مقاسمة جماعية ومتكافئة للماء⁽¹⁾ . ولعلنا ندرك صعوبة التكيف بين هذا النظام وبين القبائل ذات النزعة الفردية الغالبة ، الامر الذي حداً بالخلافة في عهد عمر الى « ابقاء الارض ملكاً عاماً للمسلمين »⁽²⁾ والحؤول دون اقتسامها « كما تقسم غنيمة المعسكر »⁽³⁾ . واذا كانت (خير) التي جرى تقسيمها في عهد النبي⁽⁴⁾ ، قد اتخذها المطالبون بتوزيع الارض في العراق والشام نموذجاً أو سابقة للضغط على عمر ، فان موقف هذا الاخير كان متأثراً باختلاف طبيعة الارض ونظام الزراعة بين الحجاز والسواد⁽⁵⁾ .

ولقد حسم عمر هذه المسألة بكتابه الى سعد بن أبي وقاص ، الذي كان على رأس هذا الاتجاه ، حيث اثار ذلك حفيظة الخليفة ضده على الأرجح ، حين امره بترك الارض « والانهار لعلها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن بعدهم شيء »⁽⁶⁾ . ويبدو ان الجدل في هذه المسألة قد انتقل الى (المدينة) ، فتجاذب حولها اتجاهان من كبار الصحابة ، أحدهما مؤيد لرأي الخليفة ، لان اقتسام الارض سيؤدي الى مشكلة متفاقمة بين القبائل القديمة والمستجدة في مناطق الفتوح ، وكان في طبيعة هذا الاتجاه كل من علي وعثمان وطلحة . اما الآخر فقد تزعمه عبد الرحمن بن عوف ، أحد أكثر تجار قريش ثراء بعد الهجرة⁽⁷⁾ .

على أن ركود هذه الازمة لم يتحقق الا بعد تحول تجمعات القبائل من مراكز « الاستقرار » الى مناطق « الجهاد » ، واستبدال (المدائن) بالكوفة التي أصبحت من أبرز المحاور القبلية في العراق . وكان ذلك متزامناً مع مؤتمر (الجابية) في الشام ، الذي ترأسه عمر ، كمؤشر الى استمرار هذه السياسة الجهادية . وهكذا نشأت مع الفتوح « ديار هجرة » تكون الارض فيها فيئاً للمسلمين⁽⁸⁾ ، وليست « مراكز استقرار » يتقاسمون

(1) ذكر أبو عبيد ، « لما فتح المسلمون السواد قالوا لعمر : انقسمه بيننا فأبى المتخذه عنة . قال : فابى وقال لما لم جاء بهدكم من المسلمين ؟ واخاف ان قسمته ان تفاسدوا بينكم في الليله » ، الاموال ص 81 .

(2) رضوان السيد ، جدليات العقل والنقل والتجربة التاريخية للأمة . الفكر العربي عدد 15 ص 76 (1980)

(3) أبو يوسف ص 25

(4) ابن آدم ص 20 . ابن حزم ، جوامع السيرة ص 213

(5) ولولا ان أثرك نهر الناس يباناً ليس هم شيء ، ما فتحت على قرية الا قسمتها كما قسم النبي خير ، ولكن اتركها خزائن لهم يقتسمونها ، من قول منسوب لعمر . ابن رجب ، الاستخراج ص 11

(6) أبو يوسف ص 26

(7) أبو يوسف ص 27 . البعقوبي . تاريخ ج 2 ص 151-152 . السعدي ، مروج ج 2 ص 232 . LAMMENS, La . républiques. P. 48

(8) افلم العرب المغائلون نحو ثلاث سنوات في المدائن ، وهي الفترة التي تم فيها انشاء الكوفة على الأرجح . البعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 151 .

(9) الفقيه هنا بمعنى الرفق . الاستخراج ص 203 . راجع كذلك الحراج لابن يوسف 27 وتاريخ الكوفة للبراق ص 127

ملكيتها ، الا ما كان مهجوراً منها فهو للمفاتيحين ، لان « هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها» (1) ، لا يشغلهم عن القتال شاغل . ولقد كان موقف عمر نابعاً من رؤية سليمة لهذه المشكلة ، وتعبيراً عن الخط المتصلب ، حيث يصبح كل شيء ملكاً عاماً للمسلمين أو الدولة التي يقوم بشؤونها الخليفة . وهذا ما يفسره بعض المؤرخين بأنه نمط من « الشيوقراطية » التي كانت تعمد برأيهم مفهوم الحكم الراشدي ، كون الله « مصدر السلطات الدينية والدنيوية » (2) . وإذا كنا لا نوافق على استخدام هذه التعبيرات غير المتطابقة وواقع الحال آنذاك ، حيث كان للسلطة الراشدية مفهوم سياسي في الغالب وعلاقة بظروف البيئة العربية ، لا يتسجان كثيراً مع المضمون اليوناني للكلمة . ولا شك أن سياسة عمر نحو الارض المفتوحة ، حالت دون ظهور اقطاعية عسكرية ، شبيهة بأنظمة العصور الوسطى في أوروبا ، التي جرت كثيراً من التناحور بين الاجيال المتعاقبة ، نتيجة افتقاد نفوذها تدريجياً مع تقلص ملكيتها الاقطاعية» (3) .

كان ذلك موقف عمر من المشاكل الملحة التي أفرزتها الفتوح ، لا سيما اقطاع الارض التي أثلرت نعمة ضده في (الامصار) كما في الحجاز . وكانت تلك في الحقيقة مشكلة الخلافة الراشدية بصورة عامة ، التي لم تجد لها حلاً جذرياً في ذلك الوقت . فاتجه الخلفاء الثلاثة (أبو بكر ، عمر ، علي) الى استغلال الارض دون اقطاعها» (4) الا في حالات خاصة ، يكون للدولة فيها حق « الفيء » على نحو ما أسلفنا . ويبدو أن عثمان كان أول من خرق هذه القاعدة على نطاق واسع ، باقطاعه قرى ومزارع لكبار موظفيه وعياله في العراق والاقليم الشرقي ، مشروطاً عليهم الضريبة السالفة» (5) .

وقد لا يكون بعيداً عن الافتراض قيام جبهة متناوئة ضد الخليفة الذي كان حاذق التوازن بين الانتماءات السياسية وعصبياتها المستجدة . ومن هنا لم يكن باستطاعته التصدي عملياً لاية ثورة مضادة ، بمعزل عن هذه السياسة المتوازنة ، حيث افتقد من وسائل الردع أو الاحباط ، ما يؤمن المظلة الكافية لعهد» (6) . فتمه فوز للفوضى السياسية

(1) أبو يوسف ص 27 ، جمال محمد حمزة ، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام ص 88 ، رسالة ماجستير مطبوعة .

(2) theocratie أو theocratia وهي مشتقة من theos (الاله) و cratia (السلطة) .

(3) الرفاعي ، عصر المأمون ج 4 ص 4 .

(4) راجع تول عمر في كتاب الخراج لابي يوسف فكيف « نفسه هؤلاء ولا ندع من تخلف بغير قسم » ص 29 . راجع أيضاً قول عمر لسعد بن أبي وقاص بعد فتح العراق . . . فإننا لو قسمناها بين من حضر لم يكن بعدهم شيء » أبو عبيد ، الاموال ص 83 .

(5) يحيى بن آدم ص 79 .

(6) البلاذري ، فتوح البلدان ص 273 ، الماوردي ، الاحكام السلطانية ص 183 .

(7) رضوان السيد ، جذبات العقل والنقل والتجربة التاريخية للامة ، مجلة الفكر العربي ص 176 .

أخذ يتبلور في (المدينة) في السنوات الأخيرة من خلافة عمر ، وذلك مع ظهور اتجاهين :
 لأول ، يمثل الخط الاسلامي المتشدد ، الذي استقطب الاكثرية الغالبة من متوسطي
 ومحدودي الدخل ، الذين تحسنت أوضاعهم المعيشية والاجتماعية في ذلك العهد .
 والثاني ، كان عبارة عن تحالفات مصلحية ضمت الفئات الميسورة من المسلمين الجدد
 (فريش وثقيف) وبعض (المهاجرين) من تجار (المدينة) الكبار » .

وهكذا فان قوة هذا العهد كانت في قدرته على تحقيق التوازن المطلوب بين هذين
 الاتجاهين ، حتى اذا اختلت المعادلة القائمة ، بتعاطف عمر تلقائياً مع الاتجاه الاول
 وتضرر الآخر من سياسته الاقتصادية ، حدث ما أودى بحياة الخليفة . ذلك أنه لم يمثل
 أساساً أي تيار جهوي خاص به ، بقدر ما اعتمد على شخصيته القوية والمحاورة في أن ،
 وعلى تجربة تمتد الى ما قبل الاسلام » ، وهي الصفات التي كانت وراء دوره الشهير في
 (السقيفة) ، وانتزاعه المبادرة في الوقت المناسب ، وهو ذو توازن متقن في المقام
 الاول . فاية محاولة في هذا السبيل دون استيعاب مسبق للموقف السياسي ، كانت مهددة
 بالفشل . ولعل ذلك دار في خلد « التأمرين » ، سواء في (المدينة) أو (الامصار) ،
 منتقن معاً للإطاحة بهذا الخليفة ومعه مشروع الدولة - المؤسسة التي كانت قيد التنفيذ ،
 دون أن يؤدي غيابه حسب هذا المنظور الى فراغ سياسي كبير .

وليس ثمة شك أن عهد عمر ، كان أكثر فترات الحجاز تألقاً في التاريخ
 الاسلامي . فقد كان هذا الاقليم مركز الثقل السياسي في الخلافة التي أصبحت عاصمتها
 هدف المسلمين وقبلة أنظارهم ، يسعون اليها طلباً للشهرة والثراء . ويظهر من مؤشرات
 بعض روايات المؤرخين ، رغم جنوحها حيناً الى المبالغة » ، ما أحدثته الفتوح من انقلاب في
 المستوى الاجتماعي لهذا الاقليم . ولقد شجع هذا المناخ الجديد مختلف القبائل بما فيها
 البدوية المحافظة ، فهجرت صحراءها الى المدن وتحلت عن كثير من تقاليدها ، تحت تأثير
 انبهارها بذلك التحول السريع في المجتمع الحجازي . ويبدو أن عمر كان متحسناً
 نتائج هذا الانقلاب ، الذي زاده حدة ذلك التوزيع السياسي « للعطاء » ، كسابقة خطيرة
 في الدولة ، أدت الى تشكيل فئة (اشراف) غير منتجة ، تعيش عائلة على الدولة وتتمتع
 بامتيازات نلاء العصور الوسطى الأوروبية ، في الوقت الذي افترض أن يكون فيه
 « العطاء » اجراء مرحلياً يتصل بالفتوح . وقيل ان الخليفة كان يرمق تدفق الاموال على

(1) ابراهيم بيغون ، ملاحح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري ص 15 .

(2) تول عمر (السقفة) في مكة عشية الاسلام . العقد الفريد ج 3 ص 226 .

(3) الطبري ج 4 ص 171

(المدينة) بشيء من عدم الرضى ، جزعاً على مصير دولته من الترف وخوفاً عليها من الانقسام⁽¹⁾ .

وفي ضوء هذا الموقف ، كان اغتيال الخليفة القوي والموازن ، اسقاطاً للنهج سياسي اثبتت المتغيرات اللاحقة أنه لم يعد قادراً على الاستمرار . فقد كان ذلك وثيق الصلة بمركزية الحجاز ، التي اختلت بدورها وأذنت شمسها بالمغيب . ولأن سلبية الحدث أكثر ما أصابت هذا الانتماء ، وشكلت انعطافاً في تاريخه فضلاً عن الخلافة ، فإنه من الاهمية مناقشة ما بعد الاغتيال الذي استبعدنا أن تكون له خلفية شخصية على نحو ما ذكرته الرواية التاريخية المعروفة⁽²⁾ . ولعل ما يحدونا الى ذلك ما رافق اختيار الخليفة الجديد من ملابسات ، كشف بعضها وظل الآخر مطوي⁽³⁾ تزيده غموضاً ردة الفعل الفورية لدى ابن الخليفة المقتول (عبيد الله) ، بطرحها أكثر من علامة استفهام ، خاصة ما نسب اليه من القول بعد «انتقامه» من الاشخاص الثلاثة : جفينة والهرمرزان وابنة أبي لؤلؤة - منفذ العملية - ملوحاً بتهديد آخرين كان يعتقد أن لهم دوراً في الاغتيال « لأقتلن رجالاً ممن شرك في دم أبي »⁽⁴⁾ . ولقد كان من الصعوبة اجتياز هذه الازمة دون انشقاق في الموقف السياسي ودون اخراج متقن وبث سريع للمسألة . وأول ما يستوقفنا هو مجلس الستة (الشورى) ، الذي ظهر نجاة دون ما يذكر عن وجود له مسبق على هذا النحو أو غيره . فثمة مشاورات مع عدد من وجوه الصحابة ، لا سيما في الأمور الهامة ، كان يجريها عمر شأن سلفه ، ولكن في ظل أطار غير الزامي . فقد كان للخليفة وحده حق اتخاذ القرار النهائي من حيث المبدأ ، الذي يميز له ذلك وفقاً لشروط واعراف غير مكتوبة ، إلا أنها محصلة عملياً لممارسات سابقة⁽⁵⁾ أصبح لها فعل القانون الدائم .

ومن هذا المنطلق فإن الدور الاستشاري للصحابة الكبار وجلهم كانت له صفة سياسية كونه مرشحاً للخلافة أو طامحاً لها ، كان مجرد عرف يمتد الى عهد النبي ، عندما كان يتشاور مع المسلمين الأوائل في المسجد ، المقرر التقليدي لمثل هذه الاجتماعات . فيصبح هذا الأخير كأنه الهيئة التشريعية التي تتداول القضايا العامة قبل أن تبث بها

(1) وردت في « خراج » أبي يوسف رواية للزهري نسب الى عمر قوله : « لم يعط الله قوماً هذا الا لقي بينهم العداوة والبغضاء » ص 51

(2) الطبري ج 5 ص 12

(3) موقف الخلافة من عبيد الله بن عمر وعدم مقاضاته على الجرائم الثلاث التي ارتكبتها المصدر نفسه ج 5 ص 41 . السموذى ، مروج ج 2 ص 221 .

(4) الطبري ج 4 ص 41 .

(5) إبراهيم بوضن ، ملاحم التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص 93 .

« السلطة التنفيذية » . ولكن هل وصلت دولة (المدينة) ومن ثم دولة الخلافة الى هذا المستوى « الجمهوري »^(١) في الحكم ، الى درجة لم يكن النبي أو الخليفة يتآن برأي نهائي قبل العودة الى هذا « المجلس » ؟ ولعل ذلك يدفعنا الى البحث في الصفة الهيكلية لهذا الأخير ومدى استيعابه للاتجاهات السياسية « إقليمية » في (المدينة) ، ان صحت هذه النظرية . وكانت عبارتا : « أهل الشورى » و « أهل بدر »^(٢) ، من الكلمات المتداولة منذ الهجرة ، كدلالة ريادية في الاسلام ، حيث كان هؤلاء « فضيلة » لا يتمتع بها الآخرون . وليس واضحاً اذا كان كلاهما يشكل « المجلس » المذكور ، أم أنها يمثلان السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً ، باقتصار الاولى على أهل الشورى بينما تضم الثانية جماعة بدر . وفي هذه الحالة يفترض انشقاق كلا الهيئتين عن التشكيلات الاسلامية الاولى من (المهاجرين) و (الانصار) . على أن ترداد « أهل الشورى » مترافقاً مع المجموعة الاولى ، يضع هذه الهيئة في اطار تمثيلي محدد ، يفترض انعكاسه على الهيئة الأخرى ، أو ينال ذلك من صفتها الاستشارية .

وهكذا فإن مجلس الشورى كهيئة مستقرة ومضمون تمثيلي واضح ، على غرار ما اعتقده بعض المؤرخين المتأخرين - خاصة في مجال المقارنة بين التنظيم السري للدعوة العباسية وبين دولة النبي في (المدينة) - لم يكن له وجود محسوس في العصر الراشدي ، حيث تمتع الخليفة « القرشي » بسلطات واسعة ، لم تجدها أية هيئة سياسية أخرى . بيد أن (المجلس) في اطاره المعنوي ، كان حاضراً في لقاءات المسجد اليومية ، بالقدر الذي يتاح فيه لوجوه المسلمين المشاركة في القرارات المهمة^(٣) .

ولعل ما يجعل هذا الطرح أكثر واقعية ، تتبع مراحل « البيعة » الراشدية التي جرت تحت شعار الشورى ، لتصبح هذه الأخيرة سلاح السلطة الجدي ومظلة الدفاع عنها . ففي (السقيفة) لم يظهر ما يشير الى وجود هيئة أو أكثر ، اتخذت دوراً ما في البيعة الاولى التي سوغت شرعيتها بالحق القرشي كما اسلفنا . والبيعة الثانية ، انتقلت بصورة وراثية « أنه قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا »^(٤) . أما الثالثة

(١) راجع : أمير علي ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، ص 51 . محمد عمار ، الخلافة والاحزاب الاسلامية ص 54-53 .

(٢) الامامة والبيعة ج ١ ص 44 .

(٣) VAN VLOTEN, La domination Arabe, P. 47 .

راجع الترجمة العربية ، ١ . بيضون - السيطرة العربية ص 130 .

محمد عمار : الخلافة والاحزاب الاسلامية ص 54 .

(٤) ابراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص 94 .

(٥) من وصية أبي بكر قبل وفاته . الطبري ج 4 ص 51 .

التي زامنتها الشورى كمجلس لأول مرة ، فكانت محطة بالغموض ، بدءاً باغتيال الخليفة وانتهاء بسقوط الخلافة الراشدة . وتبقى الرابعة ، التي طُغت على الشورى فيها أجواء السلاح والتهديد فضلاً عن ازدواجيتها الظاهرة ، واختلاف شرعيتها بين يوم وآخر⁽¹⁾ .

إن ثمة عبارة معاصرة تقول : « والامر الذي كان يحشاه عمر ويجهاد للحيلولة دون وقوعه ، حدث منذ أن وليّ الخلافة عثمان بن عفان ، فلقد وثبت قريش على السلطة واستأثرت بها »⁽²⁾ . ولعل المقصود هنا ، تسويق الدوافع التي حدث بهذا الخليفة الى خرق القاعدة العرفية التي جاءت به الى السلطة ، جاعلاً من خلافته مسؤولية جماعية ، عبر الستة الاحياء من كبار (المهاجرين) أو (أهل الشورى) . فهل أسهم عمر عن قصد أو خلافه ، في التمهيد لشخصية لا تمثل فكره السياسي ولا تحمل لعنه الطابع الاستمراري ، الذي كان حريصاً عليه ، حرصه على المنجزات التوسعية والادارية التي ارتبطت باسمه ؟ وهل كانت وفاة أبي عبيدة بن الجراح ، الشخصية الثانية في التكتل الذي قام بدور كبير في السقيفة لمصلحة أبي بكر ، هي الحافز فقط على استتكافه عن تسمية خليفة بعده ؟ فثمة اسم آخر قيل ان عمر أبدى رغبة في استخلافه وهو معاذ بن جبل ، الذي توفي كذلك في وقت سابق⁽³⁾ . وهذه التساؤلات تطرح نفسها في ظل هذا الغموض ، الذي رافق غياب أقوى شخصيات الدولة ومجيء شخصية أخرى من نمط سياسي واجتماعي مختلف . فإذا كانت مرحلة (السقيفة) على خطورتها ، قد اكتفت بالقليل من الشورى ، لمسك زمام الامر ومنع الانقسام بعد النبي ، فإن هذه المرحلة لم تكن أقل خطورة لكي يأخذ نظام الشورى ذلك المحتوى « الانتخابي » ، في وقت لم يبلغ من النضج حداً يؤهله للدور المنوط به . ومن البديهي أن أبسط الشروط في هذا السبيل ، عدم الدخول طرفاً مباشراً في الصراع بين أطرافه الاساسية حيث يفقد النظام أهميته المطلوبة . وكان ذلك ما تناقض في الحقيقة مع تشكيلة « مجلس الستة » ، غير المتوازنة من ناحية ، وافتقاد اعضائها الصفة الاستشارية ، كونهم مرشحين للخلافة من ناحية أخرى .

إن « مجلس الستة » الكبار من (المهاجرين) ، إذا صحّ أنه كان آخر أعمال الخليفة وهو على فراش الموت ، فهو أخطرها على الإطلاق⁽⁴⁾ ، من منظور انعكاسه السلبي على

(1) ميف بن عمر الفضي ، نفثة وولمة الجمل 93-95 . الامامة والسياسة ج 1 ص 44

(2) محمد عمار ، الخلافة والأحزاب الاسلامية ص 95 .

(3) الطبري ج 5 ص 34 . الامامة والسياسة ج 1 ص 22 .

(4) ابراهيم بيهون : التوابون ص 29 .

الدولة الراشدية . فقد سارت الامور منذ البدء لمصلحة المرشح الاموي ، الذي خشي عمر « خلافة القشوية » على نحو ما أسلفنا ، بعد أن استبعد علي الذي شعر بعزلته في « المجلس » وبأن تحول الرياح الى اتجاه آخر لم يكن عفويًا وخاليًا من التدبير . وانتقلت السلطة من رجل قريش القوي الذي كان شديدًا عليها حتى القمع ، الى رجلها « اللين » عثمان (١) ، أو من خلافة المرحلة في عهد الاول الى الخلافة المرحلية في عهد الثاني .

وتبقى ملاحظات على هامش هذه المسألة ، وهي تتعلق بدور الاطراف في الدولة ، التي ثبت أنها لم تكن خارج دائرة الحدث السياسي في الحجاز . ولعل أقربها الى الاحتكاك بعاصمة الخلافة آنذاك هي ولاية الشام التي كانت تنمو تدريجياً على حساب (المدينة) ، تحت تأثير انعدام التلازم الجغرافي ، حيث لم يعد ممكناً حكم الدولة منها ، بعد المتغيرات الهامة التي طرأت عليها . واذا كنا لا نملك المعطيات التي تشير الى معاوية - والي الشام - كريدف فعلي لعثمان ورجل المرحلة المقبلة ، فان حادثة اغتيال عمر « المعللة » ، وتشكيل « مجلس » الشورى وهو في لحظات النزاع الاخير بعد اصابته بست طعنات قاتلة (٢) ، أي أنه « لم يجعل الامر شوري الا وهو مطعون » حسب قول القلقشندي (٣) . . وما وافق ذلك من بروز مفاجيء لعبد الرحمن بن عوف كبير تجار (المدينة) (٤) ، وظهوره كوصي على المجلس ومناصب في الصلاة (٥) . . ومن ثم حسم الامور لمصلحة أحد الاتجاهين الرئيسيين ، وتجاوز اتجاه « المعتدلين » كالزبير وطلحة . . وأخيراً فان العلاقة غير الودية بين عمر وغالبية الاعضاء المختارين ، تكاد لا تنفي محاولة مقنعة استهدفت هذا الخليفة . . فتمه غرابة في أن يؤول مصير الدولة الى مجموعة لا يتمتع بعضها أو جلها بثقتهم (٦) .

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص 26 .

(٢) تاريخ الطبري ج 5 ص 12 .

(٣) صبح الاصبى ج 414 .

(٤) الامامة والسياسة ج ١ ص 27 .

(٥) تاريخ الطبري ج 5 ص 12 .

(٦) راجع ما نسب لعمر حول رأيه في الصحابين الستة (أهل الشورى) في مغازي الزمري ص 145 . الامامة والسياسة ج 2

ص 26 .

الحجاز بعد عمر

« وتبقى ملابسات هذه الحادثة التي أودت بحياة عثمان على شيء من الغموض ، ولكن أقل من الحادثة السابقة (اغتيال عمر) . على أن للحادثتين التقاء معيناً مع انكسارات حركة الفتوح على الحجاز وانتقال الثقل السياسي والاقتصادي إلى الأمصار »

ليس من الصعوبة تحديد موقع عثمان في ذلك الحدث العاصف ، الذي أودى بحياة الخليفة السابق . فقد كان على الأرجح خارج دائرة الصراع المباشر بين تيارات (المدينة) السياسية ، ولم يكن اسمه قد برز إلى الصفوف الأولى بين المرشحين للخلافة قبل ذلك الوقت⁽¹⁾ . فهو على الرغم من دوره ، كواحد من المجموعة التاريخية التي حظيت بامتياز خاص في الدعوة ، إلا أن موقعه من الإسلام السياسي كان مرتبطاً بالتأثير المهزوم في قريش (جماعة مكة) ، أكثر من التيار المنتصر (المهاجرون) ، حيث المناقشة كانت شديدة بين رؤاده الكبار . على أن عثمان ، كخليفة مرحلي ، كانت له من جانب آخر ، الصفات المطلوبة لدى معارضي العهد السابق ، كونه ينتمي إلى فرع كبير في قريش ، استعداد كثيراً من اعتباره السياسي بعد فتح مكة من جهة ، ولا تأثير شخصيته المعتدلة اعتراضاً أو سخطاً لدى الرأي العام الإسلامي من جهة ثانية . ويصل المؤرخ الفرنسي (كاهن) إلى حد الاعتقاد ، بأن مجيء عثمان إلى الخلافة ، سبقه نوع من الاتفاق المتبادل بين « الإسلام وقريش »⁽²⁾ ، تكرر بعد فتح مكة وانضمام الأخيرة إلى دولة (المدينة) . ولكن في هذا الاعتقاد جنوحاً إلى المبالغة ، حيث لم يكن النبي بحاجة ماسة إلى هذه المساومة ، حسب تفسير (كاهن) لهذا الحدث التاريخي البارز ، مما يتعدى مضمون العلاقة بين الطرفين ،

(1) يذكر محمد عارة عن رواية في المغني للقاضي عبد الجبار ، بأن فريقاً كان يروج لعثمان في أواخر عهد عمر ، دون أن يشير إلى موقف هذا الأخير . الخلافة والأحزاب الإسلامية ص 96 . ولكن الروايات المعروفة لا تشير إلى مثل هذه الحادثة . وثمة رواية ينقلها المارودي عن ابن اسحاق تشير إلى موقف سلبي لعمر في هذا السبيل : حيث ينسب إليه قوله للذين اقترحوا عليه استخلاف عثمان وذلك بشيء من الدهشة « كيف ؟ يجب المال والجنه » . قوانين الوزارة وسبلة الملك ص 14 ، تحقيق وضوان السيد

(2) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص 31 - 32 .

التي كانت أقرب الى المهادنة منها الى الاتفاق . أما قضية المصاهرة السياسية التي يُشار اليها كمدخل الى السلطة وما تمنحه لصاحبيها من شرعية المطالبة بها ، فلم تتجاوز بنورها هذا المفهوم الاحتوائي أو « التآلفي » ، الذي استنه النبي بعيد سقوط المدينة القرشية⁽¹⁾ .

ومن هذا المنظور لم يكن مصادفة اختيار شخصية كعثمان في ظل ظروف كنتك ، تمكّل نقلة خطيرة في تاريخ الخلافة ، وإن تصبّح النخبة التي صنعت ذلك القرار ، موضع التهمة والاثراء غير العادي ، ان لم يكن غير المشروع . ولم يكن مصادفة كذلك ، أن يبنّى اختياره عن هيئة غير متوازنة في تركيبها القبلي ، ويجمع فيها اثنان من (زهرة)⁽²⁾ ، أحدهما (سعد بن أبي وقاص) متهم من عمر بامتغلال السلطة⁽³⁾ ، والآخر (عبد الرحمن ابن عوف) ، الذي أصبح من كبار تجار الحجاز بعد الهجرة⁽⁴⁾ . فإذا كان سلوك « أهل الشرى » أو بعضهم ، قد شابه الارتياح حتى في عهد اشتداد المراقبة أيام الخليفة السابق ، فكيف بالمسلمين الجدد الذين دخلوا « صلحاً » في العقيدة ، أو ذوي الايمان السطحي من القبائل البدوية ، التي شجعها افتتاح « العهد العثماني » على تعزيز أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ؟ .

وهكذا فإن هذا العهد لا يكلّل انعطافاً تاريخياً بالنسبة للخلافة فقط ، ولكن بالنسبة للحجاز الذي فقد بريقه المركزي ، بقيام مناطق نفوذ جديدة على حسابه في الاطراف . ومرة أخرى تكون قريش في قلب الاحداث ، فلا تنعكس عليها التغيرات ، حيث ينتقل الثقل السياسي والمعنوي في الدولة بانتقالها من محور جفرافي الى آخر . وما حدث لمكة التي سقطت من دون قريش بعد أن تغلبت عصبية الاخيرة على (الانتصار) في عقر دارهم (السقيفة) ، سجلت لنفسها - أي قريش - انتصاراً أكثر أهمية وجراً بعد سقوط الحجاز وخروج الخلافة منه . فقد سيطرت فروعها (بطونها) المتنقلة على الوضع في الشام والعراق ، اللذين سيصبحان طرفا التجاذب والصراع على السلطة ، منذ الثورة على عثمان وحتى سقوط الخلافة الاموية . وفي المقابل أخذ الحجاز يفقد أهميته السياسية تدريجياً ويصبح على هامش ذلك الصراع ، رغم الاموال التي استمر تدفقها على مكة و(المدينة) . وهذا ما جعله مرتعاً لاهواء المسيطرين في هاتين الولاياتين ، بعد أن صار ممكناً ضبطه واحتواؤه من أي منهما عن طريق الحصار الاقتصادي .

(1) كاهن ص 31 . بتلي جوزي ، من تاريخ لحركات الفكرية في الاسلام ص 60

(2) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص 129- 131 .

(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج 3 ص 287

(4) الامامة والسياسة ج 2 ص 27 .

ولعل الفقيهين على عهد عثمان ، وفي طليعتهم مروان بن الحكم الذي اعتبر مسوقاً عن سياسة هذا العهد ، لم يدركوا ابعاد انعكاساتها السلبية على الحجاز حيث أودت به الى التفرغ من طاقاته البشرية ، سواء العناصر الشابّة التي خرجت مع الفتوح ، أو التي شكّلت الجهاز الاداري في الولايات ، فضلاً عن العناصر المشتغلة بالتجارة والزراعة في أعقاب الانفتاح الذي رافق هذا العهد منذ ولادته . ولم يعد تقلص مساحة النفوذ السياسي للحجاز، موضع نقاش أمام تصاعد الاطراف (العراق والشام) ، حيث مصادر الاموال وتجمعات الجند والقبائل ، من قدامى المسلمين والمستجدين . كذلك لم يعد لهذا الاقليم من وهج السنوات العشرين السابقة الا القليل ، بعد ضمور شخصيته المركزية تحت تأثير تلك للتغيرات الجديدة . ولعل أول مظاهر الخلل في السلطة آنذاك ، طغيان الجانب المعنوي فيها ، الذي كان محصلاً لازدواجية تاريخية بين الحجاز والاسلام ، بينما توکأت كمضمون سياسي على تراث الخليفين السابقين ، أو العصر الذهبي لهذا الاقليم ، الذي انتهى باغتيال عمر .

وكان أكثر ما أدان به المؤرخون عهد عثمان ، هو الارتكان لعشيرته الاموية (1) حيث كان هاجس الصحابة وقلق (الانصار) ، الذين وجدوا فيه انتصاراً آخر للمهاجرين ، حققه الجناح المتطرف من قريش، وما يمكن أن يحدثه من انتكاسة جديدة لوضعهم السياسي في الدولة . وكان (الانصار) قد شعروا بشيء من الالفة في عهد عمر ، الذي قرّب اليه عدداً منهم ، وذلك على حساب القرشيين (2) . وعلى الرغم من سيطرة هؤلاء على الوظائف المهمة في الدولة آنذاك ، لا سيما ولايتي الشام (معاوية) ومصر (عمر و بن العاص) ، فان الطابع العام لسياسته لم يكن قرشياً أو قثوياً ، اذا جاز التعبير ، حيث كان في ادارته مجموعة متنوعة الانتباه دون مشاركة ظاهرة لعشيرته (عديّ) (3) .

وهكذا فان طليعة المتضررين من خلافة عثمان ، كانت جماعة (الانصار) ، الذين انطوا على هزيمة أشد مرارة ، تركت تأثيرها الواضح على موقفهم من السلطة ، بعد ذلك الفرز الذي تحقق لمصلحة جناح في قريش ، لا يحفظ كلاهما مودة للآخر . ومن الطبيعي أن عهداً لم تتع لهم المشاركة فيه ، أن يتخذوا منه هذا الموقف ، شأنهم مع خلافة أبي بكر ، مع الفارق أن هذه الاخيرة ، كانت حلاً وسطاً ، خرجوا منها ببرارة أقل ، بينما خلافة عثمان شكّلت انتصاراً لطرف لا يتمتع بتلك الصفة التوازنية أمام بقية الاطراف . ولقد زاد

(1) البغدادي ، تاريخ ج 2 ص 173 . الامامة والسياسة ج 1 ص 24

(2) أبو يوسف : الخراج ص 27 . J. VESSELY, AL- Ansar p. 34- 51

(3) محمد عمارة ، الخلافة والاحزاب الاسلامية ص 96 .

في هذا النفور ، ابعادهم تماماً عن مراكز النفوذ المحدودة التي احتفظوا بها قبل هذا العهد ، على غرار الفئات الأخرى غير الأموية . فكان ذلك من حوافز الالتفاف حول بني هاشم وازدياد التعاطف معهم ، حيث أصاب هؤلاء من الحرمان ما أصاب (الانصار) . وكان ثمة مشروع لجهة سياسية معارضة في (المدينة) ، فرضت على عثمان نوعاً من العزلة في عاصمته ، بحيث كان موقفها لا مبالياً ان لم يكن معادياً ، أبان أزمة الحصار التي اشتدت عليه .

بيد أنه من الخطأ إعطاء (الانصار) دوراً يفوق حجمهم في (المدينة) ، حيث لم يطرأ تعديل ما على وضعهم السياسي يتكافأ مع الدور الذي ظل يشغله (المهاجرون) . ولعل أزمته الحقيقية وأبرز نقاط الضعف عندهم ، انهم اخفقوا في تحقيق جبهة موحدة ومتماسكة ، منذ انقراط عقدها في (السقيفة) ، عند أول مجابهة مع (المهاجرين) . ولذلك فإن الموقف السياسي للانصار ، تميز بالتبعية لهؤلاء ، منذ أن ربطوا مصيرهم بالنبي واعترفوا بالخلافة « القرشية » . ولم تنفك هذه الأخيرة مكرسة هيمنتها عليهم ، دون صعوبة تذكر ، كونها تملك قدرة التقريب والابعد من السلطة و « عطاها » ، مما أوجد ذلك الانقسام والضعف في صفوف (الانصار) من ناحية ، والسهولة في احتوائهم من ناحية أخرى (1) .

وهكذا يفترض منصب الخلافة دوره التوازني في الدولة وتفقد معه (المدينة) امتيازاتها الوسيطة ، في الوقت الذي شهد صعوداً ملحوظاً للشام والكوفة والبصرة . وكان امتلاء هذه المراكز وغيرها بولاة من البيت الأموي المتحدثر منه الخليفة ، دون أن تحوز أكريتهم من الثقة ما يجعل حكمها مقبولاً ، قد أثار نقمة شعبية في هذه الامصار ، لقيت عطفاً وتحريضاً من مختلف الاتجاهات السياسية ، لا سيما ذات المحتوى الاسلامي المتشدد ، التي وجدت في هذا العهد خروجاً على المألوف وانحرافاً عن مسار الاوائل . فتمة سحق في عاصمة الخلافة (الانصار) ، وموقف غير متعاطف من جانب الفقهاء ، وتعلمل في أوساط الجند والقادة في الولايات بعد ركود جبهات الفتوح وتسييس الاعمال العسكرية القليلة ، التي كان القصد منها صرف الانتباه عن مشاكل (المدينة) ، حيث كانت مجردة من خطة توسعية ثابتة ، باستثناء عملية أرمنية في بداية هذا العهد (2) .

ولم يعد في (المدينة) دور ما لأي طرف سياسي ، بما في ذلك أهل الشورى الذين كان لبعضهم نفوذ معنوي فيها وتأثير على احداثها بشكل أو بآخر . واقتصرت اهتمام الغالبية

(1) البغدادي ، تاريخ ج 1 ص 177 .

(2) الطبري ج 5 ص 45 وما بعدها .

من الصحابة على الافادة من رفع القيود على الإقامة وحرية الاستثمار في مناطق الفتوح ، مما أفقد الخليفة الغطاء الاسلامي الذي يدفع عنه النقد والانهماء . أما القلة القليلة ، فقد عاشت في الظل ، تراقب انبياء الحجاز الراشديين على يد اوسرة ملكية ، كان رجلها القوي (مروان بن الحكم) ، يرى في نظرية الثوري نوعاً من التدخل في شؤون الحكم والحق الشرعي لهذه الاسرة . أما رجلها الاكثر قوة (معاوية بن أبي سفيان) ، لا يتورع في الشام عن التصريح بشرعية هذه الملكية القرشية (١) ، التي كانت مرادفة للبيت الاموي منذ الهجرة الى (المدينة) ، بحيث أن قریشاً اقتصر مدلولها آنذاك على المكين غير المهاجرين بزعمه هذا البيت ، لان « شرعية سلطنتها على العرب والمسلمين أتية من الله الذي هيأها لذلك منذ أيام الجاهلية » (٢) . ومن هذا المنظور فإن دولة الامويين التي قامت لاحقاً في الشام ، بدأت مع خلافة عثمان التي نحت شوطاً في التمهيد لها ، بعد اسقاط معادلة التوازن السياسي التي ارسى قواعدها الخليفة السابق ، ومباداة النهج الفئوي الذي تبلور بعيد سنوات قليلة من « الحكم العثماني » .

وباستثناء اليماني الوحيد (أبو موسى الاشعري) الذي تولى البصرة نحو أربعة أعوام ، قبل أن ينتقل الى الكوفة كترضية لغالبيتها اليمانية ، وذلك في اعقاب الانتفاضة على الوالي المتطرف (سعيد بن العاص) ، وصاحب المقولة الشهيرة (٣) ، المعبرة عن هذه السياسة الفتوية أو ما سمي بالاستئثار القرشي « الاموي » فضلاً ، عن أن هذا الاخير سبق له أن جاء الى الكوفة لتهدئة الوضع فيها بعد سحق شعبي على سلفه (الوليد بن عقبة) ، المتهم بالانحراف (٤) ، وعدا ذلك فإن الجهاز الاداري في هذا العهد لم يكن أمورياً فحسب ، بل من الاقربين للخليفة (٥) ، الذين أمسكوا بزمام السلطة الفعلية وشكلوا ما يشبه مراكز النفوذ في الدولة ، وذلك على حساب نفوذ هذا الاخير الذي اكتفى بموقع فخري منها ، تنزع اليه طبيعته الاجتماعية المترفة . ولم يعد في الإدارة العثمانية مكان حتى لشخصية مثل عمرو بن العاص (السهمي) الذي اثبت تعلقاً بالسلطة ، منذ المساومة

(1) سيف بن عمر الفسي ، الفتنة ووقعة الجمل من 37 . ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 139 .

(2) رضوان السيد ، جذليات العلاقة بين الجماعة والوحدة والشرعية ص 18 .

(3) « قال هذا السواد قطين (بنان) لقریش « مروج الذهب ج 2 ص 337 . .

(4) الطبري ج 60 . مروج الذهب ج 2 ص 334-335 .

وصف شاعر كوفي استبداد الوليد بسيد قائل :

فررت من الوليد الى سعيد كامل الحجر لا فزعوا فلول

بلت من قریش كل عام أمير محدث أو مستشار

ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 108 .

(5) المصدر نفسه ج 2 ص 82 ، 88 .

عليها قبل (صفيين)^(١) ، وذلك لانه غير أموي . فما كان منه سوى الابتعاد عن عاصمة الخلافة ، ليس عن زهد أو « اعتزال للفتنة » ، ولكن سعياً مع الأحداث الى محاورها الجديدة في الشام . فحمل نقمته على الخليفة التي بدأت في (المدينة) ، منذ عزله عن مصر وتعين عبد الله بن سعد ، محرّضاً عليه بدءاً بالصحابة الى العاديين من الناس^(٢) .

وهكذا فان مراكز الثقل في الدولة ، أخذت تزحف تدريجياً الى الشام والعراق . وكان هذا الاخير أكثر جذبا لوجوه الصحابة وقبائل الحجاز ، الباحثة عن الثراء والنفوذ ، حيث الارض الخصبة والجبهة المفتوحة نحو المشرق ، في ظلّ ولاية أشد طواعية لادارة (المدينة) ، وذلك خلافاً للشام التي كانت شبه مغلفة على نظام صارم وسلطة مباشرة ، تحول دون حرية التحرك المتوفرة في العراق . وبات من المؤكد أن كلا الاقليمين سائران الى المجابهة الحتمية في أعقاب هذه « الهجرة » الواسعة ، التي بلغت ذروتها في خلافة عثمان ، دافعة بالحجاز الى المامش من هذه التطورات المستجدة ، بعد افتقاد الشروط الاستقطابية الملائمة وفي طبيعتها التبعة الاقتصادية للاقاليم المفتوحة .

وقد نساءل هنا عن دور هذه « العزلة الحجازية » في اسقاط خلافة عثمان ؟ وإن كان ثمة اختلاف في النتائج لو كان مركز الحكم في أحد الاقليمين السابقين ؟ . وإذا كان من الصعب الافتراض بشيء ما قاطع في هذا المجال ، فمن السهولة القول ، ان عزلة الخلافة كانت لها سلبية مزدوجة ، سواء من ناحية استغلال ولائها ومقرّبيها للسلطة وإفساح ظروف الاثراء السريع ، رغم حالات العزل « التأديبي » ، التي اقتصرت على العراق ، متناولة الاشخاص وليس النهج السلطوي ، وهو ما عثر عنه الشاعر الكوفي كما سبق أن أشرنا . ومن ناحية أخرى ، فان تجمّعات القبائل الكبيرة ، وهي في معظمها غير مستفيدة من امتيازات الادارة الاموية ، قد شجعتها عزلة الخلافة وضعف الولاة على التمرد واوغام الخلافة على التجاوب مع شروطها ، كسابقة خطيرة في هذا السبيل^(٣) .

وكانت أولى مؤشرات الثورة المسلحة في الكوفة ، حيث أكبر تجمع للقبائل اليمنية في العراق^(٤) ، عندما تصدى الاشر^(٥) وجماعته لسعيد بن العاص الاموي ومنعه من

(١) المنرى ، وقعة صفين ص 39 .

(٢) ذوي عن عمرو بن الماص قوله بعد خروجه الى فلسطين (35 هـ) « كنت لائق الراعي ماحزاً على عثمان » الطبري ٥ ص 119 . الكامل في التاريخ ج 3 ص 163

(٣) الطبري ج 5 ص 95-96 . مرجع الذهب ج 2 ص 337 .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 147 . البراني ، تاريخ الكوفة ص 138-143 .

(٥) مالك بن الحارث النخعي . الطبري ج 5 ص 95 .

دخول المدينة . ويدعو أن هذه الانتفاضة كانت مسبقة باحتجاج كوفي على سياسة هذا الأخير حمله الاشر الى الخليفة « ١٠ » ، ولعله اكتشف بعد فشل مهمته ، ما يخطط للكوفيين من « تمجير في البغوث » ، وتضييق في العطاء ، وذلك لحملهم على الاستكانة . وقد ورد في « مروج الذهب » ان الاشر التقى في مسجد (المدينة) طلحة والزبير ووقف منها على خطة الخلافة ، ومن ثم زوداه بالمال قبل العودة الى الكوفة والقيام بحركته التي تكللت بالنجاح « ١١ » . وليس شمة شك أن تحرك الاشر ، لم يكن مجرد احتجاج عفوي ، استهدف سلوك الوالي المتغطرس الذي أثار كبرياء الكوفيين وسخطهم ، بقدر ما ارتبط كخلفية سياسية بتعديل موازين القوى التي انجبت لمصلحة الحزب القرشي . وجاء انفراط المعادة السابقة التي أعطت أفضلية الفرص للجماعة وما رافقها من اختراق لوحدة القبيلة ، يفسح المجال أمام بروز التكتلات العشائرية واستعادة تماسكها الى حد كبير . ولعل ما أثار الاشر وجماعته ، عدا الاستخفاف بمصالحهم « ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومركز رملنا بسناً لك ولقومك » « ١٢ » ، هو تسلط الأقلية القرشية على تلك القبائل الكبيرة التي استقرت في الكوفة ، دون أن تخضع سابقاً للاحتواء المكثي المباشر قبل الاسلام . ولم يكن هذا الشعور بعيداً عن هذه الحركة ، التي تمحضت عن ارغام الخليفة على استبدال أحد شيوخ الامويين بشخصية يمنية ، لا سيما عندما تكون هذه الاخيرة حالة خاصة في الادارة « العثمانية » .

وهكذا كانت انتفاضة الكوفة محصلة اعتبارات عدة ، ونحسب أن للواقع الذي آلت اليه العلاقة بين (المدينة) ومراكز التجمعات القبلية الجديدة في (الامصار) . وهي عبارة أخرى أول غرّد للجيش على السلطة المدنية (الخلافة) ، التي سجلت في رصوخها لمطالب المتمردين خطوة الى الوراء ، في الوقت الذي شعرت فيه تجمعات (الامصار) ، بالقدرة على حل مشاكلها المطوية منذ العهد السابق والتي ازدادت تفاقماً في هذا العهد . فركود الجبهات العسكرية من ناحية وتقدم الامويين وحلفائهم في مراكز النفوذ السياسي والاقتصادي ، على حساب جند وقادة الفتح من ناحية أخرى ، قد أثار النقرة على فريق لا يتعاطى الاشياء من موقعها الاسلامي ، بقدر ما يراها من منظورها القبلي ، انطلاقاً من قرشية النبي والخلافة في الاصل . ولقد كان إبطال القاعدة الاسلامية في التكافؤ بين الفرص التي التزم بها نسبياً جناح (المهاجرين) من قريش ، وتبني القاعدة القبلية التي

(١٠) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٧ .

(١١) الطبري ج ٢ ص ٣٣٧ .

(١٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٧ .

(١٣) الطبري ج ٢ ص ٩٣ . مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٧ .

تحمس لها الجناح « المكى » من هذه الاخيرة ، هو جوهر المشكلة التي انعطفت بالخلافة الى تلك المواجهة المصيرية الخطيرة (نستطيع المقارنة بين مفهوم الخلفاء الثلاثة : أبو بكر وعمر وعلي للأفضلية القرشية ، وبين المفهوم الاموي الذي تجلّى خاصة في موقف مروان من علي « ومعوية من الكوفيين ») .

وانطلاقاً من هذا الواقع الجديد ، تحوّل هؤلاء الجنود الى « موظفين » في الدولة ، يتقاضون « عطاء » فرضه لهم الخليفة السابق . واذا كانت جذور المشكلة متصلة بهذا الاخير ، الذي رفض توزيع الارض المفتوحة ، فان المشكلة نفسها تفاقمت في عهد عثمان ، بعد رفضه تنفيذ ما امتنع سلفه عن القيام به ، باستثناء ما أجراه على بعض اقبائه « . الا أن التفاوت في المعطيات بين كلا العهدين ، فضلاً عن تقلص الغنائم مع ركود العمليات العسكرية ، أدى الى حرمان « الفاتحين » ما اعتقلوه ميدانياً من حقوقهم المشروعة (الفئء والحراج على الارض) ، التي كانت تعود مصادرها الى الدولة ، حيث تقوم باقتطاع « العطاء » ، بما في ذلك من تبعية وارتباطا المتقلبة بين خليفة وآخر « .

ومن ناحية أخرى ، فان لانتفاضة الكوفة جانباً سياسياً كما سبق أن أشرنا ، مرتبط بالصراع على السلطة في (المدينة) . واذا كانت الشام خارج المراهنة بالنسبة لاصحاب الطموح في هذه الاخيرة ، بعد انكفاء دائرة المركزية الحجازية ، كونها مرتبطة بالبيت الاموي عبر أقوى شخصياته وأكثرهم كفاءة في ذلك الوقت ، فإن العراق ، حيث الفراغ القيادي والتمواج القبلي المستمر ، شجعا على التوجه اليه كبديل ملائم للحجاز . وقد نستطيع تبين ملامح التحرك في هذا السبيل لدى اثنين (طلحة والزبير) من بقايا « مجلس الشورى » ، الذي اختفى دوره منذبيعة عثمان . ذلك أن علياً ، وهو آخر وجوه المدرسة الراشدية « بما تمثله من مضمون سياسي غير فتوي ، احتلّ موقعاً خاصاً في ذلك الصراع الذي امتشقر بين (المدينة) و (أمصارها) . فبعد ابتعاد سعد بن أبي وقاص وغياب عبد الرحمن بن عوف « ، الصحابي البارز في المجلس المذكور ، لم يعد ثمة دور لهذا الاخير ، حيث أصبح مجرد تعبير فضفاض خال من أية دلالة محددة .

وكان من بقي من رموز ذلك « المجلس » أثناء محنة الخلافة ، طلحة والزبير ، وقد اعتبرا سابقاً من الفريق المعتدل ، بعد أن حال دون طموحها الى السلطة الدعم السياسي

(1) ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 116

(2) سيف بن عمر : الفتنة وقعة الجمل ص 37 .

(3) المصدر نفسه ص 57 .

(4) فلهوّن ، تاريخ الدولة العربية ص 41-42 .

(5) توفي سنة 32 هـ . تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 177 . ابن الاثير الكامل ج 3 ص 156 .

التوفر لملي وعثمان ، وذلك بما كان يمثل كلاهما من تيار وليس فقط مجرد أسبقية في الاسلام . ومع بروز الفرصة الملائمة بعد اشتداد ضغط (الامصار) على (المدينة) ، سعى هذان الصحابيَّان الى التعويض في العراق عما افتقدها في الحجاز ، فتوجه طموح الزبير الى الكوفة وطلحة الى البصرة⁽¹⁾ . وكان هذا الاخير أكثر نشاطاً في تحركه ، ربما بسبب انتمائه « التيمي » الذي يتصل به أول الخلفاء (أبو بكر) ، حيث كان دائب المبادرة في اتصالاته مع المعارضة والاجتماع اليها ، بما يخفيه ذلك من تعرض مبطن على عثمان⁽²⁾ ، الذي كان دائم الشكوى من نشاطه المريب ، مستنكراً ما يخامر طموحه من « شرف » ليس مؤهلاً له « فإن لي حق الاسلام وحق الاخاء والقربة والصهر ، ولولم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف أن ينزع أخو بني نسم ، يعني طلحة ، أمرهم »⁽³⁾ .

وكان توجه زعيم (المدينة) وجزء من أهلها الى (الامصار) ، بمن في ذلك الطامعين الى الخلافة ، مؤشر الانكفاء الاخير للحجاز ، حيث شارك أيضاً في افول دوره السياسي بطريقة غير مباشرة . فـ (الانصار) لم يتحمسوا كثيراً للدفاع عن نفوذ لم يكن موجوداً في (مدينتهم) ، متعاملين مع أحداثها بشيء من اللامبالاة⁽⁴⁾ ، المنظوية على موقف سياسي غير ودي من خلافة عثمان⁽⁵⁾ . وكان من نتائج ذلك ، تصاعد التوتر بين (المدينة) والامويين بشكل خاص ، ومن ثم بين هؤلاء والحجاز بشكل عام⁽⁶⁾ . أما الشام ، وهي الولاية الوحيدة التي وقفت الى جانب (المدينة) في تلك المحنة ، لم يكن رائدها انقاذ هذه الاخيرة ، بقدر ما سمت جاهدة الى المحافظة على أموية الخلافة . فمعاوية الذي كان أول المشيرين على عثمان بالانتقال الى الشام⁽⁷⁾ ، لم يتردد قبل سنوات قليلة من ثورة الامصار ، أن يخاطب « أهل الشورى » وآخرين من الصحابة ، بلهجة متوردة ، اذا خولت نفس أحدهم له الانقلاب على عثمان و « الشرعية الاموية » التي يمثلها . وهي تنم عما وصلت اليه الشام من قوة ونفوذ ، على حساب تقهقر الحجاز وضعفه : « أن بالشام مائة ألف فارس كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون (عليا) ولا قرابته ولا (عماراً) ولا سابقته ولا (الزبير) ولا صحابته ولا (طلحة) ولا هجرته ولا يهابون (ابن

(1) سيف بن عمر ، الفتنة روقعة الجمل ص 60 .

(2) الطبري ج 5 ص 108 .

(3) ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 167 .

(4) الطبري ج 5 ص 105 .

(5) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص 44 .

(6) VEBSELY, AL- Ansar, p. 36

(7) سيف بن عمر ، الفتنة ص 53 .

عوف) ولا ماله ولا يتقون (سعداً) ولا دعوته (١١) .

لقد أظهرت روايات المؤرخين عثمان ، شخصية ضعيفة مترددة ، دائمة البحث عن حلول للازمات بعد وقوعها ، أو بمعنى آخر ، كانت تعيش ردة الفعل بصورة دائمة وليس العكس . فقد جاء الى الحكم في أعقاب شخصية غير عادية من ناحية ، وفي غمرة الشعور بأن قوة خفية كانت وراء اختياره لغاية في نفسها من ناحية أخرى . وفي ظل هذه الرؤية التي قد يكون ما يسوغها لدى خليفة أدرك السبعين من عمره أو كاد ، - رغم عدم أخذنا بتأثير « شيوخوخة » الخليفة على قدراته في الحكم ، التي ظهر ضعفها في بداية عهده وليس في نهايته فقط - عندما اختار لنفسه ذلك « الجهاز العائلي » ، من منظور انعدام الثقة بالآخرين ، سواء كانت معارضتهم له مكشوفة أم مقنعة . وإذا بتلك المعادلة نتحول الى سلاح ضده ، وإلى حصار ضاغط على عهده ، الذي فقد في المقابل ثقة الرأي العام الاسلامي . فكان استلام مروان بن الحكم ادارة الخلافة ككتاب (١) لعثمان - التعبير المستخدم آنذاك - وتثبيت معاوية بن أبي سفيان على الشام ، الولاية الأكثر أهمية في الدولة ، وهما الوحيدان اللذان بقيا خارج ريار التغيير وقرارات العزل ، يشكلان دعائمي الخليفة أو قبضتيه في تسييس زمام الامر . واعتقد أنه قادر بذلك على تطبيق أية معارضة ، خاصة بعد افساح المجال لعدد من زعمائها في الاتراء السريع ، سواء عبر الامتيازات الممنوحة لهم في استثمار الارض أو « المخصصات » العالية التي اغدقت عليهم (٢) ، فضلاً عن اعفاء الولاة من قيود الادارة السابقة ، وفي طليعتها « المقاسمة » ، المرتبطة بمداخيل الولاية على اختلافها ، مع الفارق بين سلعة وأخرى « ولا أعفى لهم من عذاب ولاهم من مقاسمة عادلة خفيفة ، فيها للسلطان رضا ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم » (٣) .

وهكذا وقع عثمان في مأزق الخيار الاصعب ، متغلبة فيه نزعة العصبية على بقايا « الشورية » ، التي كانت آخر ملامحها في مجلس السنة الأنف الذكر . وفي الوقت الذي ارتفعت فيه صرخات الاحتجاج منددة بالسياسة القوية المكشوفة ، كان الخليفة يتهم أهل الشورى أنفسهم بالتأمر والتجروء عليه ، مع التنويه بما حققوه من امتيازات في عهده ، بينما لم ينجروا سوى القمع والشدة على يد سلطه (٤) . وكان ثمة عائق حال دون هؤلاء والمضي الى

(١) الامامة والسياسة ج احم 27 .

(٢) الجهمياري ، كتاب الوزراء والكناب ص 21

(٣) VAN VLOTEN, la domination arabe, P. 4

(٤) ابراهيم بيضون .

(٥) أبو يوسف : الخراج ص 54 .

(٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 152

نهاية الشوط ، انهم كانوا حريصين رغم انتعاش مصالحهم آنذاك ، على الحد من « الاستئثار الاموي » الذي أصبح طابع الدولة بشكل عام . وكان لا يزال مرفوضاً لدى زعماء (المهاجرين) كما (الانصار) ، أن تأخذ الخلافة ذلك المنحى الفشوي ، الذي بات واضحاً أنه يقودها الى الوراء . فالسلطة أموية شاء المسلمون أم أبوا ، والا فالسيف هو الحكم كما يجاهر بذلك مروان بن الحكم (١) ، أو يجري انتزاعها من الحجاز و « ينتقل الملك من بين أظهركم » (٢) على حد تعبير معاوية .

ولعل ما نسب الى هذا الاخير يشكل سابقة خاصة في الصراع على الحكم ، الذي ظلّ محصوراً حتى ذلك الحين في الحجاز . وقد لا يكون من الصعوبة بمكان ، ربط هذين الموقفين بخيط موحد ومتناسق . فمروان يدعو الخليفة الذي يسيطر عليه ، الى التصلب وعدم الرضوخ لمطالب الثوار في (المدينة) ، مستخدماً شتى وسائل الضغط بما فيها التهديد (٣) . وفي الوقت نفسه يعد معاوية الخليفة - وهو يفتقر الى الحماية المطلوبة - بجند الشام للدفاع عنه ضد « أهل المدينة » ، الذين « كفروا وخلعوا الطاعة ونكثوا البيعة » حسب قوله (٤) ، علماً بأن هذه الاخيرة كانت مجرد مسرح للثورة ، بعد أن فوجئت بأبطالها قد « نزلوا في مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان » (٥) . وعلى الرغم مما كان لبعض زعمائها من (المهاجرين) من دور تحريضي سافر ، فضلاً عن تصلّو قواد منهم للثوار ، فإن (المدينة) بصورة عامة حيّدت نفسها في هذه الازمة مع نزعة واضحة الى تحبّب العنف ، الذي سينعكس بسلبياته مباشرة عليها . كذلك سارت مكة في هذا الاتجاه ، ولكن بقليل من التأثر وكثير من الصمت ازاء ما يجري في عاصمة الخلافة . ولعل هذا الموقف ستكون له نتائجه الواضحة على العلاقة بين المدينتين الحجازيتين في القرن الاول الهجري ، حيث أوجد نمطاً من اللامبالاة المتبادلة ، التي أخفت ما تكنه احدهما للثانية من تنافس بعيد الجلور . وقد نجد بعض مظاهر تلك العلاقة غير الودية في تجاهل مكة بعد ذلك لثورة المدينة (الحرّة) ، وموقف هذه الاخيرة من الحصارين السفياي والمرواني لمكة ، أثناء التصلّي لابن الزبير .

وكان ابطاء معاوية المتعمد في انقاذ عثمان يقابله تصليب مفتعل لمروان في (المدينة) ، دون أن تكون خافية التطورات المرتقبة للازمة الخطيرة . ومن هنا فإن

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٥٣ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٦٦ .

(٤) الطبري ج ١١٥ .

(٥) سيف بن عمر ، الفتنة وروعة الجمل ص ٦٠ .

افتراض التنسيق بين الرجلين لا يعتبر بعيداً عن محتوى هذه العلاقة ، بما صاحبها من اتفاق مشترك أو حد أدنى من التفاهم على « شرعية الحق الاموي » ، التي أصبحت أمراً واقعاً بالنسبة لكل منهما ، انطلاقاً من المؤشرات التي مرّ ذكرها . ولذلك فإن وضع مسؤولية الثورة التي أطاحت بعثيان ، على عاتق زعماء (المدينة) من (المهاجرين) ، الذين استغلوا نقمة (الانصار)^(١) المتأصلة على الخليفة القرشي ، لا يعتبر كثيراً عن الواقع ، حيث لم يكن ثمة مصلحة مشتركة لكلا الفريقين ، في دفع الازمة الى ما وصلت اليه . كذلك فإن ما ورد من احتجاج على امتيازات أهل (المدينة) الذين كانوا يتقاضون العطاء من دون جهاد ، لم يقصد به (الانصار) أو حتى (المهاجرين) عامة ، بقدر ما كان موجّهاً الى جماعة الخليفة من البيت الاموي ، خاصة وان هذا الاحتجاج منسوب لاحد (الانصار)^(٢) . وهذا يعني انتفاء مصلحة ما لاي من الطرفين ، رغم تفاوت المواقف في تفجير الوضع في (المدينة) ، حيث كان واضحاً الدور الاموي في هذا المجال ، كما سبق أن اشرنا .

وثمة رواية يذكرها (الطبري) ، ان صحابة (المدينة) تكتبوا « بعضهم الى بعض » - دون أن تكون واضحة « جغرافية » المراسلة ، وان كان من البديهي انها تعني الامصار « فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد »^(٣) . فهذه العبارة تعني الدفاع عن الخلافة التي توشك على الانهيار ، وليس التحريض عليها كما يرى (فلهوزن) ، في اعتقاده بأن الصحابة « لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل المدينة وبجاريه - أي عثمان - ... بل آثروا أن يقذفوا النار في الامصار »^(٤) . وفي ذلك تفسير مغلوط للعبارة التي أوردها (الطبري) ، والتي يبدو فيها حرص (المدينة) على التمسك بالخلافة والدفاع عن عثمان كرمز ربما ليس أكثر ، سواء (المهاجرين) من أبناء الصحابة الثلاثة المرشحين للخلافة^(٥) ، أو من كبار (الانصار) ، (زيد بن ثابت وأبو أمية الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت)^(٦) . ويبدو أنّ هذا المؤرخ اعتمد على رواية (ابن الاثير) المقتبسة عن (الطبري) بشيء من التحريف ، حول دعوة « جمع من أهل المدينة من الصحابة

(1) تلويح لدولة العربية ص 44 .

(2) الامامة والسياسة ج 1 ص 32 . راجع تاريخ الطبري ج 5 ص 107 .

(3) تاريخ الطبري ج 5 ص 96 . وروى لدى ابن الاثير مضطربة وربما خضعت للالباس أو التحريف . الكامل ج 3 ص 168 .

(4) تاريخ الدولة العربية ص 44 .

(5) الحسن بن علي ، عبد الله بن الزبير ، محمد بن طلحة . ابن الاثير ج 3 ص 174 .

(6) تاريخ الطبري ج 5 ص 96 .

وغيرهم الى من بالأفاق منهم » للجهاد وانقاذ الدين الذي « أفسده » الخليفة (١) .

وكان من البديهي أن يترك عهد عثمان ، بما رافقه من متغيرات غير عادية ، تأثيره الواضح على أوضاع الحجاز السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت . فثمة هجرة معاكسة حملت المقاتلين والقبائل وأصحاب النظم إلى البلدان المفتوحة . . . وهذه الفئة نفسها أو بعضها - على اختلاف دوافعها - ستقود الثورة على الخليفة ، عندما استقر بها المقام في مراكزها الجديدة واصطلحت بولاية طغى عليهم الثراء ، الذي أخذ ينصب على (المدينة) ويتجلى في دورها الفخمة وحياتها المترفة (٢) . على أن هذا التحول أكثر ما أصاب كبار (المهاجرين) ، الذين شكلوا القوة المضاعفة في عاصمة الخلافة ، بغية شراء سكوتهم على ممارسات الخليفة وجماعته ، وذلك على حساب (الانصار) ، الذين لم يكن لهم نصيب وافر في هذا الثراء ، فضلاً عن غياب صوتهم في مناقشة الازمة السياسية ، التي انحصرت مناقشتها في « نطاق قرشي » (٣) ، سواء على جبهة الخليفة أو الصحابة .

وفي غمرة هذه التحولات ، تشهد (المدينة) حالة غير متوازنة ، بعيد صدارة المسلمين الجدد - غير المهاجرين - وتخلّف القدامى منهم . ولم يبق في واجهة « الادارة العثمانية » من هؤلاء سوى الخليفة فقط ، الذي كان آخر (المهاجرين) التاريخيين في السلطة . ولم تكن عزلة الخلافة سوى امتداد لعزلة أكبر في (المدينة) ، التي انعكست عليها هذه التحولات وعانت منها بصورة خاصة . فقد افتقدت هذه الأخيرة « منبرها الاستشاري » الذي كان له شيء من الحضور المعنوي السابق ، على الرغم من أن تأثيره اتصل بالرموز التاريخية (كبار الصحابة) وليس كإطار تنظيمي (مجلس الشورى) انطوت مهمته الفعلية مع خلافة عثمان . ونتيجة لذلك فقد تعطل ذلك الدور الوسيط للصحابة ، بعد اندراجهم كأطراف في الصراع ، طوعاً أو بالضرورة . وبات التوجّه إلى الخليفة من هذا الموقع المباشر ، الذي حدا بالكثيرين إلى الاحتجاج أو النقد بجرأة ومسوغات لم تتوفر لهم في الماضي .

وما لبثت الأصوات الناقلة أن ارتفعت في ثلاثة من عاوار الاستقرار العربي الاسلامي (البصرة ، الكوفة ، الفسطاط) ، وأخذت النقمة تعبيرات شتى ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢) المسعودي ، مروج ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣) الامامة والسياسة ج ٢٨ - ٢٩ .

مندرجة من اتهام الاعوان بالانحراف الى الخليفة نفسه ، الذي فقد الثقة المعطاة له كمناضل تاريخي في الاسلام ، ليحفظ بموقع فثري ربما قُرض عليه وبات أسيراً له ، دوغما ادراك موضوعي لواقع الامور . على أن (الامصار) ، التي كانت لها اسبابها في النقمة على عثمان ، لم تكن المبادرة في التحرك الذي انتهى الى ثورة دموية في (المدينة) . فقد كان ثمة تحرك سابق ، شهدته هذه الاخيرة ، لتقويم الانحراف ولكن بوسائل غير صدامية . ذلك أن صحابياً كان أثيراً لدى النبي (أبو ذر الغفاري) ، قام بحملة تعبوية صارمة ، ضد طغيان الفتوية ومظاهر الترف والتخمة المحيطة بالخليفة ، تلك التي كان من «صحاباها» (عبد الله بن مسعود) ، آخر الوجوه القديمة في ادارة (المدينة) (1) . وكان هذا الاخير ، وهو صحابي غير متيسر ، مرتبطاً بخيط ما بالمنايع نفسها التي غدّت حركة الغفاري (2) . فكلاهما جسد في تلك اللحظة ضمير الاكثرية المحيطة وعبر عن همومها وانكسارها على طريقته الخاصة . ومن هنا تأتي أهمية هذه الحركة التي لم تكن مبادرة مرجلة أو طافية بكبقة الزيت على السطح في «بحيرة المدينة» ، بل كانت لها من المعطيات ما هو أعمق من ذلك ، لا سيما اتصالها ، ربما بصورة غير مباشرة ، كمضمون اجتماعي مع المعارضة ، التي أخذ يتبلور تمثيلها الحتمي لتيار الأغلبية ، وذلك في أعقاب مرحلة حاسمة من الفرز السياسي استغرق نحو عشرة أعوام .

ولم تكن اسلحة الحكم ووسائله كافية لردع الحملات المتصاعدة التي استهدفته ، مما جعل الخلافة تضطرب أمام هذه المواجهة ، بما فيها حركة الغفاري السلمية (3) . ومع غياب البدائل لوقف الانحياز ، كان العنف هو السبيل الوحيد لامسكات المعارضة ، سواء عبر النفي السياسي (4) والفتوح المفتعلة أو محاولات القمع والتهديد بالقتل والتي طالعت حتى رؤوس الصحابة الكبار (5) . والواقع أن حركة أبي ذر قد هزت أوصال هذا العهد ، الذي أصبح «متهماً» مع خليفته بالاستغلال ومحاربة الاغنياء على حساب الفقراء (6) ، دون أن تدرك السلطة «الأموية» في (المدينة) في الوقت المناسب ، مخاطر تلك الصرخة الجريئة التي ارتفعت قبل أكثر من خمسة أعوام ، وهي المدة الفاصلة بينها وبين الثورة التي أطاحت بعثمان .

(1) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص 157 .

(2) تاريخ الطبري ج 3 ص 80 ، ابراهيم يهون : ملاح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري ص 109 .

(3) تاريخ الطبري ج 66 .

(4) اليقوي ، تاريخ ج 2 ص 171 . المسعودي ، مروج ج 3 ص 340 .

(5) سيف بن عمر : الفتنة ص 53 . الامامة والسياسة ج 1 ص 29 .

(6) تاريخ الطبري ج 5 ص 66 .

ولعل أبسط دلالات تلك المرحلة الحاسمة في (المدينة) ، أن « التواطؤ » الاموي كان واضحاً في النهاية المساوية للخلافة الراشدية في الحجاز . فقد كان التفريغ العسكري الذي تعرض له هذا الاقليم أثناء حملات الفتح ، ومن ثم التفريغ السياسي مع خلافة عثمان ، مقدمة لتفريغه المركزي كنتيجة شبه حتمية ، وذلك في أعقاب البيعة لعلّي والانتقال الى العراق تحت ضغط مؤثرات جغرافية وسياسية واقتصادية . ذلك أن الثقل الاموي في عهد عثمان لم يتمحور في عاصمة الخلافة ، وإنما في ولاية الشام التي استقوت من ضعف الاولى وتقدمت على حساب تراجعها المستمر . ومن هذا المنظور ، فإن الاسرة الاموية تحلقت حول رجلها المستقبلي معاوية بن أبي سفيان ، وهو ما أظهرته جلياً أحداث (المدينة) أبان هبوب الازمة العاصفة ، حيث برزت زعامة والي الشام بصورة لا مجال فيها للنقاش ، منتقلاً اليه الدور التفريري في الاسرة الذي كان منوطاً بمروان بن الحكم⁽¹⁾ .

وفي « مؤتمر » الولاة (34 هـ) الذي يبدو أنه كان يعقد مرة في العام⁽²⁾ ، نبأ لتقليد سابق أو خاص بعثمان ، طغت شخصية معاوية وتوجهت اليه الانظار كرجل الاسرة الاموية القوي ووجه المرحلة الصعبة . ولكن موقفه دفع بالازمة نحو التصعيد أكثر من الحل ، في وقت استنفدت فيه « الخلافة الحجازية » نفسها ويات التصدي لانقاذها أمراً بالغ الخطورة . ومن البديهي أن معاوية الذي انفرد عن اقرانه⁽³⁾ ، بقوته الذاتية المستمدة من ولايته شبه المستقلة وليس من الخلافة المترنحة - « قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الا الخير »⁽⁴⁾ - أن تكون له معطاته المختلفة ومثؤونه الاخرى في المؤتمر ، حيث « ما زال بطمع فيها » - أي الخلافة - على نحو ما ذكرته رواية سيف⁽⁵⁾ . وتكون الكلمة الاخيرة المنتظرة ، دعوة عثمان الى الشام حيث الولاء والنظام ، وهو الطريق الاقصر الى « خلافة أموية » غير مقتنعة . فليس ما يحول دون انتقالها وراثية الى معاوية ، من منظور الحق القرشي نفسه ، الذي يتحمس له والي الشام بصورة خاصة . على أن هذا الاخير قد لا يكون ملحقاً آنذاك في موقفه ، بعدما أفلت زمام الامر أو كاد . فثمة محاذير أملت عليه ذلك ، بصرف النظر عن مدى استجابة عثمان لهذه الدعوة ، وفي طليعتها

(1) الامامة والسباسة ج اص 28 .

(2) سيف بن عمر : الفتنة ص 50 .

(3) عبد الله بن عامر - عبد الله بن سعد بن أبي سرح - سعيد بن العاص - عمرو بن العاص . المصدر نفسه 51-52 .

(4) سيف بن عمر ، الفتنة ص 51 .

(5) المصدر نفسه ص 52 .

الانقسام الحتمي في الجبهة الاسلامية ، حيث تصبح الشام هدف النقمة بعد (المدينة) ، دون أن يكون لديها من مسوغات المجابية ما يؤمن لها النجاح ، خلافاً لما بعد مرحلة عثمان عندما أكسبها مقتلها من العطف والتأييد ، ما كانت تفتقد اليه في ذلك الحين .

سقطت هذه الورقة ومعها كل الاوراق التي حاول الولاة الآخرون استخدامها⁽¹⁾ ، دون أن تصيب جذور المشكلة أو تلامس أسبابها الموضوعية . فبقيت الازمة دون حلّ وتطوراتها أشد تعقيداً ، لكان ما حدث أصبح أمراً واقعاً لم يعد مجال لتفاديه . ولكن « المؤتمر » انفضّ عن ثابتة واضعة ، وهي تكريس الزعامة الاموية لمعاوية ، في الوقت الذي انكفأت فيه زعامة مروان ، بعد أن التصقت به المسؤولية الرئيسية ، وكان « الضحية الاموية » المطلوبة . فبدا معاوية متصدراً واجهة الاحداث حتى قبل « المؤتمر » المذكور، خاصة بعد نفي زعماء المعارضة الكوفية الى الشام ، لينتخذ فيهم القرار التأديبي الملزم ، دون العودة الى الخليفة⁽²⁾ . ولعل متابعة أحداث العاملين السابقين على مقتل عثمان ، توضح لنا أهمية الدور الذي أخذ يمارسه معاوية بشكل مسافر في حياة (المدينة) السياسية ، بالإضافة الى دوره الشامي . فهو لا ينفك متنبهاً شيوخ الصحابة بالتحريض و« استعمال القدر »⁽³⁾ على حد تعبير عثمان ، حيث يجد فيهم المنافس الحقيقي أمام طموحه . ولم يكن أمراً عادياً أن يؤول اليه التحدث باسم الخليفة الى هؤلاء (المهاجرين) ، ناصحاً حيناً ، متوعداً حيناً آخر ، وهو موقف ينبم عن طبيعة هذه العلاقة المتردية ، حيث يربط وجودهم في (المدينة) باشتغال الازمة السياسية فيها ، ولذلك ينبغي إبعادهم بأية وسيلة ، سواء بالنفي الافرادي (فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد)⁽⁴⁾ أو بالقتل الجماعي (بضرب اعناق هؤلاء القوم)⁽⁵⁾ .

وهكذا تشهد (المدينة) بروزاً غير عادي لوالي الشام ، الذي يبدو أنه حاز على بئرة الامويين آنذاك وعلى رأسهم الخليفة ، الذي نُسب اليه تزكية هذا الامر بما في ذلك المطالبة بدمه اذا ما تعرض للقتل⁽⁶⁾ . ولكن والي الشام الذي غادر الحجاز

(1) سيف بن عمر ص 53 . تاريخ الطبري ج 5 ص 94-95 .

(2) راجع قول علي لعثمان في أحداث 34هـ . « فان معاوية يقطع الامر دونك فيقول للناس هذا امر عثمان » الطبري ج 5 ص 97 .

(3) الامامة والسياسة ج 1 ص 29 .

(4) الامامة والسياسة ج 1 ص 30 .

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 29 .

(6) المصدر نفسه ج 1 ص 30 .

وهو رجل الامويين البارز وصاحب أقوى نفوذ في الدولة ، يترك وراءه أكثر من تساؤل حول موقفه من الخليفة ، الذي اشتدت عليه العزلة ، دون أن تتوفر لديه حماية عسكرية أو يكون لديه حرس خاص⁽¹⁾ . فالخجاز عامة كان خالياً من أية قوة مسلحة ، منذ حملات الفتوح حتى توافد الثوار الى (المدينة) . ولم يكن من سبيل لسد هذه الثغرة ، الا بقوات من الشام ، الولاية الوحيدة التي ظلت على ولائها المطلق . على أن هذا الولاء لم يكن للخليفة الذي كان يعيش آخر أيامه ، بقدر ما كان خاصاً بواليتها ، الذي لم يتفقد ما وعد به من ارسال « أربعة آلاف من خيل الشام »⁽²⁾ ، لتثبيت السلطة في (المدينة) رغم التسع من الوقت ، ما بين عودة معاوية وسقوط عثمان ، بعد حصار دام أربعين يوماً⁽³⁾ ، وهي مدة كافية لوصول الفرسان الشاميين الى عاصمة الخلافة .

ومع انعدام الحلول الجذرية وفشل المراهنة على والي مصر (عبد الله بن سعد) ، بعد « تجاهل » والي الشام ، لم يجد عثمان سبيلاً للتخلص من محنته ، سوى محاولة التحالف مع الوقت وإعادة الجسور مع الصحابة الكبار (أهل الشورى الاربعة) ، لا سيما علي الذي كان المحاور الرئيسي على مختلف جبهات (المدينة) . ولم تلبث هذه الاخيرة أن تحولت اليها نقمة المعسكرات ، التي أرسلت وفودها لارغام الخليفة على تحقيق مطالبها الاصلاحية بالقوة ، وهي تندرج من معاقبة المسؤولين خاصة الولاة ، الى تعديل سياسة الخلافة الاقتصادية ازاء (الامصار) . وليس ما يؤكد وجود خطة مشتركة لدى المجموعات المسلحة الثلاث - التي وصلت تباعاً الى (المدينة) من الكوفة والبصرة والفسطاط - تنطوي على ذلك « الحل » الذي انتهت اليه . فثمة ما يحمل على الاعتقاد ، بأن العملية لم تهدف الى أكثر من الضغط المباشر على الخليفة عبر تلك الوسيلة الاستعراضية المسلحة . ولعل ما يعزز هذا الاتجاه ، القوة العسكرية المتواضعة التي لم تزد كثيراً عن الالفين من الجند⁽⁴⁾ ، وهي غير كافية لتنفيذ خطة عسكرية على هذا المستوى وفي ظل احتمالات جذية للتدخل الشامي ، بالاضافة الى امتداد الازمة دون الاستعانة بقوات جديدة وما وافق ذلك من ارتباك قادة الجند أثناء الحصار ، والفراغ الذي أحدثه مقتل الخليفة

(1) فلهوون ، تاريخ الدولة العربية ص 46 .

(2) الامامة والسياسة ج 1 ص 29 .

(3) تاريخ الطبري ج 2 ص 176 . وردت في الطبري : تسعة واربعين يوماً ، ج 1 ص 122 .

(4) شارك كل من الامصار ، حسب ولاية سيف بن عمر باعداد تراوحت بين الستمائة والالف مقاتل . الفتنة ص 37 . وقد ورد الرقم الاول في رواية لقريظ بن الحارث الطبري عن تقدير المجموعة المصرية . تاريخ الطبري ج 5 ص 116 .

دون أن يكون مطروحاً اسم البديل .

وكان فشل الصحابة ، الذين لم يتفقوا على رأي موحد ، وتذبذب الموقف على جبهة الخليفة بين الاستجابة والتراجع ، نتيجة التجاذب في التأثير بين علي ومروان ، قد أوصل خلافة الحجاز الى مصيرها المرتقب ، خاصة بعد قرار الحصار الذي فرض خيبراً صعباً على كلا الفريقين . فمن ناحية كان علي يرى في جهاز الخليفة مصدر المشكلة ومفتاح الحل في آن ، ومن ناحية أخرى كان مروان يضغط نحو التصلب ، دون معطيات ما للصمود ، مما أثار الشبهة حول موقفه ، الذي لم يغيب عن زوج الخليفة ، عندما حذرت من الاستماع لمروان الذي يسوقه الى القتل (١) . ولم نلبث المطالبة بتصحيح الأوضاع في (الامصار) ، عبر التمرد على الولاة كهدف مباشر في بادئ الامر ، ان تحولت الى ثورة على الخليفة نفسه ، الذي أصر على التمسك بسياسته وقرارات ممارسات ولاته ، باستثناء ما قيل عن تغيير والي مصر (٢) وتعيين محمد بن أبي بكر ، الذي تبين أنه لم يكن جذياً بعد تراجع عثمان عنه . وكان ذلك بمثابة الشرارة التي فجرت الثورة وأدت الى حتمية المجابهة الدموية ، بقيادة الوالي المعين الذي كان على رأس المقتحمين لبيت الخليفة .

وتبقى ملابسات هذه الحادثة التي أودت بحياة عثمان على شيء من الغموض (٣) ، ولكن أقل من الحادثة السابقة (اغتيال عمر) . على أن للحادثتين التقاء معيناً مع انعكاسات حركة الفتوح على الحجاز وانتقال النفل السياسي والاقتصادي الى (الامصار) ، الذي تكرم بعد مقتل عثمان . فقد أوجدت الظروف الجديدة حالة غير متلائمة في الدولة الاسلامية ، بحيث لم يعد الحجاز مقرها الطبيعي على الصعد المختلفة . ومن ناحية أخرى كان لتشكيلات القبائل البدوية ، التي غمرت مناطق الفتوح في ذلك العهد ، بعد أن سبقتها القبائل « المدينة » في الموجات السابقة ، اسهام كبير في هذا الاختلال الذي أدى الى تعقيد العلاقة بين عاصمة الخلافة والامصار . فهذه القبائل التي جاءت الى المعسكرات ، متأثرة بنمطها الحياتي القديم ، توافقت مزاجها الى حد كبير مع نظام الغنائم الذي سارت عليه الدولة منذ خلافة عمر . وكانت إعادة النظر التي أجراها عثمان في وضع صحابة

(1) ابن الأثير ، الكامل ج 3 ص 166 .

(2) جاء بضغط من المصريين وتأيد كل من عائشة وطلحة ، على نحو ما ورد في الامامة والسياسة ج 1 ص 35 .

(3) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص 685 .

(المدينة) ، وجعلهم من قریش ، قد جعل موقف القبائل غير ودي من عهده وهي علاقة ربما ترقى الى ايلم « الایلاف » حيث كانت مكة تتعاطف في مصالحها مع المدن ومراكز الاستقرار ، أكثر من القبائل البدوية الضاربة حولها أو بالقرب من طرقها التجارية .

وكان « الافراج » عن الصحابة والحصول على امتيازات واسعة في مناطق الفتح ، قد أثار حساسية القبائل غير القرشية التي كانت راكدة في العهد السابق . ولكن دائرة التنافس أخذت تتسع ، حيث حل الصحابة مع امتيازاتهم والتي كان من أبرزها سابقة « أقطاع القطائع »^(١) لهم في العراق ، عندما انتقلت اليهم ملكية الأراضي الخصبية المعروفة بـ (الصوافي) ، التي كانت تمتلكها الاسرة الحاكمة بععاونها في الامبراطورية السامانية « ما كان لكسرى ومرازيته »^(٢) . وكان انتقالها من الملكية العامة - كحالة خاصة من الأراضي التي « اصطفها »^(٣) الدولة لجميع المسلمين الى ملكية الصحابة - قد ترك نتائج السلبية على بيت المال حيث شكلت عنصراً هاماً من مصادره ، استناداً الى ما أورده القاضي أبو يوسف^(٤) . وإذا كان اسم محمد بن أبي بكر قد تردد في مقتل عثمان حيث كان له دور بارز في الحصار الطويل ، فإن أية رواية لم نشر الى اسماء من (المهاجرين) أو (الانصار)^(٥) ، شاركت في هذه الثورة ، التي كان مسرحها عاصمة الخلافة . ولم يكن ورود « أهل المدينة » في عدة روايات^(٦) ، الا نوعاً من الالتباس ربما غير المقصود ، للدلالة على ثوار الامصار الذين احتلوا عاصمة الخلافة طوال تلك الفترة . فقد أقتصر الامر على محمد بن أبي بكر الذي ارتبط وحده بالثورة من أهل المدينة ، بينما لم يتجاوز موقف الصحابة الكبار وابنائهم التأييد المعنوي للخليفة ، دون القيام بأية محاولة احترازية لمنع ما حدث . فكان هذا « التجاهل » - باستثناء الدور الذي قام به علي كيا أسلفنا - وربما التحريض المبطن الذي مارسه بعضهم (اتهام عثمان لطلحة)^(٧) ، وراء افتقاد المدينة دورها المؤثر في تلك المحنة ، التي كانت معنية بها بشكل مباشر ، وذلك انطلاقاً من ارتباطها بمواقف زعمائها من الصحابة . على أن محمد بن أبي بكر ، الذي كانت له دوافعه الخاصة من الخليفة « الغضب والطمع »^(٨) ، خاصة ما قيل عن تعيينه على مصر والعودة عن ذلك ، لم

(1) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص 164 . محمد حمادة : مسلمون نوار ص 33 .

(2) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص 62 .

(3) الرئيس ، الخراج في الدولة الاسلامية ص 139 .

(4) « وكان خراج ما استصفاه عمر سبعة آلاف ألف » كتاب الخراج ص 63 .

(5) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 192 .

(6) تلويح الطبري ج 5 ص 115-116 . راجع أيضاً فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص 47 .

(7) تلويح الطبري ج 5 ص 122 . ابن الاثير ج 3 ص 174 .

(8) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 181 .

يرد اسمه بين الذين نفذوا قتل عثمان . وكل ما يشار اليه ، جاء في معرض الاحتجاج « لو رآك أبي تعمل هذه الاعمال لانكرها عليك » (١) . ويبدو أنه شأن « أهل المدينة » ، لم يدر في خلده تطور الامور الى ما انتهت اليه ، حيث كان همه الضغط على الخليفة لحمله على الاعتزال ، وهو المطلب الذي تمسك به الثور بعد فشل المحاورة مع عثمان حول تنفيذ السياسة الاصلاحية (٢) .

ولعل ما ورد في أحد المصادر أن محمد بن أبي بكر ، تسوّر دار رجل من (الانصار) ، فدخل على الخليفة « فصرعه » (٣) ، فإن هذه الكلمة لم ترد بمعنى القتل ، حيث يخرج الاول « منكسراً » (٤) في أعقاب ذلك وقد فعلت فيه كلمات عثمان المؤثرة ، بينما الثاني يسعى الى القرآن بين يديه ، ليكون الشاهد الاخير على دماء الخليفة التي سالت عليه (٥) . ففي تلك اللحظة يقتحم ثلاثة أو أربعة من الرجال المغموين (٦) دار الخليفة ، ويجهزون عليه بأسلوب لا يخلو من الانتقام . وكان هؤلاء استناداً الى الانتهاء الذي يمثلون ، متحدّرين من تشكيلات قبلية غير حجازية ، أي من القبائل المتأخرة في الاسلام والمهجرة الى مناطق الفتوح . ولعل الطريقة التي تم فيها اقتحام المنزل واحراقه ، ومن ثم الهجوم على بيت المال وانتهاك محتوياته ، تعبّر عن غمط خاص بهذه القبائل ، وتؤدي ربما الى ثابتة بأن البدوهم الذين قتلوا عثمان ، بعد أن تهيأت لهم الظروف التحريضية الملائمة والمشجعة . وثمة رواية منسوبة لعل قوله في أعقاب بيعته : « أيها الناس اخرجوا عنكم الاعراب » (٧) وأخرى تنسب لابنه الحسن في معرض الردّ على الذين سألوه اذا « كان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والانصار ؟ قال لا ، كانوا اعلاجا من أهل مصر » (٨) . وقد يفسر ذلك غياب بعض قادة الامصار أو اعتزالهم كالأشتر (الكوفة) وحكيم بن جبلة (البصرة) (٩) آخر فصول المحنة ، حيث تجاوز تطورها حدود الحركة الاصلاحية التي قاموا بها .

وهكذا يأتي مقتل عثمان محصلاً شبه حتمي للمتغيرات التي طرأت على الخلافة

(١) ابن الأثير الكامل ج 3 ص 178 .

(٢) ابن الأثير : الفتوح ج 2 ص 200 .

(٣) الامانة والسياسة ج 1 ص 41 .

(٤) تاريخ الطبري ج 5 ص 130 .

(٥) المصدر نفسه ج 5 ص 130-131 . ابن الأثير ج 2 ص 236 . الفلفلسني ، عتبة الارب

(٦) ص 174 ، 354 .

(٧) تاريخ الطبري ج 5 ص 159 .

(٨) خليفة بن خياط ج 1 ص 192 .

(٩) تاريخ الطبري ج 5 ص 120 ، 122 . تاريخ الفتوح لابن الأثير ج 2 ص 235 .

الراشدية في مطالع القرن الاول الهجري ، حيث نال الحجاز منها نصيبه الوافر . فقد أحدثت « هجرة » الفتح نقصاً في السكان لم تعوضه الهجرة المعاكسة التي جذبتها عاصمة الخلافة بصورة مؤقتة ، بحيث أسهمت الاولى في تفريغ الاقليم بما لذلك من تأثير سلبي على طاقته البشرية لا سيما الشابة ، بينما الثانية على ضآلتها كانت لها ملامحها النوعية ، كونها ضمّت عناصر غير عربية (فارسية في الغالب) ، أخذت تتردد اسماءها في أحداث (المدينة) ، تاركة بصماتها على الحياة الاجتماعية التي شهدت تحولاً ظاهراً في تلك الفترة . فثمة فراغ بشري أحدثته انتقال عشائر بكاملها الى (الامصار) ، يقابله ثراء فاحش وتطور غير عادي في المستوى الحياتي ⁽¹⁾ ، ومارافق ذلك من تمازج حضاري انعكس خاصة على المدن الحجازية .

ومن ناحية أخرى ، فإن الطابع الحضري الذي غلب على المجتمع الجديد والذي كان واضح الخلفية في مكة القرشية ، كان أحد مصادر النعمة على عاصمة الخلافة ، الاكثر ترفاً في الحجاز و (الامصار) . فقد كانت مكة - رغم نشأتها كسوق محلي يعتمد على مبادلات القبائل البدوية المحيطة بها - تقيم علاقاتها الاساسية مع الدول ومراكز الاستقرار ، عبر « المنظومة الايلافية » المعروفة . كذلك سارت دولة (المدينة) والراشدين في هذا التوجّه « الحضري » ، الذي نلمسه في مراسلات النبي الى الملوك والامراء منذ وقت مبكر (7 هـ) ، وفي مقولات منسوبة اليه ، تميّزين « هجرة البادي » الذي عليه أن يجيب اذا دُعي وان يطيع اذا أمر « وبين » « هجرة الحاضر » التي هي « أعظمها أجراً » ⁽²⁾ ، أو بأن « لاهل الحاضرة فضيلتهم » ⁽³⁾ في الاطار نفسه من التقويم . كما نلمسه لدى الخلفاء الراشدين ، لا سيما عمر ، الذي قرن الحضر بالجماعة « الوحدة » والبدو بالتشرذم « الفتنة » ⁽⁴⁾ ، رغم اضطراره الى تعديل هذه العلاقة في أواخر عهده ، بعد الحاجة الى اسهام هؤلاء في حملات الفتح التي أصبحت دائرتها من الاتساع بحيث لم تعد عناصر « الحضر » قادرة على استيعابها بصورة متكافئة . ولعل هذا الموقف يصبح أكثر بلورة في قول متأخر لاحد الخلفاء الامويين (عمر بن عبد العزيز) ، كان شديد التأثر بالسلفية الراشدية ، ومنها هذا الاتجاه « عليك بأهل الحاضرة واياك والاعراب » ، فانهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدتهم » ⁽⁵⁾ .

واذا ما أضفنا الى ذلك التعديل الذي طرأ على تشكيلة العناصر المسهمة في حملات

(1) صالح أحمد الطلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز من 967 ، مجلة العرب عدد 11 ، (1969)

(2) أبو عبيد ، كتاب الاموال من 313 .

(3) الاموال من 313

(4) المصدر نفسه من 325 .

(5) المكان نفسه .

الفتوح ، بعد افراح المجال للقبائل « البدوية » المرتدة ، المشاركة فيها ، بحيث شكلت القوة العسكرية الرئيسية في الدولة ، أصبح بالامكان تقويم الدور الكبير الذي كان في متناول هذه القبائل ومدى تأثيره على الخلافة كمؤسسة مدنية ، أصبحت شبه مرتبهة لها . وكان بروز عدد غير قليل من البدو في المراكز القيادية بالإضافة الى غلبة جندهم في الحملات الكبرى ، قد أحدث خللاً في المعادلة التي اهتزت مع وجود خليفة غير قوى في السلطة ، في وقت كانت لا تزال العصية القبلية متجذرة لدى هؤلاء البدو ، الذين أخذوا من الفتوح ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة ، وتمسكاً في اطار القبيلة الواحدة . وكان لذلك وجهان متناقضان ، احدهما اقترن بمشاركة البدو الفعلية في الانتصارات الكبرى ، التي أدت الى تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، وثانيهما انعكس على الخلافة التي أصبحت مقيدة بسياساتها التوسعية وحاجتها المستمرة الى الجند ، حيث كان مصدرهم الرئيسي شبه الجزيرة ، « المستودع الاكبر للاحتياط »⁽¹⁾ الذي يغذي الجبهات العسكرية .

ومن الواضح أن تقلص عائداً هذه القبائل بعد ركود موجة الفتوح ، وما آل اليه الوضع المعيشي من ارتفاع في الحجاز ، فضلاً عن امتيازات الصحابة و « الاقارب » في عهد عثمان ، قد أوجد نوعاً من المجابهة الحتمية بين جند (الامصار) وبين الخلافة التي كان الالتزام بواجباتهم نحوها ، بقدر ما توفره لمصالحهم من الاستمرار والتوازن . ولقد جاءت الانتفاضة على الخليفة ، تحت تأثير تطورات « انقلابية » في المجتمع الحجازي ، قطعت ثمرتها قريش بصورة خاصة . ولذلك فإن غياب الموقف السياسي في (المدينة) ، كان مرتبطاً بغياب القواصم المشتركة في المعاناة والدوافع بينها وبين (الامصار) . فتمة سحق واضح - كراي عام - على سياسة عثمان في عاصمة الخلافة ، ولكنه لم يتجاوز حدود النقد ، وبالتالي فإن الموقف من الثوار اقتصر على التعاطف المقنّع ، الذي لم يرق الى التحالف والاتفاق الضمني على قتل الخليفة . ومن هذا المنظور فإن الثورة التي أطاحت بعثمان ، استهدفت أيضاً « الامرة الحاكمة » فضلاً عن الامتيازات الحجازية . ولذلك كانت هذه الحركة واضحة الامتداد في العراق الذي يعجّ بالزند ، كونه على تحوم بقايا الامبراطورية الفارسية . أما الثورة الاولى فكانت في الكوفة التي توفرت فيها شروط التحرك المناهض لخلافة عثمان ، عبر الاصدام مع أقوى شخصيتين من البيت الاموي في الامصار . واذا كان سعيد بن العاص يرى في « السواد بستاناً لقريش »⁽²⁾ كما ينسب اليه ، فإن الخلافة لا تختلف عن « السواد » في مفهوم معاوية ونظريته في السلطة القرشية و « حقها

(1) صالح العلي ، تنظيم جبهة الصناعات في القرن الاول الهجري ، مجلة العرب عدد 10 ص 166 (1969) .

(2) تاريخ الطبري ج 5 ص 88 .

ولقد كان الوفد المنفي الى الشام في تشكيلته القبلية المتنوعة ، لا سيما القبائل اليمنية الكبرى ، التي مثلها زعماء المعارضة في الكوفة (2) صورة لذلك التناقض بين الخلافة و(الامصار) في ذلك الحين . ولعل ما يثير الانتباه ، ان لا نجد صوتاً للقبائل الحجازية مع المنفيين الكوفيين ، فضلاً عن البصريين الذين ساروا في أعقابهم الى الشام (3) ، مما يفسر غياب الحجاز أيضاً في انتفاضة الكوفة أو في الثورة التي شهدتها عاصمة الخلافة ، والتي استهدفت هذا الاقليم ربما بصورة غير مباشرة .

(1) المصدر نفسه ج ٥ ص 86 .

(2) الفتح لابن الاثم ج 2 ص 174 .

(3) تاريخ الطبري ج 5 ص 90 .

الحجاز عشية انتقال الخلافة

الى الكوفة

« . . ولدت هذه الفكرة في (المدينة) وانطلقت منها تحت تأثير العزلة السياسية المحيطة بها ، ولم تأت عرضاً كما هو شائع في أعقاب معركة الجمل »

لقد بات واضحاً أن الثورة المسلحة التي أشعلتها (الامصار) في (المدينة) وانتهت عن ، تخطيط أو ارتجال ، الى مقتل عثمان ، لم تقتصر في نتائجها على تغيير خليفة أدين بأخطائه والاتيان بأخر ليحقق الإصلاح المنشود . ذلك أن الجرح الذي أصاب الدولة الراشدية ، كان من الصعوبة ان يلتئم ، قبل إعادة النظر في المشاكل التي سببت مصرع الخليفة وربما سلفه ، وقبل تقويم الموقف العام في ضوء المعطيات الجديدة والفرز الحتمي للقوى السياسية في (المدينة) ونخرجها . ولعل الأسلوب الذي رافق الفصول الأخيرة للثورة ، جعل منها حدثاً غير عادي لا يتوازى مع أي حدث آخر في التاريخ العربي الاسلامي . فقد وضع سابقة خطيرة في العلاقة مع السلطة ، عبر استخدام الحلول المتطرفة بحيث أصبح الاغتيال السياسي من الامور المألوفة التي تطال حتى الخليفة .

وفي وسط الذهول الذي سيطر على عاصمة الخلافة ، كان هاجس الثوار هو الخروج من المأزق الذي وجد الثوار انفسهم فيه ، دون أن يكون لديهم خطة ما لاحتماء التطورات المستجدة . وكان الارتباك الذي رافق استيلاءهم على السلطة خلال الايام الخمسة (١) ، الفاصلة بين مقتل عثمان وبيعة علي ، قد كشف ابعاد هذه الحركة الارتجالية ، التي انتهت الى المضمون فضلاً عن البديل . وفي المقابل كان الموقف شديد الغموض على جبهة الصحابة ، المتراوحة بين الصمت والمناورة ومن ثم التهيب من ركوب المركب الحشن وتلقي الميراث الثقيل بعد مقتل الخليفة ، بما في ذلك الارتباك لاكثر من

(1) يرييف بن عمر : الفتنة ووقعة الجمل ص 91 . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج 3 ص 192 .

طرف ، لا سيما الثوار الذين أمسكوا بيدهم زمام السلطة « المؤقتة » في (المدينة) وعلى رأسهم الغانقي بن حرب ، أحد المشاركين في قتل عثمان ^(١) . فقد جاءت هذه الحركة ، التي أفرزتها مشكلات الفتوح الاقتصادية والاجتماعية ، تحت شعار التصحيح وكسر الاحتكار الفئوي ، المتمثل بخلافة عثمان . ولكنها جنت الى ما هو أبعد من المطلوب ، باسقاطها آخر الاشكال « الشورية » للسلطة في الاسلام ، التي فقدت المسوغات الشوعية حتى المنفعة منها كخلافة للنبي مؤسسها الاول ، وذلك مع تقلص الجيل التاريخي من الصحابة ، الذي ارتبطت به « الشورى » بصورة عرفية على الاقل .

ولم يكن قد بقي من « أهل الشورى » الا ثلاثة (علي ، طلحة ، الزبير) بعد موت عبد الرحمن بن عوف - الذي كان له دور رئيسي في خلافة عثمان - واعتكاف سعد بن أبي وقاص ^(٢) في وقت سابق . وكان واضحاً رغم التنافس المبطن ، أن علياً سيقع عليه الاختيار الصعب ويقطف « ثمرة تلك الفعلة المحملة بالبلاء » كما يقول (فلهوزن) ^(٣) . ولقد كان علي لا يزال في (المدينة) لم يبرحها الى مكة ، التي غدت مركز تجمع الهاربين من البيت الاموي واستقطاب المعتكفين والطاعين من الصحابة ^(٤) . فبيع علي تحت ضغط الثوار وتهديد الاشر ^(٥) ، وسودان بن حمران المرادي قاتل عثمان ^(٦) . وتقبل الامر بغير حاسمة ، بعد أن فقدت الخلافة بريقها المركزي الذي انطفأ مع قتل الاخير . ومن الواضح أن (الانصار) قاموا بدور كبير لمصلحته ، حيث كان ينظرهم الشخصية التي ارتبط اسمها بالنبي وما يمثله ذلك من أهمية خاصة في تاريخ (المدينة) . ولم يحمل اختيار علي شيئاً من المفاجأة لاحد ، بعد أن برز اسمه أبان الازمة في الدور التوفيقي الذي شغله بين عثمان والامصار ، ومن ثم قيامه ببعض شؤون الخلافة الدينية أثناء الحصار ^(٧) .

وكانت الثغرة الاساسية في خلافة علي ، ليس افتقاده الى البيعة الاجماعية فحسب ، ولكن في غياب التغطية القرشية سواء من (المهاجرين) ، أم من المكين الذين أصبحت مدينتهم أول مراكز المعارضة العلنية ضد الخليفة الجديد . فبينما تعاطفت معه الاكثرية الكاثرة من (الانصار) ^(٨) اقتصر تأييد المهاجرين على قلة قليلة من أمثال (محمد بن أبي بكر

(1) ابن كثير راجع ص 183

(2) تاريخ الطبري ج ٥ ص 155 ، 156 . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 177

(3) تاريخ الدولة العوية ص 53 .

(4) تاريخ الطبري ج ٥ ص 156 .

(5) ليكان نفسه T. I P. 722 de l'Islam. Vaglieri

(6) الفتح لابن الاثم ج 2 ص 246 .

(7) ابن كثير البداية والنهاية ج 7 ص 177

(8) تاريخ الصري ج ٩ . الفتح لابن الاثم ج 2 ص 244-245 .

وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وأخوه عمرو بن عتبة والعباس بن ربيعة بن الحارث (١) . هذا مع العلم أنه لم يكن أقل قرشية من أسلافه الخلفاء ، حيث بدا متحسماً لها في أكثر من مناسبة (٢) ، ولكن بجيئه إلى السلطة كان يحمل التهديد لمصالح زعماء (المهاجرين) وكبار الصحابة التي انتعشت في عهد عثمان (٣) . ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي حدث بـ «يسير» (٤) من (الانصار) إلى المعارضة وحجب عشرة منهم البيعة : (حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن غنم وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة) ، ثم انخفضوا بعد ذلك إلى خمسة في حروب صفين (٥) . وكان بعض هؤلاء يشغل مهمات في إدارة عثمان مثل زيد بن ثابت ، صاحب بيت المال بعد عبد الله بن مسعود وكعب بن مالك الذي تولى صدقات (مزينة) (٦) .

ومن هذا الواقع سيكون اعتماد علي في إدارته بصورة أساسية على (الانصار) ، الذين شغلوا المراكز الهامة في الحجاز والأماص : أبو قتادة الانصاري (مكة) ، وسهل ابن حنيف وأبو أيوب الانصاري (المدينة) وقيس بن سعد بن عباد (مصر) وعشان بن حنيف (البصرة) وقرظة بن كعب الانصاري (الكوفة) - قبل انتقال علي إليها - والنعمان بن العجلان الانصاري (البحرين) (٧) . وكانت تلك سابقة في سياسة الخلفاء حيث كانت الصدارة في عهودهم للمهاجرين ، باستثناء وظائف ثانوية أو مهمات مؤقتة ، تولوها (الانصار) منذ خلافة عمر ، كاستدباب زيد بن ثابت على (المدينة) أثناء موسم الحج (٨) واستخدام مسلمة بن غنم على صدقات فزارة (٩) . ولكن جيشه سيفتقد إلى وجوه حجازية بارزة ، إذا تجاوزنا جماعة من بني هاشم وقيم (محمد بن أبي بكر) وزهرة (هاشم ابن عتبة وأخوه) ، وكذلك بعض الانصار (في طلبهم قيس بن سعد) ، بعد أن تحلّف قسم كبير منهم عن مواكبته إلى العراق ، معترضاً على مبدأ الخروج من الحجاز (١٠) . وهذا ما جعل القوة العسكرية التي اعتمد عليها علي في غالبيتها من القبائل غير الحجازية ، لا سيما

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٢ .

(٢) الغلابي البصري ، وقعة الجمل من ٤٧ . الفتح لابن الأعمش ج ٢ ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٣) ابن رجب ، الاستخراج ص ١٠٦ . ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١٩٦ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٥٣ .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٥٣ . J. VESELY, AL-Ansār, P. 40 .

(٦) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٥٤ .

(٧) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ . ابن ظهيرة القرظي ، الجامع النظيف ص ٢٨٦ .

(٨) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ١٥٣ .

(٩) أبو أحمد محمد بن زنجويه : كتاب الأموال (هبوط) ورقة ٣٧ ، رقم ١٠١٤ ، مكتبة الظاهرية .

(١٠) الفتح لابن الأعمش ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

اليمنية التي كانت طاغية في حروب الجمل وصفين^(١) . وكانت مكة التي عاشت في الظل منذ أن تم فتحها قبل أكثر من ربع قرن ، قد عادت الى الواجهة بعد استرداد مهاجريها^(٢) الذين اعتصموا فيها ، كتعبير عن موقفهم السلمي من الخليفة الجديد . وكان لذلك دلالة على أحياء الصراع القديم بينها وبين (المدينة) ، بعد أن اضطرت للتسليم بزعامة هذه الأخيرة ، كحاضرة للدولة في ذلك الحين . وقطعت الثورة المضادة في مكة شوطاً بعيداً في الأعداد والتنظيم ، حيث كبار المعارضين لعلي ، من عائشة التي انتقلت اليها عشية مقتل عثمان الى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، اللذين تراجعا في اليوم التالي عن بيعه أكرها عليها بالقوة^(٣) . ولم تكن هذه الحركة قليلة الخطورة ، كونها تمثل انتفاضة « قرشية » بزعامة اثنين من كبار (المهاجرين) وتحظى بتغطية معنوية من زوج النبي وابنة الخليفة الاول ، فضلاً عن مشاركة بني أمية وبعض القبائل الخليفة^(٤) . وبدأت (المدينة) مرة أخرى في مواجهة مكة التي تمردت على خليفة ، « سيكون على فريش أشد من غيره^(٥) » ، وذلك تحت ستار « إقامة الحدود^(٦) » على قتلة عثمان . وكان طلحة الاسم البارز في هذه الحركة ، حيث شارك عائشة في نسبه التيمي وفي التأليب على عثمان إبان محنته ، فضلاً عن التطرف في مناوأة الخليفة الجديد^(٧) .

وهكذا جاء اختيار عائشة وأصحابها لمكة ، دون (المدينة) التي لم تبد أية حماسة لتأييد حركة يغلب عليها الطابع القرشي ، فعزفت عنها الى علي الأقرب الى مصالحها من (المهاجرين) . وجاء قدوم يعلى بن منية (التيمي)^(٨) - وهو حليف فريش ووالي عثمان على صنعاء - في الوقت المناسب ، ليضع هذه الحركة موضع التنفيذ بعد أسهامه بدور كبير في تمويلها ، حيث يشار الى وصوله ومعه « ستمائة بعر وستمائة ألف » وأقامته معسكراً في الابطح^(٩) . وفي رواية ثانية أنه دفع للزبير « اربعمائة ألف وسبعين رجلاً من فريش^(١٠) » . ويبدو أن الزبير كان على علاقة مباشرة به ، حيث يرجح أنه استدعاه في وقت

(1) الفتح لابن الأثير ج 3 ص 32-33 .

(2) تاريخ الطبري ج 5 ص 157 . محمد عسوة ، الخلافة والاحزاب الإسلامية ص 100

(3) تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 176 .

(4) تاريخ الطبري ج 5 ص 158 .

(5) ابن الأثير ، الكامل ج 3 ص 195 .

(6) الطبري ج 5 ص 156 . ابن الأثير ، الكامل ج 3 ص 182 ، 206

(7) تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 176 .

(8) تاريخ الطبري ج 5 ص 166 .

(9) المصدر نفسه ، ج 5 ص 167 .

سابق لهذه الغاية . وقد ورد في (الفتوح لابن الاثم) أنه نزل في مكة « ومعه اربعمائة بعير ، فدعا الناس الى الحملان . فقال له الزبير : دعنا من اهلك هذه ، هات فأقرضنا من مالك ما نستعين به على ما نريد . فأقرضهم مئتين ألف دينار ، ففرنها الزبير فيمن أحب ممن خف معه » (1) . ولقد شارك عبد الله بن عامر - وإلي عثمان على البصرة - في تمويل الجيش الذي جرى تشكيله في مكة حيث « دفع مالا كثيراً وإبلًا » حسب ما أورده الطبري (2) .

ومن المثير أن مكة التي انتقل اليها السواد الاعظم من « قريش الحجاز » ، في محاولة للضغط على علي ودفعه الى التنازل ، لم تحقق في استعادة دورها المفقود من (المدينة) فحسب ، ولكنها دفعت بالحجاز الى الوراء ، « وتآمرت » بصورة غير مباشرة على افراده من مركزية السيامية ، بعد أن بادرت بالخطوة التنفيذية الاولى في هذا السبيل . فقد تبين أن العزلة التي استبدت بها منذ « الفتح » ، تحول دون اتخاذها موقفاً ملائماً للشورة على الخليفة الذي يتمتع بالنصيب الاوفر من التأييد الجبازي ، فضلاً عن ذلك ، فإن الطاقة الحيوية لقريش ، سواء على الصعيد البشري أم السياسي ، لم تعد في مكة ، حيث انتقلت بثقلها الى الشام ، المحور المستقبلي للزعامة القرشية . ولذلك وقع الاختيار على البصرة ، التي كان لطلحة خاصة علاقة ودية مع بعض القبائل فيها . وقيل ان عبد الله بن عامر - واليها السابق ، وأحد اركان الحركة في مكة - كان من المحرضين على الانتقال اليها ، حيث فرص النجاح أشد وضوحاً منها في هذه الأخيرة (3) .

من الواضح أن علياً لم يفرز باجماع (الامصار) ، حيث أثارت بيعته جدلاً حتى في أوساط ممثليها الذين كانت لهم الكلمة الاولى فيها . فقد تمحس له « الكوفيون » لا سيما الاشر النخعي ، الشخصية الاقوى بين قادة الامصار ، بالاضافة الى « المصريين » الذين كانوا أول من طرح اسمه للخلافة . وكان طلحة الذي رشحه أهل البصرة (4) ، أكثر الصحابة الكبار جرأة على عثمان ، دون أن يخفي ذلك طموحه لان يكون مرشح المعارضة في الامصار ، حيث مثل الانتماء المعتدل في (المدينة) ، الذي سبق أن مثله أبو بكر وأصحابه في (السقيفة) ، مستعدياً من تراث الاخبار قوته المعنوية في معركة الخلافة . فعلى الرغم من تشابه الاطار في الحالتين ، كون الخليفة الاول جاء عن طريق تكتل ثلاثي (أبو بكر ، عمر ، ابو عبيدة) وبرز طلحة من خلال تكتل ثلاثي آخر (عائشة ، طلحة ،

(1) الفتوح ج 2 ص 279 .

(2) تاريخ الطبري ج 1 ص 168 .

(3) سيف بن عمر ، الفتنة ورقة الجمل ص 113 .

(4) المصدر نفسه ص 60 .

الزبير (١) ، سقطت إلا أن الأول حقق هدفه في السلطة عبر وسطية متكافئة ، انبثقت عن توسط « قريش المهاجرة » بين مكة والمدينة ، وفي وقت كان لا يزال الفرز السياسي في العاصمة وامصارها غير واضح تماماً ، وذلك خلافاً للفترة « العثمانية » ، التي كان من الصعوبة البالغة في حينها ، التوازن بين تيارين تبلورت فيها الملامح المتناقضة أو كادت . ومن هذا المنظور كانت « حركة عائشة » (٢) ، الخارجة من مكة التي أصبحت مركز استقطاب المعارضة ضد السلطة منذ ذلك الحين ، تطمح الى أبعد مما احتكت في صفحات التاريخ . فلم تكن فقط مجرد حركة عفوية يستبد بها العداء الشخصي للخليفة الجديد ، ولكنها سمعت بصورة جدية الى أن تكون البديل المناسب ، دون أن يضعها الموقف من عليّ الى جانب المحور الشامي أو التحالف معه ، حيث ستجد نفسها مدفوعة بالضرورة الى الصراع معه ، لوجاءت النتائج العسكرية في معركة البصرة على عكس ما انتهت اليه .

ولعلها استكملت اطارها التنظيمي بعد توفير المال وتكتيل الحلفاء ، بمن فيهم للمرحلين من بني أمية الذين وجدوا فيها مدخلاً لاضعاف عدو مشترك ، فضلاً عن الاختيار الضمني للمرشح والارضية الملائمة للتفجير . فمن الصعوبة الفصل بين طلحة ، الاسم البارز في التكتل ، وبين البصرة التي شطط لها دور وسطيّ بين معسكرات (الامصار) . وكان طلحة قد انفرد عن صاحبيه (علي والزبير) من بقايا « أهل الشورى » ، بموقفه التحريضي حتى الاستعداد ، ضد عثمان الذي اتهمه بالتآمر عليه وكان شديد التلمز من نشاطه « المريب » في (المدينة) (٣) . وثمة مؤشرات عدة أوردها (الطبري) حول علاقة طلحة غير الودية بعثمان ، خاصة ما نسب للاول من رفضه لمناشدة عليّ برّد الناس عن الثاني ، « حتى تعطي بنو أمية الحق من انفسها » (٤) أو « تعطيني » ، كما أوردها ابن الاثير (٥) .

على أن هذه الحركة كانت تعاني رغم ذلك من افتقار المحتوى الاصلاحى ، خاصة أنها جاءت في اعقاب ثورة دموية ، كان من اسبابها التلمز من الاستئثار القرشي الذي شارك فيه طلحة والزبير ومعظم الصحابة . فقد كان عثمان حريصاً على ارضاء هؤلاء واغداق الاموال الطائلة عليهم ، لا سيما طلحة حيث ذكر أن آخر ما أعطي له بلغ خمسين ألفاً ، كان ديناً لعثمان الذي جعله « معونة له » (٦) . بالإضافة الى ما أقطعه لبعضهم من الارض

(1) وصفهم ابن العبري ، بانهم كانوا أشد الناس عل عثمان . تاريخ غرر الدول ص ١٥٤ .

(2) زاهية قدورة ، عائشة أم المؤمنين ص 232- 263

(3) ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص 167 .

(4) تاريخ الطبري ج ٣ ص 139 .

(5) الكامل في التاريخ ج ٣ ص 183 .

(6) تاريخ الطبري ج ٣ ص 139 .

في العراق (السواد)^(١) ، التي كان لطلحة أيضاً فيها النصيب الوافر^(٢) . ولذلك كانت نقطة الضعف الرئيسية في هذه الحركة أن الشعار الساذج و «الطلب بدم عثمان»^(٣) الذي رفعته في البصرة - أحد الامصار المتمردة على الخليفة السابق - لم يتلاءم مع الموقف المعروف لزعماء الحركة من هذا الأخير ، فضلاً عن تحفظ قادة الامصار من امتيازات الزعماء الحجازيين التي كانت على حسابهم بصورة عامة . ولذلك فإن ما طمحت اليه هذه الحركة ، عبر الاستغلال السريع لمشاعر العطف ازاء قتل الخليفة وبالتالي استخدام التأثير المعنوي لاصحابها على المسلمين ، اصطدم بانشقاق البصرة وانقسام قبائلها بين قلة مؤيدة ، وأخرى معارضة ، بينما وقفت الاكثرية على الحياد^(٤) . ولقد أدى هذا الواقع الداخلي الى فشل هذه المدينة في أن تكون أحد المحاور المتكافئة في الصراع على السلطة طوال العصر الاموي .

وكان خروج عائشة ومعها اثنان من الصحابة الكبار الى البصرة ، مؤشر النهاية للحجاز السياسي ، الذي فرغ أو كاد من رجالات قريش بمن في ذلك المهاجرين ، فتوزعوا آنذاك بين البصرة والشام ، فضلاً عن انزواء بعضهم في (المدينة) معتزلاً السياسة ، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر^(٥) . وما يلفت الانتباه ، أن هذه الحركة ذات الطابع القرشي الذي تجسد في مكة ، انتقلت ومعها الملامح نفسها الى البصرة ، حيث يبدو هذا الطابع غالباً في انتهايات القتلى الذين وردوا في تاريخ (خليفة بن خياط) ، من فروع أمية وأسد وعبد الدار وزهرة وغزوم وريم وجمع وسهم ، بينما وردت أسماء قليلة من تميم وقيس بن عيلان وسليم وباهلة وعشائر غير معروفة من اليمن^(٦) . ويلاحظ انعدام المشاركة الثقافية ، الا من حليفين لبني زهرة ، أحدهما عبد الله بن المغيرة (ابن الاخنس بن شريق) ، حيث كان أبوه أول الذي قتلوا دفاعاً عن عثمان^(٧) . فقد كانت ثقيف حتى ذلك الحين ملتزمة بموقف المغيرة بن شعبة المعتزل لذلك الصراع^(٨) ، انطلاقاً من اعتباراته السياسية والاقليمية . فلم يجد مصلحة للطوائف أن تنوط في التناحور على النفوذ بين مكة و (المدينة) ، خاصة عندما تكون خارج الموقع التقليدي للسياسية الثقافية ، القائمة على

(1) أبو عبيد ، الاموال ص 121 . ابن رجب ، الاستخراج ص 106 .

(2) ورد في مروج الذهب للمسعودي أن غلة طلحة من العراق كانت خمسين ألف دينار في اليوم . ج 2 ص 333 .

(3) تاريخ الطبري ج 5 ص 174 ، الفلاني البصري ، وقعة الجمل ص 38 ، 49 ، 40 .

(4) سيف بن عمر ، الفتنة ووقعة الجمل ص 124-130 .

(5) المصدر نفسه ، الفتنة ص 118 .

(6) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 208-212 .

(7) سيف بن عمر : الفتنة ووقعة الجمل ص 71 . ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 333 .

(8) تاريخ الطبري ج 5 ص 168 .

التحالف مع الفرع الأموي ، الذي بلغ ذروته من التماسك عشية الفتح الإسلامي لمكة . وفي المقابل كانت مشاركة (الانصار) واضحة في جيش علي ، حيث كانت طلائعته البارزة الى البصرة من أبي أيوب الأنصاري (الخزرج)⁽¹⁾ وخزيمة بن ثابت الأنصاري (الاوس) وسعد بن عباد (الخزرج)⁽²⁾ . بالإضافة الى مؤيدي عثمان بن حنيف الأنصاري - واليه على البصرة - وجماعة حكيم بن جبلة ، وأكثرية يمنية سواء من هذه الأخيرة أو من الكوفة ، التي كان علي على اتصال مسبق بقبائلها عبر الاشر وعدد من أركانها (ابن عباس ، محمد ابن أبي بكر ، محمد بن جعفر ، الحسن بن علي ، عمار بن ياسر)⁽³⁾ .

وهكذا انتقل الصراع الحجازي الى العراق ، بعد ذلك الفرز السياسي الذي رافق تكتل الانصار الى جانب علي وانطلاقه من (المدينة) ، للقضاء على حركة المعارضة التي تشكلت في مكة قبل تحولها الى البصرة بقياداتها القرشية الكبيرة . فلم يتردد (الانصار) آنذاك في الانضمام بثقلهم الى علي ، الذي اعتبروه أقرب الخلفاء اليهم ومن ثم الى تحقيق مشاركتهم الفعلية في السلطة . وكان كلاهما مدفوعاً الى التحالف مع الآخر ، من منطلق معطيات المرحلة ، غير المتعارضة مع الخط الاصلاحي الذي كان علي على السير في ركابه ، فضلاً عن ملازمة « المثالية السياسية » - اذا جاز التعبير - لدى الخليفة ، « عقدة السلطة » عند (الانصار) التي أخذت تنمو منذ اخفاقهم السياسي أمام (المهاجرين) في السقيفة . ولا يفجأنا في هذا المجال تعيين أحد زعماء (الانصار) - سهل بن حنيف - على (المدينة) عشية خروج علي الى العراق⁽⁴⁾ ، بما لذلك من دلالة هامة ، كسابقة لم تتكرر منذ خلافة عمر⁽⁵⁾ . ويدولنا ما يتمتع به الزعيم الأنصاري من نفوذ بين جماعته ، في البيعة المطلقة باسمهم لعلي حيث ينسب اليه قوله : « نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ، ورأينا رأيك متى دعوتنا اجبتك ومتى امرتنا أطعنك »⁽⁶⁾ . ومن ناحية أخرى ، وقفت قریش باغليتها غير « المهاجرة » وراء حركة المعارضة التي تشكلت في مكة ، قبل تحولها الى البصرة ومعها الصراع التقليدي بين المدينتين

(1) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة لجباري ، الغلابي البصري ، وقعة الجمل ص 31 . ابن حزم ، جوامع السيرة ص 79 .

(2) الغلابي ، وقعة الجمل ص 32 - 33 .

(3) سيف بن عمر ، الفتنة ووقعة الجمل ص 143 - 144 .

V. Vaglierie, Al-Ash'ar, E. I, Tome I P. 725

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 3 ص 31 . الفتح لابن الاثم ج 2 ص 290 . الطبري ج 6 ص 51 . ورد في تاريخ اليعقوبي أنه عين أبا حسن بن عبد عمرو التجلوي ج 2 ص 181 .

(5) كان عمر ينيب عنه في المدينة زيد بن ثابت بصورة عامة . تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 153 - 154 .

(6) الفتح ج 2 ص 443 . المقرئ : وقعة صفين ص 93 .

الحجازيين ، الذي سيمتد بوجوه مختلفة حيث امتدت رقعة النفوذ العربي الاسلامي .

وكان بروز البصرة آنذاك كإرضية للثورة المضادة ضد (المدينة) ، مؤشراً الى محور الصراع خارج الحجاز وظهور مراكز استقطاب جديدة ، وذلك تحت ضغط التحولات السياسية والاقتصادية التي كانت المبادرة فيها للأقاليم المفتوحة . ولم يكن ثمة خيار أمام علي ، الذي اصطدم بعزلة حجازية في الأيام الأولى لخلافته ، بسبب الحصار القرشي الثالث (مكة والبصرة والشام) المتربص به ، سوى التوجه بدوره الى مراكز الثقل السياسي التي أصبحت في هذه الأقاليم . ولعل الكوفة ، انطلاقاً من عدة اعتبارات بدت آنذاك محط أنظاره ، حيث لا زالت وحدها خارج نطاق الاستقطاب الذي تبلور في الشام وتلذبذب في البصرة . بالإضافة الى ذلك فإن الموقف العام في الكوفة لم يكن ودياً من قریش ، بعد أن كانت أول المناوئين لها بصورة علنية ، عندما تضاربت مصالح الطرفين في « السواد » (33 هـ) . ولا يسعنا في هذا المجال ، التقليل من شأن الدور الذي قام به الاشر - قائد الانتفاضة ضد والي عثمان سعيد بن العاص - لمصلحة ذلك « التحالف التاريخي » بين علي وأهل الكوفة . فهذا الزعيم اليماني الذي تعود علاقته بالخليفة منذ أن قاد جماعته الكوفيين الى (المدينة) ، حيث طغى اسمه آنذاك على قادة الأمصار ، دون أن يتورط مباشرة في قتل عثمان ، ظل أياماً الرجل القوي في عاصمة الخلافة ، وذلك حتى يبعه علي التي كان له الدور الرئيسي فيها . وفي ضوء هذا الاعتبار فإن بروز الاشر كان مرتبطاً بموقعه الكوفي ، الذي أسهم في التمهيد لنقل العاصمة الى العراق . ولذلك فإن هذه الفكرة ولدت في (المدينة) وانطلقت منها ، تحت تأثير العزلة السياسية المحيطة بها ، ولم تأت عرضاً كما هو شائع في أعقاب معركة الجمل .

وكان علي قد مهد لقراره باتصالات مع قبائل الكوفة ، التزاماً مع خروجه من الحجاز ، خاصة وإن الموقف العام في المدينة لا يزال مضطرباً ، في وقت كان وإليها - أبو موسى الاشعري - يتردد في بيعه علي ، محاولاً تأليب الكوفيين ضد « . ومن البديهي أن رفض معاوية الاعتراف بالخليفة الجديد ، تحت ستار شروطه المقترحة ، كان من دوافع اتخاذ الاشعري هذا الموقف السلبي ، المتأثر بالموقف الشامي » ان بيعته علي في عتقي وعنق صاحبكم ، ولئن أردنا القتال ملنا الى قتال أحد من سبيل حتى نفرغ من قتلة عثمان « . ولعل ذلك ينطبق على « جماعة مكة » والثورة على الخليفة في أعقاب حنة دامية ، حيث كان من الصعوبة القيام بهذه المبادرة في معزل عن ذلك الخصم القوي والمراهنه علي موقفه الذي

(1) تاريخ الطبري ج 5 ص 88

(2) التلخ لابن الأحم ج 2 ص 250 ، 291 .

(3) تاريخ الطبري ج 2 ص 181 .

(4) الامامة والسياسة ج 1 ص 61 .

كان مصدر الخطر الحقيقي على « خلافة الحجاز » . وفي ضوء هذا الدافع ، لم يكن من سبيل الى تجاهل قوة الشام وثقلها السياسي والعسكري ، وما بها من « الرجال والاموال » حسب التعبير المنسوب للزبير⁽¹⁾ . ولكنهم باستثناء هذا الاخير تجنبوا الذهاب اليها خشية الوقوع في الاحتماء الاموي الذي سبق أن تدمروا منه في (المدينة) . كذلك سيجد معاوية في التجلّء اثنين من الصحابة التاريخيين الى الشام ومعها قرشي الحجاز ، فضلاً عن عائشة ، ما يضفي على موقفه من علي طابعاً من الشرعية ، كان بأمر الحاجة اليه (كون اصحاب النبي وعشيرته) يقفون الى جانبه) .

ومن هذا المنظور ، فقد حذر يعلى بن منية ، الممول الرئيسي لحركة مكة والقرشيين⁽²⁾ : « أن معاوية قد سبقكم الى الشام وفيها الجماعة واتم تقدمون عليه غدا في فرقة ، وهو ابن عم عثمان ، دونكم رأيتم ان دفعكم عن الشام ، أو قال : اجعلها شوري ما أنتم صانعون . اتقاتلونه أم تجعلونها شوري فتخرجوا (طلحة والزبير) منها »⁽³⁾ . فكان ما قدّمه عبد الله بن عامر ، البديل الوحيد لحركة ، مكتوب عليها الفشل في الحجاز كما في الشام ، دون اسقاط الاخرة من حساب كورقة أساسية في الصراع الخطير على السلطة « فان غلبتم علياً فلكم الشام وان غلبكم علي كان معاوية لكم حجة »⁽⁴⁾ .

ولم تلبث البصرة أن سقطت في أيدي القرشيين وحلفائهم بعد معركة غير متكافئة ، استدرج خلالها الوالي عثمان بن حنيف الى الصلح قبل طرده من المدينة⁽⁵⁾ . واقتصرت المقاومة الجديدة على حكيم بن جبلة وجماعته (عبد القيس) ، حيث بذل محاولة مستميتة للحوّل دون السيطرة على بيت المال ، ولكنه قتل في المعركة⁽⁶⁾ . وفي ذلك الوقت كان علي يتأهب للخروج الى العراق متعباً خصمه ، قبل استفحال حركتهم وانتشارها ، خاصة وان عائشة بعد سقوط البصرة ، بادرت الى الاتصال بقبائل الكوفة واليمامة فضلاً عن (أنصار المدينة)⁽⁷⁾ ، وذلك في محاولة لعزل الخليفة وانتزاع تأييد الفئة الأساسية التي يعتمد عليها . ولعل أكثر ما خشيه هذا الاخير ، قيام اتصال بين طلبة البصرة والشام وما يرافقه من حصار اقتصادي للخلافة ، التي تستمد مصادرها من الاقاليم ، خاصة العراق . ومن هنا كانت أهمية الكوفة بالنسبة لعلّ وما يعوّل عليها في الفصل بين عدوين يتربصان به ، حيث تجلّى ذلك في التمهيد لاستقطابها والتودد الى أهلها . . اني قد اخترتكم على

(1) المصدر نفسه ج 1 ص 56 .

(2) الامامة والسياسة ج 1 ص 56 .

(3) مكيلا نفسه .

(4) تاريخ الخلفاء : ج 2 ص 181 .

(5) سيف بن عمر : الفتنة ص 130 . ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 217-218 .

(6) المصدر نفسه ص 132 .

الامصار واني بالاثرة» (١). فهو لا يغادر الحجاز ، قبل الاطمئنان الى ولاء الكوفة ، انطلاقاً من اهميتها الجغرافية في الصراع المرتقب مع الشام ، فضلاً عن اهميتها الاقتصادية المعروفة حيث تفوقت على البصرة في هذا المجال . ولقد تحمل ذلك في استئثار الصحابة وزعماء الحجاز لها في عهد الخليفة السابق وتحقيق ثروات كبيرة بعد هجرتهم الى العراق واقامة بعضهم فيها» (٢).

وهكذا فان مطاردة الثائرين قبل التأكد من الموقف الكوفي كان يعتبر نوعاً من المغامرة خاصة بعد هزيمة انصار الخليفة في البصرة . على أن القرار في هذا السبيل كان له وجه حجازي بالإضافة الى الوجه العراقي ، حيث لم يتحمس (الانصار) بصورة عامة لمغادرة (المدينة) (٣) . ويرجح ان الاكثرية منهم لم تشارك في حرب البصرة ، نتيجة تخوفهم من افتقاد الخلافة بعد خروج علي ومعه اركان الكوفيون (الاشتر وكميل بن زياد سقطت (النخعين) (٤) . وكان أبو ايوب الانصاري قد امر اليه ونصحه بالبقاء في (المدينة) (٥) ، كما حذره عبد الله بن سلام من ذلك « لئن خرجت منها لا ترجع اليها ولا يعود اليها سلطان المسلمين ابداً » (٦) .

ولعل موقف (الانصار) « المتأقن » ، كان أحد أسباب تأخر الخليفة في اعداد والي البصرة (الانصاري) بفرقة منهم لانقاذ المدينة . وقد يكون لضعف هذه المشاركة اثر في خلوروايات المؤرخين من أي تقدير لقوة (الانصار) التي رافقت الخليفة الى العراق ، في الوقت الذي تشير فيه الى « الكوفيين والبصريين » (٧) الذين بلغوا سبعمائة رجل (٨) . ويبدو أن اشتراك (الانصار) كان نخبة في هذه المعركة ، بحيث اقتصر على عدد من زعمائهم الملتزمين معه ، الذين كانوا طليعة جيشه الى البصرة (٩) . ومعنى ذلك أن القوة العسكرية التي اعتمد عليها ، كانت في أكثريتها من قبائل الكوفة بالإضافة الى قلة من البصرة (١٠) . على أن ذلك لم يمنع استمرار (الانصار) ، الحلفاء الطبيعيين لعلي واعتماده

(١). سيف بن عمر ص 135

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص 332 - 333 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص 205 ، 221 .

(٤) لكانا نفسه .

(٥) الفتوح لابن الأعمش ج ٢ ص 267 - 268 .

(٦) تاريخ الطبري ج ٣ ص 170 .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص 221 .

(٨) تاريخ الطبري ج ٣ ص 169

(٩) وريدت تسميته لدى ابن الأثير الكامل ج 3 ص 222 .

(١٠) الفلاحي ، وقعة الجمل ص 31 - 33 . المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص 359 - 360 .

(١١) سيف بن عمر ، الفتحة ص 138 - 140

عليهم في المهمات الصعبة ، حيث سيتبلور ذلك في حرب صفين ، التي حددت المواقع السيامية للقبائل .^٢ فمن كان متردداً منها في الحرب ضد عائشة واثنين من الصحابة الكبار ، نخل عن هذا الموقف ضد معاوية الذي كان يخوض معركة واضحة المعالم لمصلحة الجناح المتطرف من قريش .

وكان علي قد أصبح على نحوم الكوفة ، مصطحباً أحد زعمائها البارزين (الاشر النخعي) - الذي مهد لتلك العلاقة التاريخية - ومسبقاً بجهود حثيثة في هذا السبيل قام بها كل من عبد الله بن عباس وعمار بن ياسر والحسن بن علي فضلاً عن الاشر . فقد كان هؤلاء دور كبير في تهيئة الاجواء لمصلحته وفي احتواء الموقف السلبي لوالها اليمني (الاشمري) وتطبيق نتائجه على الاكثرية اليمنية فيها ، حيث انتهى به الامر الى العزل وتعيين أحد (الانصار)^٣ مكانه . وما لبثت وفود القبائل أن وافته الى (ذي قار) - محطته الاولى في العراق - لا سيأه النخعيين^٤ الذين كانوا أكثر حماسة في تأييده ، وكان في طليعتهم ابي جانب الاشر ، (كميل بن زياد) الذي رافق علياً من (المدينة) وهاني بن هونة ، آخر ولاية الكوفة في عهده^٥ .

وثمة مؤشر آخر في ذلك الصراع الحجازي الذي دارت رحاه في معركة (الجمل)^٦ ، أن التأييد الكوفي انقذ الموقف على جبهة الخليفة . فلم يكن من السهولة عليه تحقيق النصر على خصومه ، لو أتبع للاشمري تنفيذ خطته الرامية الى تجميع الكوفة في هذا الصراع . ومن هنا كانت المراهنة عليها شديدة الخطورة ، حيث حرص علي على التأكد من ولائها ، بالسر أولاً الى (ذي قار) قبل تخافه طريق البصرة التي تجتمع فيها الرافضون لخلافته . على أن علياً رغم الانتصار الذي حققه في ضم الكوفة اليه ، كان بأمر الحاجة الى انتصار سياسي آخر في البصرة المنقسمة آنذاك على نفسها ، بغية الوصول الى جبهة موحدة في العراق بموازاة الجبهة الشامية . وكان أن تبدل الموقف أو كاد لمصلحته ، في وقت طغى فيه شعار « الاصلاح واطفاء النائرة »^٧ (الشحناء) ، على أجراء الحرب المشحونة في البصرة^٨ . وهذا ما جعل التوازن شبه مفقود بين فريقين :

(١) قرظة بن كعب الانصاري . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 233 . السعدي ، مروج الذهب ج ٢ ص 359 .
(٢) فرج من كهلان الفسطاطية ، كان أول المسلمين منهم في حياة النبي (الامود بن يزيد من قبيلة النخعي) . الفلستيني ، نهاية الارب ص 73-74 .

(٣) خليفة ، بن خياط ج 1 ص 233

(٤) وقعت في جدي الآخرة سنة 36 هـ / كانون الاول 656 م - تاريخ الطبري ج 5 ص 202 . للهورن ، تاريخ الدولة

العربية ص 53 .

(٥) سيف بن عمر ، الفتن ص 150-151 .

(٦) تاريخ الطبري ج 5 ص 207 . السعدي ، مروج الذهب ج 2 ص 361 .

أحدهما يتسلح بشرعية الخلافة ومعها الدعوة الى السلام ، بينما تغلب نزعة القتال على الآخر في اطار المطالبة بشرعية غير مسوّغة .

حقق علي انتصاراً عسكرياً على حركة البصرة المناوئة ، ولكنه لم يقترن بالنصر السياسي الذي كان يسعى اليه ، بعد اخفاق محاولاته في اجتذاب زعماء الحركة الى جانبه . ولذلك جاء الحزن على مقتل طلحة والزبير في المعركة ، في مستوى الحسارة القرشية^(١) التي كانت أحلى أهم الثغرات في جبهته السياسية . ولقد جاءت نهاية المعركة كبدايتها تؤكد حرصه على تجنب الانتقام من اخوة له في العقيدة والعشيرة « اذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً ولا تتبعوا مولى ولا تطلبوا مديراً »^(٢) . كما حرص على اطلاق الاسرى بمن فيهم عائشة - رأس المحرضين عليه ومعاقبة الذين اساءوا اليها من جماعته^(٣) - عاهداً الى الاشتهر اعادتها الى (المدينة) ، التي عاد اليها أيضاً مروان وجماعته من الامويين ، قبل التحاقهم بمعاوية في الشام^(٤) .

وكان الحجاز الخاسر الرئيسي في معركة (الجمل) ، التي كرّست اخراج الخلافة منه بعد توحيد العراق واستبدال (المدينة) بالكوفة ، حيث « رؤوس العرب واعلامهم »^(٥) الذين نصره في هذه المعركة . ولقد جاء ذلك القرار تنفيذاً لفكرة خرجت مع علي من الحجاز واستجابة حتمية لمعطيات تلك المرحلة . فقد أخذ هذا الاقليم يفقد شخصيته المحورية منذ غياب عمر ، الذي كان باستطاعته ، رغم الفراغ العسكري في عهده وانتقال الطاقات البشرية الشابة الى جبهات الفتوح ، الموازنة بشيء من التكافؤ بين ثقل الامصار ومركزية الحجاز ، التي كانت في النتيجة استمراراً لسياسته التوفيقية بين « عصبية » الدولة و « دعوتها » ، المتلازمين في رأي ابن خلدون^(٦) . فقد تغلبت بعده العصبية القرشية بشكل سافر ، لتجيء بعثمان الى الخلافة دون علي ، الذي كان يفقد الى ذلك الغطاء القرشي^(٧) . وكذلك فإن قريشاً قد اثبتت بالممارسة أنها « أوسط العرب »^(٨)

(1) الغلابي ، وقعة الجمل ص 47 .

(2) المسعودي ، مروج الذهب ج 2 ص 362 . راجع ايضاً تاريخ الطبري ج 5 ص 223 .

(3) تاريخ الطبري ج 5 ص 222 .

(4) المصدر نفسه ج 5 ص 223-224 .

(5) سيف بن عمر ، الفتنة ص 135 .

(6) المقدمة ص 279-284 .

(7) رضوان السيد ، جليلات العقل والنقل والتجربة التاريخية في الفكر السياسي العربي الاسلامي ، مجلة الفكر العربي ص 77 عدد 15 (1980) .

(8) الاملة والسياسة ج 1 ص 6 .

« وجنتهم » (١) ، ليس من سبيل الى شرعية دون شرعيتها مهما اختلفت المصوغات ، من « القرابة » و « الشورى » الراشدين ، الى « الوراثة » الاموية ، الى آخر ذلك من الاشكال « الدستورية » التي تتفق في المضمون على حق قريش المقدس « جامعة النبوة والخلافة » (٢) . ولم يكن اسقاط عثمان بمثل تلك السهولة ، أمراً ممكناً لو شاءت قريش انقائه ، ولكنها تخلت عنه بعد استنفاد دوره وبعد أن أصبح عاجزاً عن حماية « الشرعية » المهددة أمام خطر الامصار. كذلك فان علياً ، الذي لم يكن لقريش دور في خلافته ، كان في مقدمة الاسباب التي شجعت منافسية طلحة والزبير والأخسرين على التمرد عليه ، هو الموقف السلبي لهذه الأخيرة منه . وهي سابقة لم يكن من السهل حدوثها ، لو كانت له تلك الحصانة القرشية التي تمتع بها اسلافه الخلفاء .

وهكذا فان غياب النفوذ القرشي من (المدينة) في أعقاب البيعة لعلي ، كان مؤشراً الى إنهاء دور الحجاز السياسي . فقد سقطت مكة في العام الثامن الهجري ، ولكن قريشاً ارتفعت الى السلطة ، بحيث انطوت عاصمة الحجاز القديمة على تراثها الغابر لتعيش في ظل (المدينة) عاصمته الجديدة . ثم تراجعت هذه الأخيرة ، فاقدة دورها المركزي ، في الوقت الذي استمر فيه الصعود القرشي ، ولكن على حساب الحجاز بكامله .

(1) تاريخ الطبري ج 5 ص 86 .

(2) رضوان السيد ، جدليات العقل والنقل والتعبيرة التاريخية . ص 77 .

الحجاز وصفين

« ولعلها مفارقة أن ينقلب على « النشوي » الذين تحمسوا لها في السابق ، وأن تتحول بالتالي الى « سلاح جنلي » لدى المعارضة السياسية ضد الحكم الأموي ، بعد أن كانت سلاح السلطة في العهد الراشدي »

انكفاً دور (المدينة) السياسي ، الذي بدأ مع النبي وبلغ ذروته في خلافة عمر . وكان ذلك في أعقاب متغيرات الفتوح الجغرافية والاقتصادية كما سبق أن أشرنا . فلم يعد ممكناً آنذاك استمرار الحكم المركزي في الحجاز ، بعد تحول طاقاته البشرية أو معظمها الى (الامصار) ، في نطاق « هجرة استقرار » دائمة ، مستبدلة مواطنها الأولى بمراكز جديدة مرتبطة باسمها وذلك بصورة نهائية . فقد أحدثت الفتوح انقلاباً في حياة القبائل المهاجرة ، بحيث أصبح من العسير جداً عودتها الى النمط الاجتماعي المتواضع الذي اقتنعت به من قبل . وإذا كان ذلك واقع القبائل العادية التي كانت تعيش بأغليبتها في تلك « الايلاف » المكي قبل الاسلام ، فكيف بقريش التي ظهرت بينها الدولة الجديدة واحتوتها بعد أقل من ربع قرن ، لتثبت انها الاقدر على المبادرة وتوقيتها المناسب .

وكانت ثمة ظاهرة خاصة في الدولة العربية الاسلامية ، أن تسفر عن انتصار فريق ولكن دون هزيمة الآخر ، حيث لم يخرج المعادون من قريش « طلقاء » (1) و « آمنين » (2) فحسب ، بل متمتعين بحقوقهم السياسية الكاملة . وقد روى (المسعودي) أن الخليفة الاول ارتفع صوته على أبي سفيان ، فاستغرب أبوه - وكان لا يزال حياً - أن يفعل ذلك نحو من « كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية » (3) . وإذا كان هذا شأن أبي سفيان في أول العهد من الخلافة ، فلا يعود مجال للتساؤل عن بروز ابنه (يزيد ومعاوية) في أكثر مناطق الفتوح أهمية وخطورة . وعمر الذي وصف بشدته على قريش (4) ، انما كان شديداً في

(1) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 60 .

(2) ابن حزم ، جوامع السيرة ص 229 .

(3) مروج الذهب ج 2 ص 299 .

(4) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج 3 ص 64 .

التوازن بين السلطة والعصبية وحريصاً على احتواء الأولى للثانية ، وليس العكس كما حدث أبان خلافة عثمان . وهذا قد كان تعاطفه واضحاً مع القبائل القرشية ، سواء غثلت بالصحابة ، الذين اكتسب مودتهم بامتيازات خاصة في العطاء وفي توزيع الارض عليهم في الحجاز (اقطاع ينبع لعلي^(١) والعقيق للزبير^(٢) . . .) ، أم الكفاءات الادارية والعسكرية التي استعان بها من أمثال عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية وغيرهم^(٣) .

وكان من البديهي أن تلحق التجارة بركاب الهجرة الحجازية وتبحث عن ظروف أفضل في الامصار ، حيث مصادر الاموال واكتظاظ السكان . وكانت الحركة التجارية في الحجاز قد انتقلت مع المهاجرين الى (المدينة) ، التي أصبحت ملتقى القوافل التي كانت تزول الى مكة ، وأخذت المواد الغذائية ترد عليها من مصر عبر ميناء (الجار) الذي انتعش بصورة خاصة في عهد عمر^(٤) . وكان عبد الرحمن بن عوف « النموذج » الاسلامي للتاجر الكبير ، الذي آخى في « هجرته » سعد بن الربيع الانصاري « أكثر أهل المدينة مالاً »^(٥) كما وصف نفسه ، ودفع مهرأ لامرأة « انصارية » ثلاثين ألفاً^(٦) ، بحيث أعطاه ذلك مكانة اجتماعية خاصة في (المدينة)^(٧) ، استمدها من هذا الموقع التجاري . على أن حركة التجارة في الحجاز ، لا تلبث أن تفقد أهميتها ، مع فقدان هذا الإقليم شخصيته المحورية التي طغت عليها المحاور الجديدة في الامصار . فقد كانت خاضعة في المقام الاول للموقع الوسطي - التقاطعي الذي احتلته مكة بين خطوط التجارة العالمية قبل الاسلام . واستطاعت من خلاله القيام بدور الوسيط « الضروري » بين دولتين متصارعتين ، قبل أن تفقد هذا الامتياز في أعقاب الفتوح التي قضت على امبراطورية الفرس وانتزعت من البيزنطيين المناطق الحيوية المطلّة على البحر المتوسط والتي كانت محور التجاذب بين الطرفين . فقد أحدث ذلك انقلاباً جذرياً في الظروف الاقتصادية لهذه المنطقة ، بعد غياب النفوذ الفارسي ومعه التحكم بتجارة الشرق ، حيث أصبحت مواصلاتها خاضعة للعرب المسلمين . ونتيجة لذلك تراجعت التجارة الحجازية ، حيث استمرت هجرتها الى الشمال ، بعد اخفاق القرشيين في مزاحمة تجار (المهاجرين) و (الانصار) في (المدينة) ،

(1) يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ص 78 .

(2) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج 3 ص 104 . صالح المني ، ملكيات الاراضي في الحجاز ص 972-989 ، مجلة العرب عدد 11-1969 .

(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج 3 ص 283 .

(4) المصدر نفسه ج 3 ص 282 .

(5) المصدر نفسه ج 3 ص 126 .

(6) المكان نفسه

(7) المصدر نفسه ج 3 ص 287 .

واجتهد نفوذ اقتصادي لهم في هذه الاخيرة على غرار نفوذهم السابق في مكة ، مما دفعهم الى التطلع الى الامصار ، حيث لاقوا نجاحاً كبيراً في العراق ، الذي كان لاستئناف حركة الملاحة النهرية فيه وعودة الاتصال بين الخليج والبحر المتوسط « ، تأثير كبير في انزواء التجارة الحجازية . وازدهرت أيضاً أسواق الشام التي اعتمدت في الماضي على « رحلة الصيف » ، وطفئت على أسواق الحجاز بعد أن أصبح لها طابع محلي ، وفقدت روادها الذي انتقلوا الى العراق والشام « .

وهكذا فان الضربة القاضية التي نزلت بالحجاز ، شاركت فيها قريش بثقلها ، عندما تكتلت وجوهها البارزة ضد علي في البصرة (عائشة ، طلحة وابنه محمد (تيم) ، الزبير وابناؤه عبد الله وعروة والمنذر (أسد) ، مروان بن الحكم وأخوه عبد الرحمن ويحيى ، عبد الله بن عامر ، عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد (أمية) . . .) . وجاء خروج هؤلاء وأصحابهم من (المدينة) الى مكة ، ومن ثم الى العراق ، بمثابة اجهاز على آخر فصول المركزية السياسية التي استكملت انهارها في الحجاز مع خروج علي . فقد فرغت (المدينة) من رموز الاسلام ورواده التاريخيين ، الذي غابوا عنها مع سقوط طلحة والزبير في معركة الجمل وانزواء سعد بن أبي وقاص بعيداً عن شجون السياسة ، بينما غرق علي في متاعب السلطة والدفاع عن شرعية الخلافة ، التي تعمّدت بالدم منذ اغتيال عمر . وكان لذلك تأثير كبير في المنحى الذي اتخذته الصراع على الحكم آنذاك ، حيث ان تورط الصحابة الكبار فيه ، سيؤدي الى طغيان المضمون السياسي للخلافة ، وذلك في اطار من « الشكليات الاسلامية » المسوّغة لشرعية السلطة والقائمين عليها .

وليس ثمة شك أن الثورة على عثمان والبيعة لعلي في أعقابها ، كان لها دور كبير في ترسيخ بلورة الاتجاهات السياسية في الدولة الراشدة ، حيث كان عدم الاجماع على الخليفة من مظاهرها الاولى . وقد يكون من الصعوبة الافتراض في نطاق معطيات سياسية مختلفة ، اذا ما كان لـ « جماعة البصرة » موقف آخر من علي ؟ ولكن من المؤكد أن الموقف السلبي الذي اتخذته انعكس بصورة مزدوجة على الخليفة وذلك بحرماته من تأييد معنوي كانت قادرة على توفيره ، فضلاً عن افتقاده الدعم القرشي الذي غاب عنه أركاد ، اذا ما استثنينا أقاربه وشخصيات ثانوية قليلة . ولعل طموح الحركة المنبثقة عنها ، أن تكون بديلاً « وسطاً » في قريش ، اصطدم بانقسام جبهتها السياسية التي تم تشكيلها بصورة ظرفية وتحمت تأثير العداء المشترك للخليفة . وعدا ذلك فان القواسم الاخرى تساقطت

(1) LAMMENS, in Mécque, P. 110- 115

OP. CIT, P. 112 (2)

(3) تاريخ الطبري ج ٢ ص 203- 221 . سيف بن عمر ، الفتنة 117- 175 . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 208- 210 .

أمام المصالح المتضاربة ، سواء على مستوى القيادة (التنافس بين طلحة والزبير) ، أو على مستوى الحلفاء حيث كان لبعضهم معطياته الخاصة ، كبنى أمية الذين توخوا من هذه الحركة انهاك جبهة الخليفة وتاليب الرأي العام الاسلامي ضده . فصرعان ما وقع الخلاف بين مروان وطلحة « البديل المقترض » ، بعد اتهامه من جانب الاول بقتل عثمان . وقبل انه وراء « مصرعه » الذي توعد به « لا أطلب قاتل عثمان بعدك أبداً » (1) .

وهكذا فإن معركة الجمل التي قضت على انجاء ربما كان قادراً على تمثيل الاعتدال ، قد فتحت أبواب الصراع بين المتطرفين ولكن من منظور متباين . ففعل الذي ألف حوله الكوفيون ، لا سيما الذين عايشوا الثورة على عثمان ، كان ملتزماً بالقضايا التي طرحها هؤلاء وغيرهم ، وهي في جانب أساسي منها ذات مدلول اجتماعي ، ربما كان أكثر وضوحاً في الكوفة . فتمة قبائل في غالبيتها من اليمن ، حملت الخبرة الزراعية من مواطنها الاولى ، كانت ترقب « السواد » وتتوق الى اقتسامه منذ خلافة عمر . ومعاوية في المقابل ، جعل من الشام قلعة متماسكة ، تدين قبائلها بالولاء المطلق له ، خاصة الكلبيين الذين نزلوا قبل الاسلام في « دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام » (2) ، وتحالفوا مع الاسرة الاموية التي دانت لتأييدهم في جميع مراحل تاريخها السياسي . وكان نفوذ معاوية الذي بقي خارج التفسيرات الادارية حتى في عهد عمر ، الذي عُرف عنه تحفظه من الشخصيات القوية ، يتجاوز نفوذ وال عادي يمثل لأوامر الخليفة ، انطلاقاً من موقع الشام الجغرافي ومسوغات القوة الذاتية التي حرص على تحقيقها ، سواء على صعيد التحالف القبلي أو بناء السلاح البحري ، الذي جاء تحت شعار التصدي للخطر البيزنطي المستهدف هذه الولاية (3) . ولا شك أن الخليفة الراشدي الثاني كان قادراً على احتواء مختلف الظواهر السياسية ، بما فيها معاوية ، الذي مثل بني عبد شمس في السلطة ، من خلال صيغة التوازن المتجهة في عهده . وقد حال ذلك دون أي صدام بين الخليفة والوالي ، الذي كان ملتزماً بحدود الدور الذي رسمه له الاول ، دون القيام بنشاط ما قد يثير شكوكه . وهذا ما يفسر احتجاج معاوية وراء الاحداث البارزة في ذلك الوقت ، حيث كان سلوكه شأن بقية الولاة خاضعاً لمراقبة الخليفة المباشرة . وقد نجد صدى تلك العلاقة في رواية نقلها البلاذري عن (مالك بن أنس) ، عندما أرسل معاوية لعمر « اداهم » (4) وأموراً بواسطة أبيه ، الذي أوصل الاولى وأخفى الثانية . واحتج لدى مطالبة الخليفة بحاجته اليها لقضاء

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج 3 ص 223 . البلاذري ، انساب الاشراف ص 247 (تحقيق الحمودي)

(2) القلقشندي ، صبح الاضي ج 1 ص 316 .

(3) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ص 191 .

(4) جمع أجمع . وهو قيد نخشي (ملق) كما جاء في لسان العرب ج 12 ص 210

دين عليه ، مما دفع عمر الى وضع « أبي سفيان في الادهم » حتى يستوفي منه المال (١) ، دون أن يفجأ ذلك معاوية الذي قال حسب الرواية نفسها : « لو أنه الخطاب لفعل به مثل ما فعل بأبي سفيان » (٢) . فتمة حدود اذن لنفوذ والي الشام لم يحاول الخروج عليها ، في وقت كان لا يزال الحكم في أوج مركزته السياسية في النصف الثاني من عهد الخليفة القوي ، عندما انتقلت اليه ولاية الشام إثر موت أخيه يزيد ، حيث يبدو أنه عاش قريباً منه بعد فتح هذه الاخيرة (٣) .

وكان طموح معاوية للخلافة قد أخذ في الكشف عن نفسه منذ أواخر عهد عثمان ، بعد أن أصبح رجل الامويين القوي و « الوريث » المطروح لتقريبه الخليفة ، وافضاً الاكتفاء بما حققه من نفوذ اقليمي لم يصل اليه وال آخر . ولقد شجعه على ذلك أن هذا العهد قد استغند نفسه واقتد مسوغ الاستمرار حسب رأيه « أبي مصبر » أن عثمان بدا فعمل بما يحب الله ويرضاه ، ثم غير فغير الله عليه ، افتهياً لي أن أرد ما غير الله عز وجل » (٤) . والواقع أن زعامة البيت الاموي باتت معقودة له ، منذ فتح مكة الذي أفقد أبا سفيان دوره السياسي في المجتمع الجديد . فقد حالت الهزيمة رغم « تحريجها » المعنوي ، دون رد الاعتبار الكامل لهذا الأخير الذي تجاوز الكهولة في ذلك الوقت .

وكان موقف الخلافة غير الودي من أبي سفيان ، قد دفع به للتراجع الى الصفوف الثانية ، انسجماً مع سياسة العهد الراشدي في الفترة الاولى س « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » (٥) التي عبر عنها عمر . فالزعامة الاموية انتقلت آنذاك الى عثمان الذي دخلها من « الباب الاسلامي » ، لـ « يحجب » دونها أبا سفيان الذي لم يسلم الا مكرهاً بواقع الامر « لا عذمت من قومي من اذا شاء حجب » (٦) . وفي ضوء ذلك فقد عقد الامال على ابنائه (٧) ، الذين كانوا أكثر قدرة على التحرك في نطاق المتغيرات التي تصدى لها ، كونهم أقل ارتباطاً بالصراع الذي تزعمه ضد الدولة الجديدة . فبينما برز الابن الأكبر (يزيد) في المجال العسكري ، وكان أحد أربعة من مشاهير قادة الفتح في الشام ، استأثرت السياسة بالابن الثاني (معاوية) ، مما لفت اعتمام أبي سفيان ، وأعدّه

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٩ ص ٩

(٢) المكنان نفسه .

(٣) السويطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٥ .

(٤) ابن الأعمش ، الفتوح ج ٢ ص ٢١٨ .

(٥) أبو يوسف كتاب الخراج ص ٤٦ .

(٦) البلاذري ، انساب ج ١ ص ١٣ .

(٧) ابن عساکر ، تاريخ دمشق الكبير ٣٣٩ ، مخطوط قصر المظم .

منذ وقت مبكر للسلطة ، متوخياً فيه المقدرة على ذلك « ليسودن ابني هذا قريباً والعرب » (١) . ولم يتردد أبو سفيان من دفع معاوية الى التقرب من النبي بعد فتح مكة ، ليصبح أحد كتابه (٢) ، مكتسباً من ذلك مظلة الاسلامية التي افتقدها الاب ، وكانت بالتالي إحدى ركائز طموحه الى السلطة « ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال رسول الله يا معاوية : اذا ملكت فأحسن » (٣) . ولم تكن ثمة وصية لابي سفيان أكثر موضوعية في المنطق الاموي ، من هذه الوصية وهو يبيء ابنه للمهمة الصعبة « أن هؤلاء المهاجرين سبقوا وتآخرونا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تخلفنا وصاروا قادة وصرنا اتباعاً . وقد ولّوكم جسيماً من أمرهم فلا تخالفوهم وأنك تغري الى أمد لم تبلغه ومستبلغه » (٤) .

وكانت البصرة التي جرت على أرضها معركة الجمل ، متحفظة الى حد ما نحو علي بسبب تلالها الذي سقطوا فيها وكان عددهم على ما يبدو مرتفعاً (٥) ، دون أن تتحمس في الوقت نفسه لمعاوية أو تكون « عثمانية » كما وصفت لدى بعض المؤرخين (٦) ، لأن ذلك سيضعها في الجانب الاموي ، وهو لم يتحقق في البصرة التي كانت مواقفها غير ودية من الامويين بصورة عامة (٧) . على أن هذا الموقف المتردد بين الولاء والمعارضة ، كان له تأثيره على جبهة العراق ، التي ظلت غير متماسكة أمام جبهة صلبة في الشام . وخلافاً للبصرة ، اختارت الكوفة علماً وربطت موقفها السياسي به ، حيث أصبحت مقر خلافته ، التي كان لها الدور الاول فيها ، من « البيعة » الى « الجمل » فضلاً عن « صفين » . وبينما تراجعت البصرة بعد « هزيمتها » ، تقدمت الكوفة لتصبح أحد محوري الصراع الاساسيين الى جانب الشام ، بما يجعله ذلك من معطيات خاصة لكل منها ومسوغات متفاوتة بين الاولى والثانية .

وكانت محاولات لتفادي الصراع الدموي ، قد جرت بين الطرفين ، وذلك عبر حوار غير مباشر ابتدأه موفد علي (جريبر بن عبد الله البجلي) (٨) ، الذي وُصف بأنه « من أهل الايمان والمهجرة » (٩) ، دون ثمة توضيح الى ما ترمي اليه هذه الكلمة الاخيرة حيث يفترض أنه كان من (المهاجرين) ، أي الذين التحقوا بالمدينة قبل فتح مكة . ولعل

(١) البلاذري ، انساب ج ١ ص 50 .

(٢) السيوطي ، تلويح الخلفاء ص 194 . ابن الاعثم ، الفتح ج 2 ص 428 .

(٣) المصدر نفسه ص 195 .

(٤) البلاذري ، انساب ج ١ ص 9 .

(٥) سيف بن عمر ، الفتنة ص 179 . الطبري ج 5 ص 236 .

(٦) ابن تقيّة ، حيون الانبار ج ١ ص 204 .

(٧) ابن الاعثم ، الفتح ج 4 ص 168 .

(٨) كان والياً على همدان في عهد الخليفة السابق . ابن تقيّة ج ١ ص 84 .

(٩) ابن الاعثم ، الفتح ج 2 ص 375 وما بعدها . القلقشندي ، نهاية الارباب ص 163 .

المقصود هنا ، اعطاء صفة الاسبقية في الاسلام ، كنموذج للفئات التي تعاون معها علي ادارته ، والتي كانت تستمد قوتها من هذا الدور في المقام الاول . علي أن ذلك قد يفسر أزمة « الحضور » القرشي في قيادة الخليفة ، لا سيما كبار المهاجرين ، كسعد بن أبي وقاص مثلاً الذي أثر الابتعاد عن هذا الصراع ، رغم التأثير المعنوي الذي يمكن له ممارسته علي الطرفين ، كأحد التاريخيين الاحياء من أصحاب « الشورى » . وقد يفسر أيضاً غياب (الانصار) عن هذا الدور ، رغم الاعتماد الاماسي عليهم في ادارة علي ، حيث يعود ذلك الى الموقف « الشامي » منهم واتهامهم بالتواطؤ في قتل عثمان . وكانت هذه المبادرة التي نقلها « مهاجر » في الاسلام ومن قبيلة معتدلة (بجيلة)^(١) ، فائمة مراسلات طويلة نافذت علي السنة ، لم يسفر عنها سوى تعقيد الامور بالنسبة لعلي ، واكتساب مزيد من الوقت بالنسبة لمعاوية^(٢) ، حيث أتاحت له هذه الفترة تعزيز أوضاعه العسكرية الى حد كبير .

واذا كان في مقدورنا تفويم كل من الجبهتين ، منجد أن الاولى - أي الشام - كانت تخوض معركتها بقبائل في معظمها غير حجازية ، ومنها ما يعود ارتباطها بهذه المنطقة ، الى ما قبل الاسلام . أما الكوفة ، فكان عدد من رؤساء القبائل فيها يشغل مهعات ادارية في عهد عثمان ، قبل الانتقال الى موالاة علي ، أي أن غالبيتهم كانوا حديثي العهد في علاقتهم بالخليفة خلافاً لرؤساء القبائل الشامية . بالاضافة الى ذلك فان هذه العلاقة كانت خاضعة للمفهوم السياسي التناقض لدى الطرفين . فمعاوية الخارج من بيت كانت له الزعامة التجارية في مكة وعلاقاته الواسعة في الشام ، نشأ متأثراً في سلوكه بهذا « الرصيد الديني » ، الذي وظفه في تدعيم مركزه وتقوية نفوذه . وبدا علي في المقابل مقيداً بالاتجاه الاصلاحي الذي تنتفي معه المساومات والعلاقات المرحلية ، وبالتالي فان الخروج منه يؤدي الى تفرغ خلافته من أبرز مسوغاتها ، حيث جاءت في ظل المطالبة بالاصلاح .

علي أن مبدأ « التغيير » الذي كان مطلباً ملحاً للكثيرين ، تناقض في المقابل مع « امتيازات » العهد السابق . واذا كان ذلك أحد بواعث الثورة التي قام بها زعماء قریش في البصرة ، فانه سيؤدي الى تحريض آخرين علي هذه السياسة ، ممن كانت لهم هذه الامتيازات أو بعضها ، ومن وجدوا في الخلافة « ملكاً » لبني هاشم شبيهاً بـ « ملك » بني أمية في عهد عثمان (قدوم عقيل بن أبي طالب علي معاوية من الحجاز)^(٣) . ولعل الدافع

(١) الفلقشندي ، خلية العرب ص ١٤٣ .

(٢) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص ١٣٠ ، ابن عساکر ، تاريخ دمشق الكبير ، مخطوط ورقة ٣٥٦ .

(٣) الامعة والسياسة ج ١ ص ٧٦ .

نفسه هو الذي حدا بالزعيم يعني (الاشعث بن قيس الكندي) - عامل عثمان على أذربيجان وأحد المشاركين في حركة الردة - أن يقف متحفظاً إزاء علي وتترفع نفسه إلى الالتحاق بالشام ، حيث تجد ما تبغيه دون الكوفة « ان كتاب علي جاءني وقد أوحشني ، وهو آخلى بآمال أذربيجان . وأنا لاحق بمعاوية » (١) .

ولم تكن الحرب التي اشتعلت في (صيفين) بعد فشل المراسلات ، الا مرحلة حاسمة في الصراع « القرشي » على الخلافة ، أخذ يتبلور في ذلك الوقت . ولعله بات واضحاً من تقلص دور (المهاجرين) الكبار بعد موت أكثرتهم الساحقة ، قد أتاح المجال لغير (المهاجرين) من قریش العودة إلى واجهة الأحداث ، وذلك بزعامة معاوية الذي توفرت فيه مقومات هذا الدور (مجيء مروان على رأس بني أمية إلى دمشق وخروج عمرو ابن العاص - من المهاجرين المتأخرين - من اعتكافه في فلسطين في الوقت الذي تهاوى له مقتل عثمان) . فتصبح الشام نقطة الثقل « القرشي » ، بما يعنيه ذلك من أهمية في تعزيز النفوذ المعنوي لمعاوية ، الذي يدافع عن مبدأ « الشرعية الأموية » ويلتف حوله « حزب » سياسي ، كانت نواته هذه العصية القرشية . أما الكوفة التي عانت من فراغ كبير في هذه الناحية ، فقد تسلمت بـ « شرعية الشورى » التي كانت محور كتاب علي الأول إلى معاوية : « فقد علمت أن الشورى للمهاجرين والانصار دون غيرهم . . فاذا اجتمعوا على رجل سمّوه اماماً » (٢) . وكان يقف إلى جانبه « تيار » سياسي أقلّ عصبية لقریش ، الا أنه كان يفتقد إلى التعبئة النفسية والتجانس المصلحي ، حيث كان ذلك أكثر وضوحاً في الجبهة الشامية . ولعلها مفارقة أن ينقلب على الشورى الذين تحمسوا لها في السابق ، وان يتولى علي الدفاع عنها وهو في السلطة ، رغم تحفظه نحوها من قبل (٣) ، وان تتحول بالتالي إلى « سلاح جلبي » (٤) لدى المعارضة السياسية ضد الحكم الأموي في وقت لاحق ، بعد أن كانت سلاح السلطة في العهد الراشدي . وهكذا تكون الشام قد خاضت من موقع المعارضة ، معركة « الشرعية » ومعها الرأي العام القرشي ، دون أن تتمكن الكوفة من مجاراتها ، رغم قرشية الخليفة ، حيث ترددت في التعامل مع شرعيته في السلطة من هذا المنظور فقط ، انطلاقاً من الفارق في مضمون الولاء وأصقيته بين القبائل الشامية والكوفية .

وقد تنسأل عن موقع الحجاز في هذه الأحداث ، وإذا كان الصراع التقليدي بين

(١) الأملعة والسياسة ج 1 ص 76 .

(٢) ابن الأعمش ، الفتح ج 2 ص 374 .

(٣) تاريخ الطبري ج 5 ص 38-41 .

(٤) رضوان السيد ، جذبات العلاقة بين الجامعة والرحلة والشرعية . مجلة الوحدة ص 20 .

مكة و (المدينة) أوبين قریش والانصار قد انتقل مرة أخرى الى صفين ، بعد أن شهدت البصرة أولى فصوله خارج هذا الاقليم ؟ وإذا كان ذلك الصراع أكثر وضوحاً في حرب الجمل ، فلأنها اقليمية في طابعها معصورة في تحالفاتها مع غلبة لقریش في جانب وللانصار في جانب آخر . أما صفين فكانت حرب القبائل بكاملها التي خاضتها موحدة أو متقسمة ، كنتيجة للفرز السياسي الذي أحدثته معركة الجمل ، وما أعقبها من ولادة محور جديد في الكوفة مقابل المحور الشامي . على أن الطابع الحجازي ظل مسيطراً بشكل أو بآخر على صراع المحورين ، متمثلاً في اجتهد كل منها لاستمالة الحجاز (مكة والمدينة) ، بما يعكسه ذلك من أهمية معنوية على وضع هذه الجبهة أو تلك . ورغم أن فئة اختارت لنفسها الاعتزال في الأولى (مكة)⁽¹⁾ ، فإنها وقفت الى جانب معاوية بصورة عامة ، وذلك خلافاً للثانية (المدينة) التي تعاطفت منذ البدء مع علي ، وشكّل « انصارها » نواة جيشه الذي حارب في الجمل وصفين ، وإن كان يبدو أن الذين شاركوا في الأخيرة أقل حجماً من السابقة ، ربما لاحتجاج بعض الانصار على نقل مركز الخلافة الى الكوفة ، مؤثراً العودة الى مدينته⁽²⁾ .

وكان معاوية قد راسل أهل (المدينة) قبل تحرك جيشه الى صفين ، مستهدفاً تخييدها في الصراع بينه وبين علي « أن ندرك حاجتنا وإما يكف القوم عنا »⁽³⁾ . ولم تكن ثمة حاجة بالنسبة لمكة التي اقتصر المقيمون فيها على « المعتزلين » ، إن لم يكن على المتعاطفين مع الجبهة الشامية . وكان تخييد الحجاز في الواقع أحد أهم الاهداف التي سعى اليها معاوية ، لما ينطوي عليه من كسب مرحلي وبحققة من توازن متكافئ مع خصمه ، وذلك انطلاقاً من الدور المعنوي الذي يمكن أن يقوم به هذا الاقليم في تسوين هذه « الشرعية » أو تلك . فالجihad عملياً كان أحد مظاهر الحملة الدعائية ، التي استهدفت مهاجمة الركائز الأولى لخلافة علي التي انطلقت من الحجاز . وإذا كانت نتائج واضحة السلبية بالنسبة لهذا الأخير ، فإن ما طمع اليه معاوية هو تحقيق مساواة حتى في هذا الاطار ، بعد أن مرّ زمن على اسقاط الحجاز من حساباته السياسية « كان أهل الحجاز أعلى الناس ، في ايديهم الحق فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام »⁽⁴⁾ . وبالتالي فإن أية مراعاة خارج هذا المفهوم لم تكن واردة خاصة في الحجاز ، الذي انتهى دوره السياسي منذ ارتباطه اقتصادياً بالامصار ، حيث بلغت مرحلة من النفوذ وصلت الى محاسبة الخليفة نفسه (الثورة على عثمان ، ضغط القبائل الكوفية على علي في صفين) .

(1) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 63 .

J. Vesoly, Al-Ansar, P. 39 (2)

(3) ابن الاثم ، الفتوح ج 2 ص 415 . نصر بن مزاحم وقعة صفين ص 62-63 .

(4) الامامة والسياسة ج 1 ص 94-95 . ابن الاثم ، الفتوح ج 2 ص 430 .

وفي ضوء هذه المعطيات ، رأى معاوية في حياذ الحجاز أو انقسامه انتصاراً له ، بعد أن اتخذ من الشام قوته الحقيقية « ان كان قد بايعه - أي علي - أهل الحجاز وأهل العراق ، فقد بايعني أهل الشام ، وإن هؤلاء في الأمر سواء ، ومن غلب على شيء فهو له » (١) . فالصراع ميساسي المضمون ، في ظل « غلبة » تنسوخ معها القرارات والمواقف وتراجع أمامها شتى الاعتبارات بما فيها الإسلامية : « وأما فضلك في الاسلام وقرايتك من الرسول وموضعك من بني هاشم فليست أدفعه » (٢) . ولعل سقوط المسوخ « الديني » في حلبة الصراع السياسي ، حدا بعلي الى اثاره المسوخ « القرشي » ، محور « المسألة الاموية » في هذا المجال . فهو يمتاز - أي علي - عبر هذا المنظور بالغطاء الذي يفخذه معاوية ، كون بيعته تمت في (المدينة) وباعتراف من كبار المهاجرين - وهو واحد منهم (٣) - أصحاب الحق في الشورى . وعلى الرغم من الجدل الذي أثارته هذه البيعة لدى بعض هؤلاء ، ممن طعن في شرعيتها المفروضة بقوة السلاح ، فانها تبقى شأن البيعات السابقة ، معبرة عن العرف الذي تمّ اعتماده في السقيفة ، ومثلة - ان لم يكن بالاجماع - لتيار المهاجرين (قريش) و(الانصار) .

على أن هذا الحوار بدا عقيماً ، وذلك بانقسام قريش الى حجازية لها حق الشورى ولكنها معترضة ، وقرشية شامية مؤيدة لمعاوية دون أن تتمتع بهذا الحق السياسي « فهات رجلين من قريش الشام (يقبل) الشورى أو تحل لها الخلافة . . . والا فأنا أتيتك (بهم) من قريش الحجاز » (٤) . ومن المفترض أن علياً قصد في تصنيفه طلحة والزبير اللذين خرقا البيعة ، ولكن من موقع لا يدانية معاوية الذي يفتقد امتيازاً يملكه (المهاجرون) فقط . وعلى الرغم من الطابع السياسي لهذا الصراع بين الخليفة ووالي الشام ، وكلاهما قرشي ، فان خلفيته كانت متبانية بصورة جذرية . فعلي ، الذي نشأ مفطوراً على الاسلام وملتزماً بمبادئه فكرياً وعمراسية ، كان يمثل في موقفه « القرشي » ذهنية (المهاجرين) الاوائل من أصحاب النبي والمشاركين في بدر وأحد . وخلافاً لذلك طبع معاوية قضيته بعصبية قرشية ، لا تختلف في الاسلام عنها في الجاهلية « فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم ، افتراه لا يحوطهم وهم على دينه » (٥) . فقريش هي درع العرب أو « جُتهم » (٦)

(١) ابن الأعمش ، الفتح ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٢) الأمانة والسياسة ج ١ ص ٩٥ . ابن الأعمش ، الفتح ج ٢ ص ٤٣٠ .

(٣) ابن الأعمش ، الفتح ج ٢ ص ٤٣١ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٣٢ .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨٦ .

(٦) المكان نفسه تاريخ الطبري ج ٥ ص ٨٦ .

وليس الاسلام بالنظور الاموي ، الذي وجد فيه ابن خلدون قمة العصية القبلية
عصية مضر في قريش وعصية قريش في عبد مناف وعصية عبد مناف إنما كانت في بني
أمية (١) .

وهكذا فشل معاوية في تحقيق دعم معنوي لقضيته في الحجاز ، بعد أن رفض
« المعتزلون » من شخصياته البارزة التعاطف معه . وكان قد اتصل في هذا السبيل بثلاثة
من زعمائه : اثنان من المهاجرين (سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر) والثالث من
الانصار (محمد بن مسلمة) . ولكن سعداً الذي كان آخر وجوه « الشورى » في الحجاز ،
لم يكن ذا هوى في السياسة ، متغادياً التورط في أزماتها التي تابعت منذ حصار عثمان « هذا
أمر قد كرهنأ أوله وكذلك نكره آخره » (٢) . فآثر تجنب هذا المركب الصعب ، دون أن
يكون وارداً في حساباته الانضمام الى جبهة غاب عنها (المهاجرون) (٣) ، ودون أن يخضع
لتأثير الحملة النفسية التي قام بها والي الشام لاجتذاب الحجاز الى صفه ، متصدياً له بشيء
من المقارنة « أقمن بني عثمان عما فعله ثم كفت عنه واعتزله خير ، أم من أمر عثمان بما فعله
ثم خذله وخذل عنه » (٤) . ولم يكن عبد الله بن عمر أقل رفضاً في موقفه من سعد ، رغم
استدراج معاوية له بقوله « لم يكن من قريش أحب إلي أن تجتمع الناس عليه منك بعد
مقتل عثمان » (٥) . وهي محاولة توسلها معاوية فيها بعد ، لشق جبهة علي وحمل عبد الله بن
عباس (أحد أركانه الكبار من المهاجرين) على التخلي عنه « وأنت رأيت هذا الجمع
اليوم ، ولو بايع الناس لك بعد عثمان كنا اليك أسرع منا الى علي » (٦) . أما محمد بن مسلمة
الذي وصفه معاوية بأنه « فارس الانصار » (٧) ، فكان متأثراً بالاعتبارات نفسها التي أملت
على سعد وعبد الله هذا الموقف ، حيث يبدو أن تكتلاً ضم هؤلاء الثلاثة خارج نطاق
المحورين المتصارعين . ولعلهم كانوا أكثر « حجازية » في موقفهم ، الذي كان محتفظاً
من علي غير مسوغ معاوية ذرائعه المطروحة . وهذا ما عبر عنه محمد بن مسلمة بقوله « إنما
نحن أنصار النبي » (٨) ، بما يحمله ذلك لجماعته من دعوة الى البقاء في (المدينة) التي

(١) لأن عصية مضر كانت في قريش وعصية قريش في عبد مناف وعصية عبد مناف إنما كانت في بني أمية ، تعرف ذلك
لمم قريش وسائر الناس لا ينكرونه ، وإنما نسي ذلك أول الاسلام ، مما شغل الناس من الدهور بالحوارق وأمر الرحي
وتردد الملائكة لنصرة المسلمين » انقذمة ص 382-383 .

(٢) ابن الاثم ، الفتوح ج 2 ص 421 .

(٣) اقتصر تأييد (المهاجرين) لمعاوية على عمرو بن انعاص الذي « هاجر » في أعقاب غزوة الاحزاب .

(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ج ١ ص 85 .

(٥) ابن الاثم ، الفتوح ج 2 ص 418 . ابن صاكر ، تاريخ دمشق (مخطوط) ، ورقة 354 .

(٦) البلاذري ، انساب الاشراف ج ١ ص 105 .

(٧) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 76 . ابن الاثم ، الفتوح ج 2 ص 422 .

(٨) ابن الاثم ، الفتوح ج 2 ص 424 .

ارتبطت عظمتها بدولته التي أنشأها على أرضها ، دون أن يجد مصلحة في الالتحاق بعلي الذي تخلى عن (المدينة) وانتقل الى الكوفة ، ودون أن يجد في مهمة الخذلان لعثمان التي ألصقها معاوية بالانصار الا افتراءً واضحاً ، من الحري أن تقع على كاهل معاوية ، فان تنصر عثمان ميتاً فقد خذله حياً » (١) ، حسب قوله .

واذا ما حاولنا تتبع الحضور الحجازي في صفين ، سنجد مضافاً الى الجبهتين الكوفية والشامية ، حيث الاولى كانت أكثر استقطاباً وربما أكثر تمثيلاً للحجاز الذي بقي بصورة عامة الى جانب علي ، خاصة بعد تجديد البيعة له في مكة إثر انتصاره في معركة الجمل (٢) . على أن هذا الحضور كان سياسياً في المقام الاول ، لافتقار هذا الاقليم مادة الجند الكافية ، على نحو ما شهدته حرب الفتوح لا سيما الموجة الثانية منها ، التي كان التفوق العددي فيها معقوداً للقبائل غير الحجازية على نحو ما أسلفنا . فهذا الصراع ، وهو في مضمونه احدي النتائج الحتمية للفتوح ، كان من الطبيعي أن يكون للقبائل الامصار ، حيث جرت هذه الحرب أيضاً ، دور متغلب على الصعيد العسكري ، كونها الاطراف المعنية مباشرة بالتطورات ، التي شهدتها الدولة الراشدية في النصف الثاني من خلافة عثمان وما رافقها من تدهور لوضعها الاقتصادي .

ولكن الحجاز رغم ذلك يحتفظ ، شأن معارك الفتوح ، بالعنصر القيادي الذي كان واضحاً لدى الطرفين ، مع دور أساسي للانصار (٣) في جانب علي وانعدام له في الجانب الآخر . وكان ذلك انعكاساً للموقف العام الذي اتخذته (المدينة) من خلافة علي ، حيث اتخذت طابع القضية الخاصة والمصيرية « وعظم من معه من أهل المدينة الانصار » (٤) . ولم يكن غريباً أن يكون هؤلاء أشد حماسة للحرب والجناح الأكثر تطرفاً في صفين ، التي ابرزت بشكل خاص أبا أيوب الانصاري (٥) ، مما أثار حفيظة معاوية ضد (الانصار) وكشف موقفه « العدائي » (٦) منهم . فلم تلبث ذكريات « بدر » و « أحد » أن تسيطر على أجواء الحرب في (صفين) ، لتتخذ طابعاً ثورياً متبادلاً ، كان أكثر وضوحاً في الجانب الاموي الذي عبر عنه معاوية « لقد غمّني ما لقيت من الاوس والخزرج » (٧) . وكان تحريد

(١) ابن الأعمش ، المتروك ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٧١ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٧ .

(٤) للمكان نفسه .

(٥) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص ٣٧٢ ، البلاذري ، أنساب الاشراف ص ٣٨١ (ت الحموي) .

(٦) يكشف من ذلك ما نسب الى معاوية في كتابه لابي أيوب الانصاري :

لا تحسبوا أنني أنسى مصيبه (عثمان) وفي البلاد من الانصار من أحد

(٧) المصدر نفسه ص ٤٤٥ .

هؤلاء من الاسم الذي استحقوه مع « المهجرة » ، أحد مؤشرات الصراع القبلي الذي تجلّى في صفين ، وفجّر معه الحساسيات القديمة بين قريش و (الانصار) . وكان الأركان في التشكيلة القيادية ، التي كانت لها كلمتها المسموعة لدى علي ، هم : هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعمار بن ياسر⁽¹⁾ (من المهاجرين) ، قيس بن سعد ، أبو أيوب الأنصاري ، خزيمه بن ثابت ، سهل بن حنيف من (الانصار)⁽²⁾ .

ويبدو أن دور هؤلاء لم يكن عسكرياً فقط ، حيث أن تشكيلة أخرى أوردتها (الطبري) عن (أبي مخنف) ، ضمّت القيادات العسكرية التي حاربت مع علي في صفين ، وقد مثلها الاشر (خيل الكوفة) ، عمار بن ياسر (رجالة الكوفة) ، سهل بن حنيف الأنصاري (خيل البصرة) ، قيس بن سعد وهاشم بن عتبة (رجالة البصرة) - وقد حمل هذا الأخير راية علي - وسعر من فذكي التميمي (قراء البصرة)⁽³⁾ . وثمة ملاحظة في هذه التشكيلة العسكرية ، هي أن قبائل العراق قد تمثّلت بالاشتر الذي احتلّ موقعاً قيادياً بارزاً في صفين ، وذلك خلافاً للقائد التميمي الذي مثل « قراء » البصرة أكثر من قبيلته ، التي انقسمت على نفسها وقاتلت على الجبهتين⁽⁴⁾ . بالإضافة الى ذلك لوحظ غياب زعماء البصرة عن هذه التشكيلة ، حيث قاتلت قبائلها تحت قيادات حجازية بصورة خاصة . ويكون هذا الغياب المقصود على الأرجح ، مرتبطاً بالموقف غير المتحمس لخلافة علي ، والذي كان من نتائجه قيام أول حركة مسلحة على أرض البصرة ضده .

أما أركان معاوية في (صفين) فقد تقدّمهم القرشيون وغاب عنهم (الانصار) ، بامتناء ما أوردته (نصر بن مزاحم) عن اشتراك مسلمة بن مخلد كقائد للميسرة⁽⁵⁾ ، فضلاً عن بعض القيادات القبلية ، المضرة بصورة عامة . ثمة تشكيلة في تاريخ « الطبري » يتقدّمها قائد (حميري) : ابن ذي الكلاع « الميمنة » و (فهريان) : حبيب بن مسلمة « الميسرة » والضحّاك بن قيس « رجالة الناس كلها »⁽⁶⁾ ، بالإضافة الى أبي الاعور السلمي « المقدمة » وعمرو بن العاص « خيول الشام كلها »⁽⁷⁾ ومسلم بن عقبة المري « رجالة دمشق »⁽⁸⁾ ، بينما وردت في (فتوح ابن الاعثم) على هذا النحو : عبد الرحمن بن

(1) حليف بني غزوم . السريطي ص 157 .

(2) نصر بن مزاحم ص 92-94 .

(3) تاريخ الطبري ج 6 ص 6 .

(4) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 97 .

(5) المصدر نفسه ص 206 .

(6) تاريخ الطبري ج 6 ص 6 .

(7) للكان نفسه .

(8) للكان نفسه .

خالد بن الوليد (الميمنة) ، عبد الله بن عمرو بن العاص (الميسرة) ، أبو الاعور السلمي (المقدمة) ، بسر بن أبي أرطاة الفهري (الساقة) ، ومعهم مروان بن الحكم الذي « تقلد بسيف عثمان » (١) . أما (نصر بن مزاحم) فقد أوردتها مفصلة بما فيها قيادات الاجناد المختلفة ، مضيفاً اليها مسلمة بن مخلد الانصاري (الميسرة) وعبيد الله بن عمر (على الحليل) (٢) ، الذي انضم منذ وقت مبكر الى جانب معاوية وقتل في إحدى معارك صفين ، خلافاً لآخيه (عبد الله) الذي بقي في الحجاز بعيداً عن هذه الحرب . وفي إطار المقارنة بين القيادتين الكوفية والشامية ، لا بد أن نلاحظ بروز التمثيل الحجازي في الاولى ، بحيث كانت القيادات الاساسية من (المهاجرين) و (الانصار) ، بالإضافة الى الاشر ، أحد أقوى الشخصيات اليمنية وأقرب هؤلاء الأركان الى علي . ومن الواضح أنها تعكس القوة المقاتلة على هذه الجبهة ، التي تؤلف هذا التحالف من المهاجرين (هاشم بن عتبة ، عمار ابن ياسر) ومن الانصار (سهل بن حنيف وقيس بن سعد) ، فضلاً عن القبائل اليمنية (الاشر) (٣) . أما الجبهة الشامية فكانت تجسّد في الواقع تحالف قريش مع قبائل الشام ، لا سيما الفهريين الذين كان لهم نفوذ واسع في ذلك الحين . وقد تجلّت هذه الصيغة عبر أقوى شخصيتين بعد معاوية ، كانتا عصب هذه الجبهة من الناحية العسكرية وهما : عمرو ابن العاص قائد « خيول أهل الشام » والضحّاك بن قيس قائد « رجالتها » (٤) .

وكانت عدة معارك وُصفت بأنها ضارية قد شهدتها (صفين) حيث انجرت اليها غالبية القبائل العربية ، بعضها شارك كوحدة قتالية متماسكة مثل نخع وكندة ونخزاعة وعبد القيس (في جيش علي) وفهر وكتب وجذام (في جيش معاوية) والآخر انقسم على نفسه تحت تأثير المصالح المتباينة والمتغيرات الجغرافية في القبيلة الواحدة التي افرزتها الفتوح ، مثل همدان والازد ومذحج ، التي قتلت ضد بعضها في الجبهتين (٥) . ولعل هذا التداخل القبلي كان أحد عوامل النمط السجالي الذي سيطر على هذه الحرب ، بحيث وضعها منذ البدء في إطار المساومة الدائمة . فعلي كان يمقت هذا الصراع الدموي الذي فرض عليه في الشام ، كما فرض عليه قبل ذلك في البصرة ، ويحذ فيه تدميراً لقوة الاسلام الداتية . وقد عبّر عن هذا الاتجاه في مقولته المعروفة « لا يجهز على جريح ولا يتبع مؤلّ . . . » (٦) ومن جهة ثانية فإن معاوية لم يكن لديه الكثير ليفقده في هذا الصراع ،

(1) ابن الاثم ، الفتح ج ٢ ص 437 .

(2) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 206 وما بعدها .

(3) تاريخ الطبري ج ٦ ص 6 .

(4) المكان نفسه تاريخ الطبري ج 6 ص 6 .

(5) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص 205- 207 . تاريخ خيفة بن سباط ج ١ ص 221- 222 .

(6) تاريخ الطبري ج ٢ ص 182 . البهري ، الاخبار الطوال ص 144- 143 .

بالمقارنة مع خصمه الذي يقاتل من موقع الخليفة . وكانت تلك احدى الثغرات الكبرى التي استغلها معاوية ، لتحقيق حالة متكافئة من التاحتين السياسية والعسكرية . ومن هنا كان التساوم هو السلاح الاكثر فاعلية في الجبهة الشامية ، بدءاً بالقضية نفسها التي اثيرت حولها الحرب (مقتل عثمان) ، ومروراً بالوسائل الاعلامية والمادية المختلفة التي استخدمها في التأثير على الحلفاء والمؤيدين (توزيع الاموال على القبائل المتكثلة معه) ، أو محاولة ترشيح بعض زعماء الحجاز للخلافة (عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر) . وقد بلغ هذا النهج قمته في « التحكيم » ، المناورة الكبرى التي امتصت ميول الحرب لدى العراقيين ، وأودت بهم الى الانشقاق والجنوح الى المهادنة ، في أعقاب حرب غير حاسمة « تباعض القوم جميعاً وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض » (1) .

وهكذا طرحت فكرة الاحتكام للقران « التحكيم » التي ارتبطت بصاحبها عمرو بن العاص (2) ، كمخرج من هذا السجال الذي سيطر على الحرب ، ومقدمة لحسم بات ملحا بعد استفاد طاقات الطرفين خلال عامين أو أكثر من الحوار العقيم والصراع الساخن . وكان علي قد افتقد زعيمياً (المهاجرين) ، للذين كانا من ابرز قواده وهما عمار بن ياسر وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص (3) ، بما لهما من تأثير معنوي كبير على جبهته ، لا سيما هذا الاخير الذي كانت « راية » (4) الحرب معقودة له . أما في جانب معاوية فقد سقط من (المهاجرين) عبيد الله بن عمر (5) ، أحد قادة « الفرسان » في الجبهة الشامية ، دون أن يعكس غياب تأثيراً ما عليها ، حيث كانت أساساً تفتقر الى تغطية لم يكن باستطاعة عبيد الله توفيرها على الاطلاق ، وبالتالي فان « قريش للمهاجرة » كانت غائبة أو تكاد عن جبهة الشام ، محدودة التمثيل في الجبهة الاخرى .

ولسنا بحاجة الى ترديد ما ينقله المؤرخون عن موقف علي السلي من « التحكيم » ، فهي مسألة خارج اطار المناقشة بالنسبة لهذه الدراسة المعنية بالجانب الحجازي منها في المقام الاول . وان كان لا بد من اشارة ما الى البعد السياسي الذي غثله عبر هذا المنظور ، فان « التحكيم » كان منعطفاً بارزاً في الحرب الاهلية التي دارت رحاها في (صفين) ، حيث أدى الى تحويل مسارها من المجابهة المسلحة الى الصراع السياسي ، وصولاً الى تحقيق توازن متكافئ بين الطرفين ، كان معاوية المستفيد الاول

(1) اسحقوف ، مروج الذهب ج 2 ص 394 .

(2) تاريخ الطبري ج 6 ص 26 .

(3) المصدر نفسه ج 6 ص 21 ، 24 ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ج 10 ص 102 - 107 ، ج 6 ص 55 - 56 .

(4) المصدر نفسه ج 6 ص 6 . تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 220 .

(5) المصدر نفسه ج 6 ص 20 .

منه ، باعطائه الفرصة التاريخية كند للخليفة وليس مجرد ول أعلن العصيان عليه . وإذا كانت القبائل قد حاربت كألوية أو كفرق عسكرية ، متمتعة بقدر كبير من استقلاليتها السياسية ، فإن هذه الصورة كانت أشد وضوحاً في العراق منها في الشام . فعلى الجبهة الأولى كانت العلاقة حديثة العهد مع قائدها الخليفة ، الذي جاء إلى الحكم في غمرة تحديات غير عادية ، اضطرتة إلى اصطناع تحالفات سريعة ، ربما كانت في الغالب مفروضة عليه ، وهذا ما جعلها باستثناء جزء منها ، غير مؤهلة للقتال فترة طويلة في حرب نظامية ، أول ما يفترض الانضباط والالتزام بالقرار القيادي . وخلافاً لذلك كانت معظم قبائل الشام ذات صلة قديمة بمعاوية ، كمحصلة للارتباط الأموي العريق لهذه المنطقة ، الأمر الذي مهد له توظيف هذا الموقع في تدعيم علاقاته القبلية الشامية إلى حد كبير ، دون الاستهانة بالجهد المبذول في « صنع » قضية مشتركة مع هذه القبائل التي اتصفت بشدة الولاء لمعاوية .

وكان من أبرز ظاهرات التفاوت الانضباطي على الجبهتين ، السهولة التي تم فيها انتداب عمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية في مفاوضات « التحكيم » التي اتفق على عقدها في العالم الثاني (38 هـ) في (دومة الجندل)^(١) ، والصعوبة التي واجهت ذلك في الجبهة الأخرى ، كنتيجة للتمزق الداخلي الذي أخذت تعانيه ، بحيث أصبحت تدور في حلقة ردة الفعل وليس العكس . وكان الاختلال الأساسي أن وفد عليّ إلى « التحكيم » لم يكن قرشياً على غرار الوفد الشامي ، بعد فشله في إيصال عبد الله بن عباس إلى هذه المهمة ، كذلك فشله في انتداب أحد أركانته العسكريين (الأشتر النخعي ، الاحنف بن قيس) أو من الانتصار (شداد بن الأوس)^(٢) . فالأول (ابن عباس) « لا يرضى القوم » والثاني (الأشتر) ، « يعيدها جذعة » والثالث (الاحنف) « ابنة النامس » والرابع (شداد) « يشرب » لا يرضى معاوية أن يحكم بها^(٣) ، كما وصفهم الأشعث بن قيس ، الذي كان هوذا بارزاً ليس في انتزاع الموافقة على « التحكيم » ، بعد أن تحمس لهذه الدعوة منذ اتصاله المبكر بمعاوية ، ولكن في تحديد الشخص « المناسب » لهذه المهمة . وهنا كانت الثغرة الاسمية الثابتة التي أدت إلى اختلال التوازن بشكل سافر بين الطرفين ، حيث يكون موفد معاوية أحد ما يمكن تسميتهم بصقور الحرب أو « رموزها » في الجبهة الشامية ، بما يفرضه ذلك من الالتزام المبدئي بموقفها السياسي ، بينما يكون موفد علي معتزلاً للقتال^(٤) ، مقطوع الصلة بالقضية التي سيفاوض من أجلها . فثمة متطرف مقابل

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص 31 . المسعودي ، مروج الذهب ج 2 ص 395 .

(٢) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص 333 . تاريخ الطبري ج ٦ ص 28 - 29 .

(٣) نصر بن مزاحم ، ص 333 تاريخ الطبري ج ٦ ص 28 - 29 . ابن الأثير ج 4 ص 6 .

(٤) تاريخ الطبري ج ٦ ص 28 .

معتدل وشريك عضوي في حرب أمام معتزل لها بعيد عن أجرائها ، حيث نستطيع القول أن موافقة علي على انتداب رجل لا يثق به كالاشعري⁽¹⁾ ، حلت به بحق الى منتصف الطريق مع معاوية ، دون أن يقوم هذا الأخير بأية خطوة في المقابل .

وفي المقابل فإن موقف (الانصار) لم يكن متحمساً إزاء التحكيم ، حيث وجدوا فيه مساومة قد تكون على حسابهم وتتل من موقعهم الذي ارتبط مصيرياً بقضية علي . فثمة زعيم بارز منهم (سهل بن حنيف) ينتقد هذه الدعوة بشيء من المرارة « ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا لأمر أسهل بنا الى ما نعرفه الا أمرنا هذا »⁽²⁾ . ولعلنا نلمح هذا الموقف السلمي ، في غياب قيادات (الانصار) عن وثيقة « التحكيم » التي ذكرها (الطبري) عن (أبي مخنف) ، وقد شهد عليها عبد الله بن عباس (قريش) ورؤساء القبائل الكبيرة : الأشعث وحجر بن عدي (كندة) ، الأشتر (نخع) ، سعيد بن قيس ومالك بن كعب (همدان) ، وقاء بن سمي (بجلة) ، وغيرهم ، دون أن يرد بينهم أحد من (الانصار) باستثناء ما تفرد به (نصر بن مزاحم) ، الذي أشار الى عدد من هؤلاء عن شارك في التوقيع على الوثيقة⁽³⁾ . أما في جانب معاوية فقد لوحظ ان اثنين من شهودها كانا من (الانصار) ، استناداً الى الرواية الأولى ، ولكن من غير الاسماء البارزة ، وذلك خلافاً للرواية الثانية التي لم تشر الى (الانصار) بين شهود هذه الوثيقة ، حيث شكلوا بالإضافة الى بني عبد شمس (عتبة بن أبي سفيان وأبو الاعور السلمي) كلا من مخزوم (عبد الرحمن ابن خالد) وهمدان (حمزة بن مالك) وعذرة (زمل بن عمرو) وفهر (حبيب بن مسلمة) وكندة (معاوية بن خديج) وكلب (عمار بن الاحوص) وجذام (يزيد بن عمر) وغيرهم⁽⁴⁾ .

وفي الوقت الذي كان فيه دور (الانصار) غائباً أو هامشياً في محاورات « التحكيم » ، فإنهم ظلوا يمثلون صوت الحرب في جبهة علي ، مشاركين في مختلف مراحلها بما فيها حرب الخوارج في النهروان⁽⁵⁾ ، دون أن ننسى التزامهم بهذه الموقف حتى بعد اغتيال علي ، حيث كانوا الطرف الأشد حماسة لاستمرار القتال (قيس بن سعد ، أبو أيوب الانصاري) ، قبل أن ينكفئوا الى (المدينة) محتجين على تنازل الحسن لمعاوية⁽⁶⁾ . لقد كان « التحكيم » الضربة القاصمة التي هزّت مفاصل الجبهة العراقية

(1) تاريخ الطبري . تاريخ المعمرين ج 2 ص 198 .

(2) البلاذري ، انساب الاشراف ص 348 (ت المحمدي) .

(3) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 506-507 .

(4) الطبري ج 6 ص 30 . نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 507 .

(5) البلاذري ، انساب الاشراف ص 350-351 (ت للمحمدي) .

(6) انساب الاشراف ص 382 . محمد عمارة ، الخلافة والاحزاب الاسلامية ص 110 .

وأمدت الى نشوء مراكز قوى في داخلها ، على حساب القيادة المركزية التي أصابها الكثير من الخلل والارتباك . فقد أصبح الاشعث مع « قومه وكثير من أهل اليمن »⁽¹⁾ خارج نطاق المعركة ، كنتيجة للدور المشبوه الذي مارسه في التهيئة للتحكيم . وامتد الشك الى أقرب المحيطين بعلي ، الذي فوجيء في وقت لاحق بخروج عبد الله بن عباس (والي البصرة) الى مكة ومعه أموال الخراج⁽²⁾ . وكان صاحب بيت المال (أبو الاسود الدؤلي) قد كتب اليه حسب رواية لابي مخنف بهذا الشأن « ان عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك ولا يعني كتمانك ذلك »⁽³⁾ . ولم يستطع ابن عباس الدفاع عن نفسه ، الا بموقف سياسي خاص من الصراع الدعوى الذي كان أول المشاركين الرئيسيين فيه حسب قول علي « أو ابن عباس لم يشركتنا في هذه الدماء ؟ »⁽⁴⁾ .

وهكذا فإن مؤشرات « التحكيم » السلبية على جبهة العراق ، تمثلت بالانحياز السريع على المستوى القيادي (موقف الاشعث وعبد الله بن عباس) ، وعلى المستوى العسكري (الانخفاق في استعادة ظروف ما قبل « التحكيم ») ، بعد ارفضاض المؤتمرين على غير وفاق في (دومة الجندل) . وكذلك على المستوى السياسي (افراز جماعة الخوارج التي رفضت هذه الدعوة ضمن شعارها المعروف « لا حكم الا لله »⁽⁵⁾) ، وعلى المستوى الاقتصادي ، أن الجماعة نفسها التي ثارت على « التحكيم » من منظوره « المبدئي » الذي زعمته ، لم يكن رائداه تلك العصبية الاسلامية كما يقول (فلهوزن)⁽⁶⁾ ، وانما حددت موقفها من علي بعيد اختمار ظروف خاصة بها ، وهي لا تختلف حسب رؤيتها ، ومصالحها عن تلك التي دفعتها للثورة على عثمان⁽⁷⁾ ، الذي وزع على جماعته أرضاً حُرمت منها في (السواد)⁽⁸⁾ .

وكان الاجتماع الذي جرى في أعقاب هدنة غير قصيرة - تخللتها على الجبهة العراقية

(1) تاريخ الطبري ج 6 ص 31 .

(2) المصدر نفسه ج 6 ص 80-81 . السياسي ، الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام ، مخطوط دار الكتب المصرية ، ورقة 22-23 .

(3) البلاغوى ، انساب ص 169 (تحقيق المحمودي) .

(4) المصدر نفسه ص 171 .

(5) تاريخ الطبري ج 6 ص 40 .

(6) الخوارج والسيرة ص 41 .

(7) تاريخ الطبري ج 6 ص 27 .

(8) رفض علي توزيع الارض في اسواد كما سبق أن فعل عمر ، خشية أن يحدث ذلك نزاعاً على ريباً بين المسلمين . وجميع الاموال لابي عبيد ص 81-84 وكذلك تطور الملكية في الاسلام (نموذج اسواد) لمحمد علي نصر الله .

رسالة ماجستير غير منشورة ص 154 جامعة بغداد

متابع سياسية (الخلاف بين كنتلة وتميم)^(١) وعسكرية (معركة النهروان ضد الخوارج) - قد أحبط باجواء مفتعلة ، حيث الشروط غير متكافئة والطرح أقرب الى الحوار المسرحي منه الى مناقشة موضوعية لمسألة جدية كالحلقة . ولم يكن الأشعري الذي أظهره روايات المؤرخين سياسياً فاشلاً أمام شخصية ذكية ومناورة (عمرو بن العاص) ، ذلك المستضعف أو المهزوم بالمقياس الذي صور فيه ، بقدر ما كان يؤدي دوراً رسم له بكثير من الانسجام ، تحت تأثير الضغط « يعني » الذي مارسه الأشعث وتوج باختيار أحد الزعماء اليمنيين ممثلاً لعل في « التحكيم » . ولذلك فإن القول بأن الأشعري كان مهدوفاً^(٢) إزاء محاوره « الأموي » ، لا يجعل كثيراً من الدقة ، خاصة وأنه صاحب تجربة في السياسة تعود الى أيام النبي^(٣) . فقد تمحور النقاش منذ البدء حول مقتل عثمان ، في نطاق تقويم خاص لهذا الأخير مستهدفاً إعادة الاعتبار إليه ، بما يعكسه ذلك من صدى معنوي على « المسألة الأموية » بصورة عامة ، كاعتراف الأشعري مثلاً : بأنه « كان مؤمناً » . . . و « قتل مظلوماً » واعترافه كذلك بولاية معاوية له^(٤) ، كمقدمة لتسوية شرعية الحق الذي يطالب به ، كونه « يته في قريش » ، دون أن تكون « حجة » أنه « ليست له مابقة »^(٥) الى آخر هذه المرغبات الضرورية التي تسلك بها الجانب الشامي . على أن الأشعري لم يفتقد الى المناورة بدوره ، عندما فاجأ نذره بطرح صهره عبد الله بن عمر^(٦) كاسم ثالث أو بديل وسط ، قد لا يثير تحفظاً لدى العراقيين ، وفي الوقت نفسه يتميز على معاوية بسابقته التي عبر عنها الأشعري بالقول المنسوب له « لم أكن لأوليه - أي معاوية - وأدع المهاجرين الأولين »^(٧) .

ولقد كان أبرز مؤشر بعد اخفاق « التحكيم » ، هو الجمود العسكري الذي استمر حتى اغتيال علي ، باستثناء عمليات محدودة لم يكن لها تأثير جذري على الصراع القائم ، الذي أخذ يميل ، على الصعيد السياسي فضلاً عن العسكري ، لمصلحة معاوية ، منذ انسحاب الجيوش من الجبهة وانقضاؤ المؤتمر على شقة واسعة من الخلاف . على أن هذا الأخير ، لم يكن بحاجة الى مزيد من الجهد في مواجهة الخليفة ، بعد أن حالته الظروف ، وكذلك التطورات السريعة على جبهة العراق المعزقة ، في تعزيز مواقعه وتحقيق مكاسب متلاحقة . وعلى الرغم من أن تمرد الخوارج على قرار « التحكيم » كان يستهدف الطرفين

(1) تاريخ الطبري ج 6 ص 30-31 ، للمسعودي . مروج ج 2 ص 393 .

(2) المصدر نفسه ج 6 ص 39 . للهورن ، تاريخ الدولة العربية ص 87 .

(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج 1 ص 349 . للمسعودي ، مروج الذهب ج 2 ص 396 .

(4) تاريخ الطبري ج 6 ص 38 .

(5) المسعودي ، مروج الذهب ج 2 ص 397 ، 398 .

(6) تاريخ الطبري ج 6 ص 38 .

الذين اعترفوا به ، فان علياً كان هدفهم المرحلي ، حيث أدى « خروجهم » من جيشه الى كارثة ، أصابت هذه المؤسسة العسكرية في العهد الراشدي بالانحيار ، الذي توافق مع اضطراب المؤسسة السياسية المرتبطة بها . فقد تورط جند الخلافة الذين اسهموا بغالبيتهم في حركة الفتوح في الشؤون الداخلية ، تحت تأثير قضايا خاصة بهم لم تكن مطروحة بمثل هذا الوضوح قبل عهد عثمان . واذا كانت الثورة التي استهدفت هذا الأخير قد تذرعت بفساد الادارة التي انتقده أيضاً كبار الصحابة بشدة ، فان علياً لم يكن بمنأى عن هذا « التمرد الموقوت » الذي هدّد جبهته الداخلية منذ البيعة . ولعل الحرب الحتمية التي فُرضت عليه في البصرة وصفين ، قد شغلت هؤلاء الجند وامتصت الى حين اعتقاداتهم ضد الخلافة ، التي حالت حتى ذلك الوقت دون تحقيق ما يطمحون اليه في (الانصار) على نحو ما أشرنا اليه سابقاً . كما أن سجل الحرب ومن ثم ركودها الذي كرّسه « التحكيم » ، قد فجر مرة أخرى نقمة هؤلاء الذين حملوا اسم الخوارج ، حيث كانت طلائعهم من (عجم) إحدى كبريات القبائل البدوية التي شاركت في (الردّة) ، من مواقعها القديمة في نجد على امتداد طريق اليمامة - البصرة ، وذلك قبل أن تستقر في الكوفة وجوارها (١) .

وهكذا فان نتائج التحكيم انعكست سلباً على جبهة العراق ، بمقدار ما كانت لها ايجابياتها على الجبهة الشامية ، حيث التحالف مع الوقت احتل حيزاً كبيراً في تدعيم الموقع العسكري والسياسي لهذه الأخيرة . فبينما انصرف علي الى الكوفة ليطوي حيناً مشاريع الحرب ، الا من عمليات دفاعية محدودة ، كان معاوية ماضياً في خطته « الاستنزافية » التي انتهت بجيش خصمه الى الانهك والتمزق (٢) . وبلغ من تخرّج الاوضاع على الجبهة الاولى ، افتقارها القيادات البارزة (هاشم بن عتبة ، عمار بن ياسر ، محمد أبي بكر) من المهاجرين ، والاشتر النخعي أحد أركان القبائل اليمنية التي شكّلت غالبية الجيش فيها . فبعد غياب القادة الثلاثة الذين تمثلت فيهم المشاركة القرشية المحدودة ، واعتكاف عبد الله ابن عباس في مكة في أواخر خلافة علي ، اقتصر الحضور الحجازي في الصراع بين محوري الكوفة والشام على (الانصار) ، الذي كانوا أشد المتحمسين لعمل ، بحيث أصبح الدفاع عن حقه في الخلافة قضية مصيرية بالنسبة اليهم . على أن تحديد حجم (الانصار) في (صفين) قد لا يبدو على شيء من السهولة ، خاصة وأن الروايات الاساسية لا تشير الى أرقام تقريبية في هذا السبيل ، على نحو ما أوردته حول معظم القبائل ، باستثناء ما أشير

(١) اللاتشلي ، نهاية الارب ص ١٧٧ . 81-83. CHOUFANI, Al-Biddah and the muslim of Arabia.

(٢) السقوي ، تاريخ ج ٢ ص ١٩٤-١٩٩ . الطبري ، تاريخ ج ٦ ص ٧٧ .

(٣) البلاذري ، انساب ص ٢٣٣ (ت النعماني) .

بشيء من الالتباس الى خروج سبعمائة من (الانصار) مع علي الى الربرة وهو في طريقه الى البصرة ، في إحدى الروايات (أبو مخنف) ، فإذاهم من « الكوفيين والبصريين » في رواية ثانية (سيف)^(١) .

وفي الوقت نفسه نجد تضارباً في موقف (المدينة) من علي ، الذي وُصف في إحدى الروايات بالثاقل^(٢) ، من دون تحديد للفتنة المتناقلة ، وإن كان صاحب الرواية نفسها (سيف) لا يضع (الانصار) في هذه الدائرة ، حيث ينسب الى أحدهم قوله لعلي « من تثاقل عندك فانا نخف معك ونقاتل دونك »^(٣) . على أن (ابا مخنف) يرى خلافاً لذلك ، ان الاستجابة كانت واسعة استنفر الناس في (المدينة) ودعاهم الى نصره فخفت معه الانصار^(٤) . ولعل المقارنة بين هاتين الروايتين ، تميل بنا الى الاعتقاد مع (ابي مخنف) ، الذي عرف بدقة رواياته) ، الى أن الموقف العام للانصار كان مؤيداً لعلي متافراً مع معاوية . ولكن (الانصار) الذين كانوا طلائع جيش علي في حرب الجمل^(٥) ، لم يقاتلوا كفرقة خاصة على غرار المجموعات القبلية الكبيرة (مذحج .. كندة ...) ، الامر الذي يوحي بأن عندهم كان محدوداً ، بحيث شكلوا جزءاً من فرقة ، ضمت بالإضافة اليهم كلا من الازد وبيجلة وخثعم^(٦) . ولم يرد ما يشير الى دور يتجاوز ذلك في تشكيلة الجيش الذي قاتل به علي في (صفين)^(٧) . وربما تضاعف دورهم في هذه الحرب ، بالمقارنة مع السابقة ، تحت تأثير الاحتجاج على نقل عاصمة الخلافة الى الكوفة^(٨) الذي تم في أعقابها .

وما لبثت ملامح الشخصية المستقبلية للحجّاز التي كرّسها الصراع بين علي ومعاوية ، ان اخلت تتكون منذ اخفاق مشروع « التحكميم » ، أحد أبرز منعطفات الحرب في (صفين) . فبعد الهدنة التي فرضت نفسها في أعقاب ذلك توجه الاشعري الى مكة ، حيث أصبح الموقف غير وقي منه في العراق^(٩) ، لتصبح هذه المدينة ، التي حيكت منها خيوط حرب الجمل ، ملتجأ الساعطين على السلطة ، سواء تحت قناع المعارضة أو

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص 119 .

(٢) المصدر نفسه ص 111

(٣) المصدر نفسه ص 109-111

(٤) البلاذري ، أنساب ص 233 (المحمدي) .

(٥) الغلابي البصري ووقعة الجمل ص 31-33 .

(٦) البلاذري ، أنساب ص 236 (ت المحمدي) .

(٧) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 205-201 .

(٨) يحتد VESBLY بأن قلّة من مقاتلة (الانصار) خرجت مع علي الى الكوفة ، حيث كان ذلك نقطة الخلاف الأولى

بينهما . AL-Ansahr, P. 40 .

(٩) ابن الأثير ، كتاب الفتح ج 4 ص 34 .

الاعتزال . ولعله من المثير أن تتحول مدينة القرشين الاولى ومحور نفوذهم السياسي والاقتصادي حتى العام الهجري الثامن ، الى مركز المعارضة ضد السلطة التي انتقلت الى (الامصار) على يد قريش نفسها ، بعد أن أفرغت مكة منها أو كادت .

وكانت مبادرة معاوية بعد فشل « التحكيم » قد أدت الى ما يمكن تسميته بـ « حرب الامصار » . فكان التركيز أولاً على مصر التي مثلت ضرورة جغرافية لدولته في الشام ، حيث سقطت في نطاق مجابهة غير جذية (38 هـ) ، رافقها غياب اثنين من مؤيدي علي الكبار (محمد بن أبي بكر والاشتر النخعي) (١) ، سقطا تبعاً في ظروف لم يكن على الأرجح بعيداً عنها . ولعل الاغتيال السياسي ، كان احدى الطرق التي شاعت في ذلك الوقت ورافقت الصراع على الخلافة ، حيث تم التخلص من عدد غير قليل من المتحمسين لعل ، لا سيما الذين شكلوا خطورة سياسية أو قبلية ، لم تؤثر فيها وسائل الاحتواء العديدة التي التجأ اليها معاوية . ولا يتردد أحد الكتاب المعاصرين من اتهام الأخير بأنه وراء المؤامرة المحبوكة الثالثة (٢) التي اودت بحياة علي ، رافضاً تدخل الصدفة وحدها في تنفيذ جانب فقط دون جانبيها الآخرين . ويدعم رأيه أو شكّه ، بأن العملية تمت في وقت كان جيش الكوفة قد بلغ مرحلة من القوة والتنظيم (٣) ، بعد مراجعة نوعية وكمية لعناصره المقاتلة (٤) .

وهكذا سقطت مصر على يد عمرو بن العاص الذي أصبح والياً عليها ، تنفيذاً لاتفاق أشبه بالمساومة مع معاوية ، قيل انه تمّ عشية الحرب في صفين وإرتمى بالمشاركة فيها (٥) . وكان الحجاز محور المجابهة الثانية والضيقة ، لا لأهميته الجغرافية أو الاقتصادية ، ولكن بما يعكسه الاستيلاء عليه من تأثير معنوي على الصراع السياسي بين الكوفة والشام ، أكثر ما يصيب هذه الأخيرة . فكان تدجين الحجاز وإدراجه في دائرة الولاء الأموي ، من أبرز هموم تلك المرحلة الحاسمة . ولقد قلم معاوية في هذا السبيل بمداهمته بدءاً بمكة التي كانت مهجتها أقل مشقة من (المدينة) ، حيث المحوقف العام لمصلحة علي والسلطة في يد أحد المقرّبين منه (أبوأيوب الأنصاري) (٦) . وثمة رواية عن (أبي مخنف)، تشير الى قيام يزيد بن شجرة للرهباني، الذي وُصف بأنه «من سادات

(1) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 194 .

(2) الأمامة والسياسة ج 1 ص 147 . ابن طيات ، الفخرى ص 101

(3) أحمد عباس صالح ، ايمان واليسل في الاسلام ص 130 - 131 .

(4) الأمامة والسياسة ج 1 ص 134 .

(5) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 193 .

(6) الطبري ج 6 ص 80 .

أهل الشام « ٣٠ » ، بحملة الى مكة (39 هـ) لا تختلف في تكوينها ومهمتها عما أشرنا اليه . ذلك أن معاوية تفادى ، حسب الرواية ، استخدام العنف في الاستيلاء على مدينته الاثيرة « لست أوجهك للحرب انما أوجهك لتقيم للناس الحج وأهل مكة قومي وعشيرتي الخ . . . » ٣١ . ويبدو أن هذه العملية قد جاءت في أعقاب محاولة لم يكتب لها النجاح ، قام بها رجل من (فزارة) - عبد الله بن مسعدة - كان معاوية قد أمره بالتوجه الى الحجاز عبر تباه ، على « ان يقتل من امتنع عن عطائه » ٣٢ . الا ان المسيب بن نجبة وهو من (فزارة) أيضاً ، تصدى له وحال دون وصوله الى الحجاز ٣٣ .

وعلى الرغم من أن القائد الشامي لم يحقق هدف معاوية في الاستيلاء « الصلحي » على مكة ، فانه أثار جدلاً وانقساماً في المدينة ، هباً له قضاء الحج تحت شعار توحيد الكلمة الذي لقي تعاطف عدد كبير من المكيين « انما وُجهت اليكم لاجمع ولا أفرق » ٣٤ . ولم يستطع واليها (قثم بن العباس) ، الذي كان في غاية الحرج أن يفعل شيئاً ازاء هذه المداهمة ، في وقت لم يكن لديه على الأرجح من القوة الدفاعية لمنع هذه العملية المقنعة . فهو يرد على شيبة بن عثمان (من بني عبد الدار) ٣٥ ، مشيراً الى المأزق الذي أحدثه دخول القائد الشامي « أن الجنود لا تهزم بالوعد ، ولست أرى معك أحداً يدفع ولا يمنع . . . فان جاءني المدد ما أقوى به عليهم ، ناهضتهم وأن تكن الاخرى لم أقاتل » ٣٦ وكان أول تراجع يدفع اليه والي مكة هو التنازل عن حقه في صلاة الحج لقرشي معتدل ، اتفق عليه مع أهل مكة وهو شيبة بن عثمان الذي مر ذكره . وقد جاء ذلك على ما يبدو ثمتاً لانسحاب الشاميين من مكة . على ان الفرقة التي جاءت من العراق استجابة لطلب ابن عباس ، تعقبهم الى (وادي القرى) وأمرت عشرة منهم لم يتبع لهم الالتحاق بقائمتهم بالشام ٣٧ .

بيد أن المجابهة الفعلية في الحجاز تبلورت في أواخر خلافة علي (40 هـ) ٣٨ ، متعثلة في حملة بسر بن أبي أرطاة ٣٩ (من بني عامر بن لؤي) ، الذي عهدت اليه مهمة

(1) ابن الاثم ، كتاب الفتح ج ٤ ص 38 .

(2) الطبري ، ج 6 ص 78 .

(3) ابن الاثم ، كتاب الفتح ج ٤ ص 39 .

(4) الطبري ، ج 6 ص 78 .

(5) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 196-197 . الطبري ، ج 6 ص 78 . اليعقوبي ، الاعلام ورواة 16 .

(6) ابن الاثم ، كتاب الفتح ج ٤ ص 42 .

(7) الطبري ، ج 6 ص 79 .

(8) ابن الاثم ، كتاب الفتح ج ٤ ص 40-41 .

(9) الطبري ، ج 6 ص 79 ، ابن الاثم ، الفتح ج ٤ ص 43-44 .

(10) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 199 .

(11) اليعقوبي ، تاريخ ج 4 ص 197 . الطبري ج 6 ص 80 . وردت في الفتح لابن الاثم : بسر بن أرطاة الفهري ج 4 ص 56 . وفي الانساب للبلاذري بسر بن أبي أرطاة القرشي ص 433 (ت المحمدي) .

السيطرة الاموية على شبه الجزيرة. وكانت اولى مراحلها في (المدينة) حاملةً اليها حقد بني امية والشاميين ، وذلك لموقفها المتعاطف مع علي . وقد اورد (اليقوي) في تاريخه قول معاوية لقائده عتبة خروجه الى الحجاز « سر حتى تمر بالمدينة » ، فخرج اهلها وأخف من مررت به وانهب مال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن قد دخل في طاعتنا » (١) . ثم يضيف بالنسبة لمكة بلهجة غير معادية « وسر حتى تدخل مكة ولا تعرض فيها لاحد » (٢) . ومارواه (اليقوي) يكاد يتفق مع الرواية التي ذكرها (البلاذري) « فمر بالمدينة فأخاف أهلها واذعرهم وهول عليهم . . . ثم كف عنهم وسر الى مكة فلا تعرض فيها لاحد » (٣) . ولكن ما جاء في تاريخ الطبري « رواية البكائي » وفي « فتوح » ابن الأعمش ، لا يرقى الى مستوى هذه التبعة ضد (المدينة) . فقد أشار كلاهما الى خروج بسر بن أبي ارطاة على رأس أربعة آلاف الى هذه الاخيرة ، والى حرب واليها أبي أيوب الأنصاري الى الكوفة بعد أن أصبحوا على مقربة منها (٤) . ويبدو أن قوة الجند الاساسية كان يستأثر بها العراق حتى ذلك الحين ، لرد هجمات الشاميين عليه ، بحيث كان من الصعوبة التفریط بجزء منهم لحماية الحجاز ، الذي احتل دوراً ثانوياً من الاهتمام . وقد لاحظنا هذه الثغرة في المحاولة التي استهدفت مكة قبل ذلك ، حيث لم نجد فيها من الجند ما يكفي لصّد خطر الشاميين عنها على الرغم من ضلّالة عددهم .

ان حملة بسر بن أبي ارطاة الى الحجاز ، كشفت الى حد ما بعد السياسة الاموية المستقبلية ازاء هذا الاقليم . فلم تكن مجرد مصادفة فقط أن يلجأ معاوية الى انتداب قائد مكّي (من قريش الظواهر) لهذه المهمة ، ولم تكن مصادفة كذلك أن تكون (المدينة) اول محطة في خطة القائد الاموي ، الرامية الى تدجين الحجاز وترويض قياداته السياسية وفي طليعتهم (الانصار) . فكان على عاصمة الراشدين الاولى أن تدفع ثمن موافقها السابقة ، بدءاً بالتحويل الى دار للهجرة واختطافها دور مكة الساطع في الحجاز ، وانتهاء بالموالاة لعلّي التي حملت استمرارية الانعطاف التاريخي الكبير . لقد كان الافتراق واضحاً بين مصالح المدينتين المتنافستين ، ولا يزال يستمد حذقه من الحساسية المفرطة بين (الانصار) و (المهاجرين) أولاً ، ثم بين الانصار وقريش ثانياً ، بعد أن خبا ظل الجناح « المهاجر » من قريش وانطوت صفحة نفوذه في حرب الجمل .

وفي ضوء هذا الواقع للعلاقة المشتعبة بين مكة و (المدينة) ، فان اختيار بسر بن أبي

(١) اليقوي ج ٢ ص ١٩٧ ، الياسي ، الاعلام ، مخطوط دار الكتب المصرية ورقة ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣) انساب الاشراف ص ٤٥٣ - ٤٥٤ (ت الحموي) .

(٤) الطبري ، ج ٦ ص ٨٠ . ابن الأعمش ، الفتوح ج ٤ ص ٥٦ .

أرطاة القرشي جاء وفقاً لقرار وتصميم سابقين . وهو يعبر عن السياسة المرحلية للحكم الأموي في الحجاز، لا سيما الفترة السفائية منه. وكان الطرح «المسوغ» الذي انطلق منه معاوية للمطالبة بحق الخلافة الشرعي في الأسرة الأموية الذي «انتشك» بمقتل عثمان، لا يزال يجر ذبولا في (المدينة) التي جرت على أرضها تلك الحادثة . فكان لا بد أن تحمل من وزرها الكثير ، لأن السكوت له فعل التأمير والضلوع في قتل الخليفة ، حيث وقفوا منه « بين قاتل وخاذل وشاتم وعتربص » (١) حسب قوله .

ولا يوجد لدينا رواية ما تحمل أي موقف سلبي للمدينة في غمرة هذه التطورات غير المفاجئة ، حيث سارعت الى الاستسلام بعد اعتراف واليها بعث المقاومة وارتحاله الى الكوفة . فقد أشار (الطبري) الى دخول (بسر) اليها وصعوده منبرها دون « أن يقاتله بها أحد » (٢) . وثمة رواية أخرى تلمح الى موقف أشد ليونة من القائد الأموي ، وهو الخيار المفترض في ذلك الوقت بعد افتقاد مقومات الصمود « وخرج أهل المدينة الى بسر يستقبلونه خوفاً منه على أنفسهم ، فلما نظر اليهم صاح وانتهرهم » (٣) . ولكن شروطاً لدى (بسر) كانت مرهونة بالمعفو عن المدينة ، وفي طليعتها تسليم المظلومين من (الانصار) « ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبد الله » (٤) . ولعل التهمة الموجهة لهذا الأخير كانت جزءاً من الحملة التي استهدفت « فتح ملف » عثمان ، اذا جاز التعبير ، لأن اسم « الانصاري » المطلوب لم يرد بين قيادات (المدينة) التي حاربت الى جانب علي في (صفين) . ومن البديهي أن الموقف الأموي كان بحاجة الى مسوغات في الحجاز ، لم تكن مطروحة في الشام ، وبالتالي فإن التشديد في هذه المسألة ، كان ينم عن الأهمية من آثارها في تلك الظروف ، لوضع (المدينة) في موقف الاتهام امام « الشرعية الأموية » التي انتهكها (الانصار) . وبمعنى آخر فإن بسر بن أبي أرطاة مجاول هنا « محاكمة » أهل المدينة ، بتحميلهم دم الخليفة السابق « لولا ما عهد أبي معاوية ، ما تركت محتلها الا قتلته » (٥) .

واذا كانت حملة (بسر) لم تحمل من الاوامر ما يتوافق ورغبات قائدها القرشي ، استناداً الى القول السالف المنسوب لهذا الأخير ، فإن الذي يبدو جلياً أن الموقف الأموي آنذاك من (المدينة) لم يكن خالياً من الحقد في السعي لتحجيمها وربما اذلالها . ولعل

(١) ابن الأعمش ، الفتح ج ١ ص 57 . البلاذري ، انساب ص 454 (ت الحمودي) .

(٢) الطبري ج ٦ ص 80 ، البليسي ، الاعلام خطوط ورقة 20 .

(٣) ابن الأعمش ، الفتح ج ١ ص 56 .

(٤) البقوي ، تاريخ ج 2 ص 197 - 198 . الطبري ج 6 ص 80 .

(٥) تاريخ الطبري ج 6 ص 80 .

الطريقة التي نمت بها البيعة كانت خبير معبر عن هذا الموقف ، حيث سبقتها محاولة لم تكن مجردة من الذكاء ، وهي استدراج (الانصار) الى موقع الاتهام ، الذين بذلوا جهداً في دفعه ، قبل ان يعفو القائد الاموي عنهم . وقد أدى ذلك الى انقسامهم بين فئة لوحقت ودمرت منازلها (١) ، واخرى لعلها الاكثرية ، التمسعت عفو القائد الاموي الذي لمحقق بعد لأي « يا أهل (المدينة) اني قد صفحت عنكم ما انتم لذلك أهل . » (٢) . عل أن هذا العفو كان مشروطاً بالتهديد ، ذلك الذي توجه به بسر الى الانصار « لئن عدتم لمعصية لاعودن عليكم بالهلاك وقطع النسل » (٣) . وهذا يأتي بمثابة تكريس للدور أقل أهمية ، سيارسه (المدينة) في الحياة السياسية في ذلك الوقت . فبعد التراجع الذي فرض عليها بانتقال العاصمة الى الكوفة ، وجدت نفسها أمام تراجع أكثر ابتعاداً في اعقاب هذه التطورات وتحول العاصمة المركزية الى دمشق . وفي غمرة هذه الاحداث ، تكاد نلصق صورة قائمة للمدينة « الاموية » ، لا تحمل شيئاً من تألقها « الراشدي » السابق . فقد كان انفرادها بتسديد الثمن للحكم الجديد في الحجاز ، مقدمة ربما لثمن باهظ جداً تفرّدت به أيضاً في (الحرّة) . وانطلاقاً من هذا الموقف ، فان صلة ما بين حملة بسر بن أبي ارقطاة القرشي (في عهد معاوية) وبين حملة مسلم بن عقبة المري (في عهد يزيد) ، يكمن فيها مفتاح العلاقة بين (المدينة) خاصة وبين بني أمية لا سيما السفينيين منهم .

وفي مكة ، محطة (بسر) الثانية في الحجاز ، كان الوضع مختلفاً الى حد كبير واقتصر الامر على ملاحقة واليها (قثم بن العباس) ، الذي توارى عنها شأن (الانصاري) والي (المدينة) . فدخلها القائد الاموي دون أن « يهيج » أهلها أو « يعرض لهم » حسب قول البلاذري (٤) . وكان من الذين طاهم العفو أبو موسى الاشعري ، حيث التجأ الى مكة بعد انتهاء دوره في « التحكيم » كما سبق أن أشرنا (٥) . وقبل انتقاله الى الطائف عهد (بسر) بإدارة مكة الى شيبة بن عثمان (العبلري) ، الذي سبق له أن تولى امامة الصلاة في الحج ابان الحملة السابقة (٦) . فكان آخر من قام بهذه المهمة في مكة من غير الامويين ، الذي حرصوا على أن تكون السلطة في الحجاز خاضعة لهم بصورة مباشرة . أما الطائف فقد التزمت بموقف المغيرة بن شعبه ، الذي خرج من عزله بعد وضوح النتائج لمصلحة معاوية ،

(1) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 198 ، الطبري ج 6 ص 80 . البلاذري انساب ص 454 (ت الحموي) .

(2) ابن الاثم ، الفروج ج 4 ص 58 .

(3) امكن نفسه .

(4) انساب الاشراف ص 455 (ت الحموي) .

(5) الطبري ج 6 ص 80 .

(6) ابن الاثم ، الفروج ج 4 ص 61 .

مرحباً بقائده (بسر) دون أن ينال جماعته الثقفين شيئاً من سلبات الحرب الاهلية . فالسياسة التي انتهجها المغيرة كانت على جانب كبير من الذكاء حيث دأب عليها منذ بدايات العهد الراشدي ، وجعلته مقرباً من أركانه بمن فيهم علي . . حتى اذا احتدم الصراع السياسي وانفجرت الحرب ، توارى عنها واعتكف في مدينته بانتظار وضوح المعطيات المستجدة . فالمغيرة في طبيعة تكوينه سياسي محترف وليس قائداً عسكرياً ، لذلك أثر الحوار على السيف ، مما تميل في انتهازه دعوة « التحكيم » ليكون أحد شهوده ، حتى اذا فشلت المفاوضات عاد الى عزلته في الطائف (١) . على أن (ثقيف) التي جتبها المغيرة عثرات الصراع العراقي - الشامي في (صفين) ، لم تكن في المضمون بعيدة عنه أو مجردة من الموقف السياسي الذي كان يميل نحو الشام، كنتيجة للعلاقة التاريخية بين مصالح الطرفين ، وهذا ما سنحاول الاطاحة به بصورة أكثر تفصيلاً فيما بعد .

ولكن صراع النفوذ على الحجاز ، لم تكتمل فصله الاخيرة بحملة (بسر) ذات الطابع الانتقامي (تهديد الانصار وتدمير بعض منازلهم - قتل طفلي عبيد الله بن عباس مع الرجل الكناني الذي أودعا عنده في بادية الحجاز) (٢) . فقد بادر علي في أواخر أيامه برسالة اثنين من قوائمه (جارية بن قدامة السعلي ، ووهب بن مسعود الخثعمي) لاستعادة الحجاز الذي شهد آنذاك مع أطراف أخرى من شبه الجزيرة عمليات انتقامية متبادلة (٣) . على أن القائد الثاني (الخثعمي) لم يكمل مهمته على الأرجح ، حيث استدعاه علي ربما لندهور الوضع العسكري في العراق (٤) . أما (جارية) ، فقد تعقب القائد الأموي (بسر) الى نجران ومن ثم الى مكة ، في وقت يبدو أنه صادف مع اغتيال علي ، مما جعل استعادة البيعة فيها على جانب من المشقة (٥) . وخلافاً لكه ، فإن (المدينة) التي توارى عنها واليها « المؤقت » أبو هريرة ، رحبت به وبايعت للحسن بن علي (٦) ، الا أن ذلك كان مرهوناً بعودة هذا القائد الى الكوفة ، لأن الموقف في الحجاز تحول لمصلحة الأمويين بصورة شبه محسومة ، خاصة بعد مقتل علي الذي كان بالنسبة لكثير من الحجازيين وفي طليعتهم (الانصار) ، آخر الرموز الاسلامية المرتبطة بالنبي . ولذلك فإن اغتياله أسقط الحرج عن المترددين في الاختيار بين الطرفين ، حيث طغى الجانب السياسي في هذا الصراع على ما

(1) البلاذري ، انساب ص 455 (تاليف الحموي) .

(2) الطبري ج 6 ص 80-81 . البلاذري ، انساب ص 456 (تاليف الحموي) .

(3) المصدر نفسه ج 6 ص 81 .

(4) البلاذري ، انساب ص 458 .

(5) الطبري ، تاريخ ج 2 ص 199 . الطبري ج 6 ص 81 .

(6) الطبري ج 6 ص 81 .

عداه من الجوانب الأخرى ، وانكفا التيار الاصلاحى الذى تبلور فى أواخر خلافة عثمان .

ومن البديهي أن تنعكس نتائج الحرب المسلحة على أطراف الصراع ، وأن تصبح القوة مصدر القرار السياسى . ولعل ما حدث فى (المدينة) التى اثبتت أنها قاعدة الموالاة الأولى لعلى فى الحجاز ، يعبر بكثير من الدقة عن هذه التطورات التى ربطت السلطة فى الاسلام بمنطق القوة وقرنت البيعة بالسيف ، دون أن يكون لما يسمى بـ « جمهور المسلمين » الا دور الرضوخ والاستسلام للأمر الواقع » . فما لبثت (المدينة) أن استعادت (أبا هريرة) وألياً عليها » ، كبادرة ودية ازاء الفريق الذى أصبحت فى يده السلطة .

وبعد اغتيال علي كانت الخلافة الراشدية قد انكفأت فى العراق بعد سقوط الحجاز ، واختلت تقترب من نهايتها المحتمة بعد أن مهد لها انسحاب عدد غير قليل من القيادات القبلية إلى الشام » . ولم تكن خلافة الحسن التى جاءت بتأثير من الاتجاه المتحمس للحرب - بقيادة الزعيم الانتصارى قيس بن سعد والزعيم الخزاعى سليمان بن صرد » - الا آخر سهم فى جعبة الذين وصلوا فى معاداتهم للامويين إلى نقطة اللاعودة . ولكن الحسن رغم أن بيعته كانت على الحرب و « قتال المحلين » » ، لم يحقق الأمل المعقودة عليه فى هذا السبيل ، حيث وجد أصحابه فيه عزوفاً عنها وميلاً ظاهراً إلى المهادنة » . وقد لا نستطيع كشف ابعاد الموقف الذى اتخذته الحسن ومسوغاته فى ذلك الحين ، الا أنه كان متهيأ بدون شك جسامه الخطورة المترتبة على استئناف الصراع المسلح ، فى وقت لم يطرا فيه تعديل اساسى على وضع الجبهة العسكرية . وإذا كان الرقم الذى حملته رواية (الزهرى) ، عن اربعين ألفاً كانوا إلى جانبهم » غير مبالغ فيه ، فإن ذلك لا يعنى أنهم ملتزمون بقرار الحرب الصادر عن الحسن ، التزامهم بما كان يصدر عن علي ، الذى بايعوه حتى الموت حسب الرواية نفسها » . ولعل هذا يوصلنا إلى ملاحظة الفراغ الذى أحدثه

(1) راجع قول معاوية بعد خلافته : « أن الناس اعطونا سلطاناً فإظهرنا لهم حلياً تحت غضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد » . ابن عساکر ورقة 362 .

(2) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 200 . الطبرى ج 6 ص 82 .

(3) ابن الأثير ، الفتح ج 1 ص 75 وما بعدها .

(4) الطبرى ج 6 ص 91 . الأمله والسياسة ج 1 ص 151 .

(5) الطبرى ج 6 ص 91 .

(6) المكان نفسه .

(7) المكان نفسه .

(8) المكان نفسه .

غياب علي في العراق وما أسفر عنه من انهيار للجهة السياسية فضلاً عن العسكرية . فقد استطاع الأخير رغم كل التحديات ان يحافظ على توازن هذه الجهة ويحول دون تمزقها ، على النحو الذي وصلت اليه بتلك السرعة في ايام الحسن .

وكان الحسن ، انطلاقاً من هذه الاعتبارات يؤثر تفادي الحرب التي سارع معاوية الى اعلانها ، بخروجه مع عدد كبير من الجند⁽¹⁾ . فكان ذلك مؤشراً لظهور اتجاهه معارض ربما لقي تعاطفاً من الحسين بن عليّ الذي قيل انه عبر عن مسخه في وقت لاحق على الموقف الذي اتخذته اخوه من معاوية⁽²⁾ . وهكذا بلغ الاضطراب حداً اقترب من التناقض على جبهة العراق ، بين اتجاه حل الحسن ومعه عدد من رؤساء القبائل الكبيرة الى المدائن ، وآخر يفضي الى الحرب ، حمل قيس بن سعد والمتشددين معه الى طريق الشام عبر الفرات⁽³⁾ . ولكن معاوية الذي اصبح زمام الموقف في يده بصورة شبه نهائية ، كان قادراً على تذليل العقبة الأخيرة التي تعترضه في العراق . فكانت الحملة النفسية المتصاعدة التي استهدفت الاتجاه المتصلب وكذلك التشكيك الذي راج حول موقف قيس بن سعد رأس هذا الاتجاه⁽⁴⁾ ، قد اسهم الى حد كبير في القضاء على البقية الباقية من الصمود وفي فتح الابواب امام مفاوضات الصلح المرتقبة .

(1) ابن الأثير ، الفتح ج 4 ص 153 .

(2) الطبري ج 6 ص 92 ، الامامة والسياسة ج 1 ص 152 . ابن الأثير ، الفتح ج 4 ص 157 .

(3) الذهبي ، أخبار الطوال ص 217 ، ابن الأثير ، الفتح ج 4 ص 154 .

(4) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 214 .

البَابُ الثَّالِثُ

الحجاز السفيني

المواجهة والتحدّي

الحجاز ومعاوية

« فكان هبوب الرياح سبباً من الحجاز ، حيث فجّر قضية مطوية ولزّمة راكدة ، ومن ثم طرح علاقة غير متوازنة بين قريش « العصبية » من جهة وبين قريش « المهاجرين » فضلاً عن « الأنصار » من جهة ثانية » .

تبدّلت معطيات كثيرة مع تنازل الحسن لمعاوية (41 هـ / 661 م) ، الذي انعطف بالخلافة الى مرحلة جديدة ومتميزة من التاريخ العربي الاسلامي . فالكوفة التي عايشت احتضار الخلافة الراشدة ومقوتها ، لم تفقد دورها الاستقطابي ، حيث تمحورت فيها المعارضة السياسية ، متزامنة مع دولة الامويين بمراحلها المختلفة . أما العاصمة الاولى (المدينة) فقد تراجعت ومعها الحجاز الى الهامش من المحاور الرئيسية التي زحفت الى (الانصار) ، لا سيما العاصمة المستجدة (دمشق) . على أن المؤثر المهم في السياسة الاموية ، هو تحوّل الجيش الى أداة أمنية أكثر منها جهادية ، متعدياً الدور الذي شغله في عمليات الفتوح الى مهمات أخرى افرزتها الحرب الاهلية . وكان ذلك أمراً طبيعياً لنظام قامت السلطة فيه على القوة - دون ثمة مظهر « استشاري » مهما كان واهياً - أن يتوسل الدفاع عن وجوده بالسلاح نفسه ، وبالتالي فإن استمراره يظلّ مرتباً لقوة هذا الجيش أو ضعفه . ولدينا أمثلة عديدة تجسّد هذه الحقيقة ، التي كانت أبرز نقاط الخلل في الدولة الاموية (تندخل الفرق الشامية بقيادة سفيان بن الابرد الكلبي ضد ثورة الخوارج الصفرية وضد ثورة ابن الاشعث في العراق ⁽¹⁾ ، وتندخل الفرق نفسها بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ضد ثورة البربر في المغرب ⁽²⁾) .

ولكن هذا الجيش الذي نشأ في مناخات الحرب الاهلية ، لم يكن أكثر من تجمع للقبائل تتحكم فيه عصبيتها وتسوقه مصالحها المشتركة حيناً والمتنافرة حيناً آخر . وكانت قبيلتنا (كلب) اليمنية و (فهر) الحجازية ⁽³⁾ ، من أبرز التشكيلات القبلية فيه ، حيث

(1) المسعودي ، مروج ج 3 ص 39 .

(2) تاريخ الطبري ج 4 ص 279 .

(3) الفلقشندي ، نهاية الاب ص 360 .

قاتلت كلتاها كوحدة غير مجزوءة ، لا سيما في العصر المبكر من دولة الامويين . ولذلك فان هذا الجيش القبلي الذي ارتبط باسم معاوية خاصة ، غلب عليه الطابع العسكري ، من التأسيس الذي تم بالقوة . . . الى السلوك القمعي ازاء حركات المعارضة المختلفة . . الى السقوط الذي رافقته القوة أيضاً ، ولكن بصورة أكثر تطرفاً من الاسلوب الاموي^{١٥٠} . ولم يكن الجيش الذي أصبح لixin محور الحياة السياسية ، المتغير الوحيد في هذه الدولة ، حيث ارتبط بتحاولات أساسية في نظام الحكم الذي نزع الى الملكية الفردية ، بشئ مظهره الدنيوية التي أدت بدورها الى تطور اجتماعي أكثر تأثيراً بحضارة المدن (دمشق) ، وذلك خلافاً للنمط الراشدي الذي حل شيئاً من ملامح البادية ، التي لم تغب مؤثراتها عن حواضر الحجاز حتى في عهد الانفتاح الاوسع الذي شهدته في خلافة عثمان .

وكان تحول السلطة المركزية الى الشام ، من حتميات المرحلة المتمخضة عن حركة الفتوح وامتداد النفوذ العربي الاسلامي ، من برقة غرباً الى ما وراء خراسان في الشرق . ولعل الشام من خلال موقعها المتوسطي اثبتت أنها أكثر كفاءة لحكم هذه الدولة الواسعة ، في وقت كان التحدي الرئيسي لها يكمن على جبهتي الشمال والغرب المتاخمتين للشام . ولذلك فان اخفاق (المدينة) في المحافظة على شخصيتها المركزية ، بعد أول تحد لها خارج نطاق الحجاز ، ومن ثم انهيار الكوفة كبديل لها في العراق ، من ثوابت التغيير الذي فرض نفسه مع هذه المعطيات ، وجعل من الشام المحور الاستقطابي المناسب ، المرتبط بظروف المرحلة السياسية والعسكرية والاقتصادية .

ومن الواضح أن معاوية لم تكن له هواجسه الحجازية المقلقة ، بالمقارنة مع العراق الذي أحاطه باهتمام خاص ، انطلاقاً من العلاقة التنافسية بينه وبين الشام ، حيث انتقل الثقل البشري والاقتصادي الى هذين الاقليمين ، وذلك على حساب الحجاز المفرغ من هذه الشروط الى حد كبير ، وبالتالي فان أي تحرك مضاد سيكون ثانوياً في هذا الاقليم ، اذا ما قيس بالعراق ، مصدر الخطر الحقيقي المتربص بدولته . على أن ذلك لا يعني أن الامويين لم تكن لهم سياسة معينة في الحجاز ، الذي احتفظ على الأقل برصيد معنوي لم يعد تأثيراً ما على الوضع العام في الدولة . فقد المجه معاوية منذ البدء الى تحديد سياسته الحجازية ، بوضع هذا الاقليم تحت الحكم المباشر لدمشق ، على نحو قد لا يتلاءم ونماذج الاقاليم الاخرى ، حيث كانت للوالي سلطة واسعة غير مقيدة في الغالب بقرارات العزل والتغيير (زياد بن ابية الذي بقي حتى موته في العراق وكذلك المغيرة بن شعبه في الكوفة وعمر بن العاص في مصر) . أما في الحجاز ، فقد كان الامر متروكاً بالاسرة الاموية ،

(1) ابراهيم بيضون ، ملامح التيارات السياسية من 150 .

التي كان لمعاوية القرار الاول فيها ، ومن ثم فان سيف العزل كان مسلطاً فوق رقاب ولاته ، الذين عاشوا في ظل الخليفة وليس العكس على نحو ما جرى في العراق ، ابان المرحلة التأسيسية بوجه خاص ، حيث طفت أخبار ولاته على تلك التي تحدثت عن معاوية نفسه كما يشير (فلهوزن) (١) .

وفي سياق التعرض للسياسة الاموية في الحجاز ، لا بد لنا من التوقف عند ثلاث نقاط ، تنعكس عليها بصورة مباشرة ، وهي :

الاولى قريش و(الانصار) ، أو العلاقة بين السلطين المركزية والمحلية من جهة ، وبين الفئات المهزومة من جهة أخرى .

الثانية أبناء الصحابة ، أو القيادات السياسية التي كان لها تأثير خاص على الرأي العام الحجازي ، وهو الجانب الذي عني به معاوية ودفعه الى وضع هذا الاقليم تحت النفوذ الاموي المباشر ، لمراقبة نشاط هؤلاء وتحركاتهم .

الثالثة الثقفيون ودور الشريك في الحكم الذي كان أحد أكثر المعدلات استمرارية في دولة الامويين ، منذ قيامها حتى سقوطها .

والواقع ان علياً بعد « التحكيم » والعودة الى الكوفة ، كان منطوباً على خيبة أمل ظاهرة من قريش التي وقفت ضده بصورة عامة ، معبراً عن ذلك في أكثر من موقف تتجسد فيه المرارة « اللهم اني استعيتك (استعديك) على قريش . . فانهم اجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري » (٢) ، أو « فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق وجاحهم في التيه ، فانهم قد اجمعوا على حربي كاجماعهم على حرب رسول الله ، فجزت قريشاً عني الجوازي » (٣) . وخلافاً لقريش التي مالت بجناحها غير « المهاجر » الى جانب معاوية ، بينما اعتزل (المهاجرون) منها في الحجاز ، فان (الانصار) كانوا القوة الحقيقية التي تحالفت مع علي في هذا الاقليم وريطت مصيرها بقضيته . فقد مثلوا منذ البدء الاتهام المطرف وغير المساوم في (صفين) ، مقترناً ذلك بغياهم عن مفاوضات « التحكيم » وتحذيمهم لمشاريع الصلح حتى بعد انقلاب الموازين لمصلحة بني امية (موقف قيس بن سعد ، أحد أبرز زعماء (الانصار) من الحسن عندما طلب منه « الدخول في طاعة معاوية ») (٤) .

(١) تاريخ الدولة العربية ص ١٠٦ .

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ١٠٣ ، ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) من قول له الى ابنه هفيل . نهج البلاغة ج ٣ ص ٦٨ .

(٤) راجع ما ذكره (الطبري) حل لسان قيس : « ايها الناس اختاروا الدخول في طاعة امام خلافة أو انقتال مع غير امام »

ص ٩٢ .

وانطلاقاً من حتمية النتائج التي تفرزها عادة الحرب وتؤدي الى فريق منتصر وآخر مهزوم ، فان الصراع الطويل بين دمشق والكوفة أسفر عن انتصار التيار الأكثر بعداً عن الاسلام ومعاناته في قریش ، وهزيمة التيار الاقرب اليه ، فكراً ونضالاً وممارسة . وإذا كان (المهاجرون) من زعمائه ، قد تقاضوا بعض ثمن الهزيمة ، فان وقعها على حلفائه (الانصار) كان شديداً ، حيث فرضت عليهم مواجهة مرحلة صعبة من تاريخهم ، تعرضوا فيها للافانة والتضييق والحرمان (١) . ففي الوقت الذي دأب فيه معاوية على أرضاء بني هاشم ، كونهم الطرف المنافس ومصدر الخطر الحقيقي على دولته ، فان (الانصار) كانوا الطرف الاضعف في المعادلة الجديدة التي رافقت قيامها ، وبالتالي فان دورهم « الاموي » - ككتلة ميساسية وليس كافراد - كان هامشياً ، بالمقارنة مع « الدور الراشدي » الذي اتيج لهم ، خاصة في السنوات الاخيرة منه .

وكان (الانصار) ، قد بدأوا منذ اغتيال عليّ رحلة العودة الى (المدينة) ، التي استُكملت بعد تنازل الحسن وانسحاب قيس بن سعد الاكرابي من المعركة . وفي العاصمة القديمة التي فقدت أهميتها السياسية ، انطوى (الانصار) ومعهم كبار ابناء الصحابة من قریش على العزلة ، بحيث أدى ذلك الى خلق نوع من الوحدة الاجتماعية ضد الامويين فيها . أما مكة ، فقد ظلّ الموقف منها غير عدائي بصورة عامة ، تسوّغه اعتبارات عديدة ، وفي طليعتها العلاقة العضوية بين قریش التي انتقلت معها السلطة الى الشام ، وبين جذورها القديمة في مكة . ولذلك فان سقوطها لم ترافقه تلك المجاهدة المثيرة في (المدينة) ، التي مثّلت بالمنظور الاموي ، قاعدة المعارضة الاولى في الحجاز ضد الخلافة القرشية . وهكذا فان بدايات النتائج التي ظهرت في هذا الاقليم ، كانت على شيء من التساوت بين مكة التي لم تفقد الخيوط مع الانحلال القرشي الحاكم ، الذي سبق أن تزعمها قبيل الاسلام ، وبين الطوائف التي سارت في ركابها ، مستعيدة صيغة التحالف التقليدي بين المدينتين ، ومن ناحية أخرى بين (المدينة) التي توحدت فيها مشاعر المتضررين من الحكم الجديد ، سواء كانوا من (الانصار) أم من أبناء الصحابة الكبار (قریش) ، كما سبق أن أشرنا . وانطلاقاً من دورها المركزي السابق ، فقد ظلّت (المدينة) أكثر استقطاباً ومن ثم أكثر انفتاحاً من مكة ، التي كان احتفاظها بالصيغة القرشية ، أحد أسباب عزلتها وانكفائها وراء (المدينة) ، بطابعها التعايشي المكتسبة ملاحمة منذ الهجرة .

وإذا كان تحوّل السلطة الى الامويين قد عكس تأثيره المباشر على أوضاع الحجاز ، حيث أوجد تمايزاً نسبياً بين مدنه الثلاث وأدى الى ظهور جبهتين : احدهما معادية في (المدينة) والثانية مؤيدة بصورة عامة في مكة والطائف ، فان البدو الحجازيين - أي

(١) البلاغري ، انساب ص 57 ، 116 (ت للحمودي) .

القبائل التي لم تنتقل الى الامصار - كان لهم نصيبهم من هذه التطورات التي عادت عليهم بالضرر . فقد تأثرت أوضاعهم الى حد كبير خلال الحرب الاهلية ، وما رافقها من جهود حركة الفتوح وانحسار عائداتها المالية التي كانت أهم موارد الحجاز ، فضلاً عن تدمير هؤلاء من الزكاة التي اسهمت في تدهور أوضاعهم المعيشية . ومن ناحية أخرى فإن التجاهل الاموي للقبائل الحجازية ، بالمقارنة مع التودد للقبائل الاخرى الخليفة ، قد جعل الاولى أقرب الى جبهة (المدينة) منها الى جبهة مكة - الطائف (١) .

أ - الادارة السيفانية في الحجاز

بعد هذه المقدمة عن الحجاز في مطلع الخلافة الاموية ، نستطيع القول بأن ثمة سياسة عامة تجاه هذا الاقليم ، أخذت تتحدد ملامحها منذ ذلك الوقت ، وهي تنطوي على بعض المؤشرات الرئيسية التالية :

1- ربط الحجاز مباشرة بدمشق عبر ولاية من الاسرة الاموية ، كنتيجة مفترضة لهذه السياسة .

2- استعلاء (المدينة) وحرمان (الانصار) خاصة من المناصب السيامية والادارية ، باستثناء اربعة منهم أشار اليهم معاوية حسب الرواية المذكورة في « انساب » البلاذري : صحابي أربعة من الانصار النعمان بن بشير ، فوليتة حمص ، وطلحة بن عجلان فوليتة مصر وعمرو بن سعيد فوليتة فلسطين وفضالة بن عبيد فوليتة القضاء ، ولوزادوني لزدهم (٢) . ومن الواضح أن الموقف الاموي نحو (الانصار) ، اقتصر على تقريب الذين تحالفوا مع معاوية ، من موقع الاستمرار للعلاقة الودية مع عثمان . فهؤلاء قطعوا ثمرة تأييدهم للامويين ، على خلاف جمهور (الانصار) الذي استحق العقاب ، كما استحق اولئك الثواب حسب الرواية .

3- احياء العلاقة العضوية القديمة بين قريش والطوائف ، التي سيكون لها موقع بارز في السياسة الاموية ، حيث كان نموذجها الاساسي في العراق ، احدى مناطق النفوذ المنوطة بالثقيفين عامة طوال الحكم الاموي .

وكان غياب (الانصار) عن ادارة الحجاز من أوضح معالم هذه السياسة ، التي أودت بنفوذهم الى التقلص وبدورهم الى التراجع . فاذا ما استثنينا مسلمة بن عجلان الذي

(١) راجع موقف القبائل من الصراع بين المدينة والامويين وتحديداً موقف « أشجع » . تاريخ الطبري ج 7 ص 8 .
القفطنتي ، نهاية الارب ص 42 .

(٢) البلاذري ، انساب ص 160 (ت النعمودي) .

تمتّع على الأرجح بكفاءة إدارية جيدة - تجلّت منذ خلافة عمر الذي عينه على صدقات (فزارة) (١) ، ومن ثمّ أحسن معاوية استغلالها بتعيينه والياً على مصر (٢) - فإنّ أحدًا من (الأنصار) لم يتقدّم في عهده إلى الصفوف الأولى في الإدارة الأموية . أما الولاة الذين تعاقبوا على الحجاز منذ انتقاله إلى ذلك خلافة الشام ، فقد كانوا من البيت الأموي ، ولكن في نطاق صلاحيات محدودة لا تقاس بسلطة الثّقفين في العراق . وكان أكثر ما يعيقهم عدم البقاء طويلاً في الحكم ، الذي أصبح تناوباً بين شخصية وأخرى ، مما أسهم في تحقيق مراقبة مباشرة على هذا الأقليم ، كان لها تأثيرها في تحجيم دور القيادات الحجازية من ناحية وفي تطويق عوامل التدمير التي قد يحدثها استغلال هؤلاء الولاة لمناصبهم من ناحية ثانية .

ولا نكاد نجد بين الذين تناقلوا السلطة دورياً في الحجاز ، أي حظ للأنصار في إدارة معاوية ، التي كانت بعناصرها قريبة الشبه من إدارة الخليفة الأسبق عثمان ، ولكن بصورة أكثر تطرفاً في تأكيد طابعها القنوي ، وهو ما لم تصل إليه سابقتها التي انطلقت من دائرة أوسع في إطارها القرشي . ولقد ضمت التشكيلة الأولى من ولاة الحجاز كلّاً من مروان بن الحكم ، سعيد بن العاص ، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان (المدينة) ونخالد بن العاص ابن هشام بن المغيرة المخزومي (وهو من بيت حليف لبني عبد شمس قبل الإسلام) ، عتبة بن أبي سفيان (مكة) . أما الطائف فكانت مرتبطة بإدارة الأخيرة قبل أن تضمهما معاً ولاية واحدة لشق الحجاز ، كان مركزها التقليدي في (المدينة) (٣) . وغالباً ما أسندت هذه الولاية الموسعة إلى كل من مروان وسعيد بن العاص ، وهما من أبرز شخصيات الأمويين في الحجاز . وكان ذلك نوعاً من الترضية على ما يبدو للفرع الرئيسي الآخر (العاص) (٤) في بني عبد شمس ، ومن التوازن مع الفرع الأول (حرب) الذي تولى الخلافة .

وكان يحدث عادة أن يتبادل الاثنان السلطة بأمر من معاوية ، فيحل أحدهما مكان الآخر في ولاية الحجاز، كما حدث في سنة ثمان وأربعين ، عندما استُبدل مروان بسعيد بن العاص (٥) ، الذي شغلها حتى سنة أربع وخمسين ، حيث عُزل وأعيد الأول (٦) ، قبل أن

(١) ابن زنجويه ، الأموال (مخطوط) ورقة 37 .

(٢) ظلّ والياً على مصر حتى وفاة معاوية . البلاذري ، أنساب ص 146 (ت المحمدي) .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 236 البلاذري ، أنساب ص 159 . ابن ظهيرة القرشي ، الجامع اللطيف ص 286 .

(٤) البلاذري ، أنساب ص 159 ، 433 (ت المحمدي) . متوالي بن بول ، طبقات سلاطين الإسلام ص 21 .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 245 . ورمت سنة 49 هـ في تاريخ الطبري ج 6 ص 130 والكامل لابن الأثير ج 3 ص 460 .

(٦) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 265 .

يعزله معاوية مجدداً (57 هـ) ويعهد بهذه المهمة الى ابن اخيه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان⁽¹⁾ ، الذي عاصر جانباً من خلافة يزيد بن معاوية . ويبدو أن الحجاز ظل وحدة ادارية طوال العهد السفياني⁽²⁾ ، منذ أن تولى مروان شؤن (المدينة) للمرة الاولى (44 هـ)⁽³⁾ ، قبل أن تضم اليها مكة التي كان آخر من تولاها منفردة على الأرجح خالد ابن العاص (المخزومي)⁽⁴⁾ . ولم يطرأ تعديل على هذا الوضع في عهد يزيد ، الذي أمر بنقل السلطة من الوليد ، بعد وصفه بالضعف⁽⁵⁾ ، الى عمرو بن سعيد بن العاص (60 هـ)⁽⁶⁾ . ولكن الوليد سرعان ما عاد الى مركزه في (المدينة) في أعقاب ولاية قصيرة خلفه ، فشغلها نحواً من عامين ، لتنتقل بعدها الى عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، الذي كان آخر ولاية الدولة الاموية في عهدها السفياني ، والذي عاصر تطوراتها الحجازية المثيرة ، بدءاً بخروج الحسين الى العراق وثورة (المدينة) ، وانتهاء بحركة عبد الله بن الزبير التي أدت الى انفصال الحجاز بكامله عن خلافة الشام (64 - 73 هـ) .

وهكذا فإن الحجاز عموماً ، فقد أهميته في الادارة الاموية التي اقتصر النفوذ فيها على الاسرة الحاكمة وبعض من يمثل الاتجاه المتطرف في قريش الذي شجعت خلافة الشام . وقد تجلّى ذلك في الادارة المحلية التي غاب عنها (الانصار) ، فضلاً عن بني هاشم وجميع ابناء الصحابة ، باستثناء بعض الخلفاء المقربين ، كخالد بن العاص المخزومي (في الولاية) ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري (في القضاء)⁽⁷⁾ ، وهما السلطان الاكثر أهمية في ادارة الاقاليم . أما في الادارة المركزية فكان دور الحجاز غائباً ، الا من تأثير خاص لغنائم حليفة ومقربة منه - أفراداً أو كتلاً - استطاعت أن تحقق لنفسها شيئاً ما في هذا العهد . فإذا اتخذنا (المدينة) نجدها أقل نصيباً ، بعد أن تجلّى الموقف الاموي منها في حملة بسر بن أبي أرطاة السالفة ، التي وضعت أسس العلاقة بينها وبين دمشق . وثمة نفر قليل فقط من أهلها ، وجد موطىء قدم له في السلطة ، في طلبعتهم مسلمة بن عجلد الانصاري ، الذي أسهم بحكم منصبه كوال على مصر في تقرب بعض أعوانه ، مثل أبي المهاجر دينار (مولى الانصار) ، حيث عينه قائداً للمجبهة الافريقية⁽⁸⁾ ، الواقعة في دائرة نفوذه المباشر .

(1) خليفة بن خياط ج 1 ص 269 .

(2) المصدر نفسه ج 1 ص 278 .

(3) تاريخ الطبري ج 6 ص 121 .

(4) للكان نفسه .

(5) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 283 .

(6) المصدر نفسه ج 1 ص 283 .

(7) المصدر نفسه ج 1 ص 276 .

(8) ابن نقرى برقي ، التاج الزاهر ج 1 ص 134 . حين مؤسس ، فجر الانجليس ص 14

ولعلنا نستطيع من خلال هذه الحادثة ، التماس بعض ملامح الصراع الحجازي الذي انتقل الى مراكز النفوذ الجديدة في الدولة الاموية . ففي مصر على سبيل المثال ، كان أول فصول هذا الصراع ، هو القضاء على محمد بن أبي بكر - واليها في عهد علي - حيث اغتُم بقتله معاوية بن خديج الكندي (١) ، الذي مهد الطريق لعودة عمرو بن العاص اليها . وقد انتقلت السلطة بعد ذلك الى عتبة بن أبي سفيان الذي مرّ ذكره بين ولاية (المدينة) ، ومنه الى عقبة بن عامر الجهني (٢) ، الذي بقي والياً عليها حتى تعيين مسلمة ابن مخلد ، أحد أقرب حلفاء معاوية من (الانصار) . وكان لتعيينه على الأرجح علاقة ما في إبعاد عقبة بن نافع الفهري (من قرش الظواهر وقريب عمرو بن العاص لأمه) (٣) ، والإتيان بأبي المهاجر خلفاً له ، الذي احتفظ بمنصبه حتى خلافة يزيد وعودة عقبة مجدداً الى الجبهة الأفريقية . وكان آخر ولاية السفينيين على مصر سعيد بن يزيد (من أزد فلسطين) (٤) ، قبل انتقالها الى أحد الفهريين (عبد الرحمن بن جحدم) الذي تولاها باسم الزبيريين (٥) .

وخلافاً للمدينة التي كان حضورها محدوداً في إدارة الامويين المحلية منها أم المركزية - مثله فقط عند قليل جداً من قيادات (الانصار) ، يضاف اليه غياب تام لكبار ابناء الصحابة - فان الطائفت كانت في الطرف الآخر ، بعد التودد الذي أظهره معاوية نحو الثقيفين ، مستعيداً بذلك التحالف القديم معهم . وتحولت هذه المدينة بسرعة الى أحد أهم مراكز النفوذ الاموي في الحجاز ، على نحو لم يحدث في مكة نفسها ، حيث أصهم موقعها الديني في تلقي بعض المؤثرات المعادية لخلافة الشام ، فضلاً عن هجرة جماعة « الحزب الاموي » منها شأن معظم الحجاز ، مما نأى بها تدريجياً عن خط الموالات المطلقة .

ولقد اثبتت الاحداث تكامل الفريقين القرشي والثقيفي في الحجاز ، على نحو يصفه لامنس LAMMENS أنه كان « شيئاً نادراً في العلاقات بين أطراف شبه الجزيرة » (٦) . وقد أخذ هذا التكامل ابعاداً اقتصادية واجتماعية مختلفة بين المدينتين « المتجاورتين » . فالطائفت قدمت لقريش الاراضي الزراعية ، التي كان لبعض السلع المنتجة فيها (الزبيب والفواكه على أنواعها) (٧) أهمية في الاقتصاد المكي ، أي أن دور هذه المدينة لم يقتصر على

(١) ابن عساري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ١٨

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٤ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) القفطندي ، نهاية الأرب ص ٣٦١ ، ابن عساري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٧ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٥ .

(٦) LAMMENS, La cité arabe de Th, P. 118

(٧) باقوت ، معجم البلدان ج ٤ ص ٩ . جبير ، مراسم الحجاز ص ٥٣ - ٥٤ .

الانتجاع والراحة بالنسبة لاغنياء قریش ، الذين كانوا عادة يقضون فصل الصيف الحار فيها . ومكة بدورها بادلت ثقیفاً التسهيلات اللازمة ، ففتحت أبوابها للمستغلين بالتجارة وختلف الاعمال المصرفية ، بحيث أن تبادل حدث بين سكان المدينتين بصورة شبه دائمة ، وربما مشاركة كذلك في الحياة السياسية لكل من هذه الفئة أو تلك (١) . ولا شك أن الثقفين الاذكياء تدربوا في المدرسة القرشية ، ذات الباع الطويل في السياسة وفي اكتساب العلاقات مع القبائل . فكلهما خرج مهزوماً في حرب المجاهبة مع دولة الاسلام في المدينة ، ولكن من دون تدمير لقوته التي سرعان ما استردت أنفاسها بعد قليل من الوقت .

ومن ناحية أخرى فإن التحالف الذي كان قوياً قبل الإسلام ، استمر متماسكاً بعده ، توثق عراه العلاقات الاجتماعية ، كنتيجة طبيعية للمصالح المشتركة بين الطرفين . فقد شغل الزواج المتبادل دوراً كبيراً في تدعيم هذه العلاقة ، خاصة بين ثقیف والبيت الاموي أقرب القرشيين اليها . ولدينا العديد من حالات المصاهرة ، التي كانت مؤشراً الى وجود املاك لبني أمية في الطائف وجوارها ، ربما اقتضت اقامتهم شبه الدائمة فيها . وقد وردت في « انساب » البلاذري اشارات في هذا السبيل ، الى زواج (أم الحكم ، بنت أبي سفيان من ثقفي (عبد الله بن عثمان) ، و (أمية) ابنته الاخرى من الثقفي الشهير (المغيرة بن شعبة) (٢) ، وكذلك (ریحانة) بنت أبي العاص بن أمية من (بشر بن عبد بن دهمان) واختها من (الاخنس بن شريق) ، أحد المدافعين بحماسة عن عثمان إبان الحصار (٣) ، فضلاً عن زواج اختين لها ، الاولى (صفية) من غيلان بن سلمة ابن معتب الثقفي والثانية (أم حبيب) من أمية بن الصلت الشاعر المعروف (٤) .

ونكاد نقف على مضمون هذا التحالف العضوي بين ثقیف وأمیه في ابیات لاحد الشعراء (٥) المعاصرين لمعاوية ، حيث يبدو متحاملاً عليها كجبهة واحدة بزعامه هذا الأخير :

الا أبلف معاوية بن حرب فقد ابلفتم الحق الصدورا
ثقبون بنا نفوسكم المنايا حسبت بكم الدوائر أن تدورا
بحرب لا يُسرى القرشي فيها ولا الثقفي الا مستجيرا (٦)

(1) LAMMENS, La. citée, P. 119 .

(2) البلاذري ، انساب ج ١ ص 5 .

(3) تاريخ الطبری ج 6 ص 124 .

(4) البلاذري ، انساب ج ١ ص 479 .

(5) عبد الرحمن بن حسان . المصدر نفسه ج ١ ص 59 .

(6) المکان نفسه .

ولم يكن ما يحول بعد انتصار دولة (المدينة) وسقوط مكة ، دون استمرار هذه الجبهة موحدة رغم الهزيمة ، ودون بقاء الامويين واسطة العقد مع ثقيف التي لم تستسلم الا بعد حرب مسلحة ضد النبي . فكان أول ولاية الطائف في الاسلام عتاب بن أسيد (الاموي) ، بالإضافة الى مكة . وفي مطالع الخلافة الراشدية ، لم يتردد أبو بكر ثم عمر في الافادة مرحلياً من هذه العلاقة ، وذلك بتعيين أموي آخر على هذه المدينة (١) .

وهكذا فان الثقفيين الذي ارتكبوا خطأ سياسياً فادحاً في مقاومة النبي بعد استسلام مكة ، لم يكونوا بحاجة الى تكرار هذا الخطأ في غير موقعه . فعلى الرغم من المراهنة على حلفائهم الامويين بزعامة معاوية ، فإنهم لم يتورطوا في الحرب الاهلية التي دارت في صفين بصورة مباشرة . على أن الطائف لم تكن كتلة منسجمة تماماً في هذا الصراع ، حيث وُجد من خرق وحدة الموقف فيها بالانضمام الى جبهة العراق . ولقد أدى ذلك الى انقسام غير متوازن بين الثقفيين ، حين اختارت أقلية منهم التحالف مع بني هاشم (سعد بن مسعود الثقفي) في العهد الراشدي والمختار الثقفي في العهد الاموي) . أما الأغلبية ، المتفوقة الثراء على الارجح ، فقد تفادت التورط المباشر في القتال رغم تشابك مصالحها مع الجانب الاموي . ولكن بواعث هذا الموقف الاخير ، كانت بالإضافة الى ذلك سياسية بقدر ما هي اقليمية ، حيث لم يشأ المغيرة - رجل ثقيف البارز - أن يجر الطائف الى صراع لم تتحدد معالمه بشكل حاسم في الحجاز ، الذي ظلت السيطرة فيه لعلي وجماعته (الانتصار) حتى وقت متأخر ، كما كانت (المدينة) الموالية له تشكل أكبر تجمع سكاني في هذا الاقليم .

وفي ضوء هذا الموقف فان « اعتزال » الطائف لم يكن مرادفاً للحيداد في مضمونه ، وانما كان مجرد تدبير مرحلي ، خضع لضرورات تلك الفترة الحرجة . وفي ظل تصور آخر قد لا نستطيع تفسير انتقال المغيرة القوري و « الموقوت » الى دمشق ، مستشاراً رئيسياً لمعاوية ، ومنها الى الكوفة والياً عليها إثر تنازل الحسن (٢) . ولا شك أن هذا المنصب الاخير كان من أبرز المهمات السياسية في ذلك الوقت ، حيث الكوفة قاعدة المعارضة الاكثر خطورة ضد الخلافة الاموية الناشئة .

ب - الاوضاع في الدولة بشكل عام وأثرها على الحجاز

انعكست متغيرات الدولة السياسية والاقتصادية ، على مختلف ولاياتها بصورة متفاوتة . ففي الشام مقر الحكم المركزي عاشت القبائل في أجواء الموالية وفي ظل امتيازات

(1) محرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزي بن عبد شمس . البلاغري ، انساب ج ١ ص 456 .

(2) الزبير بن بكار ، نسب قريش ص 113 .

(3) تاريخ الطبري ج 6 ص 95 .

خاصة ، لا سيما قبائل كلب وفهر وجذام ، التي شكلت معظم مادة الجيش (الفرق الشامية) ، الذي قام بدور أساسي في حاية الخلافة الاموية وانقاذها من حركات المعارضة في (الامصار) . وفي الوقت الذي غلب فيه الدور الامني أو كاد على الجند الشامي (١) ، فان قبائل الولايات كانت تغذي آنذاك العمليات التوسعية المحدودة ، مقابل عطاء لم يكن على الارجح متساوياً بين جبهة واخرى ، انطلاقاً من بعض المؤشرات في هذا السبيل (٢) . ولا شك أن سياسة الدولة الاموية نحو (الامصار) باتت شبه تقليدية ، منذ أن وضع معاوية ملاحظتها العامة ، باستثناء حالات معينة طرأ خلالها بعض التعديل ، دون أن تتناول بالضرورة جميع ولاياتها ، لا سيما في نهاية الفترة المتوسطة من تاريخ هذه الدولة .

ولعل النهج الذي أخذ به معاوية في نطاق معادلة التحالف العضوي بين قريش وثقيف ، قد حقق الغاية المنشودة نحو مركزية ادارية متماسكة الى حد كبير . وكانت هذه السياسة واضحة الملامح تحديداً في العراق والحجاز ، وهما مركزا الثقل الاكثر خطورة . على أن الفارق بين الاقليمين ، أن الاول كان مزدهراً بالسكان وغنياً بموارده الاقتصادية ، بينما فقد الثاني اهميته هذه منذ الثورة على عثمان ، ليحتفظ فقط بدوره المعنوي ، المستمد من تراثه الغابر ، والتمثل خاصة بتجمع أبناء الصحابة فيه . بيد أن هذا الدور لم يتخل من الاهمية في حسابات الحكم الاموي ، حيث كان الوجه الاسلامي للحجاز احدى نقاط الضعف الاساسية التي لم يستطع التغلب عليها . فقد بقي لابناء الصحابة تأثير ما عى تحريك الموقف ضد الامويين ، ليس في الحجاز فقط ، ولكن بصورة أكثر خطورة في العراق . فثمة تكامل سياسي فرض نفسه بين الولايتين ، حيث قواعد المعارضة بمسودها الاعظم تتجمع في هذه الاخيرة ، لا سيما في الكوفة ، بينما استقرت القيادات التاريخية قسراً في الثانية . وكان من الطبيعي أن يلجأ معاوية الى الاستفادة من هذا العامل الجغرافي ، باقامة حاجز مرتفع بين الطرفين ، بحيث أدى ذلك الى مزيد من التعتيق والارتباك على جبهة المعارضة ، التي كانت تشق طريقها بصعوبة بالغة ، مما أسفر لاحقاً عن اخفاق محاولاتها العديدة لاستلام السلطة .

وهكذا فان الوضع في الحجاز لم يختلف عن نظيره في العراق بعد انتقال الخلافة الى الامويين . فهناك موقف موحد ضد الاقليمين ، كونها يمثلان خطراً مشتركاً ومتكاملاً ، الا أن طرق المواجهة كانت الى حد ما متباينة ، حيث غلب عليها شيء من المرونة في الحجاز (سياسة معاوية نحو أبناء الصحابة) (٣) ، ورافقتها شدة في العراق تجلّت في

(١) البغدادي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٣٨

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ١٥ .

(٣) راجع ما نسب لعبد الله بن الزبير في رواية (الداني) وقوله لمعاوية « وقد غلبتنا بهلكم وجعلت علينا ممالك ... »

البلاذري ، انساب ج ١ ص ٣٤-٣٥ .

ملاحقة زعماء المعارضة والتخلص من المتطرفين منهم (نفي حجر بن عدي وأصحابه السبعة الى الشام وقتلهم) (١٠) .

لقد كانت سياسة الامويين في الحجاز تعبر عن الشعور بالاهمية المعنوية لهذا الاقليم ، وترمي الى الحؤول دون استغلالها لغير مصلحة الاسرة الحاكمة . وفي الوقت نفسه كانت هذه تستمد من موقعها الحجازي وزعامتها الغابرة لمكة « القديمة » ، ودعمها وقوة ازاء القبائل الشامية التي كانت بمعظمها ان لم تكن بكاملها ، على علاقة مصلحة مع هذه الاخيرة . وفي ضوء هذا الموقف ، فالحجاز الاموي تحول الى مجرد ثراث أو قيمة تاريخية في نظر خلافة الشام ، وهو الاطار الذي حدد معالم ارتباطها به ، لا سيما في مراحل نشأتها الاولى . على ان هذا المفهوم للعلاقة لم يكن ثابتاً ، حيث يصبح الحجاز بعد وقت قصير بمروره تلك ، هدف حملاتها العسكرية ذات الطابع الانتقامي ، اذا تبين لها من هو أكثر قدرة على توظيفها لمصلحته (ضرب الكعبة في عهدي يزيد وعبد الملك) .

ولكن ادراك الموقف الاموي من الحجاز ، لن يكون ميسوراً بمئى عن المتغيرات الداخلية التي رافقت تنازل الحسن ، وتكريس الشام محور الاستقطاب الرئيسي في الدولة الجديدة . ذلك ان هذا الاقليم شهد هجرة « متعاكسة » ، كان لها تأثير كبير على وضعه السكاني ومن ثم انتمائه السياسي كمحصل طبيعي لذلك . فقد انعكست تلك التطورات السياسية على حواضر الحجاز ، التي كانت متباينة المواقف في المضمون ازاء الصراع على الخلافة ، حيث ارتفع عدد السكان في (المدينة) بعد عودة (الانتصار) اليها بقيادة قيس ابن سعد ، بينما انخفض عددهم في مكة والطائف ، إثر الهجرة المعاكسة الى الشام ، التي عززها التحالف السياسي الذي اشرفنا اليه بين قريش وثقيف . واذا عرفنا ان (المدينة) كانت متفوقة سكانياً في الحجاز ، فانه من البديهي أن نحافظ على هذا الموقع في أعقاب التفرغ الذي تعرضت له مكة والطائف في هذا المجال . وعندما نعترف بأن ثمة سياسة اموية محددة نحو الحجاز ، فينبغي أن نستثني منها الثقفين والقرشيين الذين تحولوا بأكثرتهم الى الشام ، بينما بقيت كل من الحاضرتين ، خاضعة لتأثير (المدينة) ودائرة في فلك احداثها بشكل مباشر . ولم يطرأ تعديل على هذا الوضع الا في عهد ابن الزبير الذي اتخذ من مكة مقراً لحركته ، انطلاقاً من اعتبارات خاصة به وباهل (المدينة) ، الذين لم يتحمسوا كثيراً له . وخلافاً لذلك فقد بقيت هذه الاخيرة غالباً مركز الادارة الاموية الموحدة في الحجاز ، لامياب سياسية ، تعلقت بالموقف العام من الدولة ، ولأسباب اقتصادية ، مستعرض لها بشكل تفصيلي في معركة « الحرّة » ، حيث أصبحت للاسرة

(١١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٥٢ - ١٥٥ .

الحاكمة منذ عهد عثمان على وجه الخصوص ، أملاك ويساتين نخيل في (المدينة) « ، طغت على تلك التي كانت في حوزة (الانصار) .

ولعل محاولة البحث في العلاقة بين دمشق والحجاز ، لن تكون مجدية خارج نطاق (صفين) ، التي كانت مفتاح السياسة الاموية في هذا الاقليم كما في غيره . فقد كان من نتائج هذه الحرب البارزة ، ذلك الفرز الذي حلّد الموقف « اللاخيتاري » من الحكم الجديد ، ووزع العرب المسلمين الى فئتين : احدهما في الموالة والثانية في المعارضة . فالامرة الاموية التي كانت أكثر من عبر عن عصبية قريش من فروع هذه الاخيرة ، يبدو أن « الجماعة » التي اقترنت ببنّازل الحسن ، كانت بالنسبة اليها « وحدة » القبيلة - « نحن وآل أبي سفيان قوم تعادوا في الامر ، والامر يعود كما بدا » « - التي التّمت حول معاوية في ذلك « العام » ، كسبيل الى توحيد بقية القبائل العربية التي اعترفت بواقع الامر ، باستثناء الخوارج الذين شدّوا عن هذه القاعدة لاسباب قد لا يكون لهم صلة بها . فهذا المدخل « القبلي » الذي رافق قيام دولة الامويين ، جعلها أسيرة مفهوم محدد للعلاقات السياسية ، لم يكذب يتجاوز كثيراً مساحة القبيلة ومفاهيمها التقليدية « حسن الجوار ... الكرم ... الثار ... » وبقية الطوقس البدوية المعروفة .

واذا كان قيام دولة ما يفترض وجود موالة ومعارضة ، دون التزام بحدود الزمان والمكان ، فان الدولة التي نشأت في أعقاب حرب أهلية طويلة ، كان عليها مجاهدة تيار كبير ، لم تكن الهزيمة عنده سوى مجرد كبوة سيعود الى النهوض منها . ومن ناحية أخرى لم يلجأ معاوية رغم مرونته المعروفة - ولعله كان غير قادر على ذلك - الى امتصاص نفعة المعارضة الدفينة ، بالقدر الذي تحقق لابي بكر بعيد « السقيفة » ، انطلاقاً من تفاوت المعطيات الزمنية والشخصية في كل من الحالتين . فقد كان المنطق القبلي ، كمحصل لعصبية متطرفة في الاسرة الحاكمة ، أحد أبرز ملامح الدولة التي ارتبطت بها ، بشكل حال دون قيام علاقات سياسية متوازنة في المجتمع الاموي ، خارج نطاق هذه الذهنية الفئوية ، التي أحلّت الانقسام والتنافر مكان « المؤاخاة » و « المؤالفة » ، وهما الشعاران اللذان ارتقعا بعد « الهجرة » وسقوط مكة .

ولعلنا نستطيع التعرف بجلاء أكثر على ذلك ، من خلال دراستنا لاضباع الحجاز السياسية والاقتصادية في العهد الاموي ، حيث ناضل هذا الاقليم طويلاً من أجل استعادة الاعتبار الذي فقده عملياً مع انتقال الخلافة الى دمشق . وإذا قيل بأن سياسة معاوية كانت غير صدامية في الحجاز ، انطلاقاً من وضعه الاداري الخاص المرتبط بعاصمة

(1) السهومي ، ولاء الوفا ج 2 ص 720-721 ، صالح العلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز من 695م فصاعداً .

(2) من قول لعلي ، شرح نهج البلاغة ج 4 ص 80 .

الخلافة ، فإن هذا الموقف أكثر ما انعكس على أبناء الصحابة ، لا سيما (المهاجرين) منهم ، الذين تمتعوا بحد من الهدوء والاكتفاء في عهده ، وهو موقف كان له ما يسوغه لدى الخليفة الأموي ، حيث كان هؤلاء مصدر الخطر الحقيقي على دولته الفتية . على أن ذلك لم يثقل سوى جانب من سياسته الحجازية القائمة في مضمونها على الحذر إزاء هذا الاقليم ، الذي أخذ في الانطواء والنزوع الى موقف خاص من السلطة ، بحيث أصبح تدريجياً طابعه التقليدي المميز . ولا شك أن مكانته الروحية التي تفرّدها ، جعلت منه بالضرورة ملتجأ المضطهدين والباحثين عن قدر من الاستقرار والامان لم يتوفروا لهم في مكان آخر .

وكان (الانصار) ، من أبرز التجمعات السكانية في الحجاز أبان تلك الفترة المبكرة . وفي ضوء هذا الواقع ، فانهم يمثلون أساساً لفهم طبيعة السياسة الاموية في الحجاز ، أكثر من أية فئة أخرى بمن في ذلك أبناء الصحابة . فالانصار الذين وقفوا غالباً ضد الاتجاه التقليدي للامويين - منذ أن فتحو أبواب مدينتهم لدولة النبي ، واهتموا بالتخاذل في الدفاع عن عثمان قبل أن يتحولوا بأكثرتهم الساحقة الى جانب علي « - كان عليهم قطع ثمار هذه المواقف « المعادية » لغريش حسب المنظور الأموي . ولدنيا يضع روايات تشير الى هذا التعارض التاريخي بين الامويين و(الانصار) ، بحيث ان أية علاقة بين الطرفين ، ستكون خاضعة لهذا الاعتبار قبل غيره . فقد خاطب معاوية - حسب رواية للمدائني - قيس بن سعد وجماعته (الانصار) : « بماذا تطلبون ما قبلي ؟ والله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً علي ، ولقد فلنتم حدّي يوم (صفين) حتى رأيت المنايا تظلي في استكمكم » (1) .

ويأتي جواب الزعيم الانصاري معبراً عن معاناة قومه وحرمانهم ، وهو الدافع الذي حدا به الى هذا الموقف والتقليل من خصومته للامويين « إنا نطلب ما عندك بالاسلام الكافي به الله فقد ما سواه لا بما تمت به اليك الاحزاب ، وأما عداوتنا لك فلو شئت لكففتها عنك » (2) . وفي مكان آخر أكثر تحديداً في تصوير الوضع الاقتصادي السيء الذي يعانيه (الانصار) - في رواية ثانية للمدائني أيضاً - « حجّ معاوية » ، فلما قرب من المدينة تلقاه الناس وتلقته الانصار وأكثرهم مشاة » (3) ، فقال : ما منعكم من تلقي من بُعد كما تلقاها

(1) شرح نهج البلاغة ج 6 ص 33-34 .

(2) البلاذري ، انساب ج اص 57 .

(3) الكان بنفسه .

(4) حدث ذلك على الأرجح في مطلع خلافة (44 هـ) . البغوي ، تاريخ ج 2 ص 222 .

(5) ورد في تاريخ الخلفاء للسيوطي أن معاوية « قدم للمدينة ، فلقبه ابو قتادة الانصاري فقال معاوية : تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الانصار . قال لم يكن لنا دواب ، فقال : فإين التراضح ؟ قال عفرناها في طلبك وطلب ايك يوم بدر » ص 201 .

الناس من بعد ؟ فقال ابن لمعد بن عبادة يقال له سعيد ، منعنا من ذلك فله الظهر وخفة ذات اليد بالحاح الزمان علينا وإيثارك بمعروفك غيرنا »^{١١٦} . وهذا الحرمان الذي نزل بالانصار لم يستطع دفعه عنهم ، أحد حلفاء معاوية المعروفين منهم (النعمان بن بشير) ، الذي « جاء في جماعة من الانصار الى معاوية فشكروا اليه فقرهم » ، دون أن يكون لشفاعته تأثير ما حيث « حرّمهم ولم يعطهم شيئاً »^{١١٧} . وقد استغفر هذا الموقف حليفاً آخر للامويين (حسان بن ثابت) ، الذي لم يستطع كتم نزعته « الأنصارية » التي استأثره معاوية ، ملوّحاً الى « يوم » لقومه وإن طال ، سيقفون فيه الظفر المشدود :

فأنا صابرون ومنظروكم الى يوم التضامن والخصام^{١١٨}

ج - مشكلة ولاية العهد والتحدي الحجازي :

لم يكن قرار توريث الخلافة أمراً غير عادي في دولة كانت الوراثة فيها تقليدية أو كادت ، منذ استقرار الزعامة الاموية في الشام . فقد انتقلت السلطة من يزيد ابن أبي سفيان (أول ولائها) ، الى أخيه معاوية بطريقه شبه وراثية (١٨ هـ) ، ثم انتقل الامر من الممارسة الى النظرية في عهد عثمان ، الذي أعطى لولاية الشام حجمها المتميز في الدولة الراشدية . وكان أن اتاح ذلك لمعاوية فرصتين : التأكيد أولاً على فعل واقع في ظل خليفة أموي (عثمان) ، وما ترتب عليه من « امتياز » للأسرة الحاكمة و « قداسة » للحق الذي تمسك بناصبته ، بحيث تصبح قریش - والمقصود هنا أمية - « جنة العرب »^{١١٩} و « نخبها » التي عزّت في اسلامها كما في جاهليتها على السواء^{١٢٠} . والتكريس ثانياً لهذا الموقف على مستوى الخلافة بعد أن تمّ تكويسه على مستوى الولاية (دم عثمان في الاولى ، و وفاة يزيد أخيه في الثانية) ، وكلاهما من أشكال الوراثة التي « تسوّغها » قرابة الدم في غاية المطلق .

وهكذا جاء استحداث ولاية العهد ، نتيجة شبه حتمية لتلك المقدمات التي رافقت قيام دولة الامويين ، حيث كانت القوة والامر الواقع سبيلها الى السلطة ، خاصة بعد سقوط بقايا « الشورى » الراشدية مع اغتيال علي . وكانت الفئات التي ناصرت معاوية قد اختارت حكماً الوقوف ضد « شوروية » الخلافة ، رغم تمثيلها

(1) البلاذري ، انساب ج ١ ص ١١٦ .

(2) شرح النهج ج ٦ ص ٣٢ .

(3) السيوبي ، تاريخ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(4) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨٥ . رضوان السيد ، جذليات ، مجلة الوحدة ص ١٨ .

(5) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٨ .

أنذاك بأحدى الشخصيات التاريخية في الاسلام ، وبالتالي لم تتردد من الموقع نفسه من تقبل أمر لا يتطلب ربما جراءة مماثلة ، بعد أن أصبح الحكم الأموي حكم « الجماعة » و « اعترف » به الجميع . ولعل الرواية التقليدية التي تجعل من المغيرة ابن شعبة « صانع » فكرة الوراثة الأموية ، متوددا من خلالها الى معاوية الذي رغب في استبداله بسعيد بن العاص على ولاية الكوفة^(١) ، هي في ذاتها مؤثر الى تهينة النفوس مسبقاً لهذا الأمر ، حتى في هذه الولاية التي كانت مركز المعارضة الرئيسي ضد الخلافة الأموية : « وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق اليه ومن يعلم أنه شعبة لبني أمية أمر يزيد ، فأجابوا بيعته »^(٢) . وإذا كان في الكوفة من تحمس لهذه الدعوة ، فلا بد أن الفكرة كانت ناضجة في دمشق ومطروحة قبل ذلك في نطاق المقربين من معاوية ، لا سيما الضحاك بن قيس ، الذي ضمن تأييد جماعته القيسية ، فضلاً عن الكلبيين (أخوال يزيد) الذين قاموا بدور كبير في تهيئة الجانب اليمني^(٣) .

لقد كانت ولاية العهد محصلة طبيعية للفكر السياسي الأموي ، حيث الوراثة منذ البدء كانت سمته البارزة وعنصر الاستمرار في السلطة . وهي من حيث المبدأ موصولة بـ « الحق المقدس » الذي مؤغه (ابن خلدون) بطريقته الواقعية « انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حيثئذ من بني أمية ، اذ بنو أمية يومئذ لا يرتضون سواهم وهم عصابة قرش وأهل الملة أجمع ، وأهل الغلب منهم »^(٤) . على أن التفسير المتأخر ، قد سبقته تعبئة اعلامية بئها شعراء معاوية دفاعاً عن « قداسة » السلطة الأموية ، التي « حاطها الله »^(٥) دائماً . وقد حدا ذلك بشاعر بني أمية الاثير^(٦) لدى معاوية الى القول في هذا الأخير :

الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستسقي به المطر^(٧)
وتبلغ الموالة ذروتها عند هذا الشاعر (الاخطل) ، باطلاقه على معاوية اسم

(1) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٦٢ .

(2) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٥٠٤ .

(3) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٣- ١٥٥ . ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٥٠٧ .

(4) المقدمة ص ٢٧٣ .

(5) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٨٦ .

(6) LAMMENS, *Études sur le règne du calife omayyade Mo'awiya 1er*, P. 220. (6)

(7) ديوان الاخطل ص ٥٦ .

«الامام» في معرض مدحه ليزيد، بما لهذه الكلمة من دلالة وراثية أكثر تحديداً وشمولاً، وكذلك استمرارية في الولاء للأسرة من الابن الى ابنه

فلولا يزيد بن الامام أصابني قوارع يجنيها عليّ لسانى»⁽¹⁾

ثم يضيف في معرض آخر، مدافعاً عن «التحكيم» من المنطلق التصويفي نفسه، حيث لا يراه إلا نوعاً من «الاحاطة الالهية» التي برزت في الوقت المناسب :

ويوم صفين والابصار خاشعة امدهم اذ دعوا من ربه مدد⁽²⁾

والحقيقة أن الشعر حمل سمة العصر وذهنية الممارسة السياسية في ذلك الوقت، حيث سلاح السلطة هو الاقوى والاقدر على تحويل منطق الشاعر والتزامه من جهة الى أخرى. فعندما حجّ يزيد الى مكة⁽³⁾، وزّع في تلك المناسبة - التي كانت جزءاً من حملة البيعة بولاية المهدي - «أموالاً كثيرة في مكة والمدينة»⁽⁴⁾ في هذا السبيل، مما أدى الى انتقال هذه المسألة من «كواليس» البلاط الى الرأي العام.

ثمة شاعر بصري (مسكين الدرامي)⁽⁵⁾ تلقف الخبر مصعوقاً في بادئ الامر وخاطب معاوية بقوله :

فهبها امة هلكت ضياعاً يزيد يسوسها وأبو يزيد
دعوا حق الامارة واستقيموا وتأميل الاراذل والعبيد⁽⁶⁾

وإذا بالشاعر نفسه الذي تلقى من المال ما كان كافياً للترجع عن موقفه، يعود الى الاعتراف بشرعية «خلفاء الله»، الذين استحقوا عن جدارة، مباركاً بيعة يزيد :

عل الطائر الميمون والجند صاعد لكل اناس طائر وجنود
بني خلفاء الله مهلاً فانما ينوء بها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغرني خلاه ربه فان أمير المؤمنين يزيد⁽⁷⁾

(1) ديوان الأخطل ص 336 .

(2) المصدر نفسه ص 174 . محمد مهدي شمس الدين ، ثورة الحسين ص 92

(3) ابن طبرون ، قيد الشريد عن اخبار يزيد . غطوط بمكتبة جامعة الدول العربية ورقة 20 .

(4) ابن الأعمش ، خروج ج 4 ص 225 .

(5) الملكان نفسه .

(6) الملكان نفسه .

(7) المصدر نفسه ج 4 ص 226 ، أحمد الحوفي ، أدب السياسة في العصر الأموي ، ص 159

وثمة شاعر كوفي (عبد الله بن همام السلولي)، الذي سبق أن «رثى» الشورى التي «اغتيلت» مع عثمان، يسوّغ لمعاوية حقه في السلطة، عبر الاستمرارية الأموية. فسار على خطى شاعر البصرة دون حساب للتناقض الذي وقع فيه ازاء قوله السابق :

ولا لمن سالك الشورى مشاوره الا بطعن وضرب صائب خذم^(١)
وبين قوله بهذه المناسبة :

إذا مات كسرى قام كسرى بعد ثلاثة متنامقينا
بورثها اكابرهم بنهم كما ورث القمامسة الفطينا
... حثينا الخيط حتى لو سقينا دماء بني أمية ماروينا^(٢)

ويبدو أن (السلولي) الذي نظم قصيدته الهجائية تحت تأثير الاجواء السياسية المعادية للامويين في الكوفة، كان يأمل من تصعيد حملته على ولاية العهد بد «الترضية» المنشودة التي بادر معاوية الى تليتها، بينما سارع بدوره الى الالتفاف نحو الشام ليقول في ولي العهد (يزيد) :

أبو خالد أخلق به أن يصينا بسجل من المعروف يتبعه سجل
هو اليوم ذو عهد وفينا خليفة اذا فارق الدنيا خليفتنا الكهل^(٣).

وهكذا كان الشعر السياسي متماشياً مع الاتجاه الذي سيطر على الموقف العام في عاصمة الخلافة وأقاليمها، حيث برز اتجاهاً متعارضان، احدهما متعاطف، بل متحمس، كان محور نفوذه في الشام، والآخر ساخط في اكثره متذبذب في أقله^(٤)، تذبذب شاعري الكوفة والبصرة الأنفين. ولكن الشعر على أهميته وتأثيره في شحن المواطنين في الاتجاه المطلوب، لم يتجاوز دوره التمهيدي لهذه المسألة ونقلها من المجالس الخاصة الى التداول العام. فالكلمة المؤثرة كانت لا تزال للحجاز وبالتحديد أبناء الصحابة أو «النقر الخمسة من قريش» حسب تعبير معاوية^(٥). وهؤلاء (الحسين بن علي، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ج 2 ص 631.

(٢) البلاذري، انساب ج 1 ص 293. ابن الاثم، الفتح ج 4 ص 227.

(٣) ابن الاثم، الفتح ج 4 ص 227، البلاذري، انساب ج 1 ص 293.

(٤) ابن الاثم، الفتح ج 4 ص 228.

(٥) المصدر نفسه ج 4 ص 228- 232.

عمر، عبد الرحمن بن أبي بكر، عبد الله بن عباس)، كانوا يمثلون التراث الراشدي في الوجدان الشعبي العام، ويعملون معاناة الحجاز لا سيما (المدينة) مقر اقامتهم، حيث رأت فيهم حلم العودة الى ماضيها الساطع في ربيع القرن الاول للهجرة.

وانطلاقاً من ذلك كان الموقف الحجازي، العقبة الرئيسية أمام «ولاية العهد» الموجهة بدورها ضد طموح أبناء الصحابة السياسي، حيث راودت الخلافة معظمهم بصورة جدية، وكانت لوقت مضى على خطوات وشيكة من بعضهم. ولذلك فإن هؤلاء الزعماء كانوا يملكون من الرصيد المعنوي والتأثير الشعبي، ما يتفوق على أسلحة الشعراء الذين تجلّوا في هذه الحملة (الاخطل، الاسدي، السلوي). وكان انتفاها الى الحجاز يمثل آخر المراحل الحاسمة، قبل أن يصبح القرار مشروعاً بتأييد أبناء الصحابة الخمسة. وقد حدث أن توافقت ذلك مع ذكاء واضح في التوقيت، حيث توفي (زيد بن أبيه) قبل سنوات قليلة⁽¹⁾، مؤدياً الى غياب ركن المعادلة الثاني، التي ظهرت في مطلع هذه الدولة وأدت الى ترسيخ التحالف التقليدي بين الأمويين والثقفين. كما تزامن مع وجود ثلاثة من الولاة المقرين لمعاوية في وقت واحد وهم: مروان بن الحكم (المدينة)، الضحّاك بن قيس (الكوفة)، عبيد الله بن زياد (البصرة)⁽²⁾، وهي المراكز الأكثر استقطاباً للفتات المعارضة، حيث أمهم هؤلاء بنصيب كبير في ترويضها لمصلحة الخليفة الأموي.

على أن النامس التي سكنها الخوف في العراق، وبصورة خاصة في الكوفة بعد مقتل الزعيم اليميني الكبير (حجر بن عدي الكندي)، لسنوات قليلة خلت، لم تكن في موقع يؤهلها للمضي في التصلب والمجابهة⁽³⁾. ولذلك فإن التصدي مرحلياً على الأقل - تمحور في (المدينة)، التي مثلها آنذاك:

1 - اتجه متعاطف مع السلطة، من الأمويين وحلفائهم، وليس هنالك ما يشير الى نسبتهم العددية بين سكان (المدينة)، ولكنهم على الأرجح كانوا أقلية، نواتهم من بني العاص، الفرع الأموي الذي حافظ على نفوذه في الحجاز.

(1) تاريخ الطبري ج 6 ص 170.

(2) توفي زيد سنة 53 هـ، وكان ينصع بالبرث في هذا الامر ولا تعجل فان دركاً في تأخير، خير من قوت في عجلة، تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 260. ابن الأثير، الكامل ج 3 ص 505.

(3) تاريخ الطبري ج 6 ص 170.

(4) ابن الأثير، الفتح ج 4 ص 232.

2 - اتجاه معارض ، ضمّ أبناء الصحابة ومعهم (الانصار) ، وهم القوة الغالبة في (المدينة) . وكانوا في أوضاعهم السياسية والاقتصادية لا يختلفون عن تلك التي سادت أوضاع الغالبية الكوفية . على أن موقف (الانصار) كان لحين أكثر حصانة ، استمدوه من وجود أبناء الصحابة (المهاجرين) بينهم ، وذلك قبل بعثة هؤلاء في مستهل خلافة يزيد بين مكة والطائف . وهذا سيؤدي الى كشف موقع (الانصار) واستفراد السلطة الاموية لهم في معركة (الحرة) الشهيرة ، التي كانت في إحدى نتائجها محصّلة ذلك الاقتراق بين زعماء المهاجرين و (الانصار) .

وليس من الصعب علينا كشف « ضعف » القوة الذاتية للانصار في معزل عن أبناء الصحابة . فقد سبق لمعاوية أن حسم هذا الامر بشق جبهتهم السياسية ، مؤلباً الاوس على الخروج أو العكس⁽¹⁾ ، ومعرضاً على الفريقين من جهة أخرى ، حيث كان شاعره (الاخطل) ينطق بمضمون الموقف الاموي من (الانصار) بأسلوب لاذع ومهين⁽²⁾ .

وكانت « ولاية العهد » قد طرحت بصورة غير مباشرة في الحجاز في سنة إحدى وخمسين للهجرة ، أي في الوقت نفسه الذي تمّ فيه تطويع الموقف العراقي بعد مقتل حجر بن عدي وأصحابه . فقد « حجّ بالناس »⁽³⁾ آنذاك يزيد بن معاوية ، حيث يبدو أنها المهمة الاولى « الرسمية » التي تولّاها في ذلك الحين . وفي خلال الاعوام الخمسة التي تلت هذه المناسبة ، كانت « ولاية العهد » في طليعة اهتمامات الخليفة الأموي ، الذي جنّد لها « نخبة » من المقربين والخلصاء⁽⁴⁾ ، استطاعوا ترويض الناس⁽⁵⁾ وحلّهم على الاعتراف بقرار الوراثة . على أن هؤلاء الذين ارتبطوا مصيرياً بالاستمرارية الاموية ، فتحمسوا لها ربما أكثر من طموح معاوية في هذا السبيل ، تميّز سعيهم بالجرأة بعد وفاة زياد ، وما رافقه من انتقال هذه المسألة

(1) الاصمغاني ، كتاب الاغاني ج 2 ص 170 .

(2) راجع بيت الاخطل :

ذهبت قريش بالكارم والعلل والظلم تحت عمام الانصار

أحمد الشاذلي ، تاريخ الشعر السياسي ص 309 ، 39 . VESELY, AL-ANSAR, P. 39 .

(3) تاريخ الطبري ج 6 ص 161 ابن الأثير ، الكامل ج 3 ص 490 . يذكر خليفة ابن عياض أن معاوية لما أجمع على أن يبايع يزيد « حجّ فقدم مكة في نحو ألف رجل وج 1 ص 261 . ويبدو أن الامر التبس عليه بين هذا العام وبين العام السادس والخمسين الذي يرجّح بأن معاوية قدم فيه الى الحجاز للاستيثاق من موقف أبناء أصحابه . تاريخ الطبري ج 6 ص 170 . الكامل لابن الأثير ج 3 ص 509 .

(4) الفضل بن يس ، عمرو بن سعيد بن العاص ، يزيد بن الملقح الكندي ، الحصين بن غير السكري . ابن الأعمش ، الفهرج ج 1 ص 230-232 .

(5) المصدر نفسه ج 4 ص 229 .

الى الاطار العلني ، حيث كانت محسومة قبل ذلك بصورتها النهائية في الشام . وكان والي العراق يتطلع الى مد نفوذه نحو الحجاز ، فخشي أن يؤدي الاعلان عنها الى عرقلة مشروعة وتآليب ابنائه الصحابة عليه ، الذين انطسوا على كراهية شديدة له (١) . حيث كانوا المستهدفين مباشرة بما عبر عنه الوالي القوي في هذا المجال : « اني قد ضبطت العراق بشماله وبميتي فارغة ، فولني الحجاز والعروض اكثك هذا الحبي من قريش » (٢) . ولم يتردد معاوية من استخدام طريقته الاحتوائية مع أبناء الصحابة ، على النحو الذي رافق امتصاص نقمة الشعراء وتحولهم من جبهة الى اخرى ، كما سبق أن رأينا . وكان محمد عبد الله بن عمر ، اقرب زعماء الحجاز مسافة اليه ، كونه أكثرهم اعتدالاً ، وأقلهم طموحاً الى الخلافة ، فرأى في « سلاح العطاء » سبيلاً الى تطويع هؤلاء بمن فيهم هذا الاخير ، حيث كان على ما يبدو احدى وسائل الضغط السياسي الذي ارتبط بالممارسة الاموية في الحجاز . وما أورد (ابن الاثير) في هذا الشأن ، يضعنا على حقيقة الوضع الاقتصادي لابناء الصحابة ، الذي لم يكن جيداً بصورة دائمة ، وذلك حين ارسل معاوية لابن عمر مبلغاً كبيراً من المال (٣) ، كان بأمر الحاجة اليه ، ولكنه عندما علم بأنه « ثمن » البيعة ليزيد رده اليه وامتنع عن قبوله (٤) .

وكان ابن عمر ، الذي وُصف باعتداله قد رفض هذا الاستدراج ، مؤثراً الالتزام بالموقف للحجازي الذي نحا الى معارضة هذه الخطوة التغيرية الجديدة في عرف الحكم ، ممثلاً بصورة خاصة باثنين من الزعماء نافسا البيت الاموي في الخلافة وهما : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير . بيد أن معاوية بعد جلاء الموقف في الشام والعراق (56 هـ) ، قد أمر واليه (مروان بن الحكم) بالدعوة الى « بيعة يزيد » في الحجاز (٥) . وتأتي الرواية الواردة في (فتوح) ابن الاثم متناسقة في مضمونها مع تلك الواردة لدى ابن الاثير ، حيث بادى والي الحجاز بدعوة « وجوه أهل المدينة فجمعهم في المسجد الأعظم » (٦) ، ودعاهم الى بيعة يزيد ، التي ربطها بـ « الوحدة » كما ربط معارضتها بـ « الفتنة » ، مشيراً الى أن معاوية اختار لهم من بعده « مفزعا يجمع الله به الالفه ويحقق به الدماء » (٧) . وبعد ان خلص مروان الى

(1) تاريخ السري ج 6 ص 162 .

(2) البلاذري ، انساب ج 1 ص 208 .

(3) ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 506 .

(4) المكان نفسه .

(5) الفتوح لابن الاثم ج 4 ص 232 . الكامل لابن الاثير ج 3 ص 506 .

(6) المكان نفسه .

(7) المصدر نفسه ج 4 ص 233 .

القول بأن ولي العهد سيعير « فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين »^(١)، كان أول ردّ عليه من عبد الرحمن بن أبي بكر، الذي حمل بجرأة على « هرقلية »^(٢) الخلافة التي يشر بها مروان باسم سيده، حيث انتصرت له عائشة التي كان لمحيتها الى المسجد ومعها « نساء من قريش »^(٣). كبادرة أولى منذ حرب الجمل تأثير كبير على تصعيد الموقف ضد الامويين في المدينة^(٤).

وكان لهذا التصدى العنيف الذي مثل صوت الحجاز من ولاية العهد - معبراً عنه ابن أول الخلفاء، وخروج عائشة من عزلتها السياسية - وقع شديد على معاوية الذي سارع مع هواجسه الى (المدينة)، حيث كان أكثرها قلقاً ما له علاقة بزواج النبي، التي كان منزلها محطته الأولى والرئيسية في الحجاز^(٥). فهذان الموقفان لـ (عبد الرحمن وعائشة)، مرتبطان معاً في نظر معاوية الذي اعتقد بأن الأخيرة هي المحرصة للاول، فضلاً عن صلاتها الوثيقة بآخرين من زعماء (المدينة) « أن عبد الرحمن شيخ قد خرف وقلّ عقله، ويجب أن نكفّ عنه ونحتمل ما يكون منه، فليس هذا من رأيه ولكن رأي غيره »^(٦).

ولعل قدوم معاوية « المفاجيء » الى الحجاز ومعه « خلق كثير من أهل الشام »^(٧)، قد يكشف عزمه على مقابلة التصديّ « الحجازي » بالعنف « الشامي »، حيث كان ذلك واضحاً في حوار مع عائشة التي سألت « الفرق والتأني »^(٨).. « فانهم يصيرون الى ما تحب »^(٩).. « فلعلهم لا يصنعون الا ما احببت »^(١٠).. والمقصود هنا بالطبع أبناء الصحابة. ويبدو أن خطبته التي دعا فيها الى بيعة يزيد في المسجد، لم يشهدا زعماء (المدينة) هؤلاء الذين آثروا الابتعاد الى مكة، كدلالة على تصعيد معارضتهم لهذا الامر، حيث لم يملكوا من سلاح التصديّ له، سوى تأجيل المواجهة الحاسمة والمراهنة على ما قد يحدثه هذا « النفي

(1) الفتوح لابن الاثم ج 4 ص 233

(2) ابن الاثير، الكامل ج 3 ص 506

(3) الفتوح لابن الاثم ج 4 ص 234

(4) المكان نفسه .

(5) الامامة والسياسة ج 1 ص 167 .

(6) الفتوح لابن الاثم ج 4 ص 234-235 .

(7) الامامة والسياسة ج 1 ص 166 .

(8) الفتوح لابن الاثم ج 4 ص 238 .

(9) ابن الاثير، الكامل ج 3 ص 509 .

(10) الامامة والسياسة ج 1 ص 167 .

الاختياري» من تأثير على الرأي العام في الحجاز والعراق . ويدعو أن معاوية رغم القوة المسلحة التي رافقته الى (المدينة) ، كان لا يزال متجنباً . وتلك إحدى الخصائص المتميزة فيه . استخدام العنف مع أبناء الصحابة ، ما استطاع سبيلاً الى ذلك . فلم يدخر وسعاً في محاولة شق تلك الجبهة التي استقرت في مكة ، عبر استفراد عناصرها الواحد في معزل عن الآخر ، موحياً له برغبته في أن يؤول هذا الامر اليه (١) .

وكان معاوية قد لحق بهم ومعه عبد الله بن عباس ، أول المتخلفين عن مجارة أصحابه ، فضلاً عن عدد من أهل المدينة (٢) ، بعد أن حال ضعف موقعهم السياسي والاقتصادي دون المضي في استعلاء معاوية ، شأن الزعماء الأربعة من أبناء الصحابة (المهاجرين) . وتابع معاوية في مكة نهجه الاستفرادي مع هؤلاء ، مبتدئاً بدعوة الحسين بن علي ، الذي دهم بمحاولة الخليفة الراية الى دفع التهم المتداولة حول يزيد : « لو علمت مكان أحد خير للمسلمين من يزيد لبايعته له » حسب قول معاوية (٣) . عل أن المسألة كانت ذات وجه آخر ، ربما أكثر اتصالاً بفهم الخليفة السذي ربط شرعية دولته بالعصية القرشية المتجلية خاصة في أسرته . فالامتياز الذي استحقه الحسين في مجرى المفاضلة مع يزيد ، كان مصدره التفوق عليه بقرشية أمه « ولو لم يكن إلا انها امرأة من قريش لكان لنساء قريش أفضلهن » حسب قوله له (٤) . وعدا ذلك فليس له ما يستطيع مناجزة يزيد به ، رغم الاعتراف بموقع أبيه من النبي والاسلام ، حيث « ارادة الله » قضت بذلك ، بعد أن « حاكم أبوه - أي معاوية - أباك ففضى الله على أبيك » (٥) . وانطلاقاً من هذه المعادلة فإن القوة كانت دائماً تكسب الشرعية الاموية « حقها الالهي » ، عبر أدائها الشامية المتحصنة بها « واحلر أهل الشام أن يسمعوا منك ما قد سمعته منك » (٦) .

وهكذا فإن عصية قريش كمسوغ نظري لخلافة الامويين ، التفت بصورة متكافئة مع القوة الرادعة في الشام ، لاحتباط حجج أبناء الصحابة الأربعة في مكة ، بما فيها الشورى التي كانت القاسم المشترك الوحيد بينهم ، بحيث أصبحت منذ ذلك الوقت

(١) الأملية والسياسة ج ١ ص ١٦٧-١٦٨ تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٧٠

(٢) الأملية والسياسة ج ١ ص ١٧٢ ، ابن الأعم ، الفتوح ج ٤ ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المكان نفسه .

(٥) ابن الأعم ، الفتوح ج ٤ ص ٢٤١ .

(٦) المكان نفسه .

سلاح المعارضة الرئيسي طوال الحكم الأموي . ولعل ذلك أحد أسباب الدعم المتصاعد لهذه النظرية ، بشكل تعدى كثيراً الحجم الذي بلغته كهماسة حتى في عصرها الذهبي ، أي في النصف الأول من الخلافة الراشدية . فكانت الصيغة المرتبطة بعمر بن الخطّاب ، النموذج الملائم والتقليدي لمعظم الحركات الثورية بطروحاتها المختلفة .

وكان معاوية قد أخفق مرة أخرى في استدراج أي من الزعماء الأربعة ، الذين حافظوا على موقف متمسك من ولاية العهد . فدعاهم إلى الاجتماع به ، حيث نفذ صبره أو كاد ، دون أن يكون للاموال التي وزعها آنذاك في مكة تأثير يذكر على هذا الموقف⁽¹⁾ . وكان هؤلاء قد انتدبوا ابن الزبير متحدّثاً باسمهم في اللقاء الخامس⁽²⁾ ، الذي كان مدخله الجدّي إلى السياسة وإلى طرح اسمه بين المرشحين البارزين للخلافة . وقد نتساءل عن خلفية هذا الاختيار لابن الزبير ، رغم أنه لم يملك « امتياز » أصحابه الثلاثة الذين سبق لأبائهم أن تولوا الخلافة ، وإن كان ذلك مرتبطاً بتعديلات مستجدة في الزعامة الحجازية ؟ على أننا لن نتردد في محاولة الإجابة على ذلك ، من خلال التصدي الذي قام به أبناء الصحابة الأربعة ، أن ثمة فرزاً مبكراً ، أدى إلى صدارة ابن الزبير والحسين ، على حساب الاثنين الآخرين ، حيث كان عبد الرحمن بن أبي بكر مسأً أو « شيخاً »⁽³⁾ كما كان يدعوه معاوية ، بينما غلبت على عبد الله بن عمر انضباطيته وإيثاره الموادعة على التحدي ، فضلاً عن كراهيته للانقسام أو « الفرقة » ، مجسداً ذلك في القول المنسوب إليه « ما أحب أن أبيت ليلة وليس علي أمير »⁽⁴⁾ . ومن هنا كانت المنافسة الجدّية التي خشيها معاوية وتوجّس منها الخطر ، متمثلة بزعامة الرجلين الأقوى في هذه الجبهة (الحسين وابن الزبير) .

وقد لا نجد صعوبة من خلال هذا التصور ، في تفسير رقاسة ابن الزبير لوفد أبناء الصحابة الذين اجتمعوا إلى معاوية . فثمة افتراض مرجح بأن هذه المهمة ، إنما تدخل في سياق اتفاق ضمنى على توزيع الأدوار وتقسيم محاور النفوذ بين المتنافسين الرئيسيين ، وهو ما تجسّد عملياً في خلافة يزيد ، بالتحاذ الحسين محور نشاطه في العراق وإعطاء حرية التحرك لابن الزبير في الحجاز . ولم يكن تكليف هذا الأخير بهذه المهمة ، إلا بداية تكريس لزعامته الحجازية التي أخذت في التبلور

(1) البلاذري ، انساب ، مخطوطة ورقة 190 (الرباط) . ابن الأَعمش ، الفتح ج 4 ص 244 .

(2) ابن الأَثير ، الكامل ج 3 ص 510 .

(3) ابن الأَعمش ، الفتح ج 4 ص 242 .

(4) المكان نفسه ابن الأَعمش ، الفتح ج 2 ص 242 .

وكانت شروط ابن الزبير التي وجهها الى معاوية ، كما وردت في معظم الروايات التاريخية ، تنطوي على طعن غير مباشر بالخلافة الاموية ، وعلى محاولة مبطنة لاعادة الاعتبار للحجاز الذي فقد تدريجياً دوره المركزي ، المرتبط أساساً بالنبي الذي « خرج من الدنيا ولم يستخلف ثم اختار الناس بعده أبا بكر فجعلوه خليفة » (1) . ثم ترك هذا الأخير « ولده ورهطه الادنين ممن كان للخلافة أهلاً وعهد الى رجل من قاصية قريش فجعلها في عمر بن الخطاب ، فجنبها أنت أيضاً ابنك واجعلها فيمن شئت من قريش ما خلا بني عبد شمس . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر بن الخطاب ، أنه جعلها شورى في ستة نفر من الصحابة يختارون رجلاً وترك ولده وأهل بيته » (2) .

لقد كان ابن الزبير يعبر عن موقف الحجاز الموحد من زعمائه الكبار ، الذين جمعت بينهم العداء المشتركة للامويين ، وناهضوا وراثية الخلافة لفرع واحد من قريش ، متجسداً ذلك في مقولته لمعاوية التي أشرنا اليها (3) . وإذا شئنا تحديداً أكثر ، فإن ابن الزبير طرح المشكلة في الاطار القرشي نفسه ، حيث تكتلت أربعة فروع أساسية (هاشم ، أمي ، عدي ، تيم) ضد فرع أساسي أيضاً (أمية) . وكان ذلك مؤشراً الى تفجير الصراع الداخلي مرة أخرى في الجبهة القرشية ، وتمزيق وحدتها التي التأمت بصورة قهرية في « عام الجماعة » . وكانت تلك الازمة شديدة الخطورة على دولة الامويين ، التي أخفقت رغم عصبيتها في توحيد هذه الجبهة بصورة متماسكة ، ومن ثم انقاذها من التطاحن الذي انعكس بنتائج السلبية عليها . فقد أثبت قريش كثرات وامتيازات ، بأنها الأكثر قدرة على الاستقطاب ، في السلطة كما في المعارضة ، حيث كان ذلك مصدر المجاهدة المستمرة ، وما ترتب عليها من سقوط الاسرة السفانية تحت ضغط التحرك القرشي المناوئ (بنو هاشم في العراق وبنو الزبير في الحجاز) ، يمثل ما ترتب عليها من انهيار الاسرة مروانية ومعها خلافة الامويين (بنو العباس في المشرق) .

وكان معاوية مستوعباً على الأرجح حجم الازمة الموقوتة ، ولكنه كان يفقد وسائل معالجتها بصورة جدية . فقد احتاج الانتصار السياسي الذي حققه بدفع الحسن للتنازل ، الى غطاء اسلامي من الجبهة القرشية نفسها ، التي اقتصر فيها الولاء الجليدي - عدا

(1) ابن الأثير ، الفتوح ج 4 ص 246

(2) المكنان نفسه . راجع أيضاً خليفة بن خياط ج 1 ص 256 .

(3) ابن الأثير ، الفتوح ج 4 ص 246 . تاريخ خليفة بن خياط : «فإن شئت أن تنظر أي رجس من قريش شئت بهس من بني

شمس لترضى به » ج 1 ص 256 .

الامويين - على حفته يسيرة كانت في معظمها غير « مهاجرة » . وفي ضوء هذا الواقع كان شديد الاهتمام بالموقف الحجازي ، ممثلاً بأبناء الصحابة المعتكفين في مكة ، بعد رفضهم « الملكية الاموية » واحتجاجهم على استئثار فرع دون غيره من قريش بالسلطة ، بما في ذلك من خرق لقاعدة « السقيفة » التي لم يعترض عليها « المهاجرون » من حيث المبدأ . وقد نستطيع هنا تفسير موقف ابن الزبير المتشدد ازاء اختيار خليفة « ليس من بني عبد شمس »⁽¹⁾ كمحاولة للدفاع عن عُرف « السقيفة » الذي يتعارض في المبدأ مع ولاية العهد .

عل أن الخليفة الاموي لم يعد باستطاعته تجاهل هذا التصلب الحجازي ، وكان عليه أن يتنزع بالقوة⁽²⁾ ، ما فشل في أخذه بالحوار . فأثر التصلي لهذا الموقف في اجتماع عام دعا اليه في المسجد ، دون اشعار معارضيه من ابناء الصحابة بما هو عازم على القيام به ، وذلك في نطاق استدراج آخر لهم قبل العودة الى الشام حاسماً هذه المسألة . ولقد نفذ خطته بطريقة لا تخلو من البراعة ، حسب الرواية التاريخية : « اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين من حرسك ، فان ذهب رجل يرد على كلمة في مقامي هذا بصدق أو كذب ليضرباه بسيفهما »⁽³⁾ ، كما أمر بذلك قائد حرسه الشامي . وفي مسجد مكة داهم المجتمعين ومعهم أبناء الصحابة الاربعة ، الذين وصفهم بـ « سادة المسلمين وخيارهم »⁽⁴⁾ ، دون أن يقتصر الامر على هذه الترضية المعنوية ، حيث تعدى ذلك الى التلويح بالتخاذم أعواناً للخليفة ومقربين منه : « لا نستبد بأمر دونهم ولا نقضي أمراً الا عن مشورتهم »⁽⁵⁾ . وتكتمل المداخلة برضوخهم للواقع ، بعد « تخريج » ذكي قام به معاوية ، بحيث سدد عليهم منافذ التحرك أو المناورة . وقد نجد أصداء ذلك التشنج الذي أحدثه معاوية في مكة والخوف الذي أشاعه فيها الحرس الشامي ، فيما ذكره (ابن الاعثم) : « فبقي الحسين بن علي وابن أبي بكر وابن عمرو وابن الزبير حيارى لا يدرون ما يقولون ، يخافون أن يقولوا : لم تبائع ، الموت الاحمر تجاه اعينهم في سيوف أهل الشام أو وقوع فتنة عظيمة . فسكتوا ولم يقولوا شيئاً ، ونزل معاوية عن المنبر وتفرق الناس وهم يظنون أن هؤلاء الاربعة قد بايعوا »⁽⁶⁾ .

(1) خليفة بن خياط ج 1 ص 256 .

(2) ابن صاكر ، تاريخ دمشق . مخطوط ورقة 353 .

(3) خليفة بن خياط ج 1 ص 256 . ابن الاثير ، الكامل ج 3 ص 510-511 .

(4) خليفة بن خياط ج 1 ص 256 . ابن الاعثم ، الفتوح ج 4 ص 248 .

(5) المكان نفسه .

(6) ابن الاعثم ، الفتوح ج 4 ص 249 .

لقد وضعت «بيعة» أبناء الصحابة ، حداً للتحدي الحجازي ضد ولاية العهد والاستئثار الأموي بالخلافة ، حيث بقي الموقف العام في هذا الاقليم معلقاً بتلك المجابهة ، التي كانت الاولى من نوعها في عهد معاوية . ولم يكن وارداً في تلك الظروف اتخاذ مبادرة منفردة ، سواء في (المدينة) أو في مكة ، بمزول عن هؤلاء الذين شكلوا بصورة ما ، « درع » الحجاز في مواجهة البطش الأموي . وهذا يفسر الحرج الذي سيطر على أبناء الصحابة والارتباك في تسويغ موقفهم أمام أهل الحجاز ، الذين « يتريصون بيعة هؤلاء النفر » حسب قول ابن الاثير^(١) . فقد كانوا آنذاك يربون عن كتب هذه المجابهة الساخنة ويتطلعون الى نتائجها بقلق ، وذلك قبل اتخاذ قرار ، هو في الحقيقة انعكاس عضوي لموقف أبناء الصحابة .

على أنه وُجد بعد ذلك من شكك بتفاصيل هذه الرواية أو بعضها ، كالمتشرك الألماني (فلهوزن) ، الذي وصفها بأنها محبوكة بصورة « ماهرة »^(٢) ، كان المهدف منها اظهار العدائية الأموية للحجاز . وقد سوَّغ رأيه بأن ذلك مجهول تماماً في الروايات القديمة^(٣) ، سواء لدى (الطبري) أو (المسعودي) ، حيث استقى معلوماته الاساسية . وربما كان للحبكة دور ما في هذه الرواية ، خاصة في الاستدراج المتقن الذي وضع أبناء الصحابة في شرك البيعة ، ولكن العنف الذي يستبعده هذا المؤرخ ، لم يكن ظاهرة جديدة في الممارسة الأموية التي كان رائدها معاوية ، حيث احتوى سجله حوادث عدة في هذا المجال^(٤) . على أن (الطبري) لم يغفل ملاحقة معاوية لزعماء الحجاز في احداث العام السادس والخمسين الهجري ، ومحاولات استمانتهم بصورة افرادية ، استخدم خلالها كل دوائه ومرونته . الا ان اجتماعه بعبد الرحمن بن أبي بكر ، الذي كان على الأرجح سبباً مباشراً لذهابه الى الحجاز ، بعد تصديه لمروان بشأن البيعة ، خرق هذا الاسلوب . وهو ما تجاهله (فلهوزن) - حيث توعد بالقتل اذا ما تجرأ على « معصيته »^(٥) . أما (المسعودي) فقد اكتفى من احداث البيعة ، بما جرى في العام التاسع والخمسين ، وهو الذي شهد احتفالاتها في الشام ، متوجة الجهود السابقة التي قام بها معاوية وأسرته الأموية ، لاسيا في الحجاز^(٦) . وجاءت روايته هنا أشد حبيكاً من تلك

(١) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥١١ .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ١٣٨ .

(٣) الكان نفسه .

(٤) حادثة حجر بن عدي (مرج عذراء) ، الاشر النخعي ومحمد بن أبي بكر (مصر) ، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

(حمص) . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٣ ، ١٥٢ - ١٥٥ . ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٥) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٧٠ .

(٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧ .

التي انتقدتها (فلهوزن) ، حين احتج مروان على ولاية يزيد و «ثامر الصبيان» ، وذلك بلهجة قاسية لا بد ان يستغربها الباحث. المتتبع للعلاقة بين معاوية وأسرته الاموية ، خاصة وأنه لجأ الى عزل مروان عن ولاية الحجاز في أعقاب هذه الحادثة كما يشير المؤرخ نفسه (١) .

وسواء تم «اعتراف» أبناء الصحابة بولاية العهد قسراً في مكة ، استناداً الى روايات لم تتعارض مع رواية (الطبري) ، أو أنها جاءت بواسطة الوالي الأموي في الحجاز ، فإن البيعة الرسمية جرت في دمشق في إطار احتفالات غاب عنها هذا الاقليم ، حيث كان موقفه واضحاً ومحددأ ، وهو نابع من تعارض مبدئي ومصليحي ازاء هذه المسألة . ولم يكن سكوت أبناء الصحابة ومهادنتهم للحكم الأموي ، الا نتيجة ذلك المناخ المشيع بالخوف الذي انتشر في الحجاز طوال عهد معاوية . وكان هذا الاخير ، الذي أقام دولته بالقوة (قوة العصبية والمال والسلاح) ، لا يتردد في متابعة هذا النهج في مسألة كانت هاجسه الرئيسي خلال سنواته الاخيرة (٢) . فقد كان منطلق هذا المفهوم السلطوي الذي يُشار اليه كأساس لمدرسة خاصة في الفكر السياسي (٣) ، تبلورت معالمها في عصر النهضة الأوروبية . وكان معاوية من رواد الذين « وُحدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومصطدم منازعها ، وفطنوا بثقوب بصائرهم الى استخدام كل ما فيه القوة والحياة للمكهم » كما وصفه أحد كتاب الثلاثينات من هذا القرن (٤) .

ومهما كانت طريقة الاتصال بالحجاز والحصول على تأييده لولاية العهد ، فإن ذلك يسجل أهمية خاصة ، تندرج في العلاقة بالخلافة الاموية التي وجدت نفسها معزولة في هذا الاقليم ، عزلتها في الشام . ولعل غيابة عن مهرجان البيعة (59 هـ) الذي شارك فيه الولاة ورؤساء القبائل « وقد الأمصار من العراق وغيرها » (٥) ، كان التحدي الأكثر جدية لمؤسس الدولة الاموية . فقد شكل آنذاك بزعمائه وسواده من الناس ، معضلة النظام الوراثي الذي كان يسعى معاوية الى تحقيقه ، بحيث كان فشله البارز في حياته السياسية الطويلة . ومات هذا الاخير ، منطقياً على همه الحجازي الذي تجلّى في وصيته ليزيد (٦) ، محذراً إياه من هذا الاقليم وطموح زعمائه . وقد روي عن عبد الله بن عمر قوله بعد بيعة ولاية العهد : « ان كان خيراً رضيينا به وان كان بلاءً صبرنا » (٧) . وإذا كانت هذه

(1) ابن الأثير ، الفتح ج 4 ص 257 .

(2) المدرسة المكيافيلية . راجع البان . ج ويدجيرى ، اللباب الكبرى في التاريخ ص 180 - 181

(3) المصدر نفسه ج 3 ص 29 .

(4) أحمد فريد الرضا ، عصر المأمون ج 1 ص 20 .

(5) المصمودي ، مروج الذهب ج 3 ص 27 .

(6) تاريخ الطبري ج 6 ص 180 .

(7) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 257 .

العبارة ، انعكاساً للاتجاه المعتدل بين زعماء الحجاز الذي مثله ابن عمر ، فهي تنطوي كذلك على معاناة واضحة ازاء القرار الاموي المرفوض . ولا بد أن اتجهاً أكثر تطرفاً في معاناته والتعبير عن رفضه ، بوسائل تجاوزت المראה والدعاء ، قد أخذ ينمو منذ ذلك الوقت في هذا الاقليم . فكان هبوب الرياح التي عصفت بخلافة يزيد ، سباقاً من الحجاز ، حيث فجّر قضية مطوية وأزمة راكدة ، ومن ثم طرح علاقة غير متوازنة بين قریش (العصبية) من جهة وبين قریش (المهاجرين) فضلاً عن (الانصار) من جهة ثانية ، وحيث الوقت بدا مناسباً لانفجار هذه القضايا « الموقوتة » .

الحجّاز ومحاولة استرداد السلطة

« قد علمت أن هذه الأموال - والمقصود هنا الأرض - كلها كانت لنا ، وإن معاوية أثر علينا في عطائنا ولم يعطنا قط درهماً فما فوقه ، حتى أمضنا الزمان وبالنسبة للمجاعة ، فافترها منا بجزء يسير من ثمنها » .

(الانصار) (الامامة والسياسة)

كانت الشام قد ألفت ظهور اثنين من زعمائها البارزين الى جانب معاوية في أيامه الأخيرة (١) ، وقد بدا واضحاً أن شأناً سيكون لهما في أحداث تلك المرحلة الغلقة من تاريخ الدولة الاموية : الاول هو الضحّاك بن قيس ، الذي كان اليد اليمنى للخليفة في كثير من المهمات الصعبة ، ومنها ولاية العهد ، انطلاقاً من نفوذه الشامي وعصبية « القرشية » (٢) . أما الثاني فهو مسلم بن عقبة الذي تصدر ، شأن الضحّاك ، جيش معاوية في صفين وقاد « رجالة » دمشق فيها (٣) . كما وقع عليها بعد موته ، عبء تنفيذ وصيته المحفوظة بالاختطاف الجسام ، كسياسي وزعيم قبلي كبير بالنسبة للضحّاك ، وعسكري محترف ، يتخذ من الحرب صنعة له دون أن يثنيه اعتبار ما عن تحقيق هدفه ، بالنسبة لمسلم . ولكن هذا التكامل بينهما على الصعيد الشامي ، لم يكن كذلك في الحجّاز ، حيث تدخلت معطيات متفاوتة ، فرضتها التطورات السريعة للصراع السياسي بين الاقليميين . فإذا جاز لنا استنباط الاحداث ، سنجد أن مهمة مسلم الاساسية ، هي

(1) ابن الأثير ، ج 4 ص 263 .

(2) روى عن الضحّاك قوله بعد موت معاوية : « لا يعملن نعش امير المؤمنين الا قرشي » . الامامة والسياسة ج 1 ص 186 .

(3) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ج 206 ، 213 .

القضاء على تمرد الحجاز في (المدينة) ومكة ، بينما تحوّل الضحاك لاحقاً الى مدافع عن الشأن الحجازي ضد الامويين في الشام . وليست هذه الظاهرة الا تعبيراً عن أزمة الحكم في هذه الدولة التي ظلّ للولاء فيها ، مفهوم لا يتعدى العلاقة القبلية أو الشخصية ، المرتته بدورها للمصالح المتقلبة بين حاكم وآخر .

وكانت السلطة الفعلية في يد الضحاك ، منذ أن تولاهما بالنيابة عن يزيد الذي كان غائباً عن دمشق يوم وفاة معاوية (١) ، ولذلك فإن حضوراً غير عادي سيكون له في سياسة الخليفة الجديد ، الذي وُصف بأنه ضعيف الشخصية قليل التجربة (٢) . وإذا كنا في غير صدد هذا التقييم ، فلا بدّ من الإشارة الى أن الحكم على يزيد ينبغي اخضاعه الى عدة اعتبارات ، وفي المقدمة منها ، صعوبة ملء الفراغ الكبير الذي نجم عن غياب شخصية موازنه كتلك التي امتاز بها معاوية ، بارعة في التعاطي مع الانتماءات القبلية المختلفة واستثمارها لخدمة أهدافه (٣) . على أن هذا الأخير من ناحية ثانية ، لم ينجح في معالجة المشاكل الجذرية في عهده ، لا سيما مشكلة الحكم التي اكتفى بتجميدها وتأخير انفجارها ، لتصبح الازمة الموقوتة والتحدي الخطير في عهد خليفته . بالإضافة الى ذلك ، فإن الاخطاء التي ارتكبتها يزيد ، ربما تحت تأثير المقربين منه ، في معالجة تلك المشكلة ، تدخّلت بدون ريب في تقويم المؤرخين لشخصيته ، على ذلك النحو الذي ظهرت فيه . ومن المؤكد أن دولة الامويين كانت تمر آنذاك في مرحلة انعطاف حتمي ، لم يكن من اليسر على الخليفة التصلي لها أو التحكم في مسارها ، مهما اجتمع لديه من المقدرة أو الكفاءة . وكان واضحاً أن الحجاز في محاولاته الرامية الى استعادة الخلافة ، هو العبء الأكثر خطورة ، بين الأعباء التي انتقلت الى يزيد ، والتحدّي المحوري والاخير لخلافته القصيرة .

والواقع أن (المدينة) منذ بيعتها الاكراهية لولاية العهد ، كانت تعيش حالة غليان ، وذلك بانتظار التغيير المرتقب في دمشق ، وارتفاع القبضة الشديدة عن الحجاز . ولم يكن الامويون فيها بعيدين عن أجوائها السياسية ، وهم يحاولون اخفاء موت الخليفة عن ابناء الصحابة المتربصين بهذا الخبر ، حيث كان الطرفان في سباق مع الوقت من أجل السيطرة على الوضع في هذا الاقليم . وكان مروان ، الذي عاد الى الظهور قوياً بعد غياب معاوية ، قد نصّح بذلك والي (المدينة) الوليد بن عتبة : « ان تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) احسان النعّ ، العصية القبلية في الشعر الامري ، ص ٢٩٥

البيعة والدخول في الطاعة ، فان فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وان أبوا قُدمتهم فضررت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ^(١) . ويدو أن التوقيت لم يكن مناسباً لانجاح هذه الخطة ، حيث تم استدعاء الحسين وابن الزبير ، في وقت غير مألوف مما اعتاد الوالي الاجتماع فيه الى الناس ، مما دفعهما الى الارتياح ، الذي تجلّى في قول الحسين « أرى طاعتهم قد هلك فبعث إلينا ليأخذ البيعة قبل أن يفشوا في الناس الخبر » ^(٢) . وكان استثناء عبد الله بن عمر من هذه الدعوة ، مؤشراً الى خروجه من دائرة التحدي الحجازي للامويين ، بعد تحولها الى المجابهة المسلحة ، بقيادة الحسين وابن الزبير . فقد تبين أن الاول الذي كان على اتصال سرّي بجماعته في العراق منذ أن تولى زعامة الشيعة بعد موت الحسن (49 هـ) ، عازم على التصدي لمروان وغير عابئ بتهديده . وقد تجلّت ملامح الثورة التي بدأت فعلياً في (المدينة) ، في عبارته الشهيرة أمام هذا الاخير « فإن مثلي لا يعطي بيعته سراً » ^(٣) . أما الثاني ، فقد رفض هذه الدعوة ، وعدم ما استطاع الى التضييل ، قبل أن يتاح له الخروج الى مكة تحت ستار الليل . فكانت نقطة انطلاق الى هدف محفوظ بالاحطار ، سار نحوه الحسين ، بينما اتخذها ابن الزبير مقراً لحركته الانفصالية ، حتى مقتله ^(٤) .

وكانت أولى ردّات الفعل لدى الخليفة الجديد ازاء هذه التطورات المقلقة ، أحداث تغيير في الادارة الحجازية ، حيث استبعد الوليد بن عتبة « تخوفاً » ^(٥) من ضعفه وحيء بعمر بن سعيد بن العاص ، أحد البارزين في الاسرة الاموية الحاكمة ^(٦) . وبدأ أن مهمته أكثر ما استهدفت ابن الزبير ، الذي دأب على تعزيز أوضاعه في هذا الاقليم ، ومحاولة استقطاب المعارضة الحجازية حوله . وكان اتخاذ مكة ، بما تمثله من موقع اسلامي وطابع قرشي مقراً لهذه الحركة ، من أكبر التحديات التي واجهت يزيد في ذلك الوقت . فقد كان خروجها من الاطار الأموي ، ضربة شديدة لعهد ، المحاط بالنقد والارتياح بكفاءة الخليفة . وكانت ثمة ثابتة لا تقبل النقاش آنذاك أو بعده ، هي أن انتقال مركز الحكم من الحجاز ، لم يؤثر في أهمية موقعه المعنوي ، المكمل للسلطة

(1) تاريخ الطبري ج ٥ ص 189 .

(2) المكان نفسه .

(3) المكان نفسه .

(4) تذييل خليفة بن خياط ج ١ ص 283 . تاريخ الطبري ج ٥ ص 190 . ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص 16 .

(5) خليفة بن خياط ج ١ ص 283 .

(6) وصفه الطبري ، بأنه « رجل عظيم الكبر مفوّه » ج 6 ص 192 . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 18 .

السياسية المتنقلة من عاصمة الى أخرى عبر العصور الاسلامية المتعاقبة ، خاصة تلك التي قامت على أساس خلافي أو « امبراطوري » في وقت واحد .

ولعل جذبة التحرك الاموي في التصدي لابن الزبير ، تجلّت في بروز أخيه (عمرو بن الزبير) كصاحب لنشطرة في الادارة الجديدة ، وكان متأثراً في موقفه السياسي بأخواله الامويين من بني العاص^(١) ، مما كان سبباً « للبخضاء »^(٢) بين الاخوين ، وأدى الى وقوع الاختيار عليه كرجل للمهمة الصعبة ، أو كما وصف نفسه « لا توجه اليه رجلاً انكأ له مني »^(٣) . وقد رافقت ذلك ملاحقة انصار ابن الزبير في (المدينة) ، الذين تعرضوا للاضطهاد والتعذيب على يد الوالي الجديد^(٤) . ويبدو أن مهاجمة مكة قد جرى التخطيط لها في وقت سابق بين يزيد وعمرو ، حيث كانت أحد فصول مهمته الصعبة في الحجاز ، مؤكداً ذلك رغم تحذيره ، في الاصرار على تنفيذ هذا القرار و « غزو » ابن الزبير « في جوف الكعبة »^(٥) .

وكان التجاء الحسين وابن الزبير الى مكة ، قد شجع آخرين من معارضي يزيد على القدوم اليها ، خاصة بعد انتشار موجة الاضطهاد في (المدينة) ، التي دفعت بعدد من سكانها، وجلبهم من قريش، الى الهرب. بيد أن أحداً من المؤرخين لا يشير الى موقف (الانصار) من هذه التطورات التي كانت تعنيهم بصورة ، ربما أكثر مباشرة من الآخرين . ومن المرجح أنهم كانوا آنذاك هدف حملة الوالي الاموي ، التي لم تكن سوى استمرار لسياسة الخلافة التقليدية ، منذ أن لجأت الى توحيد الادارة في الحجاز ، لإبقاء (الانصار) تحت مراقبتها المباشرة ، مما جعل موقعهم في غاية الضعف ، وحال دون تحركهم بصورة سريعة . ومن ناحية أخرى فإن غياب قياداتهم البارزة التي اعتادوا التكتل حولها ، من أمثال : قيس بن سعد وعثمان بن حنيف واسامة بن زيد ومسلمة بن مخلد^(٦) وغيرهم ، قد أسهم الى حد ما في تحجيم دورهم السياسي في أحداث مكة ، كما في أحداث العراق اللاحقة . فقد احتجوا عن ثورة

(١) البلاذري ، انساب ج ١ ص 316 .

(٢) تاريخ الطبري ج 6 ص 192 .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المكان نفسه .

(٥) المكان نفسه ، تاريخ الطبري ، ج 6 ص 192 .

(٦) خليفة بن خياط ج ١ ص 373 .

الحسين الا من قلة قليلة ، دونما تفسير لذلك سوى تصعيد الحصار الاموي عليهم وحؤوله دون قيام اتصال جدّي بين الطرفين . ومن بين سجلات الذين قتلوا في كربلاء ، وردت اسماء خمسة (١) فقط من (الانصار) ولكن من غير تفاصيل عن ظروف مشاركتهم في هذه الحادثة .

وكان يزيد قد حاول مفاوضة ابن الزبير ، استناداً الى رواية (الواقدي) ، التي أشار اليها (الطبري) في أحداث العام الثاني والستين ، أي بعد مقتل الحسين (٢) . وإذا صحت هذه المحاولة ، فلا بدّ أنها سبقت الحملة الاولى التي تولّى قيادتها عمرو بن الزبير ، حيث كانت فاتحة الصراع المسلح بين الطرفين . فقد ذكر (الواقدي) أن الخليفة انتدب شخصية حجازية من أعيانه (النعمان بن بشير) ، لاقناع ابن الزبير بالبيعة ، ولكنه لم ينجح في مهمته (٣) . كما ذكر محاولة أخرى قام بها وفد من كبار زعماء الشام (٤) للغرض نفسه ، حاملاً وعد الخليفة بأنه الاثير عنده ولا يُخالف في ولاية أو مال (٥) . ولكن ابن الزبير كان من ناحية أخرى ، يحمي في الخليفة يزيد خصماً سهلاً المنال ، ويمجد في نفسه قدرة على تأليب الناس ضده واستقطابها حوله ، حيث تقدّم له الظروف المؤاتية فرصة نادرة لتحرك والمضي في موقفه المتصلّب .

ومن الواضح أن معطيات عدة كان لها اسهامها في ارتفاع شأن ابن الزبير ، وأدت الى تدخل اسباب خارجة عنه في تحويل الامور لمصلحته . وفي طليعة ذلك ، فشل حملة أخيه الذي هُزم مع أصحابه السبعائة (٦) ، ليعطي هذه الحركة ثقة بقدرتها على الصمود والاستمرار . ومن ناحية ثانية فإن الجو العام في الحجاز ، كان متهيئاً ، بعد عهد طويل من الضغط السياسي والاقتصادي الذي ماوسه معاوية ، لمثل هذه المباداة ، خاصة اذا توفرت لصاحبها شروط الزعامة

(1) جنادة بن الحارث وابنه عمرو ، عبد الرحمن بن عبد ربه الخزرجي ، عمرو بن قرصة بن كعب ، نعيم بن حبلان . تاريخ الطبري ج 6 ص 234 ، 241 ، 248 . عمدة مهدي شمس الدين ، انصار الحسين ، الرجال والدلالات ، ص 57-104

(2) تاريخ الطبري ج 7 ص 7

(3) البلاذري ، انساب ج 1 ص 307 .

(4) الحصين بن نمير السكوني ، مسلم بن عقبة المرّي ، زفر بن الحارث الكلابي ، عبد الله بن عصفه الاشعري ، روح بن زنياع الجذامي ، الضحّاك بن قيس النهري ، وآخرين غيرهم . المصدر نفسه ج 3 ص 308 .

(5) المكان نفسه .

(6) تاريخ الطبري ج 6 ص 192 .

العربطة بتراث هذا الاقليم ومجده الغابر . بالاضافة الى ذلك ، كان « التنسيق »
 المرحلي الذي أشرنا اليه بين رجلَي المعارضة الكبيرين (الحسين وابن الزبير) ،
 قد جعل الحجاز مفتوحاً لهذا الأخير دون ثمة منافس آخر . ولكن هل كان ابن
 الزبير رجل تلك المرحلة المناسب ، رغم المعطيات العديدة المتوفرة له ؟ ..
 وبالتالي هل استطاع التعاطي بصورة متكافئة ، مع تطلعات هذا الاقليم في المطلب
 السياسي الذي طرح بعد وفاة معاوية ؟ هذا ما سنحاول مناقشته بعد الدخول في
 تفاصيل هذه الحركة ، التي لم تتبلور بصورة كافية الا بعد خروج الحسين من
 الحجاز .

أ- في المطلب السياسي :

لم يكن ما قام به الحسين بعد التجائه الى مكة ، مجرد تحريك ظرفي أو نتيجة
 حتمية لموقفه من يزيد ، الذي دفعه الى ذلك الاختيار « الوحيد » الشائع في تلك
 الرواية التاريخية . فاذا كان مطروحاً ارتباط هذه الحركة بموت معاوية ، فليس
 بالضرورة خضوعها بالقدر نفسه لمجيء يزيد الى الخلافة . ذلك أن مؤسس
 الدولة وإدارته الحازمة ، استطاعا تأخير هذه المجابهة فقط ، بينما الآخر هياً لها
 منأخاً أرحب ومسوّغاً أكثر قبولاً ، سواء على الصعيد الشخصي (الشك بكفاءة
 الخليفة) أو السياسي (رفض النظام الوراثي) ، الى آخر ذلك من الانتقادات
 المستجدة أم المترسبة لدى المعارضة . ومن منطلق التكامل الذي أشرنا اليه ، فإن
 العراق شكل بالنسبة للحسين أرضية الثورة الطبيعية والملائمة ، تدفعه الى ذلك
 مجموعة من الاعتبارات الأساسية :

- 1 - ان التجمع الفعلي لتيّار « الحزب » الهاشمي يتمحور في هذا الاقليم وتحديداً في
 الكوفة .
- 2 - ضعف القدرات البشرية والاقتصادية للحجاز ، نتيجة التفريغ المستمر
 لطاقاته ، وافتقار الاهمية التجارية التي تركزت في جزء أساسي منها في البصرة ، وذلك
 بعد استعادة الخط القديم - (طريق الهند - الفرات) ، حيويته مع الفتح⁽¹⁾ .
- 3 - تعاظم التيار المؤيد لبني هاشم منذ انتقال الزعامة في هذا البيت للحسين ، وهو
 الذي عُرِفَتْ عنه مواقفه المتصلبة من الحكم الأموي من خلال مؤشرات عدة (الاحتجاج
 على تنازل الحسن والتصدي لمعاوية بشأن ولاية العهد ، والمجابهة الصدامية مع والي
 المدينة) . وهي مواقف التفت مع الاتجاه الثوري في الكوفة في ذلك الوقت ، حيث كان

LAMMENS, La Mécque, P. 112 (1)

قاده على اتصال دائم بالحسين (سليمان بن صرد ، ورفاقه)^(١) .

وهكذا لم يأت خروج الحسين مع جماعته من (المدينة) الى مكة ، رضوخاً لامر واقع وانما استجابة لمعطيات أخذت حداً من التضيق في مرحلة من النضال السري ، قبل التحول الى الاطار العلني والمسلح . أما الثورة ، فخلافاً لما يُعتقد ، لم يحملها الحسين الى العراق وانما كانت بانتظاره وارتبط انفجارها بوصوله . ولا نستطيع خارج هذا التصور ، تفسير موقف (سليمان بن صرد) الذي وصف بأنه « سيد أهل العراق ورأسهم »^(٢) ، واتصاله الدائبة مع الحجاز ، حيث مثل وأصحابه « الاتجاه الثوري في الكوفة المرتبط بالحسين . فقد برز اسم الزعيم الكوفي على رأس التحركات التي شهدتها الكوفة بعيد موت معاوية واجتماع « الشيعة في منزله »^(٣) ، واتخاذ قرار التحرك ومعه الدعوة لفائد الثورة من الحجاز . وما يقال عن تحريض ابن الزبير على « ابتعاد » الحسين الى العراق^(٤) ، للتخلص من مدفس رئيسي وحيد ، لا يضيف شيئاً الى معطيات الثورة التي اختمرت آنذاك في الكوفة وارتعن توقيتها بوصول الحسين .

ولا نستطيع كذلك تجاهل علاقة هذا التوقيت مع وجود حجازي على رأس الادارة الكوفية ، وهو النعمان بن بشير الانصاري ، واذا ما كانت هنالك صلة ما، ربما غير مباشرة بالثورة من هذا المنظور فقط. ولعلنا نجد أصداء هذا التصور في حسابات الكوفيين ، الذين وجدوا في النعمان شخصية غير صدامية بالمقارنة مع اسلافه الثقيفيين. فقد تجل ذلك الشعور في احدى رسائلهم للحسين ولو قد بلغنا انك اقبلت الينا ، اخرجناه حتى نلحقه بالشام »^(٥) ، وفي اتهام أحد موالي الامويين للنعمان بأنه « مستضعف قد فسد البلاد »^(٦) . وكان هذا الموقف « المشبوه » وراء عزل الخلافة لهذا الاخير، الذي افتقدت فيه الثورة شخصية، ربما غير حليفة ولكنها أقل عداوة بالتأكيد من خليفته الثقيفي .

(١) الامامة والياسة ج ١ ص ١٥١ ، تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩٧ ، الخوارزمي ، مقتل الحسين ص ٢١٥ .

ابراهيم بيضون ، الثوابين ص ٦٦ وما بعدها .

(٢) الامامة والياسة ج ١ ص ١٥١ .

(٣) المسبب بن نجبة ورفاعة بن شداد (من قادة حركة الثوابين اللاحقة) بحبيب بن مظاهر الاسدي الذي قتل مع الحسين في كربلاء. تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩٧ ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٢٠ . . .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ٨ ص ٢٠ .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٨٣ .

(٦) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٧ .

(٧) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٩٤ .

ولمنا بحاجة الى عرض تطورات الثورة التي واجهتها الخلافة بانقلاب
معاكس ، كانت اداته المنفذ عبيد الله بن زياد ، أحد محترفي السياسة في
الدولة الاموية وأقوى رجالات ثقيف في ذلك الوقت . ويبدو أنه حرص آنذاك
على القيام بخدعة غير عادية للخليفة الجديد الذي لم يكن ودياً نحوه ، وكان قد
« همّ بعزله عن البصرة » كما يشير الطبري (١) ، بحيث صادفت هذه المهمة هوياً
في نفسه واصراً على القيام بكل « جدارة » بها . ولعلنا نتساءل من ناحية أخرى عن
دور مسلم بن عقيل فيما آلت اليه ثورة الكوفة من الاخفاق ، حيث لم يحبط
بصورة كافية للخطة الاموية المفترضة ، وأضاع بالتالي فرصة نادرة ، وهي
السيطرة العسكرية على المدينة التي كانت تحت قبضته بعد أن تكتلت غالبيتها
المطلقة الى جانبه ، كونه صاحب القرار بالنيابة عن الحسين فيها (دخول ابن
زياد والقبض على زمام الوضع دون مقاومة جديّة تذكر) (٢) . وفي ضوء هذا
الانهيار للموقف الكوفي الذي تتوّج بمقتل مسلم ورفيقه (هاني بن عروة) ، أول
ضحيّتين في الثورة ، ضاقت دائرة الاختيار أمام الحسين ، الذي كان آنذاك في
الطريق الى العراق ومعه تقديره الموضوعي للموقف السياسي الذي استند على
تقرير مسلم . واذا تبدل المعطيات وكذلك التقديرات ، يصبح الخيار الوحيد
بمجرد مغامرة ، لا تملك من النجاح ما يتعلّى الرهان على دخول الكوفة والاتصال
بانصاره ، وهو أمر احتاط له الوالي الاموي الذي سدّ أمامه كل سبيل الا
« كربلاء » ، المكان الذي شهد سقوط الحسين وانصاره ، وهم قلة ، رافقه
بعضها من الحجاز والآخر وافته من العراق (٣) .

وهكذا فشلت أول محاولة جديّة ، ضد الامتثار الاموي بالخلافة وتحويلها
الى ملكية وراثيّة . على أن أهميتها من جانب آخر ، كانت في تنبيه الاكثرية
المكرهة على الصمت ، الى دورها في حركة النضال السياسي والعسكري ، التي
اعطاها الحسين بمقتله مضمونها الثوري الطليعي في العصر الاموي . أما في
جانبها الحجازي ، فكانت إحدى المحاولات الرائدة التي تجسّد فيها المطلب
السياسي للمحوري لهذا الاقليم ، الرامي الى استعادة الخلافة من الشام ، وذلك
عبر قاسم مشترك بين الحجاز وثورة الكوفة وهو الحسين . بالإضافة الى ذلك فان

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩٤ .

(٢) تاريخ الطبري ، للمصدر نفسه ج ٦ ص ٢٠٤ ، الثّوابون ، ص ٧٠-٧٥ .

(٣) أبو مخنف ، مقتل الحسين ورسالة أخذ الثّر وانتصار المختار على المظفلة الفجاري ، ص ١٢-٣١ ،
الخوارزمي ، مقتل الحسين ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤ .

فشل هذه الحركة ، كان في الوقت نفسه فشلاً للعراق في استرجاع دوره الذي طمح اليه ، مما أدى الى اتخاذ الحجاز محور المعارضة المركزي خلال السنوات التالية ، كنتيجة مباشرة لذلك .

أما المحاولة الكبرى في التحرك الحجازي الرامي الى استعادة الخلافة ، فكانت حركة عبد الله بن الزبير التي احتلت حجماً بارزاً في أحداث تلك الفترة ودفعت بالحكم الأموي الى أخطر منعطفاته التاريخية ، التي كادت تؤدي به الى السقوط . ولعل هذه الحركة تدين لتطورات المرحلة المتزامنة معها ، بما يفوق العامل الذاتي فيها ، على نحو بدت فيه عاجزة عن مواكبة انجازات ضخمة غير مرتبطة بها في الغالب ، بذلك القدر المتواضع من الطرح التغييري والإصلاحي . فمن مقتل الحسين ، أقوى زعماء المعارضة ، الذي أثار نفقة الرأي العام في العراق والحجاز ضد الخليفة الأموي ، الى ثورة (المدينة) واستباحة رموزها الإسلامية ، الى انتفاضة الخوارج في اليمامة وجوار البصرة . . وأخيراً الى موت الخليفة المفاجيء ، كانت الظروف دائمة التحالف مع ابن الزبير ، مقدمة له الفرصة وراء الأخرى ، للقيام بدور تاريخي في الستينات من القرن الاول .⁽¹⁾ ولكن عصبية الحجازية في المقابل ، حالت دون الافادة من هذه المكاسب ، للخروج بزعامته من الاطار المحلي الذي بقي أسيراً له حتى نهاية حركته . فقد تجاهل اختلاف المعطيات بين عهد وآخر ، وانتقال الثقل السياسي والبشري فضلاً عن الاقتصادي الى الولايات ، بعد أن فقد الحجاز محوريته في خلافة عثمان . ولعل احد مؤشرات هذه العصبية ، موقفه العدائي غير المصوغ من العراق ، الذي كان باستطاعته تقديم البديل الافضل في قيادة حركة المعارضة ، من خلال شروط أكثر ملائمة واحتمالات أوفر للنجاح . ففي خطبة البيعة بعد اعلان خلافته في مكة ، أثار عواطف الحقد على الأمويين وخليفتهم « غير الشرعي » ، دون أن ينسى أهل الكوفة خاصة ، الذين وصفهم بالغدر وتحملهم تبعة المصير الذي انتهى اليه الحسين⁽²⁾ . وقد أدى ذلك الموقف الى حذر الكوفيين من ابن الزبير ، وعدم اطمئنانهم اليه ، بحيث فشل الاخير في اقامة تحالف مرحلي معهم انطلاقاً من أحد الشروط الأساسية لذلك ، وهو العداء المشترك للخلافة الأموية .

وكان البيت الأموي من ناحية أخرى قد فقد تماسكه بعد غياب معاوية ، فظهرت

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 3 . W. MUIR, The Caliphate, P. 320 .

(2) ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 98 .

طلّاح انقساماته في الحجاز التي بلغت ذروتها لاحقاً في دمشق . ذلك أن يزيداً لم يتغنّ الموازنة ، شأن أبيه بين فرعي هذا البيت (سفيان والعاص) ، مما أدى الى إثارة الفرع الآخر ، الذي كان أكثر قوة على ما يبدو في الحجاز . وقد قيل ان سعيد بن العاص ، كان من أكبر ملوك الارض في (المدينة) ، حيث اشتهر فيها قصره ونخيله « المبكر »^(١) ، اللذان انتقلا الى ملكية معاوية فيها بعد حسب ما أورده السهوي^(٢) . وكان يزيد قد عزل عمرو بن سعيد (نهاية 6١ هـ) ، وهو من أبرز ابنائه وأكثرهم طموحاً الى السلطة ، مُدانا بتهمة « التقصير »^(٣) في قضية ابن الزبير . الا أن السبب قد يتعدى هذه التهمة الى ما هو أبعد منها ، حيث تعاطف نفوذ ابن العاص في (المدينة) وأحاط نفسه بحاشية « ملكية » ، مما أثار مخاوف السفيانيين من طموحه . وجاءت إعادة الوليد بن عتبة الى هذا المنصب ، وقيامه بحملات اضطهاد ضد جماعة سلفة - وأخذ غلماناً كثيراً لعمرو وموالي له فحبسهم^(٤) - صدمة لبني العاص وتحدياً لنفوذهم في (المدينة) ، مما دفع الوالي السابق الى تحريض جماعته على التمرد وإخراجهم من السجن ومن ثم مرافقتهم الى دمشق ، وذلك لإشعار الخليفة بقوته ونفوذه في الحجاز^(٥) . وقد اثمرت هذه المداومة في التودد الذي أظهره يزيد نحو ابن العاص والمساومة على حل وسط بين الطرفين ، ادى الى عزل الوليد وتعيين سفياني آخر (عثمان بن محمد بن أبي سفيان)^(٦) .

ولا ندري إن كانت هنالك بوادر اتفاق لم يتم ، على تقسيم النفوذ في الحجاز بين عمرو بن سعيد وعبد الله بن الزبير ، اذا ما اعتبرنا عدم وقوع المجابهة بينهما مؤشراً لهذا الافتراض ، حيث جاء الاول وفقاً لمهمة محددة ، لم يستطع سلفه « الضعيف » القيام بها^(٧) . وفي الوقت نفسه نجد عمرو بن سعيد ، في معرض الدفاع عن نفسه أمام يزيد ، لا يتردد في تعظيم نُدّه ابن الزبير بطريقة غير مباشرة ، ملمحاً الى قوته الحجازية حيث « ان جلّ أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا اليه وهو وهوا وأعطوه الرضا . . ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحلوني ويتحرّز مني ، وكنت أرفق به وإداريه لاستمكر منه »^(٨) وفي هذا المنحى أشار ابن الأثير الى موقف ابن سعيد ، بأنه « أشد شيء

(1) العلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز ص 995 .

(2) وفاة الوفا ، ج 2 ص 202 .

(3) تاريخ الطبري ج 7 ص 3 .

(4) المصدر نفسه ج 7 ص 2 .

(5) المصدر نفسه ج 7 ص 3 .

(6) للكان نفسه .

(7) خليفة بن خياط ج 1 ص 283 .

(8) تاريخ الطبري ج 7 ص 3 .

على ابن الزبير ومع ذلك يداري ويرفق «⁽¹⁾ . وفي المقابل فقد عبر الأخير عن سخطه على عودة الوليد ، فوصفه بأنه « رجل أخرج لا يتجه لامرشد ولا يرعوي لحظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكتف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها »⁽²⁾ . ولكن خليفة الوليد (عثمان بن محمد) لم يكن ذلك الرجل المطلوب ، خاصة وأن تعيينه خضع لاعتبارين أساسيين على الأرجح : ترضية أسرته السفليانية من جهة ، وعدم اغضاب بني العاص حيث كان زعيمهم القوي عمرو بن سعيد شديد الحقد على الوليد من جهة ثانية . فقد أسهمت أحداث سنة وقلة تجربته ، كما في رواية أبي غنم ، في تخرج أوضاع الحكم الأموي في (المدينة) التي سارت على خطى مكة آنذاك ، معيدة النظر في موقفها من خلافة يزيد .

ولعل هذا الموقف جدير بالاهتمام والمناقشة ، بما يتعدى الاطار التقليدي السائد عن ثورة (المدينة) ، التي كانت بدون ريب أحد أهم منعطفات التاريخ الحجازي البارزة في ذلك الوقت . فهذه الحركة تندرج حكماً في المطلب السياسي العام للحجاز ونضاله في العودة الى السلطة ، كما تندرج في المطلب الاجتماعي - الاقتصادي «⁽³⁾ كنتيجة حتمية مرتبطة بالسابق ، حيث كانت المدينة هدف سياسة خاصة من جانب الأمويين ، ربما بلغت حد « التجويع » المقتل أو غير المباشر ، حيث نستطيع تبيان ذلك في أكثر من مؤشر في هذا المجال «⁽⁴⁾ . ومن هذا المنظور فإن الربط بين حركتي (المدينة) ومكة (ابن الزبير) ، ليس مطروحاً الا في نطاق الموقف المشترك من الخلافة ، وفي محاولة انتهاز الفرص واستغلال الارتباك الأموي الناتج عن مقتل الحسين . وعدا ذلك فإن لكل منها خلفيتها الخاصة بها ومعاناتها المختلفة عن الأخرى . فحركة ابن الزبير رغم اندراجها في المطلب العام الرامي الى إعادة الاعتبار للحجاز ، الا أنها كانت خالية المضمون الاصلاحى ، الا ما كان مطروحاً في المقارنة التمثيلية أو « التفضيلية » بين يزيد وابن الزبير . فاذا كان الاول قد استمد شرعية سلطته من البيت الأموي ، أقوى العصبيات في قريش ، فالثاني استمدّها من عصبية (المهاجرين) في هذه الأخيرة ومن ورائته لحق المطالبة بالخلافة ، الذي قُتل في سبيله ابوه الزبير في معركة الجمل .

ب - في المطلب الاجتماعي :

وفي ضوء هذا الموقف ، التقت الحركتان في المطلب السياسي العام ، بينما اختلفتا في

(1) الكامل ج 4 ص 99 .

(2) تاريخ الطبري ج 7 ص 3 .

(3) V. VAGLIERI, E. I., Tome III, P. 233 .

(4) الامامة والسياسة ج 1 ص 188 .

المطلب الاجتماعي - الاقتصادي الذي كان متفاوتاً بينهما الى حد كبير . فالمدينة منذ انتقال الحكم الى البيت الاموي ، كانت دائماً هدف اجراءات قمعية شديدة ، كان من مظاهرها ، الإبعاد عن مراكز السلطة والحرمان من العطاء (١) . ولدينا بعض الروايات التي تشير الى امتناع (الانصار) عن تأدية الزكاة ، نتيجة سوء أوضاعهم الاقتصادية وتراكم الديون عليهم ، مما كان يدفع بعضهم الى بيع ممتلكاته في (المدينة) (٢) .

ولعل هذه المشكلة لم تكن حديثة العهد آنذاك ، ولما تعود جنودها الى أيام النبي ، عندما أخذ (المهاجرون) في استملاك الاراضي الزراعية في (المدينة) وأنشاء البيوت فيها . وكانت لدى بعضهم ظروف اقتصادية أفضل بكثير من تلك التي كانت لدى (الانصار) ، الذين اعتمدوا في معيشتهم أساساً على الزراعة ، التي لحق بها كثير من الضرر على ما يبدو نتيجة « الحرب الاهلية » بين الاموس والخزرج ، حيث أسهمت بدورها في تهيئة الأجواء لـ « الهجرة » ، وما ترتب عليها من توحيد عرب (المدينة) أو ما عرف بالانصار بعد ذلك . ولأن التجارة ، حرفة المهاجرين الرئيسية ، أكثر مجالات التكسب آنذاك مردوداً للمال ، فقد لجأ هؤلاء ، اعتماداً على قدرتهم الشرائية المتفوقة ، الى التملك في (المدينة) ، حيث أصبحت مركز استقرارهم وموطنهم الجديد الذي استعاضوا به عن مكة ، بعد أن تراجعت أهميتها الاقتصادية وفقدت امتيازها كحلقة متوسطة بين مصادر التجارة وأسواقها ، نتيجة المعطيات المستجدة مع قيام دولة الاسلام في (المدينة) وانتقال حلقة المواصلات المركزية اليها . ولم يقتصر الاستملاك أو « الاستقطاع » على ذوى اليسر والغنى من (المهاجرين) في ذلك الوقت ، اذ ان النبي بدافع التشجيع على الاستقرار في (المدينة) ، كان يقوم أحياناً بتوزيع الاراضي الزراعية على أصحابه من (المهاجرين) ، لا سيما التي كانت تعود ملكيتها لليهود ، على نحو ما فعله مع الزبير الذي روي أنه نشأ في البثم والمعانة (٣) ، فاقطعه النبي « أرضاً فيها نخل كانت من أموال بني النضير » (٤) .

ومن ناحية أخرى ، فإن مياسة النبي الاقتصادية وما رافقها من تشجيع على الاستقرار واستقطاع للارض ، كانت أحد وجوه الصراع المسلح بين (المدينة) ومكة . فقد كان من أهدافه بعيد « الهجرة » ، تكوين محور اقتصادي ، لا يتمتع بالاكتمال الذاتي فقط ، بل يكون في مقدوره الاستقلال عن المحور المركزي آنذاك في مكة ، فضلاً عن منافسته وحتى التضيق عليه . ولذلك اتجه مبكراً في سبيل تعزيز الوضع الاقتصادي

(١) البلاخري ، انساب ج ١ ص ١١٦ ، ١٥٩ .

(٢) البرز ، الكامل في اللغة والاصحاح ج ٢ ص ١٥٤ ، العلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز ص ١٠٠٤ - ١٠٠٥ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ج ٣ ص ١٠١ .

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٤ .

لدولته ، الى السيطرة على المناطق الزراعية في المدينة وجوارها^(١) ، وتشديد قبضته على القبائل المقيمة فيها ، خاصة تلك التي كانت تتعامل مع مكة في نطاق « الايلاف » ، بحيث يصبح من السهولة عليه ، فرض حصار اقتصادي أو « تجويعي » - حسب تعبير DONNER^(٢) - كانت له نتائجه المثمرة فيما بعد .

وكان الزبير^(٣) بالإضافة الى آخرين من الصحابة ، وفي طلبهم علي^(٤) وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، قد عُرف عنهم التملك في المدينة وجوارها ، سواء في عهد النبي أم في العهد المبكر من الخلافة الراشدية^(٥) . وقد نُسب الى طلحة بأنه « أول من زرع القمح بقناة »^(٦) وهي مزرعة اقطعت له كان « يدخل قوت أهله بالمدينة سنتهم منها »^(٧) . على أن هذه المسألة لم تتعارض آنذاك مع مصالح (الانصار) أو تتر حساسيتهم ازاء « اخوانهم » المهاجرين ، خاصة وان الاراضي المقطعة في (المدينة) أو المنطقة المحيطة بها ، لم تأت على حساب (الانصار) ، بل كانت عائدة في الغالب لليهود ، الذين تمّ جلاؤهم عن المدينة في عهد النبي .

بيد أن ملكية الاراضي الزراعية في (المدينة) ، تأخذ بُعداً آخر ، مع محولها الى احدى المشكلات البارزة في مطلع خلافة الامويين ، وما صاحبها من تردّي العلاقة بينها وبين (الانصار) . واذا كان الجانب السياسي هو المتداول في تلك الازمة ومسبباتها ، فان الجانب الاقتصادي - المطروح بصورة غير مباشرة في النصوص القليلة - احتلّ بدون شك دوراً كبيراً في تفجير الازمة وانهار العلاقة بين الطرفين . ويعود اهتمام الامويين باستملاك أراضي (المدينة) الى عهد عثمان ، الذي نُسب اليه مقايضته بعض الاقطاعات أو شرائها ، حيث ذكر (الطبري) أن « طلحة بن عبيد الله باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة ألف »^(٨) . واذا كنا لا نعرف موقع هذه الارض ، ان كانت في (المدينة) أو خارجها ، فتمة مؤشر في « انساب » البلاذري ، لا يدع مجالاً للشك بأن هذا الخليفة استملك أراضي ، الملح اليها في معرض الدفاع عن نفسه عشية الحصار ، بأن النبي « قدم المدينة

DONNER, Mecca's food supplies and the Muhammad's Boycott: P. 265. (1)

OP. CIT, P. 261- 265. (2)

(3) ذكر أن أبا بكر قطعه الجرف وأن عمر أقطعه العقيق . ابو يوسف ، الخراج ص 61 . ابن سعد ، الطبقات ج 3 ص 104 .

(4) روى السريطي بأن عثمان قتل وجعل غائب في أرض له . تاريخ الخلفاء ص 169 .

(5) راجع صالح العلي ، ملكيات الأراضي في الحجاز 972 - 1005 .

(6) ابن سعد ، الطبقات ج 3 ص 222 .

(7) المكان نفسه .

(8) تاريخ الطبري ج 5 ص 139 .

وليس بها ماء مستعذب غير بشر رومة فاشترتها من صلب مالي^(١) .

ويظهر أن بدايات افتقاد (الانصار) املاكهم الزراعية يعود الى ذلك العهد ، حيث يفترض ارتباط هذه المسألة بتدهور أحوالهم الاقتصادية واضطرارهم تحت ضغط هذه الظروف الى بيع املاكهم أو جانب كبير منها للامويين ، أصحاب السلطة والثراء معاً . ومن المفترض أن يكون لهذه الأوضاع السيئة التي عاناها (الانصار) في تلك الحقبة ، تأثير على موقفهم غير الردي من الخليفة (عثمان) وشعور اللامبالاة الذي أظهره ازاء حصاره ومن ثم مقتله بينهم ، دون اتخاذ مبادرة دفاعية عنه^(٢) . ولعل (المبرد) يقدم لنا صورة أكثر وضوحاً عن معاناة (الانصار) في ذلك الحين ، في محاولة علي التخفيف عنهم ، حيث تعاطفوا معه وأحسوا بالالفة في عهده بعد عزلهم في العهد السابق . فقد بادر عي حسب هذه الرواية بتقديم صدقة ضيعتين له (عين أبي نيزر والبيغنة) « على فقراء أهل المدينة » . . . عل أن يبقى استثمارهم لها حتى « يحتاج اليها الحسن أو الحسين فهما طلق لهما وليس لاحد غيرهما »^(٣) . ولقد حاول معاوية في وقت لاحق ، دفع الحسين الذي كان يعاني من ضائقة مالية ، الى بيع ضيعته (عين أبي نيزر) ، ففرض عليه مائتي ألف دينار ، ولكن الحسين رفض بيعها ، استناداً الى نفس الرواية^(٤) .

والواقع أن الامويين ، رغم انقطاعهم على التجارة ، قد عُرف عنهم الاهتمام المبكر بالارض ، حيث نجح ذلك في الطائف (قبل الاسلام) ، التي كان لبني أمية واد الى الجنوب منها يقال له « شريق » حسب ما أورده الحمذاني^(٥) . ثم تحول هذا الاهتمام بعد ذلك الى (المدينة) ، فاستملكوا فيها اقطاعات واسعة من الارض بأثمان بخسة دفعوها للانصار . ولدينا عدة مؤشرات في هذا السبيل ، لعل أكثرها وضوحاً ما ورد في « الامامة والسياسة » على لسان « نفر من قريش والانصار » أمام الوالي السفيفاني (عثمان بن محمد) : « قد علمت أن هذه الاموال - والمقصود هنا الارض - كلها كانت لنا ، وأن معاوية أثر علينا في عطائنا ولم يعطنا قط درهماً فيما فوقه حتى امضنا الزمان ونالتنا المجاعة فاشترانا منا بجزء من مئة من ثمنها »^(٦) . وهكذا فإن أوضاع الامويين - الذين حملوا معهم أموالاً جنوبها من التجارة ومن الاستئثار بالسلطة في عهد عثمان ، مقابل فقر أهل المدينة وحرمانهم ، لا سباً (الانصار) ، قد أسهمت في خلق الظروف المواتية أمام الاسرة

(1) البلاذري ، انساب ج ١ ص 487 .

(2) VESELY, Al-Ansar, P. 38, (2)

(3) المبرد ، الكامل في اللغة والاصب ج ٢ ص 154 .

(4) للكائن نفس .

(5) حقة جزيرة العرب ص 120-121 .

(6) الامامة والسياسة ج 1 ص 188 .

الحاكمة لاستثمار أموالها في مجال الزراعة ، ومن ثم وضع هؤلاء في دائرة التبعية السياسية والاقتصادية للدولة ومحاولة امتصاص معارضتهم لها .

وليس من الصعب تقدير الحجم الذي احتلته الممتلكات الاموية في (المدينة) ، حيث كان لمعاوية خاصة اهتمامه بالأرض وتحسين غلاتها (١) . ولدينا من النصوص ما يشير الى أهمية هذا الجانب لدى الخليفة الأموي الأول ، الذي كان « يجد بالمدينة وأراضها مائة ألف وستمائة وخمسين ألف وستمائة ويحصد مائة ألف وستمائة من حنطة » (٢) . هذا فضلاً عن « صوافيه » (٣) وهي - « يومئذ صواف كثيرة » في المدينة ، حسب قول الواقدي في « كتاب الحرة » (٤) . ومن هذا المنطلق فإن علاقة ما ، قربت أو بعدت ، بين سيطرة الأمويين على أراضي (المدينة) والثورة عليهم ، في وقت شعر أهلها بأن الوقت ملائم لاستعادة ممتلكاتهم التي افتقدوها في الظروف الصعبة . وفي ضوء هذا الطرح فإن المسألة لا تبقى محصورة في إظهارها السياسي أو المبني (امتناع زعماء المدينة عن مبايعة خليفة اتهموه بالانحراف) ، كاحدى حلقات الثورة العامة التي استهدفت الاطاحة بالحكم الأموي ، بل كانت متصلة بالجلور بالواقع الاقتصادي والاجتماعي للمحجاز عامة و (المدينة) على وجه الخصوص . ولعل شراسة الموقف الذي اتخذته هذه الأخيرة من يزيد وجماعته ، امتلتها الاعتبارات المصلحية التي عززت النعمة على حكم الأمويين ، بحيث تجل ذلك في المقاومة المستميتة ، ان لم نقل الانتحارية ، التي أظهرها ثوار (المدينة) في الحرة .

وتكاد هذه المسألة تصبح واضحة لا تحتاج الى تأكيد عند بعض المؤرخين ، وفي طبيعتهم (يعقوبي) الذي ربط بالمجاز بين الثورة وبين استفزاز « عامل صوافي معاوية » (٥) لاهل (المدينة) ، حيث تقموا عليه منذ ذلك الوقت . فقد حدث أن شكا الأخير - وكان يعرف بـ (ابن مينا) الى والي يزيد (عثمان بن محمد بن أبي سفيان) : « فأعلمه أنه أراد حمل ما كان يحمله كل سنة من تلك الصوافي من الحنطة والتمر ، وإن أهل المدينة منعه من ذلك ، فأرسل عثمان الى جماعة منهم ، فكلهم بكلام غليظ ، فوثبوا به وبين كان معه بالمدينة من بني أمية وأخرجوهم من المدينة واتبعوهم يرمونهم بالحجارة » (٦) . وفي

(1) يروي الكتاب أنه « كان بالمدينة وما حولها حيون كثيرة تجددت بعد النبي . وكان مداوية اهتمام بهذا الباب ولهذا كثرت في أيامه الغلال بأراضي المدينة » التراتيب الإدارية ج 2 ص 50

(2) للكان نفسه

(3) عرف السهوي الصوافي بأنها جمع صافية ومعناها النخلة الكثيرة الحمل ، . وفيه الوفا ج 1 ص 127 .

(4) للكان نفسه ، صالح العلي ، ملكيات ص 992 .

(5) تاريخ يعقوبي ج 2 ص 250 .

(6) للكان نفسه .

« الامامة والسياسة » نصّ مشابه عن قدوم « ابن (ميثاء) - كما ورد هنا - بسراج » له من الحرّة يريد الاموال التي كانت لمعاوية ، فمُنِعَ منها وأزاحه أهل المدينة عنها ، وكانت أموالاً اكتسبها معاوية ونخيلاً يجذ منها مائة ألف وسق وستين ألفاً » . أما السهمودي الذي اقتبس نصه من الواقدي (كتاب الحرّة) ، فكان أكثرهم تفصيلاً ، وكذلك وضوحاً في الربط بين دافع الثورة ومسألة الأرض « المفقودة » . فقد أورد « أن أول ما أهاج أهل الحرّة أن ابن (ميثاء) كان عاملاً على صوافي المدينة » . ثم أضاف أن هذا الاخير « أقبل بشرح » له من الحرّة يريد الاموال التي كانت لمعاوية ، فلم يزل يسوقه ولا يصله عنه أحد حتى انتهى الى بلحارث بن الخزرج ، فنقب النقيب فيهم ، فقالوا ليس ذلك لك ، هذا حدث وصور علينا ، فاعلم الامير عثمان بن محمد بذلك ، فأرسل الى ثلاثة من بلحارث فلبأبوه الى أن يَمُرَّ به ، فاعلم ابن ميثاء فقدا بأصحابه فذَبَّوهم » .

عل أن هذه المسألة لم تكن أقل حيوية لدى الامويين ، الذين تصدّوا لهذا المطلب بالسخط والوعيد ، مما يكشف تمسك هؤلاء باستثماراتهم الزراعية في (المدينة) ، حيث شكلت على الأرجح جانباً مهماً من مواردهم المعيشية ، رفضوا التساهل فيه . ويبدو أن « عامل الصوافي » حاول استقطاع اراض جديدة في عهد يزيد ، مستهدفاً جماعة بلحارث الخزرجي ، عندما قاد مجموعة من أتباعه المزارعين « الى أملاكهم » ، استناداً الى النص السابق ، مما أثار احتجاج هذا الاخير وتصديه لهم بشدة : « ليس ذلك لك ، هذا حدث وضرر علينا » . ولعل هذه المجابهة تشكل أول فصول الثورة على الامويين التي اكتملت خيوطها في معركة الحرّة الدامية ، اذ ليس من السهولة الفصل هنا بين موقف الوالي (عثمان) ازاء هذه الحادثة ، وبين موقف الخليفة (يزيد) ، بعد أن تناهى اليه طرد الامويين من (المدينة) ، حيث يتكامل كلاهما مع الآخر ويكشف الوجه الحقيقي للسياسة الاموية نحو العاصمة الحجازية . فقد أمر الوالي بعد أن شكّا اليه ابن مينا أمر بلحارث ومن شاركه من الانصار وبعض القرشيين « اجمع لهم من قدرته وابعث معه بعض جند

(1) يبدو أن هناك خطأ في الكلستين : « ابن ميثاء » التي وردت ابن مينا لوميثاء ، و « بسراج » التي وردت في أكثر من مصدر « بشرح » .

(2) الامامة والسياسة ج 1 ص 188 .

(3) وفاء الوفا ج 1 ص 127 .

(4) جمعها اشراج أو شرج وهي « سبل الله من الحرّة الى السهل » كما ورد في لسان العرب . ولد ورد ايضاً « أن أهل المدينة اقتتلوا وموالي معاوية على شرج من شرج امرأة » ج 2 ص 307 .

(5) وفاء الوفا ج 1 ص 127-128 .

(6) M. J. KIST'AR, *Studies in Jahiliyya and early Islam (the Battle of the Harra, some socio-economic aspects)*, (6)

P 38.

(7) السهمودي ، وفاء الوفا ج 1 ص 127 .

وقال : مَرَّ بِهِ وَلَوْ عَلَى بَطُونِهِمْ ، فَعَدَا ابْنُ مَيْنَا مَتَطَاوُلًا عَلَيْهِمْ وَعَدَا مِنْ يَدَيْهِمْ مِنَ الْإِنصَارِ وَرَفَدَتْهُمْ مِنْ قَرِيشٍ ، فَلَذَبُوهُمْ حَتَّى تَفَاقَمَ الْأَمْرُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا ⁽¹⁾ . وكان اخفاق الوالي في تسوية هذه المشكلة قد حمله الى ارسال تقرير عنها الى يزيد ، الذي بدا أكثر تطرفاً منه ، حيث نسب اليه القول تحت تأثير موجة الغضب التي سيطرت عليه : « لا بعثن اليهم الجيوش ولا وطنتها . الخيل » ⁽²⁾ .

ومن المرجح أن الوالي السفياني قد خالجه الخوف ازاء هذه المحاولة التي كانت الاولى من نوعها في الحجاز منذ سيطرة الامويين على الخلافة ، لا سيما بعد موقف بني العاص « الشبوه » ، الذين فقدوا مع مجيء يزيد الامتياز التقليدي ، باتخاذ الحجاز دائرة نفوذهم الاساسية . ويبدو أن التراجع في موقع هؤلاء لم يقتصر على الجانب السياسي أو الاداري فقط ، ولكنه انعكس أيضاً على نفوذهم الاقتصادي الذي تعرض بدوره للتراجع . فبعد ان كان سعيد بن العاص أكبر ملاكي (المدينة) منذ عهد عثمان ، اضطر الى بيع أملاكه أو معظمها للسفيانيين ، دون ثمة ما يمنع من انعكاس هذه الصورة على أوضاع أسرته عامة ⁽³⁾ . وكان تجاهل بني العاص لما أحاط « السلطة السفيانية » من أخطار في (المدينة) ، وراء اخفاق الوالي - وهو من أركان الاسرة الحاكمة - في معالجة هذه الازمة ونقلها بالتالي الى الخليفة ، الذي كان لديه من وسائل التصدي والقمع ، ما لم يملكه الاول ، حيث ثبت عجزه عن تنفيذ تهديده للمتمردين من جماعة بلحارث ، وعن انقاذ السلطة من السقوط في أيدي الثوار بعد ذلك . وهذا الامر أثار استغراب يزيد ازاء تحاذل « بني أمية ومواليهم في المدينة » وعلم قدرتهم على « أن يقاتلوا ساعة من نهار » ⁽⁴⁾ ، حسب القول المنسوب له . ويضع KISTER مسؤولية تدهور أوضاع (المدينة) على عاتق الوالي عثمان بن محمد ، الذي لم يمر وفد الانصار والقرشيين اهتماماً ، عندما اشتكوا اليه بممارسات ابن مينا ، حيث عاندوا من مقابلته بخيبة الامل ، مما جعل التعايش - والكلام للمؤرخ نفسه - مفقوداً ، وكذلك الازمة حادة مع الوالي المتفطرس ⁽⁵⁾ .

وهكذا فإن عملية استملاك الارض في (المدينة) كانت أشبه ما تكون بنظام « المصادرة » ، وذلك تحت شعار « اصطفائها » للدولة ، مثلة بالاسرة السفيانية الحاكمة . ولا شك أن خلافاً كبيراً بين « الصواني » التي ظهرت للمرة الاولى في عهد عمر بن

(1) السهوي ، وفاء الوفا ج 1 ص 128

(2) المكان نفسه .

(3) راجع ماورد في بحث ملكيات الاراضي في الحجاز للعمل ، عن بيع سعيد بن العاص أملاكه الراضعة لمعلوية ، ص 995

(4) تاريخ الطبري ج 7 ص 5 .

(5) KISTER, The Battle of the Harur, P. 40.

الخطاب - للتعبير عن « كل أرض كانت لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله وكل مغض ماء وكل دير بريد »^(١) ، وهي القطائع التي جاءت عن طريق الفتح - صلحاً كان أم عنوة - وبين صوافي (المدينة) التي تدرجت من الملكيات الخاصة الى تلك التي تم انتزاعها من اليهود^(٢) بعد طردهم منها على نحو ما سبق . . وهي التي قام النبي بتوزيعها على الصحابة ، وبالتالي فاننا لا نستطيع اعتبارها ملكاً عاماً للدولة على غرار « صوافي » السواد المفتوحة .

ولا شك أن (الانصار) الذين اقتصرت املاكهم على أراضي (المدينة) ، وهي في معظمها تعود الى ما قبل « الهجرة » ، فقد عادت عليهم هذه السياسة بالضرر الفادح^(٣) ، بحيث أشارت بعض النصوص الى مجاعات عصفت بهم ، اضطروا تحت وطأتها الى بيع هذه الاملاك بالثمن البهس للأسرة الحاكمة . وكانت سياسة الافقار والتجويع - اذا جاز التعبير - التي تحمل منها وفد الانصار والقرشيين أمام الوالي السفياني ، استناداً الى نص « الامامة والسياسة » ، بمثابة عقاب للمدينة التي وقفت ضد البيت الاموي ، منذ أن ربطت مصيرها بالنبي ودعوته المناوئة له في ذلك الحين . ومن هنا فإن أي تسويق للسياسة التي انتهجها معاوية ، يصبح غير واقعي في معزل عن العلاقة التي ظلت متردية بين الطرفين^(٤) ، إذ أن مؤشرات عدة تتعرض^(٥) الى الحرمان الذي لحق بالانصار ، منذ أن آلت الخلافة الى الأمويين ، لا سيما في العهد المبكر منها .

ومن البليهي أن سوء الأوضاع الاقتصادية عموماً في (المدينة) ، أدت الى إهمال الأرض التي لم يعد أصحابها - ومعظمهم من الانصار - قادرين على تلبية احتياجاتهم أو الاعتناء بها ، فاضطروهم ذلك الى بيعها تفادياً للخسائر التي لحقت بهم ، بسبب تخلف انتاجها الزراعي . وعلى الرغم من اعتراف الدكتور صالح العلي بأن كثيراً من أهل (المدينة) ممن لجأوا الى بيع املاكهم ، كانوا مدنيين في الأصل ، إلا أنه لا يقر بأن سبب البيع يرجع الى الخسارة في الزراعة وحدها ، لأن كثيراً من هؤلاء الملاكين كانوا يمارسون أعمالاً أخرى^(٦) . . . أما سبب هذه الديون فقد يكون « لقيامهم بالمضاربة » على حد

(1) ابو يوسف ، كتاب الخراج ص 62 .

(2) ألملي ، ملكيات الاراضي في الحجلز ص 1001 .

(3) الامامة والسياسة ج 1 ص 188 .

(4) راجع موقف معاوية من الزعيم الانصاري لیس بن سعد بعد تنازل الحسن . البلاذري ، انساب ج 1 ص 33 .

(5) هناك العديد من الأمثلة منها : شكوي النعمان بن بشير حليف معاوية ما جعل بالانصار من « الفقر وضيق العيش » . محمد عمار ، اختلاف الأحزاب الإسلامية ص 112 . ونور لیس بن سعد : أنا نطلب منك ما عندك بالاسلام الكافي لقدما سواء لا بما جلبت به اليك الأحزاب ، البلاذري ، انساب ج 1 ص 57 . وأخيراً الاشارة لمصرجة في « الامامة والسياسة » : « أن معاوية أثر علي في عطائنا ولم يعطنا قط درهما » ج 1 ص 188 .

(6) ملكيات الاراضي في الحجلز ص 10004 .

تعبيره» ، دون أن يحاول اضافة المزيد الى هذه المسألة . ولعله أخطأ التقدير في مناشئته لأسباب الأزمة الاقتصادية التي عاناها (الانصار) في العصر الأموي المبكر على وجه الخصوص . فهولاء منذ أن عرفتهم (المدينة) - التي كانت « واحة كبيرة مزدهرة في عصر محمد » - كما وصفها وات « - احترقوا الزراعة مهنة أساسية ، بينما كانت التجارة والصيرفة والمضاربة وغيرها من حرف اليهود . ولم يطرأ تغيير ما على هذا الوضع تقريباً ، بعد اخراج هؤلاء في أعقاب تأسيس دولة (المدينة) وتكاثر (المهاجرين) من قريش فيها ، الذين حلوا معهم الخبرة التجارية وأصاب بعضهم ثروات كبيرة في هذا المجال . أما الزراعة فكان من البديهي أن تظل حرفة (الانصار) ، أصحاب الأرض والخبرة معاً . ولكن هؤلاء ، شأن الفئات الاسلامية الأخرى ، تأثروا بموجة التفرغ البشري التي انعكست بصورة خاصة على الحجاز ، إبان عمليات الفتح الأولى وفي أعقابها ، الأمر الذي كانت له نتائجه السلبية على الحركة الانتاجية ، لا سيما الزراعة ، حيث لم تعط الأهمية المطلوبة ، بعد أن طغت عليها القطاعات العسكرية والادارية فضلاً عن التجارة في المناطق المفتوحة .

ومن هنا فالقول بأن ديون (الانصار) ، جاءت عن طريق المضاربة ، دون الزراعة التي تعرضت للخسارة ، قد لا يعبر بدقة عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي لهؤلاء ، الذين عاشوا ظروف الهزيمة بكل تبعاتها منذ عودتهم الى (المدينة) اثر تنازل الحسن . ومن ناحية أخرى فان هذه الازمة التي الملح اليها المؤرخون كما اسلفنا ، ليست منفصلة عن الموقف الحجازي من الدولة الاموية ومن ثم عن السياسة الخاصة التي اتخذتها الاخيرة نحو هذا الاقليم وتحديدأ نحو (الانصار) . ولعل نص « الامامة والسياسة » يحمل اليان من الوقائع ما يعتبر كافياً لتبيان ملامح سياسة الامويين الحجازية . ففي الحوار الذي جرى بين يزيد وبين عبد الله بن جعفر ، استطاع الأخير كبح غضب الخليفة ازاء أهل (المدينة) ، الى درجة الوعد بأن « يكون لهم عطاء في كل عام . . . عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف ، ولهم علي عهد أن أجعل الخنطة عندهم كسعر الخنطة عندنا ، والخنطة سبع أصع والعطاء الذي يذكرون انه احتبس عنهم في زمان معاوية ، فهو علي ان اخرجه وافراً كاملاً » (١) وخلافاً لذلك فان تحسناً نسبياً ، سيطر على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للحجاز ، في أعقاب التعديل الذي طرأ على هذه السياسة ، في عهدي عمر بن عبد العزيز

(١) المكان نفسه .

(٢) محمداً في مكة ص ١٧ .

(٣) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٩ . ورد في الحسن والمساوية للبيهقي : أن سلم بن عقبة أرسل الى أهل المدينة بعد نزوله الحررة ، « فانتقروا الله وأطيعوا فان لكم في عهد الله وميثاقه عطينين في كل سنة . عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف ، ولكن عطيني في عهد الله أن أجعل سعر الخنطة سعر المحيط ، والمحيط يوزن سبعة اصوع ب درهم » ص ٦٦ .

وهشام بن عبد الملك في الربع الاول من القرن الثاني الهجري . . وهو ما يستعرض له في فصل « الحجاز المرواني » .

وهكذا فان السياسة الاموية التي وضع معاوية بن أبي سفيان خطوطها الاولى ، نحو الحجازيين والانصار خاصة ، وذلك باعتراف خليفته يزيد ، كما ورد في النص السالف ، كانت وراء الازمة الاقتصادية التي عصفت بالمدينة ودفعت بها الى حدود الضيق والفقر ، وبالتالي دفعت الانصار الى بيع أملاكهم للأسرة الحاكمة على نحو ما ذكرنا . ولا شك أن هذه المسألة قد اورثت لنسبهم فيما بعد ، شعوراً بعدم الاستقرار وبافتقار السيادة على أرضهم ، بعد استملاك الامويين غير المشروع لها⁽¹⁾ . وإذا كان ضعف الحكم في الغالب يؤدي الى التمرد ويشجع على الثورة كقاعدة عامة ، فان عهد يزيد أوجد الفرصة المثلى ومعها المسوغات المختلفة لتحريك (الانصار) واستعادة « حقوقهم » السياسية والاقتصادية ، بما في ذلك الأرض « المفقودة » .

(1) KISTER, studies in Jahiliyya and Early Islam (the battle of Hama) P. 47.

ثورة المدينة - المحاولة الاولى

... فلذا به ، من خلال الاداة العسكرية المتفوقة يثبت انه غير متورع عن التحرج مرة أخرى في سحق أي تمرد فتنه ، ، مهما تحصن بالرموز المقدسة ، بشرية كانت (الحسين) أم جنرافية (مدينة النبي) (٢٦٥) .

لقد شابهت ثورة (المدينة) في جوانب كثيرة منها ثورة الحسين ، سواء في الطرح التغييرى ، سياسياً واجتماعياً ، أم في النهاية المأساوية لكل منها . وإذا لم يكن هنالك ما يشير الى اشتراك أهل المدينة مع الحسين بما يتعدى الحجم الذي أسلفنا الحديث عنه ، فإن ذلك لا يعبر عن افتراق بين الثورتين ، بقدر ما هو خاضع لاجواء الخوف المخيمة على الحجاز عشية خروج الحسين ، وهي أكثر ما أصابت (الأنصار) الذي تاقوا الى التخلص من الحصار المفروض عليهم . وكان من البديهي أن يكون لمقتل الحسين وأصحابه ، ذلك الصدى العنيف في (المدينة) ، التي اهتزت لهذه الحادثة وبلغ التشنج فيها حداً كبيراً ضد البيت الأموي ، خاصة بعد قيام « الهاشميات » من أقارب الحسين - كما يقول المسعودي^(١) - بالخروج حاسرات في أحياء (المدينة) . فكان ذلك عاملاً محرّضاً في حسم القرار الذي أصبح تاضجاً ، وفي نزع قناع الخوف عن الوجوه .

ويبدو أن استجابة (المدينة) لدعوة ابن الزبير لها بالبيعة في أعقاب مقتل الحسين^(٢) ، لم يرافقها الكثير من الحماسة ، حيث انقسمت بين مؤيد له (القرشيون)

(١) يشير المسعودي في مروج الذهب الى خروج « بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قويمها حواصر حالوات عنتماء ورد عليهن » قتل الحسين وأصحابه . ج 3 ص 68 . وثمة إشارة أخرى في كتاب ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين ، الى قيام زينب بنت علي بعد وصولها الى (المدينة) بتعبئة النفوس وتأييب الناس على حكم يزيد « مما أدى الى إرسال عمرو بن سعيد بكتائب الى الخليفة عن حزمها ومن معها على القيام للانخذ بئر الحسين » . وقد أورد ذلك عن كتاب (زينب الكبرى) لجعفر النعماني ، الذي اعتمد بدوره على ما ذكره السليمانية العبدلي في (اخبار الزينبيات) . واجمع ثورة الحسين ص 214-215 .

(٢) للمسعودي ، التنبيه والاشراف ص 263 .

بزعامة عبد الله بن مطيع الحديدي (من أقارب عمر بن الخطاب)^(١) وبين متحفظ أو متردد (الانصار) ، بزعامة عبد الله بن حنظلة (من الاوس)^(٢) . ولكن التقاء (المدينة) وابن الزبير حول هدف مشترك ، وهو الإطاحة بالخليفة الأموي ، وحشد بينهما الموقف السياسي ، الذي جاء في مصلحة الثاني ، وذلك بخروجه سالماً ، بل قوياً من هذه المواجهة التي كانت تدفع القوات الشامية نحو الاستنزاف العسكري والمعنوي . ولعل هذا الموقف ، هو أحد مؤشرات العلاقة الحذرة بين مكة والمدينة حيث شكلت كلتاهما جبهة منفصلة عن الأخرى ، منذ بدايات التكوين التاريخي لكل من المدينتين . ولا ريب أن الصراع الذي تبلور في أعقاب الهجرة ، ترك بكثير من الوضوح بصائته على هذه العلاقة ، حيث تقف بصورة دائمة وراء الأزمات الكبرى بين الطرفين . فالسقيفة كانت بالنسبة للانصار محاولة لتعزيز أوضاعهم المهددة بالاختلال بعد النبي ، بينما كانت تعني لجناب من قريش على الأقل ، محاولة لاعادة التوازن عبر المنظور الاقليمي الخاص به . وما لبثت هذه العلاقة أن أحيطت بطابع « ثاري » أخذ يتطور منذ الفرز السياسي والقبلي الذي شهدته الحرب الاهلية في (صفين) . فاستعيدت ذكريات (بدر) وقتل القرشين فيها ، ومن ثم ألقى دم عثمان على عاتق (الانصار) ، الذين « تخاذلوا » في الدفاع عنه^(٣) . وعلى الرغم من وحدة الموقف السياسي والمعاناة الاجتماعية المشتركة بين مكة و (المدينة) في اطار الثورة الحجازية على الحكم الأموي ، تلك المحولة الوحيدة التي عرفها هذا الاقليم ، فإن كلا منهما تجاهل الآخر وانصرف لشؤونه الخاصة . ولعل عبء التقصير في غياب الجبهة الموحدة في الحجاز ، يقع على عاتق ابن الزبير الذي تعاطى مع ثورة (المدينة) ، وكأنها خارجة عن نطاق اهتمامه . وكان ذلك الموقف بدون شك أحد أخطائه العديدة ، التي أوصلته في النهاية الى الفشل ، دون أن يجد في (المدينة) سوى اللامبالاة نفسها ، عندما اشتدت عليه المحنة في مكة .

وهكذا فإن الموقف في (المدينة) لم يكن محسوماً لمصلحة ابن الزبير ، الا في نطاق الهدف المرحلي وهو القضاء على الحكم الأموي . وكان ذلك ما أشار به على يزيد ، أحد المقربين منه (ابن عضاء الأشعري) عن « ميل » أهل (المدينة) مع ابن الزبير ضده^(٤) . ومن هذا المنطلق فقد اعتمد خطة استدرج هذه الأخيرة والحؤول دون انضمامها الى مكة في جبهة واحدة ، موعزاً الى واليه (عثمان بن محمد) أن يبحث اليه وقدأ من زعمائها ليستمع

(١) التنبيه والإشراف ص 264 . البلاذري ، انساب 309 .

(٢) المكان نفسه .

(٣) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ص 447 . ابن الأثير ، الفتوح ج 1 ص 57 . البلاذري ، انساب ج 1 ص 116 .

(٤) البلاذري ، انساب ج 1 ص 119 .

مقاتلتهم ويستميل قلوبهم»^(١) . ولم تكن هذه المبادرة «الودية» ، سوى مؤشر إلى أزمة الحكم في دمشق وارتباكها في اتخاذ قرار حاسم وسريع في الحجاز ، على غرار ما حدث في العراق . بحيث استهدفت هذه المحاولة تحييد (المدينة) بغية التفرغ لمشكلة ابن الزبير . لذلك نجد الوفد ممثلاً للاتجاهات الرئيسية الثلاثة فيها ، حيث شارك فيه : المنذر بن الزبير (المهاجرين) وعبد الله بن أبي عمرو المخزومي (قريش) وعبد الله بن حنظلة (الانصار)^(٢) . « فآكرمهم يزيد وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم » كما في رواية (الطبري)^(٣) . « ووصل كل واحد منهم بخمسين ألف درهم ووصل المنذر بمائة ألف درهم» كما يضيف البلاذري^(٤) . وكان تقديم المنذر ، استناداً إلى الرواية الأخيرة ، يهدف إلى شق الأسرة الزبيرية ، تلك السياسة التي ظهرت ملامحها في استمالة أخيه (عمرو)^(٥) وتعيينه قائداً للحملة الأموية الأولى التي لقيت الهزيمة في مكة ، وذلك لاضعاف ابن الزبير وإظهاره عاجزاً عن استقطاب المقربين إليه ، بمن فيهم إخوانه . ولكن المنذر خيب آمال يزيد ، عندما شارك في التحريض عليه بعد عودته إلى (المدينة) « لا بمعنى ما صنع أي أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه »^(٦) ، ليصبح الموقف في هذه الأخيرة متدوراً بانفجار وشيك لم تستطع محاولات الخليفة تطويقه أو التصدي له .

وبعد أن فشل يزيد في التأثير على المنذر بن الزبير واستمالة القرشيين في (المدينة) ، لجأ إلى مفاوضة (الأنصار) ، التجمع السكاني الغالب فيها . وقد تجلّى ذلك في قوله للنعمان ابن بشير « الأنصاري » ، الوحيد المتبقي في الإدارة الأموية في ذلك الحين ، قبل أن تشده عصبية الحجازية إلى بيعة ابن الزبير بعد وفاة يزيد^(٧) : « أن عدد الناس بالمدينة الانصار وهم قومك فأتهم فأتاهم عما يريدون »^(٨) . ويتابع (الطبري) هذه الرواية عن أبي (مخنف) : « فأنهم ان لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي وبها سن عشرين من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك »^(٩) . وكان اسم النعمان قد ورد لدى (البلاذري) في مهمتين إلى الحجاز ، عندما عهد إليه يزيد بأخذ البيعة من ابن الزبير ،

(١) البلاذري ، انساب ج ١ ص 119

(٢) تاريخ الطبري ج 7 ص 3-4 . البلاذري ، انساب خطوطه ورقة 329 .

(٣) المصدر نفسه ج 7 ص 4 .

(٤) البلاذري ، انساب خطوطه ورقة 329 . يذكر الطبري أن الذي أجازه هو عبد الله بن زياد ج 7 ص 4 .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 18 .

(٦) تاريخ الطبري ج 7 ص 4 .

(٧) البلاذري ، انساب ج ١ ص 352

(٨) المصدر نفسه . ج ١ ص 321 .

(٩) تاريخ الطبري ج 7 ص 4

وانتدابه للتفاوض مع (الأنصار) في (المدينة) . ومن المرجح ان كلاهما تمت في إطار مهمة واحدة وهي المدرجة لدى (الطبري) في أحداث السنة الثانية والستين^(١) ، حيث كان النعمان والياً على الكوفة قبل هذا التاريخ . وعلى الرغم من ولائه الأموي المعروف ، فإنه لا يتخلى عن عصبية الأنصارية التي ظهرت في حرصه أولاً على تمحيدهم في الصراع بين الشام والحجاز ، كونه مطلعاً على خطط الخليفة إزاء هذا الاقليم^(٢) ، وفي موقفه ثانياً من « التحالف » مع القرشيين واستدراج هؤلاء لجماعته الى معترك سيدفون وحدهم ثمنه الكبير.

ومن الواضح أن هذا الموقف كان محكوماً بحساسيات الفريقين : القرشي والانصاري كلاهما ضد الآخر ، حيث رفض النعمان وهو في موقع السلطة ، ذلك التحالف غير المتوازن الذي تمثل بقوله لعبد الله بن مطيع لكانني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو اليها وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيف ، ودارت رحا الموت بين الفريقين ، قد هربت على بغلتك تضرب جيئها الى مكة ، وقد خلفت هؤلاء المساكين ، يعني الانصار ، يقتلون في سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم^(٣) . وكان النعمان قد قدم الى (المدينة) في أعقاب رجوع وفدها من دمشق بعد لقائه الفاضل مع يزيد ، استناداً الى « كتاب » حمله باسم هذا الاخير وانطوى على التهديد باستخدام العنف والشدة ، بعد أن طال التسامح واللين^(٤) . واذا فشلت مهمة النعمان توجه الى مكة تاركاً (المدينة) في غليائها ، متابعاً مهمته الفاشلة مع ابن الزبير .

وكانت (المدينة) قد توصلت الى تكتيل مختلف فئاتها في جبهة واحدة ، وذلك تحت شعار الدعوة الى الشورى^(٥) ، الموجهة من حيث المبدأ ضد خلافة الوراثة التي يمثلها يزيد . ولم يتخلف عنها سوى قلة ، من بني هاشم على وجه الخصوص ، أثرت الابتعاد الى الطائف^(٦) ، التي بقيت خارج محاور هذا الصراع بين الشام والحجاز ، دون أن تتخلى عن ولائها التقليدي للامويين . والحقيقة أن معظم بني هاشم الذين انضموا الى الثورة في (المدينة) ، كانوا من غير العلويين ما عدا اثنين منهم (عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

(١) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٤ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٥ . البلاذري ، انساب مخطوطة 330 .

(٤) روى البلاذري عن أبي مخنف أن يزيداً هدد أهل المدينة بقوله : أما بعد فقد انظرنكم حتى لانظروكم ورفقت بكم حتى عجزت عنكم ، وحلتكم على رأيي ثم على مني ثم على نحرى . وأبى الله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة اجعلكم بها أحدث تؤثر على أحدث حد ونمود . انساب (مخطوطة) 330 . راجع أيضاً الامامة والسياسة ج ١ ص 189-190 .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 289 .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص 290 . تاريخ الطبري ج ٧ ص 7 . ثمة اشارة الى علاقة ما بين هذه الحركة ومحمد بن الحنفية ، الذي قيل أنه اجتمع بالرقد بعد عودته من مقابلة يزيد . ابن طولون ، قيد الشريد (غطوطة) ورقة 4 .

وجعفر بن محمد بن علي (١) ، حيث أسهمت كربلاء الى حد كبير في اضعافهم وتجميع دورهم في هذه الحركة . أما التكتلات الرئيسية فقد تشكلت من الانصار ، بزعامة عبد الله ابن حنظلة ومن القرشيين (عبد الله بن مطيع) ، فضلاً عن المهاجرين (معقل بن سنان الاشجعي) (٢) ، على أن تكون القيادة العامة للزعيم الانصارى ، التي يبدو أنها خضعت لاعتبار الاكثرية بين أهل (المدينة) المعقودة لجماعته .

واستهل الثوار تحركهم بالمجموع على الامويين ، وهم يمتفنون بخلع يزيد (٣) . وكان هؤلاء قد تجمعوا في بيت كبيرهم مروان بن الحكم (٤) بمن فيهم الوالي عثمان بن محمد ، حيث كانوا على علم مسبق بذلك . وكانوا في نحو ألف رجل ، كما أشارت مختلف الروايات التاريخية ، الا أن هذا الرقم قد لا يقتصر على الامويين فقط ، وانما شمل أيضاً بعض الحلفاء أو الموالي حسب تعبير البلاذري (٥) . وكان عدم لجوئهم الى أية محاولة للمقاومة في وجه الحصار المفروض عليهم ، مؤشراً الى ارتفاع عدد الثوار بالمقارنة مع عدد الامويين في (المدينة) (٦) . وقد ظلّ هؤلاء في اقامتهم الجبرية حتى تناهت اليهم الاخبار بتوجيه الخليفة حملته الى الحجاز ، فتم اخراجهم منها لقاء عهد وموآثيق بين الطرفين (٧) . ولا شك أن هذا الموقف يمثل احدى نقاط الضعف في ثورة (المدينة) ، التي كشفت من خلاله ، أول تراجع لها أمام جيش الخلافة ، الذي قد يكون من أولويات ذرائعه انقاذ الامويين من الحصر ، كتسويق لاقتحام (المدينة) . ولعل قادتها راهنوا على الوقت ، الذي احسنت الخلافة استخدامه ، باعتادها على المفاجأة ، كما راهنوا على انهيار الموقف الاموي المتحرج بعد مقتل الحسين ، فاذا به ، من خلال الاداة العسكرية المتفوقة ، يثبت أنه غير متودع عن التحرج مرة أخرى في سحق أي تمرد « فتنة » ، مهما تحصن بالرموز المقدسة ، بشرية كانت (الحسين) أم جغرافية (مدينة الرسول) .

والواقع أن الثورة وجدت في الامويين المعتقلين مشكلة مزدوجة ، حيث كانوا مصدر خطر عليها سواء ظلموا في (المدينة) أم أخرجوا منها . ولعل قادتها ارتأوا الحل الأخير ، كاختيار لا بد منه ، حيث كان الافراج عنهم أهون الشرين بالنسبة اليهم . بيد أن هؤلاء استطاعوا بعد خروجهم ، القيام بدور كبير في تسهيل مهمة الحملة الاموية ،

(١) السموتى ، مروج ج ٣ ص ٧٠ .

(٢) خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٩٠ . تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٨ .

(٣) البلاذري ، نسب مخطوطة ٣٣٠ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٥ .

(٥) انساب مخطوطة ٣٣٠ .

(٦) للكلان نفسه . ابن الاثير ، الاكمل ج ٤ ص ١١١ .

(٧) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٧ .

بتقديم تفاصيل دقيقة عن وضع الثورة العسكرية وكشف ثغراتها المتعددة (اجتماع قائدها في وادي القرى مع عبد الملك بن مروان الذي وضعه عن كذب في أجواء المدينة)» .

وكان يزيد قد اختار لقيادة هذه الحملة التي تشكّلت من قبائل الشام» ، أحد أبرز خلصاء البيت الأموي ، وهو مسلم بن عقبة المُرّي . وقد قيل أن معاوية قد أوصاه باللجوء اليه إذا دعت الحاجة لذلك» . ولكن يبدو أن هذا الاختيار جاء متوافقاً مع طبيعة تلك الأحداث التي جعلت الخلافة تميل الى الاستعانة بقائد غير حجازي ، أقل تأثراً بعصبيات المتحاربين في هذا الاقليم . وقد يكون ذلك أحد الدوافع التي حذت بها الى تجنب اختيار ابن زياد» (الثقيفي) ، رغم نجاحه في القضاء على ثورة الكوفة ، أو عمرو بن سعيد (الأموي) الذي رفض « هراقة دماء قريش »» . ويبدو أن التطوع في حملة الحجاز لم يكن مهمة يسيرة بالنسبة للخلافة ، حيث احتاج ذلك الى تعبئة غير عادية وعطاء مرتفع ، على نحو لم نرله سابقة في غيرها من الحملات العسكرية . فقد تقاضى الجند مرتباتهم كاملة وفوقها مساعدات اضافية قبل تحركهم من الشام ، بغية تحريضهم على التطوع : « فنادى أن سيروا الى الحجاز على أحد اعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل »» . وقد مثل هؤلاء الجند الذين تراوحت أعمارهم بين الشباب والكهولة» ، صفوة مقاتلي الشام ، ممن كانت لديهم التهيئة» « لاحتحام أية غزوة تعود مهمتها اليهم » حسب تعبير (لامنس) . وقام يزيد باستغراضهم وهو « متقلد سيفاً ومكتكب قوساً »» ، ورافقهم مسافة ما قبل العودة الى عاصمته ، تحت

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 7 . البلاذري ، انساب غطوطة 330 .

(2) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 251 .

(3) خليفة بن خياط ج 1 ص 290 .

(4) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 112 .

(5) البلاذري ، انساب غطوطة 330 .

(6) أورد اليعقوبي في تاريخه أن حملة سلم بلغت خمسة آلاف ثم اختارها من الاجناد الرئيسية في الشام ، وذلك بقيادة روح بن زنياع الجدامي (فلسطين) ، حبيش بن دجة الغني (الأردن) عبد الله بن مسعدة الغزالي (دمشق) والخصين بن غدير السكوني (حصص) وزفر بن الحارث الكلبي . (قسرين) ج 2 ص 251 .

تاريخ الطبري ج 7 ص 6 . البلاذري ، انساب غطوطة ورقة 330 .

(7) يتوافق ذلك وقول يزيد للتسرب بعد استغراضه للجند :

أبلغ أسباً بكر اذا الليل مري وهبط القوم على وادي القرى
عشرون ألف بين كهر وفن أجمع سكران من القوم ترى
أم جمع يفتضان نفسي منه الكرى يا حجباً من ملحد يا عجباً
هذاع في الدين يفتو بالمرى

تاريخ الطبري ج 7 ص 6

LAMMENS, Le cahier de YAZIDI etc, P. 232. (8)

(9) تاريخ الطبري ج 7 ص 6 . البلاذري ، انساب غطوطة 330

تأثير مرض كان قد ألم به» .

ولا غم لك في الحقيقة معلومات عن قائد هذه الحملة ، تتعدى الذي أشرنا اليه ، وذلك كمسكري محترف وقائد من أركان معاوية في (صفين) . أما علاقته بالمدينة فتعود ، الى أيام النبي استناداً لاشارة (البلاذري) عندما وجه أسامة بن زيد غازيا بني غطفان ، فكان مسلم أحد الامرى الذين جاء بهم ، حيث « اشترته امرأة من المدينة ثم اعتقه »⁽¹⁾ . ولعل القائد الشامي كان لا يزال حاملاً في ذاكرته هذه الحادثة ، التي كان لها - ان صححت - تأثير على موقفه المتطرف من (المدينة) ، ذلك الموقف الذي وجد ما يماثله لدى الخليفة اذا ما أخذنا في الاعتبار وصيته لقائده : « فان ظهرت عليهم فأبجها ثلاثاً بما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو طعام فهو للجنـد »⁽²⁾ . « لا تردن أهل الشام عما أرادوه بهم »⁽³⁾ . وكان هذا التطرف مسوغاً برأي الخليفة ، الذي سعى الى اثبات وجوده في الحكم ودفع تهمة « الضعف »⁽⁴⁾ ، الملتصقة به ، والتي كانت وراء تشجيع المعارضة على الثورة ضده . كما نطلع الى تخويف ابن الزبير عبر انزال ضربة شديدة بالمدينة ، بحيث يجد نفسه مرغماً على إعادة النظر في موقفه من خلافة يزيد ومدفوعاً ربما الى الاعتراف بها .

وفي (المدينة) كانت النفوس معبأة في المقابل ضد الامويين ، خاصة وأن ارتقاء أحد (الانصار) الزعامة فيها قد عكس التشنج الذي بلغ حدّه في ذلك الحين . وكانت قد توصلت الى حلّ مشكلتها الداخلية ، بعد تنازل عبد الله ابن مطيع لعبد الله بن حنظلة ، الذي بوع بالاجماع في المسجد ، مكرماً سيطرة (الانصار)⁽⁵⁾ الذين حققوا للمرة الاولى زعاعتهم السياسية للمدينة في ظلّ الاسلام ، على حساب منافسيهم القرشيين . وما لبثت هذه الاخيرة أن أصبحت أكثر تماسكاً ، بعد طرد الامويين منها في الوقت الذي تسمّرت فيه أنباء تحرك الحملة الشامية . وكانت قد لجأت الى اعداد خطة دفاعية شبيهة بتلك التي أعدّها النبي لمقاومة غزوة الاحزاب (5 هـ) ، حيث كان الخنلق أبرز تحصيناتها لمواجهة احصار الاموى المرتقب⁽⁶⁾ . أما توزيع المقاتلين فقد اتخذ أربعة محاور : اثنان من قريش ، كان عليهما عبد الرحمن بن زهير (زهرة) وعبد الله بن مطيع (عدي) . والثالث بميادة معقل بن سنان الاشجعي ، وقد وصف بأنه على (المهاجرين) ، وأخيراً عبد الله بن

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 5 .

(2) البلاذري ، انساب مخطوطة 333 .

(3) تاريخ الطبري ج 7 ص 6-7 .

(4) البلاذري ، انساب مخطوطة ورقة 330 .

(5) المكان نفسه .

(6) خليفة بن خياط ج 1 ص 290 . تاريخ الطبري ج 7 ص 4 .

(7) تاريخ الطبري ج 7 ص 8 . البلاذري ، انساب مخطوطة ورقة 330 .

احتظلة ، الذي كان على « اعظمها واكثرها عدداً »١٢ من الانصار .

وفي تلك الاثناء بلغ مسلم بحملته وادى القرى حيث كان الامويون بزعامه مروان قد سبقوه اليها . فوقف على اوضاع (المدينة) من ابنه عبد الملك الذي قدّم له ، استناداً الى رواية ابي مخنف ، خطة هجومية بأن يأتيها من « قبل الحرة »١٣ ، ربما كان لها دور كبير في تسهيل مهمته وانجازها بتلك السرعة . وما لبث الجيش الشامي أن بلغ (المدينة) واتخذ موقعه في الحرة الى الشمال الشرقي منها ، منذراً أهلها بالاستسلام خلال أيام ثلاثة١٤ . ولعله كان يميل الى حسم الامر معها بالقليل من الوقت والجهد ، ينصرف الى مهمته الاساسية في مكة ، حيث يتوافق ذلك وما نسب اليه من القول : « اني أوجلكم ثلاثاً ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه ، وانصرفت عنكم وسرت الى هذا الملحد الذي بمكة وان أبيت كنا قد أعلننا اليكم »١٥ . ولكن هذه المحاولة التي كانت مشروطة على ما يبدو بالتحالف ضد ابن الزبير : « ادخلوا في الطاعة ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد »١٦ ، لم تلق صدقاً في (المدينة) ، التي سيطرت عليها أجواء الحرب وتشبّثت بموقفها في وجه « أعداء الله » الذين استهدفوا « بيته » في مكة ، حسب قولهم للقائد الأموي١٧ :

ولقد بذل أهل (المدينة) جهداً كبيراً في التصدي للجيش الشامي وتمكن قائدهم (الانصاري) من مهاجمة مسلم « وكشف خيله »١٨ في محاولة للقضاء عليه . والحقيقة أن مناقشة الوضع العسكري في هذه المعركة قد لا تبدو ممكنة ، الى الحد الذي نستطيع معه تكوين صورة واضحة عن قوة (المدينة) ، وعما اذا كان لها نصيب من التوازن مع جيش الشام . ذلك أن حسم المعركة على النحو الذي تمت فيه ، أظهر انعدام التكافؤ بين الطرفين الى حد كبير . ولعل ما حدث من مقاومة شرسة١٩ ، حمل شيئاً من مبالغة المؤرخ الذي سجل روايته تحت تأثير انفعاله بمأساة (المدينة) ، وما رافقها من تعاطف ضمني معها وتشجّع ظاهر ازاء الامويين .

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 8 .

(2) المصدر نفسه ج 7 ص 7 .

(3) المصدر نفسه ج 7 ص 8 .

(4) المكان نفسه .

(5) المكان نفسه .

(6) المكان نفسه .

(7) البلاذري ، انساب مخطوطة ورقة 330 .

(8) تاريخ الطبري ج 7 ص 9 . البلاذري ، انساب ، مخطوطة ورقة 330 .

ويبدو أن خطة (المدينة) كانت ترمي الى استنزاف الشاميين أكثر ما تهدف الى الاشتباك معهم ، وهو الخيار الدفاعي الوحيد للخروج بقدر أقل من الخسائر أمام جيش متفوق في عدده وتجهيزه واحترافه . وفي المقابل كانت خطة القائد الاموي ترمي الى استدراج أهل (المدينة) الى ما وراء الخندق (الحفرة) ، حيث لم يكن في مصلحته اطالة أمد الحصار ، لما يترتب عليه من تخريض للجبهة المعارضة على التحرك والتعاطف مع ثورة الحجاز ، التي كان لها تأثير كبير على عزلة الحكم الاموي في ذلك الوقت . ولعل أحد أساليب المقاومة التي استخدمها الثوار ، اللجوء الى افساد الماء حول (المدينة) ، حيث جعلوا - استناداً الى عدة روايات - « في كل منهل بين الشام وبينهم زقا من قطران وعُوروه »⁽¹⁾ . ولكن الامطار التي سقطت « غزيرة » ، آنذاك انقذت الشاميين من العطش وأحبطت هذه المحاولة⁽²⁾ .

وكان مسلم منذ اقامة معسكره مقابل الحرة الى الشمال الشرقي من المدينة ، يعمل على استدراج الثوار الى القتال . واستطاع مروان بن الحكم الاتصال بأحد معارفه من بني حارثة وأغراه بفتح ثغرة في دفاع (المدينة) ، كان لها دور كبير في تسهيل اختراق الشاميين لها . ولقد حدا ذلك بالثوار الى تعديل خططهم ، بدفع القتال الى خطوط الشاميين وقيام ابن حنظلة ومعه عبد الله بن الضحاك (الانصار) والفضل بن العباس (هاشم) ، بهجوم معاكس ضد مسلم ، الذي أجبر على التراجع في الوقت الذي ساد الارتباك بين قواته . وكان هذا أكثر ما سجلته ثورة (المدينة) من تقدم في وجه الحصار الشامي⁽³⁾ . حيث سرعان ما استنهض القائد الاموي فرسانه وانقض بهجوم جريء على ابن حنظلة ، الذي دافع بضراوة عن موقعه ، حسب رواية أبي غنief ، قبل أن يسقط صريعاً مع ابنائه وعدد آخر من (الانصار)⁽⁴⁾ . كما أسفر هذا الهجوم عن قتل عدد من القرشيين ، من أبرزهم الفضل بن العباس وزيد بن عبد الرحمن بن عوف وابراهيم بن نعيم العدوي⁽⁵⁾ ، فضلاً عن محمد بن سعد بن أبي وقاص ، آخر الذين قاوموا من أهل (المدينة) قبل سقوطها في يد القائد الشامي⁽⁶⁾ . ولقد دارت رحى هذه المعركة في « الحرة » ، المكان

(1) خليفة بن خياط ج 1 ص 291 . تاريخ الطبري ج 7 ص 11 . ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 113 .
(2) وردت في الكامل « وعور » . وقد جاءت في (لسان العرب) بمعنى أفسد . « عورت عليه امره تعويراً أي نبحت عليه » ج 4 ص 621 .

(3) LAMMENS, Le califat de YAZIDier, P. 232. (3)

(4) ابن خياط ج 1 ص 291 . تاريخ الطبري ج 7 ص 8 ، 9 .

(5) تاريخ الطبري ج 7 ص 8 ، 9 .

(6) المصدر نفسه ج 7 ص 9 . ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 117 .

(7) المصدر نفسه ج 7 ص 11 .

الذي توسَّط موقع عبد الله بن حنظلة ومعسكر مسلم بن عقبة ، حيث لم تدم سوى « ساعة من نهار » حسب تعبير الطبري^(١) . ولعل ذلك يتوافق مع إشارتنا السالفة حول انعدام التكافؤ العسكري بين الثورة بإمكاناتها المتواضعة ، وبين جنود الشام الذين كانوا نخبة جيش الخلافة الأموية ، في الاحتراف والتدريب ، فضلاً عن التفوق العددي .

وكانت حصيلة معركة الحرّة من القتل مرتفعة بالقياس للمدينة ، التي أصابها انخفاض كبير في تعداد سكانها منذ الضرب الذي تعرض له الحجاز في حملات الفتوح وخروج عاصمة الخلافة منه . فثمة رواية لأبي مخنف تتحدث عن « سبعة رجل وكسر » من وجه قريش « سوى من قتل من الانصار »^(٢) . ولعل في هذا العدد شيء من المبالغة إذا ما أخذنا في الاعتبار تفوق الانصار في (المدينة) ، وبالتالي اقتراض مقوِّط نسبة أكبر في صفوفهم ، حيث كانت صدارة المعركة لهم . وعلى الرغم من الدقة المعروفة في روايات (أبي مخنف) والموضوعية التي اتسمت بها ، فإن الأرقام علة قد تشدّ عن القاعدة وتجنح تقديراتها إلى الزيادة وليس العكس . وقد يكون ذلك دافعنا إلى الأخذ برواية (بقي من غلد) ، التي لم تكتف بالرقم المحدد لقتل الحرّة الذي ناف على الثلاثمائة ، وإنما ضمت بياناً بأسماء هؤلاء وانتهاءاتهم ، حيث كانت الغالبية بينهم من الانصار ، كما في تقديرنا السالف^(٣) . وثمة روايات أخرى لم نأخذ بها كانت المبالغة واضحة فيها إلى حد كبير ، بحيث تراوحت حياً بين ستة آلاف وخمسمائة^(٤) ، وبين « ألف وسبعائة من قريش والانصار والمهاجرين وسائرهم من الناس عشرة آلاف »^(٥) حينئذٍ آخر . ومن الواضح أنها لا تعبر عن واقع تلك المعركة التي لم تدم سوى سحابة من الوقت .

على أننا نلاحظ من خلال اسماء القتلى ، ذلك الاجماع الذي شهدته (المدينة) ضد السيادة الأموية ، متمثلاً في اسهام القوى السياسية والقبلية على اختلافها في هذه المعركة . فقد شارك فيها من قريش : بنو هاشم ، المطلب ، نوفل ، زهرة ، عبد الدار ، تميم ، مخزوم ، عدى ، جمع ، سهم ، بالإضافة إلى بني عامر بن لؤي والحارث بن فهر (قريش الظواهر)^(٦) ، وهذا يعني تكتل قريش بغالبيتها المطلقة ضد الأمويين ، الذين انفردوا بالحكم دون الفروع الأخرى التي عاشت لمبه معزولة في (المدينة) . ولعل في ذلك أحد معطيات الثورة بطابعها الحجازي الاقليمي ، الذي اتخذته هذه المرة ، حيث وحّد المطلب

(١) جرت موقعة الحرّة في اواخر ذي الحجة للميتين بقينا منه « المصدر نفسه ج ٧ ص ٨ » .

(٢) البلاذري ، انساب مخطوطة ورقة 333 .

(٣) بلغ عدد الذين قتلوا من الانصار استناداً إلى هذه الرواية مائة وثلاثة وسبعين . تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 313 .

(٤) البلاذري ، انساب مخطوطة 333 .

(٥) الامعة والسياسة ج ١ ص 197 .

(٦) خليفة بن خياط ج ١ ص 292-302 .

السياسي للمعجاز مشاعر الفرشين والانتصار ، كنتيجة للمعاناة المشتركة في ذلك الوقت . كما أنها أظهرت من ناحية أخرى أزمة الحكم الاموي في علاقاته بالمعارضة ، التي فشل في احتوائها على النحو الذي كان يطمح اليه معاوية . فباستثناء ابنه الصحابة من المهاجرين ، الذين كان لهم نصيبهم من الاهتمام ، انطلاقاً من الشعور بالخطر الذي يمثلته هؤلاء ، فإن الآخرين من قريش ، ظلوا خارج هذه المعادلة التي عادت عليهم بالحرمان والعزلة . ومن هنا لا نجد صعوبة في البحث عن الاسباب الكامنة وراء تحرك (المدينة) في اطار جبهة واحدة ، كبادرة لم تحدث منذ غياب النبي ، بما ترتب عليه من الانقسام السياسي بين المهاجرين والانتصار الذي تكرر في (السقيفة) .

ولكن مأساة (المدينة) لم تكن في معركة الحرة ، بقدر ما كانت في نتائجها التي انطوت على مضمون العلاقة العدائية مع الحكم الاموي . ولعل الحقد الذي رافق العمليات الانتقامية⁽¹⁾ ، في أعقاب انتصار مسلم ، دون اعتراض الخليفة عليها ، يعبر بصورة أكثر جلاء عن تلك العلاقة ، ومارافقها من استهداف السلطة الاموية لشخصيات الحجاز والتخلص من أكثرها خطورة . وفي ضوء هذا الموقف فإن « الحرة » كانت الفصل التالي بعد كربلاء ، حيث وجره الشبه واضحة في الاستدراج المتعمد والانتقام المقتل ، للذين شهدتهما كل من الحركتين واستهدفا العناصر المشاركة فيهما بصورة جماعية .

والواقع أن عدة روايات تصف المحنة التي نزلت بالمدينة بعد دخول مسلم وجنوده المنتصرين اليها ، حيث اباحها لهم ثلاثة أيام « يقتلون الناس ويأخذون الاموال »⁽²⁾ ، كما في رواية أبي مخنف . ولا تختلف عنها رواية الواقدي التي تشير الى اباحتها لجنده « يقتلون ويأخذون المتاع ويعبثون بالاماء »⁽³⁾ . أما رواية عوانة بن الحكم ، فتلصق الى التواطؤ مع الامويين بفتح ثغرة « الجذ »⁽⁴⁾ ، أمامهم « فدخلوا من قبل بني حارثة الى المدينة فلم يبق فيها دار الا انتهت »⁽⁵⁾ . وربما أسهمت الرواية الاخيرة في جلاء بعض الغموض عن الاسباب التي عجلت في انهيار جبهة (المدينة) ، التي قد يكون لخيانة بني حارثة دور أساسي فيها . عل أننا لا نملك من التفاصيل ما يتعدى هذا المؤشر الذي ورد في « تاريخ » الطبري « وانساب » البلاذري ، بشكل نستطيع معه تقدير أهمية هذه الحادثة في سقوط (المدينة) . وفي « معجم البلدان » رواية أكثر تفصيلاً عن الطريقة

(1) تاريخ الصبري ج 7 ص 11 .

(2) لكان نفسه ج 7 ص 11 .

(3) البلاذري ، انساب غرر 332 .

(4) يدونها ج 2 الاثافي اوجد الموال وما موضعان بعقيق المدينة . خليفة بن خياط ج 1 ص 291 . تاريخ الطبري ج 7 ص

13 .

(5) البلاذري ، انساب غرر 332 .

« الاستباحة »^(١) التي استخدمها القائد الشامي ، وهي تكاد لا تختلف عن أية ممارسة تعسفية تتمخض عن حروب العصور الغابرة ، ولكن ليس في نطاق الدولة الواحدة على نحو ما شهدته (المدينة) . فقد اورثت هذه المعركة ، حسب قول (ياقوت) ، جيلاً من الناس حمل اسمها وعرف به « اولاد الحرّة » ، ليصبح ذلك شهادة اتهام ضد الامويين وقائدهم « المسرف »^(٢) ، على ما ارتكبه في عاصمة النبي والراشدين .

وسواء بلغ الانتقام الاموي ذلك الحد الذي صورته النصوص ، أم انطوى على مبالغة ما عكستها حفيظة المؤرخين الذين تناولوا هذه الحادثة ، فإن ثمة حقيقة لا بد من الوقوف عندها ، هي أي أن ثورة (المابنة) ، كانت تجسيداً للموقف الحجازي من الحكم الاموي الممثل بيزيد ، على النحو الذي جسّدته ثورة الكوفة من قبل ، ليس انطلاقاً من عدم الاعتراف بشرعية الخليفة فقط ، وإنما في محاولة استرداد حق « مفتصب » ، كان أكثر طرْحاً في الحجاز منه في العراق . وإذا قيل بأن أزمة (المدينة) الفعلية ، بدأت مع انتقال مركز الحكم منها ، فلهذا القول نصيب كبير من الموضوعية ، إلا أنه غير محكوم بالمنطق الاقليمي ، فقط ، بل في الصراع السياسي بين الحجاز والشام ، الذي انتهى لمصلحة هذه الأخيرة ، في أعقاب حملة بسر بن أبي أرطاة السالفة . ومن هنا فإن المقارنة غير متكافئة ، بين سلبيات افتقاد (المدينة) مركزية السلطة التي انتقلت الى الكوفة وبين تلك التي راقت انتقلها الى دمشق . ففي الحالة الأولى ، رغم الاحتجاج الضمني على قرار علي بالخروج الى العراق ، فقد وافقه عدد غير قليل من (الأنصار) ، كانوا نواة القوة التي اعتمد عليها طوال عهده^(٣) . أما في الحالة الثانية ، فقد كانت على هامش السلطة ان لم تكن منفية عنها ، تعاني من العزلة ومن الحرمان ، وتقطعت ثمرات الهزيمة التي حلت بها في أعقاب تنازل الحسن وعودة (الأنصار) من العراق .

ولعل ما نسب الى يزيد بعد القضاء على ثورة (المدينة) ، لم يكن مجرد موقف انفعالي ، بقدر ما كانت له خلفيته القبلية ، التي ظهر من خلالها طرفاً في ذلك الصراع الثقلي بين هكّة و (المدينة) ، وكأنه خليفة لقريش الفتوية (بنو أمية) وليس قريش

(١) قال ياقوت الحموي وهو يتحدث عن الحرّة : « ودخل جنده . أي مسلم - المدينة فهبوا الأموال وسبوا الذرية واستباحوا التزوج وحملت منهم ثمانمائة حرة وولدت ، وكان يقال لأولئك الاولاد : اولاد الحرّة » . ثم أحضروا الاعيان لبيعة يزيد ابن معاوية فلم يرض إلا أن يأبىهم على أنهم عبيد يزيد « معجم البلدان ج 2 ص 249 ، كما ورد في نيد الشريد : بأن مسلماً « أباح للمدينة ثلاثة أيام مع ما انضم الى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم . . . وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من الفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحده وصف . وقد أورد بالرسالة مسلم نوطشة ملكة من غير منازع ولا ومعارض » ، مخطوطة ورقة 7 ، راجع أيضاً مقالة : V. VAGLIERI, E. I., Tome III, P 234.

(٢) المسعودي ، مروج ج 3 ص 7 . ابن سعد ، صيقات ج 5 ص 68 . راجع قول الشاعر عند ابن الأثير : هم منقسموا فملوي يوم جلعت كتائب مسرف وبسو الكعبة الكامل ج 4 ص 120 .

(٣) ابن الأعمش ، الفتح ج 2 ص 244 . الغلابي ، وقعة الجمل ص 31-33 .

« أوسط العرب » والمسلمين^(١) . فهو يرى في « الحرّة » ونكبة (الانصار) فيها ، انتقاماً لقتل قريش في (بدر) ، حيث قال باسمه أحد شعرائه (عبد الله الزبيري)^(٢) ، « أن كان البلاذري قد أورد منسوباً ليزيد »^(٣) :

ليست اشيائحي بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل^(٤) .
ومن الواضح أن الخزرج خاصة الذين مهدوا لهجرة النبي الى (المدينة) ، والذين وقفوا الى جانب علي وتصدروا الثورة ضد الأمويين ، كانوا أكثر استهدافاً في حملة الخليفة الانتقامية ، استناداً الى هذا التصور^(٥) . ومن بين المتحمسين لهذا الانتقام ، الدكتور طه حسين الذي رأى في سقوط مكة (٨ هـ) نوعاً من مهادنة الامر الواقع ، حيث لم يجد أبو سفيان آنذاك بداً من الاعتراف به على أمل أن يعود هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكة الى المدينة ومن قريش الى الانصار ، الى قريش وإلى مكة مرة أخرى^(٦) . وما أخفق فيه هذا الأخير نجح في تحقيقه يزيد ، الذي كان « صورة صادقة عن جده يؤثر العصية على كل شيء »^(٧) حسب تعبيره . ولقد وافق هذا الشعور وقعة الحرّة التي انتهكت فيها حرمت الانصار في المدينة والتي انتقمتم فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر والتي لم تقم بعدها للانصار قائمة^(٨) .

ولعل معركة (الحرّة) من هذا المنظور ، تمثل حلقة ربما هي الابرز في الصراع على النفوذ بين الحجاز حيث كانت المحنة التي نزلت بالمدينة وما صاحبها من قتل ونهب واذلال^(٩) ، قد جرى التخطيط لها^(١٠) ، بالمقدار نفسه ان لم يكن أكثر دقة ، الذي استهدف الشخصيات الحجازية الأخرى ، بدءاً بالحسين وانتهاء بابن الزبير . وقد يكون ذلك الأسلوب الانتقامي غير مقيد بحدود زمانية أو مكانية ازاء الحركات التي تجهد فيها السلطة الحاكمة تهديداً لها ، بصرف النظر عن الدوافع المحرصة على ذلك ، سواء تحكمت فيها خلفية خاصة على نحو ما أشار اليه شاعر يزيد ولسان حاله ، (الزبيري) وما أكده الدكتور طه حسين في العودة الى جذور الصراع القديم بين مكة و (المدينة) أو بين قريش

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص 6

(٢) البهتوري ، الانصار الطواك ص 271 .

(٣) البلاذري ، انساب خطوطة 333

(٤) المكان نفسه .

(٥) اسنان النص ، العصية القلبية في الشعر الاموي ص 286 .

(٦) في الادب الجاهلي ص 119 .

(٧) المرجع نفسه ص 123 .

(٨) المكان نفسه .

(٩) الامامة والسياسة ج ١ ص 199 .

(١٠) ابن سعد ، الطبقات ج 5 ص 68 .

و (الانصار) ، أم خضعت لاعتبار الدفاع عن شرعية السلطة المهددة ، حيث كانت (المدينة) إحدى نقاط الضعف البارزة فيها . وعلى الرغم من اعتراف بأهمية الجنود التاريخية للعلاقة المتشعبة بين الامويين و (المدينة) ، فإن هؤلاء من موقع السلطة ، كانوا حريصين على احباط جميع المحاولات الثورية ، بالشدة التي تجلّت في « الحرّة » وأعقابها ، حيث كان الانتقام بحجم الخطر الذي تشكله على وحدة الدولة . ومن ناحية أخرى ، فإن حملة مسلم بن عقبة في المهمة المؤكولة إليها ، مشابهة الى حد كبير حملة بسر بن أبي أرفطة ، التي رافقت تأسيس الخلافة الاموية . فكلتاها استهدفت تطويع الحجاز ، ولكن الفارق بينهما خضع لتفاوت ردة الفعل والتسويق المترتب عليه لدى الاثنين . ومن البديهي أن حملة مسلم التي استهدفت (المدينة) استهدافها لمكة ، لم تنورع عن استخدام ما وصفه المؤرخون بالتطرف ، في القضاء على ثورة الاولى ، بغية التأثير على صمود الثانية ودفعها الى الاعتبار بمأساة الحرّة والدوى الذي أحدثته لدى خصوم الامويين بصورة عامة .

لقد وصفت الروايات دخول مسلم (المدينة) بعد انتصاره في (الحرّة) ، وكأنه إحدى عمليات الفتح القسري (عنوة) ، حيث يباح « ما غلب عليه المسلمون في القتال » غنيمة للجنود⁽¹⁾ ، كما وصفت شخصية القائد منطقية على شراسة حادة وبدانة فيها جفاء ، على نحو جعله غير متورع عن القيام بأي عمل ترى فيه الناس خرقاً وامتناحاً ، بينما يراه واجباً والتزاماً بنظام يدين له بالولاء الشديد⁽²⁾ . ولم يكن مسلم في الحقيقة سوى ظاهرة عادية في الدولة الاموية ، التي انتهجت سياسة صدامية ازاء حركات المعارضة وتوسلت في اخمادها منتهى القسوة . وقد اسهمت ظروف نشأتها بدون شك في تكريس هذا النهج القمعي ، وذلك في اعقاب حرب أهلية دامية ، وشرعية لم تجمع على الاعتراف بها سوى قبائل الشام ، بينما أرغمت على ذلك أو كادت الاقاليم الاخرى ، لا سيما الحجاز والعراق ، حيث بقي الموقف العام غير ودي من الحكم الاموي . ولقد تبلور هذا الاتجاه مبكراً ، مع ابراز معاوية دور الجيش ونحويله الى اداة امنية ، مهمتها العملية الدفاع عن دولته التي لم تقم على اساس شورى أو جماعي ، وانما قامت عن طريق القوة ، وذلك انطلاقاً من النظرية القائلة ، بأن النظام المذبي يشاد بالسيف لا بد أن يجمعه السلاح نفسه⁽³⁾ . وتكاد الممارسة الانتقامية التي شهدتها (المدينة) في أعقاب الحرّة ، (المحاكمات السريعة ، الاعدامات ، الارهاب) تشبه كثيراً تلك التي أجراها الحجاج في الكوفة بعيد

(1) استناداً الى القاعدة المعروفة ، ان الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذ عنه . يحيى بن آدم ، الخراج ص 17 .

(2) فلهوون ، تاريخ الدولة العربية ص 157 .

(3) يعضون ، التيارات ص 149 .

انتصاره في دير الجهاجم»^(١) . فكلتاها كانت مسوّغة عبر هذا المفهوم لدى السلطة الاموية ، التي استمدت قناعاتها من طبيعة الظروف المحيطة بقيامها (السفليانيون بعد صفين والمروانيون بعد مرج راهط) . ويبدو أن الحجاج على جرأة ما أحدثه في الكوفة ، وهي قمة في التطرف المنسوب اليه ، لم تبلغ في اثارها بلوغ ما قام به مسلم في (المدينة) و « استباحتها » . وقد استخدم المؤرخون هذه الكلمة دلالة حل جرأة القائد الشامي في انتهاك « دار الهجرة » وخرق قداستها تحت وطأة جنوده المنتصرين .

وتحدثت الروايات عن الارهاب الذي أشاعه مسلم في (المدينة) والبيعة التي أذل بها أهلها « على أنهم خول ليزيد يحكم بما شاء في دمائهم وأموالهم وأهليهم »^(٢) ، أو « عبيد ليزيد »^(٣) ، دون أن يستثني من الملاحقة صاحبها المتبقين كأيي سعيد الحدرى وسعيد بن المسيب ، فضلاً عن عمرو بن عثمان الذي اتهم بالتواطؤ مع « التمردين » والخروج على الموقف الاموي^(٤) كما طاردت جنوده الذين كتب لهم النجاة في معركة الحرّة ونفذت الاعداد بعدد كبير منهم ، كانت غالبيتهم من (الانصار)^(٥) . وتظهر (المدينة) في أعقاب الاجتياح مشلولة الحركة معدومة فيها الحياة أو تكاد ، حيث خلت من العناصر الشابة (المقاتلة) ، التي تعقبها السيوف ، والتهمت النار تراثها الفكري^(٦) ، دون أن تنجو من العقاب شخصية كالغني طويس الذي قتل مع أصحابه وهم يحاولون الهرب من (المدينة)^(٧) .

ولعل أكثر الروايات تعبيراً عن المحنة التي ألّت بالمدينة بعد هزيمة (الحرّة) ، تلك التي وردت في « الامامة والسياسة » ، حيث يعترف القائد الشامي باستباحته لها تنفيذاً لمشيئة الخليفة . وقد جاء ذلك بمثابة تقرير عسكري - انفرجت به هذه الرواية - بعد أن « فرغ من قتال أهل المدينة ونهبها »^(٨) ، مشيراً الى اعتزازه بثقة يزيد به وتأكيده ولائه للبيت الاموي عندما يقول « وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريرهم وانتهبناها ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره »^(٩) . ومن البديهي

(1) I. BEYDOUN, La Révolte d'Ibn Al- ach'nath, P. 160- 170 thèse Jussieu, GRENOBLE 1971

(2) تاريخ الطبري ، ج 7 ص 12 . بلاذري ، انساب مخطوطة 334 .

(3) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 250 . المسعودي ، مروج ج 3 ص 70 .

(4) تاريخ الطبري ج 7 ص 11 . الامامة والسياسة ج 1 ص 196 .

(5) المصدر نفسه ج 7 ص 11- 12 . خليفة بن خياط ج 1 ص 291- 292 . الامامة والسياسة ج 1 ص 194 . ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 88

(6) LAMMENS, Le epilul de YAZID, P 248, 256.

(7) البلاذري ، انساب ج 1 ص 335 .

(8) الامامة والسياسة ج 1 ص 199 .

(9) للكان نفسه .

رجالها بالمخلصين . وكان الدور الذي اسند اليه في القضاء على ثورة الحجاز ، منسجماً الى حد كبير مع هذا الموقع ، بحيث دفعه ذلك الى التمسك بولائه للنظام الذي يثق به ، شأن الآخرين من خصلاته ممن قاموا بمهام مشابهة (بسر بن أبي أرطاة ، عبيد الله بن زياد ، الحارث بن عمير السكوني وغيرهم) .

وثمة من يردّ انتقام مسلم من (المدينة) ، الى خلفية وثنية بدافع من « بداوته » التي جعلته حاقداً على الاسلام⁽¹⁾ . بيد أنه من المستبعد أن يكون للمسألة طرح يتعدى الخلفية السياسية للعلاقة بين الامويين و (المدينة) التي انتقلت اليها زعامة الحجاز من مكة . ولذلك فإن طرحها على أساس عقائدي ربما حمل الكثير من المبالغة ، حيث الصراع من هذا المنظور تمحورته في تلك المرحلة . فالأسرة الاموية بعد فتح مكة ، لم تعد لها مصلحة في التمسك بالوثنية التي كانت في الاصل جزءاً من النظام القديم . فقد انصب اهتمامها آنذاك على الخروج من المجابهة مع الاسلام بأقل قدر من الهزيمة ، حيث أسهم الرسول بـ « أمانه » في إعادة الاعتبار اليها . وإذا كان معاوية قد أقام صرح دولته الاموية على أساس عصبوي ، انطلاقاً من « شرعية » الزعامة القرشية في « الجاهلية » ، فإنه لم يكن أقل حاسة لشرعيتها الاسلامية التي « أحاطها » الله على « دينه » ، بارتضائه لذلك « خير خلقه » ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ، ثم بني هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم⁽²⁾ .

وفي ضوء هذا التوجّه المبكر لمفهوم السلطة عند معاوية ، فإن الاطار الاسلامي لدولته تمحّد عملياً مع التمسك بمبدأ الاستمرارية للخلافة في البيت الاموي ، الذي مهد له في الطرح السالف المنسوب له . ولم يكن مسلم بن عقبة على « بداوته » التي كانت تعبر عن عدم الايمان أو القليل منه لدى المؤرخين ، الا نتاج تلك « المدرسة السفينانية » ذات النهج التوفيقي ، بحيث وجدت السبيل دائماً الى تسوية ممارساتها الجريئة باسم « الجماعة » التي تمثلها وتنطق باسمها . ولقد ورد ما يشير الى أن القائد الشامي كان ممارساً في حياته الدينية⁽³⁾ ، على نحو يتناقض مع الاعتقاد الذي ذهب اليه (دوزي) ، بأنه كان منظوياً على نزعة وثنية⁽⁴⁾ . كذلك فإن موقفه من الصحابة وابتائهم ، لا سيما الهاشميين من الذين لم يشاركوا في (الحرة) ، يسقط هذا الرأي ، حيث يفترض أن يكون هؤلاء استناداً اليه ، أن مسلماً في كتابه هذا المنسوب اليه ، إنما يعبر عن موقعه في السلطة الاموية التي كان أحد

(1) فلهون ، تاريخ الدولة العربية ص 155-156 .

(2) تاريخ الطبري ج 5 ص 86 .

(3) لما سألته الظاهر ، أصلح الله أمير المؤمنين الإلهي مسجدكم بعد القتل ... (من كتابه يزيد) . الامامة والسليسة ج 1

ص 199 .

DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne, VI, P 47. (4)

أكثر استهدافاً لانتقام القائد الشامي وإحقاقه « الوثنية »⁽¹⁾ . ومن ناحية أخرى ، فإن أية رواية ، لم تلمح الى ما يدعم هذا الرأي ، رغم الدهشة ازاء استباحة (المدينة) . فقد حل مسلم اسم « الشامي » في رواية لأبي مخنف⁽²⁾ و « مسرف » عند وهب بن جرير⁽³⁾ ، وكذلك عند السمعودي الذي كان أكثرهم استنكاراً لما قام به ، دون التعرض أو الإشارة الى إيمانه⁽⁴⁾ .

ولعل من الصعوبة من خلال ما تقدم ، مناقشة هذا الامر في معزل عن خلفيته السياسية ، دون أن يقتصر ذلك بالضرورة على ثورة (المدينة) والنتائج التي أسفرت عنها . فالوقوف الاموى كان حاسماً في هذا المجال ، سواء في اصطناع القيادات المخلصة أو في التسيويع الدفاعي ضد الاخطار المحدقة به . وكان مسلم بن عقبة في خدمة النظام الذي ارتبطت مصالحه القبلية والاقتصادية به ، دون ثمة ما يدفعه الى التردد في قبول أية مهمة يسندھا اليه . ومن هذا المنطلق وحده ، فإنه رأى في موقف (المدينة) تمرداً على الشرعية وخرقاً لوحدة الجماعة اللتين يمثلها « خليفة الله »⁽⁵⁾ ، صاحب القرار والمسؤول عن اجتياح المدينة واستباحتها . ولم يكن مسلم سوى اداة في يده ، لا تملك الا الطاعة لمشيئته ، مؤكداً ذلك عشية وفاته فيما نسب اليه في معرض الدفاع عن نفسه والقاء الوزر على الخليفة « اللهم ان عذبتني بعد طاعتي لخليفتك يزيد بن معاوية وقتل أهل الحرّة فاني اذا لشقي »⁽⁶⁾ . وهكذا يبدو مسلم شديد الانضباط في تنفيذ أوامر يزيد ، ومقتنعاً في اخلاصه للأسرة الحاكمة ومحاربة خصومها بمن فيهم القرشيين ، حيث ينطبق ذلك على موقفه من مروان بن الحكم الذي احتج على مقتل اثنين منهم ، فضلاً عن موقفه من معقل بن سنان الاشجعي ، أحد قادة (المدينة) في الحرّة ، قبل اعدامه على قول له سابق في خلافة يزيد⁽⁷⁾ .

ولعل تقويم ثورة (المدينة) يحتاج الى معطيات ، ربما لا تملك بعضها ، خاصة وان المادة التاريخية المتوفرة تضعها في دائرة ردود الفعل على خلافة يزيد ، دون البحث في خلفياتها السياسية أو الاقليمية أو الاقتصادية . والسؤال الذي يمكن طرحه . . اذا ما كان

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 11 ، 12 .

(2) المصدر نفسه ج 7 ص 11 .

(3) البلائري ، انساب ج 1 ص 335 .

(4) مروج الذهب ج 3 ص 71 .

(5) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 251 .

(6) المكان نفسه .

(7) « سرنا شهراً ورجعنا من يزيد صفراً ، نرجع الى المدينة فنخلع هذا القاسق وتبايع لرجل من أبناء المهاجرين » تاريخ الطبري ج 7 ص 11 .

أهل (المدينة) جاذبن حقاً في طموحهم الى السلطة ، واذا كان لديهم بديل ما للخليفة « المخلوع »⁽¹⁾ في الحجاز ؟ . وبعبارة مختصرة ، هل كان للثورة برنامجها المحدد والواضح ، أم أنها قامت تحت ضغط المتغيرات المفاجئة وموجة التذمر التي عمت الامصار نحو خلافة يزيد ؟ وللاجابة على هذه التسؤلات لا بد من البحث أولاً عن علاقة الثورة في (المدينة) بقرينتها في مكة واذا كانت إحداها امتداداً للآخرى . . وبالتالي عن دور ابن الزبير في أحداث الاولى ؟ ويبدو أن الصلة بين الثورتين كانت أكثر جدية مما هو سائد الاعتقاد ، بحيث أن تنسيقاً بحدود ما كان قائماً بين ابن الزبير وبين أهل (المدينة) ، على نحو يتعارض مع الاتجاه القائل باستقلالية كل منهما أو تجاهل إحداها للآخرى . فكلتاها كانت رافداً لجهة واحدة هي الحجاز ، كانت نواتها قد بدأت مع الحسين ثم اتسعت دائرتها بزعامه ابن الزبير ، الذي أصبح رجل المرحلة الأكثر بروزاً في ذلك الحين .

وكان من الطبيعي أن يصادف ابن الزبير تأييداً في (المدينة) التي ضمت نسبة غير قليلة من (المهاجرين) ، الذين لم تختلف أوضاعهم المعيشية كثيراً عن (الأنصار) ، بحيث شكّلوا أو كادوا الفريق المسحوق في قريش . وبذلك وجدوا ضالّتهم في ابن الزبير الذي طمع بدوره الى استعادة زعامة (المهاجرين) المفقودة . وهذا مخالف لطرح (فلهوزن) حول « الجبهة الارستقراطية » المعارضة ليزيد في الحجاز⁽²⁾ ، حيث لا نملك في هذا المجال ما يوحى بأن أوضاع هؤلاء قد وصلت الى الحد الذي يجعل منهم « أرستقراطية » مميزة على غرار ما تحقق لهم في عهد عثمان . وإذا صحّ ذلك فمن المرجح أن يؤثر على موقفهم من الثورة التي تصبح أقلّ تسويغاً عندهم ، وهو عكس ما حدث حين شاركوا بنسبة عالية فيها الى جانب (الأنصار) . ومن الواضح أنه بعد سيطرة الأمويين على الحجاز ، سقطت امتيازات هذه الفئة التي حملت هذا الاسم ، وعاشت في أجواء المعاداة للسلطة الأموية المباشرة في (المدينة) .

وبالإضافة الى ذلك فثمة مؤشرات جعلت العلاقة أمراً واقعاً ، ان لم يكن حتمياً بين الطرفين ، بدا خلاها ابن الزبير محرضاً على الثورة في (المدينة)⁽³⁾ ، مؤلباً أهلها ضد يزيد . وربما كان واسطة الاتصال بينهما اخوه المنذر ، ولكن الثابت أن هذا الدور انبط بأحد كبار معاونيه من بني عديّ ، الذي كادت أن تكون له قيادة الثورة ، لولا اصرار (الأنصار) ، على تزعمها لاعتبارات خاصة بهم : « ثم دعا الناس الى اظهار خلعه

(1) البلاذري ، انساب ج 1 ص 321 .

(2) تاريخ الدولة العوية ص 159 .

(3) البلاذري ، انساب ج 1 ص 327 .

وجهاده - أي يزيد - وكتب الى أهل المدينة بذلك . . . وأخذ له البيعة . . . عبد الله بن مطيع العدوي^(١) . ولكن ابن الزبير على ما يبدو أخفق في تزعم هذه الحركة ، في وقت كان يزال خارج دائرة المجاهدة العسكرية مع الحكم الأموي ، وبالتالي كان محدود الاستقطاب على المستوى الحجازي . ولم يشأ (الانصار) التخلي عن دورهم التاريخي مرة ثانية للمهاجرين ، خاصة وأنهم غالبية السكان فيها ، باعتراف يزيد أمام موقفه اليهم النعمان ابن بشير^(٢) . على أن مشاركة ابن مطيع « الزبيرى » في ثورة (المدينة) ، لا تعبّر بالضرورة عن وحدة الجبهة الحجازية ضد العدو الأموي المشترك . فقد قاتلت هذه الأخيرة دون دعم يستحق الاهتمام ، سواء من مكة أو المراكز الأخرى في الحجاز ، بحيث شكل ذلك إحدى ثغراتها العديدة ، التي كان لا بد أن تدفع بها الى ذلك المصير . ولن يختلف الأمر بالنسبة لمكة ، التي قاومت الأمويين من خلال ظروف أفضل على جميع الصعيد ، إلا أنها فشلت بدورها في تحقيق الجبهة الحجازية المتناسكة حولها . فالمدينة بعد نكبة الحرّة لم تبال كثيراً بالحصاريين (الحصين والحجاج) ، اللذين استهدفا مكة ، بحيث كانت ردة الفعل أقل بكثير من تلك التي شهدتها الأقاليم الأخرى خارج الحجاز كالكوفة أو البصرة على سبيل المثال .

على أن استقلالية ثورة المدينة لا تعكس صلابة الجبهة فيها ، التي كانت وليدة الجبهة الحجازية المتناقضة ، حيث امتلأت بصنوف النامس منذ تكوينها الإسلامي . ولعل قائمة « قتل الحرّة » الذين ذكرهم (ابن خياط)^(٣) ، لا تدع مجالاً للشك بأن (المدينة) كانت لا تزال هي الأولى في الاستقطاب ، على نحو جعل نسبة سكانها القرشيين تفوق نسبتهم في مكة نفسها^(٤) . وهي بداية أن تكون العاصمة مركز التجمع الرئيسي لهؤلاء ، خاصة وأن القيادة السياسية في الدولة كانت معقودة لهم . وهذا التكوين السكاني غير المتلاحم ، كان لا بد أن يشكل ثغرة مهمة ثانية في ثورة المدينة حيث تعجل ذلك في اختلاف (الانصار) وقريش على الزعامة التي كانت لحين مزدوجة ، مما حدا بعبد الله بن عباس الى تحذير أهل (المدينة) من الانقسام « اميران ، هلك القوم »^(٥) . ولم تلبث هذه المخاوف أن ظهرت في سرعة انهيار المقاومة في (المدينة) وانسحاب قائد القرشيين (عبد الله بن مطيع) الى مكة^(٦) .

(١) البلاذري - أنساب ج ١ ص 319

(٢) « ان عدد الناس بالمدينة الأنصار » ، المصدر نفسه ج ١ ص 321 .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص 293- 315 .

(٤) الامامة والسياسة ج ١ ص 202 .

(٥) خليفة بن خياط ج ١ ص 290 .

(٦) الامامة والسياسة ج ١ ص 202 . البلاذري ، أنساب ج ١ ص 328 .

أما الشفرة الثالثة التي يشار إليها كعامل أساسي من عوامل فشل الثورة ، تأمر بني حارثة ضد اخوانهم في (المدينة)^(١) ، الامر الذي أدى الى كشف مواقعهم وإرتباك تحركاتهم . فقد فاجأ القائد الشامي الثوار من الداخل ، حيث « أكرمهم كميناً مما يلي منازل بني حارثة »^(٢) ، الذين سمعوا « التكبير خلفهم في جوف المدينة وأقحم عليهم بنو حارثة أهل الشام »^(٣) . فكان أن خرق موقف هؤلاء صمود الجبهة الداخلية الذي راعى عليه الثوار من خلال الخندق الذي تحصنوا به في وجه الجيش الشامي . أما بنو حارثة فقد خرجوا سالمين بعد نكبة (المدينة) لقاء تواطئهم ، الذي دفع عنهم انتقام القائد المنتصر^(٤) . ولقد جاء « تأمر » بني حارثة وانسحاب ابن مطيع في أعقاب ذلك^(٥) ، ضربة قاصمة للانتصار الذين أصبحوا هدفاً سهلاً للشاميين ، وتقع على عاتقهم العبء الرئيسي في المأساة التي حلت بالمدينة .

ومن خلال هذه المؤشرات ، فإن ثورة (المدينة) لم تكن مؤهلة في نطاق إمكاناتها المتواضعة ، لتحقيق انتصار ضد الجيش الاموي القوي والمنظم . ولعل الفرصة الممكنة التي كانت في متناولها وربما في ذهن قادتها ، هي مقاومة الحصار العسكري بالحد الأقصى من الصمود ، وصولاً الى دعم القوى المناهضة للامويين وتصعيد موجة الاستنكار ضد الخليفة ، الذي أحيط بالعزلة نتيجة اخفاقه في معالجة حركات المعارضة ، حيث أصبح لها الجمهور الواسع في أوساط المسلمين . وانطلاقاً من ذلك فإن ثانية محاولات (الانتصار) بعد السقيفة ، لاختاذ دور قيادي ، قد بلغت بالفشل الذريع ، الذي كان أكثر إحباطاً لمعوياتهم ، وأدى بالتالي الى انتهاء دور (المدينة) السياسي ، وتجميع الانتصار ، الذين لم تقم لهم قائمة بعد ذلك على حد تعبير الدكتور طه حسين^(٦) .

ولعل الفارق بين المحاولتين أن الاولى (السقيفة) كانت موجهة ضد (المهاجرين) ، بينما الثانية (الحرة) استهدفت قريش ممثلة بالامويين وحلفائهم من قبائل الشام . وكانت المصلحة المشتركة والمعاناة المتشابهة الى حد ما ، قد جمعت بين (الانتصار) و (المهاجرين) في جبهة واحدة ضد الخليفة الاموي ، الذي أحدث مجيئه الى الحكم ضرراً

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص 193 .

(٢) البلاذري ، انساب ج ١ ص 318 .

(٣) خليفة بن خياط ج ١ ص 291 .

(٤) الامامة والسياسة ج ١ ص 195 .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص 202 .

(٦) في الأدب الماحلي ص 123 . راجع أيضاً الامامة والسياسة : « كان أهل المدينة أمراً الناس وأهملهم حتى كان الحرة فاجبروا الناس عليهم نهائياً » ج ١ ص 201 . وكذلك للهورن ، تلخيص الدولة العربية ص 158 .

بمصالح الطرفين السياسية والاقتصادية . وقد تكون لزعامه ابن الزبير دورها في توحيد مشاعر (الانصار) و (المهاجرين) ضد خلافة يزيد ووضع شرعيتها موضع الطعن في الحجاز . ومن هذا المنطلق ، كان أقل عصبية إزاء (الانصار) « ، على نحو نستطيع اعتباره سابقة بعد علي في التعاطف معهم وابرار دورهم في تلك الظروف (تنازل حليفه ابن مطيع لعبد الله بن حنظلة الانصارى عن زعامه الثورة) .

وأخيراً فإن حركة (المدينة) تبقى خاضعة للسؤال التالي . . هل كانت للانصار خطة لاستلام السلطة ؟ فإذا كان ذلك قد دار في خلدكم ، فما هو موقف (المهاجرين) منها ؟ فلعلها تجربة أخرى فاشلة للانصار ، اقتصر دورهم فيها على إيصال غيرهم الى ما يطمحون اليه . . فقد أوصلت (السقيفة) التي كانوا وراءها أبا بكر الى الخلافة . . أما الحرّة ، فقد مهدت لابن الزبير « الطريق السهل » اليها .

(1) طه حسين ، في الأدب الجاهل ص 125 .

ثورة ابن الزبير في مكة - المحاولة الثانية

« .. وكان يعتقد بجدوى تحقيق هذه المعادلة مرة أخرى .. وذلك بإحياء التيار المعتدل في قريش ، الذي يتوسط الأمويين وبني هاشم ، حيث ارتبط به ثألي الشخصية الحجازية الغائبة » .

إذا كانت (المدينة) في ثورتها على الحكم الأموي قد اعتمدت فعلياً على قواها الذاتية (الانصار - المهاجرون - قريش) ، فإن ثورة ابن الزبير في مكة توجهت في الغالب الى القوى غير الحجازية ، حيث كان امتدادها الى الامصار ، أحد أهم عوامل الصمود والاستمرار لثورة اعتبرت حالة متميزة في تاريخ المعارضة الأموية . فقد اثبتت (المدينة) عبر موقعها الجغرافي الحيوي تفوقها على مكة التي قامت شهرتها أساساً على شبكة علاقاتها « الايلافية » الواسعة .. حتى اذا زالت هذه الاسباب (انتقل محاور التجارة بصورة خاصة الى العراق) ، ظهر عجزها عن متابعة ذلك الدور القيادي ، لافتقادها الى القوة الذاتية الممكنة ، باستثناء ما وُصف به المكيون من ذكاء وخبرة ، كانتا السبيل الى استعادة نفوذهم ، خارج مكة ، سواء في (المدينة) أو في مراكز الفتوح . وانطوت منذ ذلك الوقت عاصمة الحجاز القديمة على ماضيها الساطع ، منكفئة على عزلتها الا من مواسم الحج ، نافذتها الوحيدة الى العالم الخارجي . ولم يكن هذا الامر مجهولاً لابن الزبير عند اعلان ثورته في مكة ، وذلك في سعيه الحثيث الى تعزيز مواقفه في الامصار ، لا سيما العراق الذي كان الاكثر قدرة على مواجهة الشام الأموية . ولعله اقتبس الفكرة نفسها التي راودت أباه الزبير قبل ربع قرن ونيف ، وذلك في التوجه المبكر نحو هذا الاقليم ، عبر اثنين من أكفأ قيادات الثورة (مصعب بن الزبير وعبد الله بن مطيع) .

ويبدو أن عبد الله بن الزبير كان يطمح مع الخلافة الى استعادة دور « الحجاز الراشدي » ، الذي أفل نجمه بعد اغتيال عمر بن الخطاب . وكان يعتقد بجدوى تحقيق هذه المعادلة مرة أخرى ، على غرار ما قام به الخليفة السابق ، وذلك بإحياء التيار المعتدل في قريش ، الذي يتوسط الأمويين وبني هاشم ، حيث ارتبط به ثألي الشخصية الحجازية

الغلبة . على أن هذا النهج التوفيقى الذى تمسك به ابن الزبير حتى آخر أيامه ، كان أحد اختطاته الجسيمة التى قادت الى الفشل . ذلك أن أية محاولة لا تتفاعل مع المعطيات المتزامنة معها ، تحكم على نفسها بعدم الواقعية وتجاوز الوقت لها . ولعل العراق كان الخيار الوحيد كمقر ملائم لهذه الثورة ، خاصة بعد السيطرة على الكوفة ، إثر مرحلة من الاستفادة للقوتين الأموية والشيعية التى خرج منها ابن الزبير منتصراً بأقل قدر من الجهد (هزيمة التوابين فى عين الوردة والجيش الأموى عند الحجاز والمختار فى حروراء)⁽¹⁾ . ولكنه ترد فى حسم هذه المسألة ، فى وقت أصبح فيه محط آمال العراقيين فى إسقاط الحكم الأموى . وكان الدافع الى هذا التردد اعتبارين على الأرجح : الأول هو التعصب للحجاز وإيمانه باستعادة دوره السابق ، انطلاقاً من التأييد الواسع الذى حظي به ، كواحد من أبرز أبناء الصحابة « المهاجرين » . والثانى تخوفه من موقف العراقيين وتشكيكه فى استمرار ولائهم له ، حيث كانت تجربة الحسين غير مشجعة فى الاعتماد عليهم . وقد نسب اليه بعد مقتل هذا الأخير ما يؤكد هذه الشكوك ، وذلك فى حملته على العراقيين الذين وصفهم بأنهم « غدر فجر الا قليلاً » ، وإن أهل الكوفة شر أهل العراق⁽²⁾ . ولذلك تمسك ابن الزبير بمكة انطلاقاً مما قتلته زعيمة الحجاز السابقة ، من تأثير على المعارضة الحجازية ، لا سيما تيار « المهاجرين » بعد فشل حركة (المدينة) ، فضلاً عن الحركات السابقة التى قامت فى العراق ولقيت المصير نفسه (حركة البصرة ضد عليّ وحركة الكوفة ضد يزيد) . وكانت مكة لا تزال بعد مضي نصف قرن على (السقيفة) ، فاقدة دورها السياسى الذى انتقل مع ابنائها الى (المدينة) قدمشق . وهكذا فإن محاولة ابن الزبير لم تهدف الى استعادة الاعتبار لتيار « المهاجرين » فقط ، ولكن لمدينتهم التى فقدت نفوذها القديم وتلاشى موقعها السياسى فى ظلّ الاسلام ، بعدما أفرغت من الجند وأصحاب الطموح وبقيت القوى المؤثرة فيها .

ويبدو لنا عبد الله بن الزبير من خلال تلك الحقبة الاسلامية المبكرة ، شخصية متميزة تنطوى على كثير من الذكاء والطموح والتجربة ، فضلاً عن تربية وثيقة العلاقة بالسلطة ، الأمر الذى كان له تأثير واضح فيما بعد على مفهومه السياسى والاجتماعى . وبعبارة أخرى فإن تحذره من بيت ميسور⁽³⁾ كانت الخلافة أحد همومه الأولى ، لم يترك فى نفسه من المعاناة ما يجعله فى موقع التعبير عن الفئات المقهورة والتجسيد لأمالها فى التغيير المنشود . فقد ولد ابن الزبير فى (المدينة) فى العام الثانى الهجرى ، حيث امتاز بأنه « أول

(1) تاريخ الطبرى ج 7 ص 150 ، 151 . ابراهيم . بهزون ، التوابون 157-181

(2) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 98 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ج 3 ص 103 ، 108 .

مولود من المهاجرين (١). وكونه أكبر اخوانه (٢) سناً ، اتاحت له المشاركة مع أبيه في العديد من المهام البارزة ، لا سيما ذات الطابع العسكري وفي طليعتها حروب الشام الواقعة في أحداث العام الهجري الرابع عشر . ولعل حداثة سنه آنذاك قد لا تسمح له القيام بهذا الدور وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشر (٣) ، الامر الذي يتعارض مع التقليد الحربي المتبع في ذلك الوقت ، الذي يشترط على المقاتل اتمام الخامسة عشرة من عمره (٤) . وقد تكون مشاركته أشد احتمالاً في حملة مصر ، التي كان الزبير من قادتها البارزين (٥) . على أن أكثر ادواره العسكرية المبكرة شهرة ، كانت على الجبهة الافريقية ، حيث اشترك مع آخرين من أبناء الصحابة في حملة عبد الله بن سعد ، والي عثمان على مصر (٦) . كما أسهم في حملة معاوية بن خديج (في عهد معاوية) ، وقام بهجوم جرىء على معسكر البيزنطيين (قرب سوسة) ، كان السبب المباشر في انتصار العرب المسلمين (٧) ، فضلاً عن اشتراكه في حملة يزيد بن معاوية التي استهدفت القسطنطينية (49 هـ) . وبذلك يكون ابن الزبير ، قد أسهم في معظم حملات العهد الراشدي وجانب من النشاط العسكري في عهد معاوية ، لا سيما في النصف الأول من خلافته . وتتجلى شخصيته القتالية في موقفه الصلب من أبيه الزبير في معركة الجمل (٨) عرضاً اياه على الصمود والاستمرار في الحرب : «إنها لطوال حداد يحملها فتية أنجاد» (٩) . وقد اكتسب بفضل شجاعته هذه ، شخصية متميزة (١٠) ، طغى الجانب العسكري فيها على الجانب السياسي ، الذي بدا مفتقراً الى بعد النظر وبراعة المناورة .

كانت معركة الجمل المحطة الاولى المهمة في طموح عبد الله بن الزبير الى السلطة ، حيث برز آنذاك شخصية قوية ومتوازنة بين طرفي التحالف المتنافسين (طلحة والزبير) ، الى درجة ان عائشة التي كان مقرباً اليها ، حسمت لمصلحته امامة الصلاة (١١) التي اختلفا

(1) ابن خياط ج ١ ص 25 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ج 30 ص 100

(3) ولد بعد عشرين شهراً من الهجرة ، راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 211 .

(4) ابن هشام ج 3 ص 70 ، فتوح ص 215 .

الحروب ، عبد الله بن الزبير ص 14

(5) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ص 246 .

(6) ابن عسار ، البيان للمغرب ج ١ ص 16-17 . يعضون ، الدولة العربية في اسباب ص 28 .

(7) تاريخ الطبري ج 6 ص 30 .

(8) الحروب ، عبد الله بن الزبير ص 45 .

(9) اخلاقي ، وقعة الجمل ص 39 .

(10) وصف السيوطي : ابن الزبير بأنه « فارس قريش في زمانه » ص 212 .

(11) تاريخ الطبري ج 5 ص 169 ، الحروب ، عبد الله بن الزبير ص 168

عليها وكادت تؤدي بالجبهة المتحالفة الى الانقسام . ورجع ابن الزبير بعد الهزيمة الى (المدينة) مع أسرى « الجمل » ، وقد حل جراحه التي أصيب بها مدافعاً عن خالته (١) ، ليصبح من رموز (المهاجرين) الذين فقدوا نفوذهم السياسي وانكفأوا على هامش السلطة منذ الحرب الأهلية في (صفين) . ولأن مقتل عثمان مثل في جانب أسامي منه ، هجمة الامصار على الحجاز ، بما رافقها من حقد الجند وقادتهم على زعمائه ، سواء داخل السلطة أم خارجها ، الذين أصابوا منزلة عالية من الثراء ، فإن ابن الزبير مثل بدوره من هذا المنطلق ثيار (المهاجرين) المهزوم وطمح الى استعادة دور الحجاز السياسي الذي انتزعتهم الامصار . وفي ضوء هذا الموقف ، فإن ثمة تلازماً بين طموحه وبين اقليميته التي ظهرت في دفاعه عن عثمان أثناء حصاره ، وفي استبساله في حرب الجمل التي مهّدت لانتقال مركز الخلافة الى العراق . . وأخيراً في اصراره على اتخاذ مكة عاصمة له ، بما يعنيه ذلك من تصلب نحو هذا الاتجاه الذي تمجده زعيمة الحجاز السابقة .

ومن البديهي أن يكون لهذا الموقف صدهاء لدى الحجازيين ، الذين التفوا حول ابن الزبير وأظهروا حماسة شديدة له : « فقد بايعه أهل مكة على القتال وآتاه فلّ أهل الحرة فصار في بشر كثير » (٢) ويبدو أن فئة من المدينة فقط ، ممن اتيج لها الافلات من قبضة مسلم ، قد التحقت بابن الزبير ، بينما الاكثرية التزمت الصمت القهري بعد المعنة التي ألّت بها . وعلى الرغم من تحفظ بعض زعمائها من بني هاشم وآخرين من أبناء الصحابة (٣) ، فإن أهل (المدينة) لا سيما (الانصار) ، قد وضعوا آمالهم في ابن الزبير ، كسبيل الى تحقيق انتقامهم من الامويين (٤) . وهكذا فإن مضمون الصراع السياسي بين يزيد وابن الزبير ، إنما هو في الواقع صراع الحجاز والشام على النفوذ ومحاولة كل من الاقليميين تكثيل جهوده وتدعيم حقه الشرعي في الخلافة . وكانت المواجهة المسلحة بينهما ، تكريساً حتمياً لهذه النزعة الاقليمية التي رافقت تلك الحرب ، حيث قام جيش مسلم بتشكيلته الشامية بمهمة القضاء على ثورة الحجاز واسكات صوت المعارضة في هذا الاقليم بكل ما أوتي من التطرف والعنف .

ويبدو أن مسلماً بعد اخذ ثورة (المدينة) ، لم يشأ اعفاء سكانها الامويين من مسؤولية أخطائهم التي أسهمت في انبيار الموقف فيها ومن ثم فشلهم في الدفاع عن

(1) المصدر نفسه ج 5 ص 217 .

(2) البلاذري ، اتب ج 1 ص 338 .

(3) المصدر نفسه ج 1 ص 352 .

(4) VESSELY, Al-Arabi, P. 49.

الخلافة . وكان قد نسب اليه ما يشير الى استيائه منهم ، عندما اختاره يزيد قائداً لتلك المهمة : « فلما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار . . . ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا حتى يجهدوا انفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم »^(١) . فكان ذلك سبباً في ابعادهم عن ادارة (المدينة) ، لأول مرة منذ انتقال الخلافة الى البيت الاموي ، عندما اختار والياً مؤقتاً لها ، روح بن ذنياع الجذامي ، أحد زعماء السلم ، الذي سيكون له دور بارز في العهد المرواني^(٢) . ولكن مسلماً الذي بدأ من خلال سلوكه في الحجاز ، أنه يتمتع بصلاحيات غير محدودة من الخليفة ، ما لبث أن توفي^(٣) بعد قليل من مغادرته (المدينة) لاستكمال الحلقة الاساسية من مهمته في مكة . فانطلقت قيادة الجيش الشامي ، ربما حسب وصية مسبقه الى معارنه الحصين بن نمير السكوني^(٤) ، الذي تردد اسمه لاحقاً في مهات عدينة مماثلة تحت لواء الحكم الاموي ، كان آخرها تلك التي أودت بحياته مع عبيد الله بن زياد في معركة نهر الخازر أمام جيش المختار الثقفي (67 هـ) زعيم الكوفة في ذلك الحين^(٥) .

ولقد واجه ابن الزبير تقدم الجيش الشامي ، باعلان «تعبئة عامة» في مكة والدعوة الى بيعته ، كبادرة على الاستمرار في تحدي الخليفة الاموي ، ذلك الموقف الذي ألهم حماسه الحجازيين وصعد تأييدهم للزعيم الحجازي . ومن المفيد التوقف عند تشكيلة هذه الجبهة الزبيرية في مكة والقرعة المؤثرة فيها على الصعيد العسكري . فتمتة تحالف فرضه الامر الواقع ، قد وصفه (الطبري) بأنه ضم « أهل الحجاز . . . وكل أهل المدينة »^(٦) . وكلاهما تعبير تعوزه الدقة ، باعتبار أن هذه الاخيرة والقبائل المحيطة بها ، كانتا في ظروف لا تسمح بالتحرك في أعقاب محنة (الحرّة)^(٧) باستثناء الذين قدر لهم النجاة والالتحاق بمكة . وكذلك ابن الاثير في وصفه لهؤلاء بـ « المهزومين من أهل المدينة »^(٨) . هذا بالإضافة الى عدد آخر من الذين انضموا الى المكين من خارج الحجاز ، كالحوارج من

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 6 . وحدث في الكلل لابن الاثير : « ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا ، فانهم الاذلاء » ج 4 ص 112 .

(2) البلاذري ، انساب ج 1 ص 337 .

(3) تولى مسلم بن عقبة في مكان يسمى « المثلل » على مقربة من (المدينة) في اوائل 64 هـ . تاريخ الطبري ج 7 ص 14 .

البلاذري ، انساب ج 1 ص 337 .

(4) البلاذري ، انساب ج 1 ص 337 .

(5) تاريخ الطبري ج 7 ص 144 .

(6) تاريخ الطبري ج 7 ص 14 .

(7) البلاذري ، انساب ج 1 ص 339 .

(8) انكامل ج 4 ص 123 .

الفرقة النجدية^(١) والمختار الثقفي^(٢) ، الذي كان منفيًا من الكوفة ، ووجد في ابن الزبير حليفًا مرحلياً ضد العدو الاموي المشترك . وكان ثمة محور لهذه الجبهة وهو زعيم قرشي من مكة (السور بن حرملة)^(٣) ، الذي « أعان ابن الزبير بمواليه وسلاح كثير » حسب تعبير البلاذري^(٤) .

أما الموقف الهاشمي فيبدو أنه كان على هامش التحرك الثوري الذي شهدته الحجاز في مطلع خلافة يزيد بن معاوية . فإذا ما استثنينا الدور الثانوي الذي شغله بقص عناصرهم في (الحرة) ، فإن معارضة بني هاشم كانت بصورة عامة خارج نطاق المجابهة الفعلية مع الحكم الاموي في هذا الاقليم ، حيث أصبح العراق مركز النفوذ الاول ومحور الزعامة الهاشمية الرئيسي ، منكرساً ذلك مع ثورة الحسين وانكاساتها بعد مقتله على الكوفة . ومن جهته فقد اخفق ابن الزبير في استقطاب الهاشميين ، شأن بقية أبناء الصحابة ، الذين لم يتعاطفوا مع حركته ، مما شكّل أحد أخطائه العديدة التي افقدته الدعم الشعبي الواسع المرتبط بهم . وقد بلغ من التأثير المعنوي لهؤلاء على حركات المعارضة ، أن ثمة مؤرخاً معاصراً وجد بين أسباب الانهيار السريع لثورة (المدينة) « أنه لم يترعمها أحد من بني هاشم الذين لزموا بيوتهم ، أو أحد من قادة العرب المعروفين »^(٥) - ولعله المقصود هنا أبناء الصحابة .

وهكذا فإن المعارضة الهاشمية ، كانت معارضة لابن الزبير في الوقت نفسه ، ولكنها تظاهرت بالحياد في ذلك الصراع بينه وبين الامويين . ولعل الحافز الى اتخاذ هذا الموقف أن قوة بني هاشم السياسية في الحجاز ، خرجت مدعّرة بعد مقتل زعيمها مع أبنائه واخوانه في كربلاء . وما تبقى منهم كان لا يزال تحت وطأة هذه الحادثة المأساوية أو في صدد الترقب للأوضاع المستجدة والتطورات السريعة . ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء وجدوا في حركة ابن الزبير ، وإعلانه الخلافة لنفسه ، اعتداء على « حقهم » فيها ومنافسة لهم بصورة مباشرة . ولا يلبث الموقف الهاشمي أن يصبح أكثر بلورة ، حيث تراوح بين الرفض والاعتكاف في النطائف ، تلك المدينة التي عرفت بولائها الاموي التقليدي ، كدلالة على عدم التعاطف مع ابن الزبير . وخلافاً لذلك فإن هذا الموقف جعل الهاشميين ادنى مسافة الى الشام ، التي سارع خليفتها الى اظهار تودده نحوهم . وقد تجلّى ذلك في

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 14 .

(2) البلاذري ، انساب ج 1 ص 140 .

(3) السور بن حرملة بن نوفل بن أمية بن عبد مناف بن زهرة . تاريخ الطبري ج 7 ص 14 .

(4) الانساب ج 1 ص 340 .

(5) مانجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 88 .

« كتاب الشكر » الذي أرسله يزيد لعبد الله بن عباس ، فيما رواه اليعقوبي « فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك الى بيعته وعرض عليك الدخول في طاعته لتكون على الباطل ظهيراً وفي المأثم شريكاً ، وانك امتنعت عليه واعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا وطاعة لله فيما عرفك من حقنا . . . فاني ما أنسى من الاشياء ، فلست بناس برك وحسن جزائك » (1) . ولكن الموقف الهاشمي كان لا يزال بعيداً عن الالتزام بقاعدة « العدو المشترك » ، التي حاول يزيد النفاذ منها الى الهاشمين لتسوية العلاقة معهم . فقد غيب ابن عباس أماله ، بالتصدي لهذا التودد ، في وقت لا زالت فيه كربلاء ، جرحاً نازقاً في قلوبهم : « . . . وسألني أن أحث الناس عليك واخذلهم عن ابن الزبير . . . لا تحسبني ، لا اباك لك ، نسيت قتلك حسينا وفتيان بني عبد المطلب » (2) .

والواقع أن الطائف كانت رغم نزعتها الاموية ، قد تعرضت لتعديل في تكوينها السكاني ، حيث شهدت ، على غرار مكة ، نزوحاً كبيراً نحو الامصار ، خاصة في المرحلة التأسيسية من خلافة معاوية ، الذي أفرغ للثقيفين مكانة بارزة في ادارته . وفي ضوء هذا الموقف ، فإن الفرز الحجازي الذي تبلور في ذلك الحين ، كان له انعكاسه على الثقيفين الذين توزعوا بين فئة محظية ، اتخذت مواقعها في العراق والشام ، واخرى متوسطة الحال لم تغادر الطائف حيث عاشت بين الحيات والمعارضة ، التي كان يمثلها المختار بن أبي عبيد الثقفي . ولذلك تصبح هذه المدينة مركز تجمع المعارضة الهاشمية بزعمارة ابن عباس (3) ، بعد ان اتخذت مكة لفترة خلست هذا الدور التقليدي . وكان زعماءها هدف حملة شديدة من جانب ابن الزبير ، لحملهم على الرضوخ له والاعتراف بخلافته . ويبدو أن عبد الله بن عباس كان أول الملتحقين بالطائف (4) ، فيما الزعيم القوى الآخر (محمد بن الحنفية) ، بقي في مكة متحلياً ابن الزبير وراقصاً بيعته . وحسب رواية المسعودي ، فإن هذا الاخير قد « عمد الى من بمكة من بني هاشم ، فحصرهم في الشعب وجمع لهم خطباً عظيماً لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد ، وفي القوم محمد بن الحنفية » (5) .

ولعل هذه الرواية تبين لنا الدور الذي احتله ابن الحنفية بعد غياب الحسين ، بحيث شكل منافسة جدية لابن الزبير الذي وجد في موقع الزعيم الهاشمي خطراً كبيراً على

(1) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 247 .

(2) المصدر نفسه ج 2 ص 748 . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 127-128 .

(3) المسعودي ، مروج ج 3 ص 76 .

(4) الامامة والنجاسة ج 2 ص 11 .

(5) مروج ج 3 ص 76 .

نفوذه في مكة . ويدل أن هذا التحذير قد جرّ عليه الاضطهاد والتعذيب فضلاً عن السجن^(١) ، الى درجة دفعت قريبه (ابن عباس) للتدخل وحمله على التخفيف من حدة خصومته لابن الزبير ، اني لأأمنه عليك فبايعه^(٢) . ولكن ابن الحنفية رفض الاستجابة لذلك ، وقيل أنه غادر مكة تحت ستار الظلام الى العقبة^(٣) ، مبتعداً عن ملاحقة ابن الزبير . ويشير البلاذري الى أن هذه السياسة نحو بني هاشم ، كانت سبباً في تأليب الشيعة في الكوفة ضد الزعيم الحجازي ، حيث أوفدت اليه رسلاً^(٤) للاحتجاج على حبس ابن الحنفية ، كما كان ذلك سبباً على الأرجح في خلافه مع المختار الثقفي وانفصال هذا الأخير عنه .

وإذا ما انتقلنا الى مناقشة موقف ابنه الصحابة من غير الهاشميين ، فإن ابرزهم آنذاك ، كان عبد الله بن عمر ، الذي التزم بالموقف التقليدي في معارضته للسلطة ، ولم يتجاوز معه النقد أو المجابهة السلمية . وكان يحذره الى هذا الاعتدال ربما الزهد الشخصي في الخلافة ، بلجونه الدائم الى الانحناء أمام العاصفة ، مؤثراً اختيار الحلول الوفاقية على الثورة والعنف . على أن ذلك لم يحل دون استمرار ابن عمر طرفاً أساسياً في المعادلة الحجازية ، بحيث أن أحداً لم يستطع تجاهل دوره في هذا السبيل^(٥) . ولا ريب أنه التقى مع الهاشميين في المعارضة المبدئية ، لأن حركة ابن الزبير لم تكن بآراء البديل المطلوب للحكم الاموي ، بدليل اختصارها الى الحد الأدنى من التوجه الاصلاحى الذي تفرضه تلك المرحلة^(٦) . ومن هذا المنطلق فانه يجد في ابن الزبير مجرد مباع الى الحكم ، متحركة فيه نزعة السلطوية على ما عداها .. وهذا ما يعكسه موقف ابن عمر المنسوب اليه في رواية (البيهقي) عندما وسط ابن الزبير زوجه الأخير^(٧) لحمله على البيعة له ، فيصرّح بأنه - أي ابن الزبير - لا يطلب سوى الخلافة^(٨) .

وهكذا فان موقف المعارضة الحجازية بزعمائها الثلاثة الكبار عبد الله بن عباس ، محمد بن الحنفية (هاشم) ، عبد الله بن عمر (عدي) ، الذين مثلوا القوة الرئيسية في

(1) البلاذري ، انساب ج 1 ص 316 .

(2) السعدي ، مروج ج 3 ص 77 .

(3) الكنان نفسه .

(4) أبو عبيد الله الجعفي . انساب ج 1 ص 317 .

(5) البيهقي ، الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام . خطوط وورقة 32 . دار الكتب المصرية رقم 399 تاريخ

(6) البيهقي ، الاعلام ورقة 32 .

(7) صفية بنت أبي عبيد وهي أخت المختار الثقفي .

(8) أما رأيت بطلان معاوية التي كان ينجح عليها الشهادة ، فان ابن الزبير ما يريد غيرهن . الاعلام ورقة 32 .

تَيَّار (المهاجرين) ، لم يكن متعاطفاً مع ابن الزبير ، الذي بدا معزولاً منذ وقت مبكر في مكة ، بعد أن فشل في استقطاب هذا التيار وتبني قضيته في استرداد حقه في الخلافة من الامويين . فكان لابتعاد هؤلاء عن مكة ، تأثير كبير على حركة ابن الزبير ، التي فقدت بغيابهم أحد أبرز مسوغاتها في الحرب ضد يزيد ، نتيجة حياد أبناء الصحابة الذي ساءل بين الطرفين المتنافسين : الاموي والزبيرى . ولقد حاولت دمشق استغلال هذه الثغرة ، عبر اتصالاتها بالمعارضة الهاشمية في الطائف على النحو الذي سبق أن أشرنا اليه .

الحصار الأموي الاول لمكة

لم يأخذ الزحف الاموي على مكة طابعه الجدى لدى جماعة ابن الزبير في بادئ الامر . فعلى الرغم من الضربة التي نزلت بـ (المدينة) ، فان هؤلاء لم يتوقعوا⁽¹⁾ على الأرجح تكرار المحنة نفسها في مكة ، التي انفردت بحصانة خاصة ، استمدتها من الكعبة ودورها في التكوين التاريخي لهذه المدينة قبل الاسلام وبعده . وإذا كان هنالك تسويغ ما لاستباحة (المدينة) التي كانت لها خلفيتها الثأرية برأى بعض الكتاب والمؤرخين⁽²⁾ ، فقد لا يكون الامر كذلك بالنسبة لمكة . وكان طه حسين في طليعة الذين تناولوا « الحرة » من خلال هذا المفهوم عندما انتظمت قريش - ممثلة بيزيد -⁽³⁾ من الذين انتصروا عليها في بدر⁽⁴⁾ . وكذلك المؤرخ الالماني Vesely الذي اعتبر هذه الحادثة « فزوة العداء بين الانصار وبني أمية »⁽⁵⁾ . أما بشأن مكة فقد اختلف الامر الى حد ما ، حيث افترض أصحاب هذا الاتجاه من « العائدين »⁽⁶⁾ بالكعبة مع ابن الزبير ، أن مهمة الجند الشامي لن تتجاوز حدود الضغط على هذا الاخير لحمله على الاستسلام . بالإضافة الى ذلك فان الخليفة الاموي برأيهم لم يعد في موقع يشجعه على الاستمرار في خطته الهجومى ضد المعارضة الحجازية التي تمحورت في المدينة القرشية العريقة ، ومن ثم للغامرة بالقليل المتبقي من رصيده الاسلامي بعد كربلاء والحرة . ولكن الذين راقبوا الامور بصورة أكثر واقعية ، لم يخالفهم الشك بأن السلطة الاموية بزعامه يزيد ومعاونيه المتطرفين⁽⁷⁾ ، لن تتورع عن القيام بأية محاولة جديدة ، مهما بلغت من الشراسة ، متدركة بالدفاع عن نفسها من الاخطار العديدة التي حاصرتها من مختلف الجهات .

ولذلك جاء تقدم الحصين بن نمير - قائد الشاميين بعد مسلم - نحو مكة ، تنفيذاً

(1) Muir, the caliphate, P. 331 (1)

(2) البلاذرى ، انساب ج 1 ص 323 . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 112 . ماجد ، التاريخ السياسي ج 2 ص 88 .

(3) في الادب الجاهلي ص 123 .

(4) Vesely, Al- Anzar, P. 45 (4)

(5) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 124 .

(6) من أمثال عمرو بن سعيد بن العاص ، حبيد الله بن زياد ، مسلم بن عقبة ، الحصين بن نمير

لخطة تم إقرارها في عاصمة الخلافة ، حيث كانت حركة ابن الزبير هاجمها الرئيسي ومصدر قلقها الجذري . وتشير رواية (المدايني) الى اتخاذ القائد الشامي معسكره عند « بئر ميمون »⁽¹⁾ بجوار مكة ، تمهيداً لأحكام الحصار⁽²⁾ حولها . وقابل ذلك تعبئة عامة داخل المدينة التي دافعت بشراسة لصد الهجوم الشامي⁽³⁾ . ومن هنا كانت بداية الحصار شاقة ومضنية بالنسبة للقائد الجديد (الحصين) ، حسب قول (لامنس)⁽⁴⁾ . فقد استطاع ابن الزبير تعزيز أوضاعه العسكرية ، بعد استفار خصوم الامويين ، تحت شعار الدعوة لحماية « البيت »⁽⁵⁾ ، التي كان لها صداها المؤثر على عدد من القوى والشخصيات الخليفة ، حيث كان للخوارج ، كما للمختار الثقفي دور بارز في التصدي لمحاولات الحصين والخوارج دون دخوله الى مكة⁽⁶⁾ . وكانت مهمة الدفاع عن الكعبة قد اسندت الى مصعب بن الزبير ، بعد « تصفيحها » بالواح من الساج⁽⁷⁾ وتدعيمها بالخشب و « تحليلها بالجلود لئلا تترد عنها »⁽⁸⁾ . ويدل أن الحصين شعر بأهمية هذه القوة الدفاعية ، فحافظ القيام بهجوم مباشر عليها ، مستعاضاً عنه بقذائف المنجنيق التي كان للكعبة نصيب وافر منها ، وذلك لاحتياط معنويات المقاتلين ودفعهم الى الاستسلام . ولا شك أنه كان تواقاً الى انجاز عمل يستأثر برضى الخليفة ، على نحو ما قام به القائد السابق في (المدينة) . وفي المقابل كان ابن الزبير يحاول نقل المعركة بحدود ما الى معسكر الشاميين لاشعار القائد الاموي بصلاية جبهته من جهة ، ورفع معنويات أصحابه من جهة ثانية ، تاركاً القيادة داخل المدينة لآخيه مصعب . ولكن هذه المحاولة أصيبت بالفشل وأسفرت عن مقتل عدد من القيادات القرشية بينهم المسور بن مخرمة ، محول الحركة الزبيرية⁽⁹⁾ . كما أسفرت عن تشديد قبضة الحصار على مكة واقتراب الشاميين منها⁽¹⁰⁾ .

بيد أنه من العسير معرفة التقدم الذي حققه الحصين في هذا المجال ، واذا كان جنوده قد استطاعوا التوغل الى الداخل ، على النحو الذي ذكره (لامنس) بأن « معارك دامية جرت في أحياء مكة »⁽¹¹⁾ ، حيث لم تشر أية رواية الى هذه الواقعة . ولعل ما ورد في

(1) البلاذري ، انساب ج 1 ص 339 .

(2) بدأ الحصار في الرابع من محرم (64 هـ) ، حسب رواية الواقدي الطبري ج 7 ص 15 ، ابن الاثير ج 4 ص 12381 .

(3) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343 .

(4) LAMMENS, Le califat de Yazid 1er P. 265 (4)

(5) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 124 .

(6) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343 .

(7) الامانة والسياسة ج 2 ص 13 .

(8) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343 .

(9) ابن الاثير ج 4 ص 124 .

(10) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343-344 .

(11) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343-344 .

MUIR, The caliphate, P. 331 LAMMENS, Le califat de Yazid 1er P. 265 (11)

أطار الاشتباك المسلح بين الطرفين ، اقتصر على محاولة ابن الزبير الفاشلة ومعه أخوه المنذر الذي قتل فيها⁽¹⁾ . إلى جانب اثنين من أخوانه وعدد آخر من البيت الزبيري . ، وهي تتوافق بنتائجها مع تلك التي أشار (لامنس) إلى حدوثها في داخل مكة . وهكذا فإن المرجح أن القائد الشامي اكتفى في قتاله مع ابن الزبير ، بتشديد الحصار عليه ، متفادياً ما استطاع الدخول إلى مكة التي تعزز دفاعها بصورة مضطردة في ذلك الوقت⁽²⁾ . وعن ناحية أخرى فإن أية محاولة هجومية لا بد أن تنمحض عن عدد غير قليل من القتلى ، ربما يفوق خسائر المدافعين من وجهة النظر العسكرية . وهذا لم تشهد به جبهة الشاميين ، حيث لم تذكر رواية ما ، أسماء الذين سقطوا فيها ، باستثناء الجراح التي أصابت أحد قوادها (عبد الله بن مسعدة الغزاري)⁽³⁾ ، في معركة الترامي البعيد بين الطرفين .

وكان أبرز ما في الحصار ، قذف الكعبة بالمنجنيق الذي عكس دويماً في أقطار الخلافة الأموية ، حيث اعتبر أكثر ممارسات الجيش الشامي انتهاكاً واستباحة ، بصورة جعلت هذا التصرف متفقاً في جراته على موقف عبد الله بن زياد إزاء الحسين ومسلم بن عقبة إزاء أهل (المدينة) . وكانت هذه الحادثة (قذف الكعبة وإحراقها) ، بداية النهاية الحقيقية ليزيد ، الذي لم يعد قادراً ، فيما لو أتيج له البقاء في منصبه ، على اقناع الرأي العام بشرعية سلطته ، بعد أن أصبحت موضع الطعن اثر ذلك التحدى الصارخ للرموز الإسلامية (مكة ، المدينة ، حفيد النبي) . وقد نساءل من خلال هذه المعطيات ، إذا كانت وفاة يزيد المفاجئة أمراً طبيعياً في ذلك الوقت أو أن لها علاقة بالأخطاء الجسيمة التي ارتكبها ، وأصبحت حائلاً دون استمراره في السلطة بعد أن فقد بسببها ثقة المسلمين ؟ ومن المنطوق نفسه يصح التساؤل عن دور ما لابن الزبير في التطورات التي كانت تجري داخل أسوار البلاط الأموي في دمشق ؟ كما يصح البحث عن دور الضحّاك بن قيس ، أقوى شخصيات الشام بعد الخليفة ، الذي تحول فجأة نحو ابن الزبير ، متأثراً بنقمة على يزيد الذي سار في ركاب أخواله الكلبيين وخضع لهم⁽⁴⁾ ؟ . ويبدو أن الضحّاك ، نتيجة لذلك ، كان على اتصال مسبق بإبن الزبير ويقوم بالدعوة له بصورة سرية⁽⁵⁾ ، بحيث ما

(1) ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 124 .

(2) البلاذري ، أنساب ج 1 ص 343 .

(3) بشر البلاذري في رواية للمدائني ، أنه بين الذين دافعوا عن مكة جماعة الحبشة أرسلهم النجاشي بلغ عددهم مائتي رجل قاتلو تحت لواء مصعب . للمل هؤلاء من بقايا المسلمين المهاجرين إلى الحبشة في أيام النبي ، أو أنهم يشكلون إحدى الجاليات التجارية لها . (أنساب ج 1 ص 343 ، 351 .

(4) البلاذري ، أنساب ج 1 ص 343 .

LAMMENS, Le califat de Yazid Ier, P. 265

(5) ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 147 .

(6) المسعودي ، مروج ج 3 ص 83 . فلهوون ، الدولة العريية ص 168 .

كادت تعلن وفاة يزيد حتى كانت الامور تسير وفق مصلحة الزعيم الحجازي ، بفضل جهود الضحاك واتصالاته الدائبة مع زعماء الشام والعراق ، فضلاً عن مصر التي كان أول ولايتها في العهد الزبيري أحد أقارب الضحاك (عبد الرحمن بن جحدم الفهري)^(١) .

ولعل حملة الحقد على يزيد بلغت أشدها مع احتراق الكعبة ، التي اشتعلت فيها النار اثناء قذفها بالمنجنيق الشامي . فاستغلت هذه الحادثة ببراعة لمصلحة « العائد » فيها ابن الزبير ، بينما الخليفة الاموي يعيش أيامه الاخيرة^(٢) . واذا كان أي دليل لا يثبت مسؤولية الزعيم الحجازي أوقائده في هذه المسألة ، فانه بات من المؤكد أن النظام في دمشق ، كي يضمن لنفسه الاستمرار ، لم يعد أمامه سوى تحديد ذلك المسؤول ومن ثم التضحية به ، سواء كان وحده صاحب القرار أم شاركه الآخرون به . على أن حريق الكعبة ، استناداً الى معظم الروايات ، وإن تزامن مع الحصار وقذائف المنجنيق ، فقد رجّح بأنه عمل داخلي . إلا أنه من الصعب تحديد اسبابه ، إذا كان مجرد صدفة أم عملية مفتعلة للتأثير على مشاعر المسلمين وخطف انظارهم نحو مكة . فكلاهما جاء في مصلحة ابن الزبير ودعم قضيته ، التي ازداد التعاطف معها نتيجة لذلك . وكان أكثر ما روي شيوعاً في هذا السبيل ، ما جاء في « اخبار مكة » للازرقعي^(٣) ، من أن جماعة من أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون النار حين « طارت (شررة) فاحترقت ثياب الكعبة ، وكان ذلك من قدر الله »^(٤) . ثم يتابع في مكان آخر^(٥) . . . وكان يوم ربيع فطارت (شررة) فاحترقت الكعبة حتى صارت الى الخشب »^(٦) . وفي « تاريخ » الطبري رواية مشابهة لها « فأقبلت (شررة) هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت »^(٧) . وفي « انساب » البلاذري وحمل بعض أصحاب ابن الزبير ناراً ، فأطارتها الريح فاحترق ما جعل حول الكعبة ليقبها واحترقت استارها وتصدعت »^(٨) . وأما توقيت الحادثة فقد تمّ في منتصف الحزيف أو حواليه من عام 683 م^(٩) ، مما يجعل احتمال هبوب الريح وارداً ، حسب ما أجمعت عليه الروايات السابقة . أما إذا كان الامر مدبراً ، فقد تكون لمصعب بن الزبير علاقة به ، حيث انيطت به حماية الكعبة والدفاع عنها كما سبق أن أشرنا^(١٠) .

(1) ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 145 وما بعدها .

(2) تاريخ الطبري ج 7 ص 15 .

(3) الأزرقعي ، اخبار مكة ج 1 ص 197 .

(4) المصدر نفسه ج 1 ص 398 .

(5) تاريخ الطبري ج 7 ص 15 .

(6) البلاذري ، انساب ج 1 ص 345 .

(7) في الثالث من ربيع الأول 64 هـ . تاريخ الطبري ج 7 ص 15 . فلهوژن ، تاريخ الدولة العربية ص 162 .

(8) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343 .

على أن هذه المسألة وإن كان وراءها أصحاب ابن الزبير، مباشرة أم غير مباشرة ، فإن جمهور المسلمين لم يكن بحاجة آنذاك الى قرائن محسوسة لتحميل الخليفة الاموي تهمة احراق الكعبة ، بعد أن تساقطت عليها قذائف قائد المخلص . ولا شك أنها تعتبر نقطة جديدة في خاتمة الانتصارات التي حققها ابن الزبير دونها كثير من الجهد، بالقدر نفسه، وربما أكثر أهمية، الذي انعكس على موقفه بعد مقتل الحسين وانتهاك (المدينة) . وقد نجد صدى هذه التبعة النفسية عبر هذه الحادثة ، في حملة الشعراء، وهم أدوات العصر الاعلامية على البيت الاموي ، وفي طليعتهم عبد الله بن قيس الرقيات ، الذي كان يومذاك شاعر ابن الزبير المقرب ، حين قال متهمًا قبائل الشام باحراق الكعبة :

حرّقتهم رجال كلب وعكّ حين جاؤا وخمير وصداء
نبنيناه بعدما حرّقوه فاستوى السمك واستقل البناء (1)

وقال شاعر من نعيم

أقول لاهل الله لما أناهم عرق بيت الله هيجوا البواكيا
جزى الله اهل الشام فيه ملامة وأصلاهم جبراً من النار حاميا (2)

كما قال آخر من موالي خزاعة :

يا رب أن جنود الشام قد كثروا وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب اني ضعيف الركن مضطهد فابعث الي جنوداً منك انصارا (3)

وهكذا فإن الظروف مجتمعة ، بما في ذلك « حريق الكعبة » ، تحالفت مع ابن الزبير ، لتجعل منه رجل المرحلة القوي ومحط آمال المعارضة في التخلص من الحكم الاموي . ففي تلك الاثناء تتناقل الاخبار موت يزيد بشيء من الغموض ، الا أنه جاء مفاجأة لكلا الطرفين . وقيل أن جماعة ابن الزبير ، كانوا أسبق الى معرفة النبا من أصحاب الحصين (4) . وقد فُسر ذلك بأن ذوي الشأن في دمشق ، تعمّدوا اخفائه خشية انعكاسه على معنويات الجيش الشامي ، الذي بقي قائده اربعين يوماً على جهل بموت الخليفة (5) .

(1) البلاذري ، انساب ج 1 ص 345 .

(2) المصدر نفسه ج 1 ص 346 .

(3) المصدر نفسه ج 1 ص 346 .

(4) جاء في « الامامة والسياسة » أن أحد أصحاب ابن الزبير وقعت في يده نبلة كتب عليها موت يزيد وقارئه « يوم الخميس رابع عشر ليلة عثت من ربيع الآخر » ج 2 ص 13 .

(5) البلاذري ، انساب ج 1 ص 343 ، تلويح الطبري ج 7 ص 16

ولقد صَحَّ ما نهيب الامويون وقوعه ، حيث أدى انتشاره الى وضع حد للحصار ، الذي ناف على الشهرين⁽¹⁾ ، وذلك بعد الارتباك الذي أصاب ليس فقط جيش الحصين ، وإنما كان له انعكاسه على « المؤسسة العسكرية » بكاملها في الشام⁽²⁾ .

ولقد جاء موت يزيد ، الذي كانت خلافته سبباً مباشراً في الازمات العديدة التي انفجرت في العراق والحجاز ، يضفي على الوضع السياسي أجواء من المرونة لم يكن من السهولة ايجادها في حياته . وهذا ما جعل الحوار يفرض نفسه بين ابن الزبير والقائد الشامي الذي سارع بدعوته الى الاجتماع به في (الابطح)⁽³⁾ ، لمناقشة مستجدات الامور بعد موت الخليفة الاموي . وليس من الصعب علينا تبين حقيقة الدور الذي حاول الحصين القيام به ، وهو العارف بأسرار الوضع السياسي في دمشق ، كواحد من أبرز قيادات « المؤسسة العسكرية » في هذه الاخيرة ، مجتهداً أن لا تفوته تلك الفرصة النادرة⁽⁴⁾ . ولذلك فهو يخاطب ابن الزبير من خلال هذا الموقع القوي ، وكأنه عمك بشي جوانب الامور في عاصمة الخلافة : « قد علمت أي سيد أهل الشام لا أدفع عن ذلك ، وأن اعنت خيلهم بيدي ، فإذا أهل الحجاز رضوا بك فأبليك الساعة⁽⁵⁾ . . . أخرج معي الى الشام فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم⁽⁶⁾ . وثمة ما يمكن استنتاجه فيما هو منسوب للحصين ، انه كان في التفاوض مع ابن الزبير ، يتصرف كممثل لأهل الشام وتحديداً للجيش ، وهو المؤسسة الأكثر نفوذاً فيها منذ تأسيس الخلافة الأموية . وفي ضوء هذا الموقف كان اشتراطه على ابن الزبير الانتقال الى الشام ، في غاية البدهة لمن كان في موقع الحصين ، إلا أنه في الوقت نفسه لم يكن جاهلاً للعوائق التي تحول دون تحقيق هذا الشرط ، المرهون برضى « أهل الحجاز⁽⁷⁾ » ، حيث كان رفضهم لا يحتاج الى تأكيد . ولذلك يبدو ابن الزبير ملتزماً برأيهم : « أن لي امراء لست أقطع أمراً دونهم فاناظرهم ، ثم يأتيك رأيي⁽⁸⁾ . وقد ذكر أن عبد الله بن صفوان ، وهو أحد مستشاري ابن الزبير

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 15

(2) LAMMENS. Le califat de Yazid le, P. 261

(3) وزعت « ابطحاء » ابضا ، والمقصود من ضاحية مكة أو « اهل مكة » . الامامة والسياسة ج 2 ص 13 .

البلخري ج 1 ص 351 .

(4) ابراهيم بوضون ، التيارات ص 195 .

(5) الامامة والسياسة ج 2 ص 13-14 .

(6) تاريخ الطبري ج 7 ص 17 .

(7) الامامة والسياسة ج 2 ص 13-14 .

(8) البلخري ، انساب ج 1 ص 351

ومن أوائل مبايعيه بالخلافة بعد موت يزيد⁽¹⁾ ، عارض بشدة فكرة الانتقال الى الشام ، حيث كان معروفاً بعصبيته الحجازية⁽²⁾ ، متمثلاً ذلك في قوله « أخرج من بلد نصرك الله به وتغارق حرم الله وأمنه وتستعين يقوم رموا بيت الله لا خلاق لهم »⁽³⁾ .

ويبدو أن الحصين تطرق الى ما يتعدى هذا الشرط في التفاوض مع ابن الزبير ، وإن لم يكن خارج نطاقه الموضوعي . فعزوف القائد الشامي عن الحجاز ، كان مرتبطاً بأكثر من مسألة ليست قابلة للحسم في مثل تلك الظروف ، حيث التشنج بلغ حداً والعصية الاقليمية تسع دوائها من (المدينة) الى مكة . ومن هنا تحمل « بيعة » الحصين شرطاً آخر ، هو تسوية المشكلة الحجازية ، وذلك بالمساومة على ما ارتكب الجيش الشامي ، سواء في (المدينة) « على أن تهدر كل شيء اصبنه يوم الحرّة »⁽⁴⁾ ، أم في كلتا المدينتين أن « تهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرّة »⁽⁵⁾ . وهكذا ينتهي حوار « الأبطح » الى الفشل ، مرتكباً فيه ابن الزبير ، برأي الكثيرين ، الخطأ المحوري في ثورته ، وفي طليعتهم الحصين نفسه الذي هاجم قصور نظره في السياسة وعجزه عن اختيار اللحظة التاريخية⁽⁶⁾ .

(1) ابن سعد ، الطبقات ج 5 ص 147 . J. PERIER, Vie d'Al-hadjdjadj ibn yousof p. 46 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ج 4 ص 183 .

(3) ورد ما يشبه هذا القول منسوباً لابن الزبير في الامعة والسياسة : « لا والله لا أصل لاؤمن من اخاف الناس »

(4) واحرق بيته وانتكح حرمة الله » . ج 2 ص 14 .

(5) « أحب أن يكون الملك في الحجاز » . المكان نفسه

(6) المكان نفسه .

(7) تاريخ الطبري ج 7 ص 17 .

(8) نسب الى الحصين قوله لابن الزبير : « قبح الله من يملك بعد هذه دماً قط أو أدبياً (أريباً) ، قد كنت أظن أن لك رأياً ، إلا أراني أكلمك سراً وتكلمي جهراً . تاريخ الطبري ج 7 ص 17 . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 129-130 .

LAMMENS, Etudes sur le siècle des Omayyades, P. 193

الاضاع المستجدة في الحجاز والشام

بعد وفاة يزيد

و ان الجهة الشامية كان لها الفصل في الصراع على الخلافة بين الامويين وابن الزبير، وهو امر يحاهل الأخير أهميته، بإعجاده على القيسيين الذين حولوا هذا الصراع الى حرب قبلية ضد اليمنيين ، مستجلاً بذلك اقدح اخطائه حين دفع هؤلاء بكس فتاتهم الى التكتل مع البيت الاموي خشية الهيمنة القيسية على الشام .

لقد ناقشنا سابقاً خلفية الثورة الزبيرية وارتباطها العضوى بالحجاز ، مجسدة المطلب السياسي المركزي لهذا الاقليم . وكان ثمة ارتباط وثيق بين قائد الثورة وقاعدته الحجازية ، انطلاقاً من وحدة الهدف والمصلحة بين الطرفين . فالاول في ربطه شرعية الخلافة بالمهاجرين ، انما كان يجسد طموح الثانية وأمالها في استرداد الحكم المركزي وذلك في اطار من « الشورية » الراشدية . وكان ان عزز هذا الاتجاه ، تلك النجاحات المتواصلة التي حققها ابن الزبير وجعلت منه المعارض الرئيسي للدولة الاموية ، المغتصبة - بالنظر الحجازي - لهذه الشرعية . ويبدو أن خلافة يزيد التي اتخذت طابعها الملكي ونخضعت لوضاية الكلبيين ، قد أسهمت بنوع خاص في توسيع دائرة العصبية الاقليمية والقبلية وربما العائلية أيضاً ، ضد سياسة هذا الخليفة التي لم تكن ودية حتى مع بعض أقاربه من البيت الاموي . ذلك أن اخفاقه في المحافظة على التوازن الذي حققه معاوية في الحجاز ، كنوع من الترضية للامويين من بني العاص ، الذين تناوبوا السلطة بصورة عامة فيه ، قد أثار حفيظة هؤلاء ضد الخليفة . كما كان من أسباب تذمر هذا الاخير من تحاذل الامويين أمام أهل (المدينة) وموقف قائده مسلم بن عقبة غير الوئى من بعضهم . وقد حدا

(1) خليفة بن خياط ج 1 ص 324 . البلاذري ، انساب ج 1 ص 330 . ابن الاثير ج 4 ص 122 .

(2) عزل يزيد لعمر بن سعيد بن العاص وتعيين عثمان بن محمد و السفياي و مكانه ، ذلك العزل الذي كان سبباً في عزوف الاول من تلبية أوامر يزيد بقيادة الجيش الشامي الى (المدينة) . انساب ج 1 ص 322 .

(3) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 111 .

(4) موقف مسلم بن عمرو بن عثمان . تاريخ الطبري ج 7 ص 7 .

ذلك بالمؤرخ BUHL، إلى تأكيد هذه النزعة العدائية نحو الخليفة بقوله «كان شعور سكان المدينة ضده (يزيد) حتى الامويين منهم وقفوا إلى جانب خصمه ابن الزبير» (٣).

على أن هذا الطرح لا يبدو بمجملة دقيقاً أو موضوعياً، خاصة ما تعلق بالموقف من ابن الزبير، حيث أن خصومة بني العاص ليزيد انطوت على التصبّي للاستئثار السفيفاني، الذي وجدوا فيه اعتداء على حقهم التقليدي في الحجاز، دون أن يكون هؤلاء أبه مصلحة في التعاطف مع حركة ابن الزبير كما يشير BUHL. ولا شك أن المعارضة الاموية، اذا كان هنالك ما يعبر عن هذه الكلمة، لم تخرج عن اطوارها العائلي، الذي تبلور بصورة خاصة بعد موت يزيد، حيث خاض بنو العاص كتلة واحدة ومتفوقة عندياً، الصراع على الخلافة ضد النرع السفيفاني. وهكذا تحكمت العصية الاقليمية في قرار ابن الزبير، لتضفي على حركته صبغة حجازية واضحة، وذلك برفضه اتخاذ الشام مقراً لحركته، حيث العصية القبلية متغلبة وثيقة الصلة بالبيت الاموي، مما كان له على الأرجح تأثير ما على قراره. ومن ناحية أخرى، فان خروجه مع الحصين، لم يكن من السهولة تسويغه لدى أهل الحجاز، إذ أن موافقته على ذلك كانت تعني تبرئة القائد الشامي وقواته من استباحة (المدينة) وانتهاك الكعبة. . وهو ما حاول الأخير تسويته مع ابن الزبير قبل رحيله، ولكنه فشل ونخبت جهوده، على النحو الذي أثمرنا إليه.

وما كاد الحصين ينسحب بقواته إلى الشام، ويخرج الزعيم الحجازي سالماً من هزيمة عسكرية شبه مؤكدة، حتى سارع الأخير إلى القيام بإجراءات إدارية وعسكرية، وضعت حركته على مفترق جديد، وذلك بالتحول من دائرة الثورة المسلحة إلى إطار الدولة بمؤسساتها المركزية والاقليمية. ولعله كان شديد التأثر بالنمط الراشدي، طموحاً إلى اقتباس الكثير من ملامحه، وفي طليعة ذلك الدعوة إلى «شورية» الخلافة (٤). وكان موت يزيد قد أسفر في الحقيقة عن انقلاب عام في الموقف السياسي، بحيث حمل الانهيار المفاجيء لدولة الامويين، دون أن تنجو عاصمتهم دمشق من هذه الموجة، التي كادت تطيح بالامرة الاموية وتتزعج الخلافة منها. ولقد تم ذلك وكأن تسيقاً ما سبق تدبيره، بين حركات التمرد الشاملة التي استهدفت الولاة الامويين في (المدينة) «والبصرة فضلاً عن

PR. BUHL, B. I. Tome 5 P. 88 (1)

(2) روى (الداثي) : «لما دعا ابن الزبير لنفسه بايعوه على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين» البلاذري، انساب

ج 1 ص 352.

(3) المصدر نفسه ج 1 ص 350.

(4) ابن الاثير، الكامل ج 4 ص 130.

الكوفة (١) ، حيث اختارت طوعية الحكم الزبيرى ، كسبيل الى الخلاص من حكم اقترن بالعنف والقهر ، وان تفاوتت حماسة الاختيار بين مدينة وأخرى .

واذا كانت (المدينة) قد سارعت الى طرد واليها الاموى (روح بن زنياع) ، ليصبح الحجاز كتلة واحدة مع ابن الزبير الذي حقق عودة الخلافة اليه ، فان الموقف السياسي في العراق تجاذبه معطيات أخرى ، لم تحمل الوضوح نفسه . ففي البصرة حاول عبيد الله بن زياد القيام بدور الوصاية على النظام الاموى ، من خلال سلطة مؤقتة بزعامته ، مستهدفاً المساومة من خلالها مع الادارة المستظرة في الشام ، على النحو الذي فعله الحصين مع ابن الزبير . ولكنه أخفق في هذه المحاولة التي امتد تأثيرها أيضاً الى الكوفة ، حيث أوفد الى أهلها رسولاً « يدعوهم الى مثل الذي فعل من ذلك أهل البصرة فأبوا عليه وحصبوا الوالي الذي كان عليهم ، ثم خالفه أهل البصرة أيضاً فهاجت بالبصرة فتنة ولى عبيد الله بن زياد الشام » (٢) . وكان لموقع البصرة الجغرافي على تخوم منطقة الخوارج ، وربما العلاقة القديمة بالبيت الزبيرى ، تأثير خاص على موقفها السياسي الذي تميز بالحماسة ، بحيث غدت القاعدة الثانية من حيث الاهمية للحكم الجديد بعد مكة .

أما الكوفة التي عاشت آنذاك حالة من التشنج والغليان ، تحت هاجس الانتقام من الامويين في أعقاب مقتل الحسين والملاحقة الشرسة التي استهدفت زعماء الحزب الشيعي ، فكانت لها حساباتها الخاصة بها ، التي جعلت موقفها يتصف بالفتور نحو الحكم الزبيرى . ولكن انقسام المدينة بين عدة تيارات سيمامية ، بعضها متطرف يرمي الى « غسل آثامه » - عبر حركة تكفيرية ذات طابع انتقامي مزدوج : « لا يغسل عارهم والاثم عنهم في مقتله (الحسين) ، الا بقتل من قتله أو القتل فيه » (٣) - وآخر متطرف أيضاً ولكنه تطلع الى استلام الحكم بزعامة أحد الهاشميين ، فضلاً عن تيار ثالث متذبذب ومحاب للسلطة مهما كان القائمون عليها . كل ذلك جعل من موقف الكوفة غير فاعل على الصعيد الدائى ، لافتقارها القرار الموحد ، وحملها بالتالي الى الاعتراف بالحكم الزبيرى . ولم تستطع تجاوز هذه الظروف حتى في المحاولة المنفردة التي أوصلت الحزب الشيعي بصعوبة الى السلطة ، وذلك بقيادة المختار الثقفي ، حيث كان الانقسام بين أطرافه ، العامل الرئيسي في اسقاط هذه التجربة الوحيدة في العهد الاموى

ولعل الموقف في دمشق كان أكثر خطورة في ذلك الوقت ، حيث عاشت الاسرة الاموية أياماً عصيبة ، كادت تعتقد فيها زمام الامر بصورة نهائية . وكانت خلافة معاوية

(1) تاريخ الطبرى ج 7 ص 17- 18 .

(2) المكان نفسه ج 7 ص 17- 18 .

(3) المصدر نفسه . ج 7 ص 47 . الثوابون ص 98A وما بعدها .

الثاني التي احيطت بستر كثيف من الغموض وتركت وراءها تساؤلات عديدة (١) ، قد وضعت النظام الاموي على مفترق خطير ، بعد ما سبب الى الاخير اعتراضه على مبدأ الوراثية ومطالبته باعادة الحكم الشورى (٢) ، بين المسلمين . ويبدو أن هذا الخليفة كان ضحية الصراع الداخلي في أسرته ، الذي أخذ في الظهور منذ وفاة معاوية الاول . على أن ما يثير الاهتمام في تلك الظروف ، الدور البارز الذي شغله الضحّاك بن قيس وجماعته القيسيين في هذه التطورات ، مما جعل منه أقوى رجالات الشام وأكثرهم فاعلية . ولا شك أن ما حققه الضحّاك كان بمثابة انقلاب ، استهدف في المقام الاول نفوذ الكلبيين ، الذين استأثروا بالامر في خلافة يزيد ، وذلك على حساب الفهرين خاصة والقيسين عامة . فنجح بعد تهيئة الظروف لانقلابه ، في عزل خصومه عن واجهة الاحداث وارغامهم على الابتعاد عن دمشق ، بعد أن بايعته « اجناد » الشام بكاملها ، باستثناء الاردن ، معقل الكلبيين ، الذي انفرد بموقفه المؤيد للبيت الاموي (٣) .

ولقد اسهمت « العنصرية الاقليمية » بدور ما في هذه الحركة التي قادها الضحّاك ، بانضمام النعمان بن بشير ، آخر (الانصار) آنذاك في الادارة الاموية اليها ، بعد أن شعر بقوة ابن الزبير والثقل السياسي الذي أوْشك أن يعود معه للحجاز . وحظيت هذه المحاولة التي اعتمدت على نفوذ الفهرين في دمشق ، بدعم عسكري في « الاجناد » الرئيسية في الشام ، وفي طليعتها حمص (النعمان بن بشير) وقنسرين (زفر بن الحارث الكلبي) ، حيث اعتبرا كلاهما من الركائز الاكثر أهمية التي اعتمد عليها النظام الاموي (٤) . فكان لذلك اسهامه في النجاحات السريعة التي تم تحقيقها ورافقت انصار الموقف السياسي في عاصمة الخلافة ، الى درجة افتقد معها شيخ الامويين « مروان بن الحكم » ، الامل في انقاذ الوضع وعودة الامور الى نصابها ، وخالجه حيناً فكرة الاعتراف بخلافة ابن الزبير ، تحت تأثير الخوف من الضحّاك رجل « الاجناد » القوي ، لولا تصدّى عيد الله بن زياد له بعد اخراجه من العراق (٥) .

(١) ابراهيم يعضون ، التيارات ص 196 .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 131 ، ابن طباطبغا ، الغرر ص 118 .

(٣) الامامة والسياسة ج 2 ص 14 . البلاذري ، انساب ج 1 ص 350 . المسعودي . مروج . ج 3 ص 83 .

(٤) كان قد حدث صراع على جند فلسطين بين الضحّاك وزعيم الكلبيين حسان بن بسطام الذي تول شؤونه بالإضافة الى الاردن منذ عهد معاوية . فقام نائل بن قيس بطرد روح بن زبيح عن الزعيم الكلبي من فلسطين والسيطرة عليه باسم ابن الزبير . تاريخ الطبري ج 7 ص 35 . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 145 . 146 .

(٥) اورد للمسعودي عن موقف مروان في ذلك الحين بأنه عندما رأى اطلاق الناس على ابن الزبير واجابتهم له ، اراد أن يلحق به وينضاف الى جملة ، فمنعه من ذلك عيد الله بن زياد عند لحاقه بالشام وقال له أنك شيخ بني عبد مناف فلا تمجّل . المسعودي ، مروج ج 3 ص 58 . راجع أيضاً الطبري ج 7 ص 34 .

لقد كان الضحاك من خلال هذه المحاولة يطمح الى استلام السلطة الفعلية في الشام ، في اطار خلافة زبيرية تقوم على انقاض خلافة الامويين وحلضهم الكلي حسان ابن مالك بن بحدل . فتمت معادلة سياسية ربما دارت في خلد الضحاك ، الحجازي الاصل (من قريش الظواهر) ، وهي اقامة تحالف زبيرى - فهري في وجه التحالف الاموى - الكلي الذي بلغ حداً كبيراً من التماسك في عهد يزيد . ولأن ابن الزبير لم يستجب لدعوة الخروج من الحجاز رغم اعتراف الامصار به ، فان الزعيم الفهري وجد نفسه قادراً على التحرك بحرية في الشام ومستفيداً ما أمكن من الظروف التي جاءت في مصلحته حتى ذلك الوقت . ولكن المفاجأة ان لا يستطيع هذا الاخير ، رغم تلك المعطيات ، تحقيق ما كان يصبو اليه من نجاح ، وهو ما يدعونا الى البحث عن ثغرات هذه الحركة ومناطق الضعف فيها . فهناك انقسام في البيت الاموى وتراجع بلغ حد اليأس على نحو ما ذكرنا . . وكذلك شبه اجماع على خلافة ابن الزبيرى في مختلف الاقاليم ، فضلاً عن التفوق العسكري⁽¹⁾ الواضح ، بعد انضمام ثلاثة من الاجناد الاربعة الرئيسية في الشام .

على ان بضعة مؤشرات قد تحمل البناء من التحول المفاجيء في موازين القوى لمصلحة الامويين وفشل حركة الفهري التي كانت تصب في الاتجاه الزبيرى المعاكس . فمنها تكتل الامويين في الشام بعد أوامر ابن الزبير الى واليه على (المدينة) بنفيهم⁽²⁾ مع عائلاتهم ونسائهم الى الشام⁽³⁾ ، ذلك الخطأ الذي اعترف به ابن الزبير حسب قول اليعقوبى⁽⁴⁾ ، وأدى الى تعزيز جبهتهم ، وذلك بقيادة بني العاص ، الاكثر عدداً وتماسكاً من الفرع السفلي . وكان وجود مروان على رأس الفرع الاول ، قد أثار حماسة المتمسكين بالشرعية الاموية ، حيث طرحه هؤلاء مناصلاً تاريخياً في سبيلها⁽⁵⁾ منذ يوم الجمل⁽⁶⁾ ، مما حسم الخلاف الاموي لمصلحته في مؤتمر الجابية ضد ولي العهد الشرعي ، فضلاً عن منافسه التقليدي⁽⁷⁾ في تكتل بني العاص : « فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان ثم لخالد بن يزيد بعده ثم لعمر بن سعيد بن العاص بعد خالد ، على أن اماره دمشق لعمر بن سعيد و اماره حمص لخالد بن يزيد⁽⁸⁾ . ويبدو أن الامارة الاولى كان لها دور كبير في « التسوية الاموية » ، انطلاقاً من الاهمية السيامية التي تمتعت بها كعاصمة للخلافة ،

(1) خليفة بن خياط ج 1 ص 326 .

(2) تاريخ الطبري ج 7 ص 13

(3) تاريخ الطبري ج 2 ص 255 .

(4) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 148 .

(5) واث عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالاشدق حله المناهضة عن ابيه الذي تقاسم التفوذ على الحجاز مع مروان خلال عهد معاوية .

(6) تاريخ الطبري ج 7 ص 38 .

بحيث أن صراعاً شديداً عليها ، فلم يبن الضحّاك وعمرو بن سعيد (الاشدق) انتهى لمصلحة الاخير^(١) الذي سلّم مروان عليها لقاء الاعتراف بحقه في الخلافة من بعده^(٢) . ونتيجة لذلك فقد استمرت دمشق مقر نفوذ « الاشدق » حتى مقتله ، في أعقاب انقلابه على عبد الملك بن مروان ، الذي كانت خلافته خرقاً لما اتفق عليه مع أبيه^(٣) . ومن ناحية أخرى فإن الضحّاك الذي كان أحد أبرز قادة الجيش الشامي الذي أسسه معاوية ، كانت تموزه المرونة والخبرة السياسية ، عندما أعطى لحركته تلك الصبغة النفسية الحادة ، متجاهلاً القبائل اليمنية في « معقلها » الشامي ، خاصة الكلبيين ، الأكثر نفوذاً في المنطقة منذ تقلص النفوذ الفساني مع سقوط الحكم البيزنطي فيها . وفي ضوء هذا الواقع استطاع معاوية في الماضي ، تحقيق معادلاته الناجحة ، القائمة على الاعتراف بأهمية هذه القبيلة التي كان ينظر الى زعيمها ، على أنه ورئيس قحطان وسيدھا بالشام « حسب قول المسعودي^(٤) . ومن ثم التوازن مع القبائل القيسية الاخرى واستيعاب تناقضات الطرفين ، ما استطاع سبيلاً الى ذلك . فكان لا بد أن يثير الضحّاك بسلكه الفتوى حفيظة الكلبيين ، الذين شعروا بالخطر على مصالحهم المرتبطة بالاسرة الاموية ، وان يؤدي في النهاية الى « فرز » القوى السياسية في الشام ، عبر محاربة قبلية حاسمة بين اليمنيين والقيسيين ، كان للزعيم الفهري دوره الرئيسي في التحريض عليها

وتبقى اشارة اخيرة أوردها (الطبري) على هامش اخباره عن الصراع السياسي بين قبائل الشام عشية المعركة الفاصلة ، وهي « ان الضحّاك بن قيس كان قد دعا قيسا وغيرها الى البيعة لنفسه ، فبايعهم يومئذ على الخلافة^(٥) . وهي تنطوي على طموح الزعيم الفهري الى ما هو ابعد من دور الخليف الكبير الطامع بولاية الشام ، مجسداً ذلك بالقول المنسوب لعمر بن سعيد له « ارضيت ان تكون بريداً لابن الزبير وانت اكبر قریش وسيدھا تعال نبايعك^(٦) . على ان هذا الامر ، ان سلّمنا به ، فقد يكون على الأرجح نوعاً من الاستلراج الاموي للزعيم قوي في الشام ، لا يستطيع احد تجاهل الدور المؤثر الذي يقوم به ، وذلك بغية احتوائه والتخفيف من ارتباطه بالخلافة الزبيرية . ولعل الموقف نفسه - حسب ما أورده (ابن كثير) - تكرر في محاولة ابن زياد استدراج الزعيم الفهري بدوره لكي « يدعوا الى نفسه وذلك انما فعله مكرراً منه وكباراً ليفسد عليه ما هو بصدد ، فدعا

(١) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٨٦ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٨٦ .

(٥) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٧ .

(٦) الاملة والسياسة ج ٢ ص ١٥ .

الضحك الى نفسه ثلاثة أيام»⁽¹⁾ . فكان ذلك سبباً ، حسب رواية المؤرخ التي اقتبسها من (المدائني) ، في اضطراب الجبهة المؤيدة لابن الزبير في الشام ومن ثم هزيمتها امام جبهة التحالف الاموي - الكلبي في مرج راهط . على ان « قرشية » الفهري التي الملح اليها ابن زياد ، ليست كافية لدعم طموح الضحك الى الخلافة ، في وقت انحصرت المنافسة فيه بين تياري الامويين و (المهاجرين) في قریش ، دون ثمة دليل يحملنا على الاعتقاد بوقوع الضحك (الذي ينتمي الى قریش الظواهر) في هذا الشرك ، حيث لم يكن في متناوله ، المسوّغ الشرعي ، الذي يؤهله لهذا الطموح ، استناداً الى « ثوابت » المرحلة بشأن هذه المسألة .

ونخلص الى القول بأن الجبهة الشامية كان لها الفصل في الصراع على الخلافة بين الامويين وابن الزبير ، وهو أمر تجاهل الاخير أهميته ، باعتماده على القيسيين الذين حولوا هذا الصراع الى حرب قبلية ضد اليمنيين ، مستجلاً بذلك أفدح أخطائه حين دفع هؤلاء بكل فتاتهم الى التكتل مع البيت الاموي نحشية اهيمنة القيسية على الشام . كذلك فان طرد الامويين من الحجاز ، ضُيع عليه فرصة الافادة من الانقسام ، الذي لم يكن خافياً في هذه الاسرة ، ودفعها بصورة غير مباشرة الى التكتل ، على النحو الذي جرى بعيد معركة الجمل ، بحيث أن هؤلاء المطرودين انفسهم نجحوا في انقاذ الخلافة الاموية من السقوط . وهكذا فان مجمل الظروف هذه أسهمت معاً في دعم الموقف السياسي في الشام لمصلحة التحالف الاموي - الكلبي⁽²⁾ ، الذي دافع بشراسة عن مواقفه في مرج راهط⁽³⁾ ، التي كانت في مضمونها حرب القبائل الشامية على السيادة والنفوذ والامتيازات⁽⁴⁾ . تلك الحرب التي ألحقت الهزيمة « التاريخية » بالقيسيين ومعهم نفوذ ابن الزبير في الشام ، بحيث كانت المتعطف الاكثر خطورة في تاريخ « الخلافة الزبيرية » ، التي بدأ « العد العكسي » لها فعلياً في مرج راهط .

(1) البداية والنهاية ج ٢ ص 241 .

(2) بنو أمية وكتب وغسان ومن انقسم اليهم من السكاسك والسكون . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 149 .

(3) المكان الذي اجتمع فيه امراء القيسيين : الضحّاك ، زفر بن الحارث ، ناقل بن قيس فضلاً عن النعمان بن بشير الانصاري ، وهو الذي جرت على أرضه المعركة الشهيرة . للمكان نفسه .

(4) ابراهيم يفيون ، التلوات ص 201 .

البَابُ الرَّابِعُ

الحِجَازُ المِروَانِي
الاحتواء والتبعية

سقوط ابن الزبير

وسياسة الاحتواء (الاستباج) المرواني للمحجاز

« فمن البديهي أن الدوافع لم تكن متشابهة لدى الخليفتين السفياي والمرواني اللذين أحينا بهذا العمل الاستباجي للكعبة ، حيث كان الأول (يزيد) مدفوعاً بسياسته الهجومية التي بلغت حداً من الشراسة ضد حركات المعاوضة التي أحاطت به وهندت «ملكه» الموروث. أما الثاني (عبد الملك) ، فكان خارج هذه الدائرة من الخوف على نظامه الذي استتب ، بعد أن تلاشى خطر الحركة الزبيرية وانكفاً قائدها على عزله منتظراً سقوطه الوشيك »

احتفظ الكلبون بدورهم البارز في السياسة الشامية ، بعد احباط محاولة الضحاك وجماعته القيسيين في السيطرة على الحكم الفعلي باسم الخلافة الزبيرية . ولذلك فإن ما أسفرت عنه (مرجع راط) « ، كان تكريساً للتحالف الاموي - الكلبي ، من خلال المعادلة التقليدية التي كانت إحدى أهم نقاط التوازن في دولة معاوية . ومن هذا المنطلق فإن فرزاً لم يسبق حدوثه في القوى السياسية والقبلية ، تبلور على أكثر من دائرة في الصراع على النفوذ في ذلك الحين . فقد انتقل زمام الامر الى بني العاص ، الذين تحولت اليهم الخلافة الاموية من مؤسسيها السفيايين ، بعد اثبات تفوقهم العددي والقيادي ، وبالتالي قدزتهم على استيعاب مراكز النفوذ التقليدية في المنطقة ، لا سيما بمنية الشام التي كان الكلبون قوتها الرئيسية . وكان الاعتراف بهذا الجناح من البيت الاموي ، مشروطاً باستمرار ذلك الدور المتميز هؤلاء ، أو ما عبّر عنه حسان بن مالك « بأن يكون لهم الامر والنهي

(1) على بضعة أميال من دمشق . السمرق ، مروج بح 3 ص 87 .

وصدر المجلس وكل من كان من حل وعقد فمن رأى ومشورة» ، حسب قول المسعودى (١) . أي أن الزعيم الكلبي الذي ربطته علاقات المصاهرة الوثيقة بالبيت السفينى، كان بطمع الى ممارسة دور الشريك أو «الوزير» ، في ظل خليفة يدين له بالسلطة . والواقع أنه في ظل الفراغ السياسي في الشام واتساع رقعة الدولة الزبيرية ، ازداد الشعور بالخوف لدى القبائل اليمنية ، المرتبطة مصريراً بالحكم الاموى ، مما ألجأها الى المساومة مع بني العاص ومحاولة تقييد مرشحهم للخلافة ، بالامتيازات السياسية والاقتصادية التي منحها لهم العهد السفينى .

وفي ضوء هذا الموقف فإن الحرب التي دارت في (مرج راهط) ، لما كانت في مضمونها صراعاً بين القبائل الشامية المتشبثة بامتيازاتها ، وبين تلك الساعية الى تحقيق موانع جديدة أكثر أهمية لها . ولذلك فقد خضع الموقف السياسي الذي كانت ملأه واضحة في الحروب الاهلية السابقة ، لتأثير المنفعة الشخصية والامتيازات الخاصة . فثمة زعيم آخر من زعماء القبائل في الشام (مالك بن هبيرة السكوني « البشكري ») (٢) ، لا يعنيه من الولاء للسلطة سوى ما تحققه من مكاسب له ولقبيلته ، دون التوقف عند هوية الخليفة أو انتمائه . فهو يخاطب مروان - استناداً الى قول المسعودى أيضاً - « أنه ليست لك في أعناقنا بيعة ، وليس نقاتل الا عن عرض دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك وإن تكن الاخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء » (٣) . ولا يخفى ما لهذا الموقف من تجسيد للانحطاط الذي طرأ على السلوك السياسي في ذلك الوقت ، حيث الولاء للدولة خضع في المقام الاول للمصالح الشخصية ، التي لا تجد فارقاً عبر هذا المنظور بين قرشي أموى وآخر زبيرى ، حسب القول السابق . كما لا يختلف عن ذلك موقف الحصين بن غير السكوني أحد قادة الجيش الشامي الكبار ، الذي سبق أن أشرنا الى محاولته الفاشلة مع ابن الزبير ، في دعوته الى مغادرة الحجاز وانحسار دمشق مقراً لخلافته ، في ظل هذه « الهيمنة اليمنية » التي كان الحصين من أقطابها . وعلى الرغم من ارتباطه بالبيت الاموى وحماته منذ البدء لمروان ، خلافاً للزعيم السكوني الآخر (مالك بن هبيرة) ، الذي تعاطف أولاً مع المرشح السفينى (٤) ، الا أنه - أي الحصين - لا يدع هذه المناسبة دون الاشتراط على مروان كي يمنحه (البلقاء)

(١) المسعودى ، مروج ج 3 ص 86

(٢) ورد السكوني في تاريخ الطبرى ج 7 ص 37 . والبشكري في مروج الذهب ج 3 ص 86 .

(٣) المسعودى ، مروج ج 3 ص 86- 87 .

(٤) تاريخ الطبرى ج 7 ص 37- 38 .

اقطاعاً « ينزل فيها من كن بالشام من كندة وإن يجعلها من مأكله » (١) .

وكان من الطبيعي في ظل استفزاز اليمنين للدفاع عن مصالحهم في الشام ، أن يوحد القيسيون في المقابل جهودهم وأن يتكثروا بكل قواهم الى جانب ابن الزبير ، حيث وجدوا فيه القوة البديلة التي تؤمن لهم سبيل الوصول الى ما يطمحون اليه من نفوذ في الشام . ولكن الحرب التي جند لها القيسيون جل طاقاتهم البشرية والعسكرية ، لم تحقق لهم سوى خيبة الامل والحرمان ، هذا عدا الخقد الذي خلقتة هذه المعركة في نفوسهم على اليمنين سواء في السلطة كانوا أم في المعارضة . ولقد قيل أن سبب الفشل القيسي ، هو تلكؤ « ابن الزبير في تبني حركة الضحاك ، مما أفقدها ايس فقط الدعم العسكري ، ولكن التنظية الشرعية للتكافة مع تلك التي أحاطت بالتحالف الاموي - الكلبي الذي كرسه مؤتمر الجابية » (٢) . ولقد فرضت هذه الحادثة اطاراً محدداً لسياسة الامويين الداخلية ، لم يكن من السهولة الخروج منه ، على نحو أدى الى استنزاف طاقاتهم وبعثرة جهودهم في محاولات غير مجدية ، لاستعادة التوازن الذي نجح معاوية الى حد نسبي في اقامته .

ولكن (مرج راهط) اذا كانت قد أسفرت عن انتصار اليمنين وتثبيت لمواقع نفوذهم في الشام ، فانها لم تؤد في المقابل الى سحق القوة القيسية أو انعدام تأثيرها السياسي ، حيث ظلت لوقت تهدد وحدة الخلافة المروانية وتلتزم بحدود ما بالولاء الزبيرى . فقد خرج زفر بن الحارث سالماً من المعركة وانسحب مع جماعته الكلبيين بعد مقتل الضحاك الى قرقيسيا ، التي أصبحت أحد جيوب المعارضة القيسية بعد طرد الوالي الاموي منها (٣) . كما نجح الزعيم الآخر (نائل بن قيس) في الاقلات بدوره والالتحاق بابن الزبير في مكة (٤) ، مما جعل التحالف القيسي - الزبيرى يأخذ تلاحماً أكثر جذية من قبل ، بحيث كان من الممكن أن يؤدي الى نتائج مخالفة لما حدث ، اذا ما اقترنت ذلك بتعديل السياسة الزبيرية وايلائها الوضع الشامي أهمية متكافئة مع تلك التي أولتها للعراق . فالموقف القيسي الذي انهار في مرج راهط ، كان قابلاً للتحرك مرة أخرى والمراعاة عليه مجدداً في الصراع ضد الامويين ، من

(١) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٤٣ . دكسن ، الخلافة الاموية ص ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٧ .

(٤) عيسى الحرشي (من قبيلة مدحج) - البقوم ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٦ . تاريخ الطبري ج ٧ ص ٤٠ . ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٥١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٥١ . قتل في العام الثالث (٦٦ هـ) في فلسطين . ابن خلدون ج ١ ص ٣٣٢ .

خلال تلك « الثغرة » المهمة التي أوجدها الزعيم الكلابي في قرقيسيا . فقد كانت من الخطورة الى درجة أنها ظلت صامدة في وجه التهديد الأموي نحو ست سنوات (65 - 71 هـ) ، مستفيدة الى حد كبير من تناقضات الموقف السياسي على الجبهتين الشامية والعراقية ووقوعها على تخوم هذه الأخيرة . وجاء استسلامها في أعقاب مفاوضات بين زفر وعبد الملك - الخليفة آنذاك - استقر معها « الصلح على أمان الجميع ووضع الدماء والأموال » ، وأن لا يبايع عبد الملك حتى يموت ابن الزبير^(١) الذي التزم زفر بالبيعة له ، يعبر عن خطورة هذه القاعدة المحصنة والدور الذي كان بمقدورها القيام به في خدمة السياسة الزبيرية في الشام .

ابن الزبير ومروان

كان استرجاع الحجاز أول أهداف مروان ، وإن لم يكن أكثرها خطورة ، حيث كان شديد الحاجة الى مثل هذه الخطوة لدعم شرعية السلطة الجديدة في دمشق . وكان قد سبق لسلفه السفياي معاوية أن قام بالمبادرة نفسها ، حيث السيطرة على هذا الاقليم تمثل بصورة لا جدال فيها ، المسوّغ « الشرعي » للخلافة ، المرتبطة جذوياً بمنابع الاسلام في مكة و (المدينة) . وفي معزل عن ذلك فإن هذا النظام يفتقد بدون شك محتواه الديني ويقتصر على الجانب السياسي الدنيوي ، كآية ملكية تقليدية ، بصرف النظر عن المسوّغات التي تستمد منها شرعية الملك أو السلطة . ولم تتأثر هذه القاعدة البدئية بحدود زمن ما ، بل كانت دائماً المعيار الاساسي للانظمة المختلفة التي اتخذت اطوارها في الاسلام ، بما في ذلك التي قامت في العصور الحديثة والمعاصرة . ولا ريب أن هذا الخليفة ، وهو لم يزل بعد في طور التأسيس للنفوذ المرواني في الشام ، كان يدرك أهمية استرداد الحجاز وانعكاس ذلك على موقعه الاسلامي العام ، بقدر انعكاسه على الجبهة الشامية التي لا تزال مضطربة قليلاً ومهددة بالانقسام أموياً ، حيث الاسرة الحاكمة غير موحدة الموقف السياسي حتى في تكتل بني العاص الذي ينتمي اليه الخليفة الجديد ، ذلك التكتل الذي سيُعرف بـ « الفرع المرواني » منذ ذلك الحين .

ويبدو أن مروان الذي وصل الى الخلافة شيخاً كبيراً^(٢) ، بعد تجربة طويلة في السياسة ومعاصرة قريبة للاحداث الخطيرة ، بدءاً بالثورة على عثمان وانتهاء بالحركة ومرج راهط ، كان يميل الى تجنب استخدام العنف في الحجاز أو الاقلال منه ، مؤثراً ما أمكن تخفيف حدة المجابهة معه . فقد يفسر لنا ذلك أبعاد عيد الله بن

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٤ ص 340

(٢) تاريخ الطبري ج ٧ ص 84 .

زياد عن قيادة الحملة الحجازية وتكليفه بالهمة الصعبة في قريسيا ومن ثم في الكوفة . ذلك أنه وجه في مطلع عهده - حسب ما أورده الطبري - « بعثين أحدهما إلى المدينة عليه حبش بن دجلة القيني والآخر منها إلى العراق عليه عبيد الله بن زياد ... فسار حتى نزل الجزيرة »⁽¹⁾ ولم يقتصر هذا المؤثر على القيادة فقط - حيث لم تحس معادلة التحالف الأموي - الثقيفي في هذا العهد الذي بقي لابن زياد دوره البارز فيه ، « واستعمله على كل ما يفتحه »⁽²⁾ في العراق ، ذلك الاقليم الذي كان شبه اقطاع لـ « الارستقراطية »⁽³⁾ الثقفية العظمى ، ولكنه يتناول أيضاً التفوق العددي للحملة التي قادها هذا الأخير ومعه أكفأ قيادات الجيش الشامي⁽⁴⁾ . ولعل هذه الصفات لم تنطبق على « الحملة الحجازية » المتواضعة الامكانيات والمغمورة القيادة التي تولاهها جيش بن دجلة . وكان هذا الأخير قد اتخذ من (الريزة) معسكراً له ، تمهيداً للدخول منها إلى (المدينة) التي كانت السيادة فيها لابن الزبير ، يحكمها باسمه أحد أبناء المهاجرين (جابر بن الأسود بن عوف) ، قبل انتقال أمرها إلى (الانصاري) عياش بن سهل بن ساعدة⁽⁵⁾ . والواقع أن الخليفة الحجازي كان يدرك خطورة سقوط (المدينة) التي كان لموقعها الجغرافي تأثير حيوي على دولته ، حيث كانت نافذتها الوحيدة على العراق ومصدر التصوين والمقاتلين ، وهما عصب استمرارها وانقاذها من العزلة السياسية والاقتصادية .

ولكن ابن الزبير لم تكن لديه القوة الدفاعية الكافية في (المدينة) ، التي كانت لا تزال تعاني من هزيمة الحرّة ونتاجها المساوية . ولعله لم يستطع آنذاك تأمين مثل هذه القوة على نحو يجعل منها خطه الدفاعي الاول في الحجاز . وكانت هذه الثغرة سبباً على الأرجح في هرب واليهاء (ابن الأسود) ، بعد أن سمع بأخبار الحملة المروانية ونزولها في الريزة . على أن ابن الزبير يسارع إلى انقاذ الموقف بتعيين وال جديد (عياش بن سهل) ، متوصلاً بالثقة إلى الانتصار ودفعهم إلى الالتزام بقضيته والتخلي عن موقفهم المتردد منها . ومن هنا وجد ضرورة التنسيق بين والي (المدينة) ووالي البصرة (الحارث بن أبي ربيعة) ، في التصدي معاً لحملة مروان والحؤول دون سيطرتها على (المدينة) . ولقد جاء الانتصار السريع الذي تحقق لابن الزبير في معركة الريزة ، معبراً عن سهولة هذه المهمة ، وبالتالي عن ضعف

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 84

(2) ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 190 .

(3) الخصمين بن غير السكوني ورحيل بن فز الكلاع الحميري ... تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 259 . تاريخ الطبري

ج 7 ص 73 .

(4) ورد في الامامة والسياسة « عباس بن سهل » ج 2 ص 17 وفي الكامل لابن الأثير العباس بن سهل ج 4 ص

190 .

الجيش المرواني الذي لقي الفشل الذريع ومني بالخسائر الكبيرة ، فضلاً عن سقوط قائده في المعركة^(١) . وكان من بين الذين أتيح لهم الفرار ، يوسف بن الحكم الثقفي وابنه الحجاج ، حيث كانت هذه المهمة أولى بدايات هذا الأخير في الحياة السياسية والعسكرية أبان العهد المرواني ، الذي سيصبح أحد أركان البازين لسنوات قليلة لاحقة . ولم يتح لمروان بعد ذلك تكرار هذه المحاولة ، التي استهدف من ورائها السيطرة على (المدينة) وعزل ابن الزبير في مكة تمهيداً للقضاء عليه . فسرعان ما توفي بصورة غير متوقعة بعد حكم قصير^(٢) ، ربما تحت تأثير الشيخوخة^(٣) التي بلغت منه آنذاك ، أو نتيجة لمؤامرة نفذتها زوجته (أرملة يزيد بن معاوية) ، حسب رواية أخرى^(٤) . وإذا صحَّ ذلك ، فإن ثمة جريمة سياسية يفترض أن يكون للكليبيين دور في اعدادها ، بعد أن شعروا برغبة الخليفة في خرق اتفاق « الحامية » ، بابعاد ولي العهد السفني (خالد بن يزيد) وتعيين ابنه الأكبر (عبد الملك) مكانه . ولا شك أن هذا النوع من الصراع المبطن الذي غالباً ما شهدته قصور الخلفاء ، يمثل ظاهرة قد تكون طبيعية في ذلك الوقت ، حيث السلطة لم تحسم أمرها بصورة نهائية للطرف الحاكم .

وهكذا لم يستطع مروان ، رغم أهمية الدور الذي قام به في الخلافة الأموية ، استعادة المركزية السياسية لدولته التي بقيت ممزقة الاوصال مهددة بالخطر على مختلف جبهاتها الداخلية والخارجية . ولعل الانجاز المهم - عدا توحيد الشام - الذي حققه في هذا السبيل ، هو الاستيلاء على مصر ، حيث سعى لابن الزبير السيطرة عليها بالتنسيق مع الضحاك بن قيس ، وعين أحد أقارب هذا الأخير عبد الرحمن بن جحدم الفهري (والياً عليها)^(٥) . ولعل هذه المهمة لم تكن على جانب من الصعوبة ، وذلك لخلو هذا الاقليم من العصبية القوية ، بالمقارنة مع الاقاليم الاخرى ، وبالتالي فانه لم يشهد مثلها مراكز نفوذ حربية أو قبلية ، تشكل خطراً على وحدة الدولة طوال العهد الأموي . وإذا أضفنا الى ذلك العامل الجغرافي الذي فرض نوعاً من التأثير الحتمي المتبادل ، فإن مصر كانت خاضعة آنذاك للقوى السياسية المتغلبة في الشام ، منذ فتحها على يد واحد من قادة هذه الأخيرة ، فضلاً

(١) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٨٤ ٨٥ .

(٢) تراوح بين السنة والمئذنة شهر . تاريخ الطبري ج ٧ ص ٨٤ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المكان نفسه .

(٥) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٨٥ .

عن الدور الدفاعي المشترك بين الاقليمين في عهد عثمان بتوجيه مباشر من واليه معاوية ، وخضوعها المبكر للجانب الاموي بعيد فشل « التحكيم » .

وكان مروان اثر انتصاره في مرج راهط ، الذي مهد له السيطرة على الشام⁽¹⁾ ، قد قام بحملة الى مصر ، مدعماً بتميز عسكري صار في اعقابها كان على رأسه رجل بني العاص القوي والمنافس الخطير للخليفة عمرو بن سعيد . ولا تشير الرواية المنسوبة لابي مخنف ، الى قتال أو مقاومة جديّة من جانب الوالي الزبيري ، الذي اقتصر نفوذه آنذاك على مجموعة من الفهريين ، كان قد اصطحبهم من الشام . فقد جاء مروان - استناداً للرواية - الى « مصر وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو الى ابن الزبير ، فخرج اليه فيمن معه من فهر ، ويعث مروان عمرو بن سعيد الاشدق من ورائه حتى دخل مصر وقام على منبرها يخطب الناس ، وقيل لهم قد وصل عمرو مصر فرجعوا وأمر الناس مروان وبايعوه »⁽²⁾ . واقرنت هذه المهمة الناجحة التي « قام » بها عمرو بن سعيد بأخرى نفذها في فلسطين ، وهي « انتصاره » - حسب الرواية نفسها - على مصعب بن الزبير⁽³⁾ ، الذي وصف بأنه أكثر اخوانه كفاءة وشجاعة⁽⁴⁾ . ولعل هذه الحادثة تنطوي على مؤشرين على جانب من الاهمية : الاول ، هو ارتباك الحكم الزبيري ، ربما بسبب ضعف امكاناته العسكرية على نحو متكافئ مع المروانيين وحلفائهم⁽⁵⁾ ، مما حال دون تدخله في الوقت المناسب . والمؤشر الثاني ، هو ازدياد شأن عمرو بن سعيد في عاصمة الخلافة ، بحيث أصبحت منافسته لمروان ، بفضل تلك الانتصارات ، مسوّغة لدى جانب كبير من جمهور الامويين وقبائل الشام . وسنجد أن صراع بني العاص القديم على السلطة في الحجاز ، الذي ساد في عهد معاوية بين الطرفين الاقوى (مروان وسعيد) ، سيعود الى الانفجار بصورة أكثر ضراوة في الشام ، حيث توارثه ابناهما (عبد الملك وعمرو) في التنافس الشديد على الخلافة .

وهكذا فان مروان ترك وراءه أزمة حادة في الفرع الحاكم من الاسرة الاموية ، وفشلاً رافق محاولته لاستعادة (المدينة) ، وآخر كان ينتظر محاولته في العراق

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 40 .

(2) للمكان نفسه ج 7 ص 40 .

(3) روى المسعودي أن الذي قاد الحملة الزبيرية هو نائل بن قيس - والي اللطين السابق - الذي هزم في اجتادين ، حيث مصعب عاد ادواجه الى (المدينة) بعد أن علم بأخبار هذه الهزيمة . مروج ج 3 ص 98 .

(4) تاريخ الطبري ج 7 ص 41 .

(5) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 154 .

التي قطف ثمارها خليفته عبد الملك . وكان يعني ذلك استمرار الدولة العربية الإسلامية منقسمة بين خلفائين : مروانية في دمشق وزيرية في مكة ، فضلاً عن متاعب الجبهة الشمالية اثر استغلال الامبراطور البيزنطي تلك الظروف وقيامه بهجوم على أحد الثغور المهمة المتاخمة للشام. ويبدو أن مروان قبل وفاته، نجح في حل مشكلة ولاية العهد ، بعد أن ضمن تأييد الكلبيين الذين حسمو الموقف في النهاية لمصلحة ابنه عبد الملك (١) ، مما أفقد ذلك منافسه (عمرو بن سعيد) الحليف الأقوى و «صانع الخلفاء» (٢) في الشام إذا جاز التعبير . وثمة اخبار أوردها المسعودي بعضها يتناقض في التوقيت مع تلك التي أوردها الطبري ، وهي تضعنا في أجواء الاثنيار السياسي الذي تعرضت له الخلافة المروانية بعد عام من تأسيسها . ولعل ما يهتأ هو التسؤل إذا كان هنالك من دور ما لعمرو بن سعيد، في هذه الاحداث التي لم تقل من احتمال أو تدبير مسبق ؟ فإذا تجاوزنا عنصر الوقت ، حيث تداخلت بعض الوقائع بين عهدي مروان وعبد الملك ، فإن عاملاً محمكاً يرجح أنه كان وراء انفجار المنطقة الشامية في تلك الحفبة . ذلك أن المسعودي يشير الى الموقف السياسي بعد تولي عبد الملك الخلافة ، وكان محاولة انقلابية استهدفت هذا الأخير وتفشيل مهمته في الظروف الصعبة ، باظهاره عاجزاً عن السيطرة على زمام الامر ، على غرار ما حدث لسلفه السفياي يزد : « ثم جاءه خبر دمشق - أي عبد الملك - وإن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل . ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وإن خيل الاعراب اغارت على حصص وعلبك والبقاع » (٣) . ولكن عبد الملك اثبت أنه رجل تلك المرحلة ، وافسد على يده القوى محاولته الاولى للسيطرة على الوضع في الشام ، مترصاً الفرصة السانحة للقضاء عليه .

وليس هنالك ما يشير الى علاقة ما بين عمرو بن سعيد والقوى السياسية المناوئة لعبد الملك ، وفي طليعتها حركة ابن الزبير في الحجاز ، حيث اقتصر اهتمامه على محاولة استقطاب الأسرة الأموية وحلفائها التقليديين ، دون أن يكتب له في ذلك النجاح . وليس

(1) المصيبة . المسعودي ، مروج ج 3 ص 98 .

(2) البخوب ، تاريخ ج 2 ص 257 . تاريخ الطبري ج 7 ص 83 . المسعودي ، مروج ج 3 ص 88-89 .

(3) راجع قول الشاعر الكندي (عمرو بن هلال) :

رفعنا لمروان الخلافة بعدما جرى للزبيرين كل بريد

لأننا لم يكن منا الخليفة نلسه لنا نالنا إلا ونحن شهود

المسعودي ، التنبيه والاشراف ص 267 .

(4) مروج الذهب ج 3 ص 98 .

ما يؤكد أيضاً توقيت المحاولات الزبيرية التي استهدفت الشام ، مع حركات الشغب والاضطراب في عاصمة الخلافة . فقد انفرد المسعودي⁽¹⁾ في الربط بين حملتي ناتل بن قيس ومصعب بن الزبير وبين خلافة عبد الملك ، وذلك خلافاً للآخرين الذي ادعوا الحملتين في سجلات الأحداث المرتبطة بمروان . فاليعقوبي⁽²⁾ يكفي بالإشارة إلى انتصار الأخير على ناتل بن قيس وهو في طريقه إلى مصر⁽³⁾ . والطبري يشير إلى هزيمة مصعب أمام عمرو بن سعيد ، الذي تصدى له في فلسطين ، ولكن بعد عودته من مصر⁽⁴⁾ . والرواية نفسها يذكرها ابن الأثير الذي اقتبسها عن سلفه الطبري . ولعل ما يمكن استنتاجه حول التهديد الزبيري للشام ، أنه لم يكن متوافقاً من حيث التوقيت مع انهيار الوضع السياسي فيها . وإذا صح قيام حملة عسكرية بقيادة مصعب ، استناداً إلى المؤشرات السابقة ، فإنها جاءت بعد انحسام الأمور في مرج راهط ، وهو ما يجعلنا نستبعد حدوثها - أي الحملة - في الأساس ، وذلك بالشكل الذي وردت فيه . فمن البديهي أن المسألة الشامية لم تكن إلى هذا الحد من الغموض بالنسبة لابن الزبير ، حيث يفترض أن تكون المعلومات الدقيقة في متناوله قبل المغامرة بارسال أحد أقوى معاونيه وأكثرهم كفاءة وشجاعة . وربما اقتصر الأمر على ما قام به ناتل بن قيس الذي اتخذ من فلسطين بؤرة للمقاومة الزبيرية ضد الأمويين وحلفائهم بني كلب ، على نحو ما فعله زفر بن الحارث في فريسييا ، بحيث تغلّى الأولى من الحجاز والثانية من العراق . أما للجبهة الفعلية ، فهي على الأرجح مجرد خطأ تاريخي ، لأن ابن الزبير تجنبها منذ بدايات حركته ، اعتقاداً منه بصلاية الجبهة الأموية في الشام ، التي أثبتت قدرتها العسكرية في مختلف المراحل والظروف ، كما أثبت حلفاؤها اليمنيون تفوقاً ظاهراً على القيسيين الذين انتهوا إلى الضعف والتشردم . وفي ضوء هذا الواقع ، فإن موازين القوى ، استمرت لمصلحة خصومه في الشام . بحيث كان خياره الوحيد تشديد قبضته على العراق ومصر ، لعزل الحكم الرواني وتضييق الحصار عليه ، بغية دفعه إلى الرضوخ والاستسلام .

ولكن هل كان ابن الزبير في مثل هذا الموقع الهجومي ، الذي يؤهله لانتزاع المبادرة في الصراع ضد الشام؟ أم أنه سيكون هدفاً لتأمر الوقت عليه واستنزاف طاقاته بصورة تدريجية ؟ . وللجواب على هذا التساؤل ، ينبغي ألا نتجاهل الدور الذي كان باستطاعة مصر القيام به على الصعيد التمويني بصورة خاصة ، حيث أصبحت أحد المصادر الأولى للقمح ، الذي كانت تحمله السفن إلى الحجاز عبر

(1) مروج الذهب ج 3 ص 98

(2) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 256 - 257 .

(3) تاريخ الطبري ج 7 ص 40 - 41 .

(4) الكامل في التاريخ ج 4 ص 134 .

ميناءي: الجار (في عهد عمر) وجلة (في عهد عثمان) . وتأتي خطورة انتقال هذا الولاية الى الصيادة المروانية ، في اجباط « العزل » الزبيري الكامل للشام ، فتصبح المراهنة على العراق الذي كان باستطاعته تأمين ظروف أكثر جدية اذا ما أحسن استغلالها ، وذلك على الصعد السياسية والعسكرية والاقتصادية» . . . ونعود مرة أخرى الى التساؤل عن مدى استخدام ابن الزبير لهذه الطاقة الضخمة وقدرته على استيعاب الوضع في العراق ، الذي أصبح محور الصراع الزبيري- المرواني ، بعد توحيد الشام واسترجاع مصر؟ وهل كان يملك حرية التحرك في هذا الاقليم ، على نحو يجعل منه الارضية الملائمة لتحقيق أهدافه ؟ وفي الواقع ان متاعب ابن الزبير العراقية ، كانت على قدر كبير من الخطورة ، ولعلها كانت في المقابل أحد مراهنات المروانيين ، للانطلاق منها بخطة مضادة ترمي الى إخراجه من العراق وعزله في الحجاز عبر ظروف قاسية ، وهي الخطة التي مار في تنفيذها عبد الملك منذ تسلم زمام الخلافة .

ابن الزبير والمعارضة الشيعية

لم يكن العراق أكثر تمزقاً وانقساماً في موقفه السياسي ، من تلك الفترة المضطربة في تاريخه . . . فثمة تيارات عدة تجاذبها الصراع على أرضه ، ربما كان الحزب الشيعي أقواها ، ولكن انقسامه حال دون استلامه السلطة في ذلك الوقت (باستثناء تجربة المختار الثقفي القصيرة) بالاضافة الى ذلك ، فان الخوارج شعروا بظروف أفضل للقيام بنشاط واسع في جنوب العراق ، أكثر ما استهدف البصرة ، بينما لم يبق للأمويين سوى مجموعة قليلة انطوت على الصمت ، بانتظار متغيرات الاحداث . ولقد استطاع ابن الزبير الدخول الى هذا الاقليم من خلال هذه المتناقضات ، وتحديدأ عبر المترددين في الانتباء آبان تلك الحقبة او الذين شعروا بوطأة الخطر الخوارجي والحاجة الى « منقذ » في البصرة من ناحية ، وعبر العدواة الشيعية للأمويين التي بلغت ذروتها آنذاك من ناحية أخرى . ولكن ثابتة لا يمكن اغفالها في مناقشة الموقف السياسي في العراق ، وهي ترتبط مبدئياً بعلاقة ابن الزبير بالهاشميين في الحجاز ، التي المحنا اليها في فصل سابق . فالانقسام الزبيري- الشيعي في العراق ، انما كان في واقعه انعكاساً لموقف بني هاشم غير الوقي من الحركة الزبيرية . كذلك فان فشل هذه الاخيرة في استقطاب التيار الرئيسي في المعارضة ، قوّت عليها تشكيل جبهة سياسية واسعة ضد الحكم الأموي ، وهي فرصة نادرة كان يفترض الافادة منها بصورة أكثر ايجابية . ففي

(1) تاريخ الطبری ج 7 ص 181 .

الحجاز «تحامل ابن الزبير على بني هاشم تحاملاً شديداً وأظهر لهم العداوة والبغضاء» (١) حسب تعبير اليعقوبي . وتحدثت روايات أخرى عن اضطهادها للهاشميين وتعذيبهم في السجن ، حيث «أخذ محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم ليأبوعوا له ، فامتنعوا ، فحبسهم في حجرة زمزم» (٢) . ويبدو أن محمد بن الحنفية كان على رأس المتصدين لابن الزبير ، حيث كانت معارضته علنية لحركته ، مما حدا بابن عباس الى تحذيره منه والتخفيف من حدة موقفه (٣) . ونستنتج من مؤشر آخر لدى البلاذري ، أن الزعيم الهاشمي كان له مؤيدون كثر في الكوفة ، الذين روعهم ما سمعوا عن معاملة ابن الزبير له ، ولجأوا الى تهديده . فكانت تلك بداية الخلاف بين الطرفين ، حيث «فارقته الشيعة بهذا السبب واكفرته» (٤) . وكان ضغط الكوفة على ابن الزبير ، عاملاً في تخفيف حدة الملاحقة للزعيم الهاشميين الذين عاشوا بعد ذلك في المنفى (الطائف ورضوى) (٥) . ولم تختلف رؤية ابن الزبير بالنسبة للشيعة الا قليلاً عن خصومه الامويين ، وهي الاعتماد على استنزاف قوة الطرفين : العلوي والاقبل عداء ، بعضها مع الآخر (التوابون والمختار ضد عبيد الله بن زياد) . وهي الخطة نفسها التي اعتمدها عبد الملك فيها بعد (اقتتال المختار - مصعب) ، والتي كان لها دور كبير في التمهيد للسيطرة الرومانية على العراق ، للتعطف قبل الاخير الذي وضع حركة ابن الزبير على طريق السقوط الحتمي .

على أن موقف الهاشميين ازاء حركة ابن الزبير ، لم يتصف بالعداء نفسه الذي اتخذه محمد بن الحنفية . فثمة تناقض كان لا بد أن يصل بالعلاقة بينهما الى ما وصلت اليه ، انطلاقاً من الشعور بالخاطر الذي يحمله احدهما على طموح الآخر . وإذا كان الزعيم الهاشمي قد مثل الاتجاه المتصلب في أمرته وانتقل اليه بالضرورة «حق» الزعامة بعد غلب الحسن والحسين وانزواء علي (ابنه) بعيداً عن متاعب السياسة وشجونها ، فان آخرين من الاسرة الهاشمية ومن اخوانه أيضاً ، أيدوا ابن الزبير وقاتلوا تحت لوائه ، خاصة في العراق ، مثل عبيد الله بن علي الذي اشترك

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص 261 . ورد في انساب البلاذري «وأظهر لهم سؤ الرائي في بني هاشم» ج ١ ص 307 . راجع القزويني ، عبد الله بن الزبير ص 154 - 161 .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص 261 . راجع مقالة محمد حسن عبد الرحمن (عبد الله بن الزبير) في مجلة الرسالة ص 1380 عدد 112 عام 1935

(٣) المسعودي ، مروج ج 3 ص 317 .

(٤) البلاذري ، انساب ج 1 ص 317 .

(٥) خليفة بن خياط ج 1 ص 290 اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 262 . ورد في مروج الذهب ، أن محمد بن الحنفية نفي

الى «بلبة» ج 3 ص 77

مع مصعب في حربه ضد المختار الثقفي^(١) وهو موقف له دلالة واضحة على الانقسام الهاشمي واعتراض ابنه علي على زعامة ابن الحنفية . ولا شك أن ظهور المختار ودخوله طرقاتاً في الصراع السياسي على العراق عبر الحزب الشيعي ، قد أفسد الأمر على ابن الزبير وحال بينه وبين استقطاب فئة كبيرة من المعارضة الكوفية ، كان يفترض أن تتعاطف معه ضد العدو الأموي المشترك ، لولا حركة الزعيم الثقفي التي انطلقت من قاعدة هذا الحزب في الكوفة^(٢) .

ونستطيع القول ان المختار وابن الحنفية ، كلاهما استفاد من الآخر ، حيث وظف الأول رصيد الزعيم الهاشمي البارز والطموح لدى شيعة الكوفة ، بينما الثاني وجد في هذه الحركة سبيلاً الى تحقيق ما يصبو اليه من نفوذ ، على حساب التطاحن الأموي - الزبيري . وفي ضوء هذا الواقع كان ابن الحنفية ملاحقاً ومضطهداً في الحجاز ، وربما محظوراً عليه الذهاب الى العراق بوجه خاص . أما الموقف الهاشمي الآخر فقد قرص عليه الحياذ ، عملاً بعهد الله بن عباس ، الذي تجاوز السبعين من عمره أو كاد ، وبالتالي لم يكن له طموح ظاهر الى الخلافة في ذلك الوقت . الا أن ذلك لم يمنعه من التحفظ نحو حركة ابن الزبير ، تحفظه ازاء خلافة الأمويين ، حيث كلتاها مثلت برأيه اعتداء على «حق» أسرته في السلطة . وهكذا فإن المعارضة الهاشمية - باستثناء قلّة أيدت ابن الزبير - انكفأت في المنفى ، مؤثرة الابتعاد الى هامش الأحداث ابان تلك الفترة . وكان وجود زعمائها القسري في الطائف^(٣) ، تلك المدينة التي ارتبطت بعلاقات ودية مع خلافة دمشق ، وتمتعت آنذاك بشيء من الاستقلالية ، حافزاً لقيام اتصالات أموية - هاشمية ضد ابن الزبير ، ولكنها لم تحقق أي نجاح (مراسلة يزيد لابن عباس^(٤)) وعبد الملك لابن الحنفية ودعوته الى الشام^(٥) ، وعدم تعرض الحجاج للهاشميين اثناء نزوله في الطائف^(٦) .

ونكاد نلتصم تلك العزلة السياسية والشعبية ، اذا جاز التعبير ، التي إحاطت بابن الزبير ، ليس في الموقف الهاشمي فقط الذي كانت له مسوغاته وخلفياته ، ولكن في مواقف مختلف الأحزاب والتجمعات في حركة المعارضة . فالتقاربون اعلنوا

(١) الجعفي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٣) ذكر ان محمد بن الحنفية انتهى أخيراً الى الطائف . الجعفي تاريخ ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٥٣ .

رفضهم الصريح للخلافة الزبيرية^(١)، رغم محاولات واليها «الأنصاري»^(٢) في التودد اليهم واستيعاب تمردهم، ومن ثم تسهيل مهمتهم، التي جاءت متوافقة مع سياسة ابن الزبير التقليدية^(٣). والمختار الثقفي الذي عايش عن كسب هذا الأخير وقايل معه ضد الحصين^(٤)، بعد ان وجد في حركته بعض اهدافه، سرعان ما تحلى عنه، حيث لم يجد فيها متسعاً لطموحه^(٥). والخوارج أيضاً، الذين قاوموا الى جانبه الحصار الأموي، انطلافاً من الدوافع نفسها^(٦)، لم يلبثوا أن احتلفوا معه بعيد توقف القتال وموت يزيد. وإذا كان ابن الزبير لم يحقق الحد الأدنى من الموقف المشترك مع الشيعة، فإن تحالفه مع الخوارج الذين كانت لهم آراؤهم المتصلبة، كان من الطبعي أن لا يعيش سوى سحابة قصيرة من الوقت.

والواقع أن الاختلاف في الفكر السياسي لدى الطرفين، كان عميقاً الى درجة يصعب معها إقامة نوع من التحالف مهما بلغ من الضعف. فابن الزبير كان يمسد العقيلة الحجازية المحافظة ويطمح الى إحياء خلافة المهاجرين في اطار من «الشورية» الراشدية، بينما كان الخوارج يمثلون الاتجاه السياسي، المتمرد على كثير من هذه الافكار الثابتة ويتوقون الى تغيير بعض المفاهيم وإعادة النظر في عدد من المسائل، وفي طليعتها مسألة «الخلافة القرشية». فكان من البديهي أن ينتهي الامر بهما الى الافتراق، في وقت كان هؤلاء على عتبة أخطر منعطفاتهم التاريخية، الذي أودى بهم الى الانقسام والى بلورة افكارهم السياسية والدينية^(٧). ولقد تجل ذلك في المناظرة التي اجروها مع ابن الزبير بعد انسحاب الجيش الأموي، التي كان هدفها التعرف الى مضمون حركته وابعادها الاصلاحية «انا قد قاتلنا معك ولم نفتشك عن رأيك، حتى نعلم أمنا انت ام من عدونا، خبرنا ما مقالتك»^(٨). ويبدو ان ابن الزبير لم يستسغ هذه المداخلة، في وقت لم يجد فيه لدى الخوارج ما يتعدى الحليف المرحلي، ضد خصم مشترك يكتون له العدواة الشرسة.. وبالتالي

(١) يعضون، التوابون ص 115.

(٢) عبد الله بن يزيد، تاريخ الطبري ج 7 ص 53.

(٣) يعضون، التوابون ص 131-132.

(٤) تاريخ الطبري ج 7 ص 62.

(٥) يعضون، التوابون ص 117.

(٦) كان الخوارج في ذلك الوقت قد عاثوا كثير من حلات وإلي البصرة (عبد الله بن زياد). فوجدوا في حركة ابن الزبير نفساً لهم وبالتالي منطلقاً جديداً في نضالهم ضد الخلافة الأموية. لطبري ج 7 ص 55-56. فلهوون

الخوارج والشيعة ص 61.

(٧) تاريخ الطبري ج 7 ص 56-57. فلهوون، الخوارج والشيعة ص 63.

(٨) المصدر نفسه ج 7 ص 55.

فان التطلع الى علاقة جبهوية وثيقة معهم ، لم يكن مطروحاً عنده بصورة جدية . وخلافاً لذلك ، فانه تعامل معهم بحذر ويشعور من الخوف ، اذ « بعث الى أصحابه فقال البوا السلاح واحضروني باجمعكم العشية »^(١) حسب رواية أبي مخنف وذلك قبل الرد على تساؤلهم السابقة .

ومن ناحية اخرى فان الاسرة الزبيرية ، التي اشتهرت بكثرة ابتائاتها ، عادت هذه الميزة بالنفع على حركتهم في بادئ الامر واسهمت الى حد كبير في ترسيخ جذورها في الحجاز ، بحيث لم يكن هنالك من الاسر المنتمة الى « المهاجرين » من يدانها في هذا النفوذ والحجم السياسي . غير أن هذه المسألة لم تخل من جانب سلبي ، ربما أصابها بالضرر ، وذلك نتيجة عدم التجانس في مواقف الاخوة الزبيريين ، الذين كانت لبعضهم آراء خاصة ومراكز نفوذ مستقلة . ويأتي في مقدمة هؤلاء عمرو بن الزبير ، حليف الامويين ، وصاحب شرطة عمرو بن سعيد في (المدينة) ، ومن ثم قائد أول حملة ضد أخيه التي انتهت الى مقتله^(٢) . وكذلك لا نستطيع تجاهل موقف المنذر الغامض وعلاقته الحميمة مع عبيد الله بن زياد واضطراب اخباره في تلك الحقبة^(٣) . ويدخل في هذا السياق أيضاً ، عزل عبيدة ابن الزبير عن ولاية (المدينة) التي عانت آنذاك من ظروف اقتصادية صعبة^(٤) . هذا بالإضافة الى الازمة الحفية بين عبد الله وأخيه مصعب ، التي وصلت الى حد التشكيك بهذا الاخير وعزله عن العراق ، ومن ثم تعيين ابنه (حمزة) مكانه ، حيث اثبت فشلاً ذريعاً في مهمته « وظهر منه بالبصرة خفة وضعف »^(٥) ، مما دفع عبد الله الى الاسراع باعادة أخيه الى منصبه ، الذي شغله بكفاءة عالية ، وذلك بعد تدخل بعض زعماء العراق^(٦) .

وبدوان ثمة حافزين وراء هذه المبادرة : الاول ، هو وضع هذا الاقليم ، بما يتمتع به من أهمية سياسية واقتصادية ، تحت مراقبة ابن الزبير المباشرة ، في وقت ازداد فيه مصعب تألقاً وشهرة ، الى درجة ان اسمه اخذ يطفئ على زعيم الحركة . ولا ريب ان شخصية مصعب القوية ومقدرته على استيعاب مزاج العراقيين ، بمن فيهم أهل الكوفة ، يعبران عن خطورة المهمة ودقتها التي قام بها في تلك الظروف . والثاني ، لعله ارتبط

(١) الطبري ، ج ٧ ص ٥٥

(٢) البلاغري ، انساب ج ١ ص ٣١١-٣١٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣٨-٣٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٥٣ . ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٥) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٧٩ .

(٦) المكان نفسه .

بحول ما في الفكر السياسي لعبد الله بن الزبير ، وشعوره ، بعد الاطمئنان الى الوضع في العراق وتصفيّة المعارضة الشيعية ، انه بات في موقع اتخاذ القرار المرتقب في مسألة الخلافة ، خاصة وأنه أوشك على بلوغ السبعين من عمره . ولدينا من مؤشراين الاثير ما يعزز هذا الاتجاه ، الذي ربما بلغ حداً من النضج في ذلك الحين ، والرامي الى تهيئة ابنه لهذا الامر ، حيث قال بعد خيبة أمل واضحة بهذا الاخير : « ابعده الله ، اردت ان اباهي به بني مروان فنكص » (1)

وانطلاقاً من هذا الموقع الصلب الذي اقام ركائزه مصعب في العراق ، لا سيما بعد انضمام ابراهيم بن الاشر الى ، الذي كان يعتبر زعيم الجناح القوي والمتطرف في الحزب الشيعي ، فقد كان من الطبيعي ان يحظى هذا الاقليم باهتمام خاص من جانب الخليفة الاموي . ولعله من سوء الطالع على الحركة الزبيرية ، ان تعاصر شخصية لها تلك المواصفات التي اجتمعت في عبد الملك بن مروان ، بحيث اسهم وجوده الى حد كبير في انقاذ دولته من خطر التمزق ، وفي السعي حثيثاً نحو استعادة العراق . ولقد اثبت في هذا المجال مرونة سياسية عالية ، وضعت في مصاف كبار الخلفاء الامويين ، ان لم يكن اشرهم على الاطلاق ، حيث لم يذخر وسيلة للاتصال بخصوصه حتى اولئك المتحالفين مع الحركة الزبيرية . وكانت ملامع هذه السياسة قد تجلّت في الحجاز عبر مراسلته لمحمد بن الحنفية ودعوته الى الشام ، ومتابعتها بعد ذلك في العراق مع زعماء الشيعة ، واتصالاته السرية بهم ، بما فيها عرضه على ابن الاشر ولاية العراق اذا تخلى عن مصعب (2) ، دون أن ننسى في هذا السبيل مهادنته لفر بن الحارث ، رغم تأييده لابن الزبير ، التي هدف من وراءها إعادة الجسور مع القيسيين من جهة ، وتأمين خطوطه العسكرية الى العراق من جهة ثانية .

وقد تساءل اذا كانت هنالك اسباب وراء تأخر عبد الملك في حسم الوضع في العراق ، عدا الخطة التي اشرنا اليها ؟ وهي تبدو محتملة الى حد كبير ، بعد ان رأى الافادة من الصراع الشيعي - الزبيري ، خلال السنوات الثلاث الاولى من خلافته (65-68 هـ) حيث بلغ ذروته في القضاء على حركة المختار في الكوفة . ولكن مؤشراً المنح اليه (الطبري) في احداث السنة الاخيرة (68 هـ) ، يطرح مشكلة داخلية ربما كان لها تأثيرها على جهود الخليفة ، الذي يبدو أنه صرف جانبا من اهتمامه آنذاك في معالجة الازمة الاقتصادية « المتفاقمة » ، حيث « كان القحط شديداً بالشام حتى لم يقدروا من شدته على الغزو » (3) ، حسب قول (الطبري) . بيد ان هذا الاخير الذي اكتفى بهذه العبارة

(1) ابن الاثير . الكامل ج 4 ص 279

(2) تاريخ الطبري ج 7 ص 185

(3) المصدر نفسه ج 7 ص 167 .

المقتضية ، لم يدخل في تفاصيل واسباب تلك الازمة ، وان كان المرجح انها من محصلات الحرب القبلية في الشام ، التي ظلت تجرّ ذيولاً حتى ذلك الوقت ، وأدت بالضرورة الى اهمال الزراعة في هذا الاقليم ، بالإضافة الى انقطاع خراج الاقاليم الشرقية بما فيها العراق ، التي كانت احد مصادر الدخل الاساسية للدولة . وقد نجد انعكاس هذا التدهور الاقتصادي على انقلاب عمرو بن سعيد ، الذي قام في اواخر العام التالي على الارجح (69 هـ) ، واستهلال خطبته بالتأكيد على « حسن المؤاساة والعطية » (١) ، متوجهاً في ذلك الى بني كلب الذين تهددت امتيازاتهم في تلك الفترة ، بغية استمالتهم اليه . فعن المستبعد اقدامه على هذه « المغامرة » في معزل عن هؤلاء أو ضمان تأييد البعض منهم على الأقل ، اذ يبدو انه نجح في شق جبهتهم بوقوف أحد زعمائهم (حميد ابن حريث الكلبي) الى جانبه ، بينما الاكثرية ظلت الى جانب عبد الملك ، متأثرة بموقف زعيمها حسان بن مالك وشخصية اخرى ، اخذت تحتل مكاناً بارزاً منذ ذلك الوقت ، كأبرز قيادات الجيش الشامي ، اعني بها سفيان بن الابرود الكلبي ، متفد المهجمات العسكرية الصعبة في العهد الرواني الاول . وقد انعكس هذا الانقسام على احتجاج الكلبيين ، الذين هاجم معاربة بعضهم الآخر واقتتلهم ولسطان قريش . (٢) ، بحيث عادت الامور الى نصابها لمصلحة الاكثرية المؤيدة لعبد الملك .

ولعل هذه المحاولة الفاشلة التي قام بها عمرو بن سعيد ، لم يكن باعثها فقط النعمة على خرق « اتفاق الجابية » الذي تجاوز « حقه » في الخلافة ، وانما كانت وراءها اسباب اخرى اسهمت مباشرة في انقلاب هذا الزعيم الاموي ، الذي وجد في نفسه كفاءة ومقدرة ، تنافسان ما لدى الخليفة ، حيث وصفه المسعودي بأنه « كان ذا شهامة وقصاحة وبلاغة واقدام » (٣) . فلذا كان الامر محصوراً في هذا الاطار ، فلماذا انتظر ذلك الوقت لتنفيذه ، دون ثمة تغيير واضح في المعطيات السياسية أو في التوازن القبلي في الشام ؟ . . . وعلى الرغم من اهمية هذا الحافز لشخصية توفرت فيها المواصفات القيادية البارزة ، الا أن اسباباً اخرى كان لها تأثير مباشر على هذا الانقلاب ، الذي حدث في وقت غادر فيه عبد الملك عاصمته ، للقضاء على الحركة الزبيرية في العراق . فالخليفة لم يجهل بدوره ما كان يبيته منافسه الخطر ، وبالتالي يفترض ان يكون لديه خطة مضادة للتخلص منه ، معتمداً على صلابة الجبهة الشامية ، حيث كان خروجه يؤكد اطمئنانه اليها . ومن ناحية اخرى ، فإن مختلف الروايات باستثناء ما أورده المسعودي (٤) ، تشير الى أن عبد الملك اناب عنه أحد

(١) تاريخ الطبري ج 7 ص 176 .

(٢) للمكان نفسه .

(٣) مروج الذهب ج 3 ص 102

(٤) يقول المسعودي ان عبد الملك « خلف عمرو بن سعيد بدمشق » بعد خروجه الى العراق . مروج ج 3 ص 102 .

الثغفين (عبد الرحمن بن أم الحكم)^(١) الامر اثناء غيابه في دمشق^(٢) . ومن المرجح ان يكون لذلك دور ما في انفجار الصراع الحفي ، بعد ان شعر عمرو بن سعيد بتجاهل الخليفة لنفوه الذي أخذ يتضائل في الادارة المروانية .

وليس من شأننا الاسهاب في هذه الحادثة ، التي دفعت عبد الملك الى تجميد خطته في العراق والعودة الى دمشق ، حيث غاب عنها وقتاً قبل ذلك ، اشرف خلاله على الاهتمام بأجناده ، لا سيما قسرين (احمد ابرز المعسكرات الاموية)^(٣) . ولا ريب ان تركيز عبد الملك جهوده على اعادة تنظيم القوة العسكرية لدولة الامويين ، شجع منافسه عمرو بن سعيد على التحرك ومحاولة استقطاب بعض القيادات القبلية الفاعلة على نحو ما سبق . الا ان الارتباط العضوي الوثيق الذي كان قائماً بصورة تقليدية بين الكلبيين والسلطة في دمشق ، احبط هذه المحاولة التي واجهها عبد الملك برباطة جأش وبهدوء الواثق من نفسه ومن قوته . ذلك ان هذا الاخير لم يشكك مطلقاً في موقف حلفائه ، وانما في لجوء خصمه الى تفجير الصراع القبلي في الشام ، متحالفاً مع القيسيين ، حيث تمسك ذلك في قوله : « كأنك تشبه نفسك بتقلدك هذا القوم بهذا الحى من قيس »^(٤) . ولكن هؤلاء كانوا لا يزالون خارج هذه الدائرة من النطاحن ، منكفئين وراء مواقعهم الدفاعية . وكانت للطريقة « المبتكرة »^(٥) التي اجهض عبد الملك فيها انقلاب قريبه الاموي عمرو بن سعيد ، دلالة على صلابة الجبهة المروانية - الكلبية ، وتحذيراً في الوقت نفسه لاصحاب الطموح من الاسرة الحاكمة . كما اثبتت صعوبة ، بل استحالة ، التعايش في السلطة بين رجلين متكافئين في الطموح والمقدرة وقوة الشخصية ، حيث لا بد لاحدهما ان يقضي على الآخر مهما اختلفت الوسائل^(٦) .

ولم تكن هذه المحاولة مجرد سحابة عابرة في تاريخ الحكم المرواني ، حيث يبدو انها تركت عليه آثاراً سلبية لا تخلو من الخطورة . ولعل الرقم الذي اورده اليعقوبي ان « شيعة عمرو بن سعيد نيف وثلاثون ألفاً »^(٧) ، يكشف رغم احتمال المبالغة فيه ، ما انطوت عليه

(1) حوحنه ابن سنيان لانه وقد نسب اليها (ام الحكم) . اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 270 . البلاذري ، انساب ج 1 ص 5.

(2) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 270 . تاريخ الطبري ج 7 ص 176 . ابن الاثير الكامل ج 4 ص 297 .

(3) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 297 .

(4) تاريخ الطبري ج 7 ص 176 .

(5) المصدر نفسه ج 7 ص 177 - 179 . الامامة والمهابة ج 2 ص 25 .

(6) يروي اليعقوبي قولاً لعبد الملك قيل لقضائه على عمرو بن سعيد : « ان والله لو علمت ان الامر يستقيم ، ونحن جبراً ببقيان ، لانتدبناك بدم النواظر ولكي اعلم انه ما اجتمع لفلان الا غلب احدهما » ج 2 ص 271 . هنالك قول مشابه

ايضاً في تاريخ خليفة خباط ج 1 ص 337 .

(7) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 271 .

من تهديد جدي لخلافة عبد الملك . ويتجلى ذلك بدون شك ، في ارجائه المجابهة مع الحركة الزبيرية في العراق نحو عامين (69 - 71 هـ) ، منصرفاً خلالها الى اعادة تنظيم جبهته الداخلية في الشام والحزول دون تكرار مثل هذه المحاولة (١) . على ان ابرز منجزات تلك الفترة ، هي تطوير الجيش الذي اصبح اكثر تفوقاً في حجمه واساليبه القتالية ، بحيث تحول الى القوة العسكرية الضاربة في المنطقة لوقت غير قصير . ولقد بلغ من الكثافة اثناء حلة العراق ، درجة تطلب معها تعيين قائد حازم على مؤخرته ، فوقع الاختيار على الحجاج بن يوسف الثقفي (٢) ، الذي اكتشف فيه الخليفة منذ ذلك الحين كفاءة ادارية نادرة ، مستعيداً معه التوازن لصيغة التحالف القديم بين الامويين والثقيفين ، التي تأثرت بمقتل عبيد الله بن زياد . ومن هنا لم تكن مهمة عبد الملك معقدة الى حد ما في العراق ، الذي كان وضعه آنحداً في التدهور ، بعد فشل ابن الزبير في اكتساب ثقة الاطراف السياسية في هذا الاقليم ، بما في ذلك زعماء القبائل (الاشراف) (٣) ، الذين وجدوا في الحكم الاموي ضماناً اكثر لمصالحهم الاقتصادية . . هذا فضلاً عن حركات تمرد أو محاولات ، يبدو انها تزامنت أو تناسقت مع حملة عبد الملك ، منها خروج (خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد) من مكة الى البصرة (في ولده وعدة من مواليه ناكثاً ببيعة عبد الله بن الزبير ، فنزل في بعض نواحي البصرة ، وان قوماً قد انضافوا اليه من ربيعة ومضر) (٤) ، ومنها ايضاً انضمام نحو « الفئ فارس ممن بقي من اصحاب المختار » (٥) الى عبد الملك . واذا اضفنا الى ذلك ما حققه الأخير من « تحييد » للقاعدة القيسية في قرقيسيا ، واتصالاته مع قيادات مصعب ، كما اسلفنا القول ، فان معطيات الموقف السياسي والعسكري ، كانت الى جانب الخليفة المرواني الذي حقق نصراً سهلاً على القائد الزبيرى (مصعب) وحليفه الأخير ابن الاشر (٦) . وكان ذلك ايذاناً ببداية افول الخلافة الزبيرية وغروبها الوشيك ، حيث تراجعت الى حجمها الذي انطلقت منه ، كحركة محلية في الحجاز ، وانتظرت سقوطها المرتقب في تلك الدائرة الضيقة من العزلة السياسية والاقتصادية .

الحملة المروانية - الحصار الثاني لمكة

لم تكن حملة الحجاج أولى العمليات العسكرية التي استهدفت معقل ابن الزبير الأخير في الحجاز . . فثمة محاولات سابقة مهدت لها ، ولكن من دون ان تأخذ ذلك

(1) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 323 .

(2) ابن عبد ربه ، الملل الفريديج 5 ص 255 - 256 .

(3) الامامة والسياسة ج 2 ص 23 .

(4) المسعودي ، مروج ج 3 ص 104 - 105 . راجع كذلك تاريخ الطبري ج 7 ص 182 .

(5) المصدر نفسه ج 3 ص 105 .

(6) وقعت المعركة بدير الجلائين قرب مسكن . تاريخ الطبري ج 70 ص 185

الطابع الصدامي الذي اتسمت به حملة القائد الثقفي . ولعل ذلك كان منظوياً على تحول ما في السياسة المروانية ، من المجابهة المسلحة الى الاحتواء السلمي ، أخذ يتبلور في تلك الفترة نحو هذا الاقليم . وكان عبد الملك ، رغم تورطه في حصار مكة وضرب الكعبة بمجانيق قائده الصلف ، يعتبر رائد هذا التحول الذي اعطى ثماره ، بعد توحيد الدولة في اعقاب سقوط حركة ابن الزبير وهذوء موجة النقد والاحتجاج ، التي اخذت تترجع وتنحسر امام الانجازات السياسية والعسكرية الضخمة في هذا العهد . اما المحاولة الاولى فقد استهدفت (المدينة) في وقت مبكر ، ولكنها كانت محدودة المهمات محصورة في هذا النطاق من العلاقة الاحتوائية ، حيث رافقها نوع من الحصار الاقتصادي للحجاز ومحاولة لقطع طرق التموين الرئيسية عن مراكز الحكم الزبيرية ، خاصة في مكة . ويبدو ان (المدينة) ، كانت تعيش منذ (الحرة) تحت وطأة هذه الازمة التي اخذت نصيبها الوافي منها ، بحيث ان احتمالات المقاومة لم تكن مطروحة بصورة جديّة في ذلك الوقت . ويشير (البلاذري) الى احوال (المدينة) بعيد هزيمة حبيش بن دلجة (في عهد مروان) : « وعزل ابن الزبير عبيدة (اخاه) وولى ابن ابي ثور حليف بني عبد مناف ، فأصابته الناس في ولايته جماعة وغلت اسعارهم . . . وكان الناس يأكلون من ليل الى ليل ما ينالون الا حصى من حنطة وعلس » (١) . ولم يكن عبد الملك بعيداً عن اوضاع (المدينة) التي قضى من حياته حتى الاربعين فيها (٢) مما دفعه ذلك الى تجنب استخدام العنف وتفادي الانتصار السهل ، الذي كان قريباً منه ، دون ثمة ما يسوغ اللجوء الى هذا الاسلوب . ولعل ما أورده ابن الاثير في هذا السبيل ، يعبر عن هذا التوجه في سياسة الخليفة نحو الحجاز ، حيث قال : « ولما بويح لعبد الملك بالشام بعث الى المدينة عروة بن انيف في ستة آلاف من أهل الشام ، وأمره ان لا يدخل المدينة وان يعسكر بالعرصة . وكان عامل عبد الله بن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي فهرب الحارث ، وكان ابن انيف يدخل ويصلي بالناس الجمعة ثم يعود الى معسكره ، فاقام شهراً ولم يبعث اليهم ابن الزبير أحداً » (٣) .

ومن الواضح ان هذا النص ينطوي على مؤشرين في غاية الاهمية ، بشأن النقطة التي المحنا اليها : ان (المدينة) أولاً كانت شبه محسومة على الصعيد العسكري ، على نحو أتاح للقائد المرواني الدخول اليها واقامة الصلاة في مسجد هذ دون التعرض لاية مقاومة ، سواء من جانب أهلها أم من جانب القوات الزبيرية ، وثانياً ان عبد الملك لم يلجأ الى

(١) البلاذري ، اسباب ج ١ ص 333 .

(٢) تولى عبد الملك حسب ابن خياط وهو ابن ثلاث وستين عاماً ج ١ ص 381 .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 348 .

استغلال هذه المسألة ، مكتفياً بهذا الدور « الاستعراضي » للقوات الشامية حول (المدينة) ، قبل ان يأمر قائده بعد ذلك بالانسحاب الى دمشق (١) ، التي كان الوضع الداخلي فيها لا يزال مهدداً بالانفجار . ولم يلبث الوالي القرشي (الحارث) ان عاد الى مركزه في (المدينة) ، ولكن في ظل نفوذ سطحي ومحدود ، في الوقت نفسه الذي عين فيه ابن الزبير أحد الانصار (سليمان بن خالد الزرقي) على فذك وخيبر ، وهما من الخطوط الدفاعية المتقدمة في شمالي المدينة ، بهدف التوحد لهؤلاء وتشديد موقفهم ضد التهديد الروابي . وهناك من يعتقد أن هذه الحملة كانت بمثابة إجراء احتياطي من عبد الملك ، لحماية الشام من عملية انتقامية مرتقبة يقوم بها ابن الزبير (٢) ، علماً بأن توقع مثل هذه المبادرة ، كان قد تجاوزت الوقت ، ولم تكن لها سابقة في الظروف التي اعتبرت موالية ومشجعة لخل ذلك من قبل . وهذا التصور تناقضه سهولة المهمة التي رافقت الحملة الروابية وحرية تحركها في (المدينة) على نحو ما سبق ، دون ان تصادف مقاومة تذكر من القوات الزبيرية وهي في عقر دارها .

وفي تلك الاثناء قام عبد الملك بمحاولته الثانية للسيطرة على (المدينة) وتشديد الحصار الاقتصادي على ابن الزبير ، ولكن من دون ان يحدد لنا النص التاريخي الوقت الذي تمت فيه هذه الحادثة ، وان كان من الثابت انه سابق على حملة العراق التي جاءت في اعقابها الحملة الثالثة والاخيرة على الحجاز أبان هذا العهد . وكان قائدها ، كما يظهر من اسمه ، ينتمي الى بني العاص (٣) ، ولكنه لم يرد في سجلات الانساب الاموية . ويتجلى مع هذه الحملة ضعف ابن الزبير في (المدينة) ، عندما يبادر واليه الى الخروج منها بعد سماعه بانخبار الحملة الروابية الجديدة ونزولها في وادي القرى (٤) . ولكن سرية من هذه الاخيرة تلحق به وتمكن من قتله ، بحيث خرق ذلك حدود المهمة المرسومة لهذه الحملة ، على نحو آثار امتياع الخليفة ازاء هذا السلوك من جنوده ، الذين « قتلوا رجلاً مسلماً صالحاً بغير ذنب » كما نسب اليه القول ابن الاثير (٥) . ويبدو ان (الانصار) تمكنوا بعيد ذلك من الانتقام لسليمان ، حيث طاردوا السرية الروابية في خيبر وقتلوا قائدها مع اصحابه الذين تجاوزوا الثلاثين (٦) . ومن ناحية أخرى ، فقد عاقب ابن الزبير واليه القرشي (الحارث) على فشله في مهمته ، عملاً اياه تبعات هذه الحادثة . فعزله عن (المدينة) وعين مكانه قرشياً

(١) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 348

(٢) دكسن ، الخلافة الاموية ص 212 .

(٣) ورد تارة عبد الواحد بن الحارث بن الحكم وأخرى عبد الملك بن الحارث بن الحكم . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص

348 . ابن خلدون المعبر ج 3 ص 84 .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 348 .

(٥) المكان نفسه .

(٦) المكان نفسه

آخر (جابر بن الاسود الزهري) ، الذي كان له دور كبير في الانتقام للزعيم الانصارى⁽¹⁾

وهكذا فان سياسة عبد الملك الحجازية تثبت بشكل واضح بعدا غير الصدامي ، من خلال هاتين المحاويلتين ، اللتين أبرزتا ضعف الجبهة الزبيرية في الحجاز ، وانعدام التماسك فيها . وليس ثمة شك ان هذه الثغرة كانت نقطة الضعف الكبرى في مقاومة هذا الاقليم ، حيث بدت كل من (المدينة) ومكة منفردة في مجابهة العدو الاموي المشترك ، منذ أن هبت رياح الثورة في الحجاز ، الى درجة ان احدهما كانت معزولة عن الاخرى وغير معنية الى حد ما بـ « استفراذ » القوات الشامية لها . ولا يخفى ان هذا الموقف ، اسهم كثيراً في اضعاف المقاومة الحجازية واخفاقها في تحقيق جبهة عسكرية موحدة ومتكاملة ، بالإضافة الى العوامل الاخرى التي كانت وراء فشل الحركات الثورية ضد السلطة بصورة عامة في هذا الاقليم وفي طليعتها العامل الاقتصادي . فقد كان من العسير جداً في اعقاب التفرغ المتعدد الوجوه الذي تعرض له الحجاز ، ضمان نتائج افضل في هذا المجال ، بعد ان كان في طليعة المشاكل التي تواجه اصحاب هذه الحركات ، انعدام الاكتفاء الذاتي في هذا الاقليم وصعوبة تأمين الغذاء له⁽²⁾ بطريقة دائمة .

وفي ضوء هذا الواقع ، فان الحجاز بدا وكأن منقوطه اصبح محسوماً بالنسبة للخليفة المرواني الذي سبر مناطق الضعف فيه . كذلك فان ارتباطه شبه التبعي بالعراق ، جعله خاضعاً لتطورات الموقف في هذا الاقليم ، بحيث كان انعكاسها عليه مصيرياً الى حد كبير . ومن هنا جاء مقتل مصعب بمثابة الضربة القاضية لحركة ابن الزبير ، الى درجة حلت الاخير على اخفاء هذا النبا عن جماعته ، حتى لا يحملهم ذلك على اليأس والانفضاض عنه . ولكنه يعود الى الاعلان عنه بعد أن « تحدثت بذلك العبيد والاماء في سكك المدينة ومكة »⁽³⁾ . ويصف لنا المسعودي وقوع الخبر الصاعق على ابن الزبير وهو يكاد يستسلم الى القنوط ، حيث صعد « المنبر وجيئه يروشع عرقاً »⁽⁴⁾ ، ممجداً في مصعب شهادته التي هي قدر الزبيريين : « انا لا ثنوت حثفاً كميتة آل ابي العاص ، وانما ثنوت قصصاً بالرماح وقتلاً تحت ظلال السيوف »⁽⁵⁾ . ولا ريب ان هذا الموقف ، انما يعبر عن مازق الحركة الزبيرية في الملحظات الصعبة ، وعن محاولة زعيمها تدارك ما يستطيعه من

(1) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 348 ابن خلدون ، المعري ج 3 ص 84 .

(2) علي ، ملكيات الاراضي في الحجاز ص 1005 .

(3) المسعودي ، مروج ج 3 ص 112 .

(4) لكان نفسه .

(5) لكان نفسه .

الاعتبار لدى انتصاره ومن ثم تعزيز روحهم المعنوية ، محرّضاً فيهم غريزة القتال والنتمثل بأخيه مصعب .

وفي تلك الاثناء كان عبد الملك يختار احد قواده الذين يبرزوا في حملة العراق ، قائداً للمهمة الاخيرة التي باتت على جانب من السهولة ، متجسداً ذلك في الحجم المتواضع للحملة (١) التي تولى زمامها الحجاج بناء على طلب منه كما اشارت رواية الطبري (٢) . وثمة ملاحظة يمكن التوقف عندها ، أن عبد الملك - انطلاقاً من تقويمه الخاص للحكم الزبيري بعد سقوط العراق وانعكاس ذلك على اوضاع الحجاز ، حيث بات الحصار المرواني شديد الاحكام حوله - لم ينتظر العودة الى دمشق لتنفيذ قراره بالقضاء على معقل الحركة الزيرية الاخير في مكة ، بل سارع الى التحرك في هذا السبيل منذ دخوله قصر الامارة في الكوفة . ويبدو ان العامل الجغرافي تدخل في مسيرة هذه الحملة التي استهدفت مكة مباشرة ، بعد ان عرض « الحجاج عن (المدينة) وسلك طريق العراق » (٣) ، وذلك خلافاً للحملة الشامية التي كانت (المدينة) اول اهدافها الحجازية تحت تأثير العامل نفسه . وكان هذا الفصل في مواجهة المدينتين مقصوداً ، في وقت لم تعد فيه الاخيرة حاجزاً منيعاً في وجه النفوذ المرواني ، بعد استفاد طاقاتها البشرية والاقتصادية خلال السنوات العشر الماضية ، حيث كشفت محاولات الخليفة التي مرّر ذكرها ، ضعف مقاومة (المدينة) واضطراب تحالفها السياسي مع مكة .

وهناك من يعزو قيادة الحجاج ، وهو قائد مغرور آنذاك ، لهذه الحملة الى اعتبارات اخرى ، وهي ان الخليفة تحبّب القيام مباشرة بهذه المهمة لأنه رأى فيها « مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب » (٤) ، ولى ان الحجاز ، الذي كان مقراً للمعارضة الهاشمية وأرضاً خصبة للاحقاد ضد الأمويين ، خاصة بعد معركة الحرّة وحصار الحصين لمكة ، لا بد ان تواجه عبد الملك فيه متاعب شتى لا قبل له بها (٥) . على ان هذا المؤرخ الذي يعترف في الوقت ذاته بأن « القضاء على الحركة الزيرية في العراق ، كان ايذاناً بغروب شمسها » (٦) ، لا يقع في شرك التناقض فقط ، ولكن في سوء التقدير وقصور الرؤية التحليلية السليمة . ذلك ان الحجاز كان قد مرّ عليه وقت طويل وهو فاقد لمثل تلك

(١) تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٩٥

(٢) روى الطبري ان الحجاج سار الى ابن زبير بمكة « وخرج في الفين من جند أهل الشام في جمادى من سنة ٧٢ هـ » ج ٧ ص ١٩٥ . ورد في الامامة والسياسة « الف وخمسة رجل من أهل الشام » ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٩٥

(٤) لكان نفسه علي حسي الحريوطي ، عبد الله بن الزبير ص ٢١٨ .

(٥) المرجع نفسه ص ٢١٨-٢١٩ .

(٦) المرجع نفسه ص ٢١٣ .

المعطيات ، سواء على المستوى الاقتصادي ، حيث كان للازمات التي عصفت به وبلغت حدود المجاعة (١) ، ان صبحت المؤشرات التي اسلفنا مناقشتها في فصل سابق ، أو على المستوى البشري الذي ترك اثاره السلبية على البذور السياسي والعسكري للحجاز ، في اعقاب التفرغ الذي تعرض له ابناء الفتوحات المبكرة ، مما ادى الى تجميع قوى المعارضة فيه ، التي لم يكن لها سوى دور معنوي بمن في ذلك الهاشميين ، الذين اتخذوا من العراق ارضية التحرك الثوري ضد الحكم الأموي . أي أن هذا الاقليم ، كما يرى فيه مؤرخ معاصر آخر ، مثل « الجناح الايمن الذي يعمي الحجاز وكان ابن الزبير يستمد منه المدد لصد غارات الشام » (٢) . وكانت تلك ثابتة لم يخرج الاخير من الارتكان لها حتى في اواخر عهده ، حيث المقتد ما يكفيه من الجنود للدفاع عن مواقع نفوذه في الحجاز عبر جبهة عسكرية موحدة . فهو يسارع مثلاً بعد اشتداد الضغط على (المدينة) الى الامتعاة بواليه على البصرة ، وه يامر أن يرسل اليه الفتي فارس ليعينوا عامله على المدينة » (٣) . وفي ضوء ذلك ، فان ثمة اشكالات اخرى حالت دون قيادة عبد الملك بنفسه حملة الحجاز ، على ضرار ما فعله في العراق ، وهي لا تصب بالضرورة في هذه الدائرة من الجدل أو التهمب من ركوب هذه « المغامرة الحجازية الخطيرة » . ذلك ان الخليفة المرواني ، الذي شعر بأنه استبعاد وحدة الدولة الأموية أو كاد ، في اعقاب انتصاره على مصعب ، تحبب على الارجح المواجهة المباشرة مع الحجاز والدخول العسكري اليه ، بما لذلك من تأثير سلبي على الموقع المركزي الذي يتوق الى تحقيقه ، ملقياً تبعات هذه « المغامرة » عبر هذا المنظور السياسي وليس العسكري ، على عاتق قائده الثقفي الطموح ، الذي كان يتطلع الى مثل هذه المهمة والخروج معها الى دائرة الشهرة .

واذا كانت مهمة الحجاج على قدر من السهولة ، التي افترنت بالواقع فيما بعد (٤) ، فينبغي الا يدفعا ذلك الى المبالغة في التقليل من اهمية المقاومة التي اصطلدت بها القوات الشامية في الحجاز ابان العهد المرواني . فقد كانت (المدينة) لا تزال هدفاً مستمراً لهذه الاخيرة ، دون أن يؤثر ذلك على العمليات العسكرية الاخرى المتزامنة معها ، بحيث فرضت عليها نطاقاً من الحصار العسكري والاقتصادي المتواصل . وثمة قائد شامي (طارق بن عمرو) ، اتخذ مركزه بين ايلة ووادي القرى (٥) ، مسيطراً من خلاله على طريق

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) غنياء الدين الروس ، عبد الملك بن مروان موثق الدولة العربية ص ٢١٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٩٥ . ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٥٠ ابن خلدون ، البر ، ج ٣ ص ٨٥ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٤٩ .

الشام ومانعاً «عمال ابن الزبير من الانتشار»⁽¹⁾ في هذه الناحية ، بانتظار اغلاق الطريق العراقي الذي سلكه الحجاج بعد ذلك . ويدوان وقتاً مراً عليه وهو يحاصر (المدينة) ، حيث نسب اليه الاقتال مع القائد الزبيري (ابو بكر بن أبي قيس)⁽²⁾ والقضاء عليه ، وكذلك الانتصار الساحق على حملة البصرة الأنفة الذكر⁽³⁾ . وكان طارق لا يزال معسكراً في وادي القرى ، بانتظار اوامر الخلافة ، حتى اذا وصل الحجاج الى الطائف ، حسم مشكلة (المدينة) ودخلها من دون صعوبة تذكر ، وبالتالي من دون عمليات صدامية أو انتقامية . وقد يحيط الغموض أو بعضه بهذه الحادثة ، التي وردت على شيء من الاقتضاب في النص التاريخي ، حيث امتأثرت مكة بالاهتمام الرئيسي فيه ، ولكننا نميل الى ترجيح بأن سقوط (المدينة) تم بصورة سلمية ، وذلك في اعقاب اتفاق بين القائد الشامي وبين واليها الزبيري (طلحة بن عبيد الله بن عوف) ، الذي كان لا يزال في منصبه منذ سنة 70 هـ ، « حتى اخبره طارق »⁽⁴⁾ منها استنادا الى قول ابن الاثير .

وليس ثمة شك ان عبد الملك الذي كان يعرف عن كذب ظروف البيئة الحجازية ، لا سيما المحيطة بـ (المدينة) ، خطط عن عمد لاسقاط الحجاز ، وذلك من خلال عزله واحكام الحصار حوله ، تلك الخطة التي اتخذت اطارها الحدي منذ السيطرة على العراق . ولذلك لن نجد اختلافاً في الأسلوب ، الذي كان متشابهاً الى حد ما من حيث المبدأ على جبهتي الحركة الزبيرية . فعلى غرار المعسكر الذي اقامه طارق في وادي القرى ، اتخذ القائد الثقفي معسكراً له في الطائف ، لوضع مكة في دائرة محكمة من الحصار . ولا نجد صعوبة في تأكيد مثل هذا الطرح ، انطلاقاً من المعطيات التالية : أولاً ، ان حملة الحجاج جاءت متكاملة مع حملة طارق السابقة عليها ومتناسقة معها في الشكل والمضمون (قطع المواصلات عن الشام والعراق والنزول في نقاط حساسة في الحجاز : وادي القرى على تخوم المدينة والطائف على تخوم مكة) ثانياً ، عدم قيام جبهة موحدة للمروانيين ومسير الحجاج مباشرة الى الطائف دون المرور في (المدينة)⁽⁵⁾ أو قصد مكة بصورة مباشرة ، مما يعبر عن رغبة الخليفة في تجنب الحل العسكري ما استطاع سبيلاً الى ذلك . ثالثاً ، ان الطائف كانت المتنفس الاخير لمكة بعد انقطاع طرق التموين الامامية ، حيث كان باستطاعتها

(1) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 349

(2) في انباء ولاية جابر بن الاسود لزهري ، ابن الاثير ج 4 ص 348-349 .

(3) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 349

(4) المكان نفسه . هنالك التباس حول توقيت هذه الحادثة ولكن ابن الاثير يفسرها في عام 73 . بينما الطبري يجعلها في العام 72 وهو هل ما يبدو أكثر ترجيحاً حيث بدأ الحصار في لواتره واستمر حتى العام التالي . تاريخ الطبري ج 7 ص

195 .

(5) تاريخ الطبري ج 7 ص 195 .

توفير ظروف أفضل للصمود في حال استمرارها تحت النفوذ الزبيري ، فجاء سقوطها في يد الحجاج الذي يبدو ان انتهاء الضغني ، كان له دور في توليه هذه المهمة ، ومن ثم السيطرة بغير صعوبة عليها . رابعا ، ان بقاء الحجاج نحو اربعة شهور (من شعبان حتى ذي القعدة)^(١) في الطائف ، لم يكن له من تفسير سوى اطالة امد الحصار الاقتصادي ، الذي عاناه ابن الزبير الى حد كبير في ذلك الوقت^(٢) . خامساً واخيراً ، ان الحصار العسكري لم يبدأ الا في الشهر التالي (ذي الحجة) ، عندما التحق طارق بالحجاج ، بعيد سقوطه (المدينة)^(٣) .

ويبدو ان الحجاج تحكّم في توقيت المرحلة الثانية من حصار مكة ، مستهدفاً تعطيل موسم الحج^(٤) الذي صادف في تلك الاثناء ، بغية احراج ابن الزبير وتحميله تبعات هذه المسألة ومعها اشكالية القتال في الحرم . فقد أدّت سياسة الخليفة الذكية التي انتهجها في الحجاز ، الى اظهار منافسه ابن الزبير ، متمرداً على « الجماعة »^(٥) التي أصبحت مرة اخرى ممثلة بالامويين من الفرع المرواني . وفي ظلّ هذا التحول ، فان « شرعية » الحكم الزبيري ، تعرضت للاهتزاز ومعها مسوغات المقاومة ضد الخليفة المرواني^(٦) ، الذي استعاد « شرعيته » الكاملة على مساحة الدولة الواسعة ، باستثناء تلك الرقعة الضيقة التي ظلّ ابن الزبير مصرّاً على المقاومة فيها .

انتهت المرحلة الاولى من الحصار الذي بدأ في الطائف ، دون تغيير في موقف ابن الزبير الذي بقي متصلباً ، رغم ضغط الازمة الاقتصادية وتأثيرها السلبي على صمود جماعته . وكانت المرحلة الثانية أشد وطأة ، ولكنها لم تكن حاسمة ، عندما نزل الحجاج بقواته في معسكر مجاور لمكة (بئر ميمون)^(٧) ، دون ان يظهر انه على عجلة من الامر في القضاء على حركة تقترب من الاحتضار في ذلك الوقت . وكما يشير (الطبري) ، فانه انتظر اوامر الخليفة ، حيث كتب اليه « يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم ، ونخبه ان شوكته قد كلّت وتفرق عنه عامة اصحابه »^(٨) . ولكن عبد الملك كان يأمل في نهاية غير عسكرية لهذه المسألة ، على غرار ما حقّقه في (المدينة) ، في وقت لم يعد فيه اسير الوضع

(١) تاريخ الطبري ، ج ٧ ص ١٩٥ .

(٢) الراس ، عبد الملك بن مروان ص ٢١٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٩٥ .

(٤) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ١١٣ .

(٥) راجع قول الحجاج لاصحابه : « انتم على الطاعة وهم على خلافة الطاعة » . تاريخ الطبري ج ٧ ص ٢٠٢ .

(٦) PERIER, VIE D'AL-Hudjadjadj ibn yusuf, P. 50-51 .

(٧) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٢٩٥ .

(٨) المكان نفسه .

الحجازي ، بعد ان عادت آلة الحكم الى مجراها الطبيعي وتحركت الجيوش التي انكفأت طويلاً على الجبهة الافريقية (١) . ومن هنا لم يكن حاجسه ابن الزبير ، ولكن مقر حركته الذي « استعاض » به ، واستمد منه القوة المعنوية للمضي في المقاومة ، ذلك الخيار الذي بدا انه التجأ اليه ، ربما عن قناعة أو عن اكراه ، انطلاقاً من معرفته للمصير الذي ينتظره على يد خليفة قوي ، يضيّق بهذا النوع من المنافسين الى جانبه .

ولم يكن عبد الملك بلوذه ، يجهل ما يدور في خلد خصمه الشديد الكبرياء ، وما يصادف استسلامه للحجاج من صعوبة تقترب من الاستحالة . ولذلك يتخذ الحصار لمكة مرحلة جديدة ، بسيطرة قواته على جبل أبي قبيس ، الذي تبدو اهميته آنذاك في الصدى الواسع الذي احلته سقوطه في عاصمة الخلافة (٢) . فعلى هذا الموقع المشرف على مكة ، نصب الحجاج « منجنيقه » واخذ يصب « قذائفه » على الكعبة ، بعد ان اخفق في استدراج ابن الزبير ، للاشتباك معه خارج المدينة . ذلك ان عبد الملك الذي وُصف بأنه كان من اشد المتقدين للخليفة الاسبق (يزيد) وقائده الحصين من قبل (٣) ، اجاز لنفسه وهو في السلطة اللجوء الى هذا الاسلوب «الانتهاكي» للمقدسات ، التي يفترض انه المدافع عنها ويستمد منها نفوذه الروحي ، المكمل لنفوذه الزمني في الشام . وعلى الرغم من اجماع الروايات على هذه الحادثة وايرادها بشيء من الاستنكار أو كثير منه ، فان وقوعها قد لا يكون امراً مسلماً به ، اذا ما استمعنا الاحاطة بالمعطيات التاريخية المترامية معها أو السابقة عليها . فمن البديهي ان الدوافع لم تكن متشابهة لدى الخليفتين السفينيين والمرائيين اللذين أدبنا هذا العمل الاستباحي للكعبة ، حيث كان الاول (يزيد) مدفوعاً بسياسته الهجومية التي بلغت حداً من الشراسة ضد حركات المعارضة التي احاطت به وهددت « ملكه الموروث » . اما الثاني (عبد الملك) فكان خارج هذه الدائرة من الخوف على نظامه الذي استتب ، بعد ان تلاشى خطر الحركة الزبيرية وانكفا قائدها على عزلته ، منتظراً سقوطه الوشيك .

ولسنا نحاول هنا ادانة خليفة ودفع التهمة عن آخر ، فقد يكون كلاهما متورطاً أو هدفاً لحملة مفتعلة ، ولكن عبد الملك خلافاً لسلفه السفيناني ، كان اقل اضطراباً للقيام بمثل هذه الخطوة ، وبالتالي - إن صحح حدوثها - فهي لا بد ان تنال من موقعه الكثير وتضعه امام عاصفة من النقد والاحتجاج . ولا تخلو هذه الرواية في الحقيقة من الحبكة التي تقلل

(١) راجع حملة حسان بن النعمان الفسائي التي حشد لها عبد الملك عدداً كبيراً من الجند . ابن عبد الحكم ، فتح ص 279

(٢) السعدي ، مروج ج 3 ص 112- 113 .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 350 . ابن طباطبا ، الفخرى ص 102 .

PERIER, Vie D'ah- Hadjijjad P. 39

من قيمتها التاريخية ، خاصة ما يتعلق بالنتائج المباشرة التي أحدثتها ضرب الكعبة على جند الشام و« انكسارهم » دون ثمة اشتباك بين الطرفين ، حسب الرواية نفسها التي لم تشر إلى ذلك .

وفي تلك الاثناء ، كان حصار مكة الذي ناف على الستة اشهر^(١) ، قد بلغ مرحلته الاخيرة الخامسة ، بعد تدهور الاوضاع الاقتصادية ونفاذ الاحتياط التمويني^(٢) ، الذي كان له تأثير كبير على معنويات المقاتلين فيها . وكان ذلك الاجراء الوقائي قد اتخذ ابن الزبير ، بعد سقوط العراق على الاربع ، حيث عمد الى ملء بيوته « قمحاً وشعيراً وذرةً وتمرًا . ولا ينفق منه الا ما يمسك الرمق^(٣) » . ولا شك ان اهتمامه بذلك الامر على هذا النحو ، قد اسهم في صمود مكة تلك الفترة الطويلة ، كانت خلالها معزولة وموصلة دونها المتأفد على اختلافها . « فغلت الاسعار واصاب الناس مجاعة شديدة^(٤) » عشية سقوط (المدينة) ، بينما أهل الشام « ينتظرون فناء ما عنده^(٥) » ، اي ابن الزبير ، حتى اذا تحقق ذلك أركاد ، اطلق لحجاج « امانه » لهذا الاخير واصحابه . فخرج عدد كبير منهم^(٦) ، كان بينهم اثنان من ابناؤه (حمزة وحبيب) ، بينما التزم ابنه الثالث (الزبير) بالبقاء معه رافضاً دعوته له ان يلتحق بأخويه^(٧) . وفي المقابل فقد أبى الاستجابة لرجاء اخيه (عروة) في « الاستئذان » للقائد القضي ، حيث ان شأناً آخر سيكون لهذا الاخير معه^(٨) : « لربقت ما تقولون ما عشت الا قليلاً وقد اخذت الدنيا . وما ضربة بسيف الا مثل ضربة بسوط^(٩) » .

وكان آخر موقف استلهمه من امه (اسماء بنت أبي بكر) ، مستمداً منها الشجاعة على مواجهة مصيره الذي اختاره قبل لقاء الحجاج^(١٠) مع قلة قليلة من اصحابه ، أثرت الاستمرار معه . وكانت القوات تحيط بمكة وقد « شحنت^(١١) » بهم ابوابها واقاموا « على كل باب رجالاً وقائداً وأهل بلد ، فكان لأهل حصص الباب الذي يواجه باب الكعبة

(١) تاريخ الطبري ج 7 ص 202 .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 352 .

(٣) المصدر نفسه

(٤) للمكان نفسه ج 4 ص 351-352- ابن خلدون ، المبرج 3 ص 86 .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 352 .

(٦) قيل انهم بلغوا عشرة آلاف تاريخ الطبري ج 7 ص 202 .

(٧) المكان نفسه . ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 352 .

(٨) المسعودي ، مروج ج 3 ص 113 .

(٩) الامعة والسياسة ج 2 ص 28 .

(١٠) تاريخ الطبري ج 7 ص 203 .

ولاهل دمشق باب بني شيبه ولاهل الاردن باب الصفا ولاهل فلسطين باب بني جمع ولاهل قنسرين باب بني سهم ، وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الابطح الى المروة (١) . وجاء هذا الاطباق المحكم على مكة ، كما وصفه الطبري ، بمثابة الاجهاز الأخير على معقل الحركة الزبيرية ، التي انتهت بعد اطول حصار في تاريخ الحركات المناوئة للدولة الاموية . ومن ناحية أخرى ، فقد كانت له دلالة على أن المروانيين ، شأن أسلافهم السفينيين ، ظلوا يعتمدون حتى أمد طويل على القبائل الشامية ، كقوة أساسية في الجيش ، الذي كان منوطاً به القيام بدور أشد فاعلية من ذي قبل في الدفاع عن النظام ودرء الأخطار الداخلية عنه .

(١) تاريخ الطبري ج 7 ص 204

الحركة الزبيرية نظرة وتقويم

« فالحجاز أصبح ركناً ميثاقاً منذ
مقتل عثمان ولم يكن من الممكن
جعله مركزاً للحياة السياسية »

(غلهورن ، الدولة العربية)

انتهت دولة الزبيريين في الحجاز دون أن ترافق ذلك عمليات انتقامية كتلك التي
جرت في (المدينة) بعيد معركة الحرّة ، إلا ما كان من بعض ممارسات للحجاج ، عبّرت
عما انطوت عليه نفسه من قسوة متأصلة فيه ، ولكنه في المقابل كان يخشى الرضوخ لنزعة
الديموقية ، تجنباً لغضب الخليفة ، وهي صفة أخرى كان مفطوراً عليها ، أعني بها الولاء
المطلق للسلطة ، حيث كان يرى دائماً بعين الخليفة ويقوم بما يحقق له الرضى والارتياح ،
مهما كلفه ذلك من مناصب ومشقات . فهو يستكر مثلاً على « نائبه » في الحجاز (طارق
بن عمرو) شأه على شجاعة ابن الزبير ، الذي كان « يخالف طاعة أمير المؤمنين »⁽¹⁾
وبالتالي فقد لقي « جزاءه العادل » ، حسب المنظور الواقعي لمثل هذه المواقف ، المتكررة
في مختلف مراحل حياته السياسية أبان العهد مرواني .

ولقد كان نصيب الحجاج ومعاونه (طارق) ، تعيين الاول والياً على مكة والثاني
على (المدينة)⁽²⁾ . ولكن الآخر لم يصمد أمام منافسه في الحجاز ، فعزل من منصبه في
الوقت الذي اخذ نجم الحجاج في التآلق ، بحيث أصبحت في يده السلطة المباشرة في شبه
الجزيرة (الحجاز ، اليمن ، اليمامة)⁽³⁾ . وظلّ في منصبه نحو عامين ، أقام معظمها في
(المدينة) التي لقيت كثيراً من « تعنته » وملاحقته للانتصار وإذلالهم⁽⁴⁾ . ويبدو ان الخليفة

(1) تاريخ الطبري ج 7 ص 205 .

(2) المصدر نفسه ج 7 ص 206 .

(3) المكان نفسه . المسعودي ، مروج ج 3 ص 105 ، ابن الأثير ، الكاس ج 4 ص 359 .

(4) تاريخ الطبري ج 7 ص 206 .

لم يستغ هذا السلوك منه في الحجاز ، فأمر بنقله الى العراق بعد موت أخيه (بشر بن مروان) . ذلك انه كان أكثر احتياجاً لدوره في هذا الاقليم ، الذي أصبح محور المعارضة الرئيسي في الدولة المروانية ، حيث الامتداد الجغرافي المناسب والوجود السكاني المكثف ، بالإضافة الى الصراع الاجتماعي المتصنع وراء الاجواء المشحونة بالتوتر والمحرضة على الثورة .

وهكذا تم اسقاط المعقل الاخير للحركة الزيرية في مكة ، حيث انطلقت من هذه المدينة الحجازية العريقة وانطفأت فيها بعد سنوات تسع ، كانت في معظمها تسيطر على الجزء الاهم من الدولة العربية الاسلامية ، التي انقسمت آنذاك بين خلافتين : احدهما تمثل ثيار (المهاجرين) وتطمح الى استعادة ألق الحجاز ومركزيته ، وثانيهما تمثل عصبية قريش المتحالفة مع العصبية الشامية التي تجملت في (صفين) ومن ثم تبلورت في (مرج راحط) بزعامة بني مروان من البيت الاموي . واذا كان من الجائز طرح السؤال التقليدي حول اسباب سقوط حركة ابن الزبير ؟ فان ثمة صيغة اخرى للتسلول ، قد تكون أكثر ملامسة لموضوعية الطرح ، وهي البحث في اسباب قدرتها على الاستمرار طوال هذه الفترة . فالحجاز ، كما اختصره (فلهوزن) « أصبح ركناً سبياً منذ مقتل عثمان ، ولم يكن من الممكن جعله مركزاً للحياة السياسية »⁽¹⁾ ولذلك فان الاصرار على اتخاذ الحركة في اقليم لا يحمل الا قليلاً من مقومات الصمود ، كان برأي المؤرخين احدى نقاط الضعف الأكثر بروزاً فيها . وفي ضوء هذا الواقع لم يشكّل ابن الزبير خطورة جدية على الحكم الاموي ، الا بعد السيطرة على العراق الذي كان باستطاعته مدّ كثير من الثغرات في مشروع الدولة الزيرية على المستويين الاقتصادي والبشري⁽²⁾ . فقد كان هذا الاقليم ، كما سبق ان اشرنا ، مصدر التمويل الرئيسي لحركة ابن الزبير ، ومركز المواجهة الفعلية في الصراع ضد محور الشام المرواني .

ولعل الخطأ الفادح الذي وقع فيه ابن الزبير ، انه قلّل كثيراً من أهمية هذا الدور العراقي ، في وقت كانت فيه المعارضة المهزومة تبحث عن بديل ما ، يحقق الحد الأدنى من طموحها السياسي ومطلبها الاجتماعي ، لتوظيف ما لديها من طاقات تحت قيادته . ثمة لحظة تاريخية لم يحسن استغلالها ، عندما خائنه المبادرة بعدم الانتقال الى الكوفة واتخاذها مقراً له ، بعد سقوط حركة المختار الثقفي ، وتحويله ، للعراق . ولكن ابن الزبير ظلّ متردداً وآثر اعطاء هذا الدور لمصعب ، الذي بدأ أكثر المعية قيادية منه ، ولكنه ظلّ مقيداً بسلفية أخيه وفكره السياسي المحدود ، فضلاً عن التشابك في المسؤولية والصراع الخفي

(1) تاريخ الدولة العربية من 195 .

(2) تاريخ الطبري ج 7 ص 181 .

بين الأخوين ، مما أظهر الحركة وكأنها معقودة القيادة لها في آن : الأول في الحجاز له السلطة الروحية ، والثاني في العراق يمارس السلطة الزمنية بكثير من الاستقلالية والنفوذ الخاص . ومن هنا اتخذ الصراع الأموي الزبيري محوره الفعلي في العراق ، حيث أصاب المروانيون تقدماً ظاهراً في هذا الاقليم ، نتيجة خلو الحكم الزبيري من مضمون اصلاحي متميز ، يستطیع من خلاله الاحتفاظ بتأييد المعارضة واستقطابها لفترة زمنية طويلة .

والواقع ان محاولة احياء المركزية السيامية في الحجاز ، كنظرية تمسك بها ابن الزبير ، أثبتت فشلها من خلال معطيات عديدة ، لعل ابرزها ان التجربة الراشدية التي كان الاخير شديد الإعجاب بأحد اركانها (عمر بن الخطاب) ، تجاوزتها الظروف واستنفذتها المتغيرات ، بحيث لقيت نجاحاً كبيراً في اطار تاريخي توافرت فيه الشروط الملائمة لذلك . ومن هنا فان استعادة هذه التجربة ، في ظل غياب هذه الشروط أو معظمها ، إنما هو تصور غير واقعي لطبيعة المتغيرات الجذرية في تلك المرحلة . ومن ناحية أخرى ، فإن محاربة ابن الزبير ، الأمويين وحلفائهم من قبائل الشام ، بأهل العراق وهو معتكف في عاصمته الحجازية ، لم يلق ارتياحاً لدى هؤلاء ، الذين كانت حماسهم له تتضاءل مع تقدم الجيش المرواني نحوهم . فقد كان هنالك انقطاع بين قائد الحركة وبين الفئات التي كانت تقاتل تحت رايته ، بحيث كان لذلك انعكاس سلبي على الجبهة العراقية التي فقدت تماسكها وإمارت بصورة غير متوقعة . وكان غياب ابن الزبير عنها ، في الوقت الذي قاد فيه عبد الملك قواته الشامية بنفسه ، قد أوجد اختلالاً ، ليس في موازين القوى العسكرية فقط ، ولكن في قناعات الطرفين بالهدف الذي قاتلا في سبيله ، حيث كان محمداً في اتجاه ، مضطرباً في الاتجاه الآخر .

وفي ضوء هذا التقييم لحركة ابن الزبير ، نستطيع القول ان هذا الاخير كان سياسياً فاشلاً ، أو ، لم يصلح ان يكون سائساً على حد قول أليعقوبي⁽¹⁾ ، ليس له سوى نصيب ضئيل من امكانات منافسيه المروانيين في هذا المجال . فقد كانت تعوزه المرونة⁽²⁾ والدهاء ، فضلاً عن المبادرة . وهذه الصفة الاخيرة ، ربما كانت أكثر بروزاً عنده⁽³⁾ ، حيث خانتها بسببها فرص نادرة ، بدءاً بالثلكث في دعم الحزب القيسي في الشام وانتهاء بالاهمال غير المسوغ لدور الجبهة العراقية . وقد نستغرب من قيادي ينطوي على هذه الثغرات ، ان يصل الى ذلك الموقع ويشكل ذلك الخطر على خلافة الأمويين القوية . ولكن ما حققه من انجازات ، لا يعود فضلها اليه وإنما الى الظروف المتزامنة مع

(1) البقوي ، تاريخ ج 2 ص 274 .

(2) راجع مرقته من وفد العراق الذي اصطحبه مصعب الى مكة . الامامة والسياسة ج 2 ص 23 .

PERIER, Vic D'al - Hadjadjadj P . 51 (3)

حركته ، حيث نجحت في التأثير على عواطف المعارضة المتمثلة بالحدق على اعدائه الاموين . ذلك ان فراغاً في الزعامة السياسية على محور هذه الاخيرة ، لم يكن صعباً على كائن ما له ذلك الموقع السياسي ان يملأه وان يقوم باستثمار هذه الطاقة لمصلحته . واذا كان المختار الثقفي قد نجح في ركوب الموجة والسيطرة على الكوفة ، وهو لا يملك من « شرعية » الزعامة الا مناصرة الحزب الهاشمي ، فحري بأبن الزبير ان يكون الزعيم غير المنافس في دائرة المعارضة الواسعة ، التي كانت تنوق الى من يقودها في اعقاب الضربة التي نزلت بهذا الحزب وعدم انحصار قيادته منذ مقتل الحسين . ولكن هذه الفئة التي تحالفت بالضرورة مع ابن الزبير وصارت مضطرة في ركاب حركته ، أصيبت بخيبة أمل كبيرة ، عندما رأت فيه البديل الاقل سوءاً للحكم الاموي ، حيث لم يطرأ على اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية تعديل ما ، فضلاً عن الموقف السياسي الذي بدا في الغالب مشابهاً لمواقف النظام الذي « ثار » عليه ⁽¹⁾ . فالطموح الى الخلافة ونزعة السلطة ، وبالتالي الشعور بالتفوق على (يزيد) من ناحية ، وبأنه الورث الحقيقي لخلافة (المهاجرين) من ناحية أخرى ، كانا الدافع الرئيسي لحركة ابن الزبير التي ظلت أسيرة له طوال عهدها .

بالاضافة الى ذلك ، فان نظام « العطاء » ، الذي كان لا يزال سائداً بضاصيله منذ أيام عمر بن الخطاب ، مثل عبثاً ضاغطاً لمن كان في موقع ابن الزبير الذي اتهم بالتفكير ⁽²⁾ وعدم مجازاة الاموين في السخاء والبذل . وقد تكون لذلك علاقة بضعف موارده المالية ، خاصة وان العراق ، مصدر التمويل لحركته ، لم يتح له الاسهام بصورة طبيعية في استقرار الاوضاع الاقتصادية لدولة ابن الزبير ، بسبب اضطراب احواله والصراعات التي قامت على أرضه قبيل رضوخه الكامل لهذا الاخير . ومن هنا كان من العسير عليه ان يفي دائماً بالالتزامات المطلوبة منه ، بما فيها تسديد الاعطيات التقليدية في الحجاز . ويدو ان (المدينة) لم تأخذ « عطاءها » بصورة منظمة في عهده ، بحيث سارع بعد مقتل أخيه مصعب الى محاولة استرضائها و « الحصول على قوات تعينه على صد الجيوش الاموية » كما يقول الدكتور صالح العلي ⁽³⁾ . ولكن العطاء الذي أمر ان « يفرض لالقي رجل من أهل المدينة » ⁽⁴⁾ ، لم يكن متوفراً في بيت المال ، مما افقده وسيلة الاحتواء لهؤلاء ، وادى الى خسارته خطأ دفاعياً بالغ الاهمية ضد المروانيين .

ولم يتعكس الوضع الاقتصادي السيء على الناحية العسكرية فقط ، وانما كان له

(1) البراهيم ⁽¹⁾ مطبع الخيرات السليمة ص 228 .

(2) الامانة والسياسة ج 2 ص 23 .

(3) العطاء في الحجاز ص 22 ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي .

(4) المرجع نفسه

تأثير سلمي على الجانب الدعائي الذي تعرض بدوره للاهمال ، وذلك مع ارضاض الشعراء عنه ، حيث لم يستطع منافسة عبد الملك الذي استقطب بلاطه مشاهير شعراء العصر^(١) ، دون ان ننسى الدور المؤثر الذي كان باستطاعة الشعر ان يقوم به في التحريض وتأجيج الحماسة وتسويغ المواقف ، حتى غير المشروعة في بعض الاحيان . ولعل الكاتب أحمد حسن الزيات قد عبر بدقة عن أهمية هذا الدور في تلك الفترة بقوله : « والشعر العربي ربيب الخصومة والجلد ، تبثه الحزبية ويقويه الهراش وتوجيه شياطين الفرقة . والواقع انه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الاحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائهم ويصطنع بصيغة العقيدة التي يدعوا اليها وينافح عنها »^(٢) . ثم يتابع في مقال آخر ، مشيراً الى سخاء الامويين واستئثارهم بالمديح من الشعر ، على نحو لا يمكن مقارنته مع خصومهم في المعارضة الزبيرية أو العلوية : « وكفة الامويين في هذا الباب ارحج ، لما تجتمع لهم من الترويج في المال والترهيب بالملك والتعليق لهُوى النفوس ، فمدحهم أكثر الشعراء في عصرهم ، إما دفعاً لشهرهم وأما طمعاً في خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر »^(٣) .

وبكلمة أخيرة ، أن ابن الزبير لم ينجح الا قليلاً في توظيف الامكانيات التي كانت في حوزته ، لا سيما تلك المتوفرة في العراق ، الذي كان يشكل دعامة المستقبلية للدولة البديلة ، في الوقت الذي أثر فيه الاعتكاف في مكة والانطواء على احلام الماضي الغابر ، باستعادة ابعاد الحجاز وخلافة الراشدين . وفاته في هذا السبيل ، أن ما أحدثته حركة الفتوح والانتشار العربي الاسلامي على جبهتي المشرق وأفريقية ، قد انتزع هذا الدور المركزي الذي حظي به هذا الاقليم ابان العهد الراشدي المبكر . كما اخفقت حركته في تحقيق دائرة واسعة من التعاطف الشعبي ، بحيث اقتصرت علاقاتها على الزعامات القبلية المتحالفة سابقاً مع الحكم الاموي ، مما افقدها فرصة التحول الى حزب سياسي ، على

(١) راجع المجالس الادبية في بلاط عبد الملك وتنافس الشعراء على امتداحه ، خاصة جرير في قصيدته التي اشتهرت بيت اعتبر قمة في المديح :

الشم خمر من ركب اللطايا وإنسى المقلين بطون واح
وكذلك قول الاطل شاعر عبد الملك بالقرب :

حشد على الحق عيالو الخنايف إذا كنت بهم مكروه صبروا
شمس العداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أجلاً إذا ففروا

ضياء الدين الرواس ، عبد الملك بن مروان ص 314-216

(٢) الشعر في الاسلام وهدي بني أمية ، مجلة الرسالة ص 1333 عدد 116 (1935) .

(٣) مجلة الرسالة ص 1652 . عدد 119 . سنة 1935 .

غرار احزاب المعارضة الشيعية والخوارجية (١) . ومن خلال هذا المنظور فإن حركة ابن الزبير كانت تعاني عزلة شعبية واغتراباً عن مشكلات المرحلة ، التي كانت بحاجة ماسة الى شيء من التوازن لمصلحة الفئات المغلوبة على امرها . ولن ننسى في هذا المجال تأزم العلاقة بين ابن الزبير والزعماء الهاشميين ، وملاحقة بعضهم حتى الاضطهاد (محمد بن الحنفية) ، في وقت جسد هؤلاء الطموح الى التغيير والاصلاح السياسي والعدالة الاجتماعية لدى هذه الفئات ، خاصة في العراق . وبعد . . فإن فرصة ابن الزبير الضائعة انما كانت في هذا الاقليم ، خلافاً لما يعتقدّه الكثيرون (٢) من أنه ارتكب غلطة العمر عندما رفض مصاحبة الحصين بن ثمر الى الشام بعيد موت يزيد بن معاوية .

(1) ابراهيم بيضون ، الثورات ص 229 .

(2) تلويح الطبري ج 7 ص 17 .

سياسات بني مروان الاوائل في الحجاز 101-75 هـ

« وكان سليمان أكثر حرصاً على اكتساب رضى
الحجازيين ، متجلباً ذلك في إعطائهم المرتفعة لاهل
(المدينة) وموقفه الرئفي من فقهاء مكة »

كان تعيين الحجاج ، في ظل نفوذ غير عادي ، والياً على الحجاز ، له دلالة خاصة في
السياسة المروانية التي نزعته الى شيء من الاعتدال في هذا الاقليم ، بينما ظلت صدامية في
العراق ، حيث تحول الى بؤرة ثورية شبه دائمة ومدخل عاصف الى أزماته « الشرقية »
المستعصية . ولكن هذا الانعطاف النسبي كان مسبوقاً بنمط سلوكي آخر من بجانب
السلطة الحاكمة ، عبر فترة انتقالية - اذا جاز التعبير - ما بين سقوط ابن الزبير واستقرار
الوضع السياسي في الحجاز ، ممثلاً بالحجاج رجل الادارة المروانية الحازم . ولقد ارتبط
هذا الاخير منذ ذلك الوقت بالخليفة القوي (عبد الملك) ، بحيث تكامل احدهما مع
الاخر ، رتضافراً معاً في استرجاع وحدة الدولة الاموية واحباط ثورات المعارضة ، ولكن
دون ان يتعدى الوالي الثقافي دوره المحدد له ، حيث كان يلجأ الى تنفيذ ما يُطلب منه
بطواعية متناهية للخليفة الذي وثق به . وفي المقابل لم يتردد عبد الملك ، ربما الى حين ، في
التلويح للحجازيين بالشدة والتنديد لهم بالعقاب ، مباركاً نهج واليه الصدامي خلال تلك
الفترة القلقة من تاريخ الخلافة الاموية .

ففي سنة 75 هـ ، زالت الظروف التي كانت تعرقل تعيين الحجاج على العراق (١) ،
حيث انتظره دور خطير ، سواء على صعيد الادارة المضطربة أم التصدي لخطر الازارقة
الذي بدا متفاقماً في ذلك الوقت (٢) . ويبدو ان عبد الملك ، خشية الفراغ الذي قد يحدثه
استبدال واليه الثقافي في الحجاز ، عمد الى توقيت ذهابه الى هذا الاقليم بحيث يتصادف
مع اتخاذ هذا القرار . فأقام الحج ذلك العام في مكة (٣) ، وانطلق منها الى (المدينة) ليلقي

(1) لم يشأ عبد الملك اغضب اخيه بشر بن مروان الذي كان والياً على العراق في ذلك الوقت .

(2) الزبير بن بكار ، الاخبار المرفقات ص 91

(3) تاريخ الطبري ج 7 ص 217 .

في مسجدھا خطبة تتسم بالعنف : « فانه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من هذا المال ويؤكلون ، والله اني لا ادوي ادواء هذه الامة الا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا الخليفة المداھن (معاوية) » (١) ، وموحياً لاهل (المدينة) بما كان من أمر قريبه (الاشدق) الذي شق الطاعة. فاستحق ذلك العقاب : « هذا عمرو بن سعيد حقه حقه وقرابته قريته ، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا » (٢) . ولم يُنسب لعبد الملك اتخاذ موقف مماثل في مكة ، الا اذا سقطت اخباره من روايات المؤرخين . ذلك ان (المدينة) رغم الدور الذي اخذته الاخيرة ابان الحكم الزبيري ، كانت لا تزال تمثل الوجه البارز للحجاز الاسلامي ، وتمثل المركز المتفوق على مختلف الصعد ، البشرية والاقتصادية والاجتماعية .

واذا كنا نفتقد نصوصاً تشير الى تعداد السكان في تلك الفترة ، التي شهدت فيها (المدينة) نوعاً من التخلخل في اعقاب (الحرّة) ، الا ان ذلك لم يدم طويلاً على الارجح ، حيث استعادت حيويتها بعد وقت قصير . ولعل (اليعقوبي) ، وان كان يشير الى فترة متأخرة قليلاً ، يوضح الى حد ما هذه النقطة في سياق التعرض للفرشين الذين كانت لا تزال نسبتهم عالية ، ولكنها لم تصل حتمًا الى مستوى (الانصار) الذين ظلوا باكثريتهم في (المدينة) ، بينما تبعثرت قريش وانتقل جزء منها مع الامويين الى الشام . ويبدو ان سليمان بن عبد الملك - الخليفة آنذاك - كان في معرض التردد لاهل الحجاز ، مهاداً بذلك لبيعة ابنه (ايوب) بولاية العهد . فقد حج في العام 97 هـ وكتب الى واليه (٣) على (المدينة) - كما يروي اليعقوبي - « ان يبني له قصرًا بالجرف ينزله ، فلما قدم لم يرض ببناء القصر ، فتنزله ، وقسم بين اهل المدينة قسمًا وفرض لقريش أربعة آلاف فريضة لم يدخل فيها حليفًا ولا مولى » (٤) . ولكن « مشيخة قريش » احتجت على حرمان مواليتها ، فقالت لسليمان : « فرأينا ان نكافئك ونجعلها في حلفائنا وموالينا ، فنحن أخف عليك مؤونة منهم . ففرض لهم أربعة آلاف فريضة أخرى » (٥) . واذا كانت قريش مع مواليتها قد بلغت هذا العدد ، كما تقدم ، فمعنى ذلك ان (المدينة) ، استطاعت النهوض سريعاً من كبوتها واستمرت التجمع السكاني الاكثر عددًا في الحجاز (٦) . ولقد اشرنا الى هذه المسألة ، للدلالة على دوافع الموقف الحازم الذي اتخذته عبد الملك في مسجد (المدينة) ،

(1) خليفة بن خياط ج 1 ص 349

(2) المكان نفسه .

(3) أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 298 ، ابن خياط ج 1 ص 468 .

(4) اليعقوبي ، تاريخ ج 2 ص 298 .

(5) المكان نفسه .

(6) المعلي ، المعطاء في الحجاز ص 23 .

التي ظلت عبر هذه المعطيات ، القاعدة الوحيدة في الحجاز ، القادرة على تشكيل معارضة جذية ضد الحكم الاموي ، بعد ان تم احتواء الطائفة منذ وقت مبكر من قيام خلافة السفينيين ، وتراجع دور مكة بعد اخفاق حركة ابن الزبير .

ولكن الحجاز ، بما فيه (المدينة) ، لم يعد قادراً بعد عشرة اعوام ونيف من الاضطرابات والازمات الاقتصادية ، على القيام بحركات تمرد جديدة ، طوال القرن الهجري الاول ، خاصة بعد الضربة القاصمة التي نزلت به في ذلك الحين . وفي المقابل ، فقد اثبت المروانيون عدم تماهلهم واتخذوا موقفاً حازماً نحو أي تكتل أو تحرك له صبغة سياسية على نحو ما ذكرنا⁽¹⁾ . فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، ان أية محاولة لاستعادة المركزية للحجاز ، مكتوب عليها الفشل في ظل محاولات لم يطرأ عليها تغيير ما في ذلك الوقت ، بحيث كانت تزيد من عزلة هذا الاقليم ومن ضمور دوره السياسي ، سواء على مستوى المعارضة أم الموالاتة . وبدت حاضراته (المدينة ومكة) ، حسب تعبير المستشرق الألماني (زهايم) « عاجزتين عن تموين جيش كبير نسبياً لمدة طويلة . . . كما كان الحصول على جنود صعباً للغاية ، ان لم يجندوا من سكان المدينة ذاتها »⁽²⁾ ، وذلك انطلاقاً من تبعية الاقليم الاقتصادية وارتباطه العضوي في هذا المجال ، بالمناطق الاخرى التي كانت خاضعة للسلطة الاموية .

وعلى الرغم من حرص عبد الملك وخلفائه المروانيين على تحييب الحجاز رياح الثورة العاصفة في الاقليم العراقي ، فانه لجأ الى استخدام سياسة خاصة فيه ، اقتبس جانباً منها عن سلفه معاوية ، وهو الرامي الى جعله تحت الحكم المباشر للخلافة الاموية ، عبر ممثلين من الامرة الحاكمة في بادىء الامر (مسلمة بن عبد الملك في مكة)⁽³⁾ وبمجي بن الحكم⁽⁴⁾ في المدينة⁽⁵⁾ ، ولكن دون ان يتخذ ذلك شكل الارتكان الى قاعدة شبه ثابتة ، على نحو ما أحدثته معاوية الذي كان يميل الى التعاطي مع الاسر القوية ومنحها قدراً غير قليل من الاستقلالية ، لا بحد منها سوى مراقبته المباشرة عن زعمائها ، الذين دانوا له بالولاء المطلق . واذا كان معاوية قد استطاع ، على سبيل الترضية لبني العاص ، الخوؤل دون استثمار هؤلاء بالسلطة في الحجاز على حساب الحكم المركزي ، وذلك عبر اصطناع

(1) Vesely , Al- Ansar, P. 50- 51

(2) رودولف زهايم ، فتنة عبد الله بن الزبير . ترجمة حسام الصغير . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق الجزء الرابع المجلد 49 الصفحة 837- 838

(3) الإمامة والسياسة ج 2 ص 47 ، الجامع اللطيف ص 288 .

(4) بمجي بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس . الجامع اللطيف ص 288 .

(5) خليفة بن خياط ج 1 ص 283 .

عمورين متنافسين بزعامه مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، فان عبد الملك لم يشأ الخضوع لهذه القاعدة بالقدر نفسه الذي التزم فيه سلفه السفياي . ولا شك ان « هجرة » الامويين من (المدينة) الى الشام تحت الضغط الزيري ، انعكست على اوضاع هذا الاقليم ، حيث تضاءلت احتمالات المواجهة التي كان يحدثها ذلك التجمع الكبير للأسرة الحاكمة ومعها التأثير الذي كان باستطاعتها القيام به ، على مجرى التطورات السياسية في تلك الحقبة .

وسرعان ما اتخذت سياسة عبد الملك الحجازية منحى آخر ، يكاد يبتعد كثيراً عن نهج المرحلة السابقة ، حيث شكّل انعطافاً على مستوى من الاهمية في اوضاع هذا الاقليم بصورة عامة . ومن ابرز مؤشرات هذا التحول ، التقليل من الهمية الاموية المباشرة على أهل الحجاز ، حيث اسهم ذلك في التحرك الثوري الذي قام به هؤلاء في اواخر العهد السفياي وامتد الى شطر من هذا العهد . ذلك ان عبد الملك ، شعر بخطورة انفصال الحجاز عن دولته ومن ثم انقطاعه القسري عن « اقامة الحج » ، وما عكسه ذلك من تخرج حول شرعية خلافته ، انطلاقاً من النظرية التي تداولها البعض حينذاك ، حسب اليعقوبي ، « انما تحق الخلافة لمن كان الحرمان في يده » ، ولما اقام الحج للناس « (١) » . فكانت سياسته نابعة من ضرورة الابتعاد بالحجاز ، عن كل ما يؤثر على علاقته بالدولة الاموية وتطبيق ما امكنه الاسباب المشجعة على التمرد والثورة . والمؤشر الثاني في هذا التحول ، فهو التودّد لبني هاشم ، زعماء المعارضة التقليدية للامويين ، حيث تجلّ ذلك في معاملته لعلي بن عبد الله بن عباس ، الذي شكّا اليه اضطهاد ابن الزبير لاسرته بعد امتناعه عن بيعته ، « فأحسن عبد الملك اجابته وحمله وحمل عياله الى الشام ، وأنزله داراً بدمشق ، ولم يزل يجري عليه أيامه كلها » كما ذكر اليعقوبي « (٢) » . وينطبق الواقع نفسه على علاقته بابن الحنفية الذي مكّل حينذاك الاتجاه المتصلّب في المعارضة الهاشمية . فثمة حادثة وقعت في اعقاب القضاء على حركة ابن الزبير - وكان أيضاً من أشد خصومها كما مرّ معنا - لا تدع مجالاً للشك بالواقعية السياسية التي تميّز بها هذا الخليفة ومقدرته على تحقيق هذا القدر من التوازن في علاقته بالبيت الهاشمي وتجنب المواجهة السياسية لفترة طويلة معه . فقد ذكر المسعودي ان محمد بن الحنفية أسرّ الى عبد الملك بمخاوفه من الحجاج أبان ولايته على الحجاز ، فكتب الى واليه « ان محمد بن الحنفية كتب يستعفي منك ، وقد أخرجت يدك عنه ، فلم أجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان فلا تتعرض له » (٣) .

(١) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) المسعودي ، مروج ج ٣ ص ١١٦ .

والمؤشر الثالث ، هو التعديل الذي طرأ على سياسة الامويين المالية في الحجاز ، الذي سيشهد خلال هذا العهد تحسناً في ظروفه الحياتية ، حيث تدفقت عليه اعطيات السلطة (١) ، مما كان له اسهام كبير في الانتعاش الاقتصادي لهذا الاقليم ، وأدى بالتالي الى جمود الوضع السياسي فيه واختفاء حركات التمرد المحلية . ولقد نعم الحجاز بهذا الهدوء فترة طويلة نافيت على نصف قرن من الزمن ، عندما قامت حركة محدودة الاثر للخوارج الاباضية في مكة ، استطاع الخليفة الاموي الاخير (مروان الثاني) اجهادها والقضاء على زعيمها (ابو حمزة الخارجي) في معركة الابطح (٢) . أما المؤشر الرابع ، فيتعلق بالخلفية الدينية لدى عبد الملك ، الذي كان أحد فقهاء المدينة (٣) ، حيث ولد فيها ونشأ في ظل تربة اسلامية وثقافة قرآنية ، لم تتوفر لاسلافه من الخلفاء الامويين (٤) . وكما يقول (فلهوزن) « تخشى ان يجرح العواطف الدينية لرعيته على النحو الذي كان عليه يزيد بن معاوية من قلة الاكتراث » (٥) .

وكانت « حجازية » عبد الملك ، نشأة وسلوكاً ، من العوامل الرئيسية التي تحكمته في سياسته نحو هذا الاقليم وانطباعها بكثير من المرونة (٦) ، خلافاً لسلفه يزيد مثلاً ، الذي ولد في الشام ونشأ بعيداً عنه . ومن هذا المنطلق ، فان مسوغ الحقد على (المدينة) يبدو واحداً اذا ما أخذنا برأي (فلهوزن) ، الذي يعتقد ان عبد الملك كان « في نفسه شيء من الحق على أهلها » (٧) ، حيث يربط ذلك بتعين أحد ولاتها من « تميز بروح خاصة من الشر » (٨) . واذا كان لهذا التصور نصيبه من الحقيقة ، فحري بهذه السياسة « العدائية » ان تظهر في وقت سابق ، أي بعد سقوط (المدينة) الذي تم دون عمل انتقامي ما ، يذكر بما جرى لها في عهد يزيد ، خاصة عندما نعلم ان ولاية « المخزومي » كانت في اواخر سنوات هذه الخليفة (٩) . ويبدو ان سمة العنف التي التصقت بهذا الولي ، انما تعود الى الازمة التي

(1) الزبير بن بكار ، الاخبار الموفيات ص 573 .

(2) حدثت هذه الحركة في سنة 129 هـ ، عندما تغلب ابو حمزة الخارجي الاباضي على مكة ثم خرج قاصداً (المدينة) ، « فاجبه جيش عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بقليد ، فكان الفقرا لا يحمون » . ثم قصد المدينة وقتل بها جماعة . وبلغ خبره مروان فجهز اليه عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي في اربعة آلاف فارس . فالتقى هو وابو حمزة بمكة بالابطح ، فقتل ابو حمزة وكان عنده عشرة الفاً الجامع النظيف ص 290 .

(3) ابن الاثير ، الكامل ج 4 ص 520 « بن طباطبا ، الضحوي ص 122 .

(4) نبيه عاقل ، تاريخ خلفاء بني أمية ص 162 .

(5) تلويح الدولة العربية ص 208 .

(6) آبيعموي ، تاريخ ج 2 ص 274 .

(7) تلويح الدولة العربية ص 208 .

(8) هشام بن اسماعيل المخزومي ، المرجع نفسه .

(9) تولى هشام بن اسماعيل المخزومي امر المدينة في عام 82 للهجرة . تاريخ الطبري ج 8 ص 20 .

وقعت مع كبير فقهاء (المدينة) آنذاك سعيد بن المسيب ، حيث رفض بيعة ابني الخليفة (الوليد وسليمان) بولاية العهد ، كما أمر بذلك عبد الملك . « فضربه هشام بن اسماعيل - كما يقول الطبري - ستين سوطاً وطاف به في تَبَانٍ شعر حتى بلغ رأس الثنية ، فلما كروا به قل ابن تكرون بي ، قالوا الى السجن » (١) . ولعلنا نلتصم الفارق الكبير في ردة الفعل لدى عبد الملك من ابن المسيب وبين معاوية من ابناء الصحابة الثلاثة ، وذلك ازاء قضية واحدة هي ولاية العهد . فبينما واجه الأخير تصلّب معارضيه بالتهديد والعنف ، كان عبد الملك أكثر تسامحاً في مواجهة موقف الفقيه المعارض وكتب الى واليه « يلومه فيما صنع ويقول سعيد والله كان أحوج ان تصل رحمه من أن تضربه وأنا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف » (٢) .

على ان ما يستوقفنا في نطاق العلاقة مع الحجاز و (المدينة) بصورة خاصة ، ذلك الجانب المتعلق بدور الانصار في الادارة المروانية ، الذي لم يطرأ عليه تعديل ما في تلك الحقبة . فقد ظلّ هؤلاء بعيدين عن كل شأن من شؤون السلطة ، التي كانت معقودة لبني عاص وآخرين من قريش وبعض القبائل الحليفة (٣) . وهكذا افتقد (الانصار) دورهم السياسي في هذا العهد كما في العهد السفياني ، حيث كان كلاهما شديد الوطأة عليهم ، ولكن بصورة متفاوتة . ففي الأخير لجأ مؤسسه معاوية الى تقريب مجموعة قليلة منهم ، احتلّت مكاناً لها في ادارته ، بينما اختفى دور (الانصار) في الادارة المروانية بعد غياب الرعيل الاول منهم المتحالف مع الامويين (٤) . ولكن عبد الملك كان بدون ريب ، أقل تعقيداً وحساسية ازاء هؤلاء ، حيث يرجّح انه فرض عليهم من الاعطيات ما فرضه للآخرين من سكان (المدينة) (٥) ، وذلك في اطار سياسته الرامية الى اغراق الحجاز بالاموال ، التي مهّدت له سبيل تطويعه واحتواء المعارضة فيه لا سيما (الانصار) . وفي المقابل فقد رضخ هؤلاء للأمر الواقع والتزموا بالولاء للادارة المروانية ومن ثم اعترفوا باختلاف مسعاهم لاعادة المركزية السياسية الى الحجاز ، بعد ان ظلّوا طويلاً يطمحون الى ذلك ، حيث الزمن الذي راهنوا عليه لم يعد حليفهم في هذا السبيل (٦) .

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٥٦ . اورد اليعقوبي ان هشام بن اسماعيل المخزومي ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطاً ظمراً وعلواً ، فكتب اليه عبد الملك يلومه بتاريخ ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٥٦ .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٨٦ ، ٤١٦ .

(٤) من امثال : مسلمة بن مخلد والعمان بن بشير .

(٥) الاخبار المرفقيات ص ٥٧٣ .

(٦) زهير ، فتنة عبد الله بن الزبير ص ٨٢٥ .

ومن ناحية أخرى فإن سياسة الإدارة التي كان رائدها عبد الملك (١)، جعلت الحجازيين عامة و(الانصار) خاصة، يميلون إلى نط من الواقعية والابتعاد عن كل ما ينزع إلى المجازة مع الامويين، سواء كانوا المبادرين إلى ذلك، أو كحلفاء لحركة سياسية أخرى على غرار موقفهم من ابن الزبير، حيث كان يحدوهم من خلاله الأمل في الانتقام من العدو الأموي المشترك (٢). ومن المؤكد أن شخصية عبد الملك « المثقفة »، كلها تجمع على تقويمها روايات المؤرخين (٣)، قد أسهمت بدور كبير في افتتاح سياسة الامويين الحجازية، وانحازها ذلك التحول البارز من المواجهة إلى التطويع فالاحتواء أو « الاستيعاب » على حد تعبير ابن خلدون. وفي ضوء هذا الواقع، فإن عبد الملك أصاب من النجاح في هذا السبيل، ما أخفق في تحقيقه معاوية الذي غلبت عليه نزعة الوصولية وتحكمت فيه عقدة السلطة، التي بلغها عن طريق القوة وحولها وراثية عبر الأسلوب نفسه، بينها يدولنا الخليفة المرواني، مضيفاً إلى كفاءته السياسية البارزة، رصيداً من الثقافة والعلوم الدينية، وهو ما لم يحظ به سلفه السفالي. وكان هذا الجانب من شخصيته تأثير قوي على سياسته الداخلية، التي امتازت بجنوح أكثر إلى الحوار مع المعارضة ونزوع أقل إلى استخدام العنف والتصف معها. ومسبق أن أوردنا أمثلة عديدة في هذا المجال، مقرونة بالنتائج الإيجابية التي عكستها هذه السياسة مع خصومه لا سيما في الحجاز، الذي انطوى منذ ذلك الوقت على الهدوء والاستقرار. بالإضافة إلى ذلك، فثمة نص في « الأخبار الموفقيات »، قد يكون مكملاً لنص يعقوبي الأنف الذكر، حيث كلاهما يشير إلى التحسن النسبي الذي انعكس على أوضاع (المدينة) الاجتماعية والاقتصادية: فقد « خرج الوليد حاجاً سنة أربع وسبعين (٤) وهو ولي عهده. فسأل من بقي من أصحاب رسول الله ؟ فقل سهل بن سعد الساعدي، فأرسل إليه فأتاه فرحب به، وأمر له بمائتي دينار، وسأل عن جابر بن عبد الله، فأخبر أنه توفي قبل قدومه بشهر، فترحم عليه، وأمر لآناس من المدينة بزيادات في دواوينهم » (٥).

ولم يطرأ على هذه السياسة أي تغيير بعد عبد الملك، حيث كان عهد الوليد استمراراً لعهد

(١) يعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢٧٤. تاريخ الطبري ج ٨ ص ٥٦.

(٢) زهايم، فتنة عبد الله بن الزبير ص ٥٠٨٤٧. VoSely, Al-anSar P. 50

(٣) وصف يعقوبي عبد الملك بقوله: كانت له « حيلة ودعاء وعلم » تاريخ ج ٢ ص ٢٨٠. وابن الأثير: كان « عاقلاً، حازماً أديباً لبيباً عاقلاً. كما وصفه بأنه كان « أحد أربعة من فقهاء المدينة » بالإضافة إلى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقيصة بن ذؤيب. الكامل ج ٤ ص ٥٢٠. ووصفه أيضاً ابن طباطب بأنه كثر « لبيباً عاقلاً عالماً ملكاً جباراً قوى الحيلة شديد السياسة حسن التدبير للنساء والفخرى ص ١٢٢.

(٤) ورد في الطبري أن الحجاج هو الذي أتم الحج في هذه السنة ج ٨ ص ٢٠. وكذلك في خليفة خياط ج ١ ص ٢٤٥. وربما كان ذلك في العام الثامن واليسعين استناداً إلى ما أورده كلاماً في مكان آخر. الطبري ج ٧ ص ٢٨١. ابن خياط ج ١ ص ٣٥٧.

(٥) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات ص ٣٢٣-٣٢٤.

أبيه ومتكاملاً معه إلى حد كبير . والواقع أن السنوات العشر (86-96 هـ) التي قضها الوليد في الحكم تعتبر ظاهرة متميزة في تاريخ الخلافة الأموية ، التي نعمت جبهتها الداخلية برخاء واستقرار ، لم تشهدهما الفترات السابقة أو اللاحقة منها . وكان ذلك حافزاً بدون شك لاستئناف حركة الفتوح على جبهات المشرق والمغرب ، حيث بلغت ذروتها العظمى آنذاك ، بعد أن جند لها الخليفة جل طاقاته العسكرية التي ظلت مهدورة في الصراعات الداخلية نحو ربع قرن متواصل من الزمن . ولقد حظي الحجاز باهتمام خاص من جانب الوليد ، الذي كان في وضع يمكنه من اتخاذ مبادرات أكثر انفتاحاً نحو المعارضة المنكفئة على هزيمتها ، بعد الضربة القاصمة التي تلقتها في العهد السابق ، سواء في العراق أم في الحجاز . ولعلنا نجد ملامح هذا التعديل في السياسة المروانية بالنسبة للأقليم الأخير خاصة ، كالفصل بين إدارتي مكة (المدينة) ، بعد أن جُمعنا غالباً في ولاية واحدة وتمتع كل منها بنصيب من الاستقلالية الإدارية ، على نحو ما كان سائداً في الأقليم العراقي . وهي سابقة في تاريخ الحكم الأموي . ففي مطلع هذا العهد (86 أو 87 هـ) نولى شؤون (المدينة) عمر بن عبد العزيز . لست سأتحدث لاحقاً^(١) ، كان لا بد أن تعكس إيجابياتها على العلاقة بين عاصمة الراشدين الأولى وبين الأمويين ، حيث كانت لا تزال مشحونة بالحقد ومصحوبة بالخطر ، منذ الهزيمة السياسية التي لحقت بالانصار بعد تنازل الحسن وتوجت بالضربة العسكرية القاصمة في معركة الحرّة . ذلك أن واليها الجديد كان على ثقافة قرآنية واسعة ، تلقاها من كبار فقهاء المدينة^(٢) ، وانطبع بسلوك اجتماعي وديني متميز في الأسرة المروانية^(٣) ، حسب مصادر المؤرخين ، باستثناء الرواية التي اعتمدها (ابن الحكم) ، والتي تكاد تفصل بين ثغطين في حياته الخاصة ، قبل وبعد توليه الخلافة^(٤) .

وفي ضوء هذه المؤشرات كانت ولاية (المدينة) تجربة مثمرة ، وناجحة في تاريخ عمر بن عبد العزيز ، حيث ظهرت معها بواكير سياسته الإصلاحية ، خاصة وأنه جاء في أعقاب (ال هشام بن إسحاق) ووصف بأنه «سيء الرأي» . والنظر^(٥) ، وكان كثير التضييق على الهاشميين لأسباب علي بن الحسين الذي «لقي منه أذى شديداً»^(٦) . كما حمل عليه الفقهاء بزعمه ابن المسيب ، حيث مثل هؤلاء الاتجاه السياسي المتنور في (المدينة) وأدواتها التعبيرية الجديدة

(١) ابن خياط ج ١ ص 413 .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص 416 ، ابن الأثير ، الكامل ج 4 ص 526 .

(٣) الأخبار الموقفات ص 208 . ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص 25 .

(٤) ابن طباطبا ، الفغري ص 129 ، عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الإسلامي ص 31 .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ص 25 .

(٦) تاريخ الطبري ج 8 ص 61 .

(٧) المكان نفسه ج 8 ص 61 .

في وجه الحكم الاموي ، منذ ابتعادها عن اسلوب المواجهة بعد سقوط حركة ابن الزبير . وحسب رواية الواقدي ان عمر بن عبد العزيز بعد أن « نزل في دار مروان . . . دعا اليه عشرة من فقهاء المدينة . . . ثم قال : انما ادعوتكم لامتو جرون عليه وتكونون فيه اعواناً على الحق ، ما أريد قطع أمر الابرأكم أو برأي من حضر منكم ، فان رأيتم أحداً يتعدى أو يبلغكم من عامل لي ظلامة ، فأخرج الله على من بلغه ذلك الالبغي ، فخرجوا يحزون خيراً وأفتروا » (١) . ومن خلال هذا النص ، فان أبرز ما يستلفت الانتباه ، ذلك الجانب « الشوري » في موقف الوالي المرواني ، الذي لم يشأ التقيد بسياسة الحكم التقليدية ، حيث السلطة فردية لا يجد منها سوى تدخل الخديفة ، وانما لجأ الى الحكم من خلال الفقهاء في نطاق من المسؤولية الجماعية والقرار المشترك . ولقد اشاع ذلك نوعاً من الثقة كان مفقوداً بالسلطة ومناخاً ملائماً للتعايش المتكافئ بين مختلف الفئات الاجتماعية في (المدينة) ، التي أصبحت لفترة ما ، ملجأ المضطهدين والمهاريين ، خاصة من قبضة الحجاج الثقفي في العراق (٢) .

ولكن هذا التحول شبه « الانقلابي » في سياسة الامويين الحجازية ، الذي لم يعترض عليه الخديفة في بادئ الامر ، ما لبث ان شهد تراجعاً بعد افتقاد دعم الوليد ، الذي بدا انه غير قادر على المضي بعيداً في تعديلات تمس جذرية نظام فردي اتخذ من العنف الفضل وسائل المواجهة مع خصومه . على ان ذلك الموقف لم يمنح به كثيراً عن الاعتدال ، الذي اتصف به المرونة (٣) التي اكتسبها من سلفه . وثمة ما يشير الى هذا التراجع في خطبتين منسوبتين للوليد ، في كل من (المدينة) ومكة ، حيث توعد الاولي ووصف أهلها بأنهم « اهل الخلاف والمعصية » ، وكرر في الثانية تهديده في « خطبة بتراء » حسب قول يعقوب (٤) ، الذي انفردي بذكر هذه الرواية . بيد انه من المرجح ، ان الوليد تخلى عن واليه لاسباب « عراقية » ، بعد ان اثارت سياسته نقمة الحجاج ، اقوى رجالات الادارة المروانية ، الذي رفض قيام منطقة نفوذ جديدة ، تحمل طابع التنافس مع نفوذه في العراق وتشجع المعارضة الممنوعة على التحرك والنهوض في هذه المنطقة ، التي فتحت ابوابها امام « مرأق أهل العراق » كما وصفهم الوالي الثقفي في كتابه للوليد (٥) .

ولكن عزل عمر بن عبد العزيز لم يعد بالامور الى مابقها ، حيث لم يترك ذلك تأثيراً سلبياً واضحاً على اوضاع (المدينة) ، التي تحسنت بصورة نسبية أبان ولايته ، في وقت كانت مكة تشهد بدورها ، تطوراً على جانب من الامة تحت ادارة خالدين بن عبد الله القسري (٦) ، الذي جاء

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص 61

(٢) ابراهيم بيضون ، ملاحم التيارات السياسية ص 324

(٣) ابن طباطبا ، الفخري ص 127 .

(٤) يعقوب ، تاريخ ج 2 ص 285 .

(٥) تاريخ الطبري ج ٨ ص 90 .

(٦) المصدر نفسه ج ٨ ص 80 .

تعيينه (91 هـ) معبراً عن ذلك التحول الجدي في السياسة الروانية نحو الحجاز . فالقسري الذي ينتمي الى قبيلة يمنية الاصل (بجيلة)⁽¹⁾ - غير متورطة في العصبية المتناحرة ، وهي سابقة ربما في تاريخ الادارة الاموية في هذا الاقليم ، التي اعتمدت غالباً على عناصر حجازية وتحديدًا من الاسرة الحاكمة - كان بدوره نموذجاً مختلفاً عن اسلافه وصاحب نهج سياسي خاص ، كشخصية تنزع الى المرونة ولا تفتقد الى الحزم . ولقد اسهمت كفاءته الادارية في ان يشغل دوراً مهماً في احداث الحجاز ، خلال النصف الثاني من عهد الوليد ، حيث امتد نفوذه على ما يدور الى (المدينة) ، التي أرسل اليها أحد أعوانه (عثمان بن حيّان المري)⁽²⁾ ، لتنفيذ أوامر الخليفة وبأخراج من في الحجاز من أهل العراقين وحملهم الى الحجاج بن يوسف⁽³⁾ ، حائزاً بذلك على ثقة الوليد ورضى الوالي الثقفى .

وفي ظل خلافة سليمان بن عبد الملك ، تابع الروانيون سياستهم الاحتوائية التي اكتسبت اطاراً تقليدياً ، لم يتأثر باختلاف الولاة واستبداهم مع كل عهد جديد . فقد احتفظ القسري لوقت قصير بمنصبه ، قبل ان يعزله سليمان ، ربما في نطاق حملته على جماعة الحجاج⁽⁴⁾ ونقمته على عهد سلفه ، ولكن دون أن يصيبه ما لحق بالآخرين من انتقام أو اضطهاد⁽⁵⁾ . فقد تولى إدارة الحجاز ثلاثة من الولاة (طلحة بن داود الحضرمي ، عبد العزيز بن عبد الله الاموي (مكة) وأبو بكر بن حزم (المدينة)) ، لم تتردد أخبارهم في احداث تلك الحقبة⁽⁶⁾ . وكان سليمان أكثر حرصاً على اكتساب رضى الحجازيين ، بعد ان حسم الامر لمصلحته في العراق ، الذي آلت السلطة النافذة فيه الى يزيد بن المهلب ، اقربى شخصيات عهده ، متجلياً ذلك في اعطائه المرتفعة لأهل (المدينة)⁽⁷⁾ وموقفه الوثي من فقهاء مكة⁽⁸⁾ ، حيث حجّ اليها بصحبة عمر بن عبد العزيز الذي كان اثيراً عنده . ويبدو ان سليمان لم تحكم فيه حفيظة ما أو نظرة مسبقة نحو الحجاز ، كأحد محاور المعارضة للخلافة بني أمية ، لا سيما الموقف من حركته الكبرى التي قضى عليها الحجاج ، خصمه اللد ، قبل عشرين عاماً ونيف من خلافته . فقد كان يشكر لصاحبها⁽⁹⁾ ، كما يروي الزبير بن بكار

(1) الاخبار الموقيات ص 291 .

(2) اصبح والياً عليها منذ ذلك الحين . البغوي ، تاريخ ج 2 ص 290 . تاريخ الطبري ج 8 ص 80 . خليفة بن خياط ؛ ص 416 .

(3) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 290 .

(4) المصدر نفسه ج 2 ص 294 .

(5) السعدي ج 3 ص 181 .

(6) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 294 ، تاريخ الطبري ج 8 ص 112 ، 117 . ابن خياط ج 1 ص 428 . الجامع اللطيف ص 288 .

(7) البغوي ، تاريخ ج 2 ص 298 .

(8) المكان نفسه .

(9) عبد الله بن الزبير .

« أنه أتى بسليمان من الطائف »^(١) وكان غلاماً يومئذ ، فكماه وجهه الى ابيه بالشام وأحسن اليه وأتى من معه وعبد الملك يومئذ بجاريه «^(٢) ولعل المؤشر البارز في هذا النص ، أن الطائف كانت خارج النفوذ الزبيري المباشر ، ونحوث من خلال دورها الحياضي آنذاك الى ما يشبه « المدينة الحرة » اذا جاز التعبير ، حيث استقطبت المعارضة الهاشمية دون ثمة ما يتناقض مع وجود عناصر من البيت الاموي ، ظلّت مرتبطة بأملاتها واستثماراتها الزراعية . ولم يئل هؤلاء أي تدبير انتقامي من جانب ابن الزبير ، رغم العامل الجغرافي الذي يجعل هذه المدينة في متناول السيادة المكية ، وذلك انطلاقاً من الدور الاقتصادي الذي كان باستطاعة الطائف القيام به ، لا سيما توفير الاحتياطي التمويني لحركته .

وليس من السهولة الاقاضة في سياسة المروانيين الحجازية خاصة في السنوات القليلة المتبقية من القرن الهجري الاول ، حيث غابت اخبار هذا الاقليم ، الا القليل منها ، عن صفحات المؤرخين ، على نحو لا نستطيع معه تبيان موقفه السياسي بصورة أكثر وضوحاً ، شأن الفترة المبكرة من الخلافة المروانية . على ان ذلك ان عبّر عن دلالة ما ، فهي انتقال الحجاز من مرحلة المواجهة في اواسط هذا القرن ، الى مرحلة الاستقرار ، والركون الى المهادنة في الربع الاخير منه . وكان عهد سليمان بن عبد الملك في الحقيقة ، يمثّل نهاية عصر بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، حيث اهتز بعده الاطار « الاسبراطوري » التوسعي لخلافة الامويين ، في اعقاب الفشل الذي لحق بحملته الى القسطنطينية وموت الخليفة وهو يتابع أخبارها السيئة في دابق «^(٣) . وخلافاً لسليمان الذي كان امير هاجسه التوسعي « العظيم » ، فان خليفته عمر بن عبد العزيز ، تحجّب المضى في خط اسلافه ، مولياً اهتمامه الرئيسي للسياسة الداخلية ومعالجة مشاكل الفتوح وتناقضاتها العديدة «^(٤) . لذلك سارع الى استدعاء القائد الاموي (مسلمة بن عبد الملك) من جوار عاصمة البيزنطيين ، وأعلن وقف العمليات العسكرية على مختلف الجبهات ، الا ما كان يشكل ضرورة دفاعية عن حدود الدولة المترامية الاطراف «^(٥) .

وكان هذا الخليفة الذي جاء الى السلطة بصورة غير متوقعة ، ومن دون اجماع الاسرة الحاكمة ، يشكّل من خلال فكره الاصلاحى ، إحدى ضرورات المرحلة الدقيقة

(١) ينو انه كانت لاسرته املاك فيها شأن اقربائها من البيت الاموي .

(٢) جمهرة نسب قريش ص 85-90 .

(٣) تاريخ الطبري ج 8 ص 126 .

(٤) تاريخ الطبري ج 8 ص 130 . ابراهيم بيضون ، الدولة الاموية والمعركة ، مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق فان فلوطن Van Vloten ص 102-103 .

(٥) لهو يعلّم مثلاً واليه حل خراسان (عبد الرحمن بن نعم) من الغني بعيداً في غزواته الشرقية وراء نهر جيحون بقوله : « لا تفرز بالمسلمين فحسبهم الذي فتح الله عليهم » . تاريخ الطبري ج 8 ص 139 .

من تاريخ الدولة الاموية ، التي بلغت اقصى مراحل انتشارها الواسع ، مما اعطى لخلافته دورها الاقلاذي وتوقيتها التاريخي في ذلك الحين . واذا ما اتيج لنا تقويم التجربة الاصلاحية التي قام بها عمر بن عبد العزيز بشيء من الاقتضاب ، فان ثمة نقاطاً اساسية ثلاثاً تتمحور حولها : الاولى ، تصب في محاولة استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية التي افرزتها حركة الفتح وتصحيح العلاقة المتدهورة بين السلطة الحاكمة والفئات غير العربية ، لا سيما القاطنة على امتداد العراق حتى نهر جيحون . والثانية ، كحركة سلفية في جوهرها ، في افتقارها للعنصر التطوري ، وتأثيرها بكل تفصيلاتها بالتجربة الرائدة التي قام بها عمر بن الخطاب (١) ، دون الاخذ كثيراً بالفارق الزمني أو مراعاة الظروف ومستجداتها بين عصر وآخر . أما الثالثة ، فان هذه المحاولة ، انما كانت أموية في الصميم ، حيث قامت من أجل النظام وليس عليه . كما يعتقد بعض المؤرخين ، واستهدفت عملياً انفاذ من الاحطار الداخلية والخارجية المترتبة به ، ومن ثم تصحيح سياسة اسلافه الخلفاء الذين صرفتهم شجون المعارضة وشؤون الفتح والانتصارات الباهرة (٢) .

والواقع ان أية ملامح محددة بالنسبة للحجاز ، لا نستطيع تبينها بوضوح في محاولة الخليفة « الاصلاحى » الذي جاء على مفترق القرنين الاول والثاني للهجرة (99-101 هـ) . ذلك ان ما أصاب هذا الاقليم من استقرار سياسي واقتصادي ، انما يدخل في الاطار العام لهذه المحاولة التي انعمت نتائجها الإيجابية على مختلف بقاع الدولة الاموية بما فيها الحجاز . ومن البديهي ان يتوجه هذا الخليفة ، الذي تفقه على أشياخ (المدينة) (٣) ، باهتمام خاص نحو هذا الاقليم ، حيث شهد انفتاحاً في عهده كان اقصى ما بلغه في العصر الاموي (٤) . ولعل علاقته بالهاشميين تعتبر مفتاح سياسته الحجازية ، لما رافقها من اعادة نظر وتقويم لهذه العلاقة ، التي غالباً ما جرت المتاعب على الدولة وأثارت عليها المعارضة . ومن خلال هذا المنظور للموقف من الهاشميين الذين « طالما تخطتهم حقوقهم » (٥) حسب قوله ، يأمر واليه على (المدينة) أن يقسم في « ولد علي ابن أبي طالب عشرة آلاف دينار » (٦) . وكانت (فذك) (٧) المحك الذي استعادت معه العلاقة بين

- (١) ابراهيم بيضون ، ظاهرة الاصلاح السياسي في المشرق الاسلامي ، في مطلع القرن الثاني الهجري . مجلة الفكر العربي . المعاصر عدد 2 ص 68 سنة 1980 .
- (٢) ابراهيم بيضون ، الثورات ص 324-328 .
- (٣) الاخبار الموفقيات ص 208 .
- (٤) المسعودي ، مروج ج 3 ص 187 .
- (٥) المصدر نفسه ج 3 ص 185 .
- (٦) المصدر نفسه ج 3 ص 184 . وراجع ايضاً البيهقي ، تاريخ ج 2 ص 305 .
- (٧) فرية في الحجاز على مسافة يومين من (المدينة) كانت من ملكيات اليهود قبل ان يمنحها الرسول لابنته الزهراء . ثم انتقلت بعد ذلك الى ملكية الدولة في عهد أبي بكر ، وعلمت الى ولاة فاطمة في عهد عمر واطعت لمرؤان بن الحكم في =

السلطة الاموية والمعارضة الهاشمية بعض توازنها المفقود .

ولكن موت الخليفة « المنصور » الذي حدث بصورة مفاجئة شأن ارتقائه سدة الخلافة ، لم يكن في مصلحة هذه الحركة التي لم تكن تفاصيلها قد اكتملت بعد . وقد احيط بموته المبكر غموض ، وبما دفع الى الاعتقاد بأن الموقف المرواني لم يكن متوحداً في طائر الحركة الاصلاحية التي انتهت الى الفشل ، حيث كرّس ذلك مجيئ خليفة (يزيد بن عبد الملك) ، متناقض معه في افكاره وسلوكه ، فيما يشبه الانقلاب المضاد ، مستهدفاً منجزات العهد السابق ومفرقاً دولته في مزيد من الازمات السياسية والقبلية والاقتصادية ، على نحو ربما تجاوز المشيئة الاموية التي وقفت الى جانبه ، في اعقاب الشعور بالخوف على امتيازات الاسرة الحاكمة .

وتبقى كلمة اخيرة ، هي ان الحجاز الذي اصيب بهزيمة سياسية منذ انتقال مركز الحكم الى الكوفة ، وأخرى عسكرية بلغت ذروة المواجهة والعنف في معركة الحرّة ، قد آل الى الهدوء والمواذعة في هذه المرحلة ، بحيث أفقد دوره السياسي نهائياً مع سقوط حركة ابن الزبير ، التي كانت آخر سهم في جعبة المعارضة الحجازية ضد الحكم الاموي . واذا كانت هذه الحركة ، على اهميتها وتضايف الظروف حينئذٍ معها ، لم تستطع الصمود المطلوب وتحقيق الانتصار المرجح ، فان ذلك دليلاً ساطعاً على فقدان هذا الدور ومن ثم تضعف العوامل الممكنة لاستعادته ، بعد تحول مركز الثقل البشري والسياسي والاقتصادي بعيداً عن هذا الاقليم ، أخذاً بالزحف نحو الشرق (خراسان) على وجه الخصوص . ولا شك ان التبعية الحجازية ، سواء في الجانب الاقتصادي منها ، حيث اعتمد هذا الاقليم على واردات الشمال ومصر ، أم في الجانب العسكري ، بعد التفريغ الذي أحدثته بصورة مبكرة حركة الفتح المتدفعة نحو المشرق والمغرب والمبتعدة بمرئية الاسلام عن الحجاز ، لم تؤد فقط الى انعدام تأثيره في الحياة السياسية الاموية في اواخر القرن الاول ، وانما الى غياب دوره ايضاً ، ايجابياً كان أم سلبياً ، عن التطورات الخطيرة التي اشتد ضغطها في مطالع القرن الثاني ، تحت لواء الدعوة العباسية ، التي كانت بعض نشاطاتها السرية تجري على أرض الحجاز أبان مواسم الحج .

= عهد طمان . وانتهت امداً الى عمر بن عبد العزيز الذي اعلنه ابني هاشم . البغوي ، تاريخ ص 303-306 . البلاذري ، فتوح ص 42-49 . راجع ايضاً محمد باقر الصدر ، لسلك في التاريخ ص 26 وما بعدها .

خاتمة

« ولعل المفارقة البارزة التي انعكست على المدينتين
الحجازيتين في أعقاب «الفتح» ، أدت الى نوع من
المعادلة غير المتوازنة ، وذلك بسقوط مكة من دون قريش
وسقوط (الأنصار) من دون (المدينة) »

لعل هذه الدراسة في تناولها اشكالية انتقال السلطة الى الامصار ، تطمح الى تقديم
صورة متكاملة الاطار التاريخي للاقليم الحجازي بدءاً بالعناصر التأسيسية الاولى ،
المساهمة في تكوينه السياسي والاقتصادي ، وانتهاء بالعلاقة الصدامية حيناً والاحتوائية
حيناً آخر مع الخلافة الاموية عبر طورها السفيناني والمرواني . فقد كانت ثمة ثابتة اسفر
عنها اجتماع « السقيفة » ، سرعان ما تحولت الى قاعدة عرفية غير قابلة للنقاش ، وهي
تكريس قرشية الخلافة ، نتيجة للدور المحوري الذي رافق ظهور مكة وشهرتها ، ليس
كنقطة تتوسط خطوط التجارة فقط ، ولكن تؤثر فيه وبصورة أساسية «وسطية» قريش بين
قبائل العرب (اوسط العرب انساباً) ، دون ارتهاق ما للعامل الجغرافي الذي قد تكون
له من المعطيات في عصر ، ما لا يتوفر في عصر آخر . ومن هنا تسقط مكة و « ايلافها » ،
بينما تنتعش قريش وتسد تحت لواء الخلافة ، ومن ثم يتوابع الحجاز أمام تقدم الامصار ،
دون ثمة انعكاس على زعامة قريش ، حيث سيطرت فروعها المتنقلة في العراق والشام على
زمام الامر ، قبل ان تتخذ السمة (شبه الملكية في هذه الأخيرة) .

والحقيقة ان هذه المسألة قد اوليتها جانباً من الاهتمام ، من دون ان الجأ هنا الى الاسهاب
فيما اورده بالتفصيل في سياق هذه الدراسة . على انني سأمر بشيء من الابهام على بعض النقاط
ذات الصلة المباشرة بتطور الحركة التاريخية في هذا الاقليم . ولا شك ان العامل الاقتصادي
شكل دائماً ذلك الخط البياني الأكثر وضوحاً فيها ، سواء في مرحلة « الايلاف » ام في مرحلة
الفتوح ومصادرها التي غصت بها خزائن بيت المال ، فضلاً عن التفريغ المتواصل الذي انتهى
بالحجاز الى ان يصبح من الناحية الاقتصادية على وجه الخصوص ، تابعاً لأهواء المسكين
بزماء الوضع في الامصار .

لقد استطاعت مكة ملء الفراغ في شبه الجزيرة والافادة ما امكنتها من شروط الموقع الجغرافي . ولكن تكوينها التاريخي في تلك الفترة المبكرة غير واضح المعالم تماماً بالقيام مع المراكز الحضارية الاخرى في المنطقة ، بحيث لم يتخذ ملامحه المستقرة الا مع بدايات القرن السادس الميلادي . فكان ان اوجد ذلك نوعاً من الارتباط العضوي بالبيئة ، التي كان النمط الانتاجي فيها خاصصاً لثرواتها الى حد كبير ، ليس في مكة فقط ولكن في الاقليم الحجازي بصورة عامة . على ان مكة ظلت أكثر مراكز الاستقطاب اهمية طوال ذلك القرن ، بقدر ما كان للانتاج التجاري من تفوق وامتياز في هذا المجال .

بيد ان العامل الجغرافي ، لم يكن قادراً على إحداث ذلك التحول ، لولم يقترن بمجموعة من المعطيات المتكاملة معه ، بحيث تزامنت غضة مكة مع اضطراب حركة التجارة في العراق ، متأثرة بالحروب الفارسية - البيزنطية ، ومع ركود الملاحة في البحر الاحمر وفشل المحاولة البطلمية لاحتكار التجارة فيه ، مما ادى الى انتعاش الطريق الذي يدين بظهوره الفعلي للانباط ، فضلاً عن النجاح في استثمار العلاقات العدائية بين السامانيين والبيزنطيين . على ان البحر الاحمر لم يفقد كامل اهميته ، حيث ظل يؤمن الجانب الرئيسي من تجارة مصر ومرتبطاً بالقوى المسيطرة على هذه الاخيرة ، ولكن دون ان يصل الى منافسة الطريق البري الذي ارتبط مباشرة بالاسواق الكبرى في الشام ، وامتدت فروع منه الى مصر نفسها (عبر غزة) . فأوجد هذا التعديل في خطوط التجارة الاساسية ، مناطق نفوذ ثلاث في آن واحد : الاولى فارسية تمتد من الخليج الى اليمن والثانية مكية تقع بين هذه الاخيرة وتحوم الشام ، والثالثة بيزنطية تهيمن على القسم الشمالي منها ، ولكن في ظل امتياز خاص للمنطقة الثانية ، في انها استطاعت القيام بما اخفقت كلتا المنطقتان في تحقيقه ، بحيث كان ذلك مقدمة ظهور الدور « الوسطي » الذي مارسته مكة بكثير من الانقاف في ذلك الحين .

واذا كان نمو الشخصية المكية مرتبطاً بالتكوين الجغرافي للمدينة وعصلاً للتطورات السياسية المعاصرة لها ، فإن ذلك غير منفصل بالضرورة عن التشكيل السكاني فيها ، حيث اسهمت وحدة القبيلة (قريش) في توفير حد ادى من التعايش الاجتماعي والتوافق المصلحي ، على نحو تقادمت معه المشاكل الداخلية المعقدة ومتاعب الصراع الحاد على السلطة . فهي تندرج عبر محطات تاريخية ثلاث قبل الاسلام (الحنفيية والحزاعية والقرشية) ، في ظل تجانس سكاني لم تنعم به يثرب على سبيل المثال . واذا كانت هذه الاخيرة لم تستطع حسم مشاكلها السياسية ، دون اللجوء الى الحرب ، سواء بين العرب ام بينهم وبين اليهود ، فان مكة لم تعد في هذا السبيل الحلول الايجابية ، التي كانت تقدم المصلحة المشتركة عامة على كافة الاعتبارات الاخرى ، بحيث شكلت نوعاً من السلطة غير المنظورة في المدينة .

وكان أقصى ما بلغته المجابهة بين اطراف النفوذ في مكة ، ظهور تكتل « الاحلاف » في وجه « المطيعين » ، بعد اختلال موازين القوى فيها ، مما أسفر عن تجميد الوضع السياسي ، فضلاً عن مجابهة اخرى في اعقاب اختلال اكثر خطورة ، مع قيام حلف « الفضول » الذي طرح اعادة النظر في الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مكة (ارتباط الحلف بإحياء دار الندوة) . وتأى أهمية هذا التكتل في ذلك الفرز الذي أحدثه في المجتمع المكّي ، الذي انعكست عليه آنذاك طبيعة هذا الصراع وخلفياته . فعلى الرغم من احتفاظ بني عبد شمس بالنفوذ الاقتصادي ، فإن ذلك لم يمثله نفوذ سياسي او معنوي متوازن معه ، مما جعل حلف « الفضول » بفروعه الخمسة (أي نصف قريش) ، يضطلع بهذا الدور ، والاسهام في نهضة الظروف النفسية للانتقال التاريخي الذي حدث بعد سنوات قليلة .

وكان من البديهي ان يشغل اركان هذا التكتل ، الدور البارز في الدولة الاسلامية الاولى ، التي كان نواحيها على الصعيدين السياسي والعسكري من المهاجرين ، المنتمين سابقاً باكثرهم الى هذا الحلف . ذلك ان ظهور الدعوة ودولتها ، قد أدى الى انقسام جذري في قريش وغياب العنصر المصلحي الموحد للجهة الداخلية في مكة ، بحيث بات من العسير جداً معالجة الامور بالوسائل التقليدية المتبعة . ولقد تحمل ذلك في المجابهة العسكرية بين مكة و (المدينة) التي كانت لها مقاهيمها الجديدة وقيمها المختلفة . فكان ان تتّوج الصراع بانهيار « الايلاف » امام « الصحيفة » او « القبيلة » امام الدولة ، ولكن دون ان تهارق تماماً مراكز النفوذ القديمة ، التي ظلت تؤثر بطريقة ما في الحياة السياسية بعد موت النبي .

وقد تبدولنا هشاشة « الايلاف » في خلوه من التوازن ، الذي تستطيع مكة من خلاله فرض دور سياسي متلائم مع دورها التجاري ، خلافاً للصحيفة التي جعلت من (المدينة) مركز نظام حياتي متكامل في جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولعل الموقف القرشي من الدعوة ، رغم ضراوته احياناً ، يكشف لنا هذه الثغرة في النظام الايلافي ، حيث كانت التجارة محور التحالف والقضية المشتركة في الجبهة المكية التي وجدت نفسها مهددة بالعزلة مع بدء الصراع ضد (المدينة) . ولقد تجسد ذلك عبر مراحل ثلاث : 1 - الحصار الاقتصادي وتهديد طريق القوافل (حرب السرايا) . 2 - الحرب المسلحة ، ابتداء من معركة بدر التي كانت اول ردة فعل عسكرية من جانب مكة ، وذلك في محاولة ابي جهل التي لم تهدف الى استعادة قافلة ابي سفيان المهددة فقط ، ولكن الى استعادة هيبة قريش وامن التجارة على طريق الشام ، وانتهاء بمعركة الخندق (غزوة الاحزاب) ، آخر المحاولات الجديدة في التصدي لدولة (المدينة) 3 - مرحلة الحديبية التي توجت بمجموعة الانتصارات السياسية والعسكرية وما أسفر عنها من تحول المبادرة الى (المدينة) ، ومن ثم انتقال ساحة الصراع للمرة الاولى الى مكة .

وكان سقوط عاصمة الحجاز القديم ، اول الفتوح في الاسلام ، أحد المنعطفات الاكثر

اهمية بعد « الهجرة » ، حيث كان ذلك نوعاً من رد الاعتبار للمدينة القرشية ، انفردت به في هذا الاقليم . على ان هذا الامتياز كانت له دلالات اخرى فيما بعد ، انعكست على البنية الاجتماعية والسياسية للمجتمع الجديد . ففي الوقت الذي توحدت فيه جبهة (المهاجرين) التي اصبحت اكثر قوة وصلابة ، اخذت المخاوف تسيطر على (الانصار) واحيت المنافسة فيهم شعور العصبية الاقليمية التي تبلورت بعيد ذلك في اول جبهة سياسية في تاريخ الاسلام . ولعل المفارقة البارزة التي انعكست على المدينتين الحجازيتين في اعقاب « الفتح » ، ادت الى نوع من المعادلة غير المتوازنة ، وذلك بسقوط مكة من دون قريش وسقوط (الانصار) من دون (المدينة) ، بحيث تحول هؤلاء الى اقلية فيها ، امام تكاثر (المهاجرين) ومن اكبرهم من قريش بعد سقوط مكة .

ونجملت مخاوف (الانصار) من هيمنة (المهاجرين) عشية وفاة النبي ، حيث تداعوا الى اجتماع السقيفة الشهير لبحث مسألة الخلافة . ولعل اختيار المكان بما يرمز اليه على الصعيدين القبلي والاقليمي ، يعتبر عن العصبية الجديدة النامية لدى (الانصار) ، حيث درج المسلمون على اتخاذ المسجد لثل هذه المناسبات . على ان هذه المبادرة كانت موقفاً دفاعياً ، وجد ما يسوغه لديهم امام ازدياد نفوذ المهاجرين في (المدينة) . ولكن هؤلاء لم تقتهم مدامه هذا الموقف ، والتحرك عبر اتجاه سياسي معتدل ، حقق بطريقة ما وحدة التيارات القرشية ، التي التأمّت عند حد معين من هذه المسألة . ومن هنا كان على (الانصار) التحالف مع الطرف الخاسر في قريش (بنو هاشم) ، والطموح الى ممارسة دور مؤثر عبر مرشحهم علي في السلطة بعد ذلك .

على ان التطور الذي اصاب مؤسسة الخلافة بعد اغتيال عمر ، خيّب آمال (الانصار) بحيث أدى نجاح الفريق الآخر في قريش (من غير المهاجرين) ، الى تحقيق خطوات مهمة على طريق السلطة ، ممهدة لذلك خلافة عثمان . فيما كان حافزاً من (المهاجرين) لتطويق خروج السلطة الى غيرهم ، تحول الى نظرية في حد ذاته لدى هذا الفريق ، سواء وجد السورغ في « الشورى » أم توصل القوة لتحقيق اهدافه . وهكذا اصبحت الخلافة امتداداً الى هذا التصور ، مرتبطة بالمشيئة الالهية ومتحصنة بالحق المقدس ، اذا مات وقفنا عند مقولات لعثمان او معاوية ، سبق لنا مناقشتها في سياق هذه الدراسة .

وكان مستقبل السلطة في الدولة الاسلامية ، قد بات واضحاً منذ أن آلت الى عثمان ، حيث آتّى حضوره غير القوى الى ظهور مراكز نفوذ على حساب الخلافة (مروان في المدينة ومعاوية في الشام) . فقد كان ثمة مؤثران جعلاً المؤسسة الراشدية ، مرتبطة عضواً بالحجاز ومرهونة في استمراره . فمن جهة أدت متغيرات الفتوح ، مصحوبة بانحياز كثير من ضوابط العهد السابق ، الى بروز معاوية - رجل الاسرة الحاكمة القوي - على رأس تيار كبير ، تتحكم

فيه التوازنات القبلية أكثر من أي اعتبار آخر ، ومن جهة ثانية اسهمت في الوقت نفسه بنمو الامصار وتعاطف استقطابها على حساب الحجاز . وفي ضوء هذه الحقيقة كان بروز معاوية متوازياً مع انكفاء عثمان ، كما كان سطوع الشام متوافقاً مع افول الحجاز وانحسار مركزية الخلافة الراشدية .

وجاء قيام دولة الامويين ، يشكل عبر هذا المنظور صدمة للحجازيين عامة و(الانصار) خاصة ، حيث زادت من هواجسهم سياسة الادارة السفينائية في هذا الاقليم . فقد لجأ معاوية في سبيل تحقيق توازن في اسرته ، الى تعيين ولاته من فرع بني العاص ، الذين تداولوا السلطة مداورة تحت مراقبته ، بحيث كانت ادارة الحجاز اقل استقلالية وأكثر تبعية للخليفة الاموي . ولا شك ان خلفيات هذه السياسة متصلة بالموقف الحجازي العام من معاوية ، لا سيما موقف ابناء الصحابة و(الانصار) وبقية المتضررين ، حيث لم يبق من مؤيدي الامويين سوى قلة قليلة ، بينما الفئة المتعاطفة معهم قد اصبحت في غالبيتها خارج الحجاز . ولقد اوجد هذا الابعاد عن شؤون الدولة - ومعه احساس (الانصار) بفقدان مدينتهم اهميتها السياسية والاقتصادية وضياح السلطة من ابناء الصحابة - نوعاً من الوحدة الاجتماعية النسبية ، ومن التعاطف المشترك لدى معارضة هذا الاقليم ، خلال مرحلة التحرك الحجازي المضاد في ستينيات القرن الاول .

ولن يأخذنا البحث بعيداً في تحديد ملامح هذا التحرك ، حيث كان يندرج في مطلبين رئيسيين ، قد يتكامل احدهما مع الآخر ، كما حدث في ثورة (المدينة) . ففي المطلب السياسي ، كان استرجاع الخلافة ، القاسم المشترك للحجازيين الذين تكتلوا وراء ابناء الصحابة وتعاطفوا معهم (الحسين وابن الزبير) . وفي المطلب الاجتماعي ، كان الحرمان الذي عانى (الانصار) خاصة منه ، أحد الحوافز المهمة في التحرك الحجازي ، رغم فقدان المعلومات ، الا القليل جداً في هذا المجال . ولعل في مقدمة اسباب ثورة (المدينة) ، كان التصدي لسياسة الامويين في استملاك الارض التي كادت تشبه نظام « المصدرة » ، حيث درجوا على « اصطفاؤها » للدولة ، ممثلة بالامرة السفينائية الحاكمة . ويبدو ان (الانصار) ، تحت تأثير اوضاعهم الاقتصادية السيئة التي عانوها بعد اغتيال علي وانزوائهم في (المدينة) ، لجأوا الى بيع اجزاء من املاكهم بأسعار متدنية للامويين ، مما جعلهم يتوخون الفرصة لاسترداد هذه الممتلكات ، حيث بدت لهم مواتية اثر موت معاوية ، بعد ان شعروا بافتقاد السلطة والارض في وقت واحد . وقد تجل ذلك في العملية البائسة التي قادها (الانصار) في (المدينة) وانتهت الى تدمير قوتهم في معركة (الحرة) .

وعلى الرغم من انتصارات الامويين في الحجاز والضربة القاصمة التي نزلت بالمعارضة فيه ، فقد ثبت بغير مجال للشك ، اخفاق سياسة المجابهة هذه التي بدأت مع معاوية وبلغت ذروتها

على يد يزيد . ذلك ان التحدي السافر الذي قلم به الاخير في الحجاز ، معتمداً على قوته العسكرية الضاربة ، المشكلة بغاليتها من قبائل الشام ، قد أثار حوله عاصفة من النقد والاحتجاج . وما أسقط تأثير تلك الانتصارات وأبطل شرعيتها ، تحول المهزومين الى رموز (حادثة كربلاء ، مأساة الحرّة ، ضرب الكعبة) تثير من السخط ، ما عجزت الدولة عن التصدي له والخروج من حصار التهديد والعزلة الذي اسفر عنه ، قبل ان تدفع الثمن باعطاء نتيجة سياستها الحجازية المتشنجة .

ولم يشأ الحكم المرواني بقيادة عبد الملك الوقوع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه سلفه السفياي ، فتحا في سياسته خطأ جديداً بعد سقوط حركة ابن الزبير ، حقق من خلاله نوعاً من الاحتواء للحجاز ، وذلك بتحييده عن الصراعات السياسية التي أخذت تتمحور آنذاك في العراق ، حيث بلغت أشدها في عهده . على أن معطيات أخرى اسهمت بدورها في تطويع الحجاز وازعاج دوره السياسي ، اولها التفريغ البشري الذي كان يحول دون ان يظل هذا الاقليم قلب الدولة ومركز الثقل فيها ، بعد الهجرة السكانية المستمرة . وثانيها ، التبعة الاقتصادية للخارج وثالثها ، اندفاع حركة الفتح ، سواء في الشرق ام في الغرب ، مبتعدة بمركز الاسلام عن هذا الاقليم (يفسر ذلك فشل ابن الزبير رغم طرح نفسه كوريث شرعي لخلافة المهاجرين) . كل ذلك جعل من الحجاز خارج دائرة الاستقطاب والتأثير في الاحداث الخطيرة ، تلك التي أخذت في الابتعاد تدريجياً نحو المشرق ، حيث انتقل الثقل السكاني والسياسي والاقتصادي .

ملاحق

ملحق

— 1 —

الحجازيون في الادارة الاموية

عرفت دولة الامويين تحالفات عضوية او مرحلية ، مع اسرة او أكثر من الحجاز ، من كان لها تأثير كبير في مجرى التطورات السياسية والعسكرية ، خلال الاطوار المختلفة لهذه الدولة . ولقد وصل الامر باحداها الى ان تمارس دور الشريك التقليدي للاسرة الحاكمة ، بحيث تعاقب ابناءؤها من البيت الثقفي نحو نصف قرن ونيف على ولاية العراق . وسنشير في هذا الملحق الى كبريات هذه الاسر ، وإلى الدور الذي شغلته في الادارة الاموية ، سواء في العاصمة ام في الامصار :

1 - ثقيف :

أ - المغيرة بن شعبه وابناؤه (مطرف ، حمزة ، عروة) . شغل الاول ولاية الكوفة في عهد معاوية ، وامهم في التمهيد لولاية العهد ، بينما تولى الثلاثة الآخرون مهمات مختلفة في ادارة الحجاج بن يوسف (العراق) .

ب - زياد بن ابية وابناؤه . تولى زياد البصرة ثم العراق والمشرق الاسلامي في عهد معاوية . اما عبيد الله ابنه ، فقد كان رجلاً الادارة القوي في عهد معاوية ويزيد ، بينما شغل بقية اخوته (عبد الرحمن ، عباد ، سلم ، يزيد) ، ادارتي خراسان وسجستان في عهد أبيهم زياد .

ج - الحجاج بن يوسف الثقفي قائد مؤخرة الجند في حلة عبد الملك (ضد مصعب بن الزبير) الى العراق - قائد الحملة الروائية التي قضت على حركة عبد الله بن الزبير - اول ولاية الحجاز بعد استرجاع هذا الاقليم - وإلى العراق القوي والنافذ أكثر من عشرين عاماً (75-95 هـ) .

د - الحكم بن ايوب الثقفي - خليفة الحجاج في البصرة .

هـ - محمد بن القاسم الثقفي - فاتح السند في عهد الوليد بن عبد الملك

- و- يوسف بن عمر الثقفي - والي العراق في أواخر عهد هشام .
- ز- يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي - والي الحجاز في عهد الوليد بن يزيد .
- ح - عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف - والي دمشق في عهد الوليد بن يزيد .
- 2 - فهر (قریش الظواهر)
- أ - الضحاك بن قيس الفهري - قائد حملة معاوية الى القنطرة - والي الكوفة (55 هـ) - من كبار مستشاري معاوية في مسألة ولاية العهد - والي دمشق في عهدي معاوية ويزيد .
- ب - حبيب بن مسلمة الفهري - قائد الميسرة في جيش معاوية خلال حرب صفين .
- ج - عقبة بن نافع الفهري - قائد الجيوش الاموية في افريقية ، في عهدي معاوية ويزيد .
- 3 - عامر بن لؤي (قریش الظواهر)
- بسر بن ابي أرطاة القرشي - قائد حملة معاوية الى اليمن والحجاز (40 هـ) - قائد الحملة ضد حركة حمران بن ابان في البصرة (41 هـ) - اول ولاية البصرة في العهد الأموي .
- 4 - الانصار (كانوا قلة قليلة في الادارة الاموية) ومن ابرزهم :
- أ - مسلمة بن مخلد الانصاري - والي مصر في عهد معاوية
- ب - النعمان بن بشير الانصاري - والي الكوفة في اواخر عهد معاوية ووائل عهدي يزيد .
- قائد جند حصص في عهد يزيد
- ج - أبو بكر بن محمد بن حزم بن عمرو الانصاري - والي المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك .

ملحق — 2 — ولاية الحجاز في القرن الاول

في العهد الراشدي

والي مكة	الخليفة
عتاب بن أسيد الاموي	ابو بكر
(اول ولايتها في عهد النبي)	13-11 هـ
(تولى في عهده ايضاً ، عثمان بن	632-634 م
ابي العاص على الطائف ، قبل ضمها	
الى ادارة مكة)	
محرز بن حارثة (ابن ربيعة بن	عمر بن الخطاب
عبد العزى بن عبد شمس)	13-23 هـ
قنفذ بن عمير بن جدعان التيمي	634-644 م
خالد بن العاص بن هشام بن	
المغيرة المخزومي	
عدي بن ربيعة بن عبد العزى بن	عثمان بن عفان
عبد شمس	24-35 هـ
خالد بن العاص المخزومي	644-656 م
عبد الله بن عامر الحضرمي	
(تولى في عهده القاسم بن ربيعة	
الثقفي على الطائف)	

(1) لم يكن حينذاك وال على المدينة عندما كانت مركز الخلافة ، ولكن من يتوب عن الخليفة أثناء غروجه في مهمة ما الى الحج أو الى مكان آخر (خروج عمر الى الشام سنة 17 هـ على سبيل المثال) .

والي مكة	والي المدينة	الخليفة
ابو قتادة الانصاري	سهل بن حنيف الانصاري	علي بن ابي طالب
قثم بن العباس	ابو ايوب الانصاري	35- 40 هـ
(وليها مع الطائف)		656- 661 م

في العهد الاموي

(السفاني)

معاوية بن ابي سفيان	عبد الرحمن بن خالد	مروان بن الحكم
41- 60 هـ	ابن العاص	سعيد بن العاص
661- 680 م	عتبة بن ابي سفيان	مروان بن الحكم (مرة ثانية)
		الوليد بن عتبة بن ابي
		سفيان

يزيد بن معاوية	عمرو بن سعيد بن العاص	نولى هؤلاء انفسهم ولاية
60- 64 هـ	الوليد بن عتبة بن ابي	الحجاز الموحدة ، وكان
680- 683 م	سفيان	مركز ادارتهم في المدينة
	عثمان بن محمد بن ابي سفيان	

في العهد الاموي

(المرواني)

عبد الملك بن مروان	الحجاج بن يوسف الثقفي	يحيى بن الحكم بن مروان
65- 86 هـ	(بالاضافة الى المدينة)	ابان بن عثمان بن عفان
685- 705 م	طارق بن عمرو (مولى	هشام بن اسماعيل
	عثمان) ، قيل ان الحجاج	المخزومي
	استعمله على مكة (الطبري)	
	وقيل انه استعمل قيس بن	
	مخرمة (خليفة بن خياط)	
	نافع بن علقمة بن صفوان	

* كانت الادارة السفانية مرحلة غلباً في الحجاز اثناء عهد معاوية ، الذي كان يمهّد بها الى مروان او الى سعيد بن العاص .

والي المدينة	والي مكة	الخليفة
هشام بن اسماعيل المخزومي	نافع بن علقمة بن صفوان	الوليد بن عبد الملك
عمر بن عبد العزيز	خالد بن عبد الله القسري	96- 86 هـ
ابو بكر بن محمد بن حزم		705- 715 م
ابن عمرو الانصاري		
عثمان بن حيان المري		
ابو بكر بن محمد	طلحة بن داوود الحضرمي	سليمان بن عبد الملك
ابن عمرو بن حزم	عبد العزيز بن عبد الله بن	96- 99 هـ
عمر بن عبد العزيز	خالد بن اسيد الاموي	715- 717 م
ابو بكر بن محمد بن عمرو	عبد العزيز بن عبد الله	عمر بن عبد العزيز
ابن حزم	ابن خالد بن اسيد	99- 101 هـ
		717- 720 م

ملحق

-3-

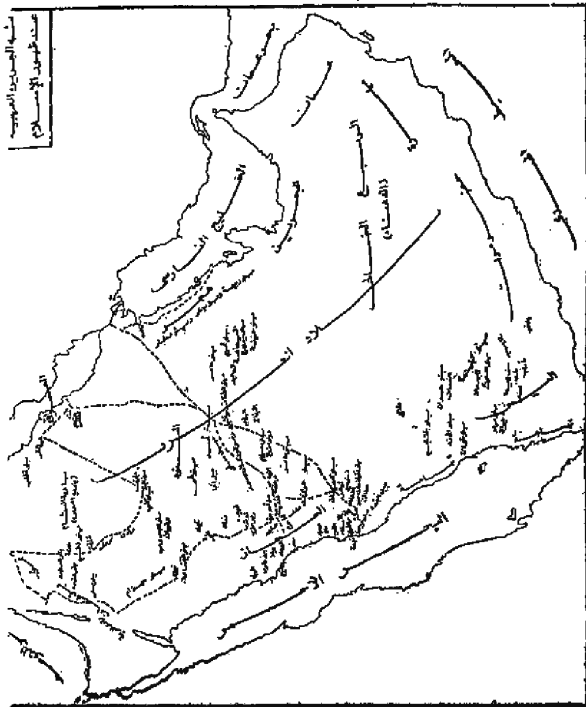
من الاحداث الحجازية البارزة في القرن الاول

- هجرة النبي الى المدينة	622 م (24 أيلول)
- فتح مكة	8 هـ / 630 م
- اجتماع السقيفة	11 هـ / 632 م
- اغتيال عمر بن الخطاب	23 هـ / 644 م
- مقتل عثمان بن عفان	35 هـ / 655 م
- خروج علي من الحجاز	36 هـ / 656 م
- حملة بسر بن أبي أرطاة القرشي الى الحجاز	40 هـ / 661 م
- قدوم معاوية الى الحجاز (مواجهة ابناء الصحابة)	56 هـ / 675 م
بشأن ولاية العهد	
- خروج الحسين الى العراق	60 هـ / 680 م
- وفد أهل المدينة على يزيد	61 هـ / 681 م
- معركة الحرّة	63 هـ / 683 م
- حصار مكة الاول	64 هـ / 683 م
- اجتماع الابطح (بين ابن الزبير والحسين بن نغير)	64 هـ / 683 م
- حصار مكة الثاني	72 هـ / 692 م
- سقوط ابن الزبير	73 هـ / 692 م
- ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة	87 هـ / 706 م
- ولاية خالد بن عبد الله القسري على مكة	89 هـ / 708 م

خبرائے ط



خارطة شبه الجزيرة العربية (للاندريس)
 من كتاب : العراق في الحواريات القديمة (لأحمد سوسة)



عن كتاب : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول
د . إبراهيم الشريف

المصادر والمراجع

1 - مصادر

- ابن أبي الحديد ، عز الدين ابو حامد هبة الله المدائني ت 586 .
- شرح موج البلاغة (20 ج) . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . الطبعة الثانية . دار احياء الكتب العربية ، القاهرة 1965 .
ابن ابي طالب ، الامام علي . ت 40 هـ .
- موج البلاغة ، (2 ج) . شرح الشيخ محمد عبده . تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى بمصر / د . ت .
ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي . ت 630 هـ .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة (4 ج) القاهرة 1285 هـ .
- الكامل في التاريخ (13 ج) . دار صادر بيروت 1979 .
ابن آدم القرشي ، يحيى ابو زكريا بن سليمان . ت 203 هـ .
- الخراج ، المكتبة السلفية ، القاهرة 1347 هـ .
ابن اسحاق ، محمد بن اسحاق الملقبي . ت 151 هـ .
- كتاب السير والمغازي . تحقيق سهيل زكار . دار الفكر ، بيروت 1978 .
ابن اعثم الكوفي ، ابو محمد أحمد ، ت 314 هـ .
كتاب الفتوح ، مخطوطة اسطنبول رقم 2956 .
- كتاب الفتوح (7 ج) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد 1969 .
ابن بكار ، الزبير . ت 256 هـ .
- الأخبار الموفيات ، تحقيق سامي العاني ، مكتبة العاني . بغداد (د . ت)

- نسب جبهة قریش وأخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة 1381 هـ .

ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن الأتابكي . ت 874 هـ .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (12 ج) . وزارة الثقافة . القاهرة . د . ت

ابن حبيب ، ابو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي . ت 245 هـ .

- كتاب المعبر . تصحيح ايلزه ليختن شتير ، دار الأفاق الجديدة . بيروت (د . ت) .

ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن أحمد . ت 456 هـ .

- جبهة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر 1962

- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى . تحقيق احسان عباس - ناصر الدين الأسد .

دار المعارف بمصر (د . ت)

ابن حوقل ، ابو القاسم محمد النصيب . ت 376 هـ .

- كتاب صورة الارض ، طبعة بيروت 1963

ابن خردادبة ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله . ت حوالي 300 هـ .

- المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد (د . ت)

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي . ت 808 هـ .

- المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1979

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (7 ج) ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1979

ابن خياط ، خليفة بن خياط العصفري ، ت 240 هـ .

- تاريخ خليفة بن خياط (2 ج) . رواية بقي بن مخلد . تحقيق سهيل زكار . دمشق

1968

ابن رجب ، ابو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي ت 795 هـ .

- الاستخراج في احكام الخراج . تحقيق عبد الله الصديق ، بيروت . د . ت

ابن رسته ، ابو علي أحمد بن عمر . ت حوالي 332 هـ .

- كتاب الاعلاق النفيسة . مطبعة بريل ، لندن 1891
- ابن زنجويه ، أبو أحمد حميد . ت 319 هـ
- كتاب الاموال . مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم 1014
- ابن سعد ، ابو عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري ، ت 523 هـ
- الطبقات الكبرى (9 ج) دار صادر ، بيروت (د . ت)
- ابن سلام ، محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي ت 231 هـ
- طبقات فحول الشعراء (2 ج) . تحقيق محمود شاكر القاهرة 1974
- ابن طباطبا ، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي) . ت 709 هـ
- الفخري في الأدب السلطانية والدول الاسلامية ، بيروت ، 1966
- ابن طولون ، شمس الدين محمد . ت 1046 هـ
- قيد الشريد من أخبار يزيد . مخطوطة جامعة الدول العربية رقم 758
- ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي . ت 214 هـ
- سيرة عمر بن عبد العزيز . دار العلم للملايين ، بيروت 1967
- فتوح مصر والمغرب والاندلس . تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة 1961
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي . ت 328 هـ
- العقد الفريد . (8 ج) ، تحقيق محمد سعيد العربي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة 1953
- ابن العبري ، غريغوريوس الملطي ت 685 هـ
- تاريخ مختصر الدول ، دار المسيرة ، بيروت ، د . ت .
- ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد المراكشي . ت (في مطلع القرن الثامن الهجري)
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (4 ج) . تحقيق ومراجعة ج . س . كولان
- وليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت د . ت
- ابن عساكر ، علي بن الحسن بن هبة الله . ت 571 هـ
- تاريخ دمشق الكبير ، مخطوطة قصر العظم رقم 197

- ابن عمر ، سيف بن عمر الضبيّ الأسدي . ت 200 هـ
 - الفتنة ووقعة الجمل . جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش . دار النفائس ، بيروت 1972
 ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري . ت 276 هـ
 - الأمانة والسياسة (ينسب به) ، المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . د . ت
 - عيون الأخبار (4 ج) مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة 1925
 ابن كثير ، ابو الفداء الحافظ . ت 774 هـ
 - البداية والنهاية (13 ج) مكتبة المعارف ، بيروت 1966
 ابن المجاور ، جمال الدين ابو الفتح ، ت 1291 هـ
 - صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، النسمة (تاريخ المستبصر) (2 ج) .
 تصحيح وضبط اوسكر لوفجرين . مطبعة بريل ، ليدن 1951
 ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري . ت 711 هـ
 - لسان العرب (15 ج) ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .
 ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك . ت 218 هـ
 - السيرة النبوية ، (2 ج) . تحقيق : مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبد
 الحفيظ شلبي الطبعة الثانية ، القاهرة 1955
 ابونمام ، حبيب بن أوس الطائي . ت 240 هـ
 - نقائص جرير والاختل . تحقيق الاب انطوان صالحاني . الطبعة الكاتوليكية
 بيروت 1922
 أبو عبيد ، القاسم بن سلام ت 223 هـ
 - كتاب الأموال . تحقيق محمد خليل هراس . مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة
 1962
 ابو غنم ، لوط بن يحيى ت 170 هـ
 - مقتل الحسين ورسالة أخذ الثار وانتصار المختار على الطغاة الفجار . تحقيق محمد
 الشيرازي . بومباي 1361 هـ

- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم . ت 182 هـ
- كتاب الخراج ، الطبعة الخامسة ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1396 هـ
- الأخطل ، غياث التغلبي ت 92 هـ
- ديوان الأخطل ، تحقيق انطوان صالحاني وآخرين . بيروت 1891 م
- الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد . ت 224 هـ
- اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (2 ج) . تحقيق رشدي ملحم دار
الاندلس ، بيروت (د . ت)
- الأصطخري ، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ، ت 321 هـ
- كتاب المسالك والممالك ، القاهرة 1961
- الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله . ت (في النصف الثاني من القرن الثالث
المجري)
- بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر - صالح العلي . دار اليمامة الرياض . د . ت
- البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر . ت 429 هـ
- الفرق بين الفرق . دار الأفاق الجديدة ، بيروت 1980
- البكري ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز . ت 487 هـ
- كتاب معجم ما استعجم . ليدن (د . ت)
- البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي . ت 279 هـ
- انساب الأشراف ، مخطوطة مكتبة الخزانة الملكية بالرباط رقم 60
- انساب الأشراف ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1979
- انساب الأشراف ، تحقيق محمد حيد الله . دار المعارف بمصر 1959
- انساب الأشراف ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت
- 1974
- لتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة
(د . ت)
- البياسي ، جمال الدين أبو الحجاج . ت 654 هـ

الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام

مخطوطة دار الكتب المصرية رقم 399

البيهقي - ابراهيم بن محمد ت 320 هـ

- المحاسن والمساوي - دار بيروت 1979

الجهشيري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس . ت 330 هـ .

- كتاب الوزراء والكتاب . تحقيق : مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبد

الحفيظ الشلبي ، القاهرة 1938

الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي . ت 598 هـ

- المصباح المضيء في خلافة المستضيء . تحقيق ناجية عبد الله ابراهيم ، مطبعة

الاقواق ، بغداد 1976

الحطيفة ، جرجول بن أوس ، ت 30 هـ

- ديوان الحطيفة . شرح أبو الحسن السكري ، تصحيح أحمد الشنجيتي . مطبعة

التقدم ، القاهرة . د . ت

الحلي ، علي بن برهان الدين . ت 975 هـ

- انسان العيون في سيرة الامين والمأمون ، الشهيرة بالسيرة الحلبية (3 ج) ، طبعة

مصر 1964

الحميري ، محمد بن عبد المنعم . ت (النصف الثاني من القرن التاسع)

- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق احسان عباس .

مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت 1975

الخوارزمي ، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكّي . ت 568 هـ

- مقتل الحسين ، مطبعة الزهراء ، النجف 1965

الدينوري ، أبو حنيفة ، ت 281 هـ

- الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة 1960

الرحبي السمناني ، أبو القاسم علي محمد بن أحمد . ت 499 هـ

- دروضة القضاة وطريق النجاة (4 ج) تحقيق صلاح الدين الناهي . بغداد 1974

الرقيات ، عبد الله بن قيس الرقيات . ت حوالي 85 هـ

- ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، دار بيروت .

دار صادر 1958

الزبيري ، مصعب بن عبيد الله ت 236 هـ

- نسب قریش ، القاهرة 1953

الزهری محمد بن مسلم بن عبید الله بن شهاب . ت 124 هـ

- المغازی النبویة تحقیق سهیل زکار ، دار الفكر ، 1981

السهودی ، نور الدین علی بن أحمد المصري . ت . 911 هـ .

- ولاء الوفا بأخبار دار المصطفى (2 ج) . تحقیق محمد عی الدین عبد الحمید ،
القاهرة 1955

السهلی ، ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمی ، ت 581 هـ

- الروض الأنف فی تفسیر السیرة النبویة لابن هشام (4 ج) تقدیم طه عبد
الرؤوف سعد ، مكتبة الکلیات الأزهریة ، القاهرة (د . ت)

السیوطی ، جلال الدین عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911 هـ

- تاریخ الخلفاء ، تحقیق محمد عی الدین عبد الحمید . الطبعة الرابعة ، القاهرة
1969

الطبرسی ، ابو علی الفضل بن الحسن . ت 548 هـ

- مجمع البیان فی تفسیر القرآن (30 ج) . دار مكتبة الحياة بیروت 1961

الطبري ، ابو جعفر محمد بن جریر . ت . 310 هـ

- تاریخ الأمم والملوک (13 ج) . مكتبة خياط ، بیروت د . ت

الطبري ، محب الدین أحمد بن عبد الله . ت 694 هـ

- ذخائر العقبی فی مناقب ذوی القربى . دار الكتب العراقية 1387 هـ

العباسی ، أحمد بن عبد الحمید . ت القرن العاشر الهجري ،

- عمدة الاخبار فی مدينة المختار . الطبعة الثالثة . المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
(د . ت)

الغلابی ، محمد بن زکریا بن دینار البصري . ت 298 هـ

- وقعة الجمل ، تحقیق الشیخ محمد حسن آل یاسین . مطبعة المعارف ، بغداد
1970

الفاسی ، ابو الطیب تقی الدین محمد بن أحمد المکی . ت 832 هـ

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق لجنة من كبار العلماء والادباء . مكتبة النهضة الحديثة ، مكة 1956

- المعقد الثمين في تاريخ البلد الامين

مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة (د . ت)

القرشي ، جمال محمد جار الله بن ظهيرة المخزومي (القرن العاشر الهجري)

- الجامع اللطيف في فضل مكة واهلها وبناء البيت الشريف . القاهرة 1921

القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ت 682 هـ

- آثار البلاد وأخبار العباد . دار صادر بيروت (د . ت)

القلقشندي ، ابو العباس أحمد بن علي . ت 821 هـ

- صبح الأعشى في صناعة الانشا (14 ج) المطبعة الأميرية القاهرة 1913

- نهاية الأرب في معرفة انساب العرب .

تحقيق علي الخاقاني ، مكتبة النجاح ، بغداد 1958

الكتّاني ، عبد الحميد بن عبد الكبير الحسني . ت 1345 هـ

- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية . طبعة بيروت ، (د . ت)

الكلبي ، ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب . ت 204 هـ

- كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي . الدار القومية ، القاهرة 1965

الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد . ت 450 هـ

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية . المطبعة المحمودية . القاهرة . (د . ت)

- قوانين الوزارة وسياسة الملك ، تحقيق رضوان السيد . دار الطليعة بيروت 1979

الميرد ، ابو العباس محمد بن يزيد . ت 285 هـ

- الكامل في اللغة والأدب (2 ج)

مكتبة المعارف ، بيروت . (د . ت)

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين . ت 346 هـ

- التنبيه والاشراف . دار التراث ، بيروت 1968
- مروج الذهب ومعادن الجوهر (4 ج)
- تحقيق يوسف اسعد دافر ، دار الأندلس ، بيروت 1973
- المغربي ، ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد . ت 673 هـ
- كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، بيروت 1970
- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله البشاري . ت 355 هـ
- احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
- مطبعة بريل ، ليدن 1909
- المغربي ، ابو العباس أحمد . ت 1041 هـ
- الجمالان في اخبار الزمان .
- مخطوطة دار الكتب المصرية رقم 1412
- المنقري ، بشر بن مزاحم ت 212 هـ
- وقعة صفين . تحقيق عبد السلام هارون
- طبعة ايران 1382
- الهمداني ، ابو محمد الحسن بن أحمد . ت 334 هـ .
- كتاب صفة جزيرة العرب . . تحقيق محمد عبد الله النجدي . القاهرة 1953
- الواقلي ، محمد بن عمر بن واقد . ت 207 هـ
- كتاب المغازي . تحقيق مارسون جونسن . طبعة طهران (د . ت)
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله الرومي . ت 626 هـ
- معجم البلدان (5 ج)
- دار صادر - دار بيروت 1957 .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب . ت 284 هـ .
- تاريخ اليعقوبي (2 ج) .

دار صادر - دار بيروت 1960 .

- كتاب البلدان

طبعة ليدن 1891 .

2 - مراجع عربية

الأمين ، السيد محسن

- اعيان الشيعة

بخت ، عبد الحميد

- عصر الراشدين

البراقى ، أحمد

- تاريخ الكوفة

بيضون ، ابراهيم

- التوابون

- الدولة العربية في اسبانيا

- الدولة الاموية والمعارضة

دار التعارف ، بيروت 1980

مكتبة الانجلو - مصرية 1963

الطبعة الثالثة ، النجف 1960

الطبعة الثانية ، دار التعارف 1978 .

دار النهضة العربية - بيروت 1978

مدخل الى كتاب السيطرة العربية

للمستشرق فان فلوتن دار

الحدادة ، بيروت 1980

دار النهضة العربية .

بيروت 1979 .

- ملامح التيارات

السياسية في القرن

الاول الهجري

جاد المولى ، محمد (مع محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي الهجاوي)

دار احياء الكتب العربية ، القاهرة 1963

- قصص العرب

الجناسر ، حمد

دار اليمامة ، الرياض 1970

- في شمالي غرب شبه الجزيرة

جودة ، جمال محمد داود محمد

رسالة ماجستير مطبوعة

عمان 1979 .

- العرب والارض في العراق

- في صدر الاسلام

جوزي ، بندلي

دار الروائع ، بيروت د . ت

- من تاريخ الحركات الفكرية

في الاسلام

- حسين ، طه
- في الادب الجاهلي
الحوفي ، أحمد محمد
- ادب السياسة في العصر
الاموي
الخربوطي ، علي حسني.
- تاريخ العراق في العصر
الاموي
- عهد الله بن الزبير
خليل ، عماد الدين
- دراسة في السيرة
- ملامح الانقلاب الاسلامي في
خلافة عمر بن عبد العزيز
درويش ، محمد ضاهر
- حسان بن ثابت
دكسن ، عبد الامير
- الخلافة الاموية (65 - 86 هـ)
الدوري ، عبد العزيز
- بحث في نشأة علم التاريخ عند
العرب
الرفاعي ، احمد فريد
- عصر المأمون ج 2 .
الرئيس ، ضياء الدين
- الخراج في الدولة الاسلامية
حتى منتصف القرن الثاني
المهجري
- عهد الملك بن مروان ،
موحد الدولة العربية
زيادة ، نقولا
- الجغرافية والرحلات عند
العرب
- دار المعارف بمصر . الطبعة العاشرة د . ت
مكتبة نهضة مصر 1960
القاهرة 1959
سلسلة اعلام العرب ، القاهرة د . ت
دار النفائس ، بيروت 1978
الطبعة الثانية ، الدار العلمية
بيروت 1971
دار المعارف بمصر / د . ت
دار النهضة العربية ، بيروت 1973 .
المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
د . ت
مطبعة دار الكتب ، القاهرة 1927
مكتبة نهضة مصر
1957
سلسلة اعلام العرب ، القاهرة 1962 .
الاهلية للنشر والتوزيع
بيروت ، 1980

- سالم ، السيد عبد العزيز
- تاريخ العرب في عصر الجاهلية دار النهضة العربية ، بيروت 1971 .
- سعودي ، محمد عبد الغني
- الجغرافية والمشكلات الدولية دار النهضة العربية ، بيروت د . ت
- سوسة ، أحمد
- العراق في الخوارط القديمة بغداد 1959
- سويد ، ياسين
- معارك خالد بن الوليد المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1973
- الشامي ، صلاح الدين
- الوطن العربي ، دراسة جغرافية القاهرة 1973
- الشايب ، أحمد
- تاريخ الشعر السياسي مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1976
- الشريف ، أحمد ابراهيم
- دور الحجاز في الحياة في القرنين الاول والثاني الهجري . دار الفكر العربي ، القاهرة 1968
- الدولة الاسلامية الاولى :
- مكة والمدينة في الجاهلية دار القلم ، القاهرة 1965
- وعصر الرسول
شمس الدين ، محمد مهدي دار الفكر العربي ، القاهرة 1967
- انصار الحسين ، الرجال والدلالات دار الفكر ، بيروت 1975
- ثورة الحسين ، ظروفها والاجتماعية وآثارها الانسانية دار التراث الاسلامي ، بيروت 1974
- نظام الحكم والادارة في الاسلام
صالح ، احمد عباس مطبعة الانصاف ، بيروت 1955
- اليمين واليسار في الاسلام المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1980

- الصدر ، محمد باقر
- لذلك في التاريخ
دار التعارف ، بيروت 1980
- ضيف ، شوقي
- الشعر والغناء في المدينة ومكة
دار الثقافة ، بيروت 1967
- لعصر بني أمية
عاقل ، نبيه
- تاريخ خلفاء بني أمية
الطبعة الثانية ، دمشق 1972
- عبد الحميد ، سعد زغلول
- تاريخ العرب قبل الاسلام
دار النهضة العربية ، بيروت 1976
- علي ، أمير
- مختصر تاريخ العرب والتمدن
القاهرة 1938
- الاسلامي
علي ، جواد
- المفصل في تاريخ العرب قبل
بيروت 1968
- دار العلم للملايين
- الاسلام
العلي ، صالح أحمد
مطبوعات المجمع العلمي
العراقي ، بغداد / د . ت
بغداد 1960
- محاضرات في تاريخ العرب
عمارة ، محمد
- الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية المؤسسة العربية للدراسات
والنشر ، بيروت 1977
- المؤسسة العربية - بيروت
- مبلعون ثوار
فرج ، محمد
دار الفكر العربي ، القاهرة 1966
- الفتح العربي للعراق وفارس
قدورة ، زاهية
دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1972
- عائشة أم المؤمنين
قطب ، سيد
الطبعة السابعة ، دار احياء
التراث العربي ، بيروت 1971
- في ظلال القرآن
منأجد ، عبد المنعم

- التاريخ السياسي للدولة العربية الطبعة الثانية ، القاهرة 1960
 - الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي دار الفكر العربي ، القاهرة
 بالاشتراك مع علي البنا)
 د . ت
 مغنية ، محمد جواد

- الشيعة والحاكمون الطبعة الثانية ، المكتبة
 الاهلية بيروت 1966

منقوش ، ثريا
 - التوحيد في تطوره التاريخي دار الطليعة ، بيروت 1977
 (التوحيديمان)

- مؤنس ، حسين
 - فجر الأندلس
 النص ، احسان
 القاهرة 1959

- العصبية القبلية في الشعر الاموي دار اليقظة العربية ، بيروت 1964
 - نصر الله ، محمد علي
 رسالة ماجستير غير منشورة
 تطور الملكية في الاسلام
 جامعة بغداد ، 1974
 نمودج اراضي السواد)
 وهبة ، حافظ

- جزيرة العرب في القرن العشرين الطبعة الثانية ، القاهرة 1946
 وهبة ، عبد الفتاح (بالاشتراك مع محمد سعودي)

- معالم الوطن العربي دار الفكر ، القاهرة 1964
 يحيى ، لطفي عبد الوهاب

- العرب في العصور القديمة مدخل حضاري في تاريخ العرب
 دار النهضة العربية ، بيروت 1979
 قبل الاسلام

- اليونان ، مقدمة في التاريخ الحضاري
 دار النهضة العربية
 بيروت 1971

3- مراجع مترجمة :

بيتز ، نورمان
 - الامبراطورية البيزنطية ، تاريخها ترجمة : حسين مؤنس ، محمود
 وحضارتها وعلاقتها بالاسلام
 زايد ، القاهرة 1957

حوراني ، جورج فضلو

- العرب والملاحة في المحيط
الهندي ، من العصور القديمة
وأوائل القرون الوسطى

ديسو ، رينيه

- العرب في سوريا قبل الاسلام

ترجمة يعقوب بكر ، مكتبة
الانجلو المصرية ، القاهرة
1958

ترجمة عبد الحميد الدواخل
لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة 1927

فلهوزن ، ي

- تاريخ الدولة العربية ، من
ظهور الاسلام الى نهاية الدولة
الاموية . ترجمة محمد عبد الهادي
ابوريدة

مراجعة حسين مؤنس .
القاهرة 1968

ترجمة عبد الرحمن بدوي .
مكتبة النهضة المصرية 1968

- الخوارج والشيعية

كاهن ، ك

- تاريخ العرب والشعوب الاسلامية

ترجمة بلر الدين القاسم ،
دار الحقيقة ، بيروت 1957

كريستنسن ، أ

- ايران في عهد الساسانيين

ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة
عبد الوهاب عزّام ، القاهرة 1957

لاندو ، ر

- الاسلام والعرب

ترجمة منير بعلبكي ، دار العلم
للملأين ، بيروت 1962

لويس ، أ . ر

- القوى البحرية والتجارية في حوض ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة
- البحر المتوسط (500-1100 م) وتقديم محمد شفيق غربال
مكتبة الانجلو- المصرية ، القاهرة

1960

لين بول ، س

- طبقات سلاطين الاسلام

ترجمة عباس اقبال (الى

الفارسية) ومكي طاهر الكعبي
(الى العربية) . منشورات البصرى ، 1968

ترجمة يعقوب بكر ، دار الكاتب
العربي ، القاهرة / د . ت

ترجمة شعبان بركات
المكتبة العصرية صيدا
د . ت

لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
دار الاعتماد ، القاهرة 1927

ترجمة ذوقان قرقوط ، دار
القلم ، بيروت 1972

ترجمة عبد القادر اليوسف
مكتبة الآمال ، الكويت / د . ت

موسكاتي ، س
- الحضارات السامية القديمة

وات ، م
- محمد في المدينة
- محمد في مكة

ولفسون ، أ
- تاريخ اليهود في بلاد العرب

ويد جيري ، د . ج
- المذاهب الكبرى في التاريخ
من كونفوشيوس الى توينبي
ويلسون ، أ
- الخليج العربي

مراجع أجنبية

Beydoun, I

— La révolte d'Ibn Al-ach'ath, éléments d'analyse de l'irrédentisme iraquien sous les Omayyades. Grénoble. 1971. M.S

Choufani, E

— *Al -Riddah and the conquest of Arabia*, University of toronto press, 1972.

Cohen, R

— *La Grèce et l'hellénisation du monde Antique*, Paris, 1939

Diehl, CH

— *Byzance, grandeur et décadence*, Paris , 1919.

Donner, F.M.

— *Mecca's food supplies and Muhammad's Boycott*, Journal of the Economic and social history of the orient, vol xx, part III 249- 266 p, S.D.

— *The Bakr B. Wa'il tribes and politics in north eastern Arabia on the Eve of Islam*, studia islamica, fasc. L 1^o , 37p, Paris, S.D.

Dozy, R

— *Histoire des musulmans d'Espagne*, leyde, 1932.

Gabriell, F

— *Les Arabes*, Paris, 1963.

Goldziher, I

— *Le dogme et la loi de l'Islam*, traduction de félix arin, Paris, 1920

Guidi, I

— *L'Arabic antéislamique*, Paris, 1921 .

Huart, Cl.

— *Histoire des Arabes*, Paris, 1912.

Kister, M.J.

— *Studies in Jahiliyya and Early islam* Ed. Variorum, London, 1980.

Lammens, H

— *Le califat de Yazid Ier*, imp. catholique, Beyrouth, 1921.

— *La cité arabe de talf à la veille de l'Hégire*, Beyrouth, 1912.

— *La république marchande de la Mècque vers l'an 600 de notre ère*,
Bulletin de l'institut Egyptien, tome IV, Alexandrie, 1910.

— *L'arabie occidentale avant l'Hégire*, Beyrouth 1928.

— *Le berceau de l'islam*, Beyrouth, 1914.

— *Etudes sur le règne du calife Omayyade, Mo'awiya Ier*, Beyrouth,
1908.

— *La Mècque à la veille de l'Hégire*, Beyrouth, 1930.

Muir, W.

— *The caliphate, its rise, decline and fall*, Beirut, 1963.

O'Leary, D.

— *Arabic, before Muhammad*, London, 1927.

Perier, J.

— *Vie d'al-hadjdjadj Ibn yousof*, Paris, 1904

Rabbath, E.

— *Mahomet, prophète arabe et fondateur d'Etat*, Beyrouth, 1981.

Sanhoury, A

— *Le califat*, Paris, 1926.

Van Vloten, G

— *Recherches sur la domination arabe, le chritisme et les croyances
messianiques sous le khalifat des Omayyades*, Amsterdam 1894.

Vesely, J

— *Al-Ansar, In ersten Juhrhendert des islam* Archiv , orientalni, 1973.

5 - مجلات ودوريات

- دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة محمد ثابت الغندي وآخرين . مطبعة طهران د . ت
- دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ، باشراف السيد حسن الأمين دار التعارف ، بيروت . د . ت

—Encyclopedie de l'Islam, N.E. Leyde. E.J. Brill

بيضون ، ابراهيم

- ظاهرة الاصلاح السياسي في الشرق الإسلامي في مطلع القرن الثاني الهجري
- مجلة الفكر العربي المعاصر. بيروت ، عدد2-1980

جبور ، جبرائيل

- مواسم الحجاز
- مجلة الشرق - بيروت - مجلد33-1935

خليل ، عماد الدين

- العلاقات اليهودية الإسلامية في عهد الرسول
- مجلة المورد بغداد - مجلد3 عدد2-1974

زهايم ، رودولف

- فتنة ابن الزبير - ترجمة حسام الصغير
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج4 - مجلد49-1973

الزيات ، أحمد حسن

- الشعر في صدر الاسلام وعهد بني امية
- مجلة الرسالة - القاهرة - عدد116-1935

السيد ، رضوان

- من الشعوب والقبائل الى الأمة
- مجلة الوحدة - بيروت - عدد4-1980
- جدليات العلاقة بين « الجماعة » و « الوحدة » و « الشرعية » في الفكر السياسي العربي الاسلامي

- مجلة الوحدة - بيروت عدد2-1980

- جدليات العقل والنقل والتجربة التاريخية للأمة
- مجلة الفكر العربي - بيروت - عدد15-1980

عبد الرحمن ، محمد حسين

- عبد الله بن الزبير

- مجلة الرسالة - القاهرة - عدد 112-1935

العلمي ، صالح أحمد

- العطاء في الاسلام

- مجلة المجمع العلمي العراقي - بغداد - مجلد 20-1970

- تنظيمات الرسول في المدينة

- مجلة المجمع العلمي العراقي - بغداد - مجلد 17-1969

- جباية الصدقات في القرن الأول الهجري

- مجلة العرب - الرياض - عدد 10-1969

- ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري

- مجلة العرب - الرياض - عدد 11-1969

كوثراني ، وجيه

- مدخل اسلامي لدراسة السلطنة العثمانية

- مجلة الوحدة - بيروت - عدد 2-1980

لامنس ، هنري

- النصاري في مكة قبيل الهجرة

- مجلة المشرق - بيروت - مجلد 35-1937

محمد ، خليل اسماعيل

- تطور الفكر الجغرافي عند المسلمين

- مجلة البلاغ - بغداد - عدد 3-1966

الهاشمي ، خالد طه

- خالد بن الوليد

- مجلة الرسالة - القاهرة - عدد 66-1934

1 - الأعلام

- أَبْنَانُ بْنُ عَمِيانَ : 374
 إبراهيم (النبي) : 83، 61، 36
 إبراهيم بن الأشتر : 332، 329
 إبراهيم بن نعيم العدوي : 278
 الأحنف بن قيس : 204
 الأخطل : 240، 239، 236
 الأحنس بن شريق الثقفي : 229، 181
 أراخون لويس : 17
 الأزرقى : 302، 87، 85، 72، 61
 الأسكندر : 28
 الأشتر النخعي : 176، 171، 158، 157، 125
 : 202، 201، 187، 186، 185، 183، 182، 179
 210، 208، 204
 الأشعث بن قيس الكندي : 206، 205، 196
 207
 ابن الأثير : 247، 241، 180، 163، 23، 220
 338، 334، 333، 329، 323، 259
 ابن الأعمى الكوفي : 201، 179، 22، 15
 ابن أبي ثور : 246، 241، 212، 333
 ابن اسحاق : 106، 102، 99، 72
 ابن حوقل : 74، 68، 66
 ابن خرداذبة : 66
 ابن خللدون : 199، 187، 99، 23
 ابن خياط : 355، 236، 288
 ابن رستم : 66
 ابن ذي الكلاع الحميري : 201
 ابن عبد الحكم : 356
 ابن عساکر : 15
 ابن عضله الأشعري : 271
 ابن قتيبة : 19
 ابن كثير : 311
 ابن المجاور : 51
 ابن منبه : 72
 ابن مينا : 266، 265، 264
 أبو أسيد الساعدي : 163
 أبو الأسود الدؤلي : 206
 أبو الأعور السلمي : 205، 202، 201
 أبو أيوب الأنصاري : 201، 200، 182، 177
 374، 212، 210، 205
 أبو المهاجر الأنصاري : 228، 227
 أبو بكر الصديق : 129، 124، 121، 120، 52
 133، 134، 135، 136، 137، 140، 146، 150
 154، 159، 160، 179، 230، 233، 373
 أبو بكر بن أبي قيس : 338
 أبو بكر بن حزم الأنصاري : 375، 372، 358
 أبو جهل المخزومي : 365، 113، 108، 92
 أبو حمزة الخاجري : 353
 أبو نذر الغفاري : 165
 أبو سعيد الخدري : 284، 177
 أبو سفيان : 141، 121، 119، 115، 113، 108
 189، 193، 194، 365
 أبو طالب : 86
 أبو عبيد القاسم بن محمد : 135
 أبو عبيدة بن الجراح : 179، 138
 أبو قتادة الأنصاري : 374، 177
 أبو لهب : 92، 86
 أبو لؤلؤة : 148
 أبو مخنف : 209، 206، 205، 201، 22، 21، 20
 210، 260، 272، 277، 278، 279، 280، 286
 328، 321

- ج -

جابر بن الأسود بن عوف : 219 ، 335
 جابر بن عبد الله الأنصاري : 213 ، 355
 جارية بن قدامة السعدي : 215
 جريو بن عبد الله البجلي :
 جستان : 29 ، 58 ، 78
 جعفر بن محمد بن علي : 274
 جفينة : 148

- ح -

الحارث بن الحاطب الجمحي : 333 ، 334
 الحارث بن أبي ربيعة : 319
 حبيب بن عبد الله بن الزبير : 341
 حبيب بن مسلمة الفهري : 201 ، 205 ، 372
 حبش بن دجلة القيني : 319 ، 333
 الحجاج بن يوسف الثقفي : 283 ، 284 ، 288 ،
 320 ، 331 ، 336 ، 337 ، 338 ، 339 ، 340 ، 341 ،
 342 ، 343 ، 349 ، 352 ، 357 ، 358 ، 371 ، 374
 حجر بن علي الكندي : 205 ، 232 ، 249 ، 240
 حسان بن ثابت : 163 ، 177 ، 235
 حسان بن مالك بن بحدل الكلبي : 310 ، 315 ،
 330
 الحسن بن علي : 13 ، 127 ، 171 ، 182 ، 186 ،
 205 ، 215 ، 216 ، 217 ، 221 ، 223 ، 229 ، 230 ،
 232 ، 233 ، 252 ، 255 ، 268 ، 325 ، 356
 الحسين بن علي : 217 ، 238 ، 241 ، 243 ، 244 ،
 246 ، 252 ، 253 ، 254 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ،
 263 ، 270 ، 274 ، 282 ، 287 ، 292 ، 296 ، 297 ،
 301 ، 302 ، 308 ، 325 ، 346 ، 376 ، 377
 حميد (طه) : 282 ، 289 ، 299
 الحصين بن غمير السكوني : 285 ، 288 ، 295 ،
 299 ، 300 ، 303 ، 304 ، 305 ، 307 ، 308 ، 316 ،
 327 ، 336 ، 340 ، 348 ، 376
 الخطيب : 133 ، 134
 الحكم بن أيوب الثقفي : 371
 حكيم بن جبلة : 171 ، 182 ، 184
 هران بن أبان : 372

أبو موسى الأشعري : 125 ، 156 ، 183 ، 205 ،
 207 ، 209 ، 214

أبو هريرة : 215 ، 216
 أبو يوسف : 143 ، 17
 أبي المنذر الكلبي : 64
 أرسطو يولوس : 28
 أسامة بن زيد : 136 ، 253 ، 276
 أسخيلوس : 27
 أسهاء بنت أبي بكر : 341
 أساعيل (النبي) : 46
 أليوس غايوس : 58
 أم الحكم بنت أبي سفيان : 229
 أم حبيب بنت أبي العاصي : 229
 أمنة بنت أبي سفيان : 229
 أمية بن الصلت : 229
 أوليري : 41
 أيوب بن سليمان بن عبد الله : 350
 - ب -

بسر بن أبي أرطاة : 13 ، 22 ، 202 ، 211 ، 212 ،
 213 ، 214 ، 215 ، 227 ، 281 ، 283 ، 285 ، 372 ،
 376
 بشر بن عبد بن دهان الثقفي : 229
 بشر بن مروان : 344
 بطليموس : 28 ، 33
 بقي بن مخلد : 279
 البكائي :
 البكري : 27 ، 32
 البلاخري : 15 ، 19 ، 137 ، 192 ، 212 ، 214 ،
 225 ، 229 ، 262 ، 272 ، 274 ، 276 ، 280 ، 296 ،
 298 ، 302 ، 325 ، 333
 بلحارث بن الخزرج : 265 ، 266
 بوزيه ، لويس : 16
 بول : 307
 أنيلامي : 15 ، 298
 - ت -

تبع الحميري : 62

حزة بن عبد الله بن الزبير : 328 ، 341
حزة بن مالك الحمداني : 205
حزة بن المغيرة بن شعبة : 371
حيد بن حريث الكلبي : 330
خالد بن العاص بن هشام المخزومي : 226 ،
373 ، 227

- خ -

خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد : 332
خالد بن عبد الله القسري : 357 ، 358 ، 375 ،
376

خالد بن الوليد : 130 ، 138 ، 140
خالد بن يزيد : 310 ، 320
خزيمة بن ثابت الانصاري : 182 ، 201
خليقة بن خياط : 181 ، 374

- د -

الدوري (عبد العزيز) : 20
دوزي : 285
وونر : 16 ، 262

- ذ -

ذي ثؤاس : 42 ، 59

- ر -

رافع بن خديج : 177
روح بن زنباع الجدامي : 495 ، 308
ريحانة بنت أبي العاص بن أمية : 229
- ز -

الزبير بن بكار : 18 ، 358
الزبير بن عبد الله بن الزبير : 341
الزبير بن عبد المطلب : 39 ، 95
الزبير بن العوام : 12 ، 138 ، 158 ، 160 ، 176 ،
178 ، 179 ، 180 ، 184 ، 187 ، 190 ، 191 ، 192 ،
198 ، 261 ، 262 ، 291 ، 293
زفر بن الحارث الكلابي : 309 ، 317 ، 318 ،
323 ، 329

زهايم : 16 ، 351

زمل بن عمرو العنزي : 205

الزهري : 130 ، 216

الزيات (أحمد حسن) : 347

زياد بن أبيه : 222 ، 239 ، 240 ، 371

زيادة ، نقولا : 16

زيد بن ثابت : 163 ، 177

- زيد بن عبد الرحمن بن عوف : 278

- س -

سعد بن أبي وقاص : 138 ، 144 ، 145 ، 153 ،
161 ، 176 ، 181 ، 191 ، 195 ، 199
سعد بن الربيع الانصاري : 190
سعد بن عبادة : 110 ، 112 ، 118 ، 119 ، 120 ،
235

سعد بن مسعود الثقفي : 230

سعيد بن سعد بن عبادة : 235

سعيد بن العاص : 125 ، 156 ، 157 ، 173 ، 183 ،
226 ، 236 ، 259 ، 266 ، 352 ، 374

سعيد بن قيس الحمداني : 205

سعيد بن المسيب : 284 ، 354 ، 356

سعيد بن يزيد الأزدي : 228

سفیان بن الأبرد الكلبي : 330

سلم بن زياد بن أبيه : 371

سليمان بن خالد الزرقعي الانصاري : 334

سليمان بن صرد الخزامي : 256

سليمان بن عبد الملك : 350 ، 354 ، 358 ، 359 ،
374

المسهردي : 23 ، 40 ، 259 ، 265

سهل بن حنيف الانصاري : 177 ، 182 ، 201 ،
202 ، 205 ، 374

سهل بن سعيد الساعلي : 355

سودان بن حمران المرادي : 176

السيد بن رضوان : 16

سيف بن عمر : 21 ، 166 ، 209

- ش -

شقاد بن الاوس : ٤٠٢

عبد الرحمن بن جحلم الفهري : 320, 302, 228
 عبد الرحمن بن خالد بن العاص : 374
 عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : 205, 202, 201
 عبد الرحمن بن زهير الزهري : 276
 عبد الرحمن بن زياد بن أبيه : 371
 عبد الرحمن بن عتب بن أسيد : 191
 عبد الرحمن بن عوف : 151, 145, 138, 92
 عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : 262, 190, 176, 161, 159, 153
 عبد العزيز بن عبد الله الأموي : 221, 15
 عبد الله بن أبي بن سلول : 375, 358
 عبد الله بن أبي عمرو المخزومي : 117, 11, 110, 109
 عبد الله بن جدهان : 272
 عبد الله بن جعفر : 94, 93, 86
 عبد الله بن حفظة الأنصاري : 273, 268
 عبد الله بن الزبير : 274, 272, 271
 عبد الله بن الزبير : 290, 279, 278, 277, 276
 عبد الله بن الزبير : 282
 عبد الله بن الزبير : 21, 20, 19, 16, 15, 14
 عبد الله بن الزبير : 244, 241, 238, 232, 227, 191, 162, 22
 عبد الله بن الزبير : 258, 256, 275, 245, 253, 252, 246, 245
 عبد الله بن الزبير : 277, 276, 273, 272, 271, 270, 260, 259
 عبد الله بن الزبير : 297, 295, 294, 292, 291, 290, 287, 282
 عبد الله بن الزبير : 306, 304, 303, 302, 301, 300, 299, 298
 عبد الله بن الزبير : 307, 308, 309, 310, 311, 312, 316, 317
 عبد الله بن الزبير : 327, 326, 325, 324, 321, 320, 319, 318
 عبد الله بن الزبير : 338, 337, 335, 334, 333, 332, 329, 328
 عبد الله بن الزبير : 347, 346, 345, 344, 343, 341, 340, 339
 عبد الله بن الزبير : 361, 359, 357, 355, 352, 351, 349, 348
 عبد الله بن الزبير : 376, 371, 368, 367
 عبد الله بن سلام : 185
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح : 157
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح : 293, 168
 عبد الله بن الضحّاك الأنصاري : 278
 عبد الله صفوان : 304
 عبد الله بن عباس : 203, 186, 182, 22
 عبد الله بن عباس : 2974, 288, 243, 239, 208, 206, 205, 204
 عبد الله بن عباس : 326, 325, 298
 عبد الله بن عامر : 373, 191, 184, 179

الشريف المرتضى : 19
 شبة بن عثمان البصري : 214, 211
 - ص -
 صفية بنت أبي العاص : 229
 - ض -
 الضحّاك بن قيس الفهري : 236, 202, 201
 الضحّاك بن قيس الفهري : 311, 310, 309, 302, 3013, 2512, 250, 239
 الضحّاك بن قيس الفهري : 372, 320, 317, 312
 - ط -
 طارق بن عمرو : 343, 342, 339, 338, 337
 طارق بن عمرو : 374
 الطبري : 179, 163, 88, 52, 22, 21, 20, 15
 الطبري : 254, 248, 247, 213, 202, 205, 201, 180
 الطبري : 302, 295, 280, 279, 373, 272, 262, 257
 الطبري : 342, 339, 336, 329, 323, 322, 319, 311
 الطبري : 374, 354
 الشريف المرتضى : 19
 طلحة بن داود الحضرمي : 375, 358
 طلحة بن عبيد الله : 160, 158, 145, 138, 12
 طلحة بن عبيد الله : 191, 187, 184, 180, 179, 178, 176, 170
 طلحة بن عبيد الله : 293, 262, 198, 192
 طلحة بن عبيد الله بن عوف : 338
 طويس : 284
 - ع -
 عائشة : 191, 186, 184, 181, 180, 178, 12
 عائشة : 294, 293, 242
 عامر بن لؤي : 372
 عائشة بن أسامة : 16
 عباد بن زياد بن أبيه : 371
 العباس : 141, 115, 105, 92, 86
 العباس بن ربيعة بن الحارث : 177
 عبد الرحمن بن أبي بكر : 246, 244, 242, 239
 عبد الرحمن بن أبي بكر : 247
 عبد الرحمن بن الحكم : 331, 191

عبد الله بن عثمان الثقفي : 229
 عبد الله بن عمر : 207, 203, 202, 199, 181
 عبد الله بن مسعدة الفزاري : 303, 127, 126
 عبد الله بن مسعود : 301, 211
 عبد الله بن المغيرة الثقفي : 177, 165
 عبد الله بن مطيع العلوي : 181
 عثمان بن محمد بن أبي سفيان : 274, 273, 271
 عثمان بن محمد بن أبي سفيان : 263, 259, 227
 عثمان بن ربيعة بن عبد العزيز : 374, 276, 271, 265, 264
 عروة بن ربيعة بن عبد العزيز : 373
 عروة بن الزبير : 333
 عروة بن الزبير : 341, 191
 عروة بن المغيرة بن شعبة : 371
 عقبة بن عمر الجهني : 228
 عقبة بن نافع الفهري : 272, 228
 عقيل بن أبي طالب : 195
 علي بن أبي طالب : 120, 22, 15, 12, 11
 علي بن أبي طالب : 145, 142, 138, 127, 125, 123, 122, 121
 علي بن أبي طالب : 176, 171, 169, 168, 160, 159, 151, 146
 علي بن أبي طالب : 185, 184, 183, 182, 180, 179, 178, 177
 علي بن أبي طالب : 196, 195, 194, 192, 191, 188, 187, 176
 علي بن أبي طالب : 204, 203, 202, 201, 200, 199, 198, 197
 علي بن أبي طالب : 211, 210, 209, 208, 207, 206, 205, 205
 علي بن أبي طالب : 235, 234, 228, 223, 217, 216, 215, 213
 علي بن أبي طالب : 367, 360, 326, 292, 290, 263, 262, 244
 علي بن أبي طالب : 376, 374
 علي بن الحسين : 356, 325, 22
 علي بن الحسين : 63, 15
 علي بن الحسين : 346, 267, 16
 علي بن عبد الله بن عباس : 352
 عمار بن الأحوص الكلبي : 205
 عمار بن ياسر : 208, 203, 202, 201, 186, 16
 عمر بن الخطاب : 120, 108, 54, 15, 10
 عمر بن الخطاب : 143, 142, 141, 140, 138, 135, 124, 121
 عمر بن الخطاب : 152, 151, 150, 149, 148, 147, 146, 145
 عمر بن الخطاب : 182, 179, 177, 172, 169, 159, 154, 153
 عمر بن الخطاب : 244, 230, 226, 193, 191, 190, 189, 187

عبد الله بن عمرو بن العاص : 202
 عبد الله بن قيس الرقيات : 303, 127, 126
 عبد الله بن مسعدة الفزاري : 301, 211
 عبد الله بن مسعود : 177, 165
 عبد الله بن المغيرة الثقفي : 181
 عبد الله بن مطيع العلوي : 274, 273, 271
 عبد الله بن همام السلولي : 291, 290, 288, 276
 عبد الله بن همام السلولي : 239, 238, 126
 عبد المطلب : 102, 101, 100, 95, 90
 عبد الملك بن الحجاج بن يوسف : 372
 عبد الملك بن مروان : 275, 232, 127, 126
 عبد الملك بن مروان : 323, 322, 321, 320, 318, 315, 311, 277
 عبد الملك بن مروان : 333, 332, 331, 330, 329, 326, 325, 324
 عبد الملك بن مروان : 345, 340, 339, 338, 337, 336, 335, 334
 عبد الملك بن مروان : 355, 354, 353, 352, 351, 350, 349, 347
 عبد الملك بن مروان : 374, 371, 368, 359
 عبيدة بن الزبير : 333, 328
 عبيد الله بن زياد : 285, 285, 257, 239
 عبيد الله بن زياد : 325, 319, 318, 311, 309, 308, 301, 295
 عبيد الله بن زياد : 371, 331, 328
 عبيد الله بن علي : 325
 عبيد الله بن عباس : 215
 عبيد الله بن عمر : 354, 224, 203, 202, 148
 عتب بن أسيد الأموي : 466, 373, 230
 عتبة بن أبي سفيان : 374, 228, 226, 205
 عتبة بن ربيعة : 108
 عثمان بن أبي العاص : 373
 عثمان بن حنيف الانصاري : 184, 182, 177
 عثمان بن الحويرث : 80, 79
 عثمان بن حيان الرمي : 358
 عثمان بن عفان : 123, 21, 15, 12, 11, 10
 عثمان بن عفان : 151, 146, 145, 144, 138, 126, 125, 124
 عثمان بن عفان : 160, 159, 157, 156, 155, 154, 153, 152

- 253, 234, 232, 224, 223, 217
قيس بن عجرة : 374
- ك -
- كاهن (كلود) : 152
كريستن :
كسري : 170
كعب بن عجرة الانصاري : 177
كعب بن مالك الانصاري : 177, 163
كلثوم بن غياض القشيري : 221
كميل بن زياد النخعي : 186, 185
كيسر : 266, 16
- ل -
- لا نمس : 16, 39, 41, 53, 61, 87, 228, 275,
301, 300
- م -
- مالك بن أنس : 192
مالك بن كعب الحمداني : 205
مالك بن مويرة : 132
مالك بن هيرة السكوني : 316
المبرد : 263
محرز بن حازنة (عبد شمس) : 373
محمد بن أبي بكر : 169, 170, 171, 176, 177,
228, 210, 208, 182
محمد بن جعفر : 182
محمد بن الحنفية : 22, 297, 298, 325, 326,
352, 348, 329
محمد بن طلحة : 191
io'fk hgehal hgzerd : 371
محمد بن القاسم الثقفي :
محمد بن مسلمة الانصاري : 177, 199,
المختار بن أبي عبيد الثقفي : 22, 292, 295,
296, 297, 298, 300, 308, 324, 325, 326,
329, 327
الدائني : 300, 311
مروان بن الحكم : 124, 154, 156, 159, 162,
- 346, 345, 324, 291, 177, 267, 266, 245,
376, 373, 360
عمرو بن عبد العزيز : 172, 268, 356, 357,
376, 374, 360, 359, 358
عمرو بن الزبير : 253, 254, 328
عمرو بن سعيد بن العاص (الاشئق) : 22,
227, 252, 259, 260, 310, 311,
321, 322, 328, 330, 331, 350, 374
عمرو بن العاص : 138, 154, 157, 190, 196,
201, 202, 203, 204, 207, 210, 222, 228
عمرو بن عتبة بن أبي وقاص : 177
عمرو بن عثمان : 284
عمرو طي الخزاعي : 36, 64, 83
عروة بن الحكم : 19, 20, 21, 280
عياض بن سهل : 319
- غ -
- الغافقي بن حرب : 176
غيلان بن مسلمة بن معتب الثقفي : 229
- ف -
- غازيلي : 16, 299
فضالة بن عبيد الانصاري : 177, 225
الفضل بن العباس : 278
فلهوزن : 13, 16, 176, 206, 223, 247, 248,
287, 343, 345, 353
ففيه : ج . م . 16
- ف -
- القاسم بن ربيعة : 373
قلم بن العباس : 211, 214, 374
قرظة بن كعب الانصاري : 177
القزويني : 32
قسي بن كلاب : 36, 37, 76, 84, 85, 87, 88,
89
القلقشندي : 151
نفذ بن عمير جدعان التمي : 373
قيس بن سعد بن عبادة : 177, 201, 202, 205,

376, 374, 372, 371, 367, 366, 355, 354
 معاوية الثاني : 309, 308
 معاوية بن خديج الكندي : 293, 228, 205
 معقل بن ستان الاشجعي : 286, 274
 المغيرة بن شعبة : 371, 236, 222, 214, 181
 المقدسي : 69, 67, 66, 63
 المنذر بن الزبير : 301, 287, 272, 191
 موسى (النبي) : 41
 - ن -
 نائل بن نيس : 322, 317
 ناعم بن علفة بن صفوان : 375, 374
 نصر بن مزاحم : 205, 202, 201
 النعمان بن بشير الانصاري : 235, 225, 177
 372, 309, 273, 272, 256, 254
 النعمان بن المجمل الانصاري : 177
 - ه -
 هاشم بن عبد مناف : 89, 88, 79, 76
 هاشم بن عتبة بن ابي وقاص : 202, 201, 177
 208, 302
 هاني بن عروة : 257
 الهرمزان : 148
 هشام بن اسحاق الخزومي : 374, 356, 354
 هاني بن هذلة : 186
 الهرمزان : 148
 هشام بن اسحاق الخزومي : 374, 356, 354
 هشام بن عبد الملك : 372, 268
 الحمداني : 263, 32
 هومروس : 28
 هيرودوتوس : 28
 - و -
 وات (مونتمري) : 268
 الواقدي : 357, 280, 265, 264, 254, 21, 19
 وقاه بن سمي البجلي : 205
 ولفسون : 75

, 226, 202, 196, 192, 191, 169, 167, 164
 , 251, 248, 247, 242, 241, 239, 227, 226
 , 320, 319, 318, 316, 310, 309, 286, 274
 , 366, 357, 352, 349, 333, 323, 322, 321
 374
 مروان الثاني : 353
 مسعر بن ندكح التميمي : 201
 المسعودي : 297, 270, 247, 189, 32, 22
 352, 335, 330, 323, 322, 316
 مسلم بن عقبة المزي : 277, 275, 250, 214
 , 299, 295, 294, 284, 283, 280, 279, 278
 306, 301
 مسلم بن عقيل : 257
 مسلمة بن عبد الملك : 359, 351
 مسلمة بن خالد الانصاري : 202, 201, 177
 372, 253, 228, 227, 225
 مسكين الدرامي : 237
 السور بن غمرة قس : 300, 296
 السيب بن نجبة الفزاري : 211
 مصعب بن الزبير : 325, 322, 321, 300, 291
 371, 336, 335, 332, 329, 328, 326
 مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري : 227
 مصعب بن عمير : 107
 المطرف بن المغيرة بن شعبة : 371
 المطلب : 89
 معاذ بن جبل : 150
 معاوية بن ابي سفيان : 117, 22, 21, 14, 12
 , 160, 159, 156, 154, 126, 125, 124, 123
 , 186, 184, 183, 168, 167, 166, 162, 161
 , 198, 197, 196, 194, 193, 190, 189, 187
 , 207, 205, 204, 203, 202, 201, 200, 199
 , 221, 217, 214, 212, 211, 210, 209, 208
 , 231, 230, 229, 227, 226, 225, 223, 222
 , 240, 239, 238, 237, 236, 235, 234, 233
 , 248, 247, 246, 245, 244, 243, 242, 241
 , 259, 258, 256, 255, 245, 252, 251, 250
 , 293, 283, 275, 269, 268, 265, 264, 263
 , 351, 350, 321, 318, 317, 316, 311, 309

214 ، 227 ، 228 ، 232 ، 236 ، 237 ، 238 ، 240 ،
 241 ، 242 ، 243 ، 248 ، 249 ، 251 ، 252 ، 253 ،
 254 ، 255 ، 259 ، 260 ، 264 ، 266 ، 268 ، 269 ،
 271 ، 272 ، 273 ، 274 ، 275 ، 281 ، 282 ، 286 ،
 287 ، 288 ، 292 ، 293 ، 295 ، 297 ، 299 ، 301 ،
 302 ، 303 ، 304 ، 305 ، 306 ، 307 ، 309 ، 315 ،
 320 ، 304 ، 305 ، 306 ، 307 ، 309 ، 315 ، 320 ،
 322 ، 326 ، 327 ، 240 ، 305 ، 306 ، 307 ، 309 ،
 315 ، 320 ، 322 ، 326 ، 327 ، 340 ، 344 ، 348 ،
 353 ، 368 ، 371 ، 372 ، 374 ، 376

يزيد بن المهلب : 358

اليقوبي : 20 ، 22 ، 40 ، 57 ، 66 ، 76 ، 212 ،
 264 ، 297 ، 310 ، 323 ، 325 ، 331 ، 343 ، 350 ،
 352 ، 355 ، 357

يعلى بن مية التميمي : 178 ، 184

يوسف بن الحكم الثقفي : 310

يوسف بن عمر الثقفي : 372

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي : 372

517 — 502

الوليد بن صيد الملك : 354 ، 356 ، 357 ، 358 ، 371 ، 372

الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : 226 ، 227 ، 251 ،
 252 ، 259 ، 260 ، 374

الوليد بن عقبة : 156

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : 372

وهب بن جرير : 286

وهب بن مسعود الخثعمي : 215

— ي —

ياقوت الحموي : 281

ياقوت : 72

يحيى بن الحكم : 191 ، 351 ، 374

يزيد بن أبي سفيان : 138 ، 235

يزيد بن زياد بن أبيه : 371

يزيد بن شجرة الرهاوي : 210

يزيد بن عبد الملك : 361

يزيد بن عمر الجذامي : 205

يزيد بن معاوية : 20 ، 126 ، 149 ، 190 ، 193 ،

2 - القبائل والبطون

جرهم : 37، 62	أ -
جمع : 91، 181، 279، 342	الأزد : 12، 202، 209، 245، 79، 86، 90،
جهينة : 47، 48	191، 181، 139، 93
ح -	أشجع : 94، 12، 86، 101، 102، 115، 138،
حارثة : 36، 280، 289	141، 180، 181، 191، 192، 195، 196، 199،
الحارث بن فهر : 90، 93، 138، 279	214، 229، 236، 245، 263، 264، 266، 281،
حير : 32	358، 299
حنظلة : 132	الأنباط : 32، 56، 63
حنيفة : 51، 52، 103، 131	الهمار : 46
خثعم : 29	الأوس : 40، 43، 45، 104، 106، 107، 110،
خ -	118، 120، 182، 200، 240، 261، 271
خثعم : 209	أياد : 46
خزاعة : 37، 62، 303	ب -
الخزرج : 40، 43، 45، 104، 106، 107، 109،	باعدة : 181
110، 112، 117، 118، 120، 182، 200، 202،	بجيلة : 195، 205، 209، 358
282، 261، 240	بكر بن وائل : 51، 77، 31، 139
ذ -	بلى : 47
ديان : 49، 130	ت -
ر -	تيم : 12، 86، 90، 93، 94، 191، 160،
ربيعة : 45، 50، 51، 332	177، 181، 245، 279
ز -	تميم : 181، 207، 208، 303
زغبة : 49	ث -
زهرة : 90، 92، 93، 138، 153، 177، 181، 279	ثقيف : 13، 14، 50، 119، 133، 147، 181،
س -	215، 229، 230، 231، 232، 371
ساعة : 120	ج -
	جذام : 41، 48، 202، 231، 37، 62

قريش الظواهر : 310، 312	سبأ : 32
قريظة : 41، 104، 111	سليم : 49، 130، 181
قضاعه : 46، 47	سهم : 91، 93، 181، 279، 342
قيس : 14، 49، 50	- ش -
قيس بن عيلان : 46، 48، 181	شيبه : 342
القينقاع : 111، ١٤	- ط -
- ك -	طي : 80
كلب : 13، 67، 48، 80، 202، 205، 221، 231، 303، 323، 330	- ع -
كنانة : 48، 50	الماسي : 307، 310، 315، 316، 318، 321، 334، 351، 354، 367
كنده : 202، 205، 207، 209، 207	عامر : 50، 211، 279
كهون : 48	عبد الدار : 87، 88، 90، 91، 181، 211، 279
مخزوم : 90، 91، 92، 94، 181، 279	عبد شمس : 88، 89، 90، 93، 94، 101، 102، 192، 205، 226، 245، 246، 365، 373
مذحج : 12، 202، 205، 209	عبد العزي : 79، 373
المصطلق : 110	عبد القيس : 51، 184، 202
مضر : 46، 48، 49، 50، 332	عبد المطلب : 297
المطلب : 93، 279	عبد مناف : 87، 88، 90، 100، 101، 199، 333
معد بن عدنان : 47	عبس : 49، 130
معين : 28، 32	اعدنان : 46
المنافرة : 64، 65، 68، 80، 84	عمي : 91، 138، 154، 245، 279، 287، 298
- ن -	عدرة : 47، 48، 205
نخع : 202، 205	عك : 303
نزار : 46، 48، 51	العائلة : 35، 36، 41، 62، 74
النضير : 41، 104، 111، 261	عزة : 51
نوفل : 86، 89، 93، 102، 279	- غ -
- هـ -	الغسانه : 64، 65، 79، 84
هاشم : 62، 86، 90، 92، 93، 100، 102، 138، 141، 155، 177، 195، 198، 224، 227، 230، 253، 273، 278، 279، 291، 296، 297، 298	فطمان : 49
324، 325، 352، 366	- ف -
هذيل : 48	فزاره : 49، 177، 211، 226
همدان : 12، 202، 205	فهر : 13، 202، 205، 221، 231، 321، 374
هوازن : 49، 50، 119، 133	- ق -
	قريش : وردت كثيراً ، انظرها في مكانها

3 - الأماكن

بلر : (4) ، 111 ، 113 ، 141 ، 177 ، 200 ، 271 ،
365 ، 286
برقه : 222
البصرة : 12 ، 52 ، 68 ، 160 ، 171 ، 164 ، 177 ،
179 ، 180 ، 181 ، 182 ، 183 ، 184 ، 185 ، 186 ،
187 ، 191 ، 194 ، 197 ، 201 ، 202 ، 208 ، 209 ،
239 ، 255 ، 258 ، 288 ، 292 ، 308 ، 319 ، 324 ،
328 ، 332 ، 337 ، 371 ، 372
بصرى : 47 ، 56 ، 64 ، 67 ، 70
بطن مر : 67
بطن نخل : 67
بعث : 104 ، 110
بعليك : 322
بغداد : 22
البعيضة : 263
البقاع : 322
اليلقاء : 70 ، 316
بيشة : 66

- ت -

تبالة : 66
تبوك : 31 ، 47 ، 48 ، 67 ، 135 ، 192
تدمر : 52 ، 58 ، 64 ، 65
تهامة : 31 ، 34 ، 35 ، 36 ، 48 ، 51 ، 53 ، 66 ، 88
تيلوس (جزيرة) : 68
تيه : 34 ، 38 ، 47 ، 49 ، 67 ، 211

- ث -

الثنية : 68

- ج -

الجلباية : 145 ، 317 ، 320

- أ -

الأبطح : 178 ، 304 ، 305 ، 342 ، 353 ، 376
الابواء : 66 ، 110
الاحساء : 29
الأردن : 309 ، 342
الأسود (بحر) : 55
الأفرع : 67
أبونيزر (عين) : 263
أبي قيس (جبل) : 340
أجنادين : 144
أحد : 200
أذربيجان : 196
أرمينية : 158
أيلة : 29 ، 32 ، 48 ، 56
أسيا الصغرى : 55
أسيا الوسطى : 55
أبي قيس (جبل) : 340
أجنادين : 144
أحد : 200
أذربيجان : 196
أرمينية : 155
أيلة : 29 ، 32 ، 48 ، 56
أسيا الصغرى : 55
أسيا الوسطى : 55

- ب -

بابل : 61

بشر ميمون : 300 ، 339

البتراء : 29 ، 56 ، 58 ، 64

البحرين : 50 ، 51 ، 68 ، 130 ، 131

خبير : 33، 34، 38، 49، 51، 114، 145، 334

- د -

دابق : 359

دجلة : 57

دجلة : 57

دمشق : 22، 281، 292، 299، 308، 319،

311، 316، 342

دومة الجندل : 47، 67، 68، 70، 192، 204، 206،

دير الجهاجم : 284

- ذ -

ذو الحليفة : 62

ذي خشب : 67

ذي قار : 186

ذي القصة : 130

ذي المروة : 67

- ر -

الربيعة : 209، 319

الرحبة : 67

الرحبة : 67

رضوى : 32، 325

الروثة : 66

- ز -

(بثر)

زمرم : 394، 62، 63

- س -

سمجستان : 371

السد : 68

السرا : 32، 33

سرغ : 67

السقا : 66، 67

سقراء : 68

المقيفة : 9، 12، 120، 121، 122، 123، 124،

الجار : 72، 73، 75، 112، 190، 324

الجحفة : 66

الجد

جدة : 72، 73، 324

جرش : 66

الجرف : 136

جرها : 29، 68

الجزيرة القراية : 51، 319

الجميل : 178، 183، 186، 187، 191، 192، 194،

197، 200، 209، 242، 260، 293، 294، 310

الجنينة : 67

جيحون (غير) : 36

- ح -

الحبشة : وردت كثير ، انظرها في مكانها : 58 ،

59، 61، 72، 81

الحجر : 52، 67

الحديبية : 113، 114، 119، 365

الحديقة : 68

الحجرة : 13، 162، 232، 277، 280، 278،

281، 282، 283، 284، 285، 288، 289، 294،

295، 296، 305، 318، 319، 333، 336، 343،

350، 356، 361، 367، 368، 376

حوراء : 292

حضر موت : 28، 54، 69، 130

حلب : 22

همص : 225، 309، 310، 322، 341

الحمض (وادي) : 25

حتين : 119، 133، 135

حوران : 70

الحيرة : 52، 57، 58، 59، 68، 69، 70

- خ -

الخازر (نهر) : 292، 295

خراسان : 222، 361، 371

الخزر (بحر) : 55

الخندق : 113، 276، 278، 289، 365

-ع-

عدن : 69
العراق : وردت كثير ، انظرها في مكانها .
العرصة : 333
العرض : 68
العروض : 31
عسفان : ٧٦
عسير : ٢٣
العقيق (وادي) : 190, 49, 33
العيص : 67
عين الوردية : 292

-غ-

غزة : 364, 70
غزوان (جبل) : 48
-ل-

لذلك : 33, 38, 114, 334, 360
لارس : 61
الفارسي (خليج) : 55
الفرات : 51, 57, 69, 217, 255
الفسطاط : 164
فلسطين : 41, 43, 70, 196, 225, 228, 321,
242, 323

-ق-

القادمة : 144
القرتين : 68
قديد : 66
قرقيسيا : 317, 318, 319, 323, 232
القسطنطينية : 58, 69, 293, 359
قصيم : 33
القطمطانة : 372
قنسرين : 309, 331, 342
-ك-

كرا (جبل) : 33

128, 130, 131, 147, 149, 150, 153, 155,
179, 233, 246, 271, 280, 289, 290, 292,
363, 366, 376
المند : 371
السواد : 145, 183, 206
سورية : 61
سوسة : 293
السويداء : 67
السويدية : 67
السيالة : 66
السيح : 68
ميلان : 54, 55

-ش-

الشام : وردت كثيراً انظرها في مكانها : 12, 13,
23, 25, 27
الشجيرة : 66
شرقي : 263
شريقة : 68
الشعية : 72, 73

-ص-

صداة : 68
صعدة : 66
الصغد : 55
الصفا (باب) : 342
صفين : 12, 13, 124, 157, 178, 186, 189,
194, 196, 197, 200, 201, 202, 203, 208,
209, 310, 313, 215, 223, 230, 233, 234,
237, 250, 271, 276, 284, 294, 344, 372
صنعاء : 57, 66, 178
الصين : 54, 57, 69

-ط-

الطائف : 14, 31, 33, 38, 39, 41, 43, 50,
61, 70, 74, 99, 100, 103, 112, 137, 225,
230, 233, 240, 296, 297, 299, 325,
326, 338, 339, 373, 374

- ه -

اهنت : 29, 54, 60, 68, 255

- و -

وادي أضم : 33, 75

وادي الباطن : 52

وادي الحمض : 33, 34

وادي الدواسر : 33, 42

وادي الرقة : 33

وادي القرى : 33, 34, 38, 47, 48, 49, 67

75, 114, 2, 1, 338, 334

الوجه : 33

- ي -

يثرب : 31, 34, 38, 39, 40, 41, 44, 45, 47

48, 49, 61, 66, 67, 72, 73, 74, 75, 80, 99

100, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107

364

اليرموك : 293

اليامة : 31, 42, 51, 52, 53, 68, 131, 184

208, 258, 343

اليمن : 28, 29, 30, 31, 34, 39, 41

42, 43, 44, 50, 51, 59, 61, 62, 65, 67, 68

69, 70, 75, 76, 77, 78, 80, 81, 82, 84, 88

100, 112, 130, 137, 181, 193, 206, 343

364, 372

يشيع : 190

اليونان : 28

كربلاء : 254, 257, 274, 280, 296, 297

302, 303, 368

الكعبة : 7, 36, 61, 299, 301, 302, 315

340, 341, 368

الكوفة : 52, 68

- ل -

لوكي كومي (مرقا) : 63

- م -

مأرب (سد) : 63

المحدثنة : 67

ملين (جبل) : 32

المدينة : وردت كثيراً ، انظرها في مكانها

مرج وأعط : 284, 312, 315, 316, 317, 318

323, 344

المروة : 342

مصر : 55, 57, 70, 77, 157, 169, 170, 171

177, 190, 210, 222, 225, 226, 228, 293

320, 321, 323, 324, 361, 364, 372

المغرب : وردت كثيراً : 221

مؤته (غزوة) : 114

- ن -

نجد : 33, 47, 48, 50, 53, 65, 137

نجران : 28, 42, 52, 59, 68, 77, 215

الندوة (دار) : 85, 86, 103, 105, 365

النهر وان : 205, 207

كتب صدرت للمؤلف

- 1 - تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد ، بالاشتراك مع د . سهيل زكار . دار الفكر 1974
- 2 - التوابون ، الطبعة الأولى دار التراث الاسلامي 1975 ، الطبعة الثانية دار التعارف 1978 ، صدرت ترجمة له بالقلوسية لكريم زماني ، انتشارات حكمت - طهران
- 3 - الدولة العربية في اسبانيا ، من الفتح حتى سقوط الخلافة . الطبعة الأولى دار النهضة العربية 1978 ، الطبعة الثانية دار النهضة العربية 1980
- 4 - ملامح التيارات السياسية ، في القرن الأول الهجري . الطبعة الأولى دار النهضة العربية 1979 ، الطبعة الثانية دار النهضة العربية 1982
- 5 - الدولة الأموية والمعارضة ، مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي قان قلونن . الطبعة الأولى دار الحداثة 1980 .
- 6 - الحجاز والدولة الاسلامية ، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، 1982
- 7 - حركة التوابين ، دراسة في الاتجاهات الشيعية المبكرة يصدر قريباً .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	7
كلمة في المصادر	17
الباب الأول : الحجاز قبل الاسلام	
الوضع الجغرافي - السكاني والتطور الاقتصادي	25
التكوين الجغرافي	27
التكوين السكاني	35
التكوين الاقتصادي	54
الصراع السياسي وتطور السلطة في مكة قبل الاسلام	83
الباب الثاني : الحجاز الراشدي	
من دولة المدينة الى دولة عمر : البدايه والنموذج	97
تكوين الدولة الاسلامية في الحجاز	99
سقطت مكة وسادت قریش	117
الدولة والبداية الحجازية	129
الحجاز والفتوح	135
الحجاز بعد عمر	152
الحجاز عشية انتقال الخلافة الى الكوفة	175
الحجاز وصفين	189
الباب الثالث : الحجاز السفیاني . المواجهة والتحدى	
الحجاز ومعاوية	219
الحجاز ومحاولة استرداد السلطة	221
ثورة المدينة - المحاولة الأولى	250
الأوضاع للمستجدة في الحجاز والشام بعد وفاة يزيد	270
الحجاز والمستجدة في الحجاز والشام بعد وفاة يزيد	309
الباب الرابع : الحجاز المرواني ، الاحتواء والتبعية	
الحجاز المرواني ، الاحتواء والتبعية	313

315	سقوط ابن الزبير ، وسياسة الاحتواء (الاستتباع) المرواني الحجازي ...
343	الحركة الزيرية : نظرة وتقويم
349	سياسات بني مروان الأوائل في الحجاز
363	خاتمة
	ملاحق
369	1 - الحجازيون في الادارة الاموية
371	2 - ولادة الحجاز في القرن الاول
373	3 - من الأحداث الحجازية البارزة في القرن الاول
375	خرائط
379	المصادر والمراجع
399	فهرس الاعلام
407	فهرس القبائل والبطون
409	فهرس الأماكن

الحجاز والذروة الإسلامية

كان قيام دولة الأمويين صدمة للحجاز الذي سقط عملياً من معادلة النظام الجديد ، بعد أن حلّ توازن العصبية محل توازن التيارات في القاعدة الإسلامية المتداولة حتى عهد عمر . ذلك أن معاوية - عبر الطرح المبكر لمسألة الخلافة وانطلاقاً من منظوره الأموي العصبوي وعن « احاطة » الله لقريش ، كونها جامعة النبوة والخلافة « الى جانب تراث ما قبل الإسلام - سعى الى وراثته سلفه الأموي في السلطة (قرابة الدم بالنسبة لعثمان « الخلافة » و وفاة يزيد أخيه « الولاية » قبل ذلك) . . . ومن هذا المنظور ، خاضت الشام من موقع المعارضة ، معركة « الشرعية الأموية » ضد « شرعية الشورى » ومعها الرأي العام القرشي ، دون أن تتمكن الكوفة من مجاراتها على الرغم من قرشية الخليفة . فكان لا بد أن ينتهي بالحسم ، انتصار فريق على فريق ، بعد انتهاء مفعول تلك المعادلة الفريدة ، التي كانت تؤدي الى انتصار احدهما دون هزيمة الآخر ، بحيث كانت آخر ملامحها في حركة البصرة التي حاولت طرح نفسها بديلاً وسطاً بين المدينة (الراشدية) والشام (الأموية) .